السير وليم وورد ثورب تارن

الحضارة الهللينستية

ترجمة

عبد العزيز جاويد

مراجعة

زكي علي

الكتاب: الحضارة الهللينستية

الكاتب: السير وليم وورد ثورب تارن

ترجمة: عبد العزيز جاويد

مراجعة: زكي علي

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ثورب، تارن، وورد

الحضارة الهللينستية / السير وليم وورد ثورب تارن، ترجمة / عبد العزيز جاويد، مراجعة / زكي علي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٣٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٤١٦ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٧٧٢٨ / ٢٠٢١

الحضارة الهللينستية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

التعريف بالكتاب ومؤلفه

١. ظهر هذا الكتاب بالانجليزية في ١٩٢٨ وطبع عدة مرات ثم ظهرت طبعته الثالثة المنقحة عام ١٩٥٣ وتوالت طبعاته بعد ذلك.

٢. والمؤلف هو السير وليم وود تورب تارن.

ولد بإنجلترة عام ١٨٦٩.

وتوفي في عام ١٩٥٧.

تعلم في كلية إيتون وتخرج في ترينيني كولدج.

وحصل على شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة كامبريدج.

وعلى دكتوراه الآداب مع درجة الشرف من إدنبرة.

٣. مؤلفاته:

الحضارة الهللينستية (١٩٢٨) وكذلك.

Hellenistic Military&Naval Developments (1930)

فضلا عن عدة مقالات و بحوث في تاريخ كامبريدج القديم ج ٦، ٧، ٩، ١٠

Can. A n. His,

ومن أشهر كتبه "**Alexander The Great**" في جزئين (١٩٤٨).

وكتاب **Rome In European Inheritance&Greece** ج-١ (١٩٥٤).

٤. وساعده في إصدار الطبعة الثالثة الانجليزية المنقحة التي ترجم عنها الكتاب الأستاذ ج، ت. جريفث الأستاذ بجامعة كمبريدج.

كلمة المترجم

يقترن هذا الكتاب بذكرى شخصية عزيزة علينا وعزيزة على العلم والتاريخ، في ذكرى أستاذنا العالم المرحوم مُحَمَّد شفيق غربال الذي فقدت مصر فيه مؤرخها الأول إذ بفضله شهد هذا الكتاب النور رغم إشفاقه –رحمه الله على القارئ، العام من دسامة مادته وجزالة موضوعه. وبفضله يتيسر لنا الآن أن نقدم لطلاب الجامعات بين دفتي "الحضارة الهلينستية" كتابًا علميًا غزير المادة لاشك أنه سيسد فراغا في المكتبة العربية.

ونظرة واحدة إلى الكتاب نبين الروابط الفكرية والأخلاقية والثقافية التي تربط بين عالمنا والعالم الهللينستي، ذلك أن رواسب هذا العالم القديم لا تزال راسخة في عقول الكثيرين من أفراد وشعوب الشرق. وأبسط دليل على ذلك: الاعتقادات الشعبية في التنجيم والطوالع والسحر والعرافة، فضلا عن كثير من النزعات والتقاليد والعادات الشائعة.

والحقبة الهللينستية –كما تبين من الكتاب – تغطي القرون الثلاثة التي أعقبت وفاة الإسكندر وحملاته، ومسرحها هو منطقتنا من بلاد الشرق الأوسط التي تعد ليبيا واليونان والبلقان جزءًا منها.

ومن المعلوم أن تلك الحقبة قامت فيها حركة حضارية، وهو أم لاختلاف فيه أحد من المؤرخين – ولكن الأمر الذي يدور حوله النزاع ويشتد هو دور الإسكندر وحملاته في بذر بذور تلك الحركة. فمنهم من يقول بأن تلك الحركة كانت نتيجة لخطة مرسومة وضعها الإسكندر ومن قبله أبوه فيليب – ومنهم من ينكر على الإسكندر ذلك جملة وتفصيلا – ومنهم من. يقف موقفة وسطا بين بيّن.

ومما يذكر لهذه المناسبة ما قاله الكاتب الإنجليزي هـ. ج، ولز في الفصل الذي عقده عن الإسكندر في كتابه **The Outline of History** [1] حيث ذكر أن كثيرا من المؤرخين محلو لهم أن يطلقوا خيالهم العنان وأن ينسبوا إلى الإسكندر أنه فكر في فعل كذا ووضع خطة كذا وآمن بكذا. وهي أقوال يرى ولز أنه ربما لم يقم عليها، دليل. ومهما يكن من شيء فإن حملات الإسكندر أحدثت في الشرق نهضة كبيرة ودعوة تقدمية، نهضة استنفرت بلاد اليونان إلى تجميع علوم أو إليها وتنظيمها وتبويبها والزيادة عليها. وهي الحركة والحقيبة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها

(1) وقد ترجمه كاتب هذه السطور إلى الحرية باسم "معالم تاريخ الإنسانية" "لجنة التأليف والترجمة والنشر".

بالهللينسينية. فقامته النهضات العلمية والفلسفية والحركات الدينية طوال تلك الحقبة الهلينستية وظهرت مجموعات ضخمة من الفلاسفة والعلماء والمفكرين.

وبفضل هذه الهللينستية ومن برز فيها من الرجال وما عمها من روح، أقبل الناس من جديد على دراسة أعمال معلمي اليونان القديمة فقاموا يبحثون عنها و يجمعونها ويدرسونها. فالهللينستية هي التي صانت لنا الأدب اليوناني القديم بما فيه من ملاحم وكوميديات وتراجيديا فضلا عما حوى من فنون الشعر وألوانه، وهي التي حفظت أرسطو وأفلاطون من الضياع.

ولم تقتصر الهللينستية على جميع حضارة اليونان القديمة فحسب بل إنها جمعت حضارات غيرهم من الأقدمين وصانتها من الدمار.

ومُنذ اللحظة التي ظهر فيها الإسكندر سرت في تربة هذه المنطقة روح جديدة قربت بين شعوبها وانتشرت فيها، كما تغلغلت بين مختلف شعوبها بفضل اللغة اليونانية هي روح تفاهم كانت أساسية لشبه وحدة ثقافية حضارية، عامة اعتنقتها شعوب المنطقة ومهدت السبيل لتلك الوحدة الثقافية والدينية العامة والترابط الحضاري الشديد الذي فرضه الإسلام ولغته العربية من المحيط إلى الخليج بقوة حملت شعوب ذلك النطاق على نبذ لغاتها الأصلية واتخاذ لغة القرآن لسانا وهو الشيء الذي لم تحققه حملات الإسكندر ولا حكم خلفائه ومن جاء بعده من يونان و رومان وبيزنطيين.

وطريقة الكاتب في الكتابة هي البحث بتعمق شديد وتركز بالغ مع الإنجاز الذي يكاد يبلغ حد الاقتضاب أحيانا، ذلك أن المؤلف شاه لغزارة علمه أن يكدس فيه – في أضيق الحدود – أكبر قدر ممكن من المعلومات، ثم عاد فأضاف إليه في طبعته الأخيرة مجموعة ضخمة من المراجع والهوامش.

تصدير للمراجع

بين طيات هذا الكتاب الفذ فصول عشرة، تضم موضوعات قد يبدو لن يتصفحها – لأول وهلة أن بها شيئا من النار أو التنافر من حيث رءوس الموضوعات المختارة لفصول هذا الكتاب وأبوابه ثم الإغراق في ذكر. التفصيلات إلى حد الإسهاب أحيانا. ولكن هذه الموضوعات في واقع الأمر تؤلف في مجموعها وحدة متكاملة مترابطة، بل وتعطي في النهاية صورة قشيبة بها أطرف اللمحات عن مظاهر الحياة الإنسانية في ظل تلك الحضارة الهلينستية. الفريدة. ذلك أنها تكشف لنا عن شتى المناحي والألوان في ضروب من الحياة – التي عاشتها شعوب كثيرة من بلاد الشرق الأدنى وجزء ضخم من الشرق الأوسط طوال حقبة تربي على ثلاثة عام قبل الميلاد. وقد جاءت تلك الصورة على نحو أخاذ، تجلت فيه الروعة والجدة وحسن الأداء.

ولعل من عناصر تلك الروعة والجدة أن هذه الحضارة اجتاحت بلاد الشرق في ركاب حملة عسكرية ضخمة شنها قائد عظيم هو الإسكندر الأكبر وهو في ريعان شبابه (سن التاسعة عشرة)، وكانت ألوية النشر والحظ (**Fortuna:Tycbc**) تلاحقه في كل مكان وترفرف عليه بها لأنها حينها ذهب. وفوق ذلك فان تلك الحضارة سادت وعمت أرجاء الشرق الأدنى برمته و تغلغلت بصفة خاصة في مناطق فسيحة منه، كان البعض منها حساسيته وإستراتيجيته الحاكمة، ولم تكن هذه الحقيقة الأخيرة لتغيب عن رعي اليونان والرومان. إنهم على التعاقب أدركوا مالها من أهمية وأولوها كل تقدير: ولدينا على سبيل المثال فيا كتبه المؤرخ الروماني تاكيتوس خير شاهد على الأهمية التي بلغتها مصر وهي واحدة من بلاد الشرق الذي اجتاحته جيوش الإسكندر. إذ نوه بمركزها الجغرافي الفذ فقال جملته المأنورة: "مصر مفتاح البر والبحر"

"**Aegyptian claustra terrae et maris** ثم أكدت الأحداث المتعاقبة على مصر في شتى العصور صدق قول هذا المكاتب الروماني وحسن فراسته وتقديره.

خرجت من البلقان و بلاد اليونان وجزرها المنتشرة في بحر إيجة تيارات تحمل ألوانا من تلك الحضارة الهللينستية وأخذت تنتشر في أرجاء آسيا الصغرى و بلاد ما بين النهرين و فارس وسوريا وفلسطين ومصر – وهذه – كلها بلاد كانت على مضى الزمان ملتوى تيارات فكرية ومهبط

حضارات عريقة وبواتق انصهرت فيها تلك الحضارات. وكان من حسن الطالع أن قامت وسط تلك الحضارات دول – مدن يونانية، انتشرت في أرجاه هذه المنطقة الفسيحة من الشرق الأدنى، وكان قيام بعضها تلقائيا أو بحافز من المؤسسين لها: الأسباب ودوافع متباينة. و لكن أغلبها أو بالأحرى سبعة عشر منها على الأقل يرجع تأسيسه إلى الإسكندر نفسه الذي أراد الأخذ بيد هذا الشرق وتوحيده، وطبعه بالطابع اليوناني. واختار أن تكون وسيلته لتحقيق ذلك تأسيس المدائن على أوسع نطاق، لتكون بنظمها وأسلوب الحياة التقليدي والمرعية في كنفها بمثابة مناطق إشعاع ضخم يهدى الناس وينير لهم سبل الحياة الحضارية الجديدة. وعلى أثر ذلك قامت انتفاضات متعاقبة، أخذت تبعث في قلوب الناس روحة جديدة في عصر شهد من الأحداث أضخمها.

كان من أولى تلك الأحداث الجسام ظهور دولة مقدونيا نفسها وهي تطل على الساحل الشمالي من بحر إيجة (بحر الأرخبيل). خرجت من دور التفكك الذي رميت إبانه بالعجمة والهمجية بالنسبة لبقية اليونانيين وأخذت تردد دعواها و نداءها على عهد فيليب الثاني والد الإسكندر الأكبر بأنها نصيرة اليونان والعاملة على تجريد حملة مشتركة شعواء على دولة الفرس.

وثاني تلك الأحداث الجسام تقويض دولة الفرس على يد الإسكندر ونقلص سلطانها وتخليص بلاد كثيرة من الشرق الأدنى مما كانت قد عانته من سيطرة الفرس وسلطانهم.

وهكذا استقبل الناس والشرق عهدا جديدا بمقدم الإسكندر وحياة عرفت مُنذ ذلك الحين بالهللينستية، تمييزا لها عن الحضارة اليونانية العريقة وهي الهللينية الصميمة. وكانت تلك الهلينستية خليطا من عناصر هللينية، مشوبة بأخرى شرقية بين أسيوية وإفريقية ومصرية. وقد قدر لتلك الحضارة الجديدة.

تعد بالمئات، رأت إدارة الثقافة التجاوز عنها حتى لا ترهق بها القاري، العربي غير المتخصص.

والواقع أن الكتاب يعطي صورة واضحة متكاملة للحقبة والمنطقة. فبفضله بل القاري، بتاريخ مصر في عهد البطالة، وبتاريخ سوريا في عهد السلوقيين إلى غير ذلك من بلاد الشرق الأوسط والأدنى، فضلا عن أحداث بلاد اليونان مع إحاطة واسعة بالحركات والتفاعلات الفلسفية والأدبية والدينية الأمر الذي عرض له الأستاذ المراجع في تصدره بالتفصيل الوافي.

وتاريخ هذه الحقبة غامض في أذهان كثير من أبناء العربية الذين آلت إليهم هذه الأرض بعد أن غزاها اليونان والرومان مدة تربو على الألف سنة ما أصابوا كثيرا ما كان عليها من إرث فكرى وعلمى

وثقافي.

وقد حرصنا على تزويد الكتاب بالخرائط التي زودت بها الطبعة الإنجليزية الأخيرة و أضفنا إليه فهرسة أبجدية ليسهل على القاري، الرجوع إلى ما يريد من مواده..

وإني لأرجو أن يجد قارى. هذا الكتاب المتعة التي وجدها في كتابي والحضارة البيزنطية و لستيفن رانسيمان، "وحضارة الإسلام" لجرونيباوم، وهما الكتابان اللذان أسعدني الحظ بنقلهما إلى العربية.

كما آمل أن يتهيأ للقارئ العربي المثقف الذي لم تسعفه الظروف مطالعة الكتابين السابقين – أن يقرن بينها جميعا حتى تتكامل لديه بالحضارة الهلينستية صورة مشرقة لحضارة الشرق الأوسط مبتدئة من الأصول بالغة القدم عند اليونان، إلى الفروع والثمار: باذخة الذرة التي تجلت فيها صورة حضارة العرب والإسلام.

ومن الله نستمد التوفيق والرشاد،،

عبد العزيز توفيق جاويد

أول نوفمبر ١٩٦٦

أن تسود أرجاء الشرق وتنتشر في ربوعه، وأن يقبل الناس في كل مكان. على المضي في تيارها والأخذ من خيراتها بنصيب.

وساعد الملوك والحكام ممن خلفوا الإسكندر على السير في ركب تلك الحضارة الجديدة. فأسسوا جميعا المدن اليونانية في بلادهم، أسوة بما كان يفعله الإسكندر و تبريرا لادعاهم بأنهم خلفاؤه. وبينما نوسع السلوقيون في آسيا والشام في هذا المضمار، إذا بالبطالة في مصر يحجمون، فكان نصيب مصر أقل القليل من حيث تأسيس المدن. على أن مصر البطلمية كانت بين هذه الدول سباقة في أكثر من مضار آخر وسارعت إلى تذوق شتى ألوان تلك الحضارة الهللينستية.

وهذا الكتاب الذي خوي بين دفتيه ألوانا شتى من تلك الحضارة يمتاز بأن مؤلفه وهو السير تارن، مؤرخ بارع وعالم ضليع في الدراسات الكلاسيكية واليونانيات منها بوجه خاص، وفضلا عن ذلك فقد عاش حقبة من عمره في بلاد الشرق وجاب أقطاره وأمصاره، فتعرف على أحواله وطبوغرافيته إبتداء من الهند حتى العراق وآسيا الصغرى وسوريا. وهكذا أتيح له من الفرص ما ساعده على أن يجمع حصيلة ضخمة من المعرفة الوثيقة عن بلاد الشرق القديم وتراثه. ومكنه هذا من استيعاب ما وقع تحت بصره ما ساقه المؤرخون والجغرافيون القدامى من أخبار هذه البلاد وأوصانى شعوبها وأحوالهم، وتوافر له حظ كبير من المعرفة بفضل ما أتيح له من الإطلاع على مجموعات من أوراق البردي وموسوعات النقوش اليونانية واللاتينية – مساعده كل ذلك على تصنيف كتابه هذا والإلمام فيه بجوانب كثيرة وجميع أشتات من المعرفة. وقد استطاع أن يحيط بموضوع الحضارة الهلينستية في فصول هذا الكتاب وأن يربط فيه بين الأحداث التي جرت في آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر وما توالى عليها من دول متعاقبة. وأفرد لكل بلد من هذه البلاد فصلا أما بذاته، ثم تعمق في التعرف على التيارات الفكرية والفلسفية التي رفدت على هذه المنطقة. و بلغ في هذا الجهد حد استيعاب العناصر الأساسية في هذا الموضوع والإحاطة بأطراف كبيرة منه في قدرة زراعة. فكان يتحو نحو الإنجاز والتلميع أحيانا إلى أمهات المسائل التي قد تجول بخاطر الباحث المدقق، ولكنه لم يغفل الإشارة إلى كثير من البحوث الجديدة، والآراء الحديثة في شتى الموضوعات في ضوء ما كشف من أوراق البردي وما أثير حول البعض الآخر من مختلف النظريات والآراء. نمر كل هذا دون إخلال بالفكرة العامة التي كانت هدف المؤلف ودى بيان وتوضيح ما جلبته تلك الحضارة الهلينستية إلى بلاد

الشرق الأدنى من آراء وفكر وما أدخلته في ربوعه من مشروعات واستحدثته من نظم إدارية وغير إدارية. وبذلك قدم لنا المؤلف صورة رائعة لما أسهمت به كل بلد من تلك البلاد و مبلغ ما بذلته من جهد في هذه الحركة الحضارية وما اكتسبته من خبرات على أيدي. أولئك اليونانيين والمقدونيين الوافدين كالسيل المنهمر على ربوع الشرق عامة وعلى سوريا ومصر خاصة.

ولا يمكن أن ينتقص من هذا التقريظ ما يعاب على المؤلف من أنه آثر في: بعض الأحيان التعمق في موضوعات بدون أخرى وأنه نحا نحو كانت بغيته فيه أن يزود القارى، بشتى التفاصيل عن موضوعات عابرة من صميم: الفلسفة والدين والأدب و فنون العمارة وأعمال التجارة وحركات الاستكشاف وغير ذلك من ألوان المعرفة وعناصر الحضارة.. فتلك أمور كان يتطلبها مقتضى الحال ويستلزمها تشعب الموضوع وحالة الشمول التي تضمنها كلمة الحضارة في حد ذاتها. ولما كان من المسير الإلمام بأطراف موضوع شعب كهذا، نظرا لان التيارات في هذه المنطقة وفي هذه الحقبة بالذات، متداخلة ومتلاطمة وعدائية في بعض الأحيان، فإن الأمر يتطلب شيئا من الصبر والأناة حتى: نستبين لعين القاري العادي عناصر الموضوع برمته.

ولئن كان المؤلف قد تحاشى أن يخوض في موضوع روما وجمهوريتها الناشئة، فإن أثر قيامها كان ملحوظا في سياسة دول الشرق.

على أنه كان من حسن حظ الحضارة الهللينستية أن روما تعمد إلى إزاحة النفوذ اليوناني واقتلا ع جذور الثقافة اليونانية من طريقها وطمس معالم تلك الحضارة العريقة ومظاهرها الهللينستية المتأصلة في هذه المنطقة، وما كان في وجمع روما أن تجتث معالم تلك الحضارة من ربوع هذه المنطقة، ولذا استسلمت للأمر الواقع وتركت اليونان ينشرون ثقافتهم. ويجولون ويصولون في... بلاد الشرق.

والآن نعود لتفصيل بعض ما جاء في هذا الكتاب من جزئيات و ماعز ض له المؤلف من تفصيلات. إنه في سبيل تمكين القارئ من الإحاطة بموضع مترامي الأطراف والتعرف على مناهج الحضارة الهلينستية ومناطق نفوذها. أن يقدم لكتابه بتمهيد تاريخي مستفيض، فعرض لنا تاريخ كل من مصر النظامية وسوريا السلوقية في إطار معقول، مبينة ما كان بين الدولتين الجارتين من علاقات ودية حينًا وعدائية أحيانا أخرى، وذكر المؤلف في ثنايا ذلك تاريخ اليهود في فلسطين وعلاقتهم بالحضارة الهللينستية — ثم عرض لتاريخ آسيا الصغرى وبابل ومنطقة أرض الجزرة وما احتاجها من تيارات غابرة من الشرق والشمال والغرب، خلقت بها آثارا لا تمحى فيما أقامته من مدن وما جلبته من فكر وما

تركته في عقول الناس من روح التجديد والتوجيه.

ولم ينس المؤلف أن يخصص شطر لا بأس به، يمثله الشق الأخير من كتابه أفرده. لفصول ممتعة عن موضوعات متفرقة منها عيون الأدب من التراث اليوناني واللاتيني ومنها الفلسفة والمذاهب الفكرية التي سادت في هذه المنطقة، ثم الديانات ومختلف الأمة التي كانت تعيد في صور وأشكال متباينة وقد أوضح لنا المؤلف: كيف تداخلت تلك الآلة وتقارب وتألف منها في بضر مثلا ملغمة من الديانات الوثنية على حد يقول بير هارولد إدريس بل في كتابه. عن "العقائد والديانات. في مصر اليونانية الرومانية"، الفصل الأول.

وعلى الجملة فقد وفق المؤلم أنها توفيق في: إدارة النيل التفهم الأسس التي قامت عليها بتلك الحضارة وما حرفته في عمارها من حياة الشعوب النازلة. في هذا الجزء من نار الشوق القديم فغيرته وبدلته، وقد عدد ما أقامته من نظم بديلة. وما قدمته من مظاهر وما أدتة من خدمات عن طريق التبويب والترقيم وحفظ تراث الأدب الكلاسيكي فكان هذا العمل الجليل حسنة من حسنات الحضارة الهللينستية، ولها الفضل كل الفضل فيما أدتة للعلم والإنسانية جمعاء في عصورها المتعاقبة من خبز ومما حفظته من تراث.

القاهرة في ١٢ يوليه ١٩٦٦

زكي علي

أستاذ التاريخ القديم —كلية الآداب بجامعة القاهرة

ورئيس قسم التاريخ بها سابقًا

مقدمة الطبعة الثالثة

عندما صدر هذا الكتاب لأول مرة في ١٩٢٧ أسميته "محاولة للحصول على صورة عامة لحضارة العصر الهللينستية"، وهي مدة اشتد إهمال العلماء البريطانيين لها في ذلك الوقت. وقد اضطررت حتى في عام ١٩٢٧ نفسه– رغبة في وضع العمل في حدود معقولة – إلى حذف موضوع اليونان في الغرب (إيطاليا وصقلية) وإغريق الشرق الأقصى (باكتريا والهند)، فأما حدود الزمان التي التزمتها، فهي الفترة التقليدية الممتدة من عام٣٢٣ ق.م (أي تاريخ وفاة الإسكندر) إلى ٣٠ ق.م (أوغسطس)، أما المكان فهو العالم الممتد بين البحر الأدرياتي والصحراء الفارسية بما في ذلك مصر: ثم ظهرت في ١٩٣٠ طبعة أخرى أضيفت إليها الهوامش وبضع إضافات قليلة، وظلت تلك الطبعة تتداول من ذلك التاريخ. وفي الحين نفسه ظهرت في كثير من اللغات طائفة ضخمة جدًا من الدراسات الخاصة والبحوث ذات الموضوع الواحد تتعلق بتلك المدة، فضلا عن المكتشفات الجديدة، ولا أن أصبحت الحال تتم بشدة ظهور طبعة ثالثة منقحة من هذا الكتاب، حالت الحرب دون ذلك. على أن محاولة الحصول على صورة عامة في حدود معقولة، وهو الغرض الذي لازال نهدف إليه من الكتاب - زادت عند ذلك عمر على عسر. ومن الأعمال المطولة الشاملة التي يستطاع الحصول عليها الآن في الإنجليزية كتاب " تاريخ العالم الإغريقي من ٣٢٣ إلى ١٤٦ ق.م). (١٩٣٢) للأستاذ م. كاري، فضلا عن الفصول المرتبطة بالموضوع والمنشورة في «تاريخ كمبردج القديم» C.An.History (الفصول ٦ – ١٠)، التي تغطي الموضوع وجميع البلاد عدا الشرق الأقصى؛ والكتاب الفخم الذي ألفه العلامة م.روستوفترف وأسماه "التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعالم الهللينستي" (٣ مجلدات ١٩٤١)، وهو يستوعب كل الاستيعاب المادة التي يدرسها.

وفي هذه الطبعة من كتابتنا "الحضارة الهلينستية" شطر عظيم لم تمسه اليد. بالتغيير، على حين أن قطعة كبيرة منه قد نقحت أو أضيف إليها أو أعيد صوغها أو بدلت تبديلا، رغبة في محاولة جعله متمشيا مع التقدم العلمي إلى حد ما، ومن ثم الكتاب الذي بين يديك طبعة جديدة وليس كتابة جديدة بأي معنى من المعاني.

وقد حالت الظروف دون قيامي بهذه الطبعة بمفردي، ولكن كان من حسن حظي أن نفضل

بالتعاون مع المستر. ت. جريفيث، الذي تحمل "العبء الأكبر" من الجهد كله ورفع عن كاهلي النصيب الأكبر من العمل، وهو وضع أراني إزاءه مدينة له بأعظم آيات الشكران. ونحن على وجه الجملة. متساهمان في تبعة الحقائق التي يضمها الكتاب، ولكن هناك حالات استثنائية: فالستر جريفيت مثلا لا يوافقني على الآراء التي عرضت لها في الفصل الثاني حول مسألة اشتد فيها الجدل والنقاش بين أهل الرأي، وهي الدوافع التي دعت إلى تأليه الإسكندر في حياته. ويفضل أن يرجى الحكم على مسألة تصور الإسكندر الفكرة الأخوة البشرية (أول الفصل الثالث. و فضلا عن ذلك، فإن الكتاب على ما كتبته في١٩٢٧ كان عملا شخصيًا بحتًا، تحدثت فيه بضمير المتكلم بوفرة إلى حد ما، وبعد إعطائنا الأمر حقه من الأمل والبحث عولنا على أن يظل هذا الوضع على حاله، وإلا أصبحنا نقدم في ثوب الحقائق ما ليس إلا تفسيري الشخصي لتلك الحقائق، أو للتخمينات إن شئت، وزميلي في الممل غير مسئول بطبيعة الحال عن تأويلات الشخصية للأمور. وقد انتقل إلى دار البقاء معظم العلماء الذين عبرت عن امتناني لهم في طبعة ١٩٢٧، بيد أني أرى من الواجب تقديم الشكر للأستاذ العلامة أ. د: توك بجامعة هارفارد لما قدم لنا من مساعدة كريمة في نقاط معينة في القسم المنقح عن الديانات.

ويهمنا أن نقدم الشكر السادة إدوارد أرنولد وشركاءهم على تفضلهم بنشر هذه الطبعة الجديدة وعلى محافظتهم على حياة طبعة ١٩٣٠ بمعاودتهم طبع الكتاب من جديد بين الفينة والفينة، ونود بوجه خاص أن نعبر عن شكرنا للنستر ب، و. فاجان على الاهتمام والمساعدة التي أولاها إيانا في أثناء إعداد هذه الطبعة، وخاصة. فما يتعلق بالخرائط، التي هي ظاهرة جديدة في الكتاب.

و. ر. تارق

عن ميورتون هاوس بأنقرنسى

متصفه صيف ١٩٥١

الفصل الأول

خلاصة تاريخية

الغرض من هذا الكتاب تقديم خلاصة موجزة نشكل صورة تخطيطية الحضارة القرون الهلينستية الثلاثة الممتدة من وفاة الإسكندر في عام ٣٢٣ ق.م إلى قيام الإمبراطورية الرومانية على يد أوغسطس في عام ٣١ ق. م[١]. ومن البديهي أن هذه الحدود إن هي إلا شي. وضعي بحث، وذلك أن بذور بعض مظاهر الروح الهلينستية تبدأ في الظهور قبل الإسكندر، كما أن أوغسطس لا يمثل في بعض النواحي أي تفاصيل حقيقي بين عهدين. غير أن هذه الحدود تقوم جو كد حقيقتين: أولاهما أن الدوافع الخلاقة التي تمخضت عنها سيرة الإسكندر وحياته لم تترك ألبتة شيئا. على حالة الأولى، وثانيهما أنه بعد أن سقط العالم الهللينستي سقوطًا نهائيًا بين أطلال الدمار الذي خلفته الحروب الأهلية الرومانية، بدأ ينهض من جديد في عهد الإمبراطورية على أسس مغايرة، فأصبحت الحضارة بذلك ذات طابع إغريقي روماني. وفي جميع فصول هذا الكتاب تعتبر روما والتاريخ الروماني من الأمور المسلم بها. وكل ما يعنينا أن نلمس بأيدينا الروح الهللينستية وطابع ذلك العالم الذي تكشف للجمهورية الرومانية عند ما توغلت شرقا.. فان تلك الجمهورية عند اتصالها الحضارة الهلينستية كانت على النقيض من الإمبراطورية – لا تعدو أن تقبل ما يعرض لها، ولم تكن بلاد الإغريق التي علمت روما هي بلاد الإغريق العريقة بل الحضارة الهللينستية المعاصرة، وبقدر ما تقوم الحضارة الحديثة على دعائم من المدنية الإغريقية، إنها إنما تقوم. قبل كل شيء على الحضارة الهللينستية.

والآن ماذا تعني لفظة الهلينستية [٢]. ذلك ما اختلف فيه الثقات. فمن قائلها ثقافة جديدة مركبة من عناصر يونانية وشرقية، و من نائل إنها عبارة عن امتداد الثقافة اليونانية إلى الشرقيين، من قائل إنها استمرار للنهج القويم الذي كانت تلتهجه الحضارة الإغريقية القديمة، وعدا هذا فهناك من

(١) جمع التواريخ والقرون التي في الكتاب من أوله لآخره قبل الميلاد، ما لم نص صراحة على غير ذلك.

(٢) تستخدم في الإنجليزية لفظة (Hellenism) رغم خروجها على قواعد القياس والاشتقاق بدلا من لفظة (Hellaiatician) لأن ذلك ما جرى به العرف في الاصطلاح التاريخي لصعوبة الكلمة الثانية، ولأنه قد فات أوان صوغ بديل عن الأولى في اللغات الأجنبية، فأما في العربية فقد استعملنا لفظي الهللينستي والهللينستية.

يقول أنها هي نفس تلك الحضارة منقحة بفضل ما أحاط بها من ظروف جديدة [١]. وما من ريب أن جميع هذه النظريات تحتوي على نصيب من الحقيقة، ولكن ليس منها ما يمثل الحقيقة برمتها. وكلها غير صالح، ولا يستقر العمل به إذا ما تناولنا التفاصيل، كقولهم (مثلا) إن الرياضيات الهلينستية كانت يونانية صرفة، على حين أن الفلك و هو شقيقها كان علمًا يونانيًا بابليًا. ولا بد لنا التعرف على صورة حقيقية لتلك الحضارة من إلقاء نظرة على جميع الظواهر، وعندئذ يتجلى لنا أن الهلينستية ما هي إلا عنوان مناسب للدلالة على حضارة تلك القرون الثلاثة التي كانت فيها الثقافة اليونانية تسطع بأضوائها بمنأى من أرض الوطن الأصلية [٢]، ولن يستطيع تعريف عام أن يغطي كل هذه المعاني. وفضلا عن ذلك، فان هذه القرون الثلاثة تمثل من بعض النواحي طورين من أطوار الحضارة لاطورًا واحدًا: الطور الأبكر الذي يتسم بالابتداع الخلاق في بروج العلوم والفلسفة والأدب والنظم والأوضاع السياسية للدول، عدا أشياء أخرى كثيرة اضطلع بها مالم إغريقي مقدونى مستقل حين مد ألوية حضارته على آسيا. والطور الأخير يتميز بذلك الكلل الذي أصاب الدافع الخلاق، والإعياء الذي اعترى تلا الروح الإنشائية الخلاقة كما يتميز بظهور رد الفعل الروحي والنادي المنبث من الشرف ضد الغرب، وذلك بينما كان العالم الإغريق المقدونى محصورة بين رد الفعل" ذلك من ناحية وبين روما من ناحية أخرى.حتى لقد اضطرت روما في آخر المطاف، وقد ذعرت نظام الدول الهلينستية، أن نحل محلها بوصفها حاملة للواء الثقافة الإغريقية. وليس في الإمكان على الدوام، فهل هذين الدورين فضلا قاطمة، ولكن معالم التطور في أي أمر معين نصبح أيسر فهما إذا وضع التميز الإجمالي المذكور أعلاه نصب الأعين. ومع هذا فان هناك نواحى كثيرة كانت فيها الحقيبة الهللينستية تؤلف بالفعل كلا متماسكا. وسنلقى عليها بهذا الوصف نظرة عجلى.

كان عالم الهلينستية قد مسته يد التغيير واتسمت آفاقه. ومع أن الروح الانفصالية التي انطوت عليها " دولة المدينة " الإغريقية قد كتبها أن تظل في الواقع قوية ومتينة إلى حد ما، إلا أنها كانت قد تحطمت من الناحية النظرية، وأخذت تحل محلها نكرة المالية الشاملة ونتيجتها الحتمية: وهي الروح: الفردية. ونتولد تلك الفكرة عن وجود «عالم مأهول **Oecumene** " بوجه عام، هو بمثابة تراث شائع

---

(١) R. Laqueur Hellentimus, 1925; Berve, Pbil. Wach 1926 329, gurhnes. G. 1926, 76, scbufant. N.G. Klat. 1926, 637،G

(٢) نضم مدرسية من المدارس العلبة حضارة الجمهورية الرومانية المعاصرة إلى المدنية الهللينستية. ولكن هذا الكتاب لا يدرجها تحتها على هذا النحو، وإن كنت لا أريد أن أبدى رأيا في هذا الشأن.

للمتحضرين من الناس، ونشان خدمته اللهجة الإغريقية المسماة باسم الكوينى " **Koine** " أي "اللسان العام" الذي كان شائعًا كذلك بين كثير من الأسيويين. وبفضل اللغة اليونانية أصبح من اليسير أن ينتقل الإنسان من مرسيليا إلى الهند، ومن بلاد القوقاز إلى شلالات مصر. أما القومية والروح الوطنية فقد أصبحتا دبر الأذن. ومن الجلي أن التعليم واللسان العام المشترك يتمخضان عن ثقافة مشتركة في كل مدينة من مدن "العالم المأهول"، أجل إن الأدب والسلم والفلسفة قبل كل شيء، قد تشمل فعلا إلى حد ما عالة أوسع نطاقا من بلاد اليونان، وأن علية القوم بروما وبأجزاء من آسيا قد أصبحوا محسون أن الثقافة اليونانية شيء ينبغي أن يتحلى به المرء من الناحية الظاهرية على الأقل. وقد أصبحت التجارة دولية وأزيلت معظم الحواجز: إذ حور الفكر بصورة لم يبلغها مرة ثانية إلا في العصور الحديثة، و بعد للتباغض بين الأجناس وجود، اللهم إلا عند بعض المصريين الوطنيين وبعض اليهود فيما يظن، ولم يكن الاضطهاد الديني لأسباب دينية بحتة مقررة في ذلك الزمان (إذ المعروف أن اعتداء أنطيوخوس على اليهود كان إجراء سياسيا)، وكانت النزعات الخلقية من شئون العلم لا السلطان.. وكان لشخصية الفرد وكيانه مجال خر. وكان العصر عصر أخصائيين من الباحث العلمي إلى النجار الذي يصنع الباب، إلا أنه يحتاج إلى رجل آخر ليقيمه. وعندما حاول بوسيدونيوس للمرة الأخيرة الإلمام بجميع نواحي المعرفة كما فعل أرسطوطاليس من قبل، تجلت سطحيته في بعض النواحي والآفاق. بل إنه حتى القرن الثالث نفسه الحافل بالخلق والابتكار مختلف عن سابقيه في أنه وإن كان الروح الإغريقي لم يزل ذا أهمية قصوى، إلا أنه لم يعد في الإمكان القول بأن كل فكرة مشفرة كانت وليدة العقل الإغريق وحده. وذلك لأنه بغض النظر تماما عن العقيدة الدينية والفلك، لم يكن الابتكار الأعظم الوحيد في ذلك العصر، ألا وهو الفلسفة الرواقية إلا وليد فكر إنسان كان أهل عصر، يعدونه فينيقية قحًا، سواء أجرت في عروقه بضع قطرات من الدم الإغريقي أم لا.

والتماثل بين ذلك العالم وعالمنا يكاد يملؤنا بالعجب والدهشة لأول نظرة نلقيها. فقد كانت به قبل المجموعة المتشابكة من الدول ما بين كبيرة وصغيرة، مع وجود أشكال و نظم مختلفة للحكومات، منها ما هو أكثر تقدما ما عداه، وكلها نعمل داخل نطاق حضارة مشتركة، وفضلا عن بعض الظواهر التي ذكرناها آنفا، أنه كانت هناك ظواهر أخرى كثيرة تبدو عصرية إلى حد كبير. ومن أمثال هذه الظواهر تلك المشكلات التي لا تقضى على مر التاريخ مشكلات الأسعار والأجور، والاشتراكية والشيوعية، والإضراب والثورة، ونمو الفكرات الداعية إلى النزعات الإنسانية والأخوية مصحوبة بألوان

وحشية من النزاع والخلاف، وتحرير المرأة وقيد عدد السكان، ومسائل نيل الحقوق السياسية، بل والتمثيل النيابى (فاعتمل و الهجرة وطبقة البروليتاريات **Proletariat** أو الطبقة الدنيا من العامة، وقيام كل من العلم المضبوط الدقيق وغليظ الخزعبلات أحدهما إلى جوار الآخر، وظهور مجموعة ضخمة من المؤلفات تعال كل ميدان من ميادين النشاط البشري، وهي في الغالب تتسم بالكفاية، ولكنها لم تعد تخرج بعد كتابًا يضارعون الأسماء العظيمة التي برزت في الماضي، وكذلك: انتشار التعليم الذي يتمخض عن صنع كتل متراصة من أنصاف المتعلمين، ونشوء طراز من الدعاية أشد وعيًا، ونمو شعوب أنصاف متحضرة تتعلق بأذيال العلم والتاريخ والدين. ولا يعنيني في هذا المقام كثيرا أن أسرد ما في العالم القديم من أشباه لما في العالم الحديث، وإنما آثرت في الأحوال العادية أن أترك ذلك الأمر الفطنة القارى، ولكن ينبغي ألا تغلو في جمع مثل تلك النظائر والتغلغل وراءها. فان كثيرة من الأشياء وإن أوتي في ظاهره شيئا من الشبه لها في عالمنا الحضري من أشياء، إلا أنها قلما كانت متماثلة أو متطابقة، مثال ذلك أن وجه الشبيه ضئيل لا يكاد يذكر بين الإضراب المصري القديم والمصري، أو بين. الشيوعية المصرية والشيوعية الرواقية. و كان يكن وراء كل شيء فارقان أساسيان وقاطعان: أولها أنه كان عالما خاليا من الآلات (الماكينات)، وثانيهما أنه كان مملوءة بالرقيق. وهذه الحقيقة الأخيرة شي، لا داعي إلى البالغة في تأكيده إذ لن يتيسر لنا الحصول على صورة واقعية للمجتمع الهلينستي إلا إذا كان الرق موجودة أمام نواظرنا، لا يغيب عنا أبدًا. ولا يغرن عن البال أن كثيرا من الآمال المرجوة الحرية والأخوة – بل حتى الثوران نفسها – كثيرا ما نحمل إلينا صورة لا تمت إلى الواقع بأدنى سبب عندما نتذكر بوضوح أن شطرًا كبيرًا من السكان قد أخرجه معظم الناس عن مجاله الأصلي وأسقطوه من حسابهم.

ولطالما عالج المؤرخون الحقبة الهلينستية باعتبارها فترة اضمحلال بلحى انحلال وانهيار، ولكن لعل قلة منهم هي التي تهم الآن بالنقاش والجدل فيا إذا كان ذلك يصدق على القرن الثالث. إن مثل هذه التسميات لا يُمكن أن.

تنطبق – إذا انطبقت على الإطلاق: إلا على الفترة التي أسميتها بالطور المتأخره.. ولو فرض حتى إنها انطبقت على تلك الفترة، فإن الأمر هنا فيما أظن لابد أن: يتوقف إلى حد كبير على وجهة النظر. مثال ذلك أنها إن أعرنا العلوم الطبيعية أو الفنون منزلة الصدارة القصوى، كان الطور التأخر طور انحطاط وتدهور، ولكن إذا وضع بزوغ فر بعض الغرائز والشاعر الدينية من التي قد تمهد السبيل

الأحداث أعظم وأكبر، موضع تقدير واهتمام يعادل منزلة تلك العلوم والفنون على الأقل، كان ذلك الطور طور ماء، والشيء الذي يبدو فعلا أننا نراه في الطور المتأخر، هو مجموعة من المتناقضات، فنحن نسائل أنفسنا مثلا: أي الأشياء يمثل حقا أواخر القرن الثاني، أهو سوق الرقيق بدپلوس أوفك الرقاب والعتق بدلني ؟ وهل لنا أن نبدأ بحث موضوعنا من أفعال الساحر الشتاء، أو استنادا إلى آراء الروائي الذي كان يعتقد بأن الفضيلة هي الجزاء الأوفي عن نفسها؛ وأنا نفسي قد أتجاسر وأعبر عما يخالجني من شكوك كبيرة في أن اليوناني القبح الذي هو قوام الأرستقراطية العنصرية في المحيط الإيجي، قد اعتراه الاضمحلال والانحلال حقًا. وليس هذا بالرأي الأكثر شيوعا بين. أهل الرأي، بيد أني قد عرضت الحقائق على ما بدت لي. وينبغي أن تساعد تلك الحقائق القاري على استخلاص نتائجه الخاصة. وهناك أشياء كثيرة. أيضا، فقد تبدو لأول نظرة تلقي عليها كأنما هي حالة انحطاط وتدهور، ولكن يمكن تعليلها في ضوء اعتبارين عامين. أولها هو النقص التواصل. في عدد الإغريق الأقماع بعد حوالي عام ٢٠٠ في.م،تم بالإضافة إلى ذلك دخول العناصر الأجنبية أو امتزاجها بهم، وهي التي مهما يكن مقدار ما يكن فيها من قدرات، لم يكن لديها في الغالب في ذلك الزمان ما كان للإغريق من طاقة ذهنية ولا سياسية ولا اجتماعية. وثانيهما هو مسلك الجمهورية الرومانية التي جعلتها تحطيم الروح اليونانية، حتى ترامت فيا يرجع إلى إقناع أناس كثيرين. فضلا عن ملول سوريا ومصريان كل جهد مقدر عليه مقدمة بأن يكون شيئا لا غناء فيه ولا طائل تحته، ومن الطبيعي أن مجرد الإذلال والإخضاع البحث. بوساطة قوة متفوقة تفوقًا عظيمًا – مهما يكن من يستخدم تلك القوة – لا علاقة له بالموضوع. وليس من شئون التاريخ في شيء أن يهلل بالتحية لضخام الكتائب.

ولا بد لنا من أن نسجل هنا. ملحوظة على المصادر الأدبية. فضلا عن كونها جزئية بتراه، بل وأهم من ذلك كثيرة، أنها كثيرا ما تكون معادية لا تصف (ولا يشذ عن ذلك إلا بلوتارخوس)؛ بل إنه حتى يوليبيوس نفسه لم يكن حظه من عدم المميز إلا ضئيلا. ولا مراء أن من التضليل البحت نقل دعاية حزبية التي تمثلها بوزانياس مثلا عند كتابه عن نهاية الملف الآخي أو التي سطرها جستن عن بطلميوس بوجتيس الثاني – وتسميتها باسم التاريخ. وهناك سؤال أعتقد أننا لا نزال بعيد بن إلى حد ما عن الوصول إلى إجابة مضبوطة عنه، وهو: ما قيمة الشيء الكثير من المتواتر إلينا من الروايات ؟ إذ يحيل إلى أن هناك في هذا العصر عددا كبيرا من الشخصيات والأحداث التي لا تراها مطلقة فيها أعتقد، و كل ما نراها إنما هو ستار أدبي تشوبه غشاوة بيد أن لدينا مصدرا لا يبرح يزداد على الأيام

وفي الإمكان أن يعول عليه، هو النقوش والبرديات المعاصرة، وبفضلها أخذ الدخان ينقشع فعلا شيئا فشيئا.

***

كانت إمبراطورية الإسكندر تشمل عند وفاته مقدونيا ومصر ومنظم. آسيا من بحر إيجة إلى بلاد البنجاب، إلى الجنوب من خط القوقاز و قزوين، وذلك باستثناء بلاد العرب وأرمينية وشمال آسيا الصغرى. وقد تحالفت وإياه بمحض حريتها معظم المدن اليونانية بآسيا فيما عدا تلك التي كانت واقعة على البحر الأسود، على حين كان بحلف كورنثة بنظم علاقاته ملاك الدن الواقعة في بلاد اليونان الأصلية. ومات الإسكندر دون أن يـر وريثة، ودون أن بضع أية ترتيبات لواصلة نظام الحكم في البلاد. و بكد قواده يقضون على ثورات الإغريق في الحرب اللامية وعلى تمرد اليونان بالشرق الأقصى، حتى شب بينهم نزاع على الحكم اتخذ صورة حرب بين الستارة **satraps** (أي الأسر الحاكمة المحلية) وبين أية قوة مركزية كانت تهدف إلى التسلط العام على الجميع، وقضت معركة إيسوس **Ipaus** سنة ٣٠١ بصفة نهائية على كل أمل في جمع شمل العالم الإغريقي المقدوني. وما لبث ذلك العالم أن عاد من الناحية السياسية إلى. ما يقرب من الوضع الذي كان عليه قبل الإسكندر وإن صار له حكام آخرون، واستظل بحضارة مخالفة. وما حلت ٢٧٥ حتى أصبحت ثلاث أسر ملكية منحدرة من ثلاثة من قواده، موطدة الملك راسخة القدم. فحكم السلوقيون شطرًا كبيرًا من رقعة الإمبراطورية الفارسية القديمة بآسيا،وحكم البطالمة مصر وتربع آل أنتيجونس على عرش مقدونية. وما لبثت أسرة مالكة أوربية رابعة لا تمت إلى الإسكندر بأية صلة هي أسرة أنالوس صاحبة برجامة أن اتسعت رقعتها بآسيا الصغرى على حساب الدولة السلوقية، كما علا شأوها بفضل روما. ثم أخذت روما تقوم بدور في الشئون الهلينستية بطريقة تنطوي على شى. من الحذر أولا، حتى انتهى بها الأمر إلى التهام عالم البحر المتوسط بأكمله، بعد أن سقطت في يدها آخر دولة مستقلة وهي مصر في ٣٠ ق.م.

ولا يسعنا إلا أن نشير إشارة موجزة إلى قصة الكفاح المعقد الذي شب بين القواد حتى ٣٠١، والذي خاضت غماره إلى حد كبير مرتزقة من جميع الأجناس وكان الجيش قد رتب الأمور بعد موت الإسكندر على صورة. تجعل الملك – شركة بين أخيه الأبلة وغير الشقيق فيليب الثالث وولده الإسكندر الرابع المولود بعد وفاته من زوجته روكسانا: واستولى قائده برديكاس على أزمنة الأمور فعلا

بآسيا. كما استقر الأمر لأنتيباتر في أوربا، حيث كان يحكم مقدونيا ويشرف على بلاد الإغريق بالنيابة عن الإسكندر. واقتسم نفر من القواد مختلف الولايات (الستراپيات) من جديد. فحصل بطلميوس وهو رجل حكيم بعيد النظر، على مصر في ذلك القيم. كما حصل أنتيجونس ماتراب أو والي فريجيا الأمور على نصيب آخر من الأرض. وتلقى ليسيماخوس مقاطعة تراقيا. وشبت الحرب في ٣٢١ بين عصبة مكونة من أتباتى وأنتيجونس وبطلميوس وبين برديكاسي، الذي أعلن أنه يناصر الملكين، يد أنه اتهم بأنه إنما يهدف إلى العرش. وانتهى الأمر بقتله ثم عينت الجيوش المقدونية المتحدة أنتار وصية على العرش. وكان أتيار آخر قائد من قواد. فيليب الثاني ظل على قيد الحياة. ولم يلبث ما كان بيحبوه به الجميع من احترام أن مكنه من شتات الإمبراطورية إلى أن مات في ٣١٩: وفي غضون ذلك. الزمن راح أنتيجونس الذي كان بوصفه أحد قواده رأس قوة ضخمة – يحطم حزب برديكاس وأتباعه حتى لم يبق منهم حية إلا واحد فقط هو يومينيس الإغريقي من كارديا، وهو سكرتير الإسكندر. فلما توفي أنتيباتر انتخب بوليبر خون محليا وصار وصيا على العرش بمقدونيا.وشرع: أنتيجونس يمهد الأمور لنفسه، وانضم يومينيس إلى يوليبر خون مناصرًا للملكين. واستمرت فاز الحرب ثانية، وكان بطلا القصة في آسياهما يومينيس وأنتيجونس، الذي كان يؤيده بطلميوس وآخرون. في حين أن بطليها بأوربا كانا بوليبر خون وكساندر (ابن أنتيبانر) وكان حليفًا لأنتيجونس. وانتهت الحرب بأوربا في ٣١٦ بالفوز المبين لكساندر، وهو رجل أوتي مقدرة فائقة، ولم يلبث أن صار سيدًا على مقدونية وشطر عظيم من بلاد الإغريق بما في ذلك أثينا. وهلك كل من فيليب الثالث وأوليمبياس والدة الإسكندر في أثناء الكفاح، ووضع كساندر يده على الملك الصغير الإسكندر الرابع. على أن القتال الذي قام به يومپنيسي اكتنفته الصعاب العظيم من كل جانب. وكان رجلا واسع الحيلة والعقل مطلق الولاء لمليكه، فقاتل لذلك قتالا يذكر بالإعجاب على مر التاريخ ويعد من أعظم قصص الكفاح الرومانتيكية، ذلك أنه استولى على بابل،، وتمكن من الحصول على مساعدة ستاربة الشرق الأقصى، وهزم أنتيجونس أكثر من مرة. ولكن جيوشه خانته في أوائل ٣١٦ وأسلمته – إلى أنتيجونس الذي أمر بإعدامه. وقضى بموته على آخر من يدافع عن قضية الإسكندر الرابع قضاء مبرمًا.

وكان أنتيجونس رجلا أربي كفاية هائلة وطموحة لأحد له. وقد أصبح إذ ذالك أمنع القواد مركزة، وأخذ يزعم أنه يقوم مقام الإسكندر؛ فشرع في القضاء على السارية الشرقيين، ولم يستطع

سلوقوس ماتراب بابل أن ينجو بحياته إلا بالفرار والالتجاء إلى بطليموس، وفي ذلك الحين كان قد قضى على صغار القواد وأصبحوا في خبر كان، وعمد الحكام الكبار وهم كساندر وبطلميوس وليسماخوس إلى تكوين حلف ضد أنتيجونس متهمين إياه بتهمة لا شك في صدقها، في أنه يهدف إلى إنشاء إمبراطورية. وشبت بين الطرفين حرب (٣١٥ – ٣١١) غير عامة، وإن استطاع بطلميوس في ٣١٢ أن يعيد سلوقوس إلى عرش بابل. غير أن أنتيجونس تمكن في ٣١٤ من الحصول على مؤازرة معنوية من الديموقراطيات الإغريقية، بإعلانه إعلانًا ظل متمسكا به بأمانة تامة بضع سنوات بتعهد بمقتضاه بمنع جميع المدن الإغريقية الحرية ورفع ما بها من حاميان وتمكينها من حكم نفسها بنفسها، وكان ذلك إحياء السياسة الإسكندر موجها ضد طريقة كساندر في حكم المدن بوساطة الأوليجر كيان والحاميات (انظر الفصل الثاني). و كانت إحدى نتائج ذلك تمرد دبلوس على أثينا وانفصالها عنها وتمتعها بالحرية حتى ١٦٦. وبعد أن عقد الصلح في ٣١١ بين أنتيجونس والخلفاء، ذلك الصلح الذي أصبح أنتيجونس بموجبه سيد أعلى سوريا وآسيا الصغرى وأرض الجزيرة، حاول أن يقضي على سلوقوس ولكنه أخفق دون ذلك، وإن دمر نصفه بابل. ثم تمكن سلوقوس بعد ذلك من توطيد أركان دولته في كل المناطق الواقعة إلى الشرق من بابل، وإن اضطر إلى النزول عن الولايات الهندية لجندر كبت الموري، وحصل في مقابل ذلك على قوة ضخمة من فيلة القتال [1]. وفي ٣١٠ تخلص كساندر من الإسكندر الرابع بالقتال ري خطوة كانت الأسرات المالكة الأخرى قد دعت إليها بمقتضى معاهدة ٣١١، وبذلك أصبح الجميع حكامًا مستقلين.

وفي ٣٠٧ خاض أنتيجونس وابنه الألمعي ديمتريوس، وهو رجل ذو مواهب عظيمة ومتعددة، وإن لم يكن ذا خلق ثابت معترك الكفاح من جديد. للاستيلاء على الإمبراطورية بأكملها، وكافحًا وكفاحًا ترامى في النهاية إلى اشتراك جميع القوات العسكرية في كل جزء من أجزاء العالم الهلينستي. وكان كساندر بحكم أثينا مُنذ ٣١٧ حيث نصب عليها من قبله شخصًا اسمه ديمتريوس من فاليروم، وهو من المشائين. وحظيت المدينة بالرغد والسلام، واستن ديمتريوس القوانين، مستوحيًا في ذلك روح أرسطوطاليس، ولكن حكومته كانت مالي الأثرياء. وفي ٣٠٧ حرر دمتريوس بن أنتيجونس أثينا من قبضة ذلك المشاه وأعاد إليها الحكم الديمقراطي، ثم هزم أسطول بطلميوس في ٣٠٦ هزيمة ساحقة في معركة بحرية خاضها بقرب سلاميس بجزيرة قبرص وأحرز السيادة البحرية.وعندئذ تلقب هو وأبوه

---

(١) انظر سفال لتارن ف مه (JHS) العدد ٦٠ ص ٨٤ فيما يتعلق باصل الرقم الخيالي وهو ٥٠٠.

بلقب الملك و أصبحا عاملين مشتركين الإمبراطورية الإسكندر وكانا يتبادلان الثقة والإخلاص المطلق، ثم حاول أنتيجونس غزو مصر والقضاء على بطليموس دون طائل، وما لبث بطلميوس أن اتخذ اللقب الملكي في ٣٠٥ هو وغيره من الأسر الحاكمة وصاروا جميعا عوامل مستقلين بعضهم عن بعض، وأضاع ديمتريوس سنة معاصر في أثنائها رودس حصاره الشهير غير الموفق. ثم تمكن بعدها كساندر من البدء في إعادة فتح بلاد الإغريق، ولكن ديمتريوس تمكن من رد كساندر على أعقابه وخلص معظم بلاد الإغريق من قبضته، ثم أعاد في ٣٠٣ تكوين حلف. كورنثة الذي أنشأه الإسكندر أول مرة متربعًا بذلك في رياسته هو وأبوه على دست الإسكندر، وعندئذ طلب كساندر وليسيماخوس وبطليموس العون من سلوقوس. ثم عبر ليسيماخوس البحر إلى آسيا في٣٠٢ مزودة بتعزيزات أمده بها كساندر، على حين كان ديمتريوس يزحف على مقدونية بقوة عظيمة، فلما فشل أنتيجو نس في القضاء على ليسيماخوس اضطر إلى استدعاء ديمتريوس لنجدته. وفي ٣٠١ تلاحم جيش الرجل وابنه عند إبسوس بإقليم فريجيا مع قوتي ليسيماخوس وسلوقوس مجتمعتين، وكان معهما في القتال معظم ما لديهما من فيلة، وهزم أنتيجونس وقتل، ولكن ديمتريوس فر.

واقتسم الظافرون الغنائم، حيث نال ليسيماخوس آسيا الصغرى شمال جبال طوروس وأخذ سلوقوس أرض الجزيرة (العراق) وسوريا؛ على أن بطليوس كان قد احتل سوريا جنون كل من أرادوس ودمشق في أثناء معركة إبسوس، فلم يطالبه سلوقوس بإرجاعها وإن احتفظ بحقه فيها، لأنه لم ينس أنه ملبن لبطلميوس بحياته وملكه. ولكن كساندر الذي كان روح التحالف وعقله الفكر، قنع بمقدونيا، على أن ديمتريوس كان لا يزال يسيطر على البحر ويقبض على صور وصيدا، وبعض مدن آسيا الصغرى وأجزاء من بلاد اليونان. و كان ما يسود بين الظافرين من عدم الثقة خير وبركة على أثينا التي لم تبرح أعظم مدن اليونان جميعًا باستثناء سيراقوزة، واستمتعت بحريتها بفضل ترفق كساندر بها حتى فتحها ديمتريوس في ٢٩٥ وترك بها حامية. ومات كادر في ٢٩٨، ونشبت بين أبنائه منازعات مكنت ديمتريوس من الاستيلاء على عرش مقدونيا، وهو عرش ظل محتفظا به ست سنوات أخضع في أثنائها معظم بلاد الإغريق ماعدا إسبرطة وآيتوليا وبيروس مللك إبيروس، وبني مدينة ديمترياس المسماة على اسمه (انظر الفصل الثاني). وما لبث مركز الأحزاب بالمدن الإغريقية أن اتضح واستبان. ومُنذ ذلك الحين أخذ الأثرياء يشخصون إلى مقدونيا الماسة لعونها كانوا يفعلون ذلك إزاء روما فيما بعد، وذلك على حين كانت الديموقراطيات ناصر فكرة الاستقلال القوي. غير أن ديمتريوس وإن كان فاتحًا

ماهرًا، إلا أنه كان عديم الكفاية كلكم، فلم يكن ثمة وجه للمقارنة بينه وبين كساندر السياسي البارع.. لذا يحبه شعبه قط، وذلك لأنه لم يكن يعامل مقدونيا إلا مجرد قاعدة. يعيده منها غزو آسيا. وفي ٢٨٩ أزعجت استعداداته البحرية غيره من الملوك، فتحالفوا ضده. وفي ٢٨٨ اجتاح ليسيماخوس وبيروس مقدونيا بجيوشها واقتساما فيما بينها، وثارت أثينا بمعاونة بطلميوس. وللمرة الثانية لم يبق لديمتريوس سوى أسطوله وبضع مدن إغريقية. ومع ذلك فانه غزا آسيا، وقذف بنفسه على ليسيماخوس عدوه اللدود دون أن يصيب نجاحًا يذكر، حتى إذا دفع في النهاية إلى ما وراء جبال طوروس، دخل في قتال بطولة عارمة مع سلوقوس. وجاءت عليه هنيهة تراءى له فيها شبح النصر في آسيا واقتربت منه قطوف حكمها دانية، ولكنه اعتل و تخلى عنه جنده، حتي اضطر في ٢٨٥ إلى التسليم. ولم تنقض على ذلك سنتان حتى اضطر ذلك البطل المع. خلفاء الإسكندر، أن يموت في الأسر من فرط الشراب.

ولما سقط ديمتريوس انتقل جزء من أسطوله إلى بطليموس، الذي استولى به على صور رصيدا، وعصبة الجزر (الفصل الثاني) وبه تحققت له السيادة البحرية. على أن الذي فاز بنصيب الأسد كان ليسيماخوس الذي طرد بيروس في ٢٨٥ من نصيبه في نصف أرض مقدونيا، حتى إذا بأن سيدًا مقدونيا وتساليا وتراقيا وشطر كبير من آسيا الصغرى، صار بذلك أقوى عندئذ من سلوقوس. و كان سياسيًا مدبرًا حذرًا وقائدًا محنكًا وماليًا ممتازًا، وهو وإن حكم المدن الإغريقية على طريقة كساندر، إلا أنه لم يحظ على الدوام بمحبة الناس، واهتم بالتجارة وبخاصة في البحر الأسود، ولعله كان يرجو أن يتخذ منه بحيرة تابعة له. وجعل عاصمته في البداية مدينته الجديدة التي أسماها ليسيماخيا بالقرب من فاليبولي، على أنه عاد فيا بعد فنقل مقر ملكه إلى مقدونيا على الأرجح. وكانت آخر حملات ديمتريوس قد كشفت عن قيام حالة، متبادلة من عدم الثقة المتزايد بين ليسيماخوس سلوقوس، كان ينذر بنشوب الخلاف حول السيادة على أسيا. وفي ٢٨٣ بعث سلوقوس يخطب رد أنتيجونس جوناتاس بن ديمتريوس من "فيلا" بنت أنتيباتر وكان أنتيجونس هذا يحكم مدن أيه الإغريقية.

ولعبت أسرة بطلميوس دورها في إسقاط ليسيماخوس نهائيا. و كان بطلميوس متزوجًا من يوريديكى ابنة أنتياتر، وكان كفاحها الطويل مع وصيفتها برنيس (بيرينيقة) عشيقة بطلميوس قد انتهي قبل عام ٢٨٧ بنبذ الملك ليوريديكى وزواجه من بيرينيقة، وقد نفي بطلميوس وهو الملقب فيما بعد بالصاعقة (**Keraunos**) ابن يوريديكي، حتى إذا توفي أبوه ٢٨٣ (وهو الوحيد الذي مات في

فراشه) بين خلفاء الإسكندر خلفه على العرش ابنه من بيرينيقة دون منازع وتسمي بطلميوس الثاني. وذهب كيراونوس إلى ليسيماخوس الذي اتخذ من أرسينوي زوجة ثالثة، وهي شقيقة بطلميوس الثاني، وابنة بيرينيقة. ومن حوله أخذت تدور المؤامرات الغامضة التي انتهت بأن تعمد ليسيماخوس إلى قتل ابنه البكر. أجاثوكليس وزج كل العناصر التنمية في مملكته في أحضان سلوقوس. وانتهى الأمس بسلوقوس إلى عبور جبال طوروس، فهزم ليسيماخوس وقتله في عام ٢٨١ عند كوروبيديون في ليديا، ومرت لحظة على آخر وأسعد رفقاء الإسكندر. شهد فيها إمبراطورية الإسكندر عدا مصر عند قدميه. ولكنه لم يهنأ بالملك طويلا فقد اغتاله في أوائل ٢٨٠ كيراونوس، الذي كان جيش ليسيماخوس قد اختاره ليأخذ بثأر ليسيماخوس، وعينه ملكا على مقدونيا. وتمكن كيراونوس أن يحتفظ بملكه رغم منافسيه الكثيرين، حين هزم أنتيجونس: جوناتاس بحرة، وضم بيروس إليه ببذله العون له في حملته الإيطالية، وتخلص من أرسينوي التي كانت مستولية على كساندرية، بأن تزوج منها أولا ثم طردها بعد ذلك.وكان أنطيوخوس الأول بن سلوقوس من أياما زوجته الصفدية مشغول البال بورطة كبيرة داخل بلاده. ذلك أن بطلميوس الثاني الذي كان يملك منطقة كارين كان يهدده، وأن الثورة شبت بشمال سوريا. فضلا عن أن خط مواصلاته مع أوربا والبحر الأسود قد قطعه عليه الحلف الشمالي، وهو عصبة. تألفت من هرقليا وبيزنطة وخلقدونية وكيوس وثيوس ومعهم مثريدانس أميربونطش الفارسي ونيقوميدس صاحب بيثينيا، وكلهم كان يقاتل في سبيل استقلاله. وهاجمه أيضا أنتيجونس من بلاد الإغريق.

على هذا النحو كان الوقف عندما وصلت إلى التخوم المقدونية ومعها عائلاتها قبائل الغلاطيين الهاجرة وهي من الغاليين الذين اندحروا وتمكنت قوة منهم في أوائل ٢٧٠ من اقتحام حدود مقدونيا بقيادة بولجيوس وهزموا كراونوس و قتلوه، ولكنهم سرعان ما عادوا حاملين غنائمهم. غير أن قوة أخرى بقيادة برية عادت فدخلت البلاد، ولكنها لم نستطع توطيد أقدامها بها فزحفت جنوبا في أواخر السنة زيد غزو بلاد اليونان و رونق بريس الذي لم يتجاوز عدد جيشه الثلاثين ألفا في القضاء على المدافعين عن ممر ترموبيلاى ولكنه أخفق في محاولته الإغارة على دلني بأحد الطوابير السريعة، في حين صدت كتلة جيشه الرئيسية ثم ردت على أعقابها شمالا متكبدة خسائر جسيمة على يد الابطوليين، الذين أحرزوا عندئذ شهرة عظيمة عن جدارة بتخليصهم بلاد الإغريق. واضطر أنتيجونس وأنطيوخوس إزاء هذا الخطر الحق ببلاد الإغريق إلى عقد صلح حقيل بينهما، وظلت معاهدهما (التي

عقدت في خريف ٢٧٩) أمدة طويلا محورا أساسيا تدور عليه السياسة الهلينستية، وقد تعهد أنطيوخوس بمقتضاها ألا يتدخل في شئون مقدونيا وبلاد اليونان ألا يتدخل أنتيجونس في راقيا وآسيا، ودامت الصداقة بعد ذلك طويلا بين الأسرتين. وفي ٢٨ وصلت إلى الدردنيل ثلاث قبائل من الغال هي تولستواجياى وتروي ونكتوساجيس وعدها عشرون ألفا، ودخلوا تحت لواء نيقوميدس وميتريداتس لمهاجمة أنطيوخوس، فعاثوا في أراضي آسياسنتين فسادا ينهبون ويسلبون ويلقون الرعب في القلوب، ولكن أنطيوخوس ٢٧٥ تمكن بعد القضاء على الفتن في سوريا من منح آسيا شيئا من الهدوء بدحره الغال بمساعدة ستة عشر فيلا أرسلها إليه قاعدة في باكتريا. وعندئذ أزل نيقوميدس ريزيدانس الغال في فريجيا (غلاطية)كدولة حاجزة بينهما وبينه، وفي نفس الحين أخذت قوة أخرى تهاجم تراقيا، ثم وصل لفيف من هؤلاء في ٢٧٧ إلى البحر حيث أقام أنتيجون عن آخرهم بمعركة دارت رحاها فرب ليسباخياء ودخل أنتيجونس مقدونيا وعلى رأسه هالة ذلك النصر، وكانت مقدونيا تمزج في مهاوي الفوضى، فقبله على الفور عاهلا رم يلبث أن أصبح في نهاية عام ٢٧٦ سيدة على البلاد وأن زوج فيلا(**Phila**) أخت أنطيوخوس غير الشقيقة. وفضلا عن غلاطية استطاع الغالب أن يؤسسوا ملكتين آخرين أثرنا في التاريخ الإغريقي كل مؤن، أولاهما مملكة الأسكورديين بلاد الصرب، وثانيتهما مملكة وليس بتراقيا

وفي مدى الجيلين اللذين أعقبا في الإسكندر آمنها، استجاب الشعب المقدوني والشعوب الإغريقية لحاجات الأسرار الأسر الحاكمة من الناحيتين السياسية والعسكرية فتوزعا من جديد توزيعا متسع الرقعة فوق المنطقة التي أصبحت فيما بعد تضم شمل العالم الهللينستي. ذلك أن هذه الممالك لم تكسب وتفقد بغير جنود، ومع أن الحال اقتضت استخدام رجال من جميع الأجناس، فقدكان من الطبيعي أن الهيبة العسكرية والنضج السياسي للإغريق والمقدونيين لابد أنهماكانا مطلوبين إلى أقصى حد. ولا جدوى في إعمال الحدس في عدد الرجال الذين تركوا بيوتهم في أوربا واستقروا في النهاية استقرارا دائما في آسيا أو مصر ليكونوا نواة الجيش النظامي السلوقي أو البطلمي. ولا داعي أبيضة للحدس في عدد من أرسلوا يطلبون زوجاتهم أو أقاربهم من ارض الوطن. يد أن من المحقق أنكثيرة من أفراد الجيل الأول نفسه من سلالة الأبناء (**Epigeonsi**) ولدوا من أمهات أسيويان، و إن أوحت إلينا حروب خلفاء الإسكندر بكل ما أنطون عليه من تقلبات في الحظ، أنكل من أسهموا فيها إسهاما فعليا تعرضوا لما نجم عنها من فوضى ومخاطي، والواقع أن محنة الجند الذين تمرسوا بحروب

الإسكندر، فضلا عن غيرهم بلا ريب، سرعان ما انقلبوا مغامرين محترفين يتقبلون كل الأمور بهدوء تام، ولا يترددون في أخذ متاعهم وعائلاتهم معهم حينما ذهبوا في الحملات الكبرى، وقد كتب أيزوقراطيس عن سكان بلاد اليونان من الجند (الذين هم جند وإلا أصبحوا من العاطلين) الذين أمكن استخدامهم لاستعمار آسيا الصغرى: ما أن إعادة استيطان سيراقوزة وغيرها من مدن صقلية على يد تيموليون أظهر قبل عهد الإسكندر أنه كان هناك في الواقع (وليس في جدل خطيب فحسب) آلاف من الإغريق الذين هم على استعداد للتطواف البعيد في أرجاء الدنيا لكى.يبدءوا حياتهم بدءًا جديدًا. و كانت هذه هي فرصتهم الكبرى. فهؤلاء الإغريق والمقدونيون الساكنون في الخارج استمروا يعيشون جيلا بعد جيل عاملين بصفة رئيسية في وظائف الجند والمديرين، مكتسبين بذلك عند حكامهم وسادتهم أهمية عظيمة لا تتناسب البته وأعدادهم، وإن كثر عددهم نسبية. لقد كانوا هم الشعب الحاكم، ولم يكن ذلك نتيجة لأية نظرية أو بعامل التحيز، بل لأن ما لديهم من معرفة كان يناسب حاجات الملوك أنفسهم.

ومن عام ٢٧٠ نستطيع أن نتعقب سيرة الأسر المقدونية المالكة الثلاث على صورة تاريخ الوحدات ثلاث منفصلة.. ولم تقم المملكة ليسيماخوس بعد ذلك قائمة، لم يقم بعده خليفة على البحر الأسود، أما الملوك الجدد، فأولهم أنطيوخوس الأول الذي كان منشئًا عظيمًا للمدن وصاحب أسلوب في السياسة والإدارة ضاع تاريخه.. وتصور الروايات المتواترة بطلميوس الثاني في صورة السقيم البدن الولع بالفنون. وهو وإن لم يكن قائدًا عسكريًا، إلا أنه في الحقيقة حاكم قوى ذو مطامح عدوانية. وكان على جانب وافر من الثقافة والتعليم ودبيلوماسيًا قديرًا ومنظمًا حاذقًا، وكان أنتيجونس المؤسس الثاني لدولة مقدونيا، شخصا. جاف الطبع مستقيم الخلق، يغلب عليه الإصرار والعناد. متشربًا بكامل الولاء العائلي الذي جبلت عليه أسرته.، وكان صديقًا وتلميذًا للفيلسوفين مينيديموس وزينون، حتى لقد تشبع بالعطف على الرواقيين تشبعًا جعله بعد أول ملك استطاعت الفلسفة أن تنسبه إليها. وكان من الطبيعي أن تؤدي سياسة مصر الخارجية التي كانت تهدف إلى بسط السلطان على البحر الإيجي وما يحيط به من سواحل وما توافر لمصر من قوة ضخمة، إلى إثارة النزاع بينها وبين المملكتين الأخريين، وذلك فضلا عن أن السلوقيين لم يستطيعوا أن ينسوا حقهم في جنوب سوريا التي احتفظت بها مصر، وهذه الولاية على مالها من أهمية اقتصادية بسبب منتجاتها وما يمر بمدنها من تجارة،كانت لها أهمية أكبر لدى اليمين المالكين العظيمين كليهما بسبب موقعها الاستراتيجي الفذ،

وخاصة إن تولد بينهما مسبب يثير ريبة أحدهما في الآخر. وكانت نتيجة ذلك وقوع سلسلة من الحروب المسماة بالحروب السورية بين مصر والسلوقيين، مجتمعة مع الحروب التي شبت بين مصر ومقدونيا. وأدت هذه الحروب إلى حرمان الحضارة الإغريقية من ترسيخ قدمها في آسيا بنفس القوة التي كانت ستحصل عليها ولا تلك الحروب.

وكان بطلميوس الثاني هو البادي" بذلك الصراع الطويل. ولعله جنح إلى العدوان بمجرد وفاة سلوقوس، وذلك استنتاجا من مال ميليتوس التي كانت تابعة للسلوقيين في ٢٨٠، فأصبحت مصرية في عام ٢٧٩؛ وفي حرب غامضة تلتها الحرب المسماة بالحرب السورية الأولى عندما غزا جيشه سوريا السلوقية في ٢٧٦، ولكن أنطيوخوس الأول هزمه ورده عن البلاد، وكان قد تحالف مع ماجاس حاكم برقة وهو أخ غير شفيق لبطلميوس الثاني. ومهما يكن الأمر ابن بطلميوس طلق في الشتا. (٢٧٩ – ٢٧٠) زوجته (أرسينوي الأولى ابنة ليسيماخوس) وتزوج أخت الشقيقة أرسينوي الثانية، أرملة ليسيماخوس و كيراونوس على التعاقب ولعل مرد ذلك احتياجه إلى رجاحة عقلها. وتناولت أرسينوي الحرب الأسرة بيديها القويتين، بإحالتها إلى تصر جارف، حتى انتهت بها وقد انتزعت (٢٧٣ أو ٢٧٢) فينيقية بأكملها ومعظم ساحل آسيا من ميلتيوس إلى نهر كاليكادنوس بقيليقيا، وحصلت في مقابل ذلك على آيات من التكريم ليس لها من ضريب، أسبغت عليها كامرأة وربة. وكانت السنوات التي تلت ذلك حتى وفاتها في ٢٧٠ عصر بصر الذهبي. وتنبأ كاليماخوس أن بطلميوس سيحكم الأرض من مشرق الشمس إلى مغربها، وكانت أرسينوى ترغب في تعيين بطلميوس ابنها من ليسيماخوس، ملكة على مقدونيا، لولا أن المنية عاجلتها، ومع ذلك فإنها منعت أنتيجوناس من التدخل في الحرب حين قدمت العون إلى بيروس الذي كان قد عاد من إيطاليا وأراد أن يهاجمه وينقض عليه. وفي ٢٧٣ فتح بيروس مقدونيا إلى حين، ولكنه تخلى عنها ليخلو لمغامرات أخرى ببلاد اليونان، فحاول فتح إسبرطة، ولكنه فشل؛ ثم لقي في النهاية مصرعه في (٢٧٢) في قتال دار بشوارع أرجوس، تاركًا مصائر بلاد الإغريق في بد أنتيجونس.

وجعل أنتيجونس الاعتدال رائدة. وكان مركزه بلاد اليونان يتوقف. على أمرين أولهما احتفاظه بكورنثة التي كان بقائها في يده كفيلا بعدم اتحاد البلاد ضده (لعلمه بأن بلاد اليونان إن اتحدت تصبح أقوى من مقدونيا) وثانيهما التمسك بمرفأ بيرابوس (بيريه) التي كانت خير ضمن بأن تظل أثينا عاصمته الروحية. فواصل الفتح بالقدر الذي يضمن سلامة مواصلاتهما مع ديمترياس عاصمته، ولكنه

لم يحاول الحصول على المزيد من الممتلكات ببلاد اليونان (الفصل الثاني). غير أن أثينا عمدت ٢٦٧ هي وإسبرطة ومدن أخرى إلى التحالف مع مصر والعمل على مهاجمته بتشجيع من بطلميوس. على أن هذا الصراع القاسي (٢٦٢-٢٦٦) المسمى بالحرب الخريمونيدية، نسبة إلى خريمونيديس السياسي الأثيني، انتهى بانتصار أنتيجونس واستيلائه على أثينا، التي كنت مُنذ ذلك الحين عن القيام بأي دور بارز في عالم السياسة. كما أن زعماء حزب أنتيجونس والشخصيات البارزة فيه قبضوا على زمام السلطان، فأصبح منهم طغاة في أرجوس وميجالوبوليس ومدن أخرى بالبيلوپونيز، وأخذ هؤلاء يعملون لمصلحته وبمعاونته على الكبح من قوة إسبرطة، وما لبث أنتيجونس الذي كان حاكمًا ماهرًا حتى استرد لمقدونيا أوسع حدودها الأولى وجعل لأسرته مركزًا في البلاد وطيد الأركان يستطيع أن يصمد للأحداث، وفي ٢٦٧ مات أنطيوخوس الأول بعد أن سلخت منه مصر مدينة إفسوس.

على أن ابنه أنطيوخوس الثاني لم يلبث هو وأنتيجونس – بعقد تحالف بينهما في أرجح الاحتمالات أن انتقها من بطلميوس الثاني بشن الحرب السورية الثانية (٢٥٩ – ٢٥٥)، فاسترد أنطيوخوس إفسوس وميليتوس وشطرًا كبيرًا من ساحل آسيا الصغرى، وبلاد الفينيقيين حتى بيروتوس (بيروت)، في حين أن أنتيجونى دمر أسطول بطلميوس بالقرب من ساحل قص **Cos** وصار له السلطان على حلف الجزر والسيادة على البحر، وتولى أخوه غير الشقيق ديمتريوس الوسيم حم برقة ردا من الزمن. ولكن ثورة الإسكندر فائده في كورنثة وبويا (قرابه ٢٥٢) بمساعدة مصر كسرت شوكته بحرًا. ولم يستطع استرداد كورنثة إلا في ٢٤٦ بعد وفاة الإسكندر، وذلك على حين ممكن بطلميوس في ٢٥٣ من استمالة أنطيوخوس إليه، فأقصى هذا الأخير زوجته لاؤديكي وتزوج من ابنه بطلميوس، بيرينيقة (برنيس). حتى إذا توفي أنطيوخوس (في أخريات (٢٤٧) استعر الكفاح بين الملكتين المتنافستين، فقتلت بينيقة وابنها، وكتم خبر موتهما، ثم انبرى إلى الميدان بطلميوس الثالث (ابن أرسينوي الأول) فيه ٢٤٦ وكان قد خلف أباه بطلميوس الثاني على العرش في يناير. فاحتل شمال سوريا وقيلقيا وتام باستعراض عسكري في تلك المملكة المفككة الأوصال والمنقسمة على نفسها، مدعيا أنه يناصر الملك الشرعي ابن برينيقة، حتى بلغ مدينة سلوقية على نهر دجلة، ولم يلق بطليموس مقاومة تستحق الذكر بيد أنه نمت حمله بأنها حملة إخضاع آسيا السلوقية. وفي الحرب التي عقبت ذلك وهي المسماة بالحرب السورية الثالثة أو الحرب اللاؤديكية (التي استمرت حتى ٢٤١)، تمكن سلوقوس الثاني ابن لاؤديكى، من استرداد قيلقيا، وشمال سوريا (من الداخل) كما استرد

الشرق، ولكنه فشل في استرجاع سلوقيا بسفح بيريا كما لم يستطع استرجاع بلاد الفينيقيين، ثم فقد أيضا ساحل آسيا الصغرى من جديد، ومنه مد بطلميوس بعد ذلك سلطانه حتى احتل ساحل تراقيا، ومع ذلك فان أسطول بطلميوس لقي الهزيمة على يد أنتيجونس في مياه جزيرة أندروس (٢٤٦ أو ٢٤٥)، وبذلك النصر استرد أنتيجونوس جزيرة دبلوس وبضع جزر أخرى، وفقدت مصر صيادتها البحرية إلى الأبد ولكن يبدو أن حلف الجزر تفكك عند ذلك. وفي أعقاب ذلك تحطمت قوى الإمبراطورية السلوقية وأعجزتها الحروب الأهلية التي نشبت بين سلوقوس الثاني وبين أخيه أنطيوخوس هيراكس، الذي تحالف مع الفلاطيين. وكانت كابادوكيا قد أصبحت مُنذ حين مملكة وطنية مستقلة، كما أن إقليم باكتريا انفصل عنها في أثناء تلك المدة إلى غير رجعة هو وإقليم بارتيا وما وراء پارتيا من الولايات. وعندئذ عاد الفلاطيون المنتصرون فأصبحوا خطرًا على من جاورهم.

وكان ذلك التهديد هو السبب في صعود نجم برجامة. ان فيليتايروس حاكم قلعة برجامة وهو خصي من تيوس، أبوه أو أمه من بافلاجونيا، خان على التعاقب سيد به أنتيجونس الأول ليسيماخوس، وأصبح شبه مستقل في عهد أنطيوخوس الأول، حتى إذا توفي في ٢٦٣ ترك إمارة صغيرة على نهر كانيكوس لابن أخيه يومينيس، الذي عاد فوهبها لابن أخيه أتالوس الأول في ٢٤١ بعد أن اتسعت رقعتها اتساعا جسيمًا. وسنحت فرصة أتالوس الذهبية بأفول نجم السلوقيين بآسيا الصغرى. فأعلن تحديد للغلاطيين بأن أبي دفع الجزية التي فرضوها حتى على السلوقيين أنفسهم ثمنا للامتناع عن الإغارة عليهم، ثم هزمهم في معركتين (قبل عام ٢٣٠)، وتلقب باللقب الملكي ثم طارد هيراكس من آسيا الصغرى وحكم من ٢٢٨ إلى ٢٢٣ جميع أملاك السلوقيين شمال جبال طوروس. وقد مات سلوقوس الثاني في ٢٢٦ وهو يحاول إعادة فتح بارثيا، كما مات ابنه سلوقوس الثالث في ٢٢٣ دون أن يتمكن من تسوية الحساب معه.

وفي نفس الحين كانت بلاد اليونان تشهد نمو الخلفين العظيمين (انظر الفعل الثاني). أن أيتوليا التي كانت لها السيادة على دلني من قبل، أخذت توسع رقعتها بعد ٢٧٩، وقد وعدت أنتيجونس بالتزام الحياد فلم تحنث بوعدها، وشرعت في مقابل ذلك الوعد تدخل في حلفها الدول الصغرى الأمفبكتيونية، فلقيت فما يظهر بعض المعارضة المتقطعة من فوكيس وبؤيتيا، ولكن تيسر لها في ٢٤٥ القضاء على بؤيتيا في معركة خيرونيا، ولم تقم لهذا القطر بعد ذلك قاعة أبدا. وكان نطاق حلف المدن الآخية الإحدى عشرة في ٢٠١ قد بدأ في الاتساع، عندما باغت شاب منفي من أهل

سيكيون، اسمه أرانوس مسقط رأسه سيكيون ليلا، وطرد طاغيتها. و التماسا للأمنة ضم سيكيون إلى الحلف الاخي. و كان أرانوس هذا غريب الأطوار، يجمع بين البطولة والضعف العصبي، كما كان مجردا من وازع الضمير، ولكن كان له سلطان عجيب على مواطنيه، فظل مدى جيل كامل و هو روح الخلف وعقله الفكر، إذ كان يتولى القيادة عليه سنة بعد أخرى مُنذ ٢٤٥ وما عتم في ٧٤٣ أن شرع في حملته الكبرى التي جعلها هدفه الأقصى في الحياة، وهي تخليص البيلوبونيز من أنتيجونس ومن يناصرهم من الطغاة، ففاجأ كورنثة أهم المواقع المقدونية ليلا في أثناء فترة السلم واستولى على قلعة كورنثة. ونوف أنتيجونس في ٢٤٠ – ٢٣٩ دون أن يسترد كورنثة، فدخل الحلفان على الفور حوة الوغى مع ابنه ديمتريوس الثاني. وقد استطاع ديمتريوس أن يضعف من قوة أيتوليا وسلطانها، ولكنه لم يقض عليها تماما، بيد أن أصحاب الحلف الآخي أخذوا بستولون على مدينة إثر أخرى، بما في ذلك ميجالوبوليس وأرجوس، اللتين نزل طاغيتاهما عن سلطاتهما وأصبحا موظفين تابعين للحلف.

وفي ٢٢٩ توفي ديمتريوس الثاني بعد أن لن هزيمة منكرة من أعداء مقدونيا الرابضين في الشمال وهم الدردانيون الذين اجتاحوا البلاد. ولما كان فيليب ابنه من زوجته الثانية الأميرة إنثيا الإبيروسية طفلا لا يميز، عمد الجيش في النهاية إلى تتويج الوصي على فيليب، وهو أنتيجونس دوسون بن ديمتريوس الوسيم، وهو حاكم مقتدر، فبادر بطرد الدردانيين من البلاد واسترد مقدونيا من أيدهم. ولكن الحلفين كانا قد انتهز الفرصة السانحة، فإن أيتوليا استطاعت في أثناء الاضطراب الذي نشأ فيه ٢٢٩ أن تبسط سلطانها من بحر إلى بحر (الفصل الثاني). فأصبحت بذلك تعد نفسها نظيرًا لمقدونيا من حين قضى أرانوس على كل أثر لسلطان مقدونيا في البيلوبونيز. حتى إذا وافت ٢٢٨ كان الخلف الآخي بلغ ذروة مجده، وأصبح يضم آخايا وسيكون و كورنثة وميجارا وآيجينا وأرجوس والمدن الساحلية وميجالوبوليس ومعظم أركاديا، أعني في الواقع أنه قد دانت له إذ ذاك تقريبا كل البيلوبونيز التي كان بحكمها فيا مضى من الزمان كساندرو ديمتريوس الأول. وبذا لم يعد بين سكانها إلا مواطنون مخلصون، كما أنها كانت مستقلة تماما وذلك لأن تحالفها الاسمي مع بطلميوس الثالث – وكان إذ ذاك لا يبدي أي نشاط – لم يكن له أي تأثير على سياستها. وسجل هذه السنوات بلوغ الحركة الاتحادية ذروتها. ولم يحد درسون بدأ التدخل في البيلوبونيز،، بل قنع بالحصول على حياد آيتوليا. أما أثينا أنها استردت هي الأخرى استقلالها بموت ديمتريوس، فلم يتدخل في أمورها أحد، ولم تشتبك بعد ذلك في أية حرب حتى ٨٨ اللهم إلا حين هاجمها فيليب، والواقع أنها أصبحت بإجماع الجميع تعتبر بلدة

محايدة تقريبا، وذلك لأنها كانت مدينة جامعية زاهرة، كما كانت المركز الثقافي البلاد اليونان. وكان التشرف بالانتماء إليها بغية كثير من الملوك الذين كانوا يعدون ذلك أسمى مراتب التقدير والإكبار من جانب العالم المتحضر.

على أن الحلف الآخي وقف حيال إسبرطة عاجزة فلا هو بمستطيع أن يغزوها ولا أن يستميلها إلى جانبه، وبذلك فشل ذلك، الحلب نهائيا على صخرتها. ذلك أن ملك إسبرطة الشاب كليومينيس الثالث تشاجر مع الحلف وجمع حوله المرتزقة من الجند، ثم أقدم في ٢٢٧ على مواصلة تورته على الخلف (نهاية الفصل الثالث) بعد أن اجتمعت له القوة الكافية لمناوأته. و استرد (في زعمه) دولة إسبرطة لعهد ليكورغوس، وزاد في قوة بلاده زيادة هائلة. وعندئذ غزا أخفايا، ثم انتصر في معركة "هيكاتومبابون" انتصارًا جعل الحلف يخر عند موطئ قدميه، وما عتم أن خضعت له المدن واستسلمت الواحدة منها تلو الأخرى، بما فى ذله كورنثة وأرجوس لأن العامة في كل مكان ظنوا أنه يعتزم القيام بثورة اجتماعية تسفر عن منحهم الأراضي وتوزيعها عليهم. أما هو فكان في الحقيقة رجلا شديد الطموح، كما كان برى إلى تولى الزعامة في البيلوبونيز. واستهل أعماله بالمطالبة برياسة الخلف، الذي كان في وسمه أن يجعله نواة لحلف جديد لدولة اتحادية جديدة. وتملك اليأس الجنوبي رأس أرانوس. ولكي ينقذ الباقية من الخلف أقدم على عمل ينطوي على خيانة كبيرة. ذلك أنه بعد أن طرد المقدونيين من البيلوبونز، صمم على إعادتهم إليها ثانية. ولما طلب العون من درسون، قدمه هذا الأخير مشترطًا إعادة كورنثة إلى سلطانه، وبذلك أصبحت كورنثة مُنذ ذلك الحين قلعة مقدونية. وأعاد دوسون تكوين حلف كورنثة جاعلا منه حلف أحلاف هلليني (الفصل الثاني)، ولكن لما كان حلف الأحلاف ذاك لا يضم الحلف الأيتولى وإسبرطة وأثينا وإيليس ومسينيا، فإن بلاد الإغريق أصبحت بذلك منشطرة شطرين، وإن كانت فكرة درسون فكرة رجل سياسة عظم التدبير. وأتل كليومينيس قتالا باهرًا، ولكنه دحر في سللاسيا (٢٢٢) على يد دوسون وفر إلى مصر حيث قضى نحبه، واحتل دوسون إسبرطة التي لم يفتحها أحد قبله وقضي على الثورة وأعاد نظام المع القديم، واتخذ من إسبرطة حليفة لمقدونيا. ثم توفي في ٢٢١، و كانت وانه خسارة كبيرة على مقدونيا ولكنه كان قد أعد علنه لتولية فيليب على العرش من بعده.

إن المؤرخ بوليبوس يبدأ تاريخه دائما تبعا للأصول المرعية، باستواء الملوك الجدد بجميع الممالك على عروشهم. فهو في سوريا يبدأ بأنطيوخوس الثالث أصغر أبناء سلوقوس الثانى (٢٧٣)، ويبدأ في

مصر بطلميوس الرابع الملقب. فيلوباتر (أي المحب لأبيه Philapater((٢٢١)، كما بدأ بفيليب الخامس في مقدونيا. وكان بطلميوس الثالث قد غفل عن جيشهما أدى إلى اضمحلاله، بينما كان ولده بطلميوس الرابع خليعة مستهترة محبة للفنون، فترك أعنة الحكم بيد وزيره سوسيبيوس القوى البأس المجرد من رادع الضمير. أما أنطيوخوس الثالث الملقب فيا بعد "بالعظيم" وكان شابًا همامًا نشيطًا مرهف الحس، فقد ألفي. بين يديه دولته محطمة مضعضعة القوى فنصب نفسه لإعادة بنائها واسترداد مجدها. وما وافي عام ٢٢٠، حتى كان ابن عمه أخايوس قد استرد من أنالوس ما كان للسلوقين من ممتلكات بآسيا الصغرى، كما أن أنطيوخوس تقسه كان قد قمع نورة أشعلها قواده في ميديا ويرسيس.وما إن أصبحت له السيادة التامة على دياره حتى نتحول لتخليص سوريا الجنوبية (أي فلسطين) من يد بطلميوس فيلوباتر المتواكل. ولكن الحصون السورية عاقته، وأوقفه سوسيبيوس عن مواصلة الحرب بأن تظاهر بإجراء مفاوضات وأتاح بذلك لنفسه فرصة استقدم فيها بعض القواد من البلاد اليونانية وأنشأ جيشًا: ثم أقدم أيضا هو أو فيلوباتر على خطوة لها خطورتها هي تجنيد عشرين ألفا من المصريين الأقحاح في فيلق. ولم يكن أحد من المصريين قد حمل سلاحا مُنذ تجربة بطلميوس الأول في عام ٣١٢. وانتهت هذه الحرب المسماة بالحرب السورية الرابعة بمعركة رفح (٢٢ يونيه ٢١٧): وفيها تخلى فيلوباتر عن ملذاته وتولى القيادة، فاض غمارها في يوم مى فيه الوطيس وانتهى بالنصر على يديه بفضل قيادته وشجاعة فيلقه المصري، وبذلك احتفظ فيلوباتر بسوريا الجنوبية وفينيقيا، ولكنه لم بدر أن ذلك النصي كان بالنسبة لأسرته كالسم في الدسم إذ إن العنصر الوطني في مصر تمرد مُنذ تلك اللحظة على الإغريق.

أما مقدونيا فان ارتقاء فيليب الخامس العرش ملا الناس بالآمال الكبار لما له من مواهب عظيمة وجاذبية أخاذة، إذ إن طبعه الجامع الذي أفسد عليه حياته لم ينجل إلا بعد ذلك بكثير. وتخلى الأيتولون بزعامة إسكوباس عن التزاماتهم مُنذ بوفى دوسون، وما نشبت غاراتهم في عام (٢٢٠) على الدول الأخرى حتى تمخضت عما يسمونه باسم الحرب الاجتماعية (حرب الخلفاء) التي ناهضوا فيهام وحلفاؤه: إسبرطة وإبليس، كلا من فيليب وحلقه الهلليني. وكان فيليب يرقب عن كشب تصرفات الرومان في الليريا، ولم يكن يريد حربًا، ولكنه دافع عن حلفائه بإخلاص، فقام بغارة جريئة على ثرموم، القصبة الاتحادية لأويتوليا، وأعمل فيها بد النهب والسلب وانتهت تلك الحرب التي لم تترابه مرة، في (٢١٧) بصلح " ثاوباكتوس"، وامتاز مؤتمر الصلح بذلك النداء الذي ناشد فيه

أجيلاوس الأيتولى مواطنيه بالتزام الرحلة الحسينية في وجه تلك و الغرامة التي أخذت تتجمع في الغربة، ألا وفي ذلك الشعب الذي كتب له النصر في النهاية في الحرب بين روما و قرطاجة. وبلغت محبة الناس لفيليب الذي أصبح "معبود هلالاس" في (٢١٧) مبلغًا من القوة جمله يبدو كأنما أتيحت له فرصة لتوحيد بلاد اليونان أفضل مما سنح لأي فرد من أسلافه، بيد أنه ضيع تلك الفرصة، لو صح أنها كانت فرصة. وزاد الأمر سوءًا وفاة أرانوس في (٢١٤ – ٢١٣) ففقد بذلك خير أصبح ومستشار له، وذلك لأن أرانوس قد وعي فيما يبدو كل ما ألقته عليه النوازل من دروس قاسية. وتحالف فيليب في ٢١٥ مع قرطاجة وحاول طرد الرومان من الليريا. وكانت نتيجة ذلك هي تحالف روما مع أيتوليا (٢١٢) الذي تولدعته وقوع الحرب المقدونية الأولى. وبذلك تجددت الحرب الاجتماعية مرة ثانية مع فارق عظيم واحد: هو أن أيتوليا في هذه المرة تلقت المعونة العسكرية من روما ور جامعة وذلك لأن أنالوس كان متحالفًا مع روما، على حين أن حلفاء فيليب الجدد، قرطاجة وبروسيلس الأول صاحب بيثينيا لم يقدما إليه إلا مساعدة لا تكاد تذكر. و كان فيليب عاجزة في البحر لا يقدر على شي. لاضمحلال الأسطول القدر الذي كان قويا فيها سلف من الأيام. ولم يكن يستطيع من ثم أن بناهض إلا بالكد الشديد أعداء يستطيعون توجيه الضربة حينما شاءوا. و كل ما استطاع تحقيقه من مغنم هو أن فيلو يومين من أهل ميجالوبوليس أعاد تشكيل الجيش الآخي الضعيف. وكان فيربوعين هذا، وهو جندي مقتدر ولكنه لا يزيد على ذلك إلا قليلا، قد أبدى امتياز في أثناء قاله في الاسيا، ولكنه عاد بعد ذلك، فأبدى إعوازا عجيبا في وطنيته وانضم إلى جيش كريت مغامرًا: ثم عاد إلى بلاده في (٢١٠) ولم يلبث الجيش الآخي الجديد أن هزم بقيادته في (٢٠٧) ماخانيداس الذي استولى على مقاليد الأمور بمدينة إسبرطة وبذلك. اكتسب ثقة مواطنيه. وثمة نتيجة أخرى أشدها فن النزال الحربي: ان العالم اليوناني الذي ألف طرق الحرب المقدونية التي اتسمت نسبيا بروح الشفقة والإنسانية، شهد الخوف أو الغضب يملأ فؤاده، كيف يعامل الرومان المدن التي يفتحونها على أن هذه الحرب التي لم تحسمها معركة فاصلة انتهت في (٢٠٥) بصلح عام يسمى صلح فوينيكى (**Phoenice**).

وعند ذلك نشبت على الفور في الدائنين والديني بأيتوليا، وحاول. اسكوباس إلغاء الديون، ولكنه أخفق ثم فر إلى بطلميوس الرابع حيث تولى قيادة جيشه. وسنحت الفرصة لنا بس (**Napis**) وهو قريب من بعيد البيت المالك، فاستولى على إسبرطة بعد أن ظلت بلا سيد مُنذ وفاة ماخانيداس.

وواصلنا بس الثورة هناك فقويت شوكة إسبرطة قوة عظيمة في (الفصل الثالث)، كما أنه حصل على شيء من القوة البحرية بعقده المخالفات مع الكريتيين. ومهما تكن عيوبه ومساوئه انه كان محبوبًا جدًا من جمهرة الشعب. ومن سوء حظنا أننا لم نعثر إلا على إشارات معادية له. وكان اضمحلال الأسطول المقدوني سببًا في ترك منطقة البحر الإيجي بلا سيد أو قائد. وما عتمت رودس في عام (٢٠٠) أن ملأت ذلك الفراغ و أنشأت حلقًا جديدًا للجزر تحت رياستها وزعامتها.

وتوفي بطلميوس الرابع في أغلب الظن عام (٢٠٥)، تاركا على العرش طفلًا صغيرًا هو بطلميوس الخامس إبيفانيس(**Epiphanes**) أي المتجلي، وقدديج لنا وليبيوس صورة أخاذة لتل الثورة التي شبت بالإسكندرية وأسقطت الوزير المكروه أجاثوكليس وأقامت على الملك الطفل أوصياء جددًا، وانتهز فيليب وانطيوخوس تلك الفرصة خاصة وقد كانت أسرتاهما قد لقيتا من مصر شرا مستطيرًا، فبدأ على الفور الهجوم على ممتلكات مصر الخارجية، وكان الأنطيوخوس هدف ثابت ربى إليه، هو استرجاع الإمبراطورية السوقية إلى سالف مجدها ورقتها. وقد عمد بعد معركة رفع إلى استرداد آسيا الصغرى. من أخايوس ابن عمه الثائر عليه، وعندئذ قام بحملته الشرقية الذائعة الصيت. وكان قد فتح شطرًا من أومينية، وجعل أرشك (**Arsaces**) ملك ارثيا تابعًا له يقوم بدفع الجزية، ثم هزم يوثيديموس صاحب باكتريا وأخترق "دولة: الباروبامسيديين **Paropamisa dae**.(وادي نابول)، وأظهر أنطيوخوس قدرة.

سياسية عالية حين ترك ليوثيديموس عرشه ليكون حصنًا منيعا لابد منه، بقى الحضارة عائلة الرحل. وكان في وسعه إذاكان يطالب بقبرص وجزر السيكلاديس (**Cyclades**)، ولكن جنوب سوريا كان أجدى وأهم بالنسبة له. وفي (٢٠٢) اجتاحت جيوش أنطيوخوس جنوب سوريا (وتلك هي الحرب السورية الخامسة)، وهزم اسكوپاس في (عام ٢٠٠) عند بانيون بالقرب من منبع نهر. الأردن، وبذلك صار سيدًا على المنطقة بأكملها (بما في ذلك بلاد الفينيقيين) "فينيقيا" التي احتفظت بها أسرته. وبنى فيليب أسطولا هاجم به المضايق في (٢٠٢) واستولى على ليسيماخيا وخلقدونية وكيوس، على أنه دمر كيوس بوحشية عاد إلى إظهارها مرة ثانية فيما بعد بمدينتي أبيدوس ومارونيا، كان فيليب يحاول تجربة الأساليب الرومانية، فأثار بذلك في الناس قاطبة شعور من عدم الثقة بل حتى الكراهية. وفى (٢٠١) عاد بعد أن اطمأن على الشمال تحول جنوبا واستولى على جزيرة ساموس، ولكنه أظهر حماقة حين أثار حتى رودس عليه عندما هيج عليها جزيرة كريت، وعندئذ عمد أهل

رودس الذين كان قد وعدم بعدم المساس بكيوس إلى الانضمام إلى أتالوس صديق المصريين والوقوف في وجه أنطيوخوس. وتمكن أسطول رودس بالاتحاد مع أسطول أتالوس من خوض معركة قاسية ولكنها غير فاصلة خارج شواطئ خيوس ومع أنه تمكن فيها بعد من دحر أسطول رودس بمفرده قرب لادي (**Lade**)، وفتح جزءا من كارِيا، إلا أنه لم يستطع ألبتة أن يسترد في البحر ما نزل به من خسارة عند خيوس.

أما روما، فإن فتحها لقرطاجه في (٢٠٢) أطلق يديها للعمل، ثم التمست منها مصر ورودس وأتالوس العون، ولم يكن في ذلك الموقف شئ غير طبيعى، بيد أنه من روما مركز الحكم التسلط على شئون شرق البحر المتوسط، وهو المركز الذي لم تتخل عنه بعد ذلك أبدا. ولم تكن روما آنذاك عقدت نيتها الأكيدة على إخضاع الشرق، وكان تدخلها في شئونه حتى ذلك الحين. بناء على طلب الخير، ولكن صارت لها مُنذ تلك اللحظة كتلة ثابتة من الأنصار: هي مصر وبرجامة ورودس وأثينا. أما أثينا فلم تكن تبغي إلا السلام، على حين رامت مصر المحافظة على كيانها، كما بغت رودس حرية الإغريق والبحر. على حين أن برجالة التي كانت دولة السلوقيين من ورائها تمثل خطرة عمدتا مقيما، كانت مستعدة على الحملة أن تواصل مرض روما. ولكن مقدونيا والسلوقيين وآيتوليا فيما بعد أخذت جميعها تلزم جانب المعارضة الوطنية المناوئة لتقدم روما. ولم يكن لروما في (٧٠٠) أي مأخذ تأخذه على فيليب، ولكن يبدو أنها كانت في خوف وقلق تخشى أن يفتح فيليب وأنطيوخوس مصر ويضما أيدهما على مواردها الغنية، ثم يوجهان على روما كل إمبراطورية الإسكندر. ولكن ذلك كان وها باطلا، فان الملكين كانا يرمقان بعضهما بعضا بعين الحذر الشديد وعدم الثقة المتبادلة، وما كان فيليب ليسمح ألبتة لأنطيوخوس أن يعبر البحر إلى بلاد اليونان. وكانت خطة روما أن تقابل ذلك الخطر الموهوم بتحرير بلاد الإغريق وجعلها نقطة دفاعها الأمامي ضد الملكين، فأعلنت الحرب (وهي المقدونية الثانية) و أرسلت جيشا كبيرًا إلى إلليريا. وانضم الأيتوليون أعداء فيليب الألداه إليها في (١٩٨)، وأثار فيليب بتصرفاته عداوة أثينا المسالمة، نهبت ترحب بأتالوس بعد أن عاث فيليب في أرضها نهبًا وسلبا وتخلى الآخيون عنه، كما لم يكن لمن تبقى له من حلفاء وزن كبير. على أن فيليب صمد سنتين كاملتين، ولكن مقدونيا كانت بلغت من الإعياء والإنهاك كل مبلغ حتى لم يستطع في (١٩٧) أن يجمع إلا ٢٦.٠٠٠ رجل بينهم طائفة كبيرة من الصبيان والكهول، فهزم هزيمة ساحقة عند كينوسكيغالاى (**Cynoscepbalae**) بتساليا على يد البرو قنصل ت. كوينتيوس فلامينينوس

ومعه الأبتوليون.

ونضاع الأيتولبون مطالبين بالقضاء على فيليب، ولكن فلامينينوس أبي تنفيذ ذلك. وقضت شروط. الصلح على فيليب أن يتخلى عن أسطوله وأن برفع الأغلال عن بلاد الإغريق – وهي كورنثة وخالكيس وديمترياس – وأن ينسحب انسحابها تامة من اليونان ونساليا، ويتخلى عماله باسيا من مدن منحت عند ذاك الحرية وأن يدفع التعويض اللازم، وبذلك يصبح حليفا لوما. ودفعت روما من هذه المحالفة بما جرته على نفسها من عداه أيتوليا الذي كاد أن يكون سافرة، وذلك لأن أيوليا لم تستطع أن نضم إلى حلفها جميع المدن التي كانت نطالب بها. بيد أن نلاميلينوس أخر ضربه المسرحية القاضية إلى يوم العاب البرزخ (١٩٦)، حين أعلن مناديه في جمع حاشد من الناس أن جميع الإغريق الذين كانوا في الماضي رعية فيليب أو كانوا أعضاء في الحلف الهليني قد أصبحوا أحرارة، وكان ذلك الإعلان أشبه شيء بإعلان أنتيجونس الأول الصادر في (٣١٤). و كانت روما كأنتيجونس سواء بسواء تعمل بدافع سياسي محض لا دخل له بالعاطفة، كما تعني كل حرف تفوهت به في البداية. واندلعت الحماسة في بلاد اليونان طيبا متأججا، ولكن كانت خيبة آمالها فيما بعد مريرة ومن ثم قاسية. وبذلك اتفرط عقد حلف درسون الهلليني. وأصبح أعضاؤه.

بما في ذلك الحلف الآخي حلفاء لروما، كما أكارتانيا، ولقد تفكك اتحاد مدينة. ديمترياس (الفصل الثاني)، وعندئذ أصبحت المدن الأجنبية مستقلة ذاتيا للمرة الثانية واتحدت في جلف جعلت فيه ديمترباس مركزها الاتحادي. فأما الأحلاف الأخرى الجديدة التي تكونت آنذاك في الملف التسالي والحلف الإرهابي واليوبي (**Bubonan**).

وبقي بعد ذلك نابس. وكان فيليب قد حاول في أثناء الحرب ضمه لجانبه بمنحه. أرجوس، وفعلا أخذ نابس أرجوس ومع ذلك عقد تحالفًا مع روما. غير أن ضياع أرجوس أجج من جديد جذوة العداوة الدائمة بين أخايا (**Achaea**) وإسبرطة، وكان الاثنان حليفين لروما، ولكن فلابنينوس أعلن مؤازرته لأخايا وعبر عما بكنه من تقدير لنا بس الذي كان قد جمع من حوله خمسة عشر ألف مقاتل حين ولاه الحق في دعوة كل حلفاء روما من الإغريق لنصرة روما. واجتمع له في النهاية خمسون ألف رجل في لكونيا. وقائل نا بس قتالا عظماء ولما حاول الرومان في ختام الأمر أن يفتحوا إسبرطة عنوة في (١٩٥)، أحرق قائده بيثاجوراس الحي الذي كان معرضة للسقوط وردم خارج المدينة، ولكن نابس خانته أعصابه وعقد الصلح. وبمقتضاه. تنازل عن أرجوس والمنطقة الساحلية ولكنه احتفظ

بإسبرطة، على أن فلامينينوس "يحرر" المدينة ولم يرد الإسبرطيين المبعدين عنها أيام الثورة إلى مدينتهم. وكان إحجامه وامتناعه عن ذلك يرجع من ناحية إلى رغبته في تسوية مشكلات اليونان قبل أن يستطيع حلف جديد التدخل في الأمر، وبسبب أنطيوخوس من ناحية أخرى.

أما أنطيوخوس فإنه بدلا من أن يمد يد العون لفيليب راح طوال (عام١٩٧) واصل فتح ساحل آسيا الصغرى من قيليقيا إلى الهللسبونت، وأنه أعاد إلى بلاده كل ما استقطعه منها أتالوس، الذي توفي في تلك السنة، ولم يترك لوريثه بومينيس الثاني إلا منطقة وجامعة الأصلية، فليس عجيبا والحالة هذه أن يظل بوينس عدو لدودا له. ري (١٩٩٧) عبر أنطيوخوس مضيق الدردنيل وشرع في إخضاع ساحل ترافيا، وكان كل من الإغريق والرومان مغاليا فى تقدير قوته، ذلك أنه قضى حياته ينتقل من نصر باهر إلى نصر، وكان يحكم دولة رقعتها مائلة، ويمثل أمام خيال روما خطر الشيء المجهول. ومثل بين يديه مبعوثون عن الرومان طالبين منه الجلاء عن أوربا. فأجابهم أنطيوخوس بأن كل ما فعله هو أن عاد إلى احتلال ممتلكات سلوقوس: وأنه لم يتدخل في الشئون الإيطالية، وأن روما ينبغي ألا تدخل في شئون آسيا، ودامت المفاوضات ثلاث سنوات ولكنها باءت بالفشل، ذلك بأن أنطيوخوس يكن يخشى إلا أن يترك وشأنه، أن روما لم تكن تريد حرب، خاصة وأن يدها كانت مغلولة إلى عنقها بانشغالها بالحرب في إسبانيا. على أنه كانت هناك دولتان زيدان الحرب: أولا ما مملكة يومينيس الذي كان يخشى أنطيوخوس، وثانيتها أيتوليا التي كانت تريد أن تنتقم من روما. وكانت الجيوش الرومانية قد جلت عن بلاد اليونان في (١٩٤)، بعد أن قامت البلاد الأهوال، وذلك على الأقل لمجرد تزويدها بالطعام مثل ذلك العدد الضخم من القوات، فضلا عن أن الديموقراطيات قد خاب رجاؤها في كل شيء أتلته، وذلك لأن الأثرياء كانوا هم وحدهم الذين يمالئون روما، مثلما كانوا باللون في الماضي مقدونيا،ولذا ان روما رفعتهم إلى كراسي الحكم في كل مكان.

(وفى ١٩٣ – ١٩٢) زوج أنطيوخوس ابنته كليوباترا الأولى من. بطلميوس الخامس، وضمن لنفسه محالفة كل من بيثينيا وكابادوكيا وغلاطية، ومع أن روما أرسلت إليه إنذارًا نهائيًا في (١٩٣)، إلا أنه لم يتخذ للحرب أهبتها الجنة حتى وند عليه وفد أيتولى، وصف له شعور بلاد الإغريق ورجاه أن يعبر البحر إليها ووعده بأن تحالف معه فيليب ونابس. وكان من الطبيعي أن يحرضه على مهاجمة روما بايطاليا هانيبال الذي التجأ إليه مُنذ نفى من قرطاجة في (١٩٥)، على أن من الطبيعي جدا والتمشي مع وجهة نظر أنطيوخوس، أن يعول على تحويل عملية الدفاع عن تراقيا إلى صراع موت أو حياة،".

لذلك مال إلى تفضيل خطة أبتوليا على خطة هانيبال، كما أن وزيره مينيبوس وعد بدوره أيتوليا وعودا جوفاء. نهيت أبترواليا تضرب من فورها، حيث فاجأت مدينة دمتراس واستولت عليها، فكان هذا حدثا رائعًا ولكن فإنها أن تأخذ إسبرطة على غرة، ومع ذلك فإنها قتلت نابس، وانتهز فيلوبويين الفرصة فأجبر إسبرطة على الانضمام كرها إلى الحلف الآخي، ثم عاد في (١٩١) فضم أيضًا إلبس وميسينيا، وبذلك أصبح الحلف يضم كل البيلوبونيز. غير أن إسبرطة وميسينيا كانتا عضوين متكرهين. فكانتا من ثم نقلة ضعف في الخلف. ولكن أنطيوخوس وهو الرجل العاقل المتزن في الماضي، خدعته في هذه المرة أيتوليا ومينيوس، لخانه التوفيق وأبدى قصر نظر عجيب. لم يكن جيشه مستعدة القتال ولكنه أقدم في (١٩٢) على عبور البحر إلى دبيتزياس مع عشرة آلاف مقاتل، وفي قوة كافية لإشعال الحرب ولكنها أضال من أن تخوض غمارها. وكانت صيحة الحرب في تحرير اليونان من قبضة الرومان. على أن الثورة الموعودة لم تقم. ومع أن أنطيوخوس استولى على بوبيا وضم جزءا من تساليا، إلا أن فيليب وأخايا لزما جانب روما، حتى استطاع جيش روماني، بالتعاون مع فيليب، أن يسترد تساليا، في (١٩١) وأن يدمر جيش أنطيوخوس عند تومويبلاى: مصيدة الموت المعروفة، فلم ينج الملك ويفر إلى أسيا إلا بمفرده تقريبا.

وفي (١٩٠) أعد القنصل ل. كورنليوس اسكيبيو العدة لغزو آسيا بصحبه أخوه اسكيبيو الإفريقي، قاهر هانيبال بوصفه القائد الحقيقي للحملة. وكان مما ساعدهما مساعدة عظيمة التماس أيتوليا الهدنة مع روما، فقدما خلال تراقيا بمساعدة فيليب، على حين ظهر الأسطول الروماني في بحر إيجة وساعده هناك أسطولا يومينيس ورودس. وهنا أبلى بوليكسينيداس قائد أسطول أنطيوخوس، وهو من منفي أهالي رودس، بلاء حسنا في القتال. ولكنه هزم في كوريكوس على يد الرومان ويومينيس، غير أنه عاد بعد ذلك قدمى عمارة بحرية لرودس، ولعله كان في وسعه أن هزم الرومان وحدهم بمعركة ميونيسوس الفاصلة التي لعلها هي المعركة البحرية الوحيدة التي خاضتها روما في تاريخها كله وكفة الرجحان ليست في جانبها، ولكن مهارة بحرية رودس كسبت النصر لهم. وبهذه المعركة انتهت سيادة الممالك المقدونية في البحر بعد أن دامت مُنذ سقوط بحرية أثينا قرب أمورجوس في أثناء الحزب اللامية (٣٢٢). وفي نفس الحين كان أنطيوخوس قد جمع جيشه في غضون ذلك، ولكنه فقد رشاده بعد معركة مونيسينوس وتخلى عن الدفاع عن ليسيماخيا القوية التحصين وعن الدردنيل جملة، إذ يلوح أنه اعتقد أن "الحظ" قد ادبر عنه. واستطاع اسكيبيو وأخوه أن يعبرا الدردنيل بمساعدة

يومينيس. ولم يلبثا حتى عزما أنطيوخوس قرب ماجنيزيا في أخريات عام (١٩٠) هزيمة ساحقة يرجع الفضل الأكبر فيها إلى يومينيس. وفي (١٨٩) دخلت قوة رومانية إقليم فريجيا وهزمت الغلاطين حلفاء.. أنطيوخوس، على حين أن فيليب كان في بلاد الإغريق يفتح أبوليا مع.: الرومان. وقاومت امبراكيا مقاومة بطولية مجيدة استطاعت أوليا بفضلها أن تحصل على شروط معتدلة. وعندئذ عادت أيتوليا حليفة لروما، ولكن حلفها. سفر إلى حد جسيم، كما أنها فقدت دلني. وعقد الصلح في(١٨٨) بابامبا بين أنطيوخوس وروما، وبمقتضاه ألزم أنطيوخوس على التنازل عن كل أملاكه السلوقية بآسيا الصغرى عدا قيليقيا، وأن يتخلى عن أفياله و أسطوله وأن يدفع تعويضًا ضخمًا. وطالبت روما أيضا بهانيبال الذي فر إلى بينينيا.

غير صلح أياميا وجه الشرق الهللينستي؛ إذ أصبحت روما عندئذ القوة المتسلطة في كل مكان، ولم تكن أية دولة بلاد الإغريق نفسها بمستقلة عنها حقًا، وكانت فقرات نزع السلاح البحري الواردة في شروط معاهدات السلم الثلاثة المنعقدة في السنوات (٢٠٢، ١٩٦، ١٨٨) قد جعلت من البحر المتوسط. بحيرة رومانية. وجاءت بعد ذلك حقبة حافلة بتدخل الرومان المستمر في شئون تلك البلاد، فكان كل متنازع بشعر بضعفه عن خصمة يلجأ إلى روما وكل صاحب ظلامة نظر إليها، كما كان مندوبو روما ومبعوثوها يسافرون على الدوام إلى الشرق. أما في المدن فان الديموقراطيات التي كانت تناصر.. الاستقلال القوي في داخل موطنها على الأقل، كانت تخيل آنذاك إلى.. الشخوص بأبصارها نحو مقدونيا، على حين كان الأثرياء يؤثرون الخضوع لرغبات روما. وحصل يومينيس على جزائه في معاهدة الصلح، فضم إليه: بمقتضاها ممتلكات السلوقين بآسيا الصغرى شمال. جبال طوروس ونهر الياندر مع أجزاء من سواحل پامفيليا وتراقيا ومدن كثيرة. ولكنه لم يستطع قط أن يبسط كلمته على إقليمي بيسيديا وطوروس الهمجيين، وتقدم حتى البحر الأسود. عند تيوس، وبذلك أصبحت عدو به بيثينيا. بين ذراعيه. رشت بينهما نار جرب استطاعت روما في (١٨٣) أن تسويها لصالحه.. وعندئذ عادت روما إلى المطالبة بها نيبال، فبادر ذلك المسكين يتناول السم قبل أن يسلمه إليها بروسياس، واقتتل بومينيس مع فارناكيس ملك بطش، الذي تمكن رغم ذلك من الاستيلاء على سينوبى و اتخاذها عاصمة له، على أن يوميتيس جعل من نفسه سيدة إقطاعية على غلاطيا – وهو نجاح العمل المذيع العظيم برجامة. هو الذي أقيم لتخليد ذكراه في الفصل النافع)–ثم لم يكتف بذلك بل مد سلطانه إلى كابادوكيا نفسها بل حتى أرمينية. وسوف نعرض في غير هذا المكان لشيء من

علاقاته بمدنه الإغريقية (ف٣). أجل. إن شأنه صار عظما، ولكنه كان مكروها في كل مكان لأنه كان تابعا ذليلا ابن آوى لروما وخائنًا للقومية الهللينية. وتسلمت رودس ليكيا و كاريا جنوبي نهر الياندر.. وبذلك بلغت ذروة مجدها، حيث أصبحت رئيسة لاتحاد قوي من دول مدن: وأصبحت متسلطة على البحر، ولكن الليكيين أخذوا يتمردون عليها مرة تلو أخرى، حتى صاروا كالدمل المؤلم في جنبها. و كان أنطيوخوس لا يزال. يحتفظ رغم كل ما فقد، بإمبراطورية عظيمة، وإن كان طبيعية أن يفلت من قبضته سلطانه على إقليم. بارثيا، ولكنه لي بعض العسر في جمع التعويض المطلوب، حتى قتل في (١٨٧) قتلة غير كريمة وهو يحاول هب معبد بإبليمايس (عيلام). وتولى بعده ابنه سلوقوس الرابع فلم يدخل حربًا ولم يجرد حسامًا، وخيرًا فعل. ولكنه اغتيل في (١٧٥) على يد وزيره هليودورس، الذي قضى أيضا فيا يظهر على والده الذي تولى العرش من بعده. أما ابنه الأصغر. ديمتريوس فكان رهية عند روما، وفي نفس تلك السنة ارتقى العرش أخوه الملك المقتدر أنطيوخوس الرابع إبيفانيس (**Epiphanes**).

وكان الحلف الآخي يستمتع إذ ذالك هو الآخر كرودس تماما بسمعة طيبة، وكان فيلوبومين ممن يؤمنون بالصداقة مع روما، مع تمسكه بالاستقلال التام في كل ما يخرج عن التزامات الخلف كحليف لروما، على أنها كانت ليكيا وإزاء رودس كالدمل المتقيح الأليم، فكذلك كان شأن اسبرطه تجاه آخايا: وحاول فيلوبويمين أن يسوى الأمر فزن!) بالقوة النشوم، ففتح اسبرطه وأزال أسوارها، وأعاد الرجال الذين أبعدهم عنها نابس ومن سلفوه في الحكم،.وألغي نظم ليكورغوس، ثم نقل إلى آخايا كثيرة من المواطنين الجدد الذين اصطنعهم نابس، وباع بيع الرقيق ثلاثة آلاف منهم رفضوا مغادرة المدينة.. وبذلك صار له عدد أكبر من المتقين، الذين بدأوا يلجأون إلى روما شاكين وفي (١٨٣) ثارت مسيني ولم يتيسر إخضاعها حتى تم لها القبض على فيلوبويمين. وتجريعه السم، بل أن خلفه ليكورتاس واصل بيابته، وتولى المؤرخ جو ليبيون أن ليكورتاس، وكان في شبابه، حمل القارورة الجارية لرفات فيلو ويمين عند ما نقلت إلى مسقط رأسه، وفي (١٨١) تدخلت روما لمناصرة اسبرطة، وأتاحت لهم ليكورناس المسمى كاليكرانيس رئيس الحزب الروماني في آخال بأن يعيد بناء على مشورتها جميع الاسبرطين المنفيين وبعيد الأسوار إلى سابق عهدها و نظم ليكورغوس كذلك. وبطبيعة الحال لم بحسن. يوليبيوس الشهادة في كاليكراتيس؛ ولكن ربما كانت مضطرة إلى قبول. تسوية لمشاكل اسبرطة على نحو ما، فكان تصرفها هذا من الأعمال التي لها أكبر المسوغات.

وكان فيليب قد استولي مرة ثانية أثناء الحرب مع أنطيوخوس على مدينة ديمتريـاس بإذن من روما وعلى أجزاء من تساليا وتراقيا. وقد أحتفظ. لنفسه بديمترياس، ولكن روما أمرته بالانسحاب من تراقيا و تساليا. فأذعن لرغبتها طاوية نفسه على المقت المرير لها.. ذلك أنه أسدى لروما خدمات جليلة، ولم يحلق عن ذلك إلا جزاء سنمار الذي صار مُنذ ذلك الحين هو الجزاء العادي الذي يتلقاه منها أصداؤها، وكان كل ما حدث لمقدونيا نفسها من شر هو هزيمتها في معركة واحدة، وأخذ فيليب بعد العدة لحرب ثانية. ولم تكن. نوبات جنونه قد زالت عنه بعد – حيث تجلت قبل ذلك في المذبحة التي أعملها.في مارونايا عند ما أخلاها، وفي قتله ابنه الأصغر دمتريوس لمناصرته روما، وهو أول حادث قتل في آل البيت الأنتيجون، وعندئذ زاد تعسفا على تعيفه. ولكن مواهبه كانت في الضراء ألمع منها في السراء، فأخذ بعمل جاهدة على إفادة مقدونيا إلى سابق عهدها من القوة والرخاء وأمن بمنع قتل الأطفال واستقدم إلى البلاد سكانا فازحين و فتح العمل في مناجم جديدة وسيطر على تراقيا سيطرة تامة، حتى إذا توفي في (١٧٩) ترك لابنه. برسيوس (**Perseus**). مقدونيا في خير حال، قد زاد سكانها وكثرت ثرواتها بصورة لم تشهدها مُنذ عهد كساندر. وقضت وانه على خطته التي اختطها. فانه كان عزم على استخدام اتحاد دويلات الباستار ناي الصديق و هو اتحاد القبائل الغالة على الدانوب الأدنى مد في القض اء على الدردانيين، وعلى استخدامهم هم وأقرباء هي من الاسكوردسكيين في غزو إيطاليا على حين يتقدم هو لغزو اليونان.ولكن وفاته قضت على تلك الحالة إن لم يتحرك للعمل إلا شطر من اتحاد دويلات الباستارفاى، على حين أن الإغريق انزعجوا واتهموا برسيوس بالتآمر على بلاد الإغريق. وعند ذلك أمسك يرسيوس عن تقديم العون المنتظر، وهزم الدردانيون اتحاد دويلات الباستاراى وكسروا شوكتهم إلى حين.

ومن سوء الحظ أن پرسيوس كان أقل من تولى من آل بيت الأنتيجونيين قدرة وكفاية، وكان متردداً ضعيف العزم واني الإرادة لا يبت في أمر من الأمور، ولكنه سرعان ما هفت إليه جميع الأنفس، وتزوج إحدى بنات سلوقوس الرابع، ووصلت العروس إلى بلاده بحراسة أسطول رودس به وشخصت إليه أبصار جميع الأحزاب الوطنية أو الديموقراطية ببلاد. الإغريق، وكثر أعوانه في كل مكان، حتى في رودس نفسها وأبتوليا. ولكن الشخص الوحيد الذي أبي الصلح معه كان يومينيس، وبلغ من حقده أنه ذهب إلى روما بنفسه في (١٧٢) ليحضها على القضاء على مقدونيا. ولا شك أن روما خيل إليها أن برسيوس ربما كون اتحاداً دولياً ضخماً به ولم يكن بوسيوس أساء قط إلى روما.

ولكنها أصغت إلى أقوال يومينيس (انظر الفصل الثالث)، وسنحت لها الفرصة حين أو شك يومينيس أن يقتل في شجار خاص وهو في طريق عودته إلى بلاده، فاتهمت روما برسيوس بالحادث واتخذت من ذلك ذريعة للحرب. وزعم الناس أن يومينيس قتل، فاستولى أتالوس أخوه غلى ملكه وتزوج امرأته إستراتونيكى. فلما عاد يومينيس نزل أتالوس له عن الاثنين جميعا، وكل ما فعله يومينيس أنه قال إن.أخاه تسرع بعض الشيء بالزواج في (الفصل الأول).

أعلنت روما الحرب في (١٧١) ودعت لنصرتها كل حلفائها، حتى إذا وافت (١٦٨) كان لها مئة ألف مقاتل في مقدونيا وبلاد اليونان. مقابل ثلاثة وأربعين ألفا معها برسيوس. ولم يكن مع برسيوس من الخلفاء سوى كوتيس صاحب تراقيا ثم إبيروس. وانضم إليه فيا بعد جنتيوس صاحب إلبيريا.وعمات حكوماتهم على أن نيل الدول الإغريقية محتفظة بجانب الهدوء، وذلك أن مصلحة تلك الدول لم تكن في انتصار برسيوس، بل في بقائه ليخلق التوازن مع روما. وكان برسيوس منهما بالتردد والشيح. ولعله كان يعتقد مع ذلك أن هزمته لجيوش الرومان لم تكن لتعود عليه إلا بصلابة الهمم من جانب روما على القضاء عليه، وأن فرصته الوحيدة كانت تقوم على احتفاظه بموارده وتمطيط أجل الحرب حتى تحمل ربما من بذل جهود غير مجدية. ونجح: برسيوس في تنفيذ خطته ثلاث سنوات مستعينا في ذلك بانتصارات صغرى تافهة وبما أبداه الرومان من عدم كفاية، حتى لم يستطع القنصل ك ماركيوس فيليبوس أن يصبر حدوده من تساليا إلا في أواخر (١٦٩). بيد أن روما أرسلت إلى مقدونيا (١٦٨) قائدًا أمهر، هو القنصل ل. إيميليوس باولوس في نفس الوقت الذي فقد فيه برسيوس عون عشرين ألف مقاتل من الباستار ناى ما حكته ومساوماته في أعطياتهم. وأخذ باولوس يداور حتى استدرج بوسيوس إلى خارج مى كزه المنيع الذي استعصم به، وتمكن من حمله على الهجوم عليه هجومًا سابقًا لأوانه فرب بيدنا (**Pydne**). وتمكنت كتائب الفيلق المقدوني من جرف حرس الطليعة الروماني أمامها، وقد اعترف باولوس فيما بعد أنه كان يرتجف وهم يزحفون عليه السيل المنهمر ويقذفون رجاله يمنة ويسرة على أسنة رماحهم. على أن التشكيلات المهاجمة لم نكن مترابطة ترابطا مضبوطة فاندفعت بعض الجنود الرومانية بين الفيلق والفرسان،: وتطويق الجناح على هذا النحو أصبح الفيلق عاجزة عن الحركة. وكانت. النتيجة المحتومة مذبحة كني. وفر برسيوس بينما كان المقدر نيون يعانون سكرات الموت، وبذلك ضاع مركزه بين أفراد شعبه، وقد فاته أن يحرق أوراقه التي كانت تحتوي على أشياء تدين الكثيرين من اليونان. فلا أن تخلى عنه.، الجميع آخر الأمر، سلم نفسه لروما

واقتيد ذليلا في موكب النصر، ثم مات.تعبة مسورة في أحد سجون روما.

لقد تجلى في التسوية التي تمت بعد ذلك كل من الانحلال الزائد الذي فخذ بنخر في الخلق الروماني والأفول الوقت الذي انتاب عطف الرومان على الهللينستية ونعشقهم لروحها. فقد قسمت مقدونيا بالقوة إلى أربع جمهوريات تم زيدت ضعفًا بفرض قيود اقتصادية عليها. أما الأحزاب القومية ببلاد اليونان التي كانت تساعد برسيوس بالتمنيات الطيبة ليس غير، فقد لقيت عسرة وشر مستطيرا ونني منها في كل مكان عدد كبير من الرجال.ولم ينج من هذا المصير حتى رجال آخايا أنفسهم، وهي التي وضعت جيشها تحت تصرف. الرومان، إذ نقل ألف من زعمائها إلى إيطاليا من بينهم بوليبيوس. ومزقت أوصال الحلف الأيتولى، وأعيدت أيتوليا إلى حدودها الأصلية، ونني أعضاء مجلسها بأسرهم. وقضى على دولة إبيروس إلى الأبد انتقاما منها على غزو بيروس لإيطاليا: وبلغ من عظم الجماهير التي بيعت بيع الرفيق أن أصبح من. الفرد من إبيروس لا يتجاوز بضع شلنات، وبيع أيضا سكان ثلاث مدن يونانية أخرى انضمت إلى برسيوس. وكان أسطول سيول يستعين بمجزرة دبلوس، ولم يكن لديلوس قبل بمنعه، ولكنها عوقبت بضمها ثانية لأثينا، فطردت أثينا السكان جميعًا وأسكنت مكانهم آثينيين حائزين لأنصبة وإقطاعات من الأراضي. (**Cleruchs**). وخدع القنصل فيليبوس رودس التي ظلت دائما صديقا مخلصة لروما. إذ اقترح عليها أن تتقدم للوساطة، ففعلت، ولذا حرمتها روما من معظم ما كانت تمل على أرض آسيا، وقضت على سيادتها التجارية بجمل ديلوس التابعة لأثينا ميناء خرة. ولم ينج من المكابدة حفي يومينيس تفة الذي كان أكثر من حليفة لروما، حيث لقي الشر لأنه أصبح قويًا، فاتهمته روما بأنه كان ينوي أن يتقدم للوساطة (وحقيقة هذا الأمر بكتنفها الغموض) وحرضت الغلاطنين عليه. ولما ذهب إلى روما ليدافع عن نفسه رد على أعقابه دون أن يستقبل لسماع أقواله. ولما أن تمكن في(١٦٦). من كسر غزاة الغلاطين لبلاده بعد صراع عنيف، بادرت روما إلى إعلان استقلالهم الذاتي: وفى (١٦٣) جلس ب. سليكيوس جالبا عشرة أيام في برجامة يستمع إلى الاتهامات المقدمة ضده، ولم تكن أية خدمة تؤدي للجمهورية الرومانية ولا أي خضوع لإرادتها بمستطيع أن يجلب الصداقة الخالصة من تلك الدولة المجردة من كل خلاق. ولا شك أنه قفا صدر عن أي حاكم من ذرى الدم القدر من ضروب التصرفات المتطرفة الحوار ألوان المظالم والجمهور ما يمكن مقارنته بما جرت به سنة تلك الجمهورية في أواخر أيامها. وكانت عاقبة غضب روما على يومينيس هي تخفيض كراهية اليونان الأسيويين له. وتوفي يومينيس (١٦٠–

١٥٩)، وخلفه في الملك أخوه باسم أتاتوس الثاني وعاد مرة ثانيه فتزوج إستراتونيكى.

وتوفي بطلميوس الخامس مسمومًا في (٨١- ١٨٠) تاركا وراءه ثلاثة أطفال صغار، بعد أن تمكن إلى حين من إخماد ثورات الوطنيين التي بلغت ذروتها أثناء حكمه. أما الابن الأكبر وهو بطلميوس السادس الملقب فيلوميتور **Philometor** أي المحب لأمه تزوج فيها بعد أخته "كليوباترا الثانية، وأما الأخ الأصغر فانه هو الذي أصبح فيما بعد بطلميوس السابع وهو يورجيتيس الثاني (**Euergetes II**)، وفي (١٧٣) أعد وزراء الملك السلام العدة لاسترداد جنوب سوريا، بيد أن أنطيوخوس إبينانيس كان يتوقع خطتهم هذه فاستبق الحوادث. وكان أنطيوخوس الخامس و منقذ: آسيا» من أعظم رجال أسرته وأشدهم كفاية، وقد عاش في روما أربعة عشر عاما، وكان لها مقلدة مؤمنة بها وصديقة مقتنعة بضرورة صداقتها، وكان مواطنا أثينية، كما كان معجبة متحمسا بكل ما هو إغريقي، وقد أكثر من تزيين أثينا ومدن أخرى غيرها بما كان يهبها من المعابد والمباني، وزاد في سعة مدينة أنطاكية (**Antioch**)، وأعاد تأسيس مدن كثيرة بوصفها مدنا يونانية (انظر الفصل الرابع). واستجلب إلى بلاده مستوطنين جددا كان ذلك الملك رجلا جوادًا سخيًا ذا أبهة وجلال مستعدًا للقيام بدور الديموقراطي من عامة الناس أو الساخر الهازل ولكنه كان محبوبة. وكان فوق كل شيء، ملا حقا، واعتبره البعض مخبولا، بيد أنه دفع مملكته حتى بلغت ذروة عالية من الكفاية، كما أن التنظيم الجديد الذي ابتدعه فيا بعد وحاول إدخاله في بلاده كان يستحق القدير. وقد غزا مصر في (١٦٩) واستولى على الفرما ومنفيس، وبسط حمايته على بطلميوس السادس. ثم عاد بعد ذللته إلى سوريا. أما عن علاقته ببلاد اليهودية فانظر الفصل السادس، ولكن أهالي. الإسكندرية نصبوا يورجيتيس ملكا عليهم، واعترف به فيلوميتور نفسه، وبذا أصبح أمر ملكان. وفي (١٦٨) عاد أنطيوخوس وحاصر الإسكندرية واتخذ لنفسه اللقب الملكي بوصفه وصية. على فيلوميتور. ولكن الأوضاع كانت قد تغيرت: إذ وقعت معركة بيدنا ومضت روما في تنفيذ سياستها التقليدية من إضعاف السلوقيين فتدخلت في الأمر. وجاء ج. بوبليوس (**C.Popilies**) مبعوث روما وسلم إلى أنطيوخوس. أمر مجلس الشيوخ (الروماني) إيه بمغادرة مصر، ورسم بعصاه دائرة على الرمل من حوله، مطالبًا إياه بأن بيت في الأمر قبل مغادرة تلك الدائرة. وكانت وقاحة لم يستمع الناس بمثلها، وإن شابهها في أغلب الظن في الفظاعة فما بعد اضطرار اسكيبو أيميليانوس للملك بطلميوس يورجي بس الثاني بأن يرافقه سيرا على الأقدام بشوارع الإسكندرية وتعمده الإسراع في السير ليحقر مضيفه اليدين أمام رعاياه. ولم

ي كن. أنطيوخوس يرى إلى تحدي روما، فغادر مصر، وقضى البقية الباقية من عمره محاولا تنفيذ خطته الحقيقية، وهي إعادة غزر باكتريا وتخليصها من.. الأسرة اليوثيديمية وسحق قوة بارثيا الناهضة قبل فوات الأوان. ولكنه توفي في (١٦٣) بعد أن كللت جهوده بالنجاح، فذهبت بموته كل فرصة لإمبراطوريته في القيام بأي دور آخر كدولة عالية.

وكان ابنه أنطيوخوس الخامس طفلا صغيرة فانتهزت روما الفرصة. وطالبت بتدمير الأسطول السوري والفضيلة الحربية، ونفذت الدولة الطلب.. وثارت ثائرة الجمهور لرأي الفيلة المقطوعة الأفخاذ والعراقيب حتى بلغ الأمر بشخص يدعى ابتينيس (**Leptines**) أن قتل رسول الرومان أوكتافيوس، وهي حادثة أسرتها روما في نفسها لا لسبب إلا لكي تدخرها لتستخدمها مستقبلا. بيد أن الصبي بعمر في الملك طويلا، إذ حدث في (١٦٢) أن ديمتريوس اين سلوقوس الرابع فر من روما بمساعدة بوليبيوس، وتمكن بسهولة من التغلب على لسياس وصى العرش المكروه من الشعب، واستولي على التاج باسم ديمتريوس الأول سوتر. وأظهر ديمتريوس في الملك نشاطا. جمة: فاسترد بلاد بابل من القائد تيمارخوس، الذي ثار من قبل على الدولة واعترفت به روما، كما أنه نصب ملكا جديدة في كابادو كيا. عل عدوه أربارانيس الخامس (**Ariarathes V.**). بيد أنه كان مكروهة من شعبه؛ واستطاع أتالوس الثاني أن يرد آريارائيس إلى عرشه. وتحالف الاثنان عليه ومعهما فيلوميتور ملك مصر، ثم ظهر في الأفق مدع للعرش اسمه إسكندر. بالاس (**Alexander Balas**)، ادعي بأنه ابن إبيفانيس.: فاعترفت به كل...دى من روما وفيلوميتور، وغزا إسكندر هذا سوريا بمساعدة مصر، وهزم ديمتريوس وخله في عام (١٥٠).

وفي مصر، كان الحكم المشترك للأخوين فيلوميتور وبورجيتيس قصير الأمر، إذ ثار أمل الإسكندرية في (١٦٣) وطردوا فيلوميتور. ولكن روما أمدته بشيء من العون، ثم عن لها فيما بعد أعادته وتوسطت حتي قسمت المملكة بين الأخوين. فصل فيلوميتور على مصر وقرص، وحصل بورجيتيس على برقة وليبيا. والمأثور المتواتر عن فيلوميتور أنه كان من أحسن البطالة. وكانت روما قد ألمت بها مشاكلها الخاصة، مما جعلها تنفض يدها من شئون مصر والسلوقيين، مادامتا لا تبلغان من القوة حدة بشكل خطرًا على مصالحها واتجه فيلوميتور بتفكيره صوب سوريا. فبعد أن مد لبالاس يد العون، عاد فزوجه ابنته كليوباترا ثيا، وصارت له بالفعل الحماية على المملكة السلوقية. على أن بالاس كان ملكا عديم الكفاية، وما لبث ديمتريوس الثاني ابن ديمتريوس أن عاد إلى البلاد ومعه مرتزقة

من كرت، وأخذ ينازعه على العرش. ناحل فيلوميتور بنفسه الساحل السوري، ولكنه اختلف مع بالاس وسرعان ما تحول عطفه ورعايته إلى ديمتريوس وزوجه ابنته. وهاجمه بالاس في (١٤٥) فهزم وقتل بعد ذلك بقليل، ولكن فيلرميتور توفي متأثرا بجراحه، وعند ذلك أصبح بورجيتيس ملكا على الإمبراطورية المصرية برمتها، وتزوج أخته كليوباترا الثانية أرملة أخيه فيلومبتور. وتنقل الروايات الإغريقية عنه أنه كان طاغية مخضب اليد بالدماء، اقترف جرائم كثيرة، ومن الجلى أن التي الكثير من ذلك دعاية مكشوفة بعوزها السند التاريخي وننقضها من أساسها مجموعته الضخمة من المراسيم التي لا سبيل إلى إنكارها، وإن جاز أن خلقه تغير في أخريات أيامه كما تغير خلق أوغسطس. وقضى ذلك الملك شطرا كبيرا من مدة حكمه في حرب أهلية مع أخته؛ وهو موضوع مشوب بالغموض ولكن الأضواء سلطت عليه حديثة تكشفت معالمه. ثم تزوج الملك ابنة فيلوميتور وهي كليوباترا أخرى ت كني بالثالثة، وكثيرا ما تظهر معه الكليوبطرتان كلتاهما في أعماله الرسمية، فهل ظلت الكبرى منهما زوجته كذلك من الناحية الاسمية ؟ وماذا كانت التغيرات الحقيقية التي ألمت بعلاقة الثلاثة ؟ — تلك أمور تمت الآن استبانتها رحلت أسرارها.. على أن أهم ما يعنينا في حكمه لبس الأمور الشخصية بل هي أمور أخرى (يبينها الفعل الخامس). وتوفى الملك في عام ٦١١٩)، فكان آخر فرد في سلسلة الملوك العظام. من أسرة البطالة.

. وكانت تصرفات مرتزقة ديمتريوس الكويتيين المتطرفة الهواء مثار المعارضة: من السوريين على الفور، وعند ذلك تقدم قائد من قواد بالاس اسه دبودونس فنصب على البلاد أن بالاس الصغير باسم أنطيوخوس السادس، ولكنه ما عتم أن قتل الصبي (١٤٢) وتناول بيده صولجان الملك تحت اسم تيفون. ولم يستطع ديمتريوس. أن تخلعه، فترك زوجته كليوبطية ثيا لتضطلع بشئون الملك بدله بسوريا والنجمه بجيوشه شرق، حيث كان ميثريداتيس الأول ملك: پارتيا قد بسط سلطانه من پورالى (البنجاب) حتى دجلة، واستولى في (١٤٢). على دولة بابل. و كانت المدن الإغريقية بعثت إلى ديمتريوس تستدعيه وتطلب منه المعونة، ولا شك أنه سعى إليها مؤملا أن يعود بموارد مالية وعتاد ورجال تكن للقضاء على ترفون. فوجد منها عونا كبيرة تمكن به. من إنقاذ درة بابل. ولكن ميثريداتيس عاد فأسره واحتفظ به أسيرة مكرمة وزوج من ابنته، وعند ذلك ضم ميريداتيس إقليم بابل ثانية إلى مملكته (١٤١). أما (ثيا) فإنها صمدت في مقاومتها، ولم تلبث حتى جاءها من رودس في (١٣٩) أنطيوخوس السابع سيديتيس شقيق ديمتريوس وزوجها بوصفه الزوج الثالث و قضى على

تريفون. وكان سيديتيس آخر رجل قوى في أسرته و والقيمة الوحيدة التي تنسب إليه في الشراب. وقد وحد مملكته وشد من قوتها وأخضع بلاد اليهودية التي طال الأمد بفقدانها (الفصل السادس)،. تم عبر الفرات في النهاية بجيش عظيم. استقبلته المدن الإغريقية بحراسة بالغة، ففتح أرض الجزيرة و إقليم بابل وطرد فرانيس ملك البارثيين خارج ميديا» وبداكن أوشك أن يسترد إمبراطورية أنطيوخوس الثالث. ومانشب ملك البارتيين أن باغته في معسكره الشتوي في أوائل (١٢٩)، وهزمه وقله واسترد منه كل فتوحه. وآخر ما وصلنا من وثائق السلوقيين البابلية مؤرخ في يونية (١٣٠). وبعث فرانس بجثمان سيديتيس إلى بلاده، فشيعته سوريا. بمظاهر التفجع والحزن الشديد كأنها كانت تعرف أن التاريخ المدى لأسرته الملكية قد انقضى بموته.

ومرت على مقدونيا بعد معركة بيدنا قرة حافلة بالاضطراب دامت بضع سنين، حتى ادعى العرش فيها رجل يدعي أندريسكوس مؤكدة أنه فيليب ابن برسيوس الذي كان قد مات في الحقيقة وإيطاليا. و كانت روما مشغولة تماما باسبانيا، فلم ثمر و فيليب الزائف» هذا التامة كبيرة، حتى نوطد قدمه ووجد من يعينه في تراقيا، ثم غزا مقدونيا في (١٤٩)، وعندئذ اعترفت به المملكة كلها عاهلا. وغزا تساليا في (١٤٨) وهزم قوة رومانية؛ ولكن نفرت منه قلوب المقدونيين لأنه كان مستبدة غشومة، ومن ثم هزمه القائد الروماني (البريتور) ك. كايكيليوس ميتللوس وأخذه إلى روما حيث أعدم. وبذلك أصبحت مقدونيا باعتبارها أولى الدول الهلينستية، ولاية رومانية مُنذ (١٤٨). أجل إنه ظهر هـ فيليب زائف، آخر، ولكنه لم يلق إلا نجاحا ضئيلا، ومن ثم فصاعدا لم يعد تاريخ الولاية في غالب أمره إلا غارات متكررة يشنها البرابرة الشماليون،وهي غارات بلغت أقصى ذروتها و إن لم تكن آخر غارة في الغزو الكبير الذي قام به الأسكورد سكيون والعراقيون في أثناء الحزب الميثريدانية الأولى، التي دمروا فيها دانى ودودونا. وكان فشل الرومان في صد البرابرة أسوأ نقيض للسجل الباهر الذي سجله لأنفسهم في هذا المضار ملوك آل أنتيجونس.

وكان من العسير على بلاد اليونان أن تستفيق من العقوبة التي لقيتها ومن حرمانها من خيرة رجالها لإبعادهم خارج البلاد. وفضلا عن ذلك فان الزيادة في عدد السكان اليونان كانت في بعض النواحي غير كافية لموازنة النقص، و لكن بقيت هناك معركة أخرى يخبئها لها القدر. والكفاح الأخير للحلف الآخي يكتنفه شيء من الغموض. وقد فقد معظم ما كتبه في هذا الشأن ولينيو سري الذي بات في هذا الصدد ميالا الرومان ميلا صريحا، ما.أن روايات بوزانياسى لا تعكس إلينا إلا وجهة نظر

الشايعين لروما، وإن كان من حسن الحظ أن النقوش تساعدنا على تبين الموقف. وإذا نحن متممنا أن الحلف كان آخذا في التدهور وأن الزعماء كانوا من الفسدة المرتشين، كان من الخير لنا أن نتحفظ في إصدار الحكم وظل كاليكرانيس سنين عديدة أكبر سياسي في البلاد، عمل أثناءها الملحة روما دون غيرها، ولكن البقية الباقية على قيد الحياة من المنفيين وعلتها ثلاثمائة فقط عادت حوالي عام (١٥٠) من إيطاليا (ماعدا بوليبيوس). واستولى الديمقراطيون على مقاليد الحكومة واتخذوا قائدة لهم هو دينايوس من ميجالوبوليس وكان أحد أنصار الاستقلال. وتوفي كاليكراتيس في تلك السنة نفسها، ولاح في الأفق أن ما تلقاه ورما من متاعب في كل من أسبانيا ومقدونيا وإفريقية يبشر بانتعاش الأمل في بعث سياسة الحرية من جديد. وحدات من جديد بعض الاحتكاكات مع اسبرطة التي انفصلت صراحة في (١٤٨)، وأعلن الحلف الحرب عليها، ولكن روما تدخلت ودعت كلا من الطرفين إلى مؤتمر يعقد بكورنثة في (١٤٧). وهناك أعلن رسل الرومان أن الحلف لا ينبغي عليه فقط أن يتخلى عن اسبرطة، وهو أمر عادل لا خلاف في عدالته، بل وعن كورنثة أيضا فضلا عن أرجوس وأورخومينوس، وكلما كانت بدي أجيال عديدة أجزاء أساسية في الخلف، وكان الملف قد ظل على الدوام موالية لرها و مناصرة لها وها قد انتوت روما إذ ذالك تدميرها قضت من قبل على الخلف الأيتولى. وهدأ الآخيون الرسل، ولكنهم لم يؤذوهم، إذ أن القصة التي تقول بالاعتداء عليهم أصبح من المسلم به بين جميع الثقات أنه لا نصيب لها من الصحة، لذا أقر الخلف إعلان الحرب في ربيع (١٤٦). إذ لم يكن هناك مفر من ذلك، إلا أن تقضي الأيام بأن ليس من حق الدولة الصغيرة أن تقاتل دولة كبيرة دفاعا عن حرياتها.

كانت الحرب حرب شعب بأسره، وأعلن في البلاد قرار رسمي تأجيل دفع المستحقات (مورانوريوم)، ونقاطر الرجال على التطوع في الجيش كالسيل المنهمر، وأسست في المدن أندية تضم غلاة الوطنيين الأحرار، وتهافت الأعضاء بالتبرعات حتى لقد وضعوا في توزن، فضلا عن جهات أخرى كثيرة، كل ما يملكون تحت تصرف المدينة. وكان الشعور منطلقًا كالسيل الطامي وهو أمر يعترف به حتي پوليبيوس نفسه، وانضمت إلى أخايا كل من بؤنيا وبوبيا وفو كيس ولو كريس. وتقدم القائد كريتولاوس نحو الشمال لينضم إلى حلفائه، ولكن ميتللوسي أسرع إليه بجنده من مقدونيا وهزمه وقتله، وفرت شراذم الجيش التهزم إلى كورنثة والتجأت إليها، حيث انتقلت القيادة من ميتللوس إلى القنصل ل ميميوس. وتولى القيادة عند اليونان دينايوس، فأعلن التعبئة العامة وأمر بإعتاق اثني عشر

ألف عبد رقيق و تسليحهم (وهو أمر لم ينفذ على الإطلاق) وسارع إلى كورية على رأس أربعة عشر ألفة وستمائة رجل، ولعله أعظم جيش استطاع الخلف تكوينه في هدى عمره كله. وتمكن من التغلب على حرس الطليعة لجيش ميميوس، فأغراه ذلك بالتقدم إلى القتال، وإن كان تفوق الدور عليه في العدد ساحقة، وتأثل الفيلق الآخي قتال المستيئس، ولكن الهزيمة لحقت بجنده عند ما كشف جناحها خيالة الرومان التفوق عدة، وعددة، ونجا ديآبوس من القتل في المعركة ولكنه انتحر هو وأفراد أسرته. وكانت أخلايا جديرة بأن تفخر بقتالها هذا الأخير، الذي أبلت فيه أحسن بلاه، ونشرت المدن لوحات الشرف، وقد وقعت في بدا بالصدفة لوحة الشرف الخاصة بإبيداويس، وهي تذكر أن عدد من قتلوا في المعر كه من مدينة صغيرة واحدة هو **١٥٦** رجلا".وأحلميميوس كورنثة فلقيت منه ما لقيت قرطاجة من قبلها وإن تجرد حسامًا لمقاومة. فقتل الرجال جميعا ويسع النساء والأطفال بيع الرقيق وسويت المدينة بالأرض. وكان ذلك تحذيرًا صريحًا متعمدًا بلاد الإغريق (الفصل السابع)، شأن تدمير الإسكندر الطيبة. وكابدت خالكيس وطيبة شر العناء أيضا. على أن ميميوس لم يسئ التصرف في كثير من الأماكن.

وأصبحت بلاد الإغريق منذ (١٤٦) محمية رومانية تدار من مقدونيا؛ فإن بعض الوثائق تؤرخ متخذة من تلك السنة حقبة جديدة، ولكن بلاد الإغريق لم يؤل بها الأمر يعود إلى أن تصبح ولاية. وحصل پوليبيوس آنفذ على إذن بالعودة إلى وطنه، فأسدى إليها أجل الخدمات حين توسط في تخفيف وقع الشداد الأولى على رأسي آغايا، ثم نتمكن فيما بعد من الإشراف على فترة الانتقال في البلاد. ولم تعد لبلاد اليونان أية سياسة خارجية ولا حروب تشتجر فيما بينها، اللهم إلا منازعات الحدود. وأقيمت في كثير من المدن حكومات ديموقراطية " أي حكومات للأغنياء ". وحظرت محاولة تغيير الدساتير حظرًا باتة، فكان أنتيجونس الأول قد ادعى فيما سبق من الزمان وفي بعض مدن معينة في البلاد أن له الحق في " توبيخ ومعاقبة " من يقترحون القوانين التي تعتبر في نظر مغير صالحة،غير أن روما اسقنت إذ ذاك "قوانين جديدة" نعت على عقوبة الإعدام في مثل هذه الأحوال. وفي ذلك ما فيه من إيضاح الفرق بين الحكم – الروماني والمقدوني. ومع ذلك فإن بلاد اليونان كانت هي القطر الوحيد الذي بررت فيه الجمهورية الرومانية نفسها إلى حين؛ فإنها نشرت في البلاد لواء السلام والرغد، ولو كان ذلك بطريق القوة الجبرية. وفرضت الجزية على بعض. المناطق كورنثة وبويا وبؤنيا.. بيد أن أثينا واسبرطة و بعض المدن الأخرى كانت معفاة من الجزية لعلهم يكن هنالك نظام عام

تفرض بمقتضاه الجزية إلا بعد عام ٨٨ وتمتعت أثينا بفترة سعيدة من الرخاء المادي الجميل، كما أن الحقائق التي نعرفها عن ميسيني تشير إلى تمتعها التام بالرفاهية حوالي عام ١٠٠ (الفصل الثالث). وحدث هناك أيضا انتعاش و نهضة دينية، فإلى هذه المدة بنتسب المرسوم التشريعي العظيم الذي يعترف بأسرار أندانيا (الفصل الثالث) وعودة..الوحي الإلهي والخدمة والصلوات بمعبد أبولون الكوروبائي، ونشر سجلاته الدينية في (٩٩) بمدينة لندوس، (وفي المسماة بالتاريخ اللندوسي). وكانت أثينا وبؤنيا ها الزعيمان السباقتان في هذا المضمار، وأصبحت دورة الألعاب البتوئية (**Phoja**) تعقد في بؤنيا كل أربع سنوات، كما أن تاناجرا أسست دورة ألعاب تسمى سيرابيا، وأحيث أثينا في دبلوس حفلات الألعاب الدينية التي كانت تقام كل أربع سنوات وهي شعائر كانت قد ألغيت مُنذ ٣١٤، كما كانت نرسل إلى دلفي بين الفينة والفينة مواكب دينية مزودة بأخر العتاد، هي مواكب البيثياد، لإعادة النار المقدسة رغبة في تطهير المدينة. فكانت هذه الأشياء جميعًا من أعظم دواعي إعادة تكوين الوعي القوي.

وكان حكم أتالوس الثاني الملقب فيلادلفوس حكمًا خاليًا من الأحداث الهامة في برجامة وليس فيه ما يستحق الذكر إلا الحرب العادية المألوفة مع بيثينيا، بيد أن أسطوله ناصر روما في (١٤٨، ١٤٦). وبلغت المملكة في عهده أقصى درجات الرخاء والتقدم. وتوفي في (١٣٩ – ١٣٨)، وخلفه.. أتالوس الثالث ولعله ابن سفاح رزقه يومينيس الثاني، ثم عاد فاعترف به وتبنته الملكة استراتونيكي التي لم تعقب أطفالا. وربما يكون أتالوس الثاني قد تزوج إستراتونيكي التي لم تكن صغيرة السن آنذاك — ولكنه تزوجها ولاء منه ليومينيس – رغبة منه في ضمان العرش لابنه، ذلك هو التفسير الوحيد للعجلة التي أبداها في (١٧٢) وعدم إظهار يومينيس لأي استياء من ذلك. و كان أتالوس الثالث رجلا مضطرب الأعصاب بجمع بين القسوة والغرور. أعدم كثيراً من رجال دولته البارزين وصادر ممتلكاتهم، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن انزوى ونوارى بوازع تأنيب الضمير فيما يحتمل، وأخذ يمارس النحت. وصنع التماثيل ويدرس أنواع السموم. وتوفي في بواكير (١٣٣) دون أن يعقب، مخلفة وراءه وصية ذاع صيتها. ونصت على ما يلي: – منح الحرية لبرجامة، بل وعلى الأرجح لمده الإغريقية عامة، وأن توهب مملكته لروما ومن بعده. ومعنى ذلك أنه أعطى روما أراضي الملك والكنوز الملكية والحق في تولى الملك في برجامة بالنسبة للعناصر الأخرى الموجودة في البلاد. ولا يزال السبب الذي دعاه إلى ذلك موضع الحدس والتخمين، و لعل مرد ذلك فيما يقول البعض هو

كراهيته لوريثه وهو أخ غير شقيق يسمى أرستونيكوس ولعل الهبة، شأنها شأن هبة بطلميوس الأصغر في برقة سنة (١٥٥)، كانت مشروطة بأن تحدث الوفاة لأنالوس في وقت لا يكون له عقب أو ابن يخلفه، وهي نتيجة كان عليه أن يحتاط لها بالطبع، أو لعله توقع فقط أمرًا نصوره: واقعًا وهو أن روما لابد أن تستولي على المملكة متى شاءت. وتقبلت روما الهبة، وخشي أهل برجامة من أن يثور الرقيق فاعتقوا جموعًا كثيرة منهم (الفصل الرابع)، ولكن أرستونيكوس تزعم في (١٣٢) ثورة قومية واسعة الأرجاء على الرومان وربط بين مصيره ومصير الأرقاء. وتمكن بسهولة من هزيمة حلفاء روما: وهم حكام بنطش وبيثينيا وكابادوكيا وبافلاجونيا. ورغم أن برجامة نفسها تخلت عنه، إلا أنه وفق إلى اجتياح كاريا ومحاصرة كيزيكوس و قيامه يغزو الخرسونيين كما تمكن في مستهل ١٣٠ من قبل القنصل كراسوس وتدمير جيشه. بيد أن القنصل الجديد م. بربرنا هزمه وحاصره بمدينة إستراتونيقية، ثم اضطر إلى التسليم وقل إلى روما حيث أعدم. ومع ذلك كله لم تنته الحرب، ففي (١٢٩) اضطر القنصل م.أكويليوس إلى.خوض غمار حرب ضروس في كارياوميسيا. وتنحصر أهمية هذه الحرب في النظريات التي حاول أرستونيكوس أن يضعها موضع التنفيذ العملي في (الفصل الثالث).

واتخذت روما الحرب ذريعة للتخلص من وصية أنالوس، ذلك أنها كانته تحت المملكة بحد الحسام، وفي (١٣٠) سلخت جزءًا منها جعلته ولاية آسيا الرومانية. وأصبحت المدن التي سادت أرستونيكوس مدنًا تابعة وفرضت عليها الجزية، ولكن كثيرًا منها كميليتوس مثلًا، بقيت حرة واعتبرت حليفة الروما. واتبعت روما السوابق الهللينستية:– فكانت تبدأ بتخفيف الضرائب. ولكنها لا تلبث حتى تعيد فرضها فيما بعد بمقتضى قانون سمبرونيوس الذي و سنه ج. جراكوس. ومع ذلك فإن وضع كل مدينة على حدة كثيرا ما كان يتغير إما إلى أحسن أو إلى أسوأ. وكان مطمع الجميع هو الحصول على الحصانة. من الضرائب الرومانية. ولم تكن تلك الضرائب باهظة في حد ذاتها، بل كان.. الباهظ فيها هو طريقة جبايتها. إنها كانت تعطي على سبيل الالتزام لبعض الأفراد بدل أن يجبيها موظفون مسئولون، أعني أن الجابي أو الملتزم (**Publicanus**) كان يشتري الحق في جمع الضرائب في إقليم من الأقاليم. وعندئذ يصبح ما يجمعه فلا شيئا لا يحده إلا مدى جشعه. وذلك هو أسوأ نظام وضع للناس على. مر التاريخ، وخاصة لو علمنا أن الجابي الملتزم للناحية لم يكن في الغالب إلا مندوبًا عن إحدى الشركات بروما. ومع ذلك فإن الدولة كانت تفرض حتى عام ٨٨ شيئًا من القيود على تلك العملية، ولذا ظلت المدن، على الجملة، تواصل رخاءها ورغدها وخاصة منها المدن الحرة.

وفي عام ٨٨ بدأ الصراع الذي كان فاتحة الدمار على الهلينستية، ألا وهو الحرب الأولى التي نشبت بين روما وبين ذلك الهمجي النابه ميثريداتيس يوباتور ملك بنطش. على أن هذه الحروب تخص التاريخ الروماني، وكل ما يعنينا هنا هو أثرها وعواقبها. ولقد تبلور حول شخصية ميثريداتيس كل البغضاء التي يحسها الناس نحو روما ونحو ملتزم الضرائب والروماني، حتى إذا اجتاح بجيوشه في ٨٨ ولاية آسيا الرومانية انضمت إليه كثير من المدن اليونانية. وعندما أصدر أوامره بإعمال يد الذبح والتقتيل في الرومانيين جميعًا استجاب لها الناس إلى حد كبير، أجل إن هناك مدنا كرودس أبقت على الرومانيين وصانت كرامتهم بيد أن عددًا كبيرًا منهم هلك، بلغ ثمانين ألفا أو مئة وخمسين ألفا في بعض الروايات – وجلهم من التجار المسالمين وعائلاتهم الذين لم تقترف يداهم إثمًا وقتل أرخيلاوس قائد ميثريداتيس فوق. هؤلاء السالفين عشرين ألفا أو يزيدون في ديلوس والجزر الأخرى. ووجد ميريداتيس حلفاء له مناصرين حتى في بلاد الإغريق نفسها، من ذلك أخايا ولكونيا وبؤتيا. وكان أشدها بروزًا في هذا التأييد ديمقراطية مدينة أثينا. وكانت حدثت بأثينا ثورة أو ليجركية حوالى ١٠٣، وكانت الديمقراطية تريد أن تسترد سلطانها وتقبض على ناصية الحم، ولكن المدينة السالمة ذات التاريخ التليد ظلت أجيالا عدة لا تظهر أي ميل إلى خوض الحرب، ولذا فان تبنيها الصريح لقضية ميثريداتيس شاهد قوي على أن ما أحسه اليونان من الكراهية نحو سادتهم الرومان، لا يقل قوة عن مذابح آسيا. وقاتلت أثينا قال المستيئس عندما حاصرها سولا (**salla**) قاهر ميزبداني،ولم تستطع بعد ذلك البتة أن نستفيق ما حل بها على يديه من دمار. أما في آسيا، فإن الإجراء الذي اتخذه ميريداتيس من طرد أهل خيوس وترحيلهم من آسيا أغضب هدنة عديدة وجعلها تتفض من حوله. وعلى ذلك حاول استرداد عطف تلك المدن بإثارة الثورات الاجتماعية بها لماله، فأعلن إلغاء الديون ونحرر الأجانب المستوطنين (**metics**) (وهم نفر من الغرباء الذين استقر بهم المقام في إحدى المدن دون أن يكون لهم حرية المواطنة)، كما أعلن عنق الأرقاء، وهنا كان ميثريداتيس. يحذو حذو أرستونيكوس حين حاول استخدام الثورة سلاحا يحارب به روما.

وعلى يد ميريداتيس بلغ رد الفعل المادي الذي قام بآسيا ضد الحكم الغربي ذروته، وهو رد الفعل الذي بدأته كاپادوكيا وبلرتيا وواصلته بلاد اليهودية وأرمينية، فاضطرت روما في النهاية بعد أن بذلت النفس والنفيس في سبيل إضعاف الدول الإغريقية – المقدونية أو القضاء عليها، اضطرت أن تحل محلها كنصير وهام للحضارة اليونانية بلاد الشرق. بيد أن الهلينستية كتب عليها أولا أن تمر في

دور من النكبات والأزمات المدمرة. وأصيبت كل من بلاد الإغريق وآسيا بأضرار جسيمة لوقوعهما بين روما من ناحية، وبنطش من ناحية أخرى، ولعدم تورع كل من الاثنتين عن كيل الضربات الموجعة الأليمة لهذين القطرين التحسين، فارن سولا لم يكفه أن شن الحرب الفعلية عليهما و فرض الغرامات وأنزل المسارات، بل راح ينهب المعابد بأوليمبيا وغيرها من المناطق، ونهب أرخيلاوس ديلوس، كما نهب حنفاء ميثريداتيس المنبر برون دلفي؛ وكان قراصنة قيليفيا الذين يناصرون ميثريداتيس طامة كبرى على من تعمل اليه أيديهم. وكانت الغرامات التي فرضها سولا بكل من الإقليمين شديدة قاسية، كتلك التي فرضها في أثناء الحرب الكرينية في بعد. أنطونيوس الملقب بالكريني، وكانت المدن الإغريقية في غضون تلك الحروب القديمة كلها مضطرة أن تزود الأساطيل الرومانية بالية، وقبل أن يستطيع الشرق اليوناني أن يفيق ويسترجع هدوءه وسلامه وقع في الحروب الأهلية الرومانية وقوعًا لا سبيل له فيه إلى خلاص

أما بلاد الإغريق نفسها في تحلها فرصة للخلاص مما ألم بها، فتجردت مناطق بأكملها من نصف سكانها، وصارت طيبة قرية صغيرة وميجالوبوليس صحراء جرداء وميجاوا وأيجينا وبيراوس أكوامًا من الأحجار، و كان الأفراد في الكونيا وبوبيا ممن يملكون مساحات ضخمة من الأرض لا يجدون.لها من المال في الغالب إلا قلة ضئيلة من الرعاة، ودمرت أبتوليا هي وإيبيروس إلى الأبد. وجاء الفرج آخر الأمر في ٢٧ ق.م عندما جعل أوغسطس من هذه البلاد ولاية رومانية أسماها ولاية آخايا. وازدهرت عند ذلك مدينتان تجاريتان عظيمتان ماكورية التي شادها قيصر وباتراي التي ابتناها أوغسطس، وسمح الأثينا أن تظل محتفظة بجامعتها الزاهرة، واسترجعت إبليس وبؤنيا في النهاية بعض الرخام المادي. وكانت الحيوية لا تزال تدب في بؤنيا، فأخرجت لا أعلامة مثل بلوتارخوس. وبيح لدن أخرى منوعة أن تعاود العيش ونستأنفه بانية محدودة من الحياة. ولكن السلام الذي. جلبه أرغسطس جاء متأخرة جدا بالنسبة لبلاد اليونان في جملتها.

أما آسيا الصغرى فانهار إن لقيت الأمن، إلا أن مصيرها اختلف عن مصير بلاد اليونان. فان فترة الانتقال من تاريخها كانت فترة شر ووبال عليها، إذ فقد كثير من المدن حريته بعد (٨٨)، ولعله كان من الطبيعي أن ينشأ جيل جديد من ملتزمي الضرائب، أشد ابتزازًا وظلمة الناس من إخوانهم القدماء. فبينما كان شخص الدين في ظل بعد القوانين الإغريقية مصونة لا يجوز القبض عليه، أصبح المدينون آنذاك لا بقبض عليهم في بعض الأحيان فحسب بل ويعذبون كذلك، كما يباع أطفالهم.

وكان حكام الأقاليم يبتزون من الناس مبالغ طائلة، ان شيشرون قد كشف النقاب بما يصادفه الإنسان من متاعب كان بجوها على نفسه كل من اتخذ النزاهة العامة أسلوبًا له وسبيلا.وقد اضطرت بعض المدن بعد أن استنزفت كل ما بمعابدها من أرصدة أن تقترض المال من أصحاب المصارف الرومان بالربا الفاحش. وأوقف لوكوللوس الربا حينًا من الدهر، ولكن هذا الداء الوبيل ما لبث أن عاد إلى أقصى قوته في أثناء الحروب الأهلية. ولم يكن أحد من القواد المتنازعين على السلطان يهتم بأي شيء سوى التغلب على منافسيه، عدا قيصر (الذي ألغي إلى حين قصير نظام الالتزام في جباية الضرائب)، في حين أنهم جميعًا كانوا بحاجة إلى المال. وهناك أمثلة قليلة لما كان يحل بالناس من اغتصاب وابتزاز للأموال نجد إشارات إليها بمواطن أخرى من هذا الكتاب في (الفصل الثالث). بيد أن المدن الكبرى لم تدمي تدميرا فعلية، كما أنها فما عدا ذلك ظلت شديدة القوة عظيمة الثروة بحيث لا تنهار أمام مثل تلك الإبتزازت، حتى إنها لا تكاد تحظى بحكومة مستقرة حتى يعاودها رخاؤها أقوى مما كان.

سقطت بقية أقطار آسيا الصغرى في يد روما واحدة بعد الآخر، وكان ما يخفف من وقع الانتقال أحيانا تنصيب ملك تابع على العرش. فألحقت فريجيا بولاية آسيا في (١١٦). وفي (٧٤) حذا نيقوميديس الرابع حذو أتالوس الثالث، فوهب بيثينيا لروما، حتى إذا تمت هزيمة ميثريداتيس نهائيًا جعلها يومي ولاية رومانية، هي وشطرًا من بنطش. أما غلاطية، التي أعدم ميثريداتيس معظم أشرافها، فإن شخصا أسمه ديؤطوروس نصب نفسه ملكا عليها، وقد تمكن كاتم أسراره أمينتاس في (٣٦) من ضمان تأييد ماركوس أنطونيوس والمعمول بذلك على تلك المملكة التي وسع رقعتها جنوبا توسيعا عظيما، ولكنه خر صريعا عام (٢٥) في أثناء قتاله مع الهومادنيين **(Homadenses)** الرابضين في جبال طوروس،وبذلك انتقلت مملكته إلى يد روما. وهناك ملك آخر نصبه أنطونيوس هوبوليمون الذي حكم بنطش من(نهر) إيريس إلى كولخيس وأسس أسرة مالكة، ولم تنقل ملكه إلى قبضة روما إلا في (٣٦) للميلاد، كما ألحقت كابادوكيا، وفي آخر دولة شبه مستقلة، في عهد فسباسيان.

ولا حاجة بنا إلى أن نهتم هنا بالتفاصيل المعقدة والحدود المتغيرة للولايات الرومانية بآسيا الصغرى، و كل ما يهمنا المعلم به هو أن أوغسطس عاود العمل ببعض النظم السلوقية وطبق جزء منها (انظر الفصل الرابع). وكان شطر عظيم من الأرض قد صار أرضا عامة ملكا للدولة (**Ager**

Publicus) في أثناء عم الجمهورية، كما أن بعض الرومان كانوا قد استولوا على مزارع وضياع واسعة، ولكن أوغسطس جعل الأرض ملكا للدولة من جديد و ألغي ملتزم الضرائب وترك جمع الضرائب في يد موظفي الدولة، كما كان السلوقيوس يفعلون.

واستمر حكم السلوقيين ستة وأربعين عاما بعد وفاة سيديتيس، ولكن در لتهم فقدت قوماجيني والها، وأصبحت الأسرة مملكة محلية صغيرة بشال سوريا، وما لبثت الخلافات على العرش أن مزقتها إربا.

وكان فرانيس قد أطلق سراح ديمتريوس الثاني قبل هزيمة ميديتيس، فاسترد سوريا وزوجته السابقة كليوبطرة ثيا، التي ولدت لسيديتيس عند ذاك خمسة أطفال، ولكن تلك المرأة التي أرهقها تعدد الأزواج وزالت عن عينها غشاوة الخداع لم تستطع صبرا على قلة. كفاية ديمتريوس بعد أخيه، حتى إذا هزمه مدع للعرش اسمه الإسكندر زايناس منعته فيما يظهر من القرار والنجاة بنفسه. ذلك أنها قد قررت أن تستولي بيدها على مقاليد الحكم في البلاد. فلما تولى العرش ابنها الأكبر من: دكتر پوس قتلته غيلة بالسم، وعادت فيما بعد فنصبت معها في الحكم ابنها الثاني وهو أنطيوخوس الثامن جريبوس الذي سبق مصيره فقتلها أولا.

وحدثت حروب أهلية لا نهاية لها. بين أنطيوخوس الثامن جريبوس وأنطيوخوس النايع كنزيكينوس بن سيديتيس، وانتقلت الحرب على مر الأيام بين أبناء كل منهما، واضطرت الدين العظيمة أن نرعى شئونها بنفسها، وراح طغاة هزال ومشايخ أعراب يؤسسون الإمارات في كل أرجاء البلاد، وكان الايتوريون (**Ituraeans**) سكان لبنان يغيرون حيث شاء لهم هواه، وتقدم النبط حينا من الدهر حتى أوشكوا أن يستولوا على دمشق. رمكن نيجرانبس في (٨٣) بعد أن وجد أرمينية كلها، من فتح معظم البلاد والقضاء على حكم الأسرة السلوقية، وهو وإن أبغضه الشعب إلا أنه منحه حكومة على الأقل. فلما عزله لوكولوس ضربت الفوضى أطنابها، حتى لقد كان من الخير على الهللينستية الجريمة الكسيرة في شمال سوريا أن يقضى عليها يومي في (٦٤) وحول البلاد إلى ولاية رومانية.

ومع أن مصر تنجب بعد وفاة (بطلميوس) بورجيتيس والثاني معا ملا ممتازًا على أي نحو، إلا أن البلاد كانت لا تزال تنتج الثراء المريض وتمتلك من عناصر القوة الشيء الكثير، كما يتجلى ذلك من مواصلة الاكتشافات والتوسع جنوبية (انظر الفصل السابع).

وحكم مصر بعد بورجينيس أرملته كليوبطرة الثالثة. وولداه بطلميوس الثامن الشاحب الملقب سوتر الثاني (لانتيروس **Lathyros**) وبطلميوس التاسع (الإسكندر). حكما مصر وقبرص مع حدوث بضع تغييرات منوعة في رقعة الدولة واتحادات مختلفة حتى (١٨ – ٨٠).

أما برقة فان بورجينيس الثاني تركها لابنه غير الشرعى بطلميوس أبيون (**Apion**) الذي وهبها في (٩٦) لروما. وانتهت السلالة الشرعية للأسرة. بوفاة ابنة بطلميوس لاثيوس في (٨٠)، و لكن أهل الإسكندرية عينوا الابن غير الشرعي للاثيروس ملكا عليهم باسم بطلميوس الحادي عشر اللقب ديونيسوس الجديد (**Neoe Dionysos**)، و يكني بالزمار (**Aletes**).

وتقول الروايات إنه كان مولعة بالفنون، خليعًا آثمًا من طراز نيرون، تمكن بإظهار الذلة والخضوع لروما من البقاء في العرش حتى (٥٨)، بعد أن فقد قبرص في (٥٨). وتولى الملك من بعده اثنان من أبنائه هما بطلميوس الثاني عشر وابنته كليوبطرة السابعة مشتركين في الحكم.

وابلى الملك الغلام تناصره الإسكندرية بلا جيدًا في القتال مع قيصر وأوشك أن يقضى عليه وعلى مستقبله، على أن بريقا وهاجا قد سلط على سقوط تلك الأسرة وهي. في زها الأخير بفضل كليوبطرة. وقد صنف الكثير عنها ولكن قل منه ما يصور لنا نكرة حقيقية عن ماهية تلك المرأة، التي مهما قيل عن جرائمها وما بها. كانت عظيمة إلى درجة جعلت روما تهابها وتخشاها والتي كانت في جسارتها وفي أطاعها تحاك شيئا من روح الإسكندر – تلك المرأة التي نكهت لها النبوءة أنها ستعود بعد تغلبها على روما فتمد لها يد العون وتنهضها من جديد و تفتح عمدة ذهبية ينتهي به النزاع الطويل بين أوربا وآسيا بالصلح بينهما ونشر لواء العدالة والمحبة. وكان هدفها أن تصبح إمبراطورة للعالم الروماني، ولو أن الأجل أمتد بقيصر فلربما بلغت مشتهاها، ولكن المنية عاجلته واضطرت أن تتجه بوجهتها نحو أنطونيوس بوصفه خير بديل له.

وأخيرًا تمكنت من إقناعه بالأخذ بخطتها الجريئة القائمة على محاولة قهر روما على يد الرومان أنفسهم، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد فوات الأوان، إن تألب أسطوله عليه و إخلاله بواجبه في أكتوم (٣١ ق.م) قضى على كل آمالها؛ وبموتها مستمرة في السنة التالية انتهت فعلا دولة آخر سلالة مقدونية، وجلس أغسطس على عرش البطالمة.

الفصل الثاني

الملكية، والمدينة، والحلف

احتفظت الملكية المقدونية القديمة ببعض خصائص ملكات البطولة الأولى التي يصورها لنا هوميروس وقصص الملاحم النيوتونية. فكان الملك سليل الآلهة ومن حوله من أمراء تابعين. ونبلاء أحرار، بحكم مملكة ذات طابع قومى وطني ولكنه يدعى لنفسه عليها. ولاء شخصية ووطنية في الوقت نفسه، و كان رفقاء الإسكندر هم البقية الباقية من حاشية تمت إلى عهد البطولة؛ أما رابطة الاتحاد القديمة وهي ما تنطوي عليه فكرة القرابة والرحم والعشيرة فلم تكن قد اندثرت تماما في أيامه. وكان الاجتماع الأصلي للرجال الأحرار المشتركين في حمل السلاح – وهم يمثلون الجيش – لا زال باقيا، وما برح أفراده يستمسكون بشدة بها بأيديهم من سلطان.. والراجح أن هذه السلطات كانت بمقدونيا أقدم من الملكية التي لم تكن ملكية مطلقة، بل تحدها حقوق حملة السلاح من الناس، حتى لقد أطلق عليها بعض الناس ملكية شبه دستورية. فلم يكن من حق الملك أن يعين خلفه، فإذا مات الملك انتقل تاجه الشاغر إلى الجيش، فينتخب الجيش الملك، الجديد. وبطبيعة الحال ان ذلك الوريث على وجه العموم أكبر أبناء الملك، ولكن ليس ذلك ضرورة حتمية. فان كان الملك طفلا كان من حق الجيش وحده تعيين. قائمقام ملكي أو وصى. فان حدثت محاكمة على الخيانة حيث كان المفروض أن الملك طرف فيها، وكان الجيش هو الممثل الدولة وهو الذي ينظر القضية ويصدر فيها الحكم. وكما أن الجيش كان ينتخب الملك، فقد كان في مكنته أيضا أن يخلعه، وإن كان مثل ذلك – إن حدث في حالة من قوى الشكيمة – يستتبع لجوء الملاك إلى أعداء البلاد مستنصرة. ولكن الجيش لم يكن له أي رأي في السياسة، فان شاه أن يكون له صوت في سياسة ما، لم يكن له من سبيل إليها سوى التمرد والعصيان – وهو الشيء الذي حدث أحيانًا.

كان الجيش يمثل الشعب تمثيلا تاما، وذلك لأن كل المقدونيين الأحرار. كانوا يؤدون الخدمة العسكرية، بيد أن هؤلاء لم يكونوا يؤلفون جزءًا رسمية من الدولة المقدونية، وكان الملك هو الدولة – مع خضوعه لسلطاتهم المدونة آنفا، وهو وحده مثل مقدونيا في علاقاتها الخارجية وهكذا كان الإسكندر يشغل في حلف كورنثة مركزا مزدوجة، لم يكن الناس يفهمونه دائما. فكان الخلف مكونة

من الدول الإغريقية والإسكندر، الذي هو رسميًا الدولة المقدونية، بينما الإسكندر الرجل ملك مقدونيا كان هو الرئيس. ودام هذا الموقف حتى اعتلى العرش أنتيجونس دوسون، الذي جعل الشعب المقدوني هو "حكومة المقدونيين" وبذلك جعلهم قطعة من الدولة، التي لم تعد عند ذاك في الله "أنتيجونس" –كما تقول لغة التعبير. الرسمي، بل أصبحت "هي الملك أنتيجونس والمقدونيين". ولم يكن ذلك إلا اسمًا أجوف لا يوسع حقوق الشعب بأي حال، بل الواقع أن فيليب الخامس كان يتصرف أحيانًا تصرفات أكثر استبدادًا من أي ملك مقدونى آخر.

غير أن فتح المقدونيين لمصر وآسيا جلب مشكلات جديدة. وفي أثناء حروب خلفاء الإسكندر، احتفظ المقدونيون الذين يعملون بالجيوش خارج البلاد بحقوقهم حينا من الدهر، ولكن الراجح أن هذه الحقوق ضاعت بعد عام (٣٠٠)، حيث لم يعد المقدونيون إلا أقليات صغيرة وسط جيوش مخلطة من المرتزقة. أن ملكات السلوقيين والبطالة ذات السلطان المطلق لا يتبين فيها أي أثر الظواهر الدستورية المقدونية مهما كان نوعها إلا أن يكون ذلك متمثلا في حق تقديم الملتمسات إلى الملك، وهو الحق المعروف بمصر. فان حدث في عهد أواخر البطالمة أن تدخل الجيش أحيانًا، لم يكن ندخله إلا من نوع تدخل أي حرس بريتوري، لا علاقة له بأي حال بالدستور المقدونى القديم. بل الحق أنه كان جيشا لا يكاد يحتوي على مقدونى واحد حر المولد. فلئن كانت مقدونيا هي التي صنعت الملكيات السلوقية والبطلمية، فان آسيا ومصر هما اللتان صاغتاها على صورتهما المعروفة. ولقد كان هؤلاء الملوك هم الدولة تمتعون بسلطان مطلق يباشرونه في جميع الأحوال والأغراض، شأنهم في ذلك شأن دار الأول أو تحتمس الثالث سواء بسواء، يكونوا حكامة قوميين، كما لم تكن هناك حقوق مواطنة إمبراطورية في ممالكهم، كما كان الحال في روما فيها عقب ذلك من أيام. ومن المبررات التي تساق لهاتين الأسرتين المالكتين قولهم إنه لم يكن من الممكن توحيد الشرق والغرب إلا على يد عاهلية مستبدة مطلقة، تقف مترفعة وبمعزل عن اليونان والشرقيين، وهو شي. اكتشفته روما في النهاية بعد أن فشلت الجمهورية في حكم الأقطار الهلينستية. وكثير ما كان كل من السلوقيين والبطالة يجعلون ولي العهد يشترك في الحكم مع أبيه في أثناء حياته. ولم يكن قتل أفراد الأسرة المالكة أمرا غير شائع عند البطالة وبفضله امتنعت الحرب الأهلية في البلاد نحو قرن من الزمان.

ومع ذلك، فان كل ملك فيهم كان متأثرة بالأفكار اليونانية، ويريد أن يبني ملكه على أساس خلاف الفتح البحت، أو لعل الموقف في حالة الملوك الأول المبكرين كان ينطوي على أنهم أكفأ

الرجال الأحياء وأحق الناس بالحكم. وقد مثل هذا الأساسي آخر الأمر بكل من آسيا ومصر في مذهب إلوهية الملك، وهي فكرة ألفها كثير من الشعوب المحكومة مدى أجيال عديدة، ولعلها من أجل هذا السبب عينه كانت فكرة قيمة بالنسبة لحكامها الجدد. على أنه ينبغي ألا يغرب عن بالنا في أثناء البحث في تاريخ هذه الفكرة، أنه كان هناك خلاف ملحوظ بين عبادة الملك بوساطة المدن الإغريقية وبين النحل الرسمية التي كان الملوك أنفسهم يفرضونها على الناس؛ ولم يكن تأليه الإسكندر في أثناء حياته نحلة رسمية، بل كان إجراء سياسية مقصورا على مدن حلف كورنثة التي كانت تؤلهه. و كان يرغب في ذلك لبكى بنشي لنفسه موطئ قدم بالمدن الإغريقية بلاد اليونان القديمة، ويفرض شيئا من سلطانه الضروري عليها، وهي حليفاته الأحرار اللاتي لم يكن بوصفه ملكا يستطيع أن يكون لنفسه بها مركزة وطيدة إلا بهذه الطريقة. وعندما شرعت المدن تعبيد خلفاء الإسكندر، رحب هؤلاء الخلفاء بالفوائد السياسية التي تعود عليهم من العيادة كما عادت إلى الإسكندر. فان أنتيجونس الأول رديمتريوسن الأول وليس اخو. وسلوقوس الأول وبطلميوس الأول بل حتي كساندر نفسه، كانوا جميعا يعبدون بدن مختلفة، ولكن واحدة منهم لم يصبح رسمية ربا لمملكته في أثناء حياته. وحدث فعلا أن ثلاثة من الإغريق نجوا بمصر من بعض الأخطار فأظهروا الميادة لبطلميوس الأول وزوجته بيرينيقة بوصف كونهما " إلهين مخلصين" من الممالك، ولكن ليس من الضروري أن يدل ذلك على قيام تأليه رسمي. غير أن الإسكندر كان مع ذلك بعيد في الإسكندرية كمؤسس المدينة، شأن غيره من مؤسسي الدين الذين كانوا غالبا ما يعبدون. وقد حدث بعد وفاته أن يومينيس وجيشه المقدوني عبدوه، وربما كانت تقام أيضا عيادة رسمية بمملكة. ليسيماخوس (ولكن ليس في مقدونيا) كما نشير إلى ذلك النقوش المرسومة على عملة تلك المملكة، بيد أن العبادة التي اتخذت سنة وسابقة للعالم تجتذى،. في العيادة الرسمية المقدوني الأعظم و التي أسسها بمصر بطلميوس الأول، في موعد لعله بعد توليه العرش في (٣٠٥) بعهد قصير. وما لبث بطلميوس الثاني أن استن الإسكندرية بعد (٢٨٠) بقليل عيدًا عظيما تقديسًا وتأليها لأبيه، بطلميوس الأول. وما عتم أنطيوخوس الأول أن حذا حذوه في عبادة سلوقوس تحت اسم زيوس نيكاتور:أي الناصر (**Zeue Nikator**)؛ وتأسس بذلك المذهب القائل بأن الملوك يصبحون شأن الإسكندر آلهة رسميين بعد موتهم.

ومن المحتمل أن بطلميوس الثاني هو الذي اتخذ الخطوة النهائية، وقد ألهت رسمية أخته وزوجته أرسينوي الثانية تحت اسم الربة فيلادلفوس، وقد تم هذا قبل وأنها، ا ألمه معها. بطلميوس الثاني (الذي

لم يلقب قط باسم فيلادلفوس) ربا رسميا في أثناء حياته حيث كان يعبد بالاشتراك معها، كما يبد بمفرده أيضا. فلما مات صار من الأمور المقررة أن كل ملك بطلى مولى العرش يصبح ربا رسميا في أثناء حياته، ويتبوأ مكانه من العبادة الرسمية. وكان على رأس تلك العبادة الإسكندر، الذي كان يتولى كهانته أكبر عظماء البلاد، وكان اسمه بذكر أولا ومن وراثه أسماء الملوك المؤلهين وزوجاتهم، كل تحت اسم نحلته – فهناك الربان الأخوان (بطلميوس الثاني وأرسينوي الثانية)، والإلهان الخيران (**Euergelae**) والإلهان المحبان لأبيهما (**Philopatotes**) وهكذا، وفي آخر الأمر تبوأ بطلميوس الأول وبيرينيقة مكانهما في قائمة الأرباب بعد الإسكندر مباشرة تحت اسم الربين المخلصين (**Setares**).

والراجح أن ذلك تم في حكم بطلميوس الرابع، و كان لأرسينوي الثانية أيضا كاهنة منفصلة تقوم على عبادتها وحدها، كما فعلت فيما بعد بيرينيقة زوجة بطلميوس الثالث وأرسينوي زوجة بطلميوس الرابع. وكان البيت السلوقي كبيت مالك يعيد عبادة رسمية تنتشر في جميع أرجاء إمبراطوريتهم ولها في كل ساترابية مركز. ولعل ذلك تم مُنذ البداية، ولكن أعيد تنظيم الوضع فيه مُنذ عصر أنطيوخوس الثالث أو ربما أنطيوخوس الثاني. وكان الكثير من الدن أيضا عباداتها الخاصة للبيت المالك. ومن ثم اخترعت للأسرتين المالكتين جميعا أنساب قدسية: فنسب السلوقيون إلى أبولون، ونسب البطالة إلى هيراقليسى وديونيسوس. أما حكام برجامة، فإنهم وإن عبدوا في مدن متعددة في أثناء حياتهم (بعد أن صعد أنالوس الأول إلى أريكة الملك) وألهوا رسميًا بعد مماتهم، إلا أنهم لم يصبحوا رسميًا آلهة ألبتة في أثناء حياتهم. ومن ثم لم يكونوا يستطيعون أبدا أن يدعوا أن أساس ملكهم هو الألوهية والتقديس.

أما مقدونيا فكان لها وضع آخر، فإنها كانت دولة ملكية قومية، ملوها من أبنائها حيث لم يكن ملوك إلي أنتيجونس غزاة ولا فاتحين، بل ملوا قومين انتخبهم الجيش انتخابًا دستوريا، لذلك لم نكن عبادة مثل هؤلاء الملوك رسميا موضع بحث. ومن ثم لم يحدث قط أن ملكا من بني أنتيجونس صار يوما ما ربا للمقدونيين، وإن عساه قد أله بالمدن الإغريقية أو بمدن في مقدونيا تحتفظ بمماتها الإغريقية، وهكذا كان ديمتريوس الأول يؤله في أثينا وبوبيا وسيكيون وفي أماكن أخرى، كما كان أنتيجونس دوسون بعيد في سيكيون وهستيايا (**Histiaea**) ولكونيا، وفيليب الخامس في أمفيبوليس، مثلما عبد كساندر وليس اخوسف كاندرية، على أن هناك ملكا واحدة هو أنتيجونس جوناتاس الذي يشذ عن الملوك جميعا في كل شي. حتى هذه المسألة، فهو يعد ظاهرة عجيبة من حيث كونه. ملا لم يؤلهه أحد

في صقع من دوله. ولعل تربيته وميوله الرواقية جعلته في يظهر بعد مثل تلك العبادة زيفا سخيفة، ولعله ورث شعور جده أنتيباتر، وهو مقدونى من المدرسة القديمة رفض أن يقدم قروض العبادة للإسكندر. و كان جوناتاس نفسه بوتر أن يقيم الأساس النظري لسلطانه على استيفاء ما تتطلبه الفلسفة. وإن تعريفه الشهير الأعباء حكم الملكي بأنها "عبودية شريفة" ليدل بأوضح عبارة على أنه كان يرى أن أساس السلطان هو واجب الخدمة: الملك ينبغي. أن يكون خادمة لشعبه.

والآن ما معنى عبادة الملك لدى هؤلاء القوم؛ لقد سماها الأستاذ وندلاند (في كتابه المشار إليه في قائمة المراجع العامة) "ديانة سياسية"، وهو قول يعبر عن حقيقة واقعة على شريطة التشديد على لفظة وسياسية، وذلك لأن الأمر لا علاقة له بالشعور الدين. وكانت العبادة بالنسبة للملك إجراء سياسية يمنحه موطئ قدم المدن الإغريقية و يضمن استمرار صحة تصرفاته وأعماله بعد مماته، وما ساعد على تمهيد الجو لها ما ران على طبقة المتعلمين عامة من شك. وكفر، وذلك لأن الديانة الأولمبية كانت ميتة موتًا روحيًا، ولم يتقدم شى الحلول لها حتي تأسست ديانة الملك، على أن الخوض في كهرباء هؤلاء الحكام وصنفهم ونسبة تلك العبادة إليهما بعد خروجًا عن الموضوع، فان أحدة من الملوك لم يفكر يوما ما. أنه رب معبود حقا، أو أظهر (فيما عدا أنطيوخوس إيفانبس) اهتمامًا كبيرًا بعبادته هو الخاصة. وأنتياثر وهو ربيب ما أقدم كان يرى في عبادة الملك بعدة عن الورع وخروجًا على التقوى: ولو عرضت مثل هذه الفكرة على الناس في القرن الثالث لعلت وجوههم ابتسامة ساخرة، وإن كان من المرجح أن جوناتاس كان يراها تنطوي على شى. من السخف، ذلك أن الرجل العادي ربما جادل قائلا: ما هو الإله؛ لقد كانت لربين بارزين في ذلك الزمان، ها أبولون وديونيسوس أمهات فانيات من البشر شأنهم في ذلك شأن الإسكندر وبطلميوس تماما. و كانت بعض آلهة أخرى مثل أسكليبيوس من البشر لحما ودمًا، كما أن نظرية يوهيميروس بأنهم جميعا كانوا يوما ما من البشر كانت معروفة للجميع، أجل، إنهم كانوا من الخالدين، ولكن لم يكن الإسكندر الذي لم تزل روحه مصدر إلهام للعالم، بمقتضى هذه الحقيقة خالدة أيضا. ولم تكن. آلهة العقيدة الأولمبية محبو الفرد القانت بأدنى بارقة من الخلاص الشخصي. أو بأي أمل في الجلود، ولا تعده إلا بالزر الضئيل من الرومانية. كما أن هؤلاء الأرباب ما كانوا بوصفهم حماة للأخلاق العليا إلا مخيبين للأمل في معظم أمرهم. هذا فضلا عن أن الفرد كان عليه أن يتقبل الشيء الكثير منهم بالاتكال، اعتمادا على مجرد الثقة، فلربما آمن إنسان بقوة زيوس وعظمته، ولكنه كان يرى ويلمس قوة بطلميوس وعظمته. وما كان في مكة الرب

المحلى أن يطعمه من جوع ويسقيه من عطش، ولكن الملك كان يطعم ويسقى. اجل ربما استطاع الآلة أن ينقذوا ثيمسونيوم من قبضة الغالة، ولكن من المحقق أن أنطيوخوس الأول استطاع الفترة من الزمان أن ينقذ آسيا الصغرى بأكملها. ولم يستطع أبولون مساعدة القائمين على سدانة معبده في دبلوس على الحصول على ديونه من الجزر، على حين أن بطلميوس يبادر عندما يطلب إليه بإرسال قائد أساطيله فيحمل على الديون فورا. و إذن أليست السلطة التي يستمتع بها أحد الملوك شيئا ليس في قدرة أحد الأرباب ؟ -. ذلك هو على الأقل ماكان الناس يعتقدونه. وليس أدل على ذلك من نص الأنشودة الشعبية التي التمس بها الأثينيون من ديمتريوس حمايتهم من أيطوليا وقد جاء كما يلي:

" إن الآلهة الآخرين إما أن يكونوا غير موجودين وإما على مسافة قاصية منا، وهم إما صم لا يسمعون وإما مغرضون لا يأبهون، فأما أنت فإنك هنا تملأ الأبصار، ولست متقمصًا في خشب أو حجر، بل أتتماثل أمامنا حقيقة مجسمة ".

ذلك هو السبب الذي جعل الرجل المادي يجنح نحو عبادة الملك، ولا يغيبن عن بالنا أن أسماء النحل التي كانت تطلق على الملوك الأول، كقولهم سوتر أي المخلص وبورجينيس أي الخير أو المحسن – تعبير عن أنهم كانوا يعبدون من أجل ما يفعلون؛ وقد عبدت أثينا ديمتريوس لأنه أنقذها من كساندر، كما أن رودس والجزر عبدت بطلميوس الأول لأنه أنقذها من ديمتريوس، على حين عبدت أيونيا أنطيوخوس الأول لأنه أنقذها من المال وعبدت ميليتوس أنطيوخوس الثاني لأنه أسقط عنها أحد الطغاة، وكان المفروض أن الوظيفة النموذجية الأساسية للملكية في حب الإنسانية (**Philanthropia**): أي حب المساعدة للرعايا. ولا يذهب عنا أن مثل تلك العبادة لم تكن مقصورة على الملوك بل كانت ظلالها تمتد أيضا حتى تشمل أفراد المحسنين، كديوجينيس الذي أعان أثينا على استرداد حريتها في (٢٢٩) وعبد هنالك من ثم إلى جوار بطلميوس الثالث، ومثل دودورس كاهن زيوس برجامة الذي أقيم له في حياته معبد عظيم بمدينة فيليتاريا، أفتتح افتتاحا رسميًا فخمًا بسبب ما تم على يديه من خلاص رجالة إبان الفتن التي حدثت بعد (١٣٣)، بل لقد أصبح البطل الذي أطلق اسمه على إحدى القبائل، وهو شرف لم يكن يناله إلا الآلهة أو الملوك. وفي نفس الوقت شرعت الشبيبة الأثينية (و**Ephebe**) في تقديم الأضحيات للمحسنين إلى المدينة بوجه عام. وحدث في تاريخ الحلف الأخي أن كلا من أرانوس وفيلوبويمين تلقيا العبادة بعد موتهما، كما أن عبادة الرجال كأبطال بعد الموت كانت أمرًا شائعًا. كانت أقدم من الهللينستية برهن بعيد.

وفضلًا عن لقي المخلص والمحسن، فإن معظم أسماء النحل الملكية كانت نقتبس من العلاقات والروابط العائلية. فهناك من اسمه الحب لأخته (فيلادلفوس) أو المحب لأبيه (فيلوباتور) أو المحب لامه (فيلوميتور)، بيد أنه كانت هنالك تسمية تقوم على أساس مخالف هي لقب إيفا نيس أي الرب المتجلي أو الظاهر. وقد أطلقت تلك التسمية لأول مرة على بطلميوس الخامس عند بلوغه سن الرشد في (١٩٧) في أغلب الظن، فانه لما كان إذ ذال غلاما لم يتجاوز الثانية عشرة، كما أنه ربما كان أول فرد من أسرته توجه الكهنة المصريون على الطريقة المصرية، ان اللقب الذي يقابله في النص المصري على حجر رشيد هو و من بطلع ويشرق، وهو تعبير دقيق من لفظة المتجلي (**Epiphanes**) ربما كان لقب أطلقه عليه الكهنة المصريون، الذين كان الغلام في الحقيقة يعد عنده إله الشمس متجلية على الأرض. على أن الأحداث السياسية في ذلك الوقت لا نوضح لنا السبب في ذلك. بيد أن هذا الاسم أصبح ذا مدلول عام عندما انتقل إلى يد حامله التالي. ولعل أنطيوخوس الرابع الملقب بالمتجلي (إيفانيس) هو الملك الوحيد الذي أخذ الوميته مأخذ الجد، ولكن – أكان ذلك أميرة شخصية بأية صورة من الصور ؟ أم هل كان تألقه وذكائه بمخطئ في بعض الأحيان الخط الفاصل بين العقل والجنون بل تجاوز الجنون أحيانا؛ ذلك أمر صعب

علينا أن نقطع فيه برأي. ولكن من المحقق أن دواعيه وأسبابه كانت سياسية في جوهرها؛ إذ إنه كان يرى أنه لكي يستطيع أن يصمد في موقفه تجاه روما، لا بد لمملكته من أن تكون متجانسة من حيث الثقافة والعبادة، وها أمان لم يكن بد من أن يكونا إغريقيين وإغريقيين فقط. وكما أنه قد أكثر إلى أقصى حد من تحويل البلدان القومية الصغيرة الحجم إلى مدن ذات أشكال ونظم إغريقية، فمن المحتمل أيضا أنه كان يعد عبادة شخصه الملكي في صورة زيوس المتجلى على الأرض، وسيلة لتوحيد علكته. إنه كان أول ملك سلوقى ضرب أسمه المستخدم في نحلته ولقبه الإلهي على العملة. و بعضى الزمن فقدت جميع الأسماء المستخدمة في تحمل الملوك كل معني خاص، حتى تعد لفظة "المتجلى" (إيفانيس) نفسها تفوق في مدلولها مدلول ذلك اللقب الذي دار على الألسن في بعض الأزمان وهو "أشد الملوك مسيحية".

ولما أن تغير الحال. وأصبحت روما شيئا فشيئًا العامل المسيطر في معترك السياسية الهللينستية، بدأت المدن الإغريقية تحول إلى روما ظاهرة عبادة الملك، ومن ثم عبدت والربة روما: وهي الحصيلة الكلية الرومان – بمدينة (أزمير) في ١٩٥ وبآ لابندا في ١٧٠، وكان ذلك في الحالتين جميعًا بقصد

إظهار شكر الناس لها على ما طوقتهم به من و خلاصه، هو ابنتها لهم من أنطيوخوس الثالث، وإنك لتجد نفس هذه العبادة بميليتوس وإبلايا وأماكن أخرى، بعد إنشاء ولاية آسيا الرومانية، وقد منحت روما بالمدن الإغريقية الحرة نفس المكانة والمنزلة التي كانت للملوك المؤلمين من قبل. وكان يصحبها أيضا عبادة و المحسنين و الرومان، مثل فلامينيتوس قاهر فيليب الخامس وان بعيد في الكيس، و م. أكريليوس الذي استوطن آسيا وكان يعيد في برجامة، وكان الولاة الرومان كافة يعبدون في القرن الثاني بلا تمييز بين أحدهم والآخر، حتى لقد لو شيشرون مشقة كبيرة في منع تلك العبادة عن نفسه، ولا شك أن عاملي الخنوع. والخوف يتجليان هنا، وذلك لأن هؤلاء القوم لم يكونوا يجلبون في الغالب إلا الضرر. وبلغ الأمر ذروته بما تم في إفيسوس من عبادة قيصر في صورة «إله متجل» على الأرض، ثم انتقل الأمر كله في النهاية إلى تقديم الولايات جميعًا شعائر العبادة الرسمية لروما وأوغسطس.

أما من حيث الزواج فان خلفاء الإسكندر من الجيل الأول كانوا الصدر الصريح للقانون بالنسبة لأنفسهم، إذ إن كل الظواهر تشهد بأن أنتيجونس الأول وكساندر كانا فيا يظهر مقتنعين بالتمسك بمبدأ عدم تعدد الزوجات، وانبع سلوقوس – وكذلك بطلميوس فيا يرجح – سنة الإسكندر، فكانت لكل منها ملكتان شرعيتان في وقت واحد، أما ديمتريوس وبيروس فكانا من المؤمنين بمبدأ تعدد الزوجات المطلق، والظاهر أن ليماخوس كان على الدوام يبعد الملكة الموجودة قبل التزوج من الأخرى. فلما انقضى الجيل الأول صارت عادة الاحتفاظ بزوجة واحدة فقط بدورها هي السائدة بصورة مطلقة، وإن أمكن أن تنبذ متى شاء الملك و نؤخذ مكانها أخرى، وكانت لبعض الملوك خليلات، وإن لم يتخذ بعضهم الآخر خليلات فيما يظهر. وكانت الملكات تنتخبن بصفة عامة من بين بنات الأسر الملكية، وإن دخلت في عدادها صغار الأسر الملكية بآسيا الصغرى وربما كانت بيرينيقة (بيرنيس) الزوجة الأخيرة لبطلميوس الأول استثناء من تلك القاعدة، ولكن يحتمل أنها كانت من ذوي قربي أنتار. وهناك استثناءات أخرى جاءت فيا بعد ومنها زواج أتالوس الأول من تلك الملكة المطوقة بالثناء الجم، أبولونيس، وابن مواطن من كيزيكوس ومنها زواج أنطيوخوس الثالث بفتاة من خالكيس وحدت في مصر يدافع المثل الذي استنته أرسينوي الثانية فيلادلفوس، – أن رأس الملكة أخذت تظهر مُنذ ذلك الحين على العملة مع رأس زوجها، كما أن كلا من أرسينوي. الثانية وأمها بيرينيقة كانت تلبس إنتاج. وكانت الملكات مصر يلقن مُنذ عهد أرسينوي "بالملكة الأخت" وهو لقب ما لبث السلوقيون أيضا أن اتخذوه لأسباب أخرى، وهو أمر أدى إلى شيء من اللبس فإن

البطالسة المسنة الأول لم يتزوج منهم من أخته إلا اثنان. وهؤلاء الأميرات المدونات موضوع شائق للدراسة، ليس فقط بسبب كفايتهن ومطامعهن، ولا بسبب مظاهر ولا من في الغالب، بل لأنه لا تكاد تكون هناك.. في القرن الثالث على الأقل – إشارة تمس فضيلتهن وتمسكين بالخلق الرفيع، فلم يسجل أحد "أنه كان لإحداهن عاشق". ويلوح أن امرأة كأرسينوى الثانية كان الطموح بشغل عقلها كله ولا يترك فراغا لأى شئ آخر، فكأنما كانت تعرف قدراتها ومميزاتها تمام المعرفة وتريد أن تمنحها نطاط واسعًا حرًا تسرح فيه ونرح. وأتيح لها ذلك النطاق بعد زواجها من بطلميوس الثاني، يوم. أصبحت شريكته في الحكم اسما وحاكمة البلاد الواقعية فعلًا. وإن الطريقة التي عالجت بها حرب الهزيمة مع أنطيوخوس الأول، وأطالتها بيديها الضليعتين.إلى انتصار مصري كاسح، ربما أمكن وضعها متى عرفنا التفاصيل – في مصان عظائم الأعمال التي أدتها أية امرأة في العالم. وظلت النماء تحافظن على قوة شكيمتهن مدة أطول من الريال، حتى في الوقت الذي كانت فيه الأسرات تنحل وتتدهور. و كانت كليوبطرة نيا الملك السلوقية الوحيدة التي سكت العمالة باسمها، تكاد تعين الملوك وتعزلهم بإرادتها، كما أن آخر كليوبطرة مجرية كانت تبعث في نفوس الرومان من الخوف ما بداخلهم مثله من أحد مُنذ عهد هانيبال.

وقد عمت جميع الممالك ظواهر معينة مشتركة. ان الملك كان هو الدولة فيهن جميعا، ولم يكن الوزراء ولا الموظفون إلا رجاله، يعينهم ويعزلهم متى شاه، وكان مجلس أصدقائه مجلسًا استشاريا بحتا. وللملك هو منبع القانون. ولئن كان الموظفون يعملون بقواعد تقررها ونضعها لهم أواجه الملكية،: فإنه هو نفسه كان يضع ما يرى من قواعد، لديه إدارة الإنشاء تضع مسودات أوامره، وفيها كاتم سر ينشئ صحيفة رسمية يراجعها الملك كل يوم، وهي صحيفة تسجل الأحداث العسكرية والسياسية الهامة، ونشأت بين تلك الصحف والأوامر الملكية لغة دواوين، يمكن تتبع أثرها في كتابه پوليبيوس وأسلوبية. و كانت الولايات سواء منها الداخلية أو الخارجية بمحكمها في العادة فواد لهم سلطات عسكرية (**Strategoi**)، وإن لم يستخدم آلي أنتيجونس تلك الطريقة قط بمقدونيا نفسها ولا تساليا، كما لم يستخدموها بلاد الإغريق. إلا على قلة شديدة. وكان للبطالمة والسلوقيين أيضا أمير بحار أعلى (**Nanarchys**)، ويوشك أمير البحار الأعلى للمصري في عهد بطلميوس الثاني أن يكون نائب ملك على البحر.. ولكن نظام الوكالة والتفويض كان على وجه الجملة غير كان. ومن ثم فإن العمل الذي كان يقع على كامل ملك جي الضمير العسكري منه والإداري والفضائي والتجاري بل حتى

المتعلق الإنشاء والبحرين، كان عملا باهظا تنوء دونه أقوى الكواهل؛ لذا فليس ثمة شك في أن ما كان يصيب بعض ذوي الهمة من الملوك الناشطين في أيامهم الأولى، من خمول ظاهر، ليس له من معنى إلا أن قوام قد استنفدها العمل المضني.

. ولما كانت النظم المقدونية تقضي في حالة وفاة الملك بانتقال التاج إلى الجيش حتى بعين الجيش الملك الجديد، كانت النتيجة الحتمية لذلك أن تعطل أعمال المداولة عند وفاة كل ملك، وأن تنتهي بجميع المعاهدات التي عقدها الملك الراحل أو عقدت معه، وكذلك كل المنح التي منحها، حتى يقرها ويجددها خلفه. و كان الملك الجديد يحدد في الجادة المنح المقررة بفرض غرامة في " ضريبة التاج "، في حين أن الطرف الآخر في المعاهدان كان نصبح غير مقيد بما ارتبط به، وهو نظام معيب يمكن مشاهدة آثاره السيئة في تصرفات أبطوليا بوم كانت معاهداتها التي تتعهد فيها جوناتاس يدرسون بالتزام الحياد تنتهي بوفاة كل منهما، على أن تصرفات الملك السلوقي أو البطلمي كانت تظل بمجرد تأليهه وعبادته صحيحة ومعمولا بها بعد مماته، ومع ذلك فان هؤلاء الملوك كانوا يأخذون بالنظرية القائلة بأن المنح تنتهي بوفاة صاحب التاج، وذلك بقصد فرض ضريبة التاج على الناس.

وكان يحيط بالملك البلاط المألوف لدى الملوك، ومن ورائه النظم والترتيبات العسكرية الألوفة مُنذ أيام الإسكندر – وهي حرس الملك. (**Agema**) وفرقة من الوصفاء الملكيين، وهم فتيان من عائلات كريمة دربوا تدري حسنا على أداء المهام التي يكلفون بها، ثم ضباط يسمون بالحرس الملكي: الخاص. و كان حرس الإسكندر الخاص بهم أركان حربه؛ ولكن الذي حدث عند حلول القرن الثاني هو أن ذلك المصطلح لم يعد هو ولفظة "الأصدقاء.. وأبناء العشيرة"، إلا ألقاب بلاط يمنحها الملك حسب سوابق محددة تجعل.من و أبناء العشيرة و أعلام مكانة، و كان المظهر الخارجي الدال على الملوكية والتاج، وهو شريط من نسيج الكتان الأبيض يلف حول الرأس، و كان، الملوك في بعض الأحيان يمنحون بغيرهم كالموظفين مثلا أو المثلين — الحق في ارتداء الأرجوان الملكي الخاص بمقدونيا، الذي نعلم الآن أنه كان بنفسجيا لا قرمزيا. ومما ساعد كثيرا على تكوين ما يشبه "طائفة" ملكية دولية، الاعتراف بالمالك ذات الأهمية الثانوية بآسيا على أنها ملكية، فإن هناك: إلى اليوم قدرة معينة من الرسائل المتبادلة بين الملوك، وهي معنونة بالديباجة. العتيقة "ونحن نرجو أن نجدكم هذه الرسالة على ما غادرتنا عليه من خير وسلام"، تلك الديباجة التي اندثرت الآن أر أصبحت قاصرة على الجهة والأميين، والتي كانت في تلك العصور الموالي هي الصيغة التي كان ملوك الأرض يستهلون بها

على الدوام ما يتبادلونه من خطابات.

وكان الجيش والأسطول مليكا خالصة للملك. وتسابق البطالة وآل أنتيجونس في بناء السفن الحربية بحرا، وهي منافسة بدأت في ٣١٤ باختراع ظهر في فينيقيا استحدثه فيما يحتمل ديمتريوس أو استحدث له – وهو: الهبتيريس Henleres أي المسباعة، وهي غليون على مجاديفه سبعة ملاحين لكل مجداف، و إذن تكون نسبة قوته إلى المخماسة (أي السفينة ذات الخمسة ملاحين لكل مجداف Quinquereme) كنسبة ٧: ٥؛ وقد ظهرت قيمتها حقا في سلاميس (بقبرص) في ٣٠٦. وكثيرًا ما نذكر السجلات اشتراك فلك عليها ثمانية وتسعة وعشرة ملاحين لكل مجداني في عمليات حربية، ونذكر بردية أن تلك الفلك كانت في اللغة الدارجة نسمى بالعدد الحالي إلى المجدان، فتسمى السفينة من هؤلاء "بالتسعية". و أرجح الظن أن الإغريق والفينيقيين – شأن البنادقة فيما بعد– لم يكونوا يضعون أكثر من عشرة ملاحين للمجداف الواحد، وإن عرف فيها بعد استخدام فرنسا لعدد أكبر. ولذا فانه عندما عمد ديمتريوس بعد ذلك إلى ابتنا، فلك ذي أحد عشر، استلزم ذلك مبدأ جديدًا في التصميم، ولابد أن العدد كان يمثل مجدافين مجموعين عليهما ستة وخمسة من – الملاحين، وهم مكدسون بطريقة لا يمكن التحقق منها في أيامنا هذه إلا بطريق التجريب. وعند عام (٣٠١). صار لديمتريوس سفن "ذات ثلاثة عشر" وهي فلك بني منها بطلميوس الثاني مجموعة كاملة. وعندما خسر ديمتريوس مكانته الحرية لمصر في (٢٨٥)، كانت سفينتا القيادة لديه "ذواتا لخمسة عشر ولستة عشر" وقد تمكن بطلميوس الثاني من نشاء ذات الخمسة عشر، ولابد أنه دشنها في دبلوس، وذلك لأن الترسانة العظمى التي يرجح أنها بنيت من أجلها قد كشف عنها الستار. وحصل ليسيماخوس على ذات الستة عشر، وه فلك ذائعة الصيت، وكانت على رأس الأسطول الذي هزم به خلقه كيراونوسن خصمه أنتيجونس جوناتاس و ظلت محتفظة بها في مقدونيا حتى عمد أيمليوس بارلوس بعد معركة بدنا. إلى أخذ السفينة العريقة إلى روما ودفع بها في نهر التيبر. وهناك سفينة أخرى ذائعة الصيت، هي مدينة القيادة عند أنتيجونس جوناتاس المسماة إسثميا: (**Isthmia**)، وهي ذات ثمانية عشر، ومنها هزم أسطول بطلميوس في كوس، وبعد المعركة كرسها بجزيرة دبلوس للإله أبولون. وعندئذ شاد بطلميوس الثاني ذات عشرين وذات ثلاثين، و كرم مصممها بيرجونيليس (**Pytgoteles**)، ولا بد أن ذات الثلاثين كانت سفينة مثلاثة (**Trireme**) جبارة الحجم، عليها ثلاثة مجموعات من المجاديف لكل منها عشرة رجال. وأخيرا شاد بطلميوس الرابع سفينة ذات أربعين،

وهي مرباعة جبارة لها مقدمة ومؤخرة مزدوجتان، مثل السفن القديمة التي كانت تعبر، البحر بين كاليه و دوفر؛ ولكنها لم تنجح. ولا يمكن القول بأن سفينة جوناناس ذات العمانية عشر قد استخدمت يوما في المعارك، وذلك لأن جميع ما كتب عن المعارك البحرية بين جوناتاس ومصر قد ضاع من التاريخ.

وكانت هناك نظريتان مختلفتان تمامًا القتال البحري طوال القرن الثالث وعلى الجملة كانت التقاليد الأثينية الفينيقية القائمة على السفن السريعة التي تداور انتهاز الفرصة الصك بالكباش مستخدمة عند قرطاجة ورود ولربما مصر كذلك (وكانت فينيقيا تابعة لها). وتم التقليد الكورنثي السيراقوزي القائم على السفن الأثقل وزنا والأكبر حجمًا التي تحاول العراك والمنازلة وإنزال الجند إلى السفن المعادية، وهي الطريقة التي استخدمتها مقدونيا وروما. وفي القرن الثاني شهدت السنين المألوفة وهي المرباعة والخامسة أخواتها الكبرى تفني في البحر الإيجي، ولعل ذلك يرجع إلى النفقات والأيدي العاملة وليس إلى عجز في كفاية تلك السفن، بينما استطاع فيليب الخامس أن يحدث انقلابًا في (٢٠١) بنجاحه في أن يدخل إلى الصف في القتال غلايين[1] إلليرية خفيفة تسمى (لمبي **leabi**)، فكانت إيذانًا بظهور السفن الليبورنية (**Liburnian**) الرومانية. وبقيت السفن الهللينستية الكبيرة موجودة بمهر مدة طويلة. كم أن أنطونيوس أعاد استخدامها برهة، بيد أن روما لم تعمد إلى استخدامها قط، وفضلا عن ذلك فان عودة الإمبراطورية إلى استخدام المثلاثات والليبورنيات قد ختم فصلا خارقًا إلى حد ما من فصول التاريخ البحرى.

أما فن الحرب البرية فقد انقلب رأسا على عقب بما أدخله عليه الإسكندر من استخدام الخيالة الثقيلة، ولم تزل الصدارة للخيالة من عهد معركة إسوس و مهم، إلى سلاسيا في (٢٢٢) وكان الإسكندر بارعة متمكنا من فن ربط الأسلحة بعضها بعض – المشاة الثقيلة والخفيفة بطرزها وأشكالها المختلفة والخيالة الثقيلة والخفيفة. واحتفظ خلفائه بجميع طرز الأسلحة تلك وأضافوا إليها فيلة الحرب، التي يستخدمها الإسكندر قط. وقد كانت الطريقة المتبعة أثناء البلدة التي أثره فيها حيا أن تشكيل خط القتال الطرازى يتألف في أساسه من فيلق المشاة الثقيلة في القلب (الوسط)، على أن يكون حملة السلاح الخفيف في الجناحين ويضاف إليه هناك الخيالة. و كانت الخيالة نفتح القال، بل وتختتمه أحيانا – حيث دارت معارك لم تشترك فيها المشاة الثقيلة مطلقا، وانقضى على وفاته قرن من

---

(١) الفليون معرب Galley: وهو السفينة القديمة. [المترجم]

الزمان كانت الحرب أثناءه تشب على يد الجند المرتزقة، الذين يجمعون من كل شعب يسكن أوربا وآسيا. وبعد (٢٧٨) صار المرتزقة الغاليون يفضلون كثيرا على غيرهم لشجاعتهم والسبب آخر هو رخص أجورهم في البداية. وكان الملك يرحبون باستخدام المرتزقة من الجند، لأنهم كانوا بذلك يستطيعون الاحتفاظ بجندهم القوميين الذين هم قوام الفيالق. وفضلا عن ذلك فان المرتزقة قلما قتلوا حتى الموت، وإذا كانت الحرب في الغالب تعني إرغام مرتزقة العدو على السلم ثم ضمه إلى الجانب الآخر. ولكن أخذ التغير بداخل طريقة خوض الحرب عند: قرابة (٢٢٢)، وأخذ الفيلق الذي هو السلاح المقدوني القوي يعود ثانية إلى المقام الأول، و كان العامل الحاسم في معركتي سلاسيا (٢٢٢) ورفح في (٢١٧) هو دخول الفيالق القومية معمعان المعركة، حيث قاتلوا كما يقاتل الرجال الذين يلهب الشعور الوطني مشاعرهم. ومن سوء حظ مقدونيا يوم التقت بروما، أنها كانت نسيت طرائق الإسكندر في القتال. ذلك أن فيلق الإسكندر "كان هيئة ناشطة مرتة مقسمة إلى سرايا عديدة، وتم له حرابها من ثلاثة عشرة إلى أربعة عشر قدما طولا؛ وبعد هذا كله كان يعتني عناية هائلة بوقاية جناحيها، وكم من مرة ل الفيلق العنت والمشقة لإخلاله بالوقوف صفا متراصا. ولكن فيليب الخامس كان يستخدم في كيتوسكيفالاى (**Cynoscephalae**) فيلقا قد أصبح صلبا جامدة غير مرن بسبب نقل الحراب المطولة، حيث في القوم بكل شيء في سبيل الحصول على أكبر عدد ممكن من رئيس الحرابة بارزة أمام الصف الأول، بينما أهملت الحاجة الحيوية الماسة إلى حرس الجناحين الشهيد القوة، ولا شك أن الفيلق لم تكد تتاح له فرصة عادلة مواتية في أي من كينوسكيفالاي أو بيدنا، وذلك لأن كلا من المعركتين بدأت بطريقة غير منتظمة. ولا شك أن الفيلق متى توفرت شروطه الضرورية: وهي الأرض المنبسطة وحرس الجناحين الذي لا سبيل إلى اختراقه –كان يستطيع أن يهزم الكتائب أو أي تشكيلات أخرى. بيد أن توفر مثل هذه الظروف كان أمرًا نادرًا ولم يحدث في الواقع عند الحرب مع روما ب ا أن ندرة الكتيبة على إجادة القتال في معظم الظروف والأحوال كانت أميرة فاطمة لا شك فيه. لقد هلكت الفيالق ونظامها.هلكت الدناصير (في المملكة الحيوانية) بسبب شدة إفراطهما في التخصص.

وكان عصر السفن الحربية الجبارة في الحر هو عصر حرب الفيلة على البر. وكان قواد الإسكندر جميعا يقدرون الفيلة أعظم تقدير لتأثرهم القوي بالمعركة العنيفة الستينية التي دارت بيع يوروس، ولا يزال في إمكانا إلى اليوم أن نتعقب وصول أسراب القليلة المختلفة من بلاد الهند بين عامى ٣٢٤،

٢٧٥. وقد شرع. بطلميوس الثاني حوالي ٢٧٥ في اصطياد الفيلة من أفريقيا؛ ولا شك أن بعثه العجيبة التي بعث بها إلى فندوسارا الموري كانت لطلب مدري الفيلة وسواها من أبناء الهند. وظل البطالة يذنبون الفيلة حتى القرن الثاني. ولكن السلوقيين كانوا هم "السادة الحقيقيين ليلة" فالفضل الأكبر في استيلاء سلوقوس على آسيا إنما يرجع في الواقع إلى فيلة إيسوس **(Ipsus)**. وعندما حاولت روما في (١٦٣) نزع سلاح تلك الأسرة، كان القضاء على سلاح القبيلة هو الشيء الذي أثار ثائرة الأهالي إلى أقصى حد. وكانت الفيلة ملاحة قالا في أول مرة تلتقي فيها بجنود لم نتعود القتال معها.. فان التقت بمشاة خبيرة محنكة فسرعان ما تفقد أثرها، ولكنها كثيراً ما تكون ذات نفع عند ملاقاة الراكبة. وقد التقت الفيلة الهندية الأفريقية ذات مرة عند رفع لقاء هزمت فيه الإفريقية في أحد الأجنحة، ولكن لا يجوز لنا أن نستنتج من ذلك أي حكم نصدره، وذلك لأن الفيلة الإفريقية كانت أقل عددًا بكثير من الهندية.

وقد عالجنا في موضع آخر من الكتاب موضوع النظام الإداري السائد في ممالك كل من آسيا ومصر: ولكنا سنلقى هنا نظرة إلى شئون مقدونيا في حكم آل أنت جونس. فإن هذه الدولة ذات الحكم القوى احتفظت بقوتها إلى النهاية. وكانت تعتمد على جيشها الوطني، حيث لم تكن المرتزقة تستخدم إلا بقصد الإبقاء على حياة الجند المقدونيين ما أمكن ذلك. وكانت حياة البلاط أبسط منها في المالك الأخرى، وذلك لأن مقدار الثروة كان صغيرًا نسبيًا (حيث لم تزد حصيلة ضريبة الأراضي كثيرًا على مئتي تالنت سنويًا) كما أن العرش كان يشغله حتى أخريات أيام فيليب الخامس عوامل من طراز رفيع، و كان ولائم لأسرتهم مضرب الأمثال، فلم تعرف الأسرة الاغتيال والقتل حتى تولى فيليب الخامس، على حين أنه كان من أروع مظاهر عصر الملك جوناتاس و لمه بالفلسفة والتاريخ و حلقة الأدباء الذين جمعهم من حوله. وعادت بيلا **(Pella)** مرة ثانية فأصبحت حاضرة البلاد، ولم يحاول أحد أن يشيد مدينة تنافس الإسكندرية أو أنطاكية، ولعله لم تكن هناك أملاك للملك في مقدونيا ذاتها، و أن الفلاح المقدوني كان يمتلك مسرعته؛ ولكن الأرض كانت تنتقل ملكيتها. إلى الدولة أو بمعنى آخر الملك – في المناطق المقهورة التابعة للدولة مثل خلقديكي وبايونيا. و كان آل أنتيجونس يعالجون شئون أرض الملك بنفس طريقة السلوقيين (أنظر الفصل الرابع)؛ فكانوا يمنحون الضياع للنبلاء وأنصبة من الأراضي على النحو المألوف للمستوطنين العسكريين والمرتزقة الذين وفوا فترة الخدمة العسكرية، ولكن الظاهر. أنهم لم يكونوا يمنحون الفرد قط ملكية الأراضي بصفة مطلقة

كما كان السلوقيون يفعلون غالية، بل يحتفظون للدولة بحق استرداد الملكية. أما أراضي الملك غير الممنوحة لأحد فكان يزرعها المستأجرون، وفوق هذا كان الملوك يمتلكون المناجم والغابات.

وقد اصطبغت مقدونيا عامة أو على الأقل طبقاتها المايا بالصباغ الهللينستي في القرن الثالث، فحلت اللغة اليونانية ذات اللهجة الأتيكية و (الأثينية) أو "اللسان المشترك" (الكويني) محل اللهجة المقدونية، كما حل آلهة الأوليمب محل آلهة البانثيون القوى. وكان المقدونيون قد أصبحوا آنذاك شعبًا واحدًا على الرغم من تخلط دمائهم،وصارت قادرين على هضم وتمثل من مستوطنون. بلاده من الأجانب. وأصبحت البلاد لا تعدو أن تكون وحدة أخرى في الدائرة الإغريقية، لكنها أقوى من زميلاتها جميعا، وإن لم نستطع مرة أخرى بحال ما أن تجمع جيوشا التي تم لها حشدها في القرن الرابع. وأخذ الناس المقيمون بالمدن الإغريقية الساحلية يسمون أنفسهم آنذاك مقدونيين..وقد أصبحت يلا (ومعها دون ريب مدن مقدونية قديمة أخرى)، هدنة مقدونية لها أنظمة المدن اليونانية وأشكالها. وبني آلي أنتيجونس عددا قليلا من المدن ذات... الأهمية الثانوية، ولكن المدينتين الرئيسيين الجديدتين بالبلاد قد أنشأهما كلتيهما كاندر: وهما تسالونيكا (سلانيك) وكساندرية بالموقع الذي كانت به بوتيديا. وكلتاهما كانت مدينة إغريقية روحا وتنظيما، حتى أن أهل كساندرية لم يدعوا أنفسهم قط مقدونيين. وكانت مقدونيا تبدو لعين الإغريق شيئا غريبا لسببين، أولها أن ذلك القطر لم يكن له مركز الدين والعقيدة، وثانيها أن الشعب كان يؤمن يقين بالملوكية و ذلك بأن أسرة أنتيجونس تمكنت بفضل جوناتاس من الاستيلاء على عواطف الناس وكسب محبتهم بحيث أن تلك الأسرة لم تسقط إلا بسبب القوة الهائلة الحارقة التي أونيها العدو الأجنبى ورغم وجود أولئك العظماء الذين أخرجتهم مقدونيا، فلعل أعظم شيء في... ذلك القطر الصغير هو الفلاح القدر في العادي:– ذلك الرجل الحر القوى بالولاء، صاحب الانحدار العام في كل من الحرب والسلم على السواء، ولم تسقط مقدونيا صريعة أمام الرومان إلا لسبب واحد هو قلة عديد المقدونيين.

وتاريخ تلك الفترة بالنسبة للمدن الإغريقية بوضعها الذي كانت عليه في ذلك الحين يسجل مرحلة انتقال تلك المدن من دول مدن حرة إلى بلديات في عهد الإمبراطورية الرومانية. وتبدأ الحقبة بنظريتين بمضمار بين عن علاقات الملوكية بالمدينة، فان الإسكندر عامل المدن الإغريقية كحلفاء أحراز، بينما رغب أنت باتر في معاملتها كرعايا ودول خاضعة، يضع الحاميات فيا يشاء منها وينصب في دست الحكم بها أو ليجر كيات تناصره أو طغاة يمالئونه؛ ودام الصراع بين هاتين السياستين زمنا

طويلا. وبطبيعة الحال حذا كساندر وليسيماخوس والبطالة وآل أتالوس حذو أنتيباتر في معاملته المدن معاملة الرعايا التابعين. أما أنتيجونس الأول فإنه أحيا أساليب الإسكندر متخذًا منها سلاحًا سياسيًا ضد كساندر، وظل سنين عديدة يعامل المدن معاملة الأحرار حقا، ولكنه عاد فيا بعد فأخذ يتدخل في شئونها، وإذا به في النهاية يضع الحاميان فيا يشتهي منها. وانبع ديمتريوس نفس النهج، حيث بدأ بالحرية وانتهى بالإخضاع، واستحدث هو وليسيماخوس ظاهرة جديدة هي الضرائب، ولعله نظام تطور عن المساهمة المالية الحرب وكانت تدفع اختيارًا بالاسم فقط، للإسكندر وأنتيجونس الأول من المدن الخليقة. أما جوناتاس ي فإنه استخدم جميع الطرق حسبما اقتضته الحاجة والضرورة؛ وعاد دوسون عودة صريحة إلى أسلوب الإسكندر. وفي عهد سلوقوس وأنطيوخوس الأول كانت بعض المدن ود حلفاء أحرارة، وتعد بعضها خاضعة تفرض عليها الضرائب (الجزية) فما يبدو (أنظر الفصل الرابع)، وكان إرجاع أنطيوخوس الثاني الحرية المنطقة أيونيا حدا بعد في التاريخ. ولعل النزعة السائدة على وجه الأعمال إلى معاملة المدن كتوابع خاضعة في الفكرة المتسلطة الغالية، التي كان يغيرها أحيانا مع شيء من المشقة والجهد بعث سياسة الإسكندر القائمة على المخالفة الحرة، يد أن ذلك الموضوع معقد بدرجة عائله" لاحتوائه على كل ما يتصوره العقل من أنواع التغييرات والاستثناءات. و كانت هناك بطبيعة الحال مدن اكانت هنالك بلاد الإغريق نفسها أقطار لا صله لها البتة بأية ملوكية مطلقا. ولم تكن المخالفة الحرة تنطوي على حرية مطلقة غير مقترنة بأي شرط، وذلك لأن السياسة الخارجية للمدن كانت نصوغها يد حليفها الأقوى، على أنها كانت تتمتع بحرية داخلية تامة. وبمضي الوقت أخذ فرض الضرائب بصبح رويدا رويدا علامة الإخضاع، كما انت غيبة الضرائب آية على الحرية و رحل حاكم المدينة أو مندوب الملك (**Epiatates**) محل أساليب أنتيباتر – وهو نظام ليس من الضروري أن يقرن بالجور إن كان في أيد مخلصة عادلة، وهناك طريقة أخرى طبقها القوم في بعض الأحيان، هي أن يتولى الملك بنفسه تعيين واحد أو أكثر من الحكام الرئيسيين، كما فعلت أسرة أتالوس ببرجامة وكما فعل بطلميوس الأول في برقة (**Cyrene**) وكما فعلت فيا يرجع أسرة البطالة في عهدها الأخير بمدينة بطلية بمصر. وقد فعل جوناتاس ذلك بمدينة أثينا من ٢٦٢ – ٢٥٥، ولعل تلك المعادلة هي الحالة الوحيدة التي حدثت بلاد الإغريق ذاتها.

وسنتخذ الآن من حكم جوناناس مثلا" على مدى التباين المشار إليه في الفقرة السابقة، فانه كان يحكم مقدونيا القديمة وتساليا حكما مباشرة، وجعل مدنها تحت إشراف حكام للمدن، ولكن

مجالسها لم تكن تخضع لهيمنة أحد. وكان حكم يخلق ديسكى بواسطة أحد القواد، وكان لسالونيك حاكم مدينة يهيمن على مجلسها، على حين تمتعت كساندرية فيما يحتمل بالاستقلال الذاتي تماما. ولم توضع مجالس المدن قط ببلاد الإغريق تحت ضبط أحد، ولكن وضعت الحاميان بمدن كورنثة وخالكيس و بيرايوس، كما أنها وضعت تحت حكم قواد عسكريين هي وميجارا ويوبيا. وظن أثينا تستمتع بالحرية مُنذ (٢٨٨) فما بعدها، ولكنها كانت على علاقات طيبة بجوناتاس، ثم تحول الحال غير الحال وإذا بأثينا من (٢٦٢ إلى ٢٥٥) تحشد فيها حامية ونصب عليها حاكم مدينة (Epistates)، كما يعين جوناتاس الحكام السنويين، ولم تلبث أثينا أن من حيث الحرية بعد (٢٥٥) وأخليت من الحاميات، ولكن جوناتاس كان إذ ذاك هو السيد الأعلى بصورة فاطمة لا ريب فيها. وكانت أرجوس وميجالوبوليس وربما عدد آخر من المدن البيلوبونزية، تحكم لمصلحته على يد. مشايعين له نولوا الحكم بوصفهم طغاة على البلاد، أما بقية بلاد اليونان فلم. تكن ها به علاقة و كانت بالتبعية حرة تفعل ما تشاء، ومن ثم فإن مثل هذه الحال لا يمكن تلخيصها تحت عبارات عامة جامعة تدور حول إخضاع بلاد اليونان. إذ كان تفاعل القوي محتدم الأوار بالبلاد شأنها في كل أيامها الألفة، ولم يكن هناك من فارق حقيقي إلا أن مدنا بعينها مثل كورنثة، قد ضيقت عليها آنذاك فرصة الاستمتاع بالحرية. غير أنه ينبغي ألا يغيب عنا ونحن نتكلم عن الحرية، أن الإغريق غالبا ما كانوا يقصدون بها مجرد الحرية المطلقة في تدمير بعضهم بعضا، وأنه لم يكن يمنعهم من ذلك شي. أو بكبح جماحهم دونه إلا وجود ملك أو حلف. وشاهد ذلك أنه عندما أحاب بهم أجيلاوس في (٢١٧) الاتحاد تحت راية واحدة ضد روما كان أحد المغريات التي عرضها عليهم لاستمالتهم، احفاظ كل منها بحق محاربة الأخرى دون تدخل من أحد، بل لقد حدث في أخريات تلك الفترة أن بيزنطة (و كانت مستقله. آنذاك) دميت. كالانيس أو كادت، وهي أشد مدن غرب البحر الأسود إزدهارًا. بل الملحق إن نظام الوحدة الفيدرالية نفسه (Federalism) وإن جاز أن يكبح الجماع، إلا أنه لم يستطع أن يوقف روح الانفصال والأنانية، تلك الروح التي كانت تكية ولعنة على بلاد اليونان.

ولو نظرنا إلى الأمر من ظاهره إبان القرن الثالث لبدا دستور المدينة الإغريقية ذات الحكم الذاتي كأنما هو على صورته الأولى و كأنها لم تمسسه بد تغيير، فكان بكل مدينة جمعية تضم شمل الأحرار ومجلسها وحكامها وسلطاتها التشريعية على مواطنيها، رها ماليتها غير المستقرة وها خلافاتها الداخلية. أجل إنه حدث فعلا بشال بلاد اليونان زيادة هائلة في عدد المدن المستقلة دانيا وخاصة في أيطوليا.

ولكن الواقع أن يد التعديل والتحوير كانت لا تنفك تعمل، وذلك بسبب الحقيقة الأساسية من أن الحياة السياسية الفعلية للمدينة من حيث هي أم يشرك فيه الجميع، كانت قد أخذت نفقد ما كان. لها عند الناس من أهمية وما تحظى به من اهتمام (الفصل الثالث). حتى إذا حل الربع الثاني من القرن الثالث كانت الأوليجر كية والديموقراطية بوصفهما نظريتين سياسيتين قد لفظا آخر أنفاسهما، وأخذ الأساسي الذي يقوم عليه انقسام الناس شيما و طبقات چه اتجاهات أخرى جديدة. فكان الأساس في آسيا هو أنشي للسلوقيين أو الحزب البطالة بينها كان الأصل في أية مدينة من المدن الانضمام لحزب الملك أو للأحزاب الوطنية والروح القومية، ولكنه كان في كثير من الأحيان هو الفقر والغني، وهو عندى نذير سوء – وذلك لأن الأحزاب الديموقراطية القديمة كثيرة ما كانت تضم الأغنياء والفقراء جنبا إلى جنب، وخسرت الجمعيات التي تضم شمل الأحرار تفوقها..أجل إن السلطة ربما كانت ننتقل إلى المجلس (مجلس المشورة)، ولكن كثيرا ما كان بتولاها الحكام مجتمعين بهيئة لجنة. وما يشهد باطراد زيادة أهميتهم أنه كثيرا ما كانت المدينة التي تعقد حالفة أو ننضم إلى حلف نعمد إلى تغيير هيئة حكامها بحيث تم تقيم وهيئة حكام الحلف أو الحليف. على أن هناك وظيفتين لحكام لم تنيا تزداد ان عظمة وقوة: ها وظيفة الموثق أو المحتسب "الأجورانوموس" (**Agoranomos**) الذي كان يشرف على تزويد البلاد بالقمح، ووظيفة الجمنازيارخوس (**Gymnasiarchos**) الذي كان يشرف على التربية والتعليم، وحدث في بعض مدن آسيا أن وظيفة الاسطفانيفوروس (**Stepha nepheros**) الكهنوتية وهو الذي كان اسمه يطلق على السنة، أصبح شاغلها هو الموظف العمومي الأكبر، ولم يكن يستطيع تولى ذلك المنصب إلا رجل ثري، وذلك لأنه كان من أعبائه إقامة الحفلات والولائم للمواطنين. وعمد القوم إلى طريقة بيعه بالمزاد العلني وبذلك استفادت المدينة استفادة مزدوجة، وذلك يكشف عن صدق الوطنية في المدن. حتى إن الفترة المتأخرة، من حيث أنه كان بين الرجال من ينفقون المالي التماسًا لمزية المزيد من الإنفاق: ولكن الذي كان يحدث أحيانا في أزمان الشدائد والفتن هو أن المنصب لم يكن بجد نارية بشربه، وأن الرب المحلي كان يشتري الوظيفة وتسعى باسمه و السنة.. وأخذت مناصب الكهانة تباع بانتظام هي الأخرى مُنذ القرن الثاني، كما كانت تتطلب بعض النفقات، وإن كان الشاري في هذه الحالة يتلقى بعض المال مقابل ما أنفق، فإنه ربما نجا هنا من تحمل أعباء وظيفة (الجمنازيارخية **Gymnasiarchy**) أو وظيفة (التريرارخة **Frierarchy**) أو الالتزام بتقديم المال أو جوقات المنشدين اللازمين للحفلات والأعياد، وذلك في حين أنه حدث في ميليتوس. (مليطة) في القرن الأول أن.كـامن الشعب الروماني كان يتقاضى راتبًا متواضعا. وربما

اضطر الجمنازيارخوس والمحتسب أو الموثق (الأجورانوموس) أن ينفقا عن سعة ما أيضا. وكانت النتيجة النهائية التغيرات التي مرت بك آنفا هي أن الرجل الفقير لم يعد يستطيع أن يتولى أحد مناصب المدينة، ما لم يتكفل بنفقات النصب وتمويله أحد الملوك أو أحد المواطنين الأثرياء، وهو أمر حدث في بعض الأحايين، ولا أن صارت الخلية والسلطان الجمهورية الرومانية دفعت هذه النزعات أشواطا أخرى إلى الأمام، فأحلت روما التيموقراطيان (حكومات أصحاب الدخول من عقار ثابت) محل الديموقراطيات، وظهرت جان جديدة من الحكام، مثل لجان البوليتارك (**Politarchs**) بالمدن المقدونية والتسالية، كما أن السلطة كانت تتولاها أحيانا أو ليجركية ضئيلة، مثل "أعيان ميليتوس الخمسين". وربما ادعت روما أن كل ما نعمله هو أنها إنما تدفع سلطات أولئك الموظفين الملقبين (**Demiourgoi**) و (**Apukleroi**) بالحلفين السابقين الآخي والأبتولي، إلى نهايتها المنطقية.

وهناك إجراء انتشر حتى أصبح طراز) شائعًا عمد الملوك إلى استخدامه كثيرة: هو إدماج المجتمعات (**Synoecism**)، أي تأليف وحدة واحدة من مدينتين أو مجتمعين أو أكثر، فكون أنتيجونس الأول مدينة أنتيجونيا الطروادية من تجميع سبع مدن، كما ضم كساندر ستة وعشرين مجتمعا أنشا منها سالونيك. وربما محيت تلك المدن التي تدمج، ولكن الغالب ألا بنقل من السكان إلا شطر فقط وتظل المدن القديمة باقية على حالها ولكنها تصبح قرى (أي أحياء **Demes**) تابعة للمدينة الكبيرة الجديدة. وكان أعجب إدماج عرفناه هو مدينة ديترياس الواقعة على خليج باجاساى وهي التي أسسها ديمتريوس ليجعل منها بعاصمته الجنوبية. وكانت تجاور باجاساى وحولها سور منفصل مكونة بذلك مدينة واحدة. ذات حين.ولم يدم شيء في سبيل إنشائها، ولكن باجاساى وكل مدينة بمنغنيزيا تقع بين رأسن سيبياس وتعي على التخوم المقدونية أصبحت قرى تابعة لديمتراس التي أصبحت بدورها تضم كل أراضي مغنيزيا وتكون امتداد المقدونيا نحو الجنوب. حتى إذا نزعت روما من فيليب الخامس مغنيزيا، حطمت ذلك الإدماج.

ولم تكن المدينة هي الشكل الشائع الوحيد للدولة الإغريقية، وذلك لأنه يكاد كل قطر بشال اليونان ينتظم في صورة هيئة تقليدية من المجتمع الكانتونى الذي يطلق عليه من غير تفرقة ولا تمييز كلمة (**Koinon**) أي المجتمع أو الحلف أو القبيل، وله على الدوام مركز عبادة ديني. فقد أدى شعور المدن الصغرى المتزايد إن القرن الثالث بالعجز وقلة الحيلة إزاء الحكومات الملكية، إلى زيادة الاهتمام بتوسيع مبدأ الوحدة الفيدرالية بلاد الإغريق نفسها توسيعا عظما، حتى أوشكت الأحلاف

الهلينستية الكبرى أن تصبح هي المرحلة الوسطى بين المدينة والملكية، وكان كل من تلك الأحلاف جنح إلى الانضواء تحت رأس واحدة، ولذا فإن أراتوس (القائد والزعيم) كان يستمتع.

في الحلف الآخي بسلطة تماثل سلطة الحاكم الفرد المطلق، وقد أدت تلك الأحلاف للبلاد خدمات جليلة، فكانت تمنح أعضاءها أنا أعظم وقدرة أكبر على المساومة مع الحكومات الملكية، على حين كانت تجعل منازعات أعضائها محدودة في أضيق نطاق، وتحول دون نشوب القتال بينهم. ومن سوء الحظ أن اليونان لم يكن لديهم إلا كلمة.**Koinon**: هذه يطلقونها على كل شكل بلا استثناء من أشكال الجماعة خاصة كان أم عامة، فهم ما كانوا إلا ليطلقوا لفظة كوينون **Koinon**. هذه بدرجة متساوية حتى على عصبة الأمم أو الجمهورية السويسرية أو هيئة كلية من كليات كمبردج أو على نقابة العمال أو نادي لعبة الكريكت بالقرية، ومن ثم لم يعد من سيل في ترجمة ذلك. المصطلح إلى تجنب الوقوع في الخطأ في استعمال لفظة حلف.

وقبل الخوض في حديث دولة الاتحاد الفيدرالي نفسها (**Bundesalaat**) يجدر بنا أن نوجه التفاتا إلى إحدى الهيئات وهي المكونة من اتحاد كنفدرالي مفكاك مؤلف من دول منفصلة ذات سيادة وهو ما يطلق عليه (**Staateobund**). وحلف الجامعة الهللينية الكورنثي الذي أنشأه فيليب الثاني وواصل الإسكندر العمل به مقتضى معاهدات جديدة، كان في حد ذاته رق نوع اتجاهه فكرة عظيمة. وهو الذي مهد للبلاد الفرصة الوحيدة التي سنحت لها في تاريخها كله التحقيق ذلك الحي القديم: توحيد العالم اليوناني، إن كان اليونان يعدونه حلما يداعب أخيلتهم. كان مخالفة بين الإسكندر والدول اليونانية، كل بمفردها – باستثناء إسبرطة وحدها، مع تكون مؤتمر من المندوبين. يجتمع بمدينة كورنثة، وكانت كل دولة عضو نظل دولة ذات سيادة، ونكون شئونها الداخلية حرة من كل ندخل مالم تقم ثورة اجتماعية بإحدى المدن (الفصل الثالث). على أن الإسكندر كان هو الرئيس للحلف والقائد الأعلى أقرانه، وكانت سيادتهم الخارجية في الواقع ملك بيته. ومع ذلك فلم يكن هذا الحال شيئا لا مندوحة منه، فلو اهتمت المدن الكبرى بتنفيذ شروط الخلف بعزيمة صادقة وبتكاثف مطلق لبلغت من القوة ما يمكنها من الحيلولة دون كل اعتداء على حريتها ومن سماع أصواتها عالية في السياسة الخارجية. وكان مصدر القوة. في الحلف أنه كان يمنح المدن الصغيرة حقوقا تتناسب مع حقوق المدن الكبيرة، حتى لقد كانت بعض المهن تعده عهدة بضان الحرية، ولكنه في بعض المدن الأخرى كان لسوء الحظ يرتكن إلى حكومات مكروهة من الشعب، كما أن كثيرا من الإغريق اعتبروه رمزًا للتسلط

الخارجي. فليس شجيا إذن أن ينهار الحلف بمجرد وفاة الإسكندر. على أن إحياءه على يد ديمتريوس في (٣٠٣) أتيح له جو أفضل، وذلك لأن حلف ديمتريوس كان يقوم على حكومات ديمقراطية كانت تريده بكل إخلاص. ولكن هذا الحلف أيضا ما لبث أن تفكك بعد إيبسوس (**Ipsus**). وظل منهارة حتي أحياه أنتيجونس دوسون للمرة الثالثة، حيث يعد الأعضاء آنذاك مدنا مفردة، بل أحلاف أخايا و بؤنيا و في كيس وتساليانو بيروس وأكارتانيا ومقدونيا، إذ لم تبق هناك تقريبا دولة مدينة واحدة باقية بمفردها فما عدا أثينا واسبرطة، وذلك لأن ملك مقدونيا وحده لم يعد من الناحية الرسمية كما أسلفنا إليك هو الدولة المقدونية. ولم يكن حلف دوسون يدعي بأنه حلف جامعة هللينستية، ولكن دول الحلف بلغت من القوة بحيث اضطرت فيليب الخامس إلى خوف غمار الحرب الاجتماعية رغم أنفه وهو أمر يوضح لنا عاما مدي ما كان حاله كورنثة القدم يستطيع صنعه لو رغب، وهذا الحلف آخر محاولة بذلتها. مقدونيا لتوحيد بلاد اليونان. ولكن بلاد اليونان مالبثت أن توحد شملها في النهاية في اتحاد جامعة هللينستية كنفدرالي مفكك الأوصال:وقد أنشأ تلك الجامعة الإمبراطور هادريان، وذلك بعد ثلاثة قرون من فقدانه لكل معنى له. وكان إنشاؤه من سخريات القدر حتي لكأني به نقش ساخر على قبر الوحدة التي لم تستطع بلاد اليونان تحقيقها بحال.

وإذا نحن ألقينا نظرة إلى الاتحاد الفيدرالي في حد ذاته ألقيناه يتألف عند اليونان من ثلاثة أصناف: " أ " الحلف الذي ينشئه ملك أو يتخذ منه أداة لمآربه، هب الخلف الذي كان يتولد عن تقوية الروابط بين أجزاء بعض الأقسام الكانتونية، " ج " حلف المدن. وتساليا هي المثال الرئيسي الذي يمثل الصنف الأول، فمُنذ عهد فيليب الثاني فصاعدا أي إلى أن خسر فيليب الخامس الإقليم في (١٩٧) كان كل ملك مقدوني يتولى الملك بحكم تساليا كجزء من مقدونيا بأن يصبح رئيسة مدى الحياة لحلفها. ولا شك أن ملوك إبيروس كانوا يحكمون أحيانا أكارنانيا بتولي رئاسة جافها. أما إيبروس نفسها فيتجلى بها صراع طويل معقد بين مبدأي الاتحاد القدر إلى والملوكية، حتى إذا وافى عام (٣٠٠) كانت أصولها الثلاثة وهم أقوام المولوسين (**Molossians**) والخايونيين (**Chaoniuus**) والثيسيروتيب:(**Thesprolians**) قد كونوا من أنفسهم " المحالفة الابيروسية" الفدرالية بزعامة ملك المولوسينن، الذي كان شعبه من المولوسيين يستطيعون عزله متى. شاءوا، وقد أوشكت الملكة أن تصبح استبدادية مطلقة في عهد بيروس وحدث حوالي (٢٣٥) أن قتل الشعب آخر أفراد من سلالة بيروس وجعلوا.. در ترم جمهورية فدرالية. وثمة هيئات شديدة الغرابة والشذوذ هي تلك الأحلاف

التي أنشأها أنتيجونس الأول أثناء كفاحه في سبيل توسيع سلطانه. انه كان يتمنى أن يكون من جديد حلف كورنثة، ولكن لما كان تحقيق ذلك أمرا مستحيلا حتي (٣٠٣)، فإنه أنا أحلافًا محلية ثلاثة: هي (١) الحلف الأيوني وهو بعث للحاف القديم. (٢) والأليومي وهو حلف يضم المدن الأبولية جاعلا من إلليوم المركز الرئيسي الفدرالى. (٣) وأهل الجزر ويضم سكان الجزر السكلادية من الأيوبيين ومركزهم الفدرالي هو ديلوس. ولم تكن هذه الأحلاف دولًا ذات سيادة، حيث لم تكن لهم جمعية. تضم شمل الأحرار ولا رئاسة مدنية ولا بسلطات عسكرية ولا قضائية ولا عملة مسكوكة فيما يظهر. و كان يجري تصريف الأعمال بواسطة مجلس: يتألف من مندوبين، على أن تولي المدن القيام بالنفقات غير العادية. أما المهمة الكبرى الملقاة على عاتقهم نهى إقامة أعيادهم الفدرالية وعبادة أنتيجونس... ولم تكن تلك الأحلاف في واقع الأمر إلا منافذ ينفذ بها أنتيجونس إلى بسط نفوذه على المدن التي يتكون منها الحلف.

وإن شئت مثالا على الأجلاف التي تطورت عن الأقسام الكتونية التي تضم شعوبا مختلفة، أمكننا أن نسوق إليك أمثلة منها بعديدة بشال بلادا لإغريق، ولكن أهم مثال تستطيع ضربه هو أيطوليا، وهي القطر الوحيد بالبلاد الذي يفتحه. مُنذ البداية إلى النهاية الكويتية قط فلك. ولم تكن لأيطوليا عاصمة فضلا عن أن مدنها قليلة كانت قليلة الغدد، وقصبة الاتحاد الفدرالي بها هي معيد. أبولون.

عبد ثرموم، حتى إذا أعادت تنظيم هيئتها الكوميونية القديمة، ولعل ذلك قد تم في زمن المخالفة الطيبية لعام (٣٧٠) وبتأثير " إيبا مينونداس " ذلك الداعية العظم للاتحاد.(بل حتى قبل زمانه فيما يحتمل)، فكثيرًا ما كانت وحدات الأحلاف لا هدنة بل نواح ريفية تجمعت حول قرية أو حصن فوق تل؛ بيد أن المدن واصلت على التدريج تطورها. و كانت السلطات السياسية جميعا في قبضة الجمعية، التي كانت تضم كل أيطولى حر. وكان مصدر تلك الجمعية هو الجيش وأفراد الشعب القادرون على حمل السلاح، كما أنها كانت البديل المدني للجيش. و كانت تعقد اجتماعاتها مرتين كل عام، إحداها قبل موسم الحملات الحربية وثانيتهما بعد ذلك الموسم. وينصب على رأس الحلف قائد ينتخب كل عام، فيصبح رئيسا للدولة وقائدة أعلى للجيوش، ولم يكن في الإمكان إعادة انتخابه إلا بعد انقضاء فترة من بضع سنين. أما الموظفون الآخرون في الدولة فهم قائد الخيالة و كاتم أسرار وحكم أو رئيس في مسابقات الألعاب وحفلاتها **Agonothetes** وسبعة مشرفين على المالية. ولم

يكن نظام أيطوليا من ذلك النوع الذي تفرض فيه الدول الأعضاء سلطاتها إلى هيئة فدرالية، أجل ما الحلف نموا طبيعية عن منظمة الحرب الشعبية، بيد أن المدن كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي الداخلي كما تحتفظ بما كان لها من حقوق المواطنة.

وكان كل أتساع في نطاق الحلم الأيطولي معناه أن أي قطر ينضم إليه كان يفكك إلى مدن أو وحدات منفصلة وبضم إليه على تلك الصورة. إذا كانت الوحدة الجديدة مناعة الأراضي الخلف، انضوت في ملك "الدولة المندمجة" (**Sympolity**) مع أيطوليا، أي أن شعبها كان يصبح أيطوليا من كل النواحي، وصار له الحق في حضور الجمعية العامة. فإن كانت المدينة بعيدة صارت حليفة ودخلت في حالة تبادل للمواطنية ومساواة في الحقوق (**Isoplity**) فيصبح مواطنوها أيطولين وضمة وحقوقا، ولكن كونهم مواطنين أبطوليين بهذا الحكم الاعتباري لا يصبح حقيقة واقعة إلا إذا هم سكنوا إحدى مدن والدولة الأبطولية المتحدة أو المندمجة» (**Sympolity**)، فأصبحوا بذلك مواطنين فيها (وهو حق يخوله لهم القانون). وسنلت مرة ثانية بهذه المواطنيات الاعتبارية في مناسبات أخرى تالية. وكان للحلف الأيطولي مجلس (بولى **Bouie**) مكون من أعضاء تنتخبهم وحدات الحلف بحيث يتناسب عددهم مع حصة كل حليف من الجند، بيد أن تلك الهيئة انت ضئيلة الحظ من السلطان، لا تستطيع البت إلا في الأمور الجارية التي لا يمكن إرجائها حتى دورة الانعقاد الأهلية للجمعية التي تضم شمل الأحرار. على أنه زيادة اتساع نطاق الخلف جعل من المستحيل إدارة شئون الحكم بوساطة و الجمعية العامة و – أي بعقد اجتماعها العام مرتين سنوية. ولم توفق أيطوليا بومة إلى إقامة أي نوع من أنواع التمثيل النيابي، و كانت النتيجة أنه تفرغت عن مجلس البولي لجنة ليس لها أصل في الدستور وتسمى اللجنة المختارة (**A pokletoi**) وهي نشترك على الدوام مع القائد و نتولى حكم البلاد فعلا، وإن احتفظت و الجمعية العامة لنفسها بحق التصرف في شئون الحرب والسلم. وهكذا انتقلت أيطوليا بين (٢٨٠، ٢٢٠) فصارت أقل دول الإغريق ديمقراطية بعد أن كانت أشد دوهم ديمقراطية.

وكان الحلف الأيطولى أول حلف استخدم مواطنيته الفدرالية كوسيلة التوسيع نطاق رقمته؛ وما عتمت آخايا وبؤوتيا أن حذا حذوه. فإذا حلت (٢٢٠) صارت الدولة الأيطولية المندمجة (**sympolicy**) تمتد عبر بلاد اليونان من البحر إلى البحر، محتوية على لوكريس الغربية ولوكريس الإيكنيمينية (**Epcinemidian**) وما ليس ودوريس والأنيانيين (**Aenianes**) و دولوبيس وشطرًا من أكارنانيا وجزءًا من فوكيس وقسما من تساليا وآخايا إثيونس، وكانت الأعضاء التي انضمت إلى

الحلف عن طريق تبادل المواطنية والمساواة في الحقوق (**Isopolity**) هي كيفالينيا وأميراكيا و كيوس وخيوس وناكسوس بجزيرة كريت وفيجا ليا ومعها (في واقع الأمر) ميسينيا، ثم عاد فيها بعد فضم إليه ليسباخيا و كيوس وخلقدونية. وصارت دلفى تحت هيمنته من حوالى (٢٩٠ إلى ١٨٩)، على أن دلفي لم تصبح عضوًا فيه ألبتة.

وأحلاف أركاديا وبؤونيا من الأمثلة القديمة الأحلاف التي وإن كانت تمثل فرعًا محددًا إلا أن أساسها لم يقم على أقسام كانتونية بل على اتحاد مدن؛ وقد تقلبت على كل منهما تصاريف كثيرة للحظ، ولكن حلف بؤونيا ظل قائمًا أبد الدهر وهو يضم إليه من وقت لآخر لو كريس الأوبونتية (**Opuntian**) وميجارا. ولم تتغير نظمه الفدرالية تغير جذرية مُنذ القرن. الرابع، كما أن نظم مدته المختلفة، وإن نجلى فيها شيء من الوحدة والاتساق من حيث الخطوط العريضة، إلا أنها تختلف اختلافًا بعيدًا في التفاصيل. فإن المدن كانت تحفظ لنفسها بحرية عجيبة في التصرف، حتى في علاقاتها الخارجية (وإن حدث ذلك بين حين وآخر). كما أن الحلف الأركادى، وإن نكل به العادون واقتطعوا منه بعض أجزائه في بعض ما مر به من الأيام، إلا أنه دام حتي انضمت مدته إلى الحلف الآخي. و كان الحلف الآخي يضم في الأصل المدن الآخية الاثنتي عشرة، التي تشتت شملها في أثناء حروب خلفاء الإسكندر، ثم شرع يتكون من جديد في (٢٨٠)، حتى إذا وافت (٢٧٢) إذا هو يضم المدن الآخية العشر الباقية بعد أن دمرت عوامل الطبيعة كلا من هيليكي (**Helice**) وبورا، ثم أصبحت أولينوس بعد ذلك العضو الحادي عشر الحلف. ولكن تنظيمه الفعال لم يظهر مع ذلك إلا في (٢٥٥)، عندما حل قائد واحد بمفرده محل القائدين الموجودين قبلا. و كان الحلف عبارة عن دولة مندمجة، كالحلف الأيطولى، فإذا انضمت إليه أقطار أخرى فككت بالمثل إلى أجزائها الأساسية المكونة لها، على حين تحتفظ الدن بمواطنيها ودساتيرها (وإن أدخلت بعضها وظائفها العامة في الوظائف العامة للحلف)، و ما كها و قدر من الاستقلال الذاتي الداخلي بلغ من ضخامته أن دور من النقود المحلية كانت (على النقيض لما حدث في أيطوليا) تواصل عملها جنبا إلى جنب مع دار النقود الفدرالية، ولم يكن لأي مواطن بأية مدينة حقوق خاصة داخل أخرى دون منحة خاصة تمنح له. ومع ذلك فان السياسة الخارجية كانت من اختصاص الحلف، وكذلك أيضا شئون الجيش والضرائب الفدرالية وجميع الموازين والمقاييس (وقد وحدت و نسقت) فضلا عن اتخاذ الإجراءات القانونية إزاء كل ما حدث ضد الحلف من أخطاء ومخالفات. وكان مركز الاتحاد هو معبد زيوس الأماري الموجود بالعاصمة

إيجيون، وكان القائد رئيسة الحلف وقائدة ساعة وفي الإمكان إعادة انتخابه سنة بعد أخرى بالتناوب، ويقوم إلى جوار كاتم الأسرار وصاحب الخزانة وقائد الأسطول عشرة موظفين عموميين(Demiourgoi:) يظهر أنهم جعلوا على نسق الخمسة عشر عند الأركاديين ومتطابقين مع المدن العشر الأصلية (وإن كان الواقع أنه لمن كان لكل مدينة أصلا الحق في موظف عام (Demiurge) واحد فقد أسقط ذلك.الحق بمد مدة قصيرة)، وكانوا يكونون بالاشتراك. مع القائد لجنة حاكمة تستمتع بسلطات ضخمة.

ومن المحتمل أن آخايا كان لها يوما ماككل الاتحادات الفدرالية الصغيرة الأخرى مجلس بولى (Boule) وجمعية عامة للأحرار، ا أنه يلوح أيضا. أن هاتين الهيئتين قد ضمتا إحداها إلى الأخرى في الحلف الجديد المعدل وتألفت منهما الجمعية الآخية المشتركة في السنودوس sunodos)، التي كانت دون أدني رب عظيمة الحجم بعد بتوسيع الحلف. وكان هذا المجلس بعقد كل سنة اجتماعات منظمة العدد، أرجع. الاحتمالات أنها أربعة، وكان أهم ما يتم في أحد هذه الاجتماعات انتخاب موظفي الحلف مدة السنة التالية. وكان مكان الاجتماع في القرن الثالث. هو أجيون، ولكن فيلوبويمين أصدر في (١٨٨) قانونًا بسط فيه مركز الاجتماع إلى جميع المدن بالتناوب، وإن كان الواقع أن أحدا لم يكن يراعى تنفيذ الدورة فعلا بالدقة. وكانت الجمعية المشتركة (السنودوس) تعالج سياسة الملف برمتها ونال إدارة الأعمال الحكومية، لا يستثنى منها عادة سوى ما يستجد من معاهدات و مخالفات فضلا عن شئون الحرب والسلام. وهذه الأخيرة كانت تحال إلى اجتماع يطلق عليه السنكليتوس (Sunkletos)، أي اجتماع كل من شاء الحضور من جاوز الثلاثين من المواطنين. ولم يكن ذلك السنكليتوس (Sunkletes) في الواقع إلا نوعا من الاستفتاء الشعبي تؤخذ فيه الأصوات بالمدن لمنع أهالي المدينة التي مجتمع بها من التكاثر في الاجتماع والتغلب عليه. وكانت الأصوات تؤخذ في السنودوس بنفس الطريقة. وكانت أجيون مركز اجتماع السنكليتوس أيضا، بيد أن عادة الدعوة إلى عقد الاجتماعات بمكان آخر كانت متعبة قبل نهاية القرن الثالث بعدة طويلة.

وإذن فان حكمنا على دستور الحلف (وهو دستور التي كثيرا من الثناء) لا بد له أن يتوقف إلى حد كبير على شكل السنودوس وكنهه التحقيق، ولا تكاد تكون هناك صفة واحدة من صفاته. پر حولها النزاع بين العلماء وأرجح ما تهيأ لنا تصوره عن شكل السنودوس مما بين يدينا من معلومات يجمله جمعية أولية نباح عضويتها النفس من لهم الحق في دخول السنكليتوس بالضبط (أي المواطنين

الذين جاوزوا الثلاثين)، مع تقييد. ذلك بعض احتياطات إضافية للتحقق من أن إعطاء الأصوات يعكس حقا. الرأي الذي تراه كل مدينة على حدتها. والواقع أنه كان من الضروري التيقن من أن نسبة معينة من كل مدينة تحضر إلى أيجيون أربع مرات في السنة جلسات قد تدوم بضعة أيام. وكانت هذه النسب مجتمعة هي التي تكون ما يسمى بالمجلس البولي(**Boule**)، وهو هيئة لا يمكن أن يكون بأي معنى من المعاني مجلسا آخر منفصلا، سواء أكانت له. حقوق التشاور والمداولة (**Probouletic**) أم مجلسا له حق التصديق أو الرفض (**Veto**). ومن الجلي تماما أن هذه الحقوق أو الاختصاصات لم تكن موجودة. و كل ما في الأمن أن هذا المجلس (**Boule**) كان مجرد جزء من الستودوس، وهو في الواقع الجزء الذي كان مجبرة على أن يحضر في دورة انعقاد خاصة (أو دوران انعقاد سنة خاصية) و كان بالتالي يجوز له أن يفصل بنفسه في التصويت الذي تم في جلسات لم يكن الحضور فيها قانونية، وإن كان في الإمكان التغلب على تصويته من الناحية العددية، إن شاء عدد كان من المتطوعين أن يعطي صونه في السنودوس. ولسنا ندرى شيئا كذلك عن عدد المواطنين الذين كان يتكون منهم مجلس البولي **Boul** ولا كيف كانوا يختارون، ولكن لو أنهم كانوا يتقاضون أجورا على الحضور (وهو أمر يبدو محتملا)، فربما كان الوضع أن الإجراء المقابل الذي كانت تمارسًا الديمقراطية، وهو الانتخاب بالقرعة من بين جميع المواطنين، (وهم في هذه الحالة جميع من تجاوزوا الثلاثين)، كان يلجأ إليه كذلك. وذلك لأن الآخرين كانوا على التحقيق يعتقدون أن دستور مهم ديمقراطية صرفة.

على أن هذا الدستور يبدو أنه كان من الناحية العملية في مصلحة الأثرياء والسياسيين المحترفين، ولعل ذلك يرجع من ناحية جزئية إلى أنصاف هيئة: المواطنين ممن هم «فوق الثلاثين و بشيء من روح الرجعية، كما يرجع من ناحية أخرى إلى أن الفقراء لم تكن مواردهم المالية تمكنهم من حضور جلسات السنودوس بعيدة عن مواطنهم الأصلية ومقار أعمالهم إلا عندما حدث بالصدفة أن يكونوا أعضاء في مجلس البولي ويتناولون عن ذلك أجورًا، فضلا عن سبب آخر لعله لا يقل قوة، هو العظمة الشخصية التي كانت تتحقق لشخص مثل أرائوس **Areatna**. ممن يمكن إعادة انتخابه قائدة (**Strategos**) بمفرده سنة بعد أخرى بالتناوب". وثمة نقض آخر هو قصر حضور السنكليتوس على من جاوز الثلاثين من المواطنين، ومعنى ذلك أن نصف الرجال الذين كان يجب عليهم خوض حومة القتال لم يكن لهم رأي في إعلان الحرب. والظاهر أن أيطوليا لم يكن بها ذلك القيد، وربما ساعد ذلك على تفسير السبب الذي من أجله كانت أيطوليا في الحرب كفا كثيرة، وهناك شيء نجح نجاحا باهرا

في آخايا، هو التوازن الذي ضرب بين المصالح الأعادية الفدرالية وبين مصلحة المدينة، وذلك لأن قلة عدد الاجتماعات الفدرالية ما بين عادية (سنودوس) وغير عادية (ستكليتوس)، تثبت بالدليل القاطع، أنه لم يكن في الإمكان أن تقوم الحكومة الفدرالية بأي عدوان على حق المدن فزادى – في تصريف شئونها الخاصية. ولو شاءت ما أسعفتها الحال بوقت فتدخل فيه في هذه الأمور. ومما يجدر ذكره أيضا أن مجلس البولي تجربة ممتعة وإن داخلها عنصرا المحاولة والاختبار (وذلك لا جرم بطريق التطور) في اتجاه الحكم النيابي، وقد توانى اليونان في تطوير أي نظام حقيقي التمثيل النيابي، بيد أن هذا المثال الذي ضربه الحلف الآخي اقترب من ذلك التمثيل. أما اقتراب يوم ظهر.

وربما جاز لنا أن نورد هنا نبذة موجزة عن التاريخ المتأخر لنوع الدولة القائم على الاتحاد والترابط (**Koinoo**) لأنه لم يرد ذكره في الفصل الأول. فقد حدث في (١٨٩) أن روما بترت أجزاء من الحلف الأ يطولي وحرمته من دلني، ثم عادت خلت الحلف حلا نهائيا بعد (١٦٨)؛ وبذلك أصبح كل أعضائه حتى الفروع الصغيرة منه كالأويتانيين أحلافًا منفصلة، وأصبحت هذه هي والأحلاف التي شكلت في (١٩٦ – ١٩٤)، هي المسئولة عن كل القسم الشمالي من بلاد الإغريق بأكمله. و كانت الظاهرة الهامة الوحيدة فيهن هي أن الحلف التسالي كان يملك –كحلف الجزر من قبله – سلطة عجيبة هي الحق في منح المواطنية بكل مدينة من المدن المكونة له، وذلك شأن الخلف الكريتى. ولكن الظاهرة الرئيسية الجديدة في النظم الفدرالية في القرن الثاني هي الميل إلى الاستغناء عن الجمعية التي تضم شمل الناس عامة والتي كانت التراث بالموروث عن دولة المدينة، تم الاعتماد بدلا من ذلك على جمعية أو مجلس من المثلين (**Sunedrion**) شأن أي برلمان عصرى. وكان ذلك هو وضع جمهوريات مقدونيا الأربع المنفصلة التي أقيمت في (١٦٧) تحت إشراف روما وإن تم ذلك لا جرم طبق عادة إغريقية مقررة، نصادف أنها صادفت هوى من الرومان. والأمثلة الأخرى المعروفة كانت في تساليا فيما يحتمل، كما كانت بالتأكيد في ليقا. وظهور فكرة الحكومات النيابية يستثير اهتمامنا لسببين: أولهما أن استخدام تلك الفكرة في مجتمعات شديدة الصغر (مثل الجمهوريات المقدونية) يومئ إلى أنها لم تستخدم للحاجة إليها بسبب بعض الدواعي الجغرافية، بل لأنها كانت إليها ضرورة ماسة، لأنها توائم الطبقات الموسرة وتؤثرها بالسياسة دون الطبقات الفقيرة التي تبعدها عنها بقدر الإمكان. والثاني أن وجود الحكم التهاب هنا وفي ذلك الحين كان يعد مثالا يحتذى لدى الرومان في مقدونيا، وكذلك في إيطاليا نفسها، لو أنهم شاءوا أن يطبقوه على أنفسهم، وهو ما لم يفعلوه.

وما لبث الحلف الآخي الذي ظل من (٢٢٤ إلى ١٩٨) تابعا لمقدونيا يسير في فلكها إلى أن أصبح مستقلا من جديد في (١٩٧) وكان استقلاله بالمدى الذي يستطيع أن يصل إليه حليف بن حلفاء روما. ومع أنه أصبح يشمل في (١٩١) جميع البيلوبونز، فانه لم يسترد البتة مركزه الذي كان له في (٢٢٨). بيد أن المبدأ الفدرالي كان لا يزال يمثل عنصرة محتملا من عناصر القوة لا نستطيع روما إطاقته، لذلك لم تلبث بعد (١٤١) حتي حلت الملف الآخي والأحلاف الأخرى المتحالفة معه. ثم سمع لمجموعة ما من أنواع الترابط الجماعي والأحلاف (**Koina**) أن تكون فيما بعد بوابة ذلك أنه فضلا عن أحلافي شمال اليونان، تعرف بمنطقة البيلوبونيز أحلاف آخايا وأركاديا وأرجوليس واللاكونين الأحرار (**Eleatherocones**)؛ بيد أنها كانت هيئات دينية، مجردة من أية قيمة سياسية، وتألفت رابطات واتحادات (**Koina**) أو أحلاف غير سياسية مماثلة لهذه أر كانت مؤلفة في آسيا الصغرى، فان حلى ثبتا وبنطش (أو قل رابطتيهما) ترجمان إلى أيام بومبي، بينما بمحتمل أن حلف آسيا كان موجودة مُنذ عهد أنطونيوس ثم جاث أحلاف أخرى فيما بعد. وترجع أصولها الأولى إلى الأحلاف التي أنشأها أنتيجونس الأول، وكانت تمثل بالفعل ولا بأنها من ناحية ما، وذلك لأنها كانت تستطيع أن تقدم إلى روما الشكاوي من الحاكم الإقليمي، ولكن وظيفتها الحقيقية كانت الإشراف على عبادة الإمبراطور الرسمية. وكانت الرابطة الوحيدة (**Koinon**) التي احتفظت بطابع سياسي حقيقي في عهد أوغسطس، هي الحلف القديم الذي يضم مدن ليقيا الثلاث والعشرين.

من هنا يتبين أن النظام الملكي هو نظام الدولة الوحيد الذي تبقى من بين جميع النظم المتناحرة الدول الفترة الهلينستية، و إن هلكت الملوكية المقدونية وزالت من الوجود. ويحتمل أن قيصر فكر في إقامة مملكة إغريقية رومانية على الطراز الهللينستي وإن كان ذلك موضع أخذ ورد بين العلماء، كما أقام أنطونيوس فعلا مملكة من ذلك الطراز. ولكن الشخص الذي كتبت له الأقدار أن يكون الوريث الحق للملوك الهلينستيين هو أوغسطس، وذلك لأن إمارته (**Princihate**)، وإن كانت رومانية شكلا وليست هللينستية، إلا أن خيوطا كثيرة كانت تربط إمبراطوريته بالممالك المقدونية. بيد أن هذا الموضوع يمت إلى تاريخ روما وحده.

الفصل الثالث

المدن الإغريقية

أحوالها الاجتماعية والاقتصادية

بوفاة أرسطو انتهى عهد الإنسان بوصفه كانا سياسيا، أي كجزء من المدينة الدولة (**Polis**) أو دولة المدينة التي تحكم نفسها بنفسها، وبظهور الإسكندر، يبدأ الإنسان كفرد. و كان ذلك الفرد محتاجة إلى البحث في تنظيم حياته الخاصة، وكذلك علاقاته مع الأفراد الآخرين الذين كانوا بالاشتراك معه يكونون سكان "العام المأهول" فلمواجهة الحاجة الأولى ظهرت فلسفات السلوك (الفصل العاشر)، كما ظهر لمواجهة الثانية عدد معين من الكرات الجديدة الداعية إلى الأخوة بين البشر. وقد نشأت هذه الفكرات في لحظة من لحظات التاريخ الفاصلة– بوم أعلن الإسكندر بمادية أقامها في أوبيس (**Opis**) رجاءه في أن تجتمع القلوب في اتحاد (**Hououoia**) ويلتئم المقدونيون والفرس في دولة موحدة، فكان الإسكندر بذلك أول من تعالي فوق الحدود القومية، وأول من أخذ خياله يداعب ولى بصورة يعوزها الكمال، صور قيام أخوة بشرية لا يجوز أن يوجد فيها تفرقة بين إغريق. ولا برابرة. وبادرت الفلسفة الرواقية (**Stoic**) بالتقاط الفكرة، ومن ثم كشف مؤلف للفيلسوف زيتون وهو " المدينة الفاضلة " عن أمل براق لم يغادر أفئدة الناس مُنذ تلك اللحظة، وقد بحلم في ذلك الكتاب بعالم لا ينبغي أن يظل بعد ذلك مقسمها إلى دول منفصلة، بل يكون مدينة عظيمة واحدة تستظل قانونًا مقدسًا واحدًا، يكون الجميع فيها مواطنين وأعضاء بالتبادل تربطهم جميعًا رابطة عمادها الرضا والرغبة لا القوانين البشرية، أي تربطهم رابطة الحب و كما عبر هو بنفسه. وربما سميت هذه الفكرة أحيانا بالنزعة المالية (**Cosmopolitanism**)، وهي كلمة صاغها الكلبيون (**Cynics**) للدلالة على أن أصحابها لا ينتمون إلى أية دولة معينة، و لكن بقية الإغريق الآخرين لم يستخدموا تلك اللفظة، كما أنها ارتبطت بمعان ودلالات غير سارة حتى أصبح من الخير نتجنبها، وذلك لأنها لا تظهر بجمال عما كان الرواقيون يقصدونه منها؛ ذلك أنها كانت تدل ضمنيا على مبنى التواني عن أداء الواجبات القومية، وهو أمر لم يكن ليستسيغه أي رواقي، وذلك لأنهم كانوا يرون أن الرجل الحكيم لا بد أن يؤدي واجبه المفروض عليه من بلده، ويلوح أنهم كانوا يرون أنه لو قدرت الأيام أن يسود

الإخاء يوما ما لم يكن بد من أن يكون ذلك عن طريق الدولة القومية، وليس عن طريق إنكارها، وتأثر العالم العلي نفسه بالرغم منه بحلم زينون. بفضل إصرار زينون ومدرسته على أفكار معينة تدعو إلى المساواة والإخاء، وبفضل حقيقة واقعة آنذاك، هي أن (المسكونة "العالم المأهول" **Oecumene**) أخذ الناس ينظرون إليها ككل متكامل، ولم يعد الغريب يمكن أن يعد عدوة بحم الأمر الواقع (**Ipso facto**) في حد ذاته، كما أن فكرة اجتماع القلوب واتحادها قد لقيت عطفًا وإكبارًا عامًا أكثر من أية فكرة هللينستية أخرى. ثم أخذت تظهر فكرات أخرى معينة عن العلاقات المتبادلة بين الدول بغض النظر عن المعاهدات الفعلية القائمة، وعلى ذلك فان بذور القانون الدولي الحديث يرجع عهدها قديمًا إلى مذهب الرواقية بالقرن الثالث.

وكان على الإغريقي أن بصوغ خلاصه من جديد بين هاتين الفكرتين: فكرة الفردية وفكرة الأخوة الجامعة. وأول شي. نستطيع أن نلاحظه على القوم ظهور قدر معين من الازدياد في الشعور الإنسان. وكان ذلك العصر حافلا بالمتناقضات الخارقة ل كل مألوف – وربما كان معنى هذا القول بأن اليوناني كان إنساني النزعة – ومن العجيب أن ذلك الشعور ما في وسط خضم لا نهاية له من الخلافات والحروب. ذلك أن اليوناني لم يبخل قط عن.. ميله إلى الشجار والشقاق؛ وكل ما ألم به من التغير هو أنه أخذ يشك فيها إذا كان ينبغي له أن يظل كذلك. وقديمة تعني أيسوقراطيس في (٣٧٠) لو جمع كلمة اليونان جميعًا استعدادًا لشن هجوم على فرس؛ كما أن أجيلاوس رغبة في (٢١٧) في توحيدهم رغبة في وقاية أنفسهم من روما؛ وشتان بين الرغبتين. ومن نتائج تلك الحال إقبال القوم على استخدام التحكيم إقبالا هائلا عظيمة. وكان التحكيم يستخدم قبل ذلك بزمن بعيد، وإن كان على قلة في بلاد الإغريق. ولكن الذي حدث إبان القرن الثالث وبعده، أن التحكيم بين المدن، وهو في العادة تحكيم في شئون الحدود، أصبح نائمة شيوعا عظيمة. وجرت العادة بأن يكون كل المحكمين لجانا منتدبة من مدينة أخرى، بيد أن الإسكندر و كثيرا من خلفائه كانوا يحكمون أيضا بين المدن دون ما حاجة إلى استخدام سلطاتهم، كما فعل ذلك مجلس الشيوخ الروماني فيما بعد. ولا شك أن هذه الخصومات المستديمة على الحدود (وسببها خشية القوم من المجاعة خشية لا تنقطع، وما يترتب عليها من الرغبة المتواصلة في الاستحواذ على قدر أعظم من الأرض الزراعية ذات الرقعة المحدودة) لم تكن وما تقتضيه من تحكيم بالحالة المثلى، ولكنها كانت على كل حال خيرا من بديلها الآخر وهو الحرب. نكات كل حكم يقضي به الحكام كان حرية كتبت أنفاسها في المد: ولئن لم يراع المحتكمون شروط

الحكم دائما، فلم يكن لذلك من معنى سوى زيادة عدد الأحكام التي يصدرها المحكمون عليهم، وحتى المدن غير الكريمة السمعة في هذا الصدد كبعض المدن السكريتية، كانت تحول التحكيم إلى معاهدات دائمة.

وجاء حين من الدهر أيضا لاح للناس فيه أن الحرب نفسها ربما عدت.. من صفتها. وذلك لأن عظماء المقدونيين، أخص بالذكر منهم، الإسكندر وديمتربوس أنتيجونس جوناتاس حاولوا أن يدخلوا فيها شيئًا من روح الفروسية. وكان من العادات الشائعة التي جرت مجرى القانون فيها سلف من أيام، أن القائد يستطيع، من فتح إحدى المدن، قال الرجال وبع النساء والأطفال أرقاء. ثم تعدلت تلك العادة في عهد الإسكندر إلى بيعهم جميعًا بيعًا عامًا، حتى لقد أنفذها هو نفسه في أربع مدن، حيث باع طيبة وغزة دون أن يلتمس لنفسه إلا العادة عذرًا، كما باع أهل صور وكيروبوليس معتذرة بأن ذلك (حسب مألوف العرف المتبع بالعالم) وكان كل عذر يقدم فيما يتعلق بالزجال فقط. على أن الظاهر أن خلفاء. أسقطوا تماما ذلك العرف الفظيع، فأصبح القوم يقولون آنذاك بأنك تفي إحدى المدن لكي تنتفع بها لنفسك، لا لكي

تجعلها صحراء بلقعًا. وبدا للناس كأنما القاعدة القديمة قد وئدت، ولما اجتاح الغاليون في (٢٧٩) بلاد اليونان، شكت المدن اليونانية مر الشكوى من "قساوة" الانسان الفطري ووحشيته وقد تجلت مرة أخرى.

ثم جاءت موقعة مانتيئيا: حيث حدث في (٢٢٣) أن أنتيجونس دوسون مي الأراتوس والآخايين أن يشفوا غليل أنقسم انتقامًا من المدينة ببيع أهاليها. وكانت قد استفزتهم استفزاز كبيرة، ولكن لا تزال تتردد في أسماعنا أصداء العاصفة الهواء من الاحتجاج التي أثارها ذلك العمل. أما فيا يتعلق بالحكام والقائمين بالأمر في هذه الأرض، فإن ما تثنينيا كانت خاما الكل أمل في ظهور أحوال أفضل بين ربوعه، وما عتمت الحرب أن عادت في القرن الثاني سيرتها الأولى على يد كل من الرومان وفيليب الخامس، ولم نكن معاملة فيربوعين الآخي إسبرطة أحسن كثير من الوحشية التي أظهرها فيليب نحو كل من كيوس و بارونيا. بيد أن بعض المدن الإغريقية وكثيرة من الإغريق أنفسهم كانوا يرون الاستمساك بمعاملة المقهور بالحسنى. وحدث يوما في القرن الثاني أن ميليتوس وماجنيزيا. أنهتا صراعها بعقد ميثاق بتبادل الأسرى رأسًا برأس، بيد أن ما جنيزيا أعادت الفائض لديها من الأسرى دون فدية. وأصدر ليكورغوس ذات يوم قانونا بأثينا ملؤه الرحمة الإنسانية، إذ يحرم على الأثينيين

شراء الأسرى اليونان الأحرار، وكانت بعض المدن. أحسن آنذاك تصرفًا، حيث تعهدت بمعاهدات عقدتها بينها بإلزام كل مواطن فيها اشتري مواطنا من المدينة الأخرى بعتق رقبته مقابل استرداده الثمن الذي دفعه، وما أكثر عدد الحالات التي عمد فيها أفراد معروفة أمام ناظرين بأنفسهم في كثير من الأحوال – إلى إطلاق سراح الأسري أو افتدائهم بالمال سواء أخذوا في الحرب أو بوساطة القراصنة، ومع أن الأسير المقتدي بالمال كان يصبح من الناحية القانونية عبدًا لمفتديه حتى تسدد الفدية، فكثيراً.. ما كان الفادي ينزل عن الفدية. وسنجزى بإسمين فقط بين الأمثلة الكثيرة المنطوية على الغيرية هما اسما الأخوين من أجيالي (Aegiale) وما هيجيسيبوس. وأنتيبايوسي اللذان جعلا نفسيهما رهينتين لدى بحارة إحدى سفن القراصنة. رغبة في إنقاذ عدد من النساء، ولم يكافأ الرجلان إلا بإ ليلين من الأغصان الخضراء وضعا منهما على الهامة ثم بالسجل الذي صان بالصدفة اسميهما وخلد مارهما على الأيام.

ومن أدلة الرحمة الإنسانية التي تحركت في نفوس القوم تلك الحركة الداعية إلى تحريم الحرب بعض أماكن معينة وجعلها حرمة آمنة". فكان (أحد الأمكنة المقدسة) كمبد وما يحيط به من حرم بعد. مأمن من كل قتال، وإن كان الجزاء الوحيد لمن خالف ذلك هو غضب الآلة عليه؛ وكانت جزيرة ديلوس با كلها، وهي مسقط رأس أولون، حرمًا من تلك "الأماكن المقدسة" مُنذ أزمان سحيقة القدم فيما يرجح. وعندئذ حاولت عدة مدن مختلفة أن نجعل من نفسها وما يحيط بها من أرض حرمة (مقدسًا) أي بمأمن من الحرب عن تراض من العالم اليوناني والملوك الهللينستيين. فظهرت أزمير في هذا السبيل أولا حوالي (٢٤٠) وأعقبتها ماجنيزيا على نهر الميانـدر ثم ألابانـدا وتيـوس فميليتـوس وخلقدونية فغيرها وغيرها، واتجهت مدن أخرى إلى نفس هذا التكريس المقدس، ولكن لم تنفذ رغبتها قط وإن استصوب الوحي الإلهي نصرفها. وعرفت دلفى والأحلاف الأمفكيونية (Aaphichrono) بأثرها الذي لا يستهان به في تلك الحركة، والذي أسبغ عليها سند دينية كريمة. وسرت بحذاء تلك الحركة حركة أخرى تدعو إلى تحريم اقتحام بعض الأماكن وجعلها آمنة من العدوان (aslya) أي ذات حصانة من كل انتقام (syla) أي من كل حرب خاصة – وأعني بذلك حق المدعي سواء أكان فردة أم مدينة، في القبض عنوة على الأفراد أو الاستيلاء على السلع دون قيام حالة الحرب، وهو حق كان يرجع إليه على الدوام الشيء الكثير من خروج السفن الخاصة بإذن من الحكومة لاصطياد سفن الأعداء التجارية. وحدث في بعض الأيام أن كان كل غريب معرضة على الدوام للانتقام، ولكن ذلك

الحق كان يعارض دائما، ولعل ذلك لأنه كان يعرقل التجارة وعود عليها بأفدح الأضرار، ولأن كثيرا من العابد صارت مُنذ زمن طويل ملاذا لمن يلجأ إليها. ثم أضفيت هذه الصفة على كثير من المعابد في أثناء الحقبة الهلينستية، ولكنها بسطت أيضا على مدن بأكملها وما يحيط بها من أرض. و كانت جزيرة تينوس أولاها حوالي (٢٧٠) وأعقبتها جميع المدن الإغريقية، التي أصبحت و مقدسة، وتبعتها عدة مدن منوعة أخرى اختتمت في النهاية بدلفي نفسها.

وغني عن البيان أن يقول بعضهم بأن لقبه و مقدس والحرم الذي لا يجوز انتهاكه و ما هي إلا عبارات جوفاء، دليل على أن صاحبه لا يحسن فهم الزمان. لقد كان هذا الاتجاه محاولة جدية لتضييق نطاق الحرب، وإلا فهل يعقل أن يجشم سولقوس الثاني نفسه تلك المؤونة التي تجشمها، ليحصل لمدينة أزمير على اسم أجوف وهي أشد حلفائه ولا.. لقد احتفظت تلك الظاهرة بشى. من الأهمية حتى في سوريا نفسها في أثناء القرن الأول (ف ٤)، ولم تصبح اسمًا أجوف إلا في ظلال الحكم الروماني الإمبراطوري. ولكن يشك في الأتي الفعلي المترتب على تلك القداسة، وذلك لأنها لم تكن لتغير الصفة السياسية للمدينة ولا هي كانت تحدد وتعين نوع مجالاتها السياسية، ومع ذلك فان الفكرة طبقت في إحدى الحالات بطريقة غريق جدة: فان أنطيوخوس الثالث بعد أن عجز عن الاستيلاء على زانثوس (**Xanthus**) لجأ إلى إعلان "قداسة" المدينة لكي يصون ماء وجهه حين تراجع عنها. أما حق الحصانة والقداسة. (**Asylia**) فقد كان له بعض التأثير، إذ إنه ساعد على وضع حد لحرية التصرف.الفردي، وهي الحرية التي كانت تنطوي على إنكار النظام العام، وذلك لأن تلك الحصانة امتد سلطانها بعيدة درا. حدود بعض المدن والعابد العينة ب ووهبت الحصانة للفنانين الدونيسيين لكي يطمئن الجمهور على استمرار قيام الحفلات في معبد ذلك الإله، وذلك على حين أن كل مرسوم يقضي بالوكالة أو الإنابة في رعاية المصالح الخاصة برعايا دوله في أخرى، كان بمنع كل. مستفيد منه ضمانة بالحصانة من انتهاك الحرمان، وبذا أصبح العالم الإغريقي نسيجًا متشابكة من الناس الذين لا يجوز مضارتهم على يد رعايا هذه الدولة أو تلك. غير أنه ليس من المعقول أن رجلا من قراصنة السفن الأيطولية ما كان يهاجم القرى ويده قائمة تضم أمام الموكلين برعاية المصالح والضيافة وهم الذين لا يجوز لأيطوليا مس حصانتهم، بيد أن أيطوليا حاولت مواجهة مثل تلك المواقف الحرجة بمنحها شهادات إعفاء للمدن الصدفة وتعهدها بالتعويض عن الخسائر التي قد تلحق الأفراد: ومن البديهي أنه ليس مما يشين مزايا نظام الحصانة والقداسة على وضعه الأول الذي شرع من أجله، أن

قد أسى، تطبيقه في ظل الإمبراطورية، وأنه لم يعد له من معنى إلا ازدحام م دن معينة برعاع ودماء لا يجوز مسهم بسوء مما استدعى تدخل روما.

وبغض النظر تماما عن الجنوح نحو الاتحاد الفدرالي، انت عوامل كثيرة تهدف إذ ذاك إلى تقريب المدن بعضها من بعض و القضاء على ما كان لها من عزلة قديمة. ومن تلك العوامل ذلك العدد الضخم من المواطنية الشرفية التي شاع آنذاك منحها للزجل وسلالته من بعده، وبذلك أصبح لكل مدينة أصدقاء. في مدن أخرى كثيرة كانوا بها مواطنين لتلك المدينة الأولى. ومن هنا أصبح الاعتقاد بأن الرجل لم يكن يستطيع أن يكون مواطنة بأكثر من مدينة واحدة يتطلب شيئا من التحوير والتعديل، إذ كان في المستطاع أن يكون مواطنة بأي عدد من المدن، ولكن يحتمل أنه لم يكن يستطيع ذلك في وقت واحد إبان القرنين الثالث والثاني. فلا يكون مواطنا عاملا إلا بمدينة واحدة فقط، أما مواطنياته الأخرى فهي مجرد (إمكانيات اعتبارية). فلو منحت كورنثة مواطنية الشرف لأحد مواطني طيبة، كان الطبي هذا، إن هو أقام بكورنثة، الحق في أخذ هذه المواطنية ويصبح كورنثيا من جميع النواحي.. فإذا هو لم يفعل ذلك أصبحت مواطنيته الكورانية في حدود الإمكانية والاعتبارية. والشيء الذي نجهله إلى اليوم هو ما إذا كان يظل مواطنة عاملا بطيبة إن هو أخذ مواطنيته الكورنلية: الراجح أنه لم يكن نحتفظ بمواطنيته الطيبية. ولكن الذي كان يحدث في القرن الأول هو أن الإنسان بكل تأكيد يستطيع ممارسة مواطنين عاملتين – وذلك هو التطور الطبيعي للأحداث، وآية ذلك أنا تزرى بومى محظر في بيئينيا ممارسة تلك المواطنية المتعددة، ولكنه أخفق في إبقائها. وقد كان ديو مواطنة بمدينه رويا ثم كان كذلك في نيقوميديا وأباميا، فلما إن رغب تراجان في إلغاء المواطنية المتعددة، وجد ذلك من الشيوع بيينيا بحيث لا يستطيع منعه بني تمزيق. نظام المجتمع بأكمله، ولم يستطع تطبيق الحظر إلا على المستقبل. وبغض النظر عن المواطنية، فان كل مدينة أصبح ها آنذاك. أصدقاء كنار بمناطق أخرى كانوا حين يزورونها (أي المدينة) لا يعدون مجرد أجانب غرباء بل كانوا يمنحون مقاعد أمامية في مشاهدة الألعاب، ويحضرون الولائم بقاعة المدينة؛ ومن ثم فإن الروابط والصلات بين المدن ق د أخذت تتشح بوشاح جديد مخالف.

ولكن المسألة تجاوزت الأفراد إلى حد بعيد جدا، إذ شرعت الدن تمنح مواطنتيها إلى كامل هيئة المواطنين بمدينة أخرى، وهي العملية المعروفة باسم التساوي في المعاملة بالمثل بين المدن (Isopolity) (ف ٢). وقد حدث في بواكير القرن الثالث أن منحت أثينا مواطنيتها لمدينة بونى

(**Priene**) وذلك في مقابل منحة منحتها قبل ذلك ريني لأثينا، وتم عقيب ذلك تبادل منع المواطنية بين مدن كثيرة: منتها أثينا ورودس، ومنها ميسيني وفيجاليا وباروس واللاريا، ومنها برجامة وتيمنون، ثم ميلينوس ومجموعة كاملة من المدن – هي كزيكوس وهرقليا – لاموس و كيوس وفوجيلا ومولانا وتراليس، و كان جميع أهالي قرنية أو رقة مواطنين بلدي تينوس، وأصبح جميع الطيائيين مواطنين لدي عدة مدن كريتية، وجميع المغنيزين مواطنين في مدن الخلف الكريتي. وكان مفعول هذه كمفعول المواطنية الشرقية سواء بسواء، وكانت هذه بمثابة مواطنية بين الإمكان أي اعتبارية، وكان كل حامل لها في وسمه استخدامها كحق من حقوقه لو شاء: وفضلا عن المواطنية وكانت المدن تمنح على هذا النحو حقوقا أخرى. فكانت أثينا تمنح حق الاضطلاع برعاية مصالح الغير واستضافتهم لطبقات من الناس بأجمعها مقيمة بعض مدن تساليا، نصار لجميع أهالي مسيني الحق في القيام برعاية المصالح بالنسبة لدلفي، وصار لأهل دلف نفس الحق بالنسبة لسارديس، ولجميع الأكراجاتيين نفس الحقوق عند الملف المولوسي. وكثر منع الأفراد حق الرعاية المصاع الغير لدرجة جعلت بعض المدن تكف عن إعلان المراسيم، وحدث في القرن الثالث أن جعلت إيداويس – وهي مدينة صغيرة – مدل عدد المراسيم أربعة في السنة، واقتصرت بوضع الأسماء في إحدى القوائم كما كانت. تفعل ذلك من قبل مدينة أنافي، وحدت دلني حذوها مُنذ (١٩٧)، وفي. قريب من (٢٦٤) منحت هستيآيا تقس الحق لاثنين وثلاثين في عام واحد وكانت حقوق رعاية مصالح الغير بطريق الإنابة (**Proxeny**) تشريفًا مرموقًا محسودًا، لأنه لم يكن يخول لحامله الحصانة من الاعتقال فحسب، بل كان يعطيه أيضا الحق في امتلاك الأرض بالمدينة المانحة. وكان أصحاب هذا الحق يمارسونه بكثرة، وشاهد ذلك أن أرى الخطوات التي خطتها روما بعد فتح آخايا، أن حظرت امتلاك الأرض بمدينتين، رغبة منها في إضعاف البيلوبونيز، وإن عادت بعد ذلك فسحبت ذلك الحظر. ومنحت مدن كلها، منها مسيني و خرسونيسوس والإسكندرية وأزمير وساردیس، حق السبق في استشارة وحى دلني، ومنحت إيثاكا جميع المجنزبين الحق في الجلوس في المقاعد الأمامية بألعابها المحلية المسماة بالأوديسية، وعمدت مدن كثيرة رغبة منها في تشجيع التجارة، إلى رسوم الصادر والوارد فأعفت منها مدينة أخرى بكاملها. واجهت هذه الأمور جميعا نحو ربط المدن بعضها بعض. ولقد استطاع بوسيدينس أن يقول في القرن الثالث: «إن هناك مدن كثيرة، ولكنها تؤلف في مجموعها عالم هيلاس واحد" وإنا لنتساءل: إلى أي مدى كانت العملية تمضي لولا أن تدخلت روما؟

وما يستطيع أحد أن يحدد المدى الذي بلغه عمل المواطنية الشرقية. وبحسبك أن تعلم على كل حال أنه قل من رجال الأدب من كان يعمل بمدينته الأم: بل كانوا يذهبون حيث يدعوهم العمل أو الأصدقاء أو حتي دور " الكتب. وأسبغت آلات التكريم على كثير من الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقون أشعارهم ومحاضراتهم بمدن أخرى، وكانت في الغالب من نوع مقصود به إرضاء القومية المحلية للمدينة التي يزورها الشاعر أو الفيلسوف، ولا مراء أن هذه الطبقة من الناس كانت في المادة إذا حلت بمكان آخر اتخذت مواطنيته لنفسها. وآية ذلك أن مينا ندر الثيريوني (**Thyrrsion**) أطلق عليه اسم الكاسوبياني، وأطلق لقب الخلقدوني، على مترودورس الاسكبسي (من إسكبس). ونسب إلى رودس كل من بوسيدوثيوس من أياميا و أبولونيوس الإسكندرى وديتوقراطيس المقدونى؛ وكني أرستارخوس الساموراتي بكنية الإسكندري، وأرستوبولس من كوس بالكسندرى؛ وهذا على سبيل المثال لا الحصر لأن حالات كثيرة مشابهة لهذه معروفة مشهورة. ومن ثم أمكن لنا أن تفترض وجود قدر معين من تبادل المواطنين بين المدن. ومع ذلك فإن دساتير الأحلاف كانت توضع بصيغة لا نسمح لأي مواطن بان يسكتسب حقوقًا شخصية بمدينة أخرى دون الحصول على منحة صريحة بذلك.

وثمة عامل آخر قرب بين أجزاء العالم المختلفة هو تطور لغة مشتركة. فقد شرع التعاون بكل مكان في استخدام اللهجة الأتيكية، وعن الأتيكية مع تعديلها وتحويرها بما جرى عليه العرف المحلى، نشأ اللسان اليوناني الهللينستي وهو اللسان المشترك الألوف والمعروف باسم إغريقية والعهد الجديدة. وجاء أوان أخذ فيه لسان آخر مشترك في الكون متفرعا عن اللهجات الدورية، وخلف لنا أثر) خالدة عظما هو شعر الشاعر ثيوقريطس، ولكن ذلك اللسان لم يستطع أن يصمد طويلا. إذ دامت اللهجات المحلية و بقيت مرعية ببعض الأقطار حتى القرن الأول، ولكن اللسان المشترك تمكن في النهاية من غزو كل مدينة يونانية، وذلك لأنه حين أصبح وسيلة التواصل العامة بين أقوام لهم لهجات مختلفة، استلزم في النهاية الخلى عن اللهجات المحلية. وظهر مع اللسان المشترك أيضا ما يسميه رجال القانون باستم و الصيغ المشتركة»؛ حيث كانت جميع مراسم المدن تتبع نفس الخطوط الأساسية. بل الواقع أن الكتلة الهائلة من المراسيم الشرفية التي صدرت أثناء تلك المدة كانت أيضا رابطة أخرى تربط بين المدن، وذلك لأن العرف المتبع عندما كانت إحدى المدن نكردم مواطنا من مدينة أخرى، أن يقوم مندوبون بأخذ نسخة من ذلك الرسوم إلى المدينة التي شمرن مواطنها بالتكريم. وهناك كان

المندوبون يلتمسون الإذن بإشهار ذلك التشريف وإعلانه و نوم لهم ولمبة يلقون فيها خطابة يؤكدون به ما بين المدينتين من وحدة وناسك أملاها الشعور الطيب المتبادل بينهما. وكان للعدد الهائل من الأعياد الجديدة أثره هو الآخر، إذ أن الممثلين القائمين بملك الأعياد، وإن لم يكونوا سوى محرفين يجولون جولتهم، إلا أن الألعاب ذاتها كانت عملا دينيًا. وكانت المدن ترسل مبعوثين دينيين وكانت أرباض معبد المدينة وحرمه تزدحم بلوحات حجرية وشواهد نائمة (stelae) نقشت عليها مراسم المدينة وسجلاتها، فكأن تلك المعابد هي إدارة سجلات المدينة (وإن احتفظت بعضها كذلك بسجلات على ألواح تختزن بقاعة المدينة وصالة احتفالاتها). وكان أي زائر يستطيع أن يقرأ هناك آيات التشريف التي أسبغت على بني وطنه. وكثيرا ما كان مرسوم التكريم في القرن الثالث وثيقة سياسية قيمة، بل حتى إعلانًا سياسيًا، ولكن شأنه انحط في القرن الأول يوم أخذت السياسة المستقلة تتوارى وتزول دواعيها: لقد أخذ يزداد إطنابا زيادة تناسب مع عدم أهمية ما يحتويه، وربما أسف فروى أتفه التفاصيل عن الحياة الخاصة الرجل الصادر بشأنه المرسوم، حتى لقد يسرد عدد الضيوف الذين حضروا عرسه، وذاع لأنه كان يتولى إذ ذاك نفقات إقامة اللوح بنفسه، كما أنه كان يميل أن يحصل على ما يتوازى مع ما أنفقه من مال.

ولعل أهم شيء لديهم في هذا الصدد فو اللجان القضائية، وهي ليست تلك التي كانت تحكم فما ينشب بين مد بقتين من خلاف سياسى، بلى التي تفصل في القضايا داخل المدينة نفسها؛ إذ أن الانحلال السريع كان قد أخذ قبل ٣٠٠ يدب في النظام القديم، وهو نظام الفصل في القضايا بوساطة هيئة من المحلفين مكونة من عدد كبير من المواطنين – وكان والحق يقال خليقا بأن يعتريه ذلك الانحلال، فانه يكاد يكون أسوأ نظام قضائي استحدثه عقل البشر. وذلك لأن قرارات المحلفين كانت تتأثر في العادة بنزوات السياسة وشهوات الجماهير والتحيز والحزب. وحل محله إبان الحقبة الهلينستية بأسرها نظام كانت لجنة من قاض أو أكثر (Disasis) تحضر بمقتضاه من مدينة أخرى وتنظر في القضايا المقدمة إليها. ولم يكن ذلك النظام مثالية، إذ لم يكن يعمل به بانتظام، إذ الظاهر أنهم ما كانوا يلجأون في الغالب إلى طلب المساعدة من مدينة أخرى إلا حين تسوء الأحوال إلى حد كبير، كما أن ذلك النظام كان يترتب عليه الشيء الكثير من تعطيل إقرار العدل في نصابه – وقد حدث أحيانا أن اللجنة كانت تجيء فتجد القضايا معطلة مُنذ سنوات، ولا كانت العدالة السريعة لا تقل قيمة عن العدالة المجردة من الهوى، فلا شك أن ذلك الحال أدى إلى الشيء الكثير من قيام كل فرد بأخذ حقه

بيده، وما يصحب ذلك مادة من أمور غير مستحبة.. فانا وفدت اللجنة القضائية فعلًا أحسنت أداء مهمتها، وذلك لأنها كانت تقف بمعزل عن شهوات الأحزاب المحلية. وفي الإمكان القول بناء على ما تبقى لنا من سجلات بأن اللجان ربما أكثرت من الذهاب إلى بعض الأماكن رغبة في تفادي كل تأخير في العدالة لا لزوم له. وكانوا يتبعون إجراءات واحدة لا تتغير، فكانوا يبدأون أولا بتسوية كل ما يستطيعون من خلافات وقضايا عن طريق الإقناع أو التحكم غير الرسمي. فأما بقية القضايا فيفعلون فيها إما بأنفسهم بالطريقة القانونية والشكل القانوني و إما بإحالتها إلى هيئة محلفين. ويؤخذ من بعض السجلات مثلا بمدينة كاليمنا أن القضاة (**Dreasts**) الذين أرسلتهم بسوس وجدوا في انتظارهم أكثر من ثلاثمائة وخمسين قضية، ففصلوا في أكثر من. ٣٤ عنها، ولم يرسلوا للمحلفين إلا عشرة فقط. و كان الفيصل في القضايا التي ينبغي الفصل فيها بدقة هو القانون المحلي (الذي تعززه المراسم الملكية إن كانت المدينة تحت ملك) وليس بحسب قانون المدينة التي منها اللجنة، فإن معنى ذلك هو أنه عندما وافي القرن الثاني كانت بالمدن الإغريقية لا جرم هيئة مزدهرة من رجال القانون الأصلاء، وهو شي، لم يعرفه. الناس قبل ذلك – وه رجال درسوا قوانين مدن كثيرة فضلا عن قوانين مدينتهم. ولا تنس أن دراسات نيوفراستوس في التشريع ساعدت أيضا على تكوين رأي أصح عن وظائف القانون. هذا إلى أنه نظرا لأن معظم القضايا كانت في كل مكان تسوي بطريقة غير رسمية، فلا بد أنه تكونت بالبلاد طائفة من القواعد اللازمة لتنفيذ ذلك، ربما لمسنا فيها الأسس التي بني عليها نظام دولي لإقامة العدالة والفاراة، وعلى هذا النحو بدأت العدالة بإنجلترا بطريقة غير رسمية بحتة. وقد يبدو غريبة على أسماعنا ما يترامى إلينا من مدح للقاضي ما يتصف به من و عدم التميز والعدل، أو لعدم تفريقه بين غنى و فقير، وهي أمور تعد اليوم مسلمًا بها. ولكن عدم الحزب كان شيئا مستحدثة تماما، بلاد اليونان، وذلك لأن المحلفين طابا رجحوا بشدة كفة الفقير أو كفة المدين. واشتهرت بعض المدن بعدم التحيز، إذ يلوح أن أهم ما كانت تشتغل به مدينة بريني هو تسوية قضايا جيرانها.

وللملوك في هذا الصدد تاريخ كريم مشرف، ويحتمل أن الفكرة الأولى في هذه اللجان القضائية نبتت في عهد أنتيجونس الأول. وقد يحدث أحيانا عندما تكون المدينة تابعة لأحد الملوك وداخلة في اختصاصاته، أن يتولى القضاء حاكم من قبل الملك بدل أن تعين لجنة لذلك الغرض، وكان ذلك استباقًا لعهد ولاة الرومان في عصر قال: وقد كان أهالي ايجينا يثنون أحسن الثناء. على كليون، الوالي عليها من قبل الأناليين، لأنه كان "قاضيا عادلا بين الجميع لا تظهر فيه ؟ ثار أية بواعث خاصة، قد

عقد العزم على أن لا يكون رائده. في التصرف جور ولا تعسف، بل يحاول في معظم الحالات على الفريقين. المتخاصمين على الاتفاق والتراضي "، ومعنى ذلك أنه كان يتصرف بالضبط مثلما كانت اللجنة تصرف، لو كانت مكانه. وقد كرم أهل ديلوس شخصيا. اسمه فيلوديموس من "كلازومينای" لأنه أتم مهمته بنجاح كحكم في القضايا: و التي تدور حول العقود، وهي مهمة قد و كلها إليه ملك من آله أنتيجونس، لعله جوناتاس أو دوسون. وكان الملوك أنفسهم كثيرا ما يستدعون لتسوية الاضطرابات الداخلية، التي تتعدد أنواعها تتراوح بين النزاع على الرهون وبين بدايات الثورة، فكانوا أو كان ولاتهم كثيرا ما يعمدون إلى إرسال سلمان قضائية لذلك الغرض.

وكان كثير من القضايا التي يعالجها القضاة يقوم على ميثاق قضائي بين مدينتين لتسوية المنازعات الخاصة بين مواطنيها (**Symbolon**) بقصد الحيلولة دون معاملة أي من طرفيه معاملة الغرباء في محاكم الأخرى، ومع أن ذلك الميثاق القضائي يسبق الحقبة الهيلينستية بزمن مديد، ابن كثرة استخدامه المتزايدة تسجل تقدمة، حتى لقد زعم بعض ذوي الرأي أنه هو والذهب الرواق، قد أمانا على قيام الفكرة التي نشأت فيما بعد حول القانون الدولي. ولكن أكثر أنواع القضايا شيوعا في قضايا الديون وهي المحور الذي تدور جولة معظم أنواع الخلافات الداخلية التي تنشب بالمدن. ولم يحدث قط أن اتصف المحلفون بالنزاهة في حكهم بقضايا الديون كما أن الوثيقة التي حصلنا عليها من كاليمنا والتي سلفت الإشارة إليها، توضيح أن القضاة كانوا يحاولون تجنب ترك القضايا لهيئة من المحلفين، لأن قرارهم الذي كان يصدر بأخذ الأصوات بينهم، وهم هيئات شبه سياسية كان مصدرة لإثارة ألوان من الخلافات الجديدة. ثم إن جميع ما لدينا من معلومات حول اللجان القضائية يؤكد نقطة واحدة: هي أنها كانت تحاول محبوه بالنجاح في غالب الأحيان – أن ترد الوفاق (**Homonoia**) إلى نصابه بالمدينة، ولو أخذت مراسيم اللجان القضائية الباقية إلى اليوم جملة لكانت لها أنشودة تترنم يذكر محاسن الوفاق، تلك البغية التي كان يتشوف إليها الناس دون أن يتمكنوا من بلوغها، ولم يكن الحديث فيها مجرد ثرثرة جوفاء لا ظل فيها للإخلاص، إنا نعلم تمام العلم أن إحدى الدول ربما وقعت في الخلافات والمتاعب رغم أن تلك الخلافات في آخر شي. رغبه النارية العظمى من سكانها.. وكان كل شكل من أشكال السلطة: الملوك والمندوبون والولاة وقادة الأحلاف بحض الناس على الدوام على العيش في رفاق. و كانت أشد النساء استدرارًا للثناء في ذلك الزمان ومنهن من تسمي فيلا **Phil** أو أبولونيس **Apo lonis**) هن من حاولن تزكية تلك الفكرة، بل حتى

الآلهة أنفسهم كانوا يتوسطون في الأمور، إذ بك تسمع أن أبولون يحض مدينة باسوس على الوفاق. وكان الوفاق (**Horonoia**) نفسه يعبد في باسوس وفي پريني تحت اسم الربة هومونويا، وأقام لها أرتميدورس في مدينة ثيرا البطلمية هيكلا "بالنيابة عن المدينة" وكانت تلك الربة من عظمات المالي الفكرية التي خلفها لنا العصر الهللينستي، ولكنها ظلت أمنية للانقياء. إذ لم تحرز بلاد اليونان أي رفاق حتى سحقت روما كل الخلافات الداخلية. ثم راحت المدن في العهد الإمبراطوري تكرم الهومونويا (الوفاق) بوفرة وتسكها على عملتها، وكثيرا ما كانت تعبد ربة بعد أن زال كل معنى لعبادتها لدي الإغريق.

ولعل هذه الأمور جميعًا كانت تؤدي بعض الوقت إلى قدر من التعاون.بين المدن أكبر مما أدركه فعلا في أي يوم من أيامها. إذ ما أكثر الأشياء التي احتاجت إلى العمل المتظافر والتي فشلت فيها تلك المدن فشلا مطلقة. في هذه الأمور عدم وجود تقويم مشترك للبلاد. أجل إن المؤرخ. تبايرس أدخل ذلك التاريخ القيع البني على دورات الألعاب الأوليمبية (ف ٧)، ولكن كل مدينة واصلت التأريخ لنفسها خاصية بعهود موظفيها العموميين، بل لم تجمع كلها على أداء سنتها في وقت واحد، فكانت السنة يأثينا تبدأ حوالي شهر يوليه وتبدأ في اسبرطة حول شهر أكتوبر، وفي ديلوس في يناير انتهى بها الأمر أن كانت تبدأ في ميليتوس قرابة شهر أبريل. و ناهيك بفداحة الارتباك الذي ينجم عن مثل تلك الحال، والتقاويم الوحيدة للمدن التي يمكن تحويلها إلى سنوات التقويم اليوليوسى تمويلا محققا هي التقاويم الدبلوسية والميليطية،ولا يزال فهمنا لتنظيم التقويمين الحامين الآئينى والدلفي المرعيين في القرن الثالث أمرًا يعتمد على الحدس والتخمين إلى درجة ما، وزاد الحالة سوءا تقصير القوم دون إنشاء الطرق المعقولة وضمان المواصلات الآمنة فيها وانتشر قطع الطرق في البلاد طولا وعرضا، ونظمت العصابات بقيادة شيخ منصر أحيانًا (**Archklepht**): يدلك على ذلك أن هيراقليدس عندما جاس خلال بلاد اليونان سائحة حوالي ٢٠٥، لاحظ أن طريقة واحدة كان آمنا وهو الذي وصل بين أورووس ونا ناجرا. وكانت القرصنة وبلا أفدح من قطع الطرق و أحسن تنظيمًا. إذ كانت مقاومة الملوك لها على سيل المعاونة للناس منعدمة عامة. وعلى العكس، فإن ديمتريوس وأنتيجونس جوناتاس و بطلميوس الثاني و أنطيوخوس الثالث كانوا جميعا على أحسن علاقة مع ربابنة القراصنة، وكانوا يجدون فيهم حلفاء نافعين. وكان كثير ممن يطلق عليهم اسم القراصنة أرباب سفن خاصة تكلفها الحكومة بالاستيلاء على سفن الأعداء ونهبها. وكان القراصنة الحقيقيون من الأفراد المنفيين

والمحطمة آمالهم من الرجال ومن لا يجدون عملا من المرتزقة والأرقاء الآبقين، يعيشون في معاقل صغيرة تحيط ببحر إيجة. وقد حدث ذات مرة أن عصابة من هؤلاء استولت على معقل بالقرب من فوجلا الواقعة بأرض إفيسوس. وسجل التاريخ كثيرة من الاعتداءات على الجزر، ولكن هذه لم تكن في الغالب إبان القرن الثالث إلا غارات سفن بمفردها تهاجم الشاطئ للحصول على بضعة أرقاء، ذلك أن القراصنة كان لهم عدو واحد صادق في عداوته هو جزيرة رودس، وظلت رودس أمد. ارتفاع سطوتها تنحصر شرم في نطاق ضيق. ولكن العدو الذي أعياها أمه إنما هو كريت. فإن أي مدينة في تكريت كان يتولى الشيوخ الحكم فيها بطريقة مرضية تماما، وقد خلت عليهم السنون وقارها، في حين ينطلق الشباب في مغامراتهم الخارجة على كل قانون بقيادة زعيم مغامر؛ ووجهت.

رودس همها نحو حمل حكومات مدنهم على كبحهم. وذلك هو السر في أنها على العكس من الملوك ندر أن تدخلت في الحروب الأهلية اللانهائية التي كانت تنشب لك الجزيرة، إذ أن تلك الحروب كانت من وجهة نظرها نافعة لأنها تحجز المغامر من داخل بلادهم. ولكن حدث بعد ١٦٨ أن أمرت سياسة روما الذاهبة إلى إضعاف كل دولة قوية دون إحلال أي شيء آخر محلها؛ لذا لم تسد رودس قادرة على إنزال سوط القصاص بهم في حين أن روما بعد ضمها برجامة إليها في ١٣٠ أهملت كل شأن بلاد "قليقية الغربية" الضارية وألقت لها الحبل على الغارب، هنالك اجتمع لواء القراصنة وأسسوا دولة نظامية. وكلفت قليقية روما ثمنا باهظة جزاء وفاقًا لها على إهمالها حيث خاضت بسببها حربين لتخمد ما بها من فتن، ولم يستطع الجهد العظيم الذي بذله پوهى أن يوفق إلى شيء أكثر من تطهير البحار إلى حين فقط.

الآن وقد بحثنا تصاريف العلاقات الدولية بين المدن، وجب علينا أن نحول إلى أشياء معينة كانت تؤثر في الفرد، سواء بوصفه مواطنا أو حتى كا سان فقط – إنسان راع للأهمية المتزايدة لحياته الفردية، (كوعى الشعوب عند كل تقدم عظيم جديد يحدث في الحضارة). فمُنذ دب دبيب الضعف في روابط الفرد بالمدينة، تكاثرت في البلاد جمعيات وأندية خاصة الأمن إلى السياسة بسبب وقد نشأ من تلك الأندية بأثينا أثناء القرن الرابع عدد قليل (ولا يخفى أن أندية القرن الخامس الأوليجركية كانت شيئا آخر)، بيد أن ديمتريوس الفاليري (٣١٧ – ٣٠٧) حرم إنشاء أخرى جديدة، ولذا فإن انتشار الجمعيات بدرجة عظيمة في كل أرجاء العالم اليوناني يعود إلى الحقبة من ٣٠٠ فصاعدا. وكان معظمها عبارة عن جمعيات صغيرة جدا، حيث كان من غير المألوف فيها. فيما عدا جمعية الفنانين

الديونيسيين أن يصل أعضاؤها إلى مئة عضو. وكانت أساسية مثل هيئات اجتماعية ودينية اجتمعت حول عبادة أحد الآلهة، ومن المحتمل أن جماعات من الناس كان يطلق عليهم اسم طوائف المتعبدين الثياسوى[1] (thiasoi) كانت أغراضهم دينية بحته، بينما كانت جمعيات ونوادي أخرى[2] (Eranoi) تمثل هيئات أغراضها اجتماعية قبل كل شيء.، وللاشتراكات فيها أهميتها وكانت قيمة رسم الدخول في أحدهما ثلاثين دراخمة. ثم تظهر الجمعيات العائلية حوالي عام ٢٠٠ و يؤسسها بعض الأفراد إبقاء على ذكرى العائلة وتخليدا لها، نظرا لأن وظيفة الكهانة كانت وراثية بين نسل الكامن وحفدته.. وكان لكل ناد مهما يكن صغيرا معبده الخاص، ولكن الناحية المالية كانت الصعوبة الدائمة التي تواجهها تلك الأندية، وكانت الكثير منها تؤجر معابدها لتستخدم في الأغراض الدنيوية حين لا تكون بها إليها. حاجة، شأن نادي عائلة إيجريتيس (Egretes) بأثينا، التي كانت تؤجر معبدها للناس محتفظة بيوم واجد في السنة لإقامة عيدها السنوي و كان لنادي إبكتيتا بمدينة ثيرا (Thera) وهو من أغنى الأندية، دخل سنوي حبسه عليه مؤسسه قيمته ٢١٠ دراخمة، كما أن ناديا آخر بأثينا وجد بخزانته في آخر إحدى السنوات مبلغ ١.٧٧٠ دراخمة، بيد أن هذه كانت حالات استثنائية، ولذا شرعت الأندية تجنح رويدًا رويدًا إلى الاعتماد في ماليتها على عضو ثرى من أعضائها هو الذي يتحمل جميع نفقات النادي وبكرم بإقامة تمثال له كان بدفع هو ثمنه – وهو نفس الشيء الذي كان يحدث بالضبط بالمدن (ف٣).

ولم تكن هذه الأندية بأي حال أندية مودة وتعاطفه بين الأعضاء. أجل إنها قد تساعد عضوا من أعضائها، تعرض لبعض المتاعب أو تتولى تشييع جنازته متخذة من هذه المناسبة ذريعة لتناول أكلة دمية، ولكن الأمر مكان ينتهي عند هذا الحد. و بدأت تظهر بأثيناوكوس جمعيات من الرجال تحمل اسم حر فهم وصناعاتهم بيد أن نقابة أرباب الحرفة تكاد تكون شيئا مجهولا بالعصور الهللينستيه، اللهم إلا أن يكون ذلك بمصر، أما نقابات المالي الحقة فإنها لم تتطور إلا في ظل الإمبراطورية الرومانية، حتى اعترف قانون جستنيان في النهاية بقواعدها، كما اعترف القانون الانجليزي العام بعرف التجار والمادة: أن النادي لم يكن له معنى سياسى، ولكن حدث أثناء آخر كفاح قام به الحلف الآخي ضد

---

(1) الثياسوى: هم جماعات دينية تقيم الأعياد والحفلات الدينية في مناسباتها وتسير في الشوارع منشد مهللة بذكر الإله. (المترجم)

(2) النوادي Branoi: هي الجمعيات التي تقوم على اكتتاب يخصص لغرض اجتماعي أو تجاري أو للإحسان. (المترجم)

روما أن ظهرت أندية " الوطنيين الغيورين " أي الرجال الذين اتحدوا وعقودا الخناصر على نصرة ماورثوا عن أواليهم من دستور. وكان النادي المؤلف من هؤلاء بشكل نفسه على غرار هيئة المدينة فكان به موظفون يحملون نفس الألقاب ويصدر قرارات مائل مراسيم المدن.. وأصبح ذلك الوضع إلى أقصى حد هو القرار المعياري الذي يقاس عليه، بحيث أن أشد أشكال المناشط تباعدًا مثل المدارس الفلسفية وأكاديمية الإسكندرية و جمعية فاني ديونيسوس، و جند حاميات بطلميوس والشعراء الذين حلوا بمدينة أثينا، والأطباء الذين يدربون بجزيرة كوس وغيرها، و قدامي أبناء المعاهد بهذا الجمنازيوم أو ذاك، – اتخذت هذه كلها لنفسها نوعا واحدا متماثلا من التنظيم. وكان عدد الأندية كبيرا، فعدتها في ١٤٦ بمدينة ترويزن الصغيرة ثلاثة وعشرون ناديا، وواضح أن الأندية كانت تسد حاجة قائمة، وتحول دون شعور الفرد بأنه مضيع في خضم عالم مائل جديد. حقا إن حياتهم تبدو لنا متعبة ومملة مللا لا سبيل إلى وصفه، ولكن ذلك شيء لا يكاد يستحق الذكر؛ فليس هناك شاهد واحد يدل على أن اليوناني كان وما ضيق التنفس بحياته إلا بمقدار برم الناس بحياتهم في أيامنا هذه بعد ألفي سنة من أيامهم.. و كان أهم عمل للنادي في الحياة الإغريقية هو أن يجعل من نفسه السبيل الطبيعي لقرب الأجانب والعبادات الأجنبية ودخولها إحدى المدن، هذا والأندية الإغريقية البحتة توجد بأثينا فرودس ولكنها كانت عادة إما أجنبية أو مختلطة، وكان للأخيرة منها الفضل في تحطيم الفوارق العنصرية، وهكذا كان أحد الأندية بمدينة بنيدوس يضم عدا الإغريق عضوا راقيا وآخر فينيقيا وثالثا بيسيديا ورابعا فريجيا ثم آخر ليبيا، وكان الرقيق أعضاء بتلك الأندية أحيانا، ولكن يبدوا أن أول ناد للميدان لم يظهر إلا في وقت متأخر من الحقبة و كان ظهوره بمصر.

وحدث بعض التقدم في التربية والتعليم أثناء تلك الفترة. وقد حدث آخر الأمر أن رئيس الجمنازيوم (**Gymnasiarch**) وهو الموكل بالإشراف عليه أصبح أهم الموظفين العموميين تقريبية، وأدركت بعض المدن ميليتوس مثلا أن التربية ينبغي لها أن تناط بالدولة، كما ارتأى أفلاطون من قبل، ولكن الأرجح أن هذه المدن كانت تعتمد في تنفيذ ذلك على الهبات التي يمنحها لها الملوك والأثرياء، لكي تستخدمها في إقامة المباني ودفع الأرزاق؛ حتى لقد بلغ الأمر أن قبلت رودس من يومينيس الثاني دبة لتلك الغرض.. وكانت المدارس الأولية أرسخ قدمًا بالمدن الأشد أخذا بالتقدم، فهي في أيونيا تجمع بين الصبيان والبنات، كما أن الجنسين كانا يتعلمان معا في كل من نيوس وخيوس، شأن المتبع باسبرطة مُنذ زمن بعيد. و كان الأطفال يبدأون التعليم بتلك المدارس عند بلوغهم سن

السابعة، ولكنهم لا يتعلمون بها سوى مبادئ القراءة والكتابة، ومن المشكوك فيه أن مبادئ الحساب الأولية، كما نفهمها نحن اليوم، كانت تعلم بها بصفة عامة، والظاهر أن المدرسين لم يكن يشترط. فيهم أي مؤمل، بيد أن الموظفين العموميين كانوا يحاولون الحصول على رجال. نرى أخلاق متينة. ويظهر أن تعليم البنات لم يتجاوز هذا المستوى، أما الصبيان فكانوا يواصلون التعلم متى أظهر آباؤهم استعدادا لدفع النفقات اللازمة إلى مدرس مدرسة ثانوية (**Grammatikos**)، بغية الحصول على تدريب أدبي أول تمهيدا لدراسة على البيان، ثم يذهبون في النهاية إلى مدارس الشباب (**Epbebate**). وقد عدل ليكورغوس نظام هذه المدارس الأخيرة بأثينا حوالي ٣٣٥؛ فأصبحت تضم أبناء التاسعة عشرة والعشرين،. وكانت إجبارية، ومع أنها كانت مؤسسة على التدريب العسكري إلا أنها أفسحت بعض المجال التعليم أيضا، ولكن الأسماء التي كانت تطلق على المثقفين وهي معلم النظام (**Cosmetes**) ومعلم ضبط النفس (**Saphironistea**) نكشف عن الهدف الذي رياليه ليكورغوس وهو على الأغلب تكوين الناحية الخلقية الكريمة. وأصبح نظام معاهد الشبيبة (**Ephe bate**) شائعا بين جميع المدن الإغريقية تقريبا، ولكن أثينا عادت سريعة فأسقطت الإلزام، كما أن مدة أخرى لم تعمل به مطلقا، فهو من ثم تعليم إخباري، مركزه هو الجمنازيوم الذي بلغ من أمره أن أصبح يلعب بالمدن الهلينستية نفسي الدور الذي لعبته با تجارة المدارس العمامة. وكان الذين تخرجون من الجمنازيوم يكونون ضربا من الأرستقراطية غير الرسمية. كما أن الجمنازيوم كان بالمدن الجديدة بآسيا هو الممثل الطراز الحياة الإغريقية: إقامة الجمنازيوم في أي مكان تعتبر إلى حد ما بمثابة التمهيد لبلوغه مرتبة المدن. وظهر بمصر من هذا النوع من المؤسسات مجموعة لا بأس بها متناثرة بين القرى المأهولة بالإغريق. وكانت المدينة الكاملة العدة والتقدم كيرجامة مثلا تحتوي ثلاثة جمنازيات أو أقسام من جمنازيوم للصبيان وللشبان **Ephebes** الذين أنهوا دراستهم بمدارس الشباب (**Ephebate**). وكان التدريب الرياضي قامة ومستوفي، أما التدريب الذهني فمعلوماتنا عنه ضئيلة لا تعني فتيلا، بيد أن الراجح أنه لم يكن يتجاوز تدريس الأجرومية والشعر (مع الموسيقى) وشيء من ع لم البيان، والواقع أن التعليم كان يتجه اتجاهًا عتيقًا ومحافظًا، وذلك لأن محتواه المالي والرياض مكان إلى حد كبير استبقاء لما كان يجري في عهد الأرستقراطية العتيقة، بل إن علم البيان نفسه كان من ثمرات القرن الخامس. ولا شك أن تطوره ونموه في العهد الهللينسني (ف ٨) إنما يرجع إلى المزاج الإغريقي نفسه من جهة، كما يرجع من جهة أخرى أيضا إلى أن عادات الفكر والكلام التي كان بينها في الناس على البيان كانت لا تزال تهدف إلى النجاح الدنيوي، سواء أكان ذلك في شئون سياسة إحدى المدن أو في بلاط أحد

الملوك. وينبغي أن يتذكر القاري، أن الرومان العهد الإمبراطورية لم يكونوا أقل كلفة به من إغريق الإسكندرية أو برجالة في العهد الهللينستي. فكل من شاه تعليمة عالية كان عليه بعد ذلك أن يذهب للعمل بنفسه تحت إشراف معلم مرموق. ولم تكن الأيام قد تمخضت بعد عن فكرة أن الرجل العادي من أوساط الناس كان يستطيع أن يأمل الإفادة من الدراسات العليا المقدمة، في أي من على البيان والفلسفة ولا في أحد العلوم. وكان البحر في العلم مغامرة فكرية لكل من يناسبه التبحر من الأفراد ومن تستطيع موارده المالية الإنفاق في سبيله، وربما انطبق نفس الوضع أيضا على تعلم الطب والتدرب عليه، وهو الحرفة الوحيدة المقترنة بالسر في ذلك العصر. و كانت دراسة القانون كل لا تزال مجهودًا أو نكاد، و حقيقية لعلها تبدو مدهشة لأول وهلة، بيد أن دهشتنا منها نقل حين نتذكر أن ممارسة القانون كانت قليلة التطور نسبية بحيث لم يتيسر لها أن ترفعه عن مكانه التقليدي (في مجتمع إغريقي) كخادم للحكومة.

وبعض الجنازات كان بها مكتبات. وكانت وظيفة رئيس الجمنازيوم ثقيلة الأعباء؛ فإنه كثيرا ما كان يضطر أن ينفق عن سعة لسد حاجة النفقة الضرورية من ناحية ودفع تكاليف الجوائز الخاصة أو الحفلات العامة والواقع أن الدارسين فيما كانوا يضيعون الشيء الكثير من الزمن في السير في المواكب لحضور القرابين، في كل من حفلات المدينة المعتادة والمناسبات الخاصة كزيارات الملوك أو أعياد ميلادهم. وشاهد ذلك أن أحد تقاويم كوس يذكر في شهر واحد ثمانية أيام مخصصة للأعياد وأربعة للامتحانات، وكان من المألوف أن يطلب عظماء الرجال من المدارس إجازة، ولكن ذلك كان معناه على وجه العموم القيام بموكب آخر. وإن المرء منا ليسائل نفسه: أكان الصبيان يسعدون بأجازة يقضون أغلبها إجبارًا بالمعبد مفضلين إياها على عملهم اليوي من سباق ومصارعة ؟ وإن نظرة واحدة على حجرات الدراسة التي أزيلت عنها الأتربة في برجامة وبرينى لريك الجدران وقد غطيت بالأسماء من أسفلها إلى أعلاها المدرسة الثانوية بايتون سواء بسواء. وكان الشبان أسوة بالشيوخ يكونون فيما بينهم جمعيات تقلد نظم المدينة على معيار مصغر. كما أن جمعية الطلاب القدامى (**Gerousia**) – وهم أولئك الذين تخرجوا بجيمنازيوم المدينة م ما لبثت أن ترامت في النهاية إبان حكم الإمبراطورية الرومانية إلى التحول إلى ضرب من مجلس شيوخ بلدية المدينة. بل إن التلميذات الصغيرات أنفسهن كن يصدرن قرارات بالطريقة السليمة المألوفة نكرعة لكبار الزائرين.

وكان للأميرات المقدونيات العظمات اللاتي ظهرن في الجيلين التاليين للإسكندر (ف٢) أثر عظيم

في مركز النساء الإغريقيات. فلئن كانت مقدونيا أنجبت في أغلب الظن أكفأ من شهد العالم حتى ذلك الوقت من الرجال، فلقد كانت النساء أندادا للرجال من كل النواحي. فكن يقمن في الشئون العامة بدور كبير ويستقبلن البحوث ويحصلن من أزواجهن على ما تحتاج إليه تلك البعوث من حقوق وامتيازات، وكن يبنين العابد. ويؤسسن المدن ويستخد من المرتزقة ويقدن الجيوش ويمتلكن القلاع والحصون، ويقمن مقام الملك أحيانا أو يشتركن في الملك على قدم المساواة في أخرى. وغني عن البيان أن امرأة كارسينوي فيلادلفوس، وهي الجميلة المقتدرة صاحبة السيطرة والقوة على من ينضوون في خدمتها من الرجال، كان لها بالبداهة تأثير مائل. وتوفرت لهؤلاء الملكات نفس الرغبة التي كانت عند أزواجهن إلى الثقافة.و من دلائل منزلة المرأة أن أرانوس يوجه الأشعار إلى فيلا على حين كتب يوسيديبوس من أهل بيلا المقطعان الشعرية إلى أرسينوى، ووجه كاليماخوس قصائده إلى بيرينيقة زوجة بطلميوس الثالث، وكانت أرسينوى تتراسل مع العالم الفوزيقي استرانون، على حين زادت إسراتونيقة، زوجة أنطيوخوس الأول من عدد الذخائر الفنية بديلوس. ولا يقل عن ذلك نباهة ذكر بعض ملكات أخريات من الأرومة الإغريقية. فقد قيل إن واحدة منهن كانت المثل الأعلى في كمال الصفات التسوية في أبولونيس من كزيكوس وهي التي تزوجت أنالوس الأول صاحب برجامة، وكانت أمة لأبناء ذاع صيتهم، وكان الناس يتحدثون عنها مثلما كان الرومان يتحدثون عن أم الأخوين الجراكيين متخذين منها مثالا للصفات النسوية الكرة. كما أن أي مجتمع كريم كان بشرف لا جرم بامرأة مثل خيلوتيس الاسبرطية شقيقة كليومتيس وأوتيت امرأة يونانية مي يثودور بس ابنة أحد المواطنين من أهل تراليس سلطانة عظيمة و حكمت مملكة ضارية تمتد من كراسوس إلى كولخيس بيد أنها كانت أيضا حفيدة أنطونيوس.

ومن البلاطات المقدونية أخذت الحرية (النسبية) تترقرق إلى البيوت اليونانية، و أصبحت النساء الراغبات في التحرر – ولعلهن أقلية صغيرة – قادرات على الحصول إلى درجة كبيرة على بنيتهن تلك. وأصدر دمتريوس الفاليري بأثينا القوانين التي تلزم المرأة مكانها،ولكن هذه القوانين بما لبثت أن ألغيت بعد سقوطه. ومع أن بعض الموظفين العموميين الملقبين بلقب «المشرفين.على شئون النساء و (Gynaeconomi) يظهرون بعض المدن، إلا أن الشيء. الوحيد الذي ثبت أنهم أشرفوا عليه هو تسليم البنات. و كذلك أيضا كان للمذهب الرواق الذي يرجع إليه الفضل فيما بعد في إنهاء التعريف الكريم للزواج إلى المشرع الروماني، النصيب الأكبر في رفع مستوى حال المرأة. فعندئذ أصبح في

إمكان النساء أن يحصلن على القسط الكامل من التعليم بحسب ما يرينه؛ فصار كثير من الفلاسفة يعدون النساء من بين مستمعيهم مثل ليونتيون تلميذة أيقور، وهي التي تزوجت صديقه مترودورس. وبدأت الشاعرات تظهرن مرة أخرى في البلاد أثناء القرن الثالث، وراحت الشاعرة أرستوداما الأزميرية تجوب بلاد اليونان متخذة من أخيها مديرة لأعمالها، وهي تلقي الشعر وتتلقى كثيرًا من آيات التكريم. ويذكر التاريخ أسم سيدة تبحرت في العلم هي هستآيا وواحدة أخرى برزت في التصوير، وإنك لتحس بجلاء أن بعض الكتاب كانوا يكتبون لقراء من الجنس اللطيف. وأخذت النساء عندئذ تلقين المواطنية ويوكل إليهن رعاية مصباح الخير من مدن أخرى وتأدية الخدمات على نفس الأسس الرجال سواء بسواء، كما أن الموظفات العموميات من النساء في العهد الروماني يرجع بدء ظهورهن على كل حال إلى القرن الأول ق.م يوم تولت امرأة هي فيلى أعلى المناصب بمدينة بريني وشادت سقاية ماء وخزانة جد يدين، وغدت العلاقات بين الجنسين أقل ضيقًا وتعقيدًا وصارت طبيعية أكثر من ذي قبل. وإذا بك ترى النساء يؤسسن الأندية ويسهمن في حياة النوادي، وإن كان ذلك بطبيعة الحال إلى حد أقل من الرجال غير.. أنه كانت هناك أندية مخصصة للنساء فقط بكل من أثينا والإسكندرية كان الفيلسوف الكلبي قراطيس (**Crates**) تلميذة من أسرة كريمه هى هيبارخيا زوجته وعاشت و عيش الطبيعة و الذي تدعو إليه فلسفته وهو عيش الشحاذ – المتجول. وهناك قلة دفعت بتحرير المرأة إلى أبعد من ذلك، ولكن من الجلي أن معظم هذه الأمور لا نشير إلا إلى أقلية معدودة. ولم نكن الحرية شيئًا يحصل عليه تلقائيًا بل شى. لابد من تصيده والإحتفاظ به. وكانت الجمهرة العظمى من الناس تتلقى تعليمة أولية جدا.. ومن النساء حتي اللواتي عشن منهن في القرن الأول – من بلغن من الثراء ما أتاح لهن امتلاك العبيد، وإن كن يجهلن القراءة والكتابة، فلا غرو إذن أن كابدت بلاد الإغريق الشيء الكثير من جراء البون الشاسع بين مستوى التعليم عند الجنسين، وثمة شر مستطير في حياة المرأة فاق كل هذه الشرور جميعا، ذلك أنها كثير أما كانت تحرم من تربية من حملت فن أطفال. فإلى أي مدى كان رضاها بهذا الاحتياط المتخذ تقية من المجاعة وخشية الإملاق ؟ – ذلك أمر لا جدوى من البحث. فيه. إذ ليس بين أيدينا سجل واحد يسجل رأيها.

ذلك أنه لم يكن في طوق أية بجبوحة عيش ورغد تصيبه الطبقات العليا. أن يغير من الحقيقة الجوهرية الماثلة الشبح دائما أبدًا ببلاد الإغريق: وهي أن البلاد لم يكن بها إلا قدر محدود من الأرض بالصالحة للزراعة، كما لم تكن تستطيع بنفسها أن تقوت رجلا واحدة فوق عدد ثابت من السكان

بلفته البلاد من أمد بعيد. أما الغذاء المستورد فشي. لابد من دفع ثمنه، ولما كانت البلاد محرومة من كل ثروة مصرية جدا ما تنتجه مناجم "لاوريوم" من فضة وقد أخذ يقل إنتاجها آنذاك من البلاد سريعة، ولما كانت كل مدينة في حوض البحر المتوسط نستطيع أن نقوم بكل ما يلزمها من عمليات النقل البحري لم يكن من وسيلة من ثم لدفع ثمن الطعام إلا عن طريق تصدير المصنوعات أو رسوم الترانسيت (التجارة العابرة). وأثرت كورية من تجارة الترانسيت التي تمر بها، ولكن نظام المناعة اليوناني في حالته البدائية لم يكن له قيمة كبيرة للدول على وجه الإجمال، وإن أثرى بفضله بضعة أفراد قلائل فيها محتمل. فمن الطبيعي إذن أن نعيش بلاد الإغريق القديمة كلها متوجسة كل شبر من زيادة عدد الأفواه الطاعة. وواجه الناس تلك الحال في أخريات القرن الرابع وأوائل الثالث بانطلاقهم للخدمة العسكرية كمرتزقة و بالهجرة إلى آسيا. وكثيرا ما يعبر كتاب القرن الرابع عن انشغال بأهم بزيادة عدد السكان وبلوغها حدًا يفوق طاقة البلاد، كما أن البلاد كان بها حوالي عام ٣٠٠ فائض جسيم من السكان، بيد أن الفائض أخذ يتلاشى شيئا فشيئا. يقول يوليبيوس إن الإغريق كانوا يرفضون في منتصف القرن الثاني أن يكون لهم أكثر من طفل واحد أو على الأكثر طفلين، والشواهد التي تثبت صدق قوله وتدعمه كثيرة.

إن نصوص الأدب اليوناني تؤكد بإلحاح انتشار قتل الأطفال ورأدهم بلاد اليونان، كما أن منها ما ينفي تلك التهمة بكل قوة. ولكن النقوش لا سبيل إلى الشك فيما تسوقه من بينة فيما يتعلق بأخريات القرن الثالث و القرن الثاني، وسألخص هنا. بجاز الشواهد والبينات بقدر ما استطعت معها. إذ أن هناك ما يقارب بضعة آلاف من العائلات اليونانية التي تلقت المواطنية المليتية حوالي ٢٢٨ – ٢٢٠، ربي لنا منها حديث تفصيل عن تسعة وسبعين مرة بأطفالها، وقد أنجبت هذه الأسر ١١٨ ولدا، ٢٨ : بنتًا، الكثير منهم من القصر؛ غني عن البيان أن هذه النسبة الضئيلة لا يمكن تعليلها تعليلا طبيعية، وبالمثل كان أقارب. إيبكثيتا (حوالى ٢٠٠) خمسة وعشرين ذكرًا إلى سبعة إناث، و كان لاثنين وثلاثين من العائلات المليتية طفل واحد فقط ولإحدى وثلاثين منها طفلان،يستشف شيء من محاولة هذه الأسر الحصول على ابنين اثنين، والنصوص بوجه عام تشهد بذلك. ونسبة من لديهم ابنان شائعة بدرجة لا بأس بها مع قلة متناثرة أطفالها ثلاثة. ومن المحقق أن عائلتين من كل تسع عشرة بابريتريا كان لها في القرن الثالث أكثر من ولد واحد، وهي نسبة أقل ما جرى بين النازحين إلى ميليتوس، ولكنها تتفق مع الشواهد المستقاة من دلفي، وربما كانت النسبة في فرسالوس عائلة واحدة

من كل سبع عائلات، وذلك مع التجاوز عن هجرة بعض الأبناء من البلاد. ولكن يكاد يكون محققة أن القوم لم يكونوا يسمحون مطلقة بإنجاب أكثر من بنت واحدة، وهو مصداق ما يقرره بوسيديبوس حيث يقول: و إن الرجل الغني نفسه ينبذ دائما إحدى بناته طعمًا للموت والجوع. ونقول نقوش دلني من القرن الثاني إن نسبة العائلات التي كانت تعول بنتين لم نكن نتجاوز الواحد في المائة بين ستمائة عائلة. ونتفق الشواهد المليتية مع هذا الحال، كما أن الحالات التي تذكر وجود أخوات في كل مجموعة النقوش يمكن أن تعد على الأصابع، وذلك في اعد إحالة استثنائية غريبة واحدة: فإن هناك قائمة من القرن الثاني تحوي أسماء بعض المتبرعات من النساء من باروس، لعلها نضم عشرين أختا (من ماني عائلات) من اثنين وستين امة، ولكن ذلك شيء لا يقاس عليه لأن الجزر كانت تعيش في رغد أمنة من الحرب، كما أنها من حيث السكان يجب أن نعتبر تابعة لآسيا لا لبلاد اليونان. ولا بد أن يتجاوز المرء بعض التجاوز. إزاء عامل العقم (عدم الإنجاب)، لذا ترى التبني شائعًا في رودس، حتى لقد عثرنا على قائمة فيها أربعون موظفة عامة (حوالى ١٠٠) منهم سبعة من المتبنين، كما أن حي تيلوس منها كان به قائمة فيها ثلاثة متبنون من أربعة، على حين أن نبني الأطفال حتى البنات منهم كان من الأمور الشائعة بمناطق أخرى. وليس معقولا أن يقتل الناس أبناءهم ليتبنوا آخرين. وتفاخر سجلات تيلوس أيضا بوجود هائلة من سبعة أفراد، لعلها هي العائلة الهللينستية الوحيدة التي يتجاوز عدد أفرادها خمسة، وذلك باستثناء أطفال كليوبطرة ثيا الثمانية الذين أنجبتهم من ثلاثة أزواج، ولكن لا شك أنه كانت هناك وسائل منع صناعية، وأكبر دليل على ذلك كثرة العائلات المكونة من أربعة أفراد وخمسة بأتينا في أثناء فترة ازدهارها الأخير في أخريات القرن الثاني.

ويلوح أن النتيجة العامة مُنذ حوالى ٢٣٠ فما تلاها من السنين كانت نتيجة محققة لا ريب فيها: فان الأسرة ذات الطفل الواحد كانت أكثر الأسر شيوعًا. بيد أنه كانت لدي القوم رغبة معينة في الحصول على ولدين (وذلك رغبة في التعويض عن أحدهما إذا مات في ميدان القتال)، وكانت الأسر المكونة من أربعة أفراد أو خمسة نادرة جدا، وقلما نشأت الأسرة أكثر من بنت. واحدة، كما أن الإقدام على وأد الأطفال على معيار ضخم لا سيما البنات،. أمر لا تكتنفه أية شكوك. ومن المعلوم أنه لا بد للإبقاء على عدد السكان ثابتًا، أن تكون الأمة من أسر غير عاقرة يكون معدل ما تنجب من الأطفال ثلاثة. لذا فليس ثمة شك في أن عدد السكان الذين كانوا يولدون ببلاد اليونان قد تناقص تناقصًا كبيرا حوالى ١٠٠ ق.م، فكأن بلاد اليونان قد أفرطت في تحوطها من الخوف من

عـوادى الـزمن، ومـع ذلـك لم يرتفـع صـوت واحـد في الـبلاد عـدا صـوت اليهـود. يعـرض علـى قتـل الأطفال اعتراضا قائمة على أسس خلقية، ختي ظهر الفيلسوفان الررانيان موسونيوس وإبكتيتوس في عهـد الإمبراطوريـة، وأفصـحا عـن رأيهمـا في ذلـك الأم. وقـد اتخـذ قبليـب الخـامس بعـد معركـة " كينوسكيفالاى" الإجراءات الكفيلة بإيقاف ذلك الاتجاه في مقدونيا لأغراض عسكرية ودأب على تشجيع الأسر الكثيرة العدد، وبذلك تهيأ له أن يزيد عدد الجيش المقدونى قرابة خمسين في المائة في مـدى جيـل واحـده وعمـدت طيبـة في عهـد الأباطـرة الأنطـونيين إلى اعتبـار مزاولـة ذلـك أهـرة غـير مشروع بحظره القانون، ولعل أهل طيبة هم الشعب الوحيد باستثناء اليهود الذي حظر ذلك العمل القبيح إلى أن تدخلت المسيحية.

ولا شك أن بلاد الإغريق لم نصب بتناقص فعلي في عدد السكان حتى عهد الحروب الأهلية الرومانية. أجل إن مدة معينة بمفردها قد يضمحل عدد سكانها لأسباب عدة، مثال ذلك أن الحروب ونفي المشايعين لأيطوليا ذهبا بأكثر من نصف مكان لاريسا في عهد فيليب الخامس، وأن مدينتي هيراقليا بسفح لا تموس وثيريون بإقليم أكارنانيا ضيفتا الأسوار المحيطة بهما، بيد أن ثيريون، وفي مدينة صغيرة كان لها عند ذاك سور أطول من سور طيبة. ومن المسلم به أن هذه أمور لا تدل على شيء، فان أرسطويذ كرحالان مدن من هذا القبيل معتبرة إياها أشياء عادية تماما. و حدث في القرن الثالث أن المدن التي كان بها فراغ لمواطنين جدد كدان لاريسا ودمي وميليتوس (لإسكانهم في ميوس) نجد أدنى صعوبة في الحصول على كفايتها من الإغريق من مناطق أخرى. ولكن الشيء الذي نكاد نقطع به أن عتق الأرقاء أو ضم الأجانب كان يتم حوالي ١٠٠ ق.م. على معيار ضخم بلاد الإغريق، شأنه في آسيا كذلك (الفصل الرابع)، إذ إنه يلوح لنا ألا سبيل إلى تفسير الحقائق المتعلقة بذلك على غير هذه الصورة، إذ إن تناقص السكان اليونان الأقحاح أمر لا يتطرق إليه شك. حقا إن من المسير الحصول على البينات التي تثبت ذلك لأن الأجانب كانوا يتخذون أسماء اليونان، ولكن شاع في تلك الأيام قبول الإيطاليين نحت اسم الشبيبة**Ephebes** ، و بـديهي أنـه وقبـل دخـول شـعب أجنبي في المجتمع، دل ذلك على أن الشعوب الأخرى لم نكن تستبعد. ومما يجدر ذكره أن برجامة في ١٣٣ واقيسوس حوالي ٨٥ منحت صفة الأجنبي المقيم ومنزلته للارتقاء الذين حرروا آنذاك، وربما لم بجانب الصواب فكرة فيليب الخامس من أن حل تلك المسألة مستقبلا يكون في منح حق المواطنية العتقاء، وذلك لأن الدن الإغريقية أصبحت غاصة بالمقام. ولاشك أن بلاد الإغريق كانت تحتوي في القرن

الأول على عدد كبير من السكان الأجانب، سواء أكانوا من قالوا حق المواطنية أم لم ينالوه، وأن ما كان يحدث بأرض آسيا ومصر كان يحدث ببلاد اليونان على معيار أصغر، وما أن نهر العاصي (Orontes) كان يفيض في نهر اليسوس قبل أن يتدفق إلى نهر النيير، كان من يذكرهم جوفينال من أشباه الإغريق القراء الشرهين يكن فيهم من الإغريقية القحة ألا الاسم واللسان. وفي إمكانك أن تجد هذا التغير في نوع المكان مُنذ عهد مبكرنسية بكورية، التي لم تكن لتستطيع أن تحشد في القرن الثالث من جند المشاة المدججين بالسلاح إلا ربع من كانت تحشده في القرن الخامس، وذلك على الرغم من أن المدينة قد اتسمت و نخست، وهذه الحال جلية واضحة في دبلوس مُنذ ١٦٦ ولا تحتاج إلى برهان. وفي الإمكان. أيضا مشاهدة آثار تلك العملية التي تجلت ناشطة فعالة في تحطم فوارق الطبقات والأجناس. فكان الرجل الثرى إذا أو في القرن الأول وليمة لمواطنيه الأحرار، دعا إليها في الغالب الأجانب المستوطنين (Metics) والعتقاء بل حتى الأرقاء. و كانت القرابين تقدم إذ ذاك الماسة لصحة جميع سكان المدينة وليس للمواطنين الأحرار فقط. وتوجد هناك أندية كنادى سيديكتاس مثلا بلاكونا، الذي كانت عضويته تجمع بين أفراد ميديكتاس نساء ورجالا، و بعض موظفي المدينة العمومين و كثيرة من الصناع بينهم الأحرار والعتقاء، فضلا عن جارية صغيرة..

وهناك نوع من الرق في الهلينستية تختلف عن بقية أنواعه، هو رق المناجم. (الفصل السابع)، وكانت المناجم جحيما في الأرض لم تستطع الفلسفة الرواقية ولا معبد دلفي أن يمسها، بسوء. وكان هذا النوع من الرق جريرة يرتكبها الملوك والمدن على حد سواء، ولكن الرق المنزلي المادي لم يكن في المادة خلوة من إشفاق ورحمة، ولربما ولد العميد مولدة خيرة من سيده وربي أحسن من مولاه، وآية ذلك أن كثيرا من الفلاسفة الذين هزوا العام بأفكارهم كانوا من الأرقام فعلا أو من المتفاه. ولو نظرت إلى أثينا التي كانت تتساع إزاء ما كان محدث بمناجم لاريوم من فظائع رمية لوجدتها قد قيدت مُنذ زمن بعيد أشد القيود والعقوبات الممكن توقيعها على غيرهم من الرقيق – وهذا ينطوي على تناقض آخر عجيب. وحذا حذوها قانون الصحة العامة ببرجامة. وبذلت الفلسفة الرواقية جهودها للحصول للرقيق على معاملة أطيب، وتمكنت من تغيير الجو رويدا رويدا، فأصبح الناس يحسون بوجوب الرثاء للرقيق لا إنزال العقوبة بهم، وشاع. فك الرقاب عن طواعية، شيوعا مزايدة طوال القرن الثالث وخاصة في الأوساط الفلسفية، ولا شك أن شيئا من فك الرقاب كان يحدث دائما، ولكن بدعة عظيمة بدأت حوالى ٢٠٠ ق.م، فبفضل نقوذ دلفي التي كانت على استعداد دائم إبان فترة عظمة

أيطوليا وسيطرتها لمناصرة كل نزعة إنسانية، بات من الممكن للعبد أن يشترى حريته ببيعه بيعة صورية لأحد الآلهة، ومما أعان على نجاح تلك الحركة اعتبار مادى دنيوى، هو أن رخص العمال الأحرار جعل الأرقام الصناع غير مربحين سادتهم. وكان بعض الأرقام يكسبون المال ما يعرفون من حرف، ولذا فسرعان ما أصبح فك الرقاب من الشيوع بمكان – حيث أعتق معبدة بلاريسا في سنة واحدة، وأعتق أربعون في مدى سنتين بمدينة هالوس، وهي بلدة صغيرة – ومن ثم أخذ العتقاء يؤلفون طبقة قائمة بذاتها في المدن مختلف اختلاف طفيفة في حالتها الاجتماعية عن الأجانب المستوطنين. ولكن حتى فك الرقاب نفسه كانت له ناحيته المعتمة، فإن المرأة الجارية بعد أن تعتق، كثيرا ما كانت تلزم بالكث مع سيدتها مادامت على قيد الحياة لكي تدفع بالعمل الذي تؤديه من شرائها، وهذا أمر لم يكن في حد ذاته بعيدة عن العدل، ولكن الواقع أنها كانت تمكن لديها في ظلال الذل والهوان، حيث كان في المستطاع نكيلها بالأغلال وضربها بالسياط بل حتي يبيعها بيعًا. وكان كل طفل تلده يعد عبدًا هو الآخر – وهو شيء رهيب ذريع – إلا أن يكون صك فلك الرقية قد نص مقدمة على تحريرهم، وذلك يتم في بعض الأحيان بشروط منصوصة مقدمًا وكانت في بعض الأحيان أيضا تلزم بأن تلد لسيدتها – بل حتى أن تربي لها طفلا أو أكثر يكونون عبيدا لسيدتها، وربما عرضت سيدتها في بعض الأحايين عن هذا الالتزام بدفع شيء من المال، ولكن طريقها المعتاد كان واضحة، وكانت خاتمتها هي الاضطرار إلى التردي في الرذيلة.

أما عدد الرقيق ببلاد اليونان أو نسبتهم من السكان الأحرار بها،. فأمر نجهله كل الجهل، ولكن ما تم من تلك الرقاب بدلفى وناو باكتوس ألقى شيئًا من الضياء على عدد العميد بشال بلاد اليونان. وكانت النسبة متعادلة بين الرجال والنساء من الرنين المشتري بالمال، أما الرقيق المولود بالمنازل، فان العدد النساء في قياسا على عدد المحررين من أفراده – أغلبية كبرى، بحيث يبدو أن الطفلة البنت التي تلدها إحدى الجواري كانت فرصة البقاء فيا أحسن ما لو كانت أمها من الأحرار. وكان الرقيق المشتري بالمال أوفر عددًا بكثير من المولود بالمنازل، وأغلب الجنسيات شيوعا فيهم هي الإغريق والتراقيون والسوريون،وإن وجد أرقاء من كل جنسية ابتداء من قوم البستار ناى إلى بلاد

العرب. وكان معدل سعر العبد من أحد الجنسين من ثلاثة مينات [1] إلى أربعة، ولكن بعض الجنسيات بين الرقيق المشتري كانت تباع بشن أغلى. وتتربع مقدونيا صدر القائمة بسهولة ويسر، حيث يتراوح من العبد منها بين ٥٥ مينات للرجل و ٥ وربع للمرأة، وهو أمر يشهد بما يقوله يوليوس عن سجايا ذلك الجنس العظيم، ومن أحسن أنواع الرجال العراقيون وسعر الواحد منهم قدره ٥ ونصف والرومان والإيطاليون (وبعضهم من أسرى هانيبال) بسعر په، على حين أن نساءهم لم يكن يحصلن إلا على معدل السعر المعتاد. ويبرز أيضا الرجال الغلاطيون بسعر ٤ وخمس، أما النساء، فالمرأة الإغريقية التي كانت تساوى ٤ ونصف إنما تلى المقدونية في المرتبة مباشرة، وهناك فرق عجيب في سعر الجنسين فضلا عن النسب العددية في الجنسين بين الرقيق المشتري والمولود بالمنازل. أما الأرقاء شراء المال، فإن ٩٦ رجلا معروف جنسياتهم كان جملته منهم هو م مينات للواحد، كما كان ٩٨ امرأة بمعدل أقل قليلا من ٤ مينات، أما المولودون بالمنازل فان بينهم ١١٠ امرأة معدل ثمنهن أكثر قليلا من ٤، في حين أن ٤٧ رجلا معدل ثمنهم.. ولو نظرنا إلى الأمر في جملته. لوجدنا أن العبد المولود بالمنزل والمدرب مُنذ نعومة أظفاره كان أعلى قيمة. وأعلى سعر تذكرة السجلات هو ٢٥ مينات دفعت ثمنا لامرأة فريجية، ورجع السر في هذه الأسعار العالية – على قلتها – إلى توافر بعض المهارات الخاصة بالعبد.

وكان تزويده بلاد الإغريق بالقمح أخطر المسائل العاجلة بالبلاد. وكان معدل سعر القمح المستورد بأثينا أيام ديموستنر يتراوح عادة بين حبس دراخمات. لليديني (Mediano0) الواحد وهو يساوي البوشل[2]. ولما أن أنزل الإسكندر الأكبر كنوز فارس للتداول، أفضى ذلك إلى تخفيض قيمة الدراخمة، ارتفع سعر القمح بطبيعة الحال، وحدث حوالي ٣٠٠ وقد خفضت الدراخمة و التي كانت تساوى ٦ أوبولات) إلى ٣ أوبولات، أن معدل سعر القمح أصبح لا جرم حوالي عشر دراخمات تقريبا للبوشل الواحد مع التجاوز عن الفروق الموسمية في الأسعار؛ وهبط ذلك السعر بالتدريج مع ارتفاع قيمة النقد، ولكنه كان حوالي عام ٢٠٠ لا يزال يقارب په دراخمة؛ ذلك أن القمح أصبح

---

(1) إلينا الواحد (Mina و يكتب Maa)باليونانية يساوى (١٠٠) مائة دراخمة كبار في الوزن أو عشرة أوقية.أما كعملة متداولة فيساوى مائة دراخمة كذلك ومقدار ذلك بالجنيه الإنجليزي ثلاثة جنيهات.وأربعة عشر شلا وأربعة بنات وكل سنين من الهيئات ناوى تالتو falentum (المترجم)

(2) البوتل مكيال إنجليزي جان الحبوب وغيرها يحتوي على ثمانية جالونات أى ما يعادل ٣٦ لترًا بالتقريب باعتبار اللتر الواحد ١٠٠٠ سنتيمتر مكعب. (المترجم)

موفورة بالعالم (الفصل السابع). وعلى البطالة أعظم عناية بتنظيم تصدير القمح، كما أن أثينا و كورنثة ودبلوس وكثير من الجزر وأيونيا ومدن أخرى في يحتمل كانت تعتمد اعتادًا أساسية على القمح المستورد؛ ولكن الألوف هو أن كل مدينة كانت تعتمد على محصولها الخاص، وإن اضطرت أحيانا إلى تكميله بما تستورده. لذا لم يكن النقص المحصول من معنى سوي نشوء حالة تراوح بين نقص الجرايات وبين المجاعة، والمجاعات المحلية كانت من الأمور الشائعة في تلك الفترة كلها، مُنذ كانت المواصلات البرية سيئة للغاية. و كان المألوف في الأحوال العادية أن بعض أرباب الوظائف العامة مثل مراقب الأسواق (**Agoranomos**) أو مراقب الأغذية. (**Sitophylates**) ينظرون في شئون تجار الغلال ويحرصون على تزويد المدينة بما يلزمها من الطعام بسعر معقول. ولكن هذا النظام كان ينهار عادة إذا ارتفعت الأسعار لقلة الموجود في السوق، ما لم يتول مراقب الأسواق شراء القمح بنفسه أو بتمكن من إقناع أحد أغنياء التجار ببيعه بأقل من سعر التكلفة به وإن عظم عدد الرجال الذين كانوا يدفعون الفرق على هذا النحو من مالهم الخاص لأبلغ دلالة على ما كانت الدن تتمتع به من سلم روح الغربة والحدب على المصلحة العامة. ولكن ذلك لم يكن إلا إجراء ملطفة، فليس عجيبة إذن في أثناء المجاعة الكبرى التي حدثت في ٣٢٩ – ٣٢٥، وامتدت إلى بلاد اليونان قاطبة وإيبيرس معها وزاد من وطأتها ذلك التضييق المصطنع في القمع المصري الذي افتعله كليومينيس رالي الإسكندر على مصر، – أن اضطرت الدولة بأثينا إلى التدخل في الأمر وجمع التبرعات وتعيين لجنة اشترت القمح بأية وسيلة تيسوت لها وباعته بالتجزئة بالسعر المعتاد مع إرداف ذلك بتوزيع الجرابات على الناس ببطاقات تموينية، فكأن بطاقات الخبز إذن ليست استكشافًا حديثة. ومُنذ ذلك الحين أصبح تأليف مثل تلك اللجان الخاصية وتوزيع القمح على الناس بالبطاقات من النظم المألوفة في أثناء عهود أزمات القمح. ولكنه كان نظام معيبة بعيدة عن الكمال، حيث كان التبرع شيئًا اختيارية، وربما لم يصل إلى القدر الكافي لحنيف ويلان المجاعة، هذا إلى أن الفقراء لم يكن في مستطاعهم دائما أن يدفعوا ثمن ما يخصهم من الجرايات.

ولعل ساموس هي التي اتخذت الخطوة الثانية فأنشأت رصيدًا لشراء القمح، وقد أزعجتها سلسلة المجاعات التي حاقت بها حوالي ٢٤٦، يوم أضاع التجار مسنين النقود المجموعة لتخفيف ويلان المجاعة، فلم ينقذ المدينة إلا فرد من المواطنين اسمه بولاجوراس؛ ونهيأ للمدينة بطريقة ما أن تجمع من الأغنياء القدر الكافي من المال، وأن تستثمره فيما بغل عليها سنوية من الفائدة ما يكفي لإمداد

المدينة بالقمع. وما لبثت كثرة عظيمة من البلدان أن حذت حذو ساموس، ونشأ نظام يقضي بقيام الدولة بشئون التموين بمدينة برينى:: بل وربما في غيرها من الدين، وإذا بالسجلات تذكر وجود أرصدة دائمة القمح في ميليتوس ونيون وديمترياس وديلوس و أيجينا وثريا، ولعل تلك الأرصدة من جميع البلدان تقريبًا. وكان معنى هذه الأرصدة – حتى في ظل نظام توزيع الجرايات تقسمه – أن الأغنياء (الذين اكتتبوا في رأس المال الأصلي) كانوا يقولون إطعام الفقراء، على نحو ما كان يفعله أغنياء رودس طائعين مختارين بما يقدمون من خدمة عامة للدولة في شئون الطعام، وهي خدمة كان كل ترى هناك يعنى بمقتضاها برعاية عدد معين من الفقراء: على أن ساموس وثيريا لم تقفا عند هذا الحد، إذ إن القمح في ساموس كان يوزع كل عام مجانا على المواطنين جميعا، وصار يوزع في تثيرها على الفقراء قط قرابة (١٠٠ ق. م.). والظاهر أن الأغنياء كانوا يدفعون أثمانا مضاعفة. ونظرًا لأن الملوك والأغنياء كانوا غالبا ما يقدمون هبات عينية من القمح، كما أن الأغنياء شرعوا يوزعون أيضا في أر كسينى ومينوا في القرن الثاني (وليستا. بهذا على أية حال فريدتين في بابهما) نذاكر مجانية لمشاهدة الحفلات المحلية، يتبين لنا أن نظام الطعام المجاني والحفلات المجانية (**Panem et circeuses**) وهو إجراء يقوض الأخلاق، لم يكن إلا سنة نقلتها روما عن التاريخ الهللينستي في عهده الأخير.

وفي ذلك العصر المليء بالمتناقضات البس تم شيء أدعى إلى الدهشة والعجب من التباين الشديد بين الحالة النصة للأجور (الفصل الثالث، فيما يلي) وين أريحية الأغنياء المذهلة. فإنهم ما كانوا ليمنحوهم المال أجراً، ولكن يعطونهم إياه هبة وعطاء. غير أنه عندما يعطون يوجهون عطاياهم الدولة في جميع الحالات بمعنى أنهم كانوا يعاملون المواطنين (أو السكان) ككل واحد. و كم من مدينة يلوح أنها استطاعت أن تلجأ إلى ترى من أبنائها لينقذها كلما دعت الحاجة أو رأت أن تلجأ إليه: ليجزل لها العطاء أو يفرضها بدون أرباح مبالغ طائلة تواجه بها بعض ما يلزمها من نفقة خاصة استثنائية، أو يذهب في وفادة لها بغير أجر أو يناصر المدينة على الملوك أو على جباة الضرائب الرومانيين؛ أو يبني لها الجسر (الكوبري)، أو بالجمنازيوم، أو المعبد، إن قصرت أرصدتها المالية دون ذلك، أو يمدها بأدوات الحرب أو يهبها نفقات احتفال جديد أو مدرسة جديدة، أو يسدد الأعباء الفادحة الخدمات العامة أو يقدم الزيت للرياضيين أو الجوائز التلاميذ أو بأدب الولائم للمواطنين وزوجاتهم؛ وذلك من أجل أن يكرم في النهاية بإقامة منال له غالبا ما كان يقوم بنفقاته هو نفسه، إذ يبدو أن رجالا من أمثال برونوجينيس من أوليا وميناس من ستون وموستحيون من پرڤي وبوليكريتوس

من إربشراى، كانوا كن حمل المدينة على منكبيه أو يكاد. وكان بهذا الاعتماد المستمر من جانب الدن على تقدم أحد الأثرياء السد الثغرات التي تفتح أفواهها، دليلا على أن المدن لم تكن قائمة على نظم اقتصادية سليمة، ولكن قل من المصور ما ظهر فيها من أبدى من روح الشهامة والآثار ما هو أعظم من ذلك، وإن حدث أحيانا من الأمي مالم يكن ليخرج عن تصرف مسار لشراء أحد الألقاب. يقول إبيداوروس في شخص اسمه أرسطوبولس «لقد أثر مورد رزقه وأضرت به من أجل المصلحة العامة، في حين أن برجامة كتبت تشهد لديودوروس ان " عنايته بالخير العام قد أعاقته عن الإهتمام بالصالح العام. ولم تكن روح الخيرية تلك والاهتمام بالصالح العام مقصورة على الأغنياء. وحدهم. فليس هناك شي، أجمل رقعة في النفس من المراسيم العديدة التي تسجل الشكر للأطباء. ولم تكن طبقة أطباء المدن بالطبقة الموسرة (إذ إن الراتب الوحيد الذي عرفناه بالغ أربعين جنيه في السنة)، ولكنهم كثيرا ما كانوا يضربون صفحة عن أجورهم ويتنازلون عنها في أثناء الأوبئة، ومع ذلك فمنهم من كان كداميادیس الإسبرطي الذي لم يكن لديه فارق بين الموسر والفقير وبين الحر والعبد». وعندما قضى الوباء على جميع أطباء كوسن نقدم زينوتبوس طوما لمساعدة المدينة، كما أن أبولونيوس المليطى كان بفارم الطاعون في الجزر دون أن يتلقى أي جزاء. لقد كانت هذه المهنة تنطوي على مستوى عال من الإخلاص. وكان الفلاسفة أيضا بدون أحيانا أجور محاضراتهم لمن تضيق يده من تلاميذه عن الدفع. إذ يلوح حقا أن البلاد كان بها عدد جم من الناس من دون أن هناك أشياء كثيرة أهم من المال.

وعلى الرغم من هذا البر الإنساني وروح الاهتمام بالصالح العام الذي ساد في ذلك الزمان، فان البر بالإنسانية بالمعنى المفهوم لدينا الآن وهو مساعدة الغني للفقير مساعدة منظمة كان شيئا غير معروف تقريبا. ويمكن القول بوجه عام إن العطف على الفقراء لم يكن له محل كبير في الخلق اليوناني العادي، ومن ثم لم يجد الفقراء والحالة هذه من يتخذ ما يكفل إعالتهم في الأحوال العادية، وذلك لأن فكرة الديمقراطية والمساواة كانت من القوة بحيث إن: كل ما يقضي فيه من أمر كان ينبغي أن يقضي فيه الجميع على السواء؛ لم يكن لدي القوم شي. يقابل ما لدينا من ضروب الإحسان والمستشفيات التي ينظمها الأفراد. وعندما نوه بذكر هبات الأطعمة رودس أو الصدقات التي كانت أثينا توزعها على العجزة ومشار كالموسرين الفقراء أموالهم في تارتم، وما قاله وليبيوس من أن أو فيلناس من بيژنيا أعان الفقراء من أرصدة الدولة، وما قاله هراقليدس من أن موسرى تاناجرا كانوا يحسنون إلى فقرائهم

واستطراد. بلهجة جاسية لا تخلو من جفاف "من السهل عليك أن تكون خيرًا عندما يكون لديك ما يكفيك من الطعام"، نكون قد استنفدنا أسماءهم تقريبا. إلا إذا أضفنا إليها الحالات التي كانت فيها هيئات منظمة كهيئة رجال الأحياء المدن تقدم العون إلى بنت أحد أعضائها إذا توفي، ولا يتصور عقلا أن في الإمكان أن يكون توزيع اللحم من الأضاحي الذي طالما أكده بعض الناس أمرًا شائعة عند القوم، إلا أن يكون ذلك. فيا نقدر – مدينة أثينا وحدها، وذلك لما جرت به المادة من احتفاظ الكمان بمادتهم منه، وى عائدة كانوا مع ذلك كثيرا ما يدفعون ثمنها، كما أن اللحم مهما تكن الحال- قلما وقع في مجال تصرفات القوم مطلقا. وتذكر قاعة ميكونوس التي تدور حول قرابة عام ٢٠٠ والتي هي ملحق يكمل أخرى مفقودة، مرة واحدة وزع فيها اللحم في مدى أربعة أشهر، وهي وليمة أقيمت الزوجات المواطنين وللنساء اللوتي أخذن العهد الديني. وهناك قائمة من مدينة كوم تنسحب على بضعة أيام تذكر مرتين اللحم الذي نقل إلى المدينة، ولكن ليس معنى ذلك أنه وزع على السكان، وكأني بالقديس بولس يكاد يفصح عن أن الشيء الكثير من هذا اللحم كان يتحول في المعتاد إلى الدكاكين. ولعلنا كنا نتوقع من الرواقيين والكلبين بما لديهم من حاسة الأخوة البشرية أن يحتضنوا فكرة البر، ولكن أحدا منهما لم يفعل ذلك. ذلك أن الرواقين كانوا يرون أن الفقر مثل العبودية لم يكن ليؤثر إلا في الجسد، و كل ما أثر في الجسد وحده فهو شيء لا يؤبه. له، فأفقر عبد قد يكون ملكا في دخيلة روحه، ولذا ركزوا اهتمامهم بالروح وتركوا الجسد وشأنه، وذلك هو السبب الذي دعاهم إلى عدم المطالبة بإلغاء الرق. و كان الكلبيون يمجدون الفقر الذي كانوا يمارسونه بأنفسهم ممارسة عملية، فلئن كان الحرمان من الممتلكات لا يعني في الواقع الأنصاف بالفضيلة، فقد كان الشرط الذي لا غنى عنه في اكتساب الفضيلة. رغني عن البيان أنهم لم يكونوا يفرقون بين الفقر الاضطراري القسرى للعامل الكادح وبين عمل الفيلسوف في نبذه الإرادي للدنيا. والظاهر أن التعبير الوحيد الذي ورد في الأدب عن محبة البشرية هو قصيدة لكر كيداس (الفصل الثامن) يظهر أن الدافع إليها في الثورة التي قام بها كليومينيس.

وقد كثرت إشارتنا في هذا الفصل إلى ما كان يظلل العصر الهللينستى من رغد العيش. الآن ينبغي لنا أن نوجه إلى ذلك الموضوع نظرة أدق. ولا مشاحة أن العهد السابق للقائد سلا، كان عهدا تمتعت فيه الطبقات العليا بالرغد واليسار – وإن لم يخل الأمر من تقلبات محلية: – فإن الاتساع الهائل الذي بلغته التجارة (الفصل السابع) يتحدث عن نفسه بأنصح بيان، كما يفصح عن ذلك معه

زيادة عدد الأندية وكثرة الاحتفالات الجديدة (الفصل الثالث فيما بلى)، فضلا عن ألوان الرق على الموائد وما يصحبه من إنتاج أدب، عدا الترفيه في باب النساء وبخاصة أقمشة الحرير المنسوج بالذهب في الفصل السابع)، وثمة المدن الأحسن تخطيطًا وتنسيقًا والبيوت الخاصة ما أدخل عليها من تحسينات والأثاث الأكثر نفقة في (الفصل التاسع). ولا يفوتنا مع ذلك أن نذكر القارئ بوجود فارق بين بلاد الإغريق الأصلية وآسيا (ومهما الجزر). و بديهى أن التيار الصاعد لم يشمل بلاد الإغريق كلها، فان كورنثة وأبطوليا وأمبراسيا و الجاساى ازدادت تراه في الفصل السابع)؛ ولكن أثينا تأخرت من ناحية الثروة حتي وأنت نهضتها وانتعاشها في أخريات القرن الثاني، وكذلك فعلت إسبرطة الأسباب أخرى. وكانت بلاد الإغريق الشمالية في بحبوحة من رغد العيش على وجه العموم، كا بستبان من عدد الرقيق والطريقة التي كانت تصعد بها إلى ذروة العظمة مدن لم يكد الناس يسمعون بها من قبل، ولا تنسي أحوال ميسيني (قرابة ١٠٠ – ٩١) فأن ما حدث لها كان شيئا مذهلا، وذلك أن مسينيا كانت قطر زراعيا يعيش ولا شأن له – خارج تيارات التجارة. ويقدر الأستاذ فلها متوسط ثروة المواطن الميسيني في ذلك الزمان بخمس التالتوم، مقابل ربع تالنتوم كان نصيب الأثيني المتوسط في عهد ديموستنر، كما أن ضرية الأراضي البالغ قيمتها اثنان في الثانية كانت تقل نحو دراخمتين ونصف عن كل رأس، ذلك في مقابل ٢.٧٥ من الفرنكات عن الرأس فرنسا في ١٩٠٨، مع العلم بأن القدرة الشرائية للذراعية كانت بطبيعة الحال أعظم كثيرا من القدرة الشرائية للفرنك. وكثيرا ما كانت المرأة من هؤلاء. تنفق أكثر من مائة درامية في ثوب واحد، كما كن يؤثرن الأنسجة الحريرية الشفافة الغالية الثمن ويتظاهرن بها، وكانت صحاف الفضة شائعة الاستعمال، كما أن الغرامات كانت تصل أحيانا إلى ألفي دراخمة. وثمة نقطة أخرى من اليسير تحقيها، هي زيادة معيار الجزاءات الموقعة كعقوبة على خرق أحكام لجان التحكيم، وكانت أعلى تلك العقوبات في القرن الخامس هي خمسة تالنتات، ولكنا نمت في القرن الثاني على غرامة مقدارها ٢٠ (في جزر سيكلاديس)، و ٣٠ و ٥٠ في آسيا الصغرى و ٦٠ (.في لوكريس). أما عن الأفراد فربما كان أغناهم ببلاد الإغريق المعهد ديموسنتز، وهو ديفيلوس الأثيني وكان عملك ١٦٠ تالنتا، على حين أن أغنى الرجال (حوالى ٢٠٠) وهو الإسكندر الإبسى **Isian** في أيطوليا كان يملك ٢٠٠ تالنتوم. وإن قلنا كل ما يبرر قولنا إنه على حين لم ينهض الرخاء ويتم ببلاد الإغريق كما ما بآسيا، إلا أنها ظلت نستمتع بقدر معقول جدا من الرغد حتى عهد سلا.

وبغض النظر تماما عن نمو للدن واتساع التجارة، كانت آيات اليسار آسيا والجزر كثيرة جارفة. وكانت أثبتا تحمل من بيزنطة على جزية سنوية قدرها ١٥ نالتا وتحصل عن كل مدينة من مدنها الكارية على مبلغ يتراوح بين نالتوم واحد أو تالنتين، واضطرت بيزنطة أن ندفع للغاليين (حوالي عام ٢٠٠) مبلغ ثمانين نالتا كل عام، ثم حدث في تاريخ تال أن كانت رودس تأخذ ١٢٠ بالتنا في العالم من ممتلكاتها الكارية ولاسيا كاونوس وإستراتونيقية. ومما ينطق بالقصة بأجلى بيان أن معدل صداق البنات بميكونوس يضاهي الصدقات بأثينا في أثناء القرن الرابع، و كذلك مقدار الاكتتابات التي تجمع في كوس حوالي ٢٠٠؛ وأن معيار الغرامات بنادى ابيكتيتا في ثيرا يماثل ما كان يجري في اثيناء، وتلك العادة الجديدة التي نشأت في أندية كوس وئيرا: من تكريم الأعضاء بتيجان من الذهب بدلا من أوراق الشجر. ومهما نكن الأحداث السياسية آسيا الصغرى، فان الرغد والثراء ظلا يتزايدان بها حتى عام (٨٨)، بل لعلهما داما حتى الحروب الأهلية. ومن الطبيعي أن يجمع وزراء الملوك الثروات الطائلة، ولكن المواطنين الأفراد في القرن الأول كانوا هم أيضا يصلون إلى تراه عريض يفوق الحد ويجاوز أي تراه عرفته قبل ذلك بلاد اليونان، فان شخصا اسمه هيرون من لاؤديكيا على نهر ليكوس كان يملك ما يربي على ألفي تالنتوم، وجاه أو ان كان فيه بيثودورس من تراتلس وهو صديق يومي بعمل ثروة تزيد على أربعة آلاف تالستوم بما في ذلك ما لديه من أراض. ولكن خير دليل على عظم يسار البلاد هو مقدار الثروة التي وجدتها روما بآسيا وانتهبتها. ففي عام (٦٣) اشترى ملتزم الضرائب فالكيديوس حق جباية ضرائب مدينة تراللس مقابل تسعمائة ألف سيسترسيس (حوالى٣٩ تالنتوم)، ثم عاد فعرض خمسين تالنتوم رشوة للحصول على هذا الحق سنة أخرى بنفس الرقم. أعني أنه استطاع أن يحصل في سنة واحدة على مائة تالنتوم من مدينة واحدة من الدرجة الثانية وذلك في حين أن ضريبة الأراضي بمقدونيا كلها لم تكن تنتج إلا مائتي تالنتوم سنويا، وهذا أفصيح كثيرًا في الترجمة عن الحال من الثروات الطائلة التي ابتزها من آسية كل من يومبي وكراسوس، وفي (٨٦) أخذا مثريدانس من خيوس مبلغ التي تالنتوم. وفي. (٧٠) فرض مجلس الشيوخ الرومان على كريت دفع أربعة آلاف تالنتوم.

وأخذ كاسيوس ٥٠٠ تالنتوم من رودس، كما جمع من الأفراد بها ثمانية آلاف وتسعين تالنتوم أخرى وسلب سلا عام (٨٤) مبلغ عشرين ألف تالنتوم من ولاية آسيا، وفي المسماة بمتأخرات الضرائب عن خمس سنوات، وجمع بروتس مبلغ ستة عشر ألفا كضريبة عن سنة واحدة، و أخيرة

طالب مارك أنطونيوس مقدمة بمائتي ألف بحجة أنها ضريبة السنوات التسع وهو مبلغ أعظم من الكنوز التي جمعها ملوك فارس من نصف القارة كلها في مدي يتجاوز القرنين. ولا حاجة بنا إلى تفصيل القصة، وحسبك أن تعلم أن الأيام التي قيل فيها إن العالم الهللينستى قد أضرت به الفاقة قد ولت أو وجب أن تولى من بعيد.

وانعكست صورة هذا الثراء في ملاهي الناس وأوجه مسراتهم،، ليس فقط من حيث عدد الألعاب، بل وأيضا من حيث زيادة نفقات الحفلات، خاصة وقد أصبح اللاعبون إذ ذاك من المحترفين. ولو سردنا على مسامعك قائمة الأعياد الهلينستية الجديدة جميعا لملأت صفحة كاملة. فقد استنت المدن في. كل مكان عددا عظما منها بين وفاة الإسكندر وعام ١٨٩، بما حوت من ألعاب وأضاحى تستدعي ما يقابلها من نفقات، على حين أن أعيادة سنوية خمسة كانت تقام في تسبياى وكوس ودلفي وماجنيزيا وميليتوس حولت إلى ألعاب أي إلى احتفالات و متوجة، أعني بالغة الذروة تقام كل أربع سنوات. وإلى جوار هذه الألعاب كانت تقوم مجموعة الاحتفالات التي استنها. الملوك والتي لا نكاد نفل عنها عديدة، وأعظم هذه الحفلات هو عيد البطلومايا بالإسكندرية، وهو الاحتفال الوحيد الذي كانت جوائز الشرف فيه تعادل مراتب الشرف الأوليمبية، وإن كان كثير منها بعده نظيرة للأعياد البيئية. وما لبثت عدة مدن حتي أنشأن في القرن الثاني احتفالات تسمى بالرومايا تكريما لروما، نعرف منها الآن ثلاثة عشر احتفالا على الأقل، أولها احتفال في دلفي في (١٨٩). على حين أنه حدث حتى بعد (١٤٦) أن احتفال بتوئيا البؤئتية (**Boeotian Ptoia**) أصبح يقام كل أربع سنوات، وأنشأت تاناجرا احتفالاتها السيرابية. ثم جاء سلا، ومن بعد ذلك لم تستن أية أعياد جديدة حتى عهد سلام أغسطس. ومن الطبيعي أن اللاعبين والممثلين في هذه الحفلات وهم القانون الديونيسيون قد زادت أهميتهم عند ذالك زيادة هائلة. ورجع تاريخ أقدم جمعية لهم وهي الأثينية، إلى ما بعد عهد الإسكندر بقليل وحافظتها الأحلاف الأمفكتيونية على امتيازاتها بعد ٢٧٩ بقليل. تم تكونت بعد ذلك بقليل جمعية البرزخ و قد جعلت مركزها كورنثة وارتبطت بعلاقات خاصة بمدينة نسبيا، حتى إذا وافي القرن الثاني كانت تضم تحت جنحها بلاد اليونان القديمة كلها عدا أثينا، وصارت لها فروع بمدن كثيرة. بيد أن تدمير كورنثة في ١٩٩ كان ضربة قاصمة وحدثت بعد ذلك خلافات داخلية بين أقسامها،انضم بعضهم إلى الجمعية الأثينية، ولذا تسترد جمعية البرزخ قوتها بعد ذلك أبدا. وتكونت بآسيا مُنذ وقت مبكر جمعية ثالثة اتخذت من تيوس مركزًا ومقرًا لها، وما لبثت أن اندمجت مع

ممثلي البلاط الملكي ببرجامة التي تسمي جمعية «ديونيسوس الكانيجيمونى"، وعندئذ صارت الهيئة كلها تعتمد على آل أتالوس. وكان الفنانون الدنيسيون يكادون يشكلون. في أيام ازدهارم دولة مستقلة ترسل السفراء وتستقبل السفراء وأغدقت عليهم آيات التكريم والامتيازات، ومنحوا الحصانات من كل ضير فضلا عن ضمان الوصول بسلام إلى حيث يشاءون، وكان الملوك والمدن يمنحونهم العطايا والأرزاق، وخول الأعضاء الجمعية الأبنية الحق في ارتداء اللون الأرجواني وبلغوا من العز والكرامة بحيث يخيل إلينا أن تسلية الناس بالملهيات كانت خيرة بكثير من تولى الحكم والأمر والنهي فيهم.

وربما أمكن اتخاذ سعر الفائدة دليلا يبين بشكل ما مبلغ الثرة الأساسية بأحد الأقطار، ولكن ذلك ليس دليلا محققة بلاد اليونان، وذلك لقلة ما لدي القوم من الوسائل المصرية لتسهيل تداول رأس المال، فكانت المصارف الخاصة صغيرة عادة، كما أن المصادر الرئيسية لرأس المال الذي يستطيع الجار أر الفلاحون أن يفرضوه كانت إما هبة بجري الإقراض من رأس مالها بالأرباح للحصول على دخل سنوي توفي به أغراض الهبة، وإما من الأرصدة المالية للمعبد. على أن الأرصدة السيالة لأي معبد كانت قليلة على وجه الملة، كما أن معبد دبلوس ظل قررنا عدة يفرض الناس بفائدة قدرها. ١٠% بغض النظر عن التغيرات الق قلم بقيمة النقود. ومع ذلك فإننا سنقدم إليك اتضاحًا بالفائدة وتطوراتها بقدر علمنا به. فلقد كان السعر في المعتاد في أثناء حكم الإسكندر هو ١٢% بغض النظر عن القروض البحرية الأعلى سعرًا من ذلك كثيرة لا تتعرض له من أخطار. ثم هبط السعر حوالى ٣٠٠ إلى ١٠% وكان في ذلك انعكاس لهبوط سعر الدراخمة الذي ترتب على تداول الكنوز الفارسية، وظلت فائدة العشرة في المائة في القدر المألوف طوال القرن الثالث، وإن وردت أيضا فوائد قيمتها ٦.٨ ونصف (وإن كانت هذه الفائدة الأخيرة تنطوي بشكل واضح على عطف سياسى)، ثم نلتقي في النصف الأول من القرن الثاني بكل من ٧، و٦ ونصف وكلتاهما في حالات الصفقات التجارية ومعاملاتها. حتى إذا انتصف القرن الثاني عاد السعر إلى الارتفاع ثانية إلى أن وصل في عهد سلا إلى الاثني عشر في المائة القديمة، على أن القاعدة بعد سلا لا تدل إلا على جشع الرومان، وصد لو كولوس تيار الصعود بآسيا إلى حين يثبيت سعر الفائدة وجعل ١٢ % حدا أقصى له، ولكن الرومان كانوا يبتزون في أثناء الحروب الأهلية أسعار فائدة خارقة لكل مألوف قد تبلغ ٤٨%. ومهما بكن من شيء، فان سعر الفائدة يدل على استمرار الرخاء حتى ١٤٦، وعلى توافر النقود

وتداولها بكثرة ورخص قيمتها (بإنقضاء الزمن). وعادت الدراخمة إلى الثبات مرة ثانية قبل عام ٢٠٠، وذلك لأن مستأجري المزارع بنسيباى كان لهم فيها يظهر الخيار في تجديد العقود بنفس الأسعار، على حين أنهم لم يكونوا يستطيعون تجديد إيجارتهم في ديلوس (حوالي ٣٠٠) إلا بزيادة قدرها ١٠%. من قيمة الإيجار، ولكن ليس من المحقق أن الدراخمة عادت إلى قيمتها الأولى في عهد الإسكندر حيث كان سعر القمح خمس دراخمات، وهنالك من الدلائل ما يدل على أن القمح ظل حتي حوالى ١٠٠ بسعر يتجاوز: قليلا الخمس دراخمات.

وحدث تطور من نوع ما في أعمال المصارف، وإن رجب ألا نبالغ في تقدير أعمال المصارف بلاد اليونان أكثر من قدرها، ويشي. يبلغ قط عندهم مبلغ أهميته عند الرومان. فان المصارف الخاصة كانت – فضلا عن فك النقود – تأخذ الودائع الآلية وتقدم القروض. فأما ما يسمونه بمصارف و الدولة و ببعض المدن اليونانية فلم يكن مجرد احتكار لفك النقود منح التزامه لبعض الأفراد، بل كان في الحقيقة ملحقة تابعة لخزانة الدولة ب و كانت تلي إيراد الدولة و تصرفه و تقيد حسابات المدينة، وربما قدمت المالي اللازم للنفقات غير المنظورة مع استعاضته فيما بعد، وبذلك كانت المصارف تنفذ المدينة من عناء الاستدانة من الخارج، وهو أمر غالبا ما كانت المدن تضطر إليه لولا تلك المصارف.

ذلك أن معظم اقتراضات المدن التي نجد لها ذكر في التاريخ كانت مجرد تدبيرات تنظيمية، لا شأن لها بالفقر كأى قرض يعقده مجلس بلدي الآن.

وكان السبب في ذلك بسيطة جدا. وهو أن المدينة لم يكن لها ميزانية، وكل ما في الأمر أن مبالغ معينة نصل إلى الخزانة وتوجه نحو نفقات معينة، فإذا بدرت نفقة غير منظورة مهما صغر قدرها، كان معناها فرض ضريبة جديدة أو مساهمة جديدة من الأهالي لا بد جمعها من انقضاء قدر من الوقت، لذا كانت المدينة تقرض المبلغ الماسة اليسر ثم تسدده على مهل، أجل إنه كان يحدث أحيانًا شي. من المماطلة المتعمدة في السداد، ومع ذلك لم يكن هذا الأمر أيضا أية علاقة أر دلالة عليه. وربما أمكن عرض مثال هذه الحالة، فقد كانت هناك أموال طائلة في بؤونها حوالي (٢٢٠ – ٢٠٠) فيما بروى يوليبيوس. ولكن هيراقليدس يقول: إن تسديد الديون كان متعذرة أو يكاد،وقد اقترضت مدينة أورخومينوس فى أثناء تلك الفترة مرتين مرقد ماطلت المدينة في تسديد دين نيكارينا إلى أقصى حد، بينا سدد قرض بوبوس بكامله قبل موعده المحدد وواضح أن الاعتبارات الباعثة على ذلك كانت شخصية أو سياسية وليست اقتصادية. وكانت مدينة ديلوس تفهم الاقتراض. النظم جيد الفهم، كما

كانت تتلى الأموال بانتظام من أرصدة العبد، فتقترضها وتردها على الدوام. وغني عن البيان أن كل مدينة كانت فقيرة من الناحية الرسمية، وذلك لأنه ندر. أن كانت لخزانة المدينة أية أموال احتياطية، ولكن لم يكن معنى ذلك أن المواطنين كانوا فقراء – فليس من الضروري أن يتسم خريجو كامبريدج بالفقر لأن الجامعة فقيرة. ومع ذلك فإن معناه الطبيعي أن تعجز المدن غالبا عن إقراض بعضها بعضا إلا فيما ندر، ولكن مواطنيها كانوا يستطيعون فعل ذلك. ويقومون به فعلا عن طريق. اكتتاب باسم المدينة أما الدن فكانت في الواقع تعيش عيش الكفاف من اليد للفم. من أجل ذلك اضطرت إفيسوس في أحد الأيام إلى جمع المال لتسليح بعض أصدقائها ببيع اثنى عشر صكا مواطنية على سبيل الهبة، كما باعت ثاسوس (حوالي ٢٨٥) أربع أو خمس مواطنيات بسعر مرتفع (٢٠٠٠ دراخمة للواحدة)، واضطرت تريتابا في أثناء الحرب الاجتماعية أن تبيع بعض المواطنيات هي الأخرى لكي تجمع بعض الجند المرتزقة، ومن الطبيعي أن هذه أشياء لا صلة لها البته بالفقر إلا بقدر صلة الفقر بما فعله نادي ماريليبون للكريكت بانجلترة حين با ع عضويته ابتغاء بناء المظلة الموجودة الآن. وربما فقدت إحدى المدن بطبيعة الحال ثقة الناس بها، فان أوروبس اضطرت يومًا إلى إغراء المقرضين بما وعدهم من آيات التشريف المدني. كما أن الحرب ربما أفسدت النظام المالي أعظم المدن ثروة، فقد حدث في ٢٠١ أن أعمال فيليب الخامس الحرية في. كاريا منصت ميليتوس من تحصيل إيرادها، حتى اضطرت إلى الاستدانة من مواطنيها لمواصلة النهوض بأعبائها، مع التعهد بالسداد على أقساط سنوية مدى الحياة. على أن المدن التي كانت تتدهور على هذا النحو سرعان ما كانت تسترد نشاطها ككل نظام اقتصادى بسيط.

و كان أسوأ ما يتمخض عنه هذا النظام المالي غير الناضج في صعوبة تنفيذ المنشآت والأشغال العامة، وكان من المحال تقريبًا القيام بتنفيذ المشروعات التي تطلب التعاون، لا يستثنى من ذلك حتى إنشاء الطرق اللائقة، ما لم يتزعم الملوك مثل تلك الحركة كما فعلوا عندما تعاون العالم لإعادة بناء طيبة (٣١٦) ورودس بعد أن دمرها زلزال ٢٢٥، بل إن أشغال المدينة نفسها وأعمالها كان من العسير القيام بها ما لم تكن للمدينة بعض الموارد الخاصة. فقد تمكنت إرتريا بومة من تجفيف مستنقع يمنحها المقاول امتيازات جسيمة. على أن ديلوس استطاعت دف نفقات مبناها الجديدة بما ربحه من الجارة الجديدة التي أتاحتها لما روما، كما أن أسواق ميليتوس البديعة لم يكن في الإمكان القيام بها (ما بينهما السلوقيون لها) إلا لأن المدينة نفسها كانت تعملي مصانع للصوف كأنها أحد الملوك (الفصل

السابع).

وليس معنى ذلك أن المدن لم تكن تفرض الضرائب على نفسها. ولكن الواقع أن الإغريق كانوا ينفرون من الضرائب المباشرة، فما ضريبة العشرة في المائة التقليدية من المحصول كانت مأخوذة من آسيا. على أن الضرورة كانت تقضي عليهم أحيانا بالتغلب على نفورهم هذا: فإن أتيتا كانت تجبي من زمن. مديد ضريبة عقارية تسمى الأيسفورا (**Eisplora**) توقعها على المجموع الكلي لممتلكات الفرد من هؤلاء، ولم تلبث بعض المدن وأخصها ميليتوسن أن نمنت هذه الضريبة في أثناء الفترة الهلينستية. أجل إنه حدث أن مدن أخرى مثل كرائون وديلوس كانت تأخذ فعلا عشرة في المائة من المحصول، أو كانت مثل ديلوسن وكوس تأخذ عشرة في المائة من إيجارات المنازل. ولكن جرى العرف عادة بأن تجمع الأموال بطريقة غير مباشرة والضرائب غير المباشرة المعروفة لدينا الآن كثيرة العدد جدة. فمنها ضريبة قدرها ٢% على جميع الواردات والصادرات (الفصل الرابع)، وضريبة رعي على عدد الحيوانات التي تربي، ومنها رسوم الموانى و الضرائب المفروضة على المناضد في السوق وهما أمران شامان؛ وكانت كوس تفرض رسم تصدر خاص على النبيذ، كما تجبي المكوس على الخبز والدقيق والخضر والسمك المملح وأشياء أخرى كثيرة. وقررت نيوس الضرائب في القرن الثالث على ثيران الحرث وبغال حمل الخشب وقطع الأخشاب وعلى الغنم والخنازير والثياب المنسوجة من الصوف المليطي (ومعها الصوف الخام أيضا فيا يحتمل) وصيغ الأقمشة باللون الأرجواني وعلى الحدائق والنحل. و كان مثل هذا النوع من الضرائب برجع في بعض الحالات إلى اضطرار المدينة إلى جبايتها لتقدمها جزية لأحد الملوك ولم تكن المدينة تحصل على الفائدة الكاملة من الضريبة. ولو فرض أنها حصلت عليها كاملة، لما وجدت في ذلك النظام البغيض لدى الناس وسيلة مناسبة المسكين الدولة من التسلط على الممتلكات الخاصة اللهم إلا حينما نفذ نظام الضريبة العقارية [١] (**Eisphara**)، ومع ذلك فان تلك الضريبية لا تخلو من عيوب؛ لأن الناس في ظلها كانوا يدفعون الضرائب بناء على إقرار بسيط منهم بمقدار ما لديهم من ردة، و كثيرا ما كان يخفضون قيمتها في إقراراتهم هذه. وكان نظام الالتزام في جباية الضرائب معروفة لدى القوم، ولكنه ظل شيئًا عديم الأهمية حتى وفد على البلاد ملتزم الضرائب الروماني البغيض.

والآن وقد أوردنا لك صورة موجزة للرخاء بالعالم الإغريقي، صار لزاما علينا أن ننتقل إلى نقيض

(١) EIsphora هي ضريبة عقارية كانت تجبي في أثينا في الأوقات الاستثنائية لمواجهة مطالب الحرب. (المترجم)

ذلك: فنصور لكمال الرجل البسيط والطبقة العاملة ولم تكن الصناعة بلاد الإغريق عامة فيما عدا. بعض المدن الآسيوية مثل. ميلينوس نتمشى مع التجارة بصورة منتظمة. ولذا فان الرجل البسيط الذي كان يستخدم اثنى عشر عاملا يكن ليستطيع منافسة الصانع الكبرى التي يسلبها الأرقام بالإسكندرية وبرجامة. أما من حيث الأعمال الزراعية فقد ظن بعضهم أن الهبوط الحق الذي ألم بإيجارات المزارع بديلوس بعد ٢٥٠ ليس له من معني سوى أن الزراعة شرعت تضمحل، ولكن الواقع أن معناه الوحيد هو أن الناس بدبلوم وجدوا تجارة الترانسيت أجدى عليهم وأرجح، وذلك لأن رغبة الناس المتواصلة طوال القرنين الثالث والثاني في الحصول على نصيبا من الأرض أكبر شاهد على أن الزراعة لم تبرح محتفظة مكانتها، وإن أصبحت الأرض الزراعية في كثير من الأقطار مثل لاكرونيا و أيطوليا ونساليا مثقلة بالديون في أثناء أزمان مختلفة. ومن الطبيعي أن نتحول المدن الكبرى إلى تكوين طبقة من البروليتارية ولكنها طبقة مستهلكين. وكانت الصناعات القليلة في العام الهللينستى صغيرة ومتناثرة، ولم تكن هناك بروليتارية من المنتجي ذات و عى طبل. ولكن لا يفوتنا أن ما بين أيدينا من شواهد الموضوع كله. معيبة بدرجة محزنة، اللهم إلا في ناحية واحدة فقط. ونحن على بيئة تامة من أحوال الرجل المال بديلوس (حوالى ٣٠٠ – ٢٥٠)، كما نعرف أننا حين تستطيع أن نتعذب فيها بعد حرفة خاصة كحفر النقوش لا نجد أن الأحوال تحسنت. ولما كان الناس يفدون على دبلوس من جزر أخري وجب علينا أن نعتقد أن الأحوال كانت أسوأ في تلك الجزر الأخرى وإن تمتعن بالرخاء.

وأفضى انخفاض قيمة العملة حوالي (٣٠٠) إلى ارتفاع في الأسعار.، فتضاعف سعر القمح ضعفين تقريبًا وارتفع سعر الزيت ثلاثة أضعاف ونصفًا والنبيذ العادي ضعفين ونصفًا. بينما صار متوسط إيجار المنزل في ديلوس مائة دراخمة في القرن الثاني بعد أن كان أقل من ٢٠ دراخمة في القرن الرابع، وإن بعين الازدحام المحلي هنا دوره، غير أن أسعار الأطعمة لم تكن في ٢٥٠ بل بما في ٢٠٠ أيضا قد عادت إلى مستواها في عهد ديموسلنيز وفي مقابل ذلك انخفضت الأجور في ديلوس فعلا بالمقارنة إلى أجورهم بأثينا لمدد موستنير، ولعل ذلك راجع إلى المنافسة الحادة بين العال. و كان معدل عيش الكفاف أي شقة المعدم والعبد مع تقدير أن سعر القمح هو خمس دراخمات البول – هو؟ أو بول في اليوم على مدار السنة الرجل الواحد، ودراخمة واحدة (أي سنة أو بولات) للعائلة الواحدة، أما في ديلوس فلم يكن الصانع الماهر بها يستطيع أن تحصل في أحسن الأحوال على أكثر من أربعة أو بولات في اليوم على مدار السنة، بينما لم يكن الصانع غير الماهر ليستطيع الحصول الأعلى أو

ولين اثنين، بل أقل من ذلك أحيانا حتي في الأوقات التي قد يرتفع فيها القمح إلى أي سعر ولو عشر دراخمات، ومعنى هذا أن العامل الحر غير الماهر الذي كان في الإمكان إحلال الأرقاء محله، لم يكن بمستطيع أن تحصل على معدل أجر أكثر من المعبد، بل كان – أحيانا ينزل عن مستوى أجره، والنتيجة الطبيعية لهذه الحال بالمقارنة إلى ما عليه الحال في القرن الرابع، هي أن الثغرة الفاصلة بين الغني والفقير أخذت تزداد اتساعا. وكانت تلك أسوأ ظواهر العصر الهللينستي وأكثرها و بالا. و بديهي أن آثار ذلك في موضوع السكان واضحة للعيان: فكانت تربية الأطفال من أشق الأمور على الفقير، ولم يكن شيئا ذا بال أن تحتوي السنة على عدد جم من أيام العطلات (الاحتفالات) التي لا يعمل فيها المال، ومع ذلك فلابد أن يتناول الناس طعامهم أيام الآحاد. وربما فسرت هذه الأجور السبب الذي من أجله أن المدن إلى توزيع القمح بالمجان على السكان (الذين صاروا عندئذ يعدون معدمين).

ومن الطبيعي أن تنشأ البلاد حالة من عدم الاستقرار الاجتماعى. فلم تكن هناك منظمات العيال، و أن الإضراب في مجتمع به الأرقاء كان ضربا من المحال. (ولا يدخل في هذا إضرابات مصر – الفصل الخامس).

وحدث مرة أن خبازى باروس تجمهروا في الطرقات لحجز أجورهم عنهم — وهو حادث يظهر أنه لم يكن شيئًا قادرة. وسارع بمراقب الأسواق. إلى التدخل، حتي دفعت لهم أجورهم وعادوا إلى أعمالهم. ويسجل لنا التاريخ أي إضراب آخر حتي تحدثت الإضرابات الآسيوية في عهد الرومان في القرن الثاني الميلادي، يوم أخذت نقابات العمال تتكون، يحدث أول إضراب ورد ذكره في السجلات مطالبًا بتحسين الأحوال إلا في القرن الخامس الميلادي، وذلك لأن الوسيلة الوحيدة الألوفة لتحسين الأحوال إذا بلغت الأمور درجة لا تطاق، هو القيام فتنة أو ثورة.

وكان القرن الرابع حافلا تمامًا بالخوف من قيام الثورات الاجتماعية وذلك هو أحد الأسباب التي دعت الموسرين أن يشخصوا بأبصارهم إلى مقدونيا لتكون نصيرة للنظام القائم إذ ذاك فان المعاهدات التي عقدت بين الإسكندر ومدن حلف كورنثة نصت أن على مقدونيا ومدن الحلف أن تقمع بأية مدينة من مدن الملف كل حركة ترى إلى إلغاء الديون أو تقسيم الأراضي أو مصادرة الأملاك الماضية أو تحرير الأرقاء بقصد مساعدة الثورة، وكان دستور حلف ديمتريوس المجدد في (٣٠٣) بمحتوى على نصوص مماثلة لهذا.

فكأن كل ثورة كان لها بذلك برنامج عام تحت نقاط أربع. فكان الفقراء يشتهون الأرض، ولكن القوة المحركة لجميع صغار الشأن من الرجال في الديون، وربما تصبرت المجتمعات البسيطة على شظف العيش، ولكنها تكره الدائن على الدوام. وإن حسابات معبد دبلوس التي تشهد بوجود قروض كثيرة صغيرة جدا ودون قادحة، لتلي شيئا من الضياء على مسألة الديون.

وأدلت الفلسفة بسهمها في الموضوع من زاوية أخرى مخالفة تماما، ذلك بأن. إصرار الرواقين على المساواة والإخاء تغلغل في قرارة الأنفس، وألهم الناس أحلامًا تصور أشياء أمل كثيرا من النظام الذي يظلهم. وأخذ بعضهم بفر من الحضارة بأن يعمد إلى رسم صور خيالية تمثل همجًا (برابرة) يعيشون على سن الفطرة الأولى ويستمسكون بأهداب الفضيلة، وهذه هي الطرز الأولى التي سپنت نتاكتوس في مؤلفه و جرمانا وا أن كتب الطوبى – و اليوتوبيا **Utopia** و أخذت مُنذ ذلك الحين في الظهور. أجل إن أفلاطون وأرسطوطاليس قد صورا – لا جرم – دولا مثالية، ولكنها ليست دولا ذات غنام كي الرجال الرافعين في هذه الدنيا، وفضلا عن ذلك كانت الطوبى الأولى التي أنشأها زينون: أغر. وأبعد من أن نصل إلى نفهمها عقول البشر (الفصل الثاني)، على أن بوهيميروس (حوالى ٣٠٠) وأيامبولوس (القرن. الثالث أننا يوتوبيات عصرية حقة، و تصورا موضعها جزائر والمحيط الهندي وتتجلى الشيوعية مكتملة النمو في كتاب أيامبولوس "دولة الشمس" (**son - state**)الحافل بالعظمة. الناس فيه أكفاء في كل شي، حتى الحكة وهم يعيشون في صورة هيئات أو بد نظم اجتماعية يعمل كل فرد فيها بالتساوى ويشتركون في الثمرات بالتساوي. وقد نجا القوم من الخضوع والعبودية الوسائل الإنتاج، وذلك لأن الجزيرة لحسن الحظ محاصيل– ننتجها هي بنفسها – بصورة جزئية على مدار السنة. و كل فرد قادر يقوم بدوره بأي عمل ابتداء من عمل الخادم إلى الحاكم، ويكون مالكم كل "هيئة في هذا النظام" أكبر أفراده سنًا، ولا بد له من أن يموت حين بلغ سنة معينة (هذا إجراء منقول عن أحد التقاليد المرعية في كيوس). من هنا لا يكون هناك متسع للثراء ولا المطامع ولا التعلم – وهي كلها أعداء المسماواة. ولا مكان لحرب الطبقات إذ ليس هنا طبقات. لقد كان الناس يحبون الوفاق واتحاد القلوب **Homonoia** وتسود بينهم المحبة، فان ما كان يهدف إليه أيامبولوس وزملاؤه هو إلغاء حرب الطبقات تلك التي شهد فظائعها كثير من اليونان. والحق أنه حتى بينها كان الفلاسفة الثوريون والحكومات المحافظة يكرمون جميعا "الوفاق" الربة، فان الواقع أن كثيرا من العملين من القانتين المخلصين لعبادة هذه الربة كانوا على أتم استعداد لسفك دماء إخوانهم بآسيا.

وأول ما يسجله التاريخ في القرن الثالث من الثورات – (فوق ماعساه أن يكون تمردًا قام به الرفيق في خيوس) هو فتنة قامت بها البرروليتارية بمدينة كساندرية (٢٧٩)، بقيادة رجل اسمه أبولودورس جعل نفسه طاغية على المدينة وأخذ ينزل بالأثرياء العذاب ومنح شطرا من ممتلكاتهم لأتباعه. وقد أظهر نصرفه هذا سهولة القيام بمثل هذا العمل اعتمادا على قوة من المرتزقة وعاش قويا منيع الجانب حتى قضى عليه أنتيجونس جوناناس، وعقبت ذلك اضطرابات أربعة بالجزر، لا شك أن أحدها شب بين الأغنياء والفقراء وتمكن الملوك من تسويته دون نشوب ثورة علنية. على أن الثورتين العظيمتين في القرن الثالث من اللتان شبتا بإسبرطة لسوء الأحوال بها، حيث احتكرت قلة من الناس جميع ما تملك المدينة من أرض. وحاول الملك آ يسن الرابع وقد تولى سنة ٢٤٤) إلغاء الديون وتوزيع الأرض بين الناس بطرق الإصلاح السلمية ولكنه لم يوفق في مسماه، غير أن خلفه القوى كليومينيس الثالث تمكن بمساعدة الفيلسوف الراقي سفايرس تلميذ زيتون من تنفيذ الإصلاح بالقوة، فألغى الديون وأمم الأرض، التي قسمها إلى أربعة آلاف نصيب جعلها للاسبرطيين (**Spartietes**) وخمسة عشر ألفا لطبقة الموالي (اليريونيكى **Perioici**) ومالية الفراغ الموجود في طبقة الإسبرطيين بأفراد من طبقة الوالي والأجانب المقيمين **Meries**. ولم يمس أحد من هذين الملكين مسألة الرفيق الملوطيين (**Helots**) بغض النظر من قريب أو بعيد لاعتقادها الجازم بأنهما كانا يعيدان إلى الوجود إسبرطة القديمة لعهد لكورغوس، وهو موقف بعيد كل البعد عن نزعتها الثورية. أما بلاد اليونان فكانت تعتقد أن كليومينيس كان ينفذ برنامج الثورة، ومن ثم كان الفقراء في كل مدينة في صفه في أثناء الحرب التي نشبت بعد ذلك بينه وبين الحلف الآخي. وحدث في إحدى المدن ردى كينابا، أن بلغت الثورة مداها وقسمت الأرض، فلو أنه تخلى عن أطاعه العسكرية التي كان يهدف من ورائها إلى تولى الزعامة في البيلوبونيز الأمكنة أن يحول ما أحدثه من إصلاح باسبرطة إلى نجاح مستديم، على أن حكام الحلف الموسرين تملكهم اليأس الأعمى فاستغاثوا بمقدونيا، وعندئذ استولى أنتيجونس در سون على إسبرطة في (٢٢٢) وأعاد كل قديم في المدينة إلى نصا به، وما لبث الثورة أن اندلعت من جديد في إسبرطة (٢٠٧) بقيادة ناب (الفصل الأول)، وتقذ هذا الأخير نقاط برامج الثورة الأربعة بحذافيرها؛ فحرر كثيراً من الهلوطيين، وإن لم يعالج فظ مسألة الهلوطية معالجة جذرية. وقد كانت كل ثورة إغريقية فيما عدا ثورة برجامة تنطوي على ظل من البعد عن الحقيقة والواقع وذلك لعدم اشتراك الرقيق فيها مطلقا. وهب نابس الأثرياء، ولكن ذلك كان فيها ادعي – من أجل الدولة وحدها، وربما كانت الدولة آنئذ تدفع للعامة من وجبات طعامهم (وهو أمر لم يكن منه بدلو حرر كثير من

الملوطيين)، وهناك من الدلائل ما يني بأن نابس. لم يكن بالقسوة التي صوره عليها جداره. جني إذا تمت لروما الغلبة على مقدونيا إذا هي تتدخل بدلا من مقدونيا ونقص أجنحة. نابس. ومع أنها لم تدخل في ثورة إسبرطه نفسها، إلا أن الأغنياء الإغريق شرعوا مُنذ ذلك في الترحيب بها باعتبارها نصية لهم.

وحدث في قريب من (٢٠٠) خلافات بين الدائنين والمدينين في الخلف الأيطولي، فان أسكوباس القائد المنتصر حاول إلغاء الديون، ولكن معارضة الأغنياء حطمت جهوده، وذهب إلى المنفي في مصر، ولكن المشكلة دامت بعد ذلك سنوات عدة. ونامت في تساليا أيضا مشكلة مزمنة كما قامت أخري في بؤرنيا في الربع الأخير من القرن الثالث وبعده بقليل، وراح بومينيس الثاني يتهم " برسيوس" أمام مجلس الشيوخ بأنه عقد النية على استخدام المدينتين التاليين في قتل أصدقاء روما الأثريا، وكان. النص الواقعي للاتهام هو: ممالأة الثورة الاجتماعية وهو موقف جديد لا جرم لم يتخذه ملك مقدوني من قبل، على أنا لم نسمع بقيام أيه ثورة كبرى بين (٢٠٠، ١٣٢)، وذلك إما لقلة ما بين أيدينا من معلومات، ربما لأن العلاقة بين الأسعار والأجور أمست خيرا مما كانت. أجل إنه حدث على التحقيق في ١٤ في أثناء الكفاح الأخير مع روما، أن الخلف الآخي أصدر قرارا تأجيل الدفع (موراتوريوم) ويحرر أنني عشر ألف عبد وتسليحهم وان دلي عدد الرجال الذين ساقهم الخلف إلى الميدان وهو ١٤.٧٠٠، على أن ذلك لم يوضع موضع التنفيذ)، ولكن ابن ذلك من إشعال نيران ثورة ؟ وإن صح فيما يظن أن تعد من الثورات فتنة المدينين في دمي بعد الفتح الروماني، بوم أحرقت دار مسجلات المدينة. ومع ذلك فان ميثرداتيس حاول بالفعل فيها بعد أن يستخدم الثورة الاجتماعية سلاما ضد روما، على حين أن مدينة افسوس استخدمت في مناهضته ذلك السلاح نفسه. و كان ما حدث من تمرد كبير بين العبيد بصقلية أثره في المنطقة الإيجية، فقد ثار الرقيق على د يلوس (١٣٠)، ولكن ثورتهم است، و تمردوا أيضا في مناجم مقدونيا وشغبوا كذلك في لوريوم واستولوا على صنيوم، وظلوا ينهبون ويخرون في أتيكا ردما من الزمن، ويظهر أنهم ثاروا أيضا ببراعة. وقد ذهب الأستاذ كارستد إلى أنه ظهر ضرب من الدولية الشيوعية الحمراء حوالي عام (١٣٠)، وأن "سلا ويمي أنقذا العالم من البلشفية، ولكن البلشفية نظرية اجتماعية واقتصادية ذات أصول دقيقة جدة. ولا شك أن فتن هؤلاء الأرقام لم تكن فيما أعتقد – سوى الثمرة العمياء للتعاسات التي يقاسيها الرقيق المشردون في المناجم أر المصانع الملكية أو يكابدون منها بالمزارع الكبرى في إيطاليا..

لقد ثار الرقيق التماسا للحرية، وهب المدينون طلبًا للأملاك. أما ميتريداتيس، فما كان ليتردد في شي. يهب به جام انتقامه على روما. ولم تكن بين تلك الحركات جميعا، عدا حركات إسبرطة، إلا مرة واحدة يمكن القول بأنها تقوم على نظرية من النظريات أو يمكن إطلاق اسم الاشتراكية عليها وهى حركة برجاية. وربما كانت حركات برجامة الثورية. أنا عملك القدر الكافي من تفاصيلها أكثر إمتاما من فتتإسبرطة، وذلك لما ظهر فيها لأول مرة من فكرة بناءة جديدة. فعندما رفع أرمتونيكوس في (١٢٣) راية العصيان على روما (الفصل الأول) ربط حظه بثورة الرقيق وانضم إليه الرواق بلوصيوس من كوهاى، وهو الصديق الصريح لتيبريوس جراكوس، الذي قام هنا بالدور الذي قام به إسنابرس باسبرطة، وارتأي الاثنان إقامة ضريب بهائل في الأرض دولة الشمس» التي تصورها أيامبولس. وبلغ من قوة تأثير ذلك في أتباعهما الخلطين: ما بين مرتزقة آسيوين ومتطوعة من المدن وأهل مرتفعات من ميسيا **Misia** وزبال وعيد مفلسين – أنهم قضوا على قنصل روماني وحطموا جيشه، وهذا أمر لم بقو أحد من اليونان على فعله حتى مقدونيا نفسها. لقد كان ما حدث بالحق يقال حلما عظنا، على أن روما ما لبثت حتى قضت في النهاية على أرستونيكوس ومزقت الحلم الجميل الذي داعيه بإقامة "دولة للشمس"، ذلك أنه في قبضة الحجم الروماني لم يعد ثمة مجال لأحلام.

الفصل الرابع

آسيا

تتركز أهمية تاريخ السلوقيين فا بذله أوائل ملوك تلك الأسرة من جهود التعمير معظم آسيا الغربية بالمدن والمستوطنات الإغريقية: وهي من أعظم أعمال العالم العتيق وأدعاها للدهشة، وقد ظلت مادة ذلك التاريخ أمدا طويلا بتراء ناقصة بل متناقضة متضاربة في الغالب، ومع أن أعمال البحث والتنقيب قد ساعدنا إلى حد ما، إلا أن الكتلة الكبرى للأبحاث الحديثة – بغض النظر عن المدن اليونانية القديمة بآسيا الصغرى – قد ألقت ضياء كاشفة على العهد الباري المتأخر ونظيره الروماني، بدلا من المهد بين البنائين لسلوقوس وابنه، و سندلي إليك بخلاصة موجزة لهذه الأبحاث الحديثة مسقطين منها فلسطين. فقد استطاعت البعثة الفرنسية بعد حوالي ثلث قرن من البحث والتنقيب بمدينة سوس (**Susa**) العيلامية القديمة أن تعثر على ذخيرة ذاع صيتها الآن حاوية للنقوش الإغريقية ولا تتناسب قيمتها العظيمة بالنسبة للمؤرخ مع حجمها بأية حال. وقد كشفت بعثة أمريكية اللثام عن مجموعة ضخمة من المنازل في سلوقها وحصلت على أشياء صغيرة كثرة لها قيمة تاريخية – منها المملة والأختام (**Bullae**) والتماثيل الطينية، وجمعت حفار أوروك (**Uruk**) طائفة جملة من الأختام، وأظهرت مدى عناية السلوقيين.بمعابد الأهالي وعقيدهم. على حين ماوننتا الوثائق البابلية على تعرف ما كان لديهم من طرق التأريخ والتجارة والاقتصاد بوجه عام. وتحاول بعثة فرنسية في هذه الأيام أن تحدد موضع مدينة باكرا في وادى بلخ المسيح المقفر الذي كان في يوم من الأيام جنة من جنان الأرض، وقد وجدت على قطعة من الشقافة أول نقوش يونانية من باكترا، وفي الحروف (**Atpos**). ونمت أعمال البحث والتنقيب في دورايوريوس على نهر الفرات بدقة وتقص لبس بعدها غابة، حيث. عمل بها العلماء الفرنسيون أولا ثم الأمريكيون، حتى وصلوا إلى صورة مدهشة لما في أيامها المتأخرة؛ ولكنها لم تضف إلا القليل إلى ما نعرفه عن مدينة هللينستية في ذروة ازدهارها، وذلك فضلا عن قانون حق الإرث والملكية في الأرض) (الفصل الرابع فيما يلي) وبعض تفصيلات عن المباني. ولكن لا يفوتنا أن ننوه بأن دقة التنقيب ربما كانت هي السبب الذي يجعل المكان يبدو أم كثرة ما هو في الحقيقة: فأما النتائج التي أمكن الحصول عليها في أنطاكية فترجع إلى

العهود الرومانية.

وقد ألمت بر قمة المملكة السلوقية ذاتها تقلبات كبيرة. فإن سلوقوس الذي صار ها و لبابل مُنذ ٣١٢، غزا الشرق وفقد بلاد الهند قبل ٣٠٣، ولكنه استولى على شمال سورية وأرض الجزيرة في ٣٠١ وعلى قليقية في ٢٩٦ وعلى آسيا الصغرى كلها فيما عدا الحالات الوطنية وبضعة مدن معينة في ٢٨١، وبذلك توطد لابنه وحفيده ملك عريض على إمبراطورية تمتد من إيجة والبحر المتوسط إلى التركستان وأفغانستان. ولكن الذي حدث بين ٢٥٠، ٢٧٧ في أثناء قيام المملكتين الإغريقية الباكترية (والبارثية) وتأسيسهما بالتدريج، هو أن الدولة السلوقية فقدت كل شى. شرقي ولايات ميديا وسوسيانا ويرسيس وكرمانيا.. على أن أنطيوخوس الثالث ما لبث في ١٩٨ نيم أن استولي من مصر على بقية سوريا. ولكن هزمته أمام الرومان أفقدته. في ١٨٩ آسيا الصغرى ما عدا قبليقية. غير أن السلوقيين كانوا لا يزالون بحكون إمبراطورية عظيمة حني: تمخضت وفاة أنطيوخوس سيديتسن (Sidetes) في ١٢٩ عن ضياع بلاد بابل ومملكة يهوذا (updaea) من يد الدولة نهائيا و أنزلتهم إلى مرتبة أسرة مكة محلية بشمالي سوريا، و من سوء الحظ أننا لا نعرف إلا أقل القليل عن سوريا. الشمالية، الموطن الأصلي الحقير لتلك الأسرة، ولا بد من استقاء القدر الكبير من معلوماتنا عن الشطر الغربي منها، من آسيا الصغرى ومصادرها.

وكانت الإمبراطورية السلوقية تمتلك ثلاثة مراكز حيوية منفصلة: أيونيا وقصبتها سارديس وسوريا الشمالية ثم دولة (بابل)، فأما ما عدا ذلك فممتلكات من الدرجة الثانية من الأهمية، ولئن كانت أنطاكية قصبة سوريا الشمالية، في أحسن موضع بوصل منه إلى المركزين الآخرين، فان مدينة سلوقيا الواقعة على الدجلة كانت أيضا عاصمة لا تقل عنها كثيرة في الأهمية، وقد مرت على أرض آيا الغربية موجات كثيرة من الغزاة، و كنت كل منها رواسب وبقايا وراءها. وكانت تقوم إلى جوار ثقافات بابل وفارس أجناس أخرى تتصف بالهمجية البدائية، وذلك على حين كان الساحل في يد المدن اليونانية بآسيا الصغرى والمدن التجارية الكبرى بفينيقيا، وفرضت فارس على البلاد ضربة من شبه الوحدة إلى حد ما، وذلك في خارج نطاق المدن الإغريقية، كما أن النظام الإداري السلوقي استؤصلت شأفته من بعض النواحي في المنطقة الأكمينية، كما استؤصلك شأفته من المنطقة الآشورية من قبل. ولذا كان هناك ضرب من نتابع الحوادث والاستمرار التاريخي، وإن بغير على المسرح كل من الحكم والثقافة المتسلطة، ومن مظاهر الحكم السلوقي بعث بلاد بابل ونهضتها على يديه، و كانت

ثقافة بابل للسلوقيين أشبه بالثقافة المصرية بالنسبة البطالة على حد سواء، ابتعث الأدب المسماري وذلك كله فضلا عن تدوين الجهود العلمية في الفلك (الفصل التاسع) ووثائق الأعمال التجارية، وسطرت المدونات التاريخية المسجلة للأحداث الجارية، كما كتبت بالشعر وطازات (**Myths**) [١] القوم وأساطيرهم، ومن بين الأساطير الشعرية ما يمضي بفصة الرب بعل مردوك مُنذ نهاية ملحمة الخليقة. وكثيرا ما كانت شعائر الطقوس والتراثيم ومدونات القال والطيرة وبخاصية هذه الأخيرة، تنسخ وندرس، شأن ترانيل سومى وترجماتها البابلية. وقد عثر على كثير من التعليقات ومدونات التهجي مع وجود صورة جديدة للأخيرة، الظاهر أنها كانت مما يستخدمه اليونان، ورجع تاريخ آخر وثيقة مسمارية باقية حتى اليوم إلى عام ٧ ق. م. ويشير هذا النشاط إلى نهضة دينية تعهدها الملوك الأولون الرماية: وتقن أنطيوخوس الأول تمامًا مشروع الإسكندر بتجديد بناء الازاجيل، وهو معيد (بعل، في بابل الذي كان إجزرسيس قد دمره، ما أعاد بناء معبد نيبو **Nebo** في بورسيا، على حين أصدى إليه بيرودوس كاهن بعل، مؤلفه في التاريخ البابلي. وفي عهد ملوتوس عثر أحد كهان أوروك —– ولعل ذلك كان تلبية لطلب الملك – بمدينة سوسي على الشعار القديمة لآلهة أوروك وانتس منها نسخة عديدة. ثم أعيدت عبادة تلك الأرباب سيرتها الأولى و أعيد بناء معيد: أنوه في أروك عام ١١٠ بحسب التقويم السلوقي أي (٢٠١)، في عهد أنطيوخوس الثالث، وفوق هذا بني السلوقيون مباني كثيرة تلك المدينة أو شجعوا الناس على فعل ذلك، وجمع كان أوروك كذلك مكتبة لمعبدهم، وقد أظهرني الستر سيد مُحَمَّد على أن السلوقيين كانوا يناصرون الدين البابلي كحصن يصد غائلة الزرادشتية عقيدة القومية الفارسية، والواقع الذي لا ريب فيه أن نقطة الضعف الرئيسية التي قطعت أوصال الإمبراطورية هي أنه أمها أن تحصل على تعاون العنصر الإيراني، الذي كان الإسكندر يدرك أن تعاونه شيء حيوي. حتى إذا وافى انتقاض الشرق على الدولة كان من ناحيته تمردا من الريف وعقيدته موجهة ضد مكان الحضر من اليونانيين والبابليين.

وكان السلوقيون أنفسهم كالاكمينيين يرون أن إمبراطوريتهم تحتوي على العناصر الأربعة وهي الملوك التابعون والأسر الحاكمة والشعوب والمدن، وسندلي إليك الآن في إيجاز بنظرة عجلي على تلك الإمبراطورية وفي في أعظم ما بلغته من اتساع مع غض النظر عن شرقيها الأقصى. كانت

(١) الرطازة. (Mith) قصة عن الآلهة أو الأبطال، نفسر إحدى الحقائق أو الظواهر. والأسطور (Legend) قصة تقليدية غير حقيقية ولا تاريخية. [المترجم]

الساترابيات السلوقية آسيا الصغرى وهي التي كان يحكمها القواد بالشكل المألوف هي: فريجيا على الهللسبونت وفريجيا وليديا وكاريا وقيليفية وكبادوكيا الجنوبية و (كبادوكيا السلوقية) ومعها كاناؤنيا، أما ليقيا فكانت تابعة لمر، كما أن سواحل أيونيا الجنوبية وكاريا ويامفيليا وقيليقية الغربية قد استولت مصر عليهن جميعا قبل ٢٧٢. و كانت قبضة مصر على تلك البلاد في تأرجح و تذبذب، على حين لم تتمكن قبضة السلوقيين تماما من خط السواحل حتى عام ١٩٧. وكانت تحجب الإمبراطورية حجبًا تامًا عن البحر الأسود دول ثلاث: هي مملكة بطش الوطنية أو كبادوكيا الشمالية (وتضم قدرة كبيراً من بفلاجونيا) وبيثينيا، وبينهما مدينة هرقلية الإغريقية القوية، التي كانت منطقتها تضم بلدانا أخرى كثيرة في تبوس و كيربوس وأما ستريس. و كانت كل من بينيبا وبنطش تخترق فريجيا الشمالية، وما لبثا بعد ٢٧٥ بقليل حتى وطننا حلفاءهما من الغاليين المغيرين في ذلك الإقليم (غلاطية، وما عتمت كادوكيا الجنوبية حتى جعلت من نفسها في أواخر القرن مملكة وطنية تحت حكم أربارانيس). ومُنذ ٢٦١ شرع أمراء الأسر الرباعية في القطاع إمارة صغيرة في أبوليس. و بتمكن أحد من إخضاع بيسيديا – وهي أرض الهضبة في جبال طوروس، وكانت محكمها أسر صغيرة الشأن، على أن مدينة سلجي شبه اليونانية كانت من القوة بحيث قاومت كل محاولة بذها السلوقيون أو غيرهم للمساس باستقلالها. حتى إذا تقدم القرن وجدت أن أسرا مالكة قد وطدت أقدامها نار ج بسيديا شأن أسرة أر لمبيخوس بكار ياويت ليسياس المقدوني حول فيلوميليوم بفرجيا، ثم أسرة مواجيت الوطنية (مُنذ١٨٩) بمدينة كيبورا الآهلة بالسكان. والمناطق الوحيدة التي كان للسلوقيين بها قدم موطدة بآسيا الصغرى هي فريجيا على الهللسبونت وليديا و كاريا الداخلية و فريجيا الجنوبية وفيليقية الشرقية والطريق الملكي، وهو السكة العامة الكبرى الموصلة بين سارد پس وأنطاكية، حتى إذا توفي سلوقوس لم يعودوا قط إلى الضغط بسلطانهم. على الأسرة الحاكمة الوطنية الصغرى، نظرا لما كانوا يردون إليه من إيجاد العلاقات الطيبة عن طريق المعاهدات والمصاهرات. وفضلا عن الخالة، فان عدوهم الدائم اللدود الأوحد كان برجامة. فأما في سوريا فكان لهم السيادة بصفة عامة على البلاد شمالي لبنان، بما في ذلك أرادوي بلاد فينيقيا ثم دمشق من حين إلى حين. على أن الحدود بين ممتلكات السلوقيين والبطالمة بسوريا التغير ثابتة. والراجح أن الولاية الوحيدة التي بقيت تابعة لهم بصفة دائمة شمالي سوريا وأرض الجزيرة كانت كوماجين، وإن كان بعض حكام أرمينية يدفعون الجزية بين حين وآخر.

وعمل السلوقيون بسنة الإسكندر احتفظوا بالساترا بيان الفارسية الكبيرة مع إضافة حرف الياء

والألف (ai) في آخر كل كلمة لكنهم كانوا ينسبون البلاد وراء الفرات إلى أقسام ثلاثة هي الساترابية الايبارخية والهيبارخية (القسم أو الدسكرة) التي تقابل تقسيم مصر اللاتي إلى نوم (الإقليم) وتوبوس زالمركز) وقرية، ولكن لما كانت إمبراطوريتهم أوسع من مصر سعة هائلة، ولما كانت الهيارخية ربما انطوت على جسيم من القرى، فإن تنظيمها كان بحكم الضرورة مفككا أكثر منه عند البطالمة (وتقسيم بعض الهيبارخيات إلى استأثمان الذي أخذ عن إيزيدور الخاراكسى، رجع إلى البارثيين)، وربما كان هذا التقسيم الثلاثي بالبلدين مصدر واحد مشترك، فإن كان الحال كذلك فان حقيقته مجهولة على حال، ذلك أن الإيبارخية قد نكون شيئًا قديمًا أو نيئا استحدثه السلوقيون على حد سواء. وكان الاسم الشائع للإيبارخية ينتهى بحروف (ene) وإن أمكن أحيانا أن ينتهي بحروف (ene) أو (iane) أو (is). و يرجع الفضل في تمييزنا للإيبارخية إلى مجموعة الأسماء المنتهية في آسيا بحروف (ene) ثم ما لبث أن صارت أهم الأقسام السلوقية الصغرى. وعندما أخذت الإمبراطورية تتفكك إذا بالدول التي خلفتها تحول بزعامة البكتيربين الإغريق (Graeen - Baeirians) والبارتيين جميع إيبارخياتها إلى ساترابيات، أي أقسام أولية كبرى. ولما كانت كل إيبارخية سلوقية محتفظة بنظامها الخاص، ولها حاكم (يتبع قائد الساترابية) وله موظفو ومقره الرسمي ويطلق عليه (Basileion)، فإن بعض حكام الإيبارخيات مثل هيسيا سينيب الميسين، استطاعوا أن يحولوا إيبارخياتهم بأنفسهم إلى ممالك مستقلة مع إنشاء أقسام صغرى جديدة ينتهي أسماؤها بالحروف الآنية (ene). حتى إذا وافي القرن الأول إذا بأراضي آسيا فيا وراء القران وهي التي كانت تابعة للسلوقيين، قد أصبحت مزيجًا مخلطة من أسماء تنتهي بحرون (ene)، وقد صار معظمها إذ ذاك أقسامة أولية كبرى، وأصبحت لفظة إيبارخيا في الترجمة العادية المقابلة اللفظة (provincia) اللاتينية بمعنى الولاية. و كثيرا ما اختلط الأمر على رجال الأدب فلم يفرقوا بين الإيبارخيات والساترابيات السلوقية القديمة، وذلك لأن الأقسام التي تنتهي أسماؤها حروف (en) كانت في أيامهم مهم ساترايات، إذ لا شك أن ما يذكره أيان: مثلا من سارابيات سلوقية عددها ٧٢ لا يعني سوى الإيبارخيات. ولعل نظام الإيبارخبات الذي كان مقصورا في بداية الأمر على الساترايات الواقعة شرق القران قد امتد فيها بعد غربي ذلك النهر إلى كبادوكيا و هنطش، كما أنه امتد على التحقيق شمالا أرمينية وليست آية واحدة منها بالني ينطبق عليها بالضبط اسم الدول التي خلفت السلوقيين (Sweession Stateseae)، ومما يدل تماما على أن أرمينة كانت تنتقل نظامًا معروفًا، إنشاؤها لأسماء خيالية عجيبة بحروف (ene) مثل اجزر سيني رونيزيني تطلقها على أقسام جديدة ببلادها.. ووقف إقليمان معزل من ذلك كله: ما.آسيا الصغرى غربى نهر المالي،

حيث لا وجود لهذا النظام إلا بقية للأسماء الساترابية القديمة،. ثم سورية التي يغشى الإبهام آثار ذلك النظام فيها. أجنان بوسيدونيوس يطلق على المدن السلوقية الأربع بشمالي سورية اسم الساترابيات، ولكن الراجح أن ذلك لا يشير إلا إلى قسم ثانوي صغير من الدولة السوقية عندما أخذ الحكم السلوقي في التداعى. وربما جاز لنا أن نرتاب في أن السلوقيين حولوا جنوب سورية وبلاد اليهودية إلى سائرا بيتين وقد كانتا: بوتين البطالة حني عام. ٢٠٠ ثم تظهر أقسام يطلق عليها باليونانية (Merides)، زهى شى، مجهول كما هو ظاهر بكل بلاد آسيا فيما عدا بلاد الهند الإغريقية تحت حكم أسرة ساكا (Sacu)، كما أن و اليهودية و نفسها أصبحت دولة مهنة تابعة للسيادة السلوقية. وقد.ادعى الكثيرون أن هنالك وزنا كبيرة للمعلومات التي استقيت من "اليهودية"، وذلك لمجرد وجودها، أجل إن كتاب اليهود قد أكثروا من القول، ولكن لا ينبغي أن تؤخذ أقوالهم قضية مسلمة موثوقًا بصحتها. ومهما يكن من شيء فإن الظروف الخاصة المحيطة بتلك الولاية ليس من الضروري أن تلقى نورة يبين لنا أحوال الإمبراطورية في خلتها.

وكان حكم ملوك السلوقيين استبداديًا مطلقة من الناحية النظرية. ولكن الواقع الحقيقي أن حكمهم المطلق كان مقيدة بضرورة احترام الحقوق التي وهبوها هم أنفسهم للمدن و السترات العديدة التي أنشأوها، وأكبر شاهد على احترامهم لها محبة الناس لهم.. و معلوماتنا عن الموظفين الذين كانوا يدبرون شئون الإمبراطورية ضئيلة لا تفني. وقد كان الاعتقاد الشائع في وقت ما أن كل ساترابية كان لا يحكمها ماراب بل قائد (Strategos)، وكانت له سلطة عسكرية، وذلك لأن كل ما ترابية كانت تضم قبائل جبلية أو عناصر أخرى لم يتم إخضاعها لسلطان الدولة. ولكن هناك نظرية أخرى قوية قامت في. الآونة الأخيرة تقول بأن كل ما ترابية كانت تحتوي على ما تراب وقائد. وبدهي أن الموضوع والأدلة عليه كليهما غامض و ليس هنا مجال بحثهما. و كان

من على الإمبراطورية وزير "للشئون" (bo epi ton Pragmaton) من الجلي أنه كان المقابل للوزير عند الفرس، ولكننا لا نسمع عنه الشيء الكثير قبل عهد أنطيوخوس الثالث.وثمة وزير آخر يسمى "المشرف على الإيرادات والدخل العام. (bo spi Ton Prosodon) وربما كان على رأس الإدارة المالية للإمبراطورية، بيد أن تلك التسمية في بعض الأحيان تدل فيما يبدو على موظف صغير تابع. فأما الوظيفة التي كانت تقابل لقبي مدير الشئون الاقتصادية (oikonomos) ووزير المالية (Dioiketes) فهذا أمر يحوطه الغموض. وكان السلوقيون – شأنهم شأن أنتيجونس الأول –

يحذرون وإن كان ذلك على قلة–حذو الإسكندر في استخدام الفرس حكامة الأقاليم. وقد حافظوا على نظام البريد الفارسي، و لعلهم بذلوا شيئا من الجهد في تحسين مجموعة الطرق الفارسية.

وكان هناك دار لتسجيل الأرض في كل هيبارخية، وظيفتها تحديد تخوم القرى والممتلكات، وتجمع من هذه الدور سجلات الساترابية التي كان يقوم عليها في عاصمة الساترابية مسجل في ديوان يسمى «دار السجلات الملكية؛ ثم تجمع من دار التسجيل بالساترابات السجلات المركزية التي يستخدمها الملك، و كما أن الهيبارخية كان لها تصبة بتلها الحاكم **Basileion**... فلا بد أنها كانت فا يلوس ذات دار لتسجيل الأراضي تقع بمنزلة وسط بي دار تسجيل الهيبارخية والساترابية، وإلا فمن السير أن نتصور ماذا كان يحدث عندما كانت الهيبارخية تتحول فيما بعد إلى ساترابية، فلم تكن دور التسجيل المركزية ولا السناترابية تقدم الحدود التفصيلية، كما أن دور التسجيل المركزية لم تكن تحصل دائما على المعلومات أولا بأول بسبب بعد المسافات. وكان ذلك النظام هو نفس النظام المصري الذي تكون فيه و (الهيبارخية) هي الوحدة بدلا من القرية. ولعل من الواضح أنه بالنظر إلى: شدة اتساع رقعة الدولة لم يكن السلوقيون يستطيعون ألبتة أن يجمعوا صافي ضرائبهم بنفس الدقة التي كان يجمعها بها البطالمة، وقد أدخلت الإدارة نظام الإمارات اليوناني كما أنها كانت تؤجر أحيانا أراضي الملك، وكانت حجج.. البيع تسجل في بعض المدن السوقية، بل لعلها كانت تسجل فيها جميعا.

وكانت علاقة الملوك السلوقيين بالأرض في كل من آسيا الصغرى وسورية متأصلة ترجع قواعدها إلى أعماق التاريخ، ويحتمل أن كل الأرض أو جلها كان يملكها في الأصل عدد من دول الكهنة، أن تاريخ البلاد قبل عهد الإسكندر لم يكن إلا بسلسلة متكررة من الاعتداءات على تلك.. الدول.. يقوم بها الفاتحون المختلقون الذين كانوا يجلبون معهم عقائدهم. ولو تجاوزنا عن ذكر مكان المناطق الجبلية المستقلين كالببسيدين مثلا، لوجدنا الأرض تنقسم أقسامة ثلاثة (١) أرض الملكة (ب) أرض المعبد (ج) أرض المدينة، وهي أرض المدن الإغريقية القائمة، ولكن السلوقيين ادعوا ملكية أراضي المعابد بوصفهم ولاء الدولة الأعلين، ولذا لم يكن هناك في عهد السلوقيين إلا أرض الدولة في الملك) وأرض المدينة. ولا بد أن أرض الملك كانت تحتوي على معظم أراضي القطر كما تضم دون ريب كل المناجم والغابات التي لا تقوم على أرض المدن. أما أرض الملك فكان بعضها ملك يده وبعضها الآخر جرى منحها لكبار ملاك الأراضي من الأهالي والفرس، وربما كان بعض هذه العائلات المالكة الأرض أقدم عهدة بكثير من الحكم الفارسي، كما أن بعضها دام حتى العصور الرومانية، ولكن

الملك كان السيد الإقطاعي عليهم، كما أن الملكية الفعلية للأرض كانت له. وكان أصحاب الأراضي هؤلاء يعيشون كبارونات القرون الوسطى في قلاع يمتلكونها –وهي مربعات محصنة تبني حول فناء ما كانوا يحتفظون بمجموعة من الأتباع ويجمعون الضرائب من أراضيهم ويرفعونها إلى الخزانة العامة.

وكان السكان الحقيقيون للأرض الزراعية في كل مكان فم الفلاحون: الأهالي الذين يسكنون القرى، وهم طبقة بندر أن تتغير مهما مر بها من غزاة غدوًا وذهابًا. وحيث كانت الأرض أرض الملك في يده، كان الفلاحون الذين هم رجال الملك، يزرعونها ويدفعون ضرائبهم للموظفين. وحيث كانت الأرض موهوبة رسمية لأحد الملاك، كان فلاحو القرى الواقعة على الأرض ومعها الفلاحون رجال الملك رسميا لا رجال ذلك الملك، وإن دفعوا الضرائب عن طريقه. ولم يكن الفلاحون أشباه موالى أرض كحالهم في مصر بل موالي أرض تماما – يباعون ويشردن مع الأرض، ولم يكونوا يستطيعون مغادرة موطنهم المخصص لهم. ولم يكن لقراهم هيئات أو مجالس. وكانوا يدفعون الضرائب أفراد وليس عن طريق قراهم كمجموع، ولكن لا شك أنه كان من الخير للفلاح مثلما كان الحال بين الملك ومالك الأرض أن يجمع هذه الضرائب موظف مسئول.. ولكن. إذا حصلت إحدى المدن الإغريقية على الأرض ومعها الفلاحون كثيرا ما كانت الأحوال تعدل، وما ندري على وجه التحقيق. أكان ذلك بتحرير موالى الأرض قصدًا وعمدة أو بحكم سير الأمور في مجرى تطورها الطبيعي؟. ومع ذلك فربما ظل الفلاحون في بعض الأحيان موالى أرض كما حدث في زيليا لمهد الإسكندر، ولكنهم كانوا يصبحون على الإجمال مستوطنين ورانيين أحرارة (**Katoikoi**) يدفعون الضرائب للمدينة، كما أن قراهم أخذت في بعض الحين تسعى إلى الحصول على ضرب من الحياة الجماعية، و كان هؤلاء يؤلفون قسما آخر يختلف عن العبيد الزراعف لا كونيا مثلا. ومن ثم فان المدينة الإغريقية كانت نعمة على الفلاح الأسيوي: كانت تهدف إلى رفع مستواه و منزلته.

ولم يحرر السلوقيون موالى الأرض(١) ولكن ربما كان لديهم قضاة خاصون لفلاحي الملك، وبذلك كانوا من الحكمة بحيث فصلوا بين القضاة والإدارة، وقد أبدعوا ثلاث رسائل عملت باطراد على إنقاص رقعة مناطق رق الأرض، وربما أدت في النهاية إلى إلغائه نهائية. وأول هذه الوسائل في المدن الإغريقية التي أسسوها والتي حولت أرض الملك إلى أرض مدن على نطاق واسع. وثاني تلك الوسائل أنهم كانوا على استعداد بعكس البطالة – أن يهبوا أرض الملك أو بيعوها بصورة تامة ونهائية على

(١) موالى الأرق أو رفيق الأرض (Serfa).

شريطة أن يعمل الممنوح على ضم أرضه إلى إحدى المدن وجعلها أرض مدينة. ومن الطبيعي أن المدن كانت راغبة تماما في زيادة رقعتها. ونالت تلك الوسائل عملهم على إلغاء ملاك الأرض الإقطاعيين، وهو أمر ترتب عليه إلغاء حالة كانت تنطوي أو ناد على امتلاك موالى الأرض امتلاكا خاصة. وقد شرع يومينيس صاحب كارديا و أنتيجونس الأول في نقل المزارع الإقطاعية إلى يد الإغريق أر المقدونيين، ولم تلبث المزارع الإقطاعية وقد نقلت إلى ملاك جدد في عهد السلوقيين الذين كانوا يناصرون المدن بكل أفئدتهم، أن اتجهت إلى الانضمام إلى المدن لتصبح بذلك أرض مدن، والظاهر أنهم لم يستطيعوا التغلب في بيسيديا و ادركيا و بنطش على أرض المزارع الإقطاعية فاستمرت على الرغم منهم تمامًا إلى المعهد الروماني. رحيما أصبحت الأرض في أرض مدينة صار من المحتمل ألا يظل السلاح مولى أرض، بل لا شك أنه لم يكن يستمر في ذلك الوضع. ولا بد أنه كان لذلك أثره في الفلاحين بأرض الملك الباقية، وذلك لأن هؤلاء الفلاحين كادوا يصبحون في صدر عهد الإمبراطورية الرومانية مستوطنين، فل لهم نظام جماعي؛ بل الواقع أن مجموعة من قرى سورية (هي منطقة حوران) قد حصلت على نظام يحاكي إلى أقصى حد نظام أية مدينة إغريقية. و لعلهم ظلوا فترة من الزمن ينعمون من الناحية الاقتصادية بما يفوق ما كان لدى سكان أراضي المدن. على أنهم انحدروا عن منزلتهم وعادوا مسيرتهم الأولى في ظل العهد الأخير من الإمبراطورية الرومانية، حتى لقد ظهرت الملكية الخاصة لوالى الأرض نفسها من جديد بآسيا في عهد جستنيان.

وكانت دول المعابد القديمة، الكبيرة منها والصغيرة، مفرطة في كثرة عددها، ما كان بعضها لا يزال يمتلك قدرة عظيما من الأرض وكلها ترجع: إلى نظام اجتماعي يسبق العهد الآرى قوامه نظام الأمومة، وهو أمر غريب تماما عن الأفكار اليونانية أو الفارسية. والراجح أنهم كانوا في الأصل يعبدون جميعًا ربة الخصب العظيمة بآسيا وزميلها الرب الذي كان في نفس الحين ابنة لها وزوجها. وإلى هذه العقيدة القديمة يمكن أن ترجع عادة زواج الأخ من أخت الشقيقة التي أمكن نتبعها في عدد جم من الأسر الملك بغربى آسيا – ومن أشهر الأمثلة على ذلك أسرة ماوسولس بكاريا التي لعلها هي. السبب في أن ملكات السلوقيين و من دراهم النبط كن يلقن رمية بلقب الأخت (الفصل الثاني). وثم أر آخر لتلك العادة استمر طويلا، هو أن النقوش اليونانية التي وجدت في فريجيا لا نذكر أحيانا إلا اسم الأم وحدها أو تذكر اسم الزوجة سابقة على اسم زوجها. و قد غزت آلهة أجنبية بعض هذه البيوت المقدسة، ولكنها خضعت مع ذلك للنظام القديم للرعي، حتى إذا وافي العصر الهللينستى كان

تأثير مجمع الفكرات الهندو – أوربية بعضها إلى بعض، من فريجية وارسية وإغريقية، قد بلغ من القوة بحيث رفع اسم الرب أحيانا على حساب الربة، كما طبع بعض الأمم بالطابع الهلينستي (الفصل العاشر). و كثيرا ما عرف حاكم دولة المعبد وهو كبير كهنة يتولى منصبه بالوراثة، كيف يتتبع نسبه حتى يصل به إلى أحد أبطال عصر الرطازات أي الميثولوجية الإغريقية. ولكن النظام لم يتغير قط. فان الكاهن كان يحكم. أراضي دولة العبد بما عليها من فلاحين ممد فلاحو الربو واله كانوا. يدفعون الضرائب. فأما قرية العبد نفسها فكانت تحوي عددا من الرجال وهبوا أنفسهم للإله، وهم في بعض الحين من الخصيان. ولكن الظاهرة التي أثارت دهشة اليونان أيما إدهاش هي وجود تلك الجمهرة الغفيرة من رقيق العبد الإناث اللاتي كانت كثيرات منهن بغايا مقدسات يقمن على خدمة ربة الخصب وعبادتها. ومن في العادة من بنات موالى الرب، اللاتي كن يخدمن في المعبد إلى حين قبل أن يصبحن زوجات الفلاحين، ذلك أن الأرض ومن عليها من أناس يعيشون بقوة الربة، لذا فان تقديم الابنة بغية المعاونة في نشر سلطانها لم يكن إلا شيئا ينطوي على الشعور الطيب نحو المجتمع، لذا كانت النساء يفخرن بأنهن ينحدرن من سلسلة من عاهرات العيد. و كان المعبد غالبا ما يقوم بدور البنك المحلى، كما أن قريته كانت مرحة لسوق سنوية عظيمة.

وربما جاز لا أن نذكر أشهر دول المعابد و آلهتها، وإن كان معظم دول المعابد الكبرى يقع خارج حدود السلوقيين، فنى كبادوكيا كانت "ما" من كومانا (أي موضع التراتيل) ولها ستة آلاف من عبيد المعابد من الرجال والنساء وكان هناك زيوس من فيناسا، وله ثلاثة آلاف، وذلك عداد أرتميس براسيا في كستا بالا ميرو بوليس التي كانت كاهنائها يستطعن المسير فوق الجمر المتقد. وفي بنطش كانت تعيد الربة دماى من كومانا بونتيكا التي كان لها ستة آلاف من رفيق المعبد مع حريم شديد الخنزيز ولحمه، كما نعبد أنانتس ان زيلا به ومن و فارناكو (مع سيليني أو القمر) من كابيريا، وهي التي كان ملوك بنطش يقسمون بها رسميا. و كانت بفريجيا معبودة هى كيبيلى أجد يستس وثمة آنس في بيسينوس، وهناك ليتو ولى بيوس و تعبدان بالقرب من ديونيسويوس ومين كارو بالقرب من أتودار الأم دينـدميني بالقرب من بيستيوس وفي نطاق كمزيفوس، وزيوس من أزاي. وهناك أيضا معبدا "مين"، أسكايثوس (مانيس من أورامنا) سيليني (القمر) قرب أنطاكية البيسيدية. ثم الأم زيزميني في ليكاؤنيا، و من تباعو أو الثيراني والأم أنانتس من ليديا، وزيوس من أولبا بكليكيا. وعدد آخر عرف من النقوش، بما في ذلك الأماكن المختلفة المسماة هيروبوليس أي و مدينة العين و التي تصبح

هيرابوليس أي و المدينة المقدسة وإذا كان النفوذ اليوناني قويا–وهو تفريق جوهري بين الكلمتين، ولم تكن أرتميس من إفيسوم سوى ربة الحب التي ألحق معبدها القديم بمدينة إغريقية. وظل ذلك العدد طويلا حكومة داخل الدولة في إيسوس بما له من كبير كهنة يلقب بملك النحل (**Megabyzus**) وسرب عظيم من الفتيات المتكرسات اللواتي كن أبكارة عذراوان، ولعلهن كن يعرفن بخلية النحل. وقد ظل العبد كذلك حتى وضع ليسيماخوس إدارته في يد لجنة إغريقية وألغي صورة النحلة من عملة إفيسوس. وكانت بشمالي سورية ودول كمهنة مماثلة لهذه التي قامت في بامبيكي (مبرج) **Bambyee** و بابتوكابكي(**Baetoeaece**) وإميشا (حمص)، وامتدت إلى ألبانيا إيبريا في سفوح القوقاز الذي هو موطن العدد كبير من بقايا الشعوب القديمة.

ومع أن السلوقيين الأول كانوا على استعداد لاحترام مشاعر رعاياه الدينية، كما أنهم فضلا عن المعبد الذي أعادوا بناءه بمدينة بابل قد شادوا معابد أخرى في بامبيكى (مبوج) وأولبا، إلا أنهم حاربوا السلطة الزمنية التي كان يستمتع بها الملوك الكهنة محاربتهم للإقطاع سواء بسواء. وكانت سياستهم تهدف إلى ترك الكاهن وشأنه في دولة معبده–هو والمعبد وقرية المعبد، مع القدر الكافي من الأرض لخدمة المعبيد، وصبغ ما تبقى من ممتلكات المعبد الزراعية بالصبغة الدنيوية الزمنية. ورجح أن أنطاكية المواجهة لبيسيديا مثلا اقتطعت من ممتلكات (الرب) مين الأسكيني (**men Askaenos**) التي كانت مترامية الأرجاء فيها سلف من الزمان. ومع ذلك فإن دول الكهنة تمكنت من الحيلولة دون تنفيذ تلك السياسة إلى غايتها القصوى، وعاد السلوقيون في أيام اضمحلال دولتهم إلى توسيع رقعة بعض المعابد السورية وأعطوها حق إيواء اللاجئين (**Asylum**)، وهو شي. مائل لما حدث بمصر. وقد اختفت بعض الكهانات الوراثية إبان فترة الاضطراب التي سبقت حم أوغسطس، وكان القواد مثل بومبي أو ماركوس أنطونيوس يعينون الكهنة على هواهم، فأعطى أنطونيوس دولة العيد في أولبا لإحدى النساء. ثم أصبحت زيزو كابرا وبعدهما كومانا بونتيكا هدنة إغريقية رومانية، وواصلت الإمبراطورية الرومانية اقتطاع أراضي المعابد إلى الحد الأدنى الضروري. بيد أن بعض عائلات الكهنة الكبرى دامت حتى العصور المسيحية، وكان منها في الكنيسة أساقفة ممتازون.

وتدل الثروة التي جمعها الكينيون (**Achhaemenide**) على أن نغرب آسيا كان ينتقل فعلا من الاقتصاد العين إلى أساس نقدي، ولاشك عندنا في أن المدن السلوقية كانت من عوامل التعجيل بهذه العملية، وإن كانت العملية تشير هنا على الراجح بخطى أبطأ منها بعصر. ا أن الاقتصاد القائم

على التبادل العيني لاشك أنه ظل هو الأصل في كثير من نواحي الريف. ونظام الضرائب. في الإمبراطورية السلوقية موضع يحوطه الغموض.. بين أيدينا اليوم قائمة أغلب الظن أنها سلوقية، استطعنا بوساطتها هي والأختام التي أمكننا استخراج أعداد جمة منها من مدينتي أوروك وسلوقية تكوين قائمة بالضرائب وإن لم يكن معنى كل بند في تلك القائمة التي اجتمعت لنا واضحا دائما. والقائمة تشمل رسوم الواردات رأي ضرائب جمركية ورسوم الموانى ورسومًا دخولية فضلا عن ضرائب على الأسواق والمبيعات والماشية والملح وعلى الاستمرار في ممارسة بعض أنواع الأعمال وتسجيل المستندات، وهناك ضريبة التاج، ثم ضريبة أخرى إلى الأرقاء لا ندرى طبيعتها، وهناك في محتمل ضريبة. رءوس لا يمكن أنها كانت تجبي إلا من فلاحي الملك، ولكن ذلك شي، غير محقق تماما. ويجيء في نهاية الأمر آخر تلك الضرائب وأعظمها أهمية ومى ضريبة الأرض المفروضة على أرض الملك، وفوق ذلك كان الملوك محصلون على الإيراد من ممتلكاتهم الشخصية، كالمناجم والمحاجر والغابات ومن الجزية التي تدفعها المدن التي تفرض عليها الجزية، ومن المحتمل جدة أن نظام الضرائب لم يكن واحدة في جميع الساترابيات بتلك الإمبراطورية المترامية الأطراف. أجل إن إقليم بابل (بابلونيا) ربما كان مختلف فعلا عن مألوف تلك القاعدة، كما أن الكتاب اليهود يوردون بعض التفاصيل من نظام الضرائب ميلاد اليهودية (Judaea)، وهي تفاصيل، إن صدقت، دلت على أن ضرائبهم ثقيلة نقلا خارقة، ومع أن نظريان كثيرة وضعت لتعليل ذلك، فلا بد من النظر إلى الأرقام بين الحفظ، وذلك لما جرى عليه كتاب الهيود من ميل إلى تمثيل السلوقيين في صورة الطغاة الظلمة. ولا شك أن نظام الضرائب السلوقي كان " أقل إحكاما وأكثر مرونة" من نظام الضرائب البطلمي، بل الواقع اعتمادا على ما عرفناه من معلومات ضئيلة أن الفوارق بين ذلك النظام والنظام المصري كانت كبيرة جسيمة. ولم يصل إلى علمنا أي احتكارات. ملكية للتجارة أو الصناعة لديهم: ولم نسمع قط بأي ضروب من ضروب التذمر الدائم الذي كان يصدر من الفلاحين والمال المصريين و كان طابعة مميزة لهم، كما أن نظام جباية الضريبية الخطيرة الشأن وهي ضريبة الأرض على أراضي. لك كان يختلف تماما. وبينما ظل الفلاح المصري طوال عمر البطالة يدفع مبلغا. سنويا تاجا، ان السلوقين واصلوا العمل بطريقة أخذ عشر المحمول، وهي الطريقة السحيقة القدم بآسيا والتي عملت بها مصر لمهدي القراءة والفرس، وبذلك كانوا شركاء حقيقيين للفلاحين يشاطرونهم الخسارة في السنوات العجاف، وهو أمر فاخر به ماركوس أنطونيوس عندما أخذ يؤكد فضل روما ومالها من أياد يضاء بإتباعها للطريقة السلوقية بأخذ عشر المحصول. و محتمل أن جزءا من ضريبة الأرض كان بديع نقدا، ولكن

القدر الذي كان يقدم عينة كان كافيًا لجعل الملك تاجرًا عظيما للقمح. أما طريقة تصرف القوم في القمح فأمر لا نعلمه، اللهم إلا أن ضرائب كل ساترابية كانت تفيض إلى عاصمتها أنهارًا، فتحول النقود إلى الخزانة المركزية (Basilikon) ولكن بعد الشقة وصعوبة النقل كانتا ولا مراء تحولان دون نقل القمح بهذه الطريقة ومن ثم لابد أن القوم كانت لديهم مراكز عديدة. وكان على الفلاحين أن يقوموا بتنصيب من العمل بطريق السخرة.

أما العملة فكان السلوقيون يحتفظون بها في أيديهم وجعلوها المملة الأساسية في الشرق، و كانوا على وجه الإجمال يستخدمون العيار الآتيكى. الإسكندر سواء بسواه؛ ويحرصون حرصًا تامة على أن يقصوا من إمبراطوريتهم فقد أعدائهم البطالة الذين كانوا يستخدمون العيار الفينيقي، وإن استخدموه هم أنفسهم أحيانا. وكان هذان المعيار ان يقتسمان العالم بينهما (الفصل السابع). ولم يكن يسمح لأية مدينة سلوقية جديدة بأن تسلك عملتها لنفسها ولا حتى العملة النحاسية اللازمة للفكة الصغيرة، كما أن هؤلاء الملوك كفوا حوالي منتصف القرن الثالث عن سك العملة الذهبية، ولعل ذلك كان يرجع إلى اضطراب طريق الذهب الوارد من سيبيريا. وجميع تقديرات دخل السلوقيين وإيرادهم إنما تقوم على الحدس والتخمين. و كانت قيمة ضريبة الأرض تختلف باختلاف سهر القمح. وليست هناك أسعار مدونة القمح بالمناطق الريفية كما أن الأسعار المدونة بالنسبة للمناطق الساحلية قليلة (حيث وجد القليل منها في أوروك)، وفضلا عن ذلك فليس من الضروري أن سعر القمح كان واحدة في سورية أو بابل مثلما كان في ميلتوس أو ساموس. وقياسا على ما حدث بأماكن أخرى من العالم، لا بد أنه حدث ارتفاع عظيم في الأسعار بلغ ذروته حوالى (٣٠٠)، ثم أعقبه هبوط طويل الأمد. و كثيرا ما كان ضيق ذات اليد يلم بالعاهلين السلوقيين الأولين،. وكانا ملكين كريمين في العطاء ولا بد أنهما اتفقا أموالا طائلة في إنشاء المستوطنات بآسيا وتعميرها، وان جمع بعض موظفيهما ثروات طائلة،وذلك قياسا على ما ظهر من أمثلة فيما بعد، ومع أن الولايات الداخلية قد حظيت دون ريب بالرغد والثراء في ظل ما كانوا يعتقدون أنه السلام المسلوق الطويل الأمد، إلا أن المدن الساحلية بآسيا الصغرى وشمالي سورية قد كابدت عناه كثير من تلك الحروب السورية و التي لم تكن لها نهاية والتي كانت تدور رحاها بين السلوقيين والبطالة (٢٧٣ – ٢٠٠ ق.م). حتى إذا استولى أنطيوخوس الثالث في (٢٠٠ ق.م) على سورية بأكملها بما في ذلك جميع منافذ التجارة البرية الواردة من الشرق، فليس لدينا شك في أن الأموال قد تدفقت إليهم بسبب تلك التجارة، ومع أن أنطيوخوس

الرابع قد ضيق عليه الخناق في النهاية بسبب فقدانه لغرب آسيا الصغرى والغرامة التي فرضتها عليه روما، إلا أنه لا بك أصبح فيما بعد أغني من أي ملك سلوقى قبله.ومع ذلك كله ان السلوقيين بعامة لم يحرزوا ألبتة مثل تلك الثورة التي كان البطالة. يحصلون عليها من مصر. ولما كانوا يجمعوا ألبته أي كنت من ثروة مدخرة فلا بد أنهم اتفقوا على البلاد قدرة أكثر كثيرة بالنسبة لدخلهم، وكان أنطيوخوس الرابع مستخدم ثروته كجده سلوقوس الأول في تأسيس عدد جديد. وضخم من المدن أو صبغها بالصباغ الهللينستي.

وينبغي لنا قبل أن ندخل في مسألة التوطين والتعمير التي عليها السلوقيون أن ندخل في اعتبارنا ذلك الموضوع الشائك الخاص بعلاقة الملوك السلوقيين الأول المدن اليونانية القديمة بآسيا الصغرى التي كانت تقع من وقت إلى آخر داخل الحدود الجغرافية لإمبراطوريتهم. ولا شك أن الرأي السائد هو أن هذه المدن كانت مدنًا تابعة. ولكن الأمر ليس على مثل هذه الدرجة من البساطة. فإنها كانت جميع مدنا حرة، حليفة لاسكندر، وخضع بعضها في أثناء حروب و خلفاء الإسكندر، لهذا أو ذاك من خلفاء الإسكندر. وقد حررها جميعا أنتيجونس الأول. بيد أن بعضها ربما عاد إلى التبعية لأحد الأفراد ثانية، مثل ليسيماخوس أو غيره من الحكام. ولا نكاد نعرف شيئا عن حكم سلوقوس نفسه، ولكن بعض المدن أتحدث مع ابنه أنطيوخوس الأول بمعاهدة تحالف. (**Symmechia**) في حين أن بعضها الآخر مثل نوس وبارجيليا كانت مدنا خاضعة. أما الرأي القائل بأن جميع المدن كانت خاضعة غير مستقلة، فيلوح اليوم أنه قائم على اعتقاد المؤرخين بأن معاهدة التحالف (**Symmachia**) هذه كانت تضم جميع الأراضي السلوقية الحقة، ولذا فإنها اتخذت معنى إقليمية، وأنه بناء على هذا لما كانت بعض المدن خاضعة، وجب أن تكون كلها خاضعة. ولكن معنى كلمة سوماخيا لا يمكن أن يدل إلا على معاهدة تحالف حرة، كما أن عبارة " وأية مدينة يرغبها بين تلك الشركة في معاهدة التحالف الحرة" لا يمكن أن تدل على أن جميع المدن كانت بالضرورة عضوا في تلك الحالة أي "السوماخيا". هذا إلى أنه كانت هناك مدن مثل "إريثراي" التي نكن يوما ما إلا مدينة حرة بالمعنى الذي أخذت الحرية كنسبه آنئذ من حيث: "حق سن القوانين وعدم وجود أية حامية وعدم دفع أية جزية". وقد أو أحد النقوش نورًا مواتيًا على قالت الملوك، السلوقيين وهو أنطيوخوس الثاني، حيث يفهم منه أنه سيعيد الحرية العامة لكل المدن الأيونية، وهو عمل ظلت تلك المدن مدة طويلة نعده كا رسميًا بتلك الحرية، وعندئذ تبدو بعض المدن لآخر مرة كأنها تصرف من جديد في سياستها الخارجية

بحرية، وما يستطيع إنسان أن يجادل في أن أزمير كانت العهد سلو قوى الثاني دولة مستقلة تماما، شأنها شأن ميليتوس وماجتيريا على نهر الميانـدر إذ اشتبكتا في الحرب في ١٩٦، وقوة أنطيوخوس الثالث في ذروتها – حتى أصلحت بعض المدن الإغريقية الأخرى ذات بينهما، كأنهما لم يكن لأنطيوخوس بالفعل أي وجود. وقد ادعى أنطيوخوس الثالث فيما بعد أن جميع المدن الإغريقية كانت من الناحية الشكلية رعيته، وأن الحرية هنة: وفضل منه عليها، وهي وجهة نظر لعل من الممكن تتبعها قبل ذلك، ولكن بعد أن فقد ذلك الملك آسيا الصغرى في (١٨٩)، عاد مركز المدن فأصبح يعتمد كل الاعتماد على برجامة وروما. ومن المحتمل أن المدن قاطبة كأنها حق شرعي أكيد في الحرية على نفس الصورة التي اعترف بها الإسكندر، بد أن هذه المدن لم تستطع على طول الزمن أن تصمد أمام اعتداءات الملوك ولم يكن بد من أن يجيء الوقت الذي لا يصبح فيه للحرية من معنى سوى التحرر من الجزية.

ولننتقل الآن إلى ما بذله السلوقيون من جهود في عملية التوطين والتعمير بآسيا. كان أساس ذلك التوطين هو المستقرات العسكرية، وليس المدينة الإغريقية (**Polis**) كما كان قد قديمة، أجل إنه حدث فعلا أن الملوك ملئوا البلاد في نهاية الأمر بالمدن الإغريقية، ولكن ذلك كان يتم إلى حد كبير بصورة غير مباشرة. وذلك لأنه لم يكن في مستطاع أحد غدا الملك وحده أن بنشى. مدينة. ومع أن التقاليد كان يؤثر فيها عن سلوقوس أنه ملك عامل مُحَمَّد كابنه عمامة، إلا أن تأسيس مدينة (**Polie**) كان معناه أن يبذل الملك بجهد شاقة عظما. إذ كان ملزما أن يبحث لها عن رقعة من الأرض، وعن سكان ينزلونها وأن يشيد أسوارها، وعونها بعدد من الطعام وقيح للبذور وماشية و الآن بدأ الناس بها معايشهم مع تأجيل الضرائب حتي تقف المدينة. على قدميها، وأن يتصرف هو شخصية في مسائل لا حصر لها تتعلق بالإسكان والاقتصاد والاجتماع، وأن يمنحها دستورًا ليدر عليه دولاب الحياة السياسية وأن تختار القانون الذي تجرى عليه أحوال المدينة، وإن كان هنا يستطيع إصدار الأمر بتبني قانون إحدى المدن الإغريقية الشهيرة واقتباسه مع تعديله أو عدم تعديله. ولكنه فيما يتعلق بالمستقرات العسكرية، فانه وإن كان لا يزال ملزمة بأن يجد لها الأرض للسكن والمال للنفقة، إلا أنه كان في رسمه (أو قل يعمد دائما تقريبًا) أن بكل ذلك العمل إلى مندوب عنه يكون هو الحكم المحلى. ومع أن جالية المستقرات العسكرية سرعان ما كانوا يصبحون هم الاحتياطي العسكري للدولة، إلا أن واجب الدفاع كان الهدف الأول منها. وقديما أنشأ الإسكندر بعض هذه المستقرات في باكتريا و بلاد

الصغد، لير نكز عليها الدفاع ضد قبائل الساكا الرحل كما أنشأها في ميدا لكبح جماح قبائل البرز (Epaiz). كما أن سلسلة المستقران السلوقية التي كانت تمتد عبر آسيا الصغرى من نهر الكايكوس (Caicus) إلى نهـر البانـدر جـوهى تاكراسـارتياطيا و هيركـانس و كـادوي وبلونـدوس والميسـوبون المقدونيون ثم بلاكان الغرض الواضح منها حماية المنطقة الساحلية من عائلة الفلاطين. وربما كانت بعض المستقرات الأولى مقدونية خالصة، بيد أن الشطر الأعظم من مستقيات الغرب كان بوتانيا. و كان المستقرون من أتموا الخدمة العسكرية من الجند ومن المرتزقة، والرجال القادرين على الخدمة والراغبين فيها. و كان كل مستوطن يعطى رفعة من الأرض ليزرعها بر محصل منها على معاشه، وهي تسـمى بالنصـيب (Kley0g) أي الإقطـاع العسـكري،وكان إقطـاع المليـك عسـكريا يضـطر الحـائز للأرض بموجبه ما دام حية أنبؤدى الخدمة العسكرية بالجيش كلما دعي لذلك. وكان التصبب ورائية، ولكن كان في الإمكان بيعه أو التوصية به، وإن ظل مع ذلك خاضعة للالتزام بالخدمة العسكرية، إذ يلوح أن الأرض ما نكاد تصبح نصيبا أو إقطاعًا عسكريًا حتى نظل كذلك على الدوام، إذ إن التزام صاحب الأرض بالخدمة العسكرية (أو ربما إحضار بديل له يقوم بها) يظل ملازما للأرض إلى الأبد. ويرى الأستاذ العلامة روستوفتزف أنه ربما كان هنالك أكثر من نوع واحد من المستقرات العسكرية، وذلك مع أن وجود نموذج يحتذي كان لابد أن يسهل عملية التوطين بدرجة عظيمة، بحيث يرجح أن هذه النماذج كانت موجودة. ومهما يكن الأمر، فان رجال هذه الأنصبة وهم أصحاب الإقطاعات والحائزون لها (Claruths) كانوا العمود الفقري ا لجيوش السلوقية أي الفيلق الإغريقي المقدوني؛ وكان ولائهم للملك – السلوقي المربع على العرش مضرب الأمثال، وهو ولاء بني عن حسن أحوالهم كان المستقر العسكرى بقام عادة بجانب مدينة أو قرية سكانها من الأهالي أو بالقرب منها، ولم يكن له في الغالب اسم يدل عليه عدا اسم القرية، ولكن المستقر كان في بعض الأحيان يطلق على نفسه اسـم الموظـف الـذي أنشـأه أر اسـم المدينـة أو الحـي الإغريقـي الـذي أصـادف أن جـاء منـه معظـم المستقرين. وكان نظام الإقطاع العسكري عند السلوقيين أنجح كثيرة منه عند البطالمة.

والفرق بين المستقر العسكري والمدينة شي، كيس تحديده بالأمر السهل:. ولا بقدم إلينا كتاب الإغريق كبير عـون في هـذا الصـدد يوذا لأن غـالبيتهم يطلقـون لفظـة مدينـة (polis) علـى أي شـي يجدونه كما أن بعضهم قد يسمون المستقر العسكري فرية لأنه كان غالبا ما يحمل في البداية اسم قريبة.. ولم يكن الإغريق قبل الإسكندر يعرفون شيئا سوى المدينة (Polis) والقرية ((kone). ولكي

يصبح المكان مدينة وجب أن يستمتع بالحكم الذاتي وأن تكون به منظمات معينة وعناصر أخرى لضمان الحياة الجماعية المشتركة. وكان الحد الأدنى الذي لا يستغني عنه من تلك الحياة هو انقسام المواطنين إلى قبائل، وقيام مجلس مختار من هذه القبائل، ووجود.. موظفين عموميين ينتخبون أو يعينون بالقرعة، ووجود أراض خاصة بالمدينة تم قوانينها وماليتها. و كان هناك على الجملة – وإن لم يكن ذلك أمرا ضرورية – سور بمحيط بالمدينة وجمعية عامة تضم شمل الأحرار وأقسام صغرى محلية لأرض المدينة في الأحياء (**Demes**). فإذا اجتمعت مجموعة من البيوت بغير هذه العلامات كو نت قرية، ولا علاقة لذلك بالرفعة والمساحة مطلقة.. ولعل الإغريق كانوا يرون أن بابل ومنف وأورشليم لم تكن في الحق إلا قرى، وإن استثنوا من ذلك استثناء واحدا عند البرابرة: حيث اعتبروا الدن الفينيقية الشديدة التنظيم مدنا حقة، كما أن أرسطو أدخل دستور قرطاجة فيها ذكر من دساتير المدن الإغريقية. ولكن الذي حدث. بعد الإسكندر أن ذلك التناقض القديم و الذي يفرق بين المدينة والقرية لم يعد ينطبق على الوضع القائم حيث زالت القوارض رويدا رويدًا حتى اختلط الشيئان، ونشأت أشكال جديدة وسط بين الأمن، حيث ظهرت أشكال جديدة مثل الجالية (**Politaume**) وهيئة المستوطنين (**kalaikoi**) لتجدد مجتمعان ذات نظام فيه شيء من شبه الاستقلال والحكم الذاتي يقل عن. استقلال المدينة، ويسمى أعضاء هذا النظام الأخير باسم المستوطنين (**katoikai**). وكان الجالية (البوليتيما). مركز دينى المدينة تماما، وربما كان لها مجلس وموظفون عموميون، و كانت لديها وسيلة تضم بها إلى المدينة هيئة من الأجانب دون أن تحملهم مواطنين أحرارة. وفوق. هذا فان مراكز كبرى للأهالى الوطنيين أخذت هي الأخرى تسمى مدن، وإن أطلق بعض الحذرين من الكتاب مثل إيزيدور وإسترابون لفظ مدينة القرية (**komopolis**) على أية مدينة أهلية ليس لها نظام يستطيع اليوناني فهمه. ونحن نجهل على وجه العموم حال المدينة الأهلية الخاضعة قبل طبعها بالطابع الهلينستى.

ويعتقد العلماء بصفة عامة أن مستوطني المستقر العسكري كانوا يسمون كاتويكيين (**katoikoi**) وهي كلمة نافعة كان لها أكثر من معنى واحد. ولم نكن مدن الإسكندر نفسها وهي الإسكندريات مدنًا ((**poleis**) إغريقية عادية، وإن أصبحن كذلك في ظل السلوقيين، بل كانت شكلا جديدة قصد به إسكان أناس من أكثر من جنس واحد أو ربما، كانوا يؤلفون مجموعة من جاليات (پوليتانا) يكون الإغريق فيها أم بعنصر، وكانوا رمايا خاضعين لولاة من قبل الملك، كما أن

الإغريق المستقرين بها كانوا يرفضون أن يمدوا هذا النظام منطويا على شيء من الحياة الهلينستية والأسلوب الهلالينسنى. وكانت المستقر العسكرية عند السلوقيين يتوافر لها شكل ما من أشكال. الحكم الذاتي على يد الموظفين المعينين فيها كما أنها كانت محصنة، و لا زادت رقعتها اتساعا زاد اقترابها شيئا فشيئا من شكل المدينة (**polis**) وصورتها، كما أن كثيرا منها حققت في آخر الأمر أمنيتها وأصبحت مدن كاملة الاتساع. وكان ذلك يستلزم على الأقل موافقة الملاك وربما استلزم أيضا شيئا من إعادة تعديل الوضع من جانبه. مثال ذلك أنه عندما أصبح المستقر العسكري بسوسا يسمى سلوقية على نهر البولانوس، فلا شك أن الاسم الجديد الحاوى لاسم العائلة المالكة لم يكن في المستطاع إطلاقه إلا بإذن من الملك المتربع في الحكم. بيد أن المستقر العسكري بعد أن يصبح مدينة كان يحتفظ بما فيه من أنصبة من الأرض (**kleroi**) المخصصة للجند، كما يتضح فيما بعد من الحال في دورة الواقعة علي الفرات، على حين أن مكانا يؤسس مباشرة كمدينة لم يكن به أنجية من الأرض للجند. ومعنى ذلك أن للمواطنين الذين يحتلون الإقطاعيات (**klero1**) من الأراضي المخصصة للجند كان لا يزال في الإمكان استدعائهم للخدمة العسكرية، في حين لم يكن في الإمكان استدعاء نظرائهم بمدينة بدأت كاملة التكوين. مثال ذلك أنه عندما أظهرت النقوش التي عثر عليها بسواء أنها كانت ندى مدينة إغريقية وأنها مع ذلك كان بها أصحاب إقطاعيات من الأراضي المتخصصة الجند (**kleroi**)، ظهر أنها كانت يوما ما مستقرأ عسكرية ثم حولت إلى مدينة (**Polis**) وتغير اسمها على يد أحد الملوك، وغني عن البيان أن المدينة الإغريقية قديمة كانت أم حديثة –كانت المالكة المطلقة لأراضيها، في حين أن المستقر العسكري لم يكن كذلك. ويبين قانون الوراثة الرعي في دورا بوروبوس، الذي يرجح أنه قدم جدا، وإن كانت النسخة الموجودة فلا عندنا أحدث عهدًا، أن صاحب الإقطاع وإن كان يحق له أن يتصرف في نصيبه على الدوام و كان يستطيع أن يبيع ذلك الحق المكتسب أو يهبه للغير، إلا أن الملاك كان مع ذلك الملك النهائي، وذلك لأنه كان في حالة وفاة أحد الأفراد بلا وصية يحتفظ بحق الاستيلاء على الأملاك عند عدم وجود ورثة. ولذا فمن الجائز تماما، وإن لم يكن في المستطاع القطع به في الوقت الحاضر، أن الفارق الأساسي بين المدينة والمستقر العسكري لم يكن مرده سمة الرقية ولا درجة الحكم الذاتي بقدر ما كان مرده امتلاكها لأرضها أو عدم امتلاكها لتلك الأرض.

ولو تركنا المدن الإغريقية وشأنها وأمعنا النظر في المدن السلوقية الجديدة في آسيا التي لها نظام

المدينة المألوف، وجدناها تتقسم إلى قسمين، أو لها ما كان إفريقيا في جوهره وثانيها ما كان أمية بحنا، وسنبحث العنف الثاني من فورنا. والكاتب الوحيد الذي يمكن الاعتداد به والثقة في استخدامه لكلمة مدينة (**polis**) هو إيزيدور الخراكسي. وذلك لأنه ينقل عن البيانات المساحية البارنية الرسمية، وكثيرا ما يكون استرابون حريصًا ودقيقًا ولكنه لا يلتزم تلك الدقة على الدوام بأية حال. ومن ثم يجوز لنا أن نعد كل. مكان بالإمبراطورية بحمل اسمه إغريقيا أو مقدونيا (مع استثناء ممكن ولكنه غير مرجح هو بوروبس (**Europus**) مسقط رأس سلوقوس أما مستقرة عسكرية اتسعت رقمه وإما مدينة كان بها إقطاعيان عسكرية (**Klerni**)، مثل سوسا (سلوقية على اليولايوس) أودورا يورويس كانت في البداية مستقرة عسكرية. ولكن يصح أيضا اعتبار كل مكان بحمل أحد الأسماء الأربعة للأسرة المالكة سلوقية وأنطاكية المسماة (على اسم أنطيوخوس والد سلوقوس)، ولازدكيا (على اسم والدته) وأياميا (على اسم زوجته الإيرانية)، أنه كان مدينة إغريقية إما أنها كانت مُنذ البداية عن إنشاء أجد الملوك وإما مكانًا أطلق عليه ملك اسما جديدا مثلما كانت عليه سونا. وأن المدن ذات الأسماء المقدسة مثل أرتينا و مراقليا، ربما كانت هي الأخرى مؤسسات ملكية أيضا، ولكن التسمية سرعان ما أصبحت شيلة عسيرة بالنسبة لوجود هذا العدد الضخم من الأسماء الملكية، مثلا كان الحال بإزاء إسكندريات الإسكندر السبع عشرة. والواقع أنه فما ينطق بالمدن السلوقية كان الاسم الرمي يحتوي كل حالة على إضافة جغرافية، وذلك كما هو معروف من أن اليوناني من أبناء سلوقية – سوما كان من الناحية الرسمية يسمي نفسه لا باسم السلوقي بل باسم و السلوق من النازلين على اليولا بوسه، ولكن تحديد الموضع في الاستعمال اليومي كان من المحال، ولذا اكتسبت كثير من المدن السلوقية (بل ربما جميعها تقريبا) كانت (أي أسماء شعبية)، وذلك هو ما فعلته كثير من الإسكندريات. وغني عن البيان أن عددا عظيمة من هذه الأسماء الشعبية العديدة الأنواع لا تزال معروفة إلى اليوم، كما أنها غالبا ما تعمل في المصادر الأدبية معمل الأسماء الرسمية وتقصيها إقصاء قامة، وهو أمر جلب على الكتاب المعاصرين الشيء الكثير من الارتباك قبل أن يتم اكتشاف هذه الطريقة.

وليس في المستطاع دائمة معرفة أعمالي و آثار أي فرد من الأسرة السلوقية. ولكن يمكن القول إجمالا إن تنظيم المدن بشمالي سورية وإقليم بابل وما حولي الخليج الفارسي رجع إلى سلوقوس قبل كل إنسان، وإن التنظيم بإيران يعود الفضل فيه إلى أنطيوخوس الأول. وإن الفضل فيما يوجد بآسيا الصغرى من مدن يعود إلى أنطيوخوس الأول وأنطيوخوس الثاني، مع توسع ملحوظ في تلك الجهود

يقيليقية والشرق ينسب إلى أنطيوخوس الرابع ابيفانز، حيث غالبا ما تميز مدنه باسم "إبيفانيا". وإليكم أمة موجزة بأسماء المدن السلوقية الرئيسية. فإن سورية الشمالية العامرة من قبل بالمحتكة من جند أنتيجونس وقواده أصبحت في ظل سلوقوس مقدونيا ثانية، فهنا كانت توجد بيريا جديدة و كور هستيكى، كما كانت توجد وراء الفرات ميجدونيا جديدة، وهنا كانت تقوم المدن الأربعة العظيمة للمياه على اسم سلوقوس، وقد صار لأنطاكية عاصمة الإمبراطورية الواقعة على نهر العامي (**Orontes**) (الذي كان صالحا الملاحة في تلك الأيام أربعة أحياء كبرى لكل منها سوره داخل سور المدينة العام. فقد بنى سلوقوس بالمدينة الحي الأول وشاد سلوقوس الثاني الحي الثالث، كما أقام أنطيوخوس الرابع الحي الرابع. ولم تصبح أنطاكية في يوم من الأيام مركزة العلمي وهي إن أصبحت مركزًا تجاريا عظيما فقد كانت شهرتها دائما أنها مدينة ملذاته كما ساءت مهمة حديقتها الكبرى دافنى (**Daphne**)، وقد كتب بوسيدونيوس وهو من سكان أياميا المجاورة ينعي على السكان الإغريق السوريين ما ينغمسون فيه من نرن. وبالقرب من مصب نهر العاصي يقع البناء الحصين وهو سلوقيا الواقعة عند سفح جبل بيريا، وبها مقابر الأسرة المالكة وهي ترتفع أروع ارتفاع عن البحر في درجات بعضها فوق بعض منبسطة في صخرها العظيمة ونعيد.حجرة مخروطيا، ورثته عن عالم أقدم منها، وإلى الجنوب تقع على البحر لاؤديكيا (اللاذقية)، كما تقع في المجرى الأوسط من العاصي وفي سهلي مليء بالأبخرة مدينة أياميا ترسانة السلوقيين التي حلت محل بلا (**Pella**) التي شادها أنتيجونس. وهنا كانت توجد أحياء الفيلة والإسطبلات العظيمة لكرائم الخيل. و فضلا عن هذه المدن الأربع اكتظت المنطقة بالمستقرات الممتدة حتى لاؤديكيا اللبنانية وهليوبوليس (بعلبك) بالقرب من منبع نهر العاصي، وكانت المدن الموجودة في الناحية الشرقية أكثر عددا، وهي المجتمعة حول بيرا (حلب) على نهر خالوس، على الطريق من أنطاكية إلى هيرابوليس – بامبيكى (مبوج وحول مدينة خالكيس (**Chalein**) الموجودة دون ذلك جنوبا، كما توجد في الشمال مدينة باسم أنطاكية الموجودة في كورهستيكى. و كان خط مديد من المدن يقع على حافة الفرات، منها دورا التي أعيد بناؤها تحت اسم سرويس وثايساكوس التي جددت باسم أمفيبوليس، وإلى ما فوق ذلك بمالا كانت مدينة باسم أباميا تحمي كوبري الزوارق المقام قرب زيوما، التي خلت محل ايساكوس وصارت منطقة العبور الطروقة. و كانت تقوم بشال أرض الجزيرة عدة: مدن من بينها مدينتان شهيرتان، ما أنطاكية (نصفين) بميجدونيا، وأنطاكية إدسا (الرها) بوادي الأورفة وفي القرن الثاني انقلب اسم حماة إلى إبيفانيا، وأصبح بيروت لاؤديكيا في اللاذقية)، كما ظهرت مدينة باسم أنطاكية على بحر الجليل، هذا

إلى أن مدينة أورشليم أطلق عليها اسم أنطاكية فترة من الدهر في (الفصل السادس).

كان سلوقوس بعمل في إقليمى بابل وسوسيانا بوحي من أفكار الإسكندر فيما يتعلق بالخليج الفارسي، وذلك هو نفس النهج الذي يرجح أن ليسيماخوس قد اتبعه فيما يتعلق بالبحر الأسود، وكانت أعظم مدينة هنا أول شي، شيده سلوقوس، وفي مدينة سلوقية على الدجلة أسفل بغداد بمسافة قصيرة، وقد حلت في الأهمية محل بابل، وأصبحت سوس مدينة سلوقية على اليولا بوس ورد ذكرها من قبل)، و كانت هنالكمدينة أخرى باسم سلوقية با قلم سوسانا على الميديفون وثالثة على البحر الإريتري [1] (أو بالأحرى الخليج الفارسى) وهي موطن سلوقوس الفلكي (نفس هذا الفصل). وكانت هناك مدينة باسم أياميا في مسني، كما كانت تقع أعلى بغداد أمامية أخرى و أنطاكية أخرى ودورا أخرى، وعلى قرب من التلال السوسية، حيث يتشعب الطريق الرئيسي الممتد شرقا من سلوقية، كانت تقوم مدينة أرعبنا العظيمة الشأن.

وهناك مدينة الإسكندرية الواقعة على مصب الدجلة والتي سميت فيما بعد خاراكس اساسينو، وقد أعاد بناءها أنطيوخوس الرابع باسم أنطاكية، على أن الأماكن الثلاثة المعروفة على الجانب العربي من الخليج وهي لاريسا وخالكيس وأرينوسا لابد أنها كانت مستفرات عسكرية، وثمة مستقرات أخرى معروفة على الخليج. وقد دمر أنتيجونس الأول مدينة بابل، وفي ٢٧٥ نقل أنطيوخوس الأول البقية الباقية من سكانها المدنيين ولم يترك بها إلا المعبد، والراجح أن إعادة تشييدها من جديد كمدينة إغريقية كان على يد إيفانيز.

وكذلك أيضا اصطبغت أوروك وفي ورقة (**Warka**) بالصباغ اليوناني بصورة جزئية وتسمت أورخوى (**orehoi**)، ولكنها على الرغم من ضخامة عدد سكانها اليونان كان بحكمها موظفوها العموميون من الوطنيين ما لم يكن لها فيما يلوح أي شكل من أشكال المدينة اليونانية.

أما عن إيران فقد أنشلت في ميديا طائفة جمة من الشبان قصد بها في قصد كبح جماح القبائل الجبلية – منها يوروبس راجاى قرب طهران وأباميا عند البوابات القزوينية بإقليم ارثيا مدينة هيكانومبيلوس وأربع مدن أخرى، وأنشئت في برسيس مدينة أنطاكية على الخليج الفارسي (ولعلها بوشير)، وربما أنشئت مدينة باسم لاؤديكيا، وإن كان الشعور الوطني قوية والملوك الكهنة الوطنيون أجداد الأسرة الساسانية لا يزالون يحكمون في برسبوليس (إصطخر). وقد أدت الغزوة العظيمة التي

---

(١) البحر الإريتري هو البحر الأحمر. (المترجم)

قامت بها قبائل السماكا قرابة ٢٩٣ والتي لملاهي السبب في أن سلوقوس بث بابنه أنطيوخوس (الأول) الحكم الشرق، أدت إلى تدمير ثلاث على الأقل من الإسكندر بات ميخوننـد (Chodjend) ومرو وتارمينا (ترمز) على نهر جيحون (أموداريا). وكلها أعاد أنطيوخوس بناءها من جديد باسم أنطاكية، ولعله بني مدنًا أخرى كذلك لولا أن النصوص هنا نستعصي على كل حل وتفسير. وأخيرا حول اسم سوم إلى سيلوكيا على اليولابوس على يد أنطيوخوس الثالث (فيما يحتمل). كما أن إبيفانيز أعاد بناء مدينة إكيانانا وسماها إيفانية.

وفي آسيا الصغرى كان الطريق الرئيسي بين سورية وأيونيا موضع عناية كبيرة. وعند ملت الطريق الآني من ميلينيني (Melivene) مخترقة مزاكا الكبادوكية بالطريق الآتي من طرسوس خلال أيكونيوم،. كانت تقوم مدينه لاؤديكيا وتكنى (المحروقة) وتسمى كذلك بسبب أفران مناجم الزئبق الموجودة قرب رزيما، وتقوم في الجانب الغربي المدينة العظيمة أباميا –كلاىناى المسماة و الفلك،، وهو اسم مجهول المنى أذى بها في النهاية إلى وضع صورة فلك نوح على عملتها، وإلى ما وراء ذلك غربة على نهر ليكوس، حيث يفترق الطريقان المؤديان إلى إفسوس وساردس كانت تقوم لازديكيا أخرى. وكانت هذه المدن في المراكز الرئيسية للأسفار والمواصلات. وكان هناك طريق يمتد جنوبي من لا وديكيا المحروقة ويبلغ البحر عند سلونا (سيليفكيا Selefkia) على نهر كاليكادنوس، وآخر عند شمالا بجوار فيلوميليوم وسينادا إلى نيقيا ونيفوميديا بإقليم يتبنيا. وكانت الطرق تمتد من أياميا كيلايتاي إلى أنطاكيا وأبولونيا وسلوقية (الحديد)، وفي مدن حراسة على الحدود الفاصلة عن بيسميديا المستقلة، وكان هناك طريق يمتد جنوبا من لازديكيا على الليكوس مخترقا كيبورا الوطنية إلى ساحل بامقيليا. وعند هذه اللازديكية –كان الطريق الرئيسي بتفرع، فيتجه طريق إلى ساردیس ويواصل مسيره شمالا إلى نياطيا السلوقية التي يمتد عنها طريق إلى برجامة وآخر يسير شمالا مارة باستراتونيقيا على نهر الكايكوس إلى كيزيكوس. وبسير الآخر إلى إفيسوس مارة من خلال أنطاكية على الميانذر وأنطاكية – نيسانم سلوقية – تراليس، وكان فرع منه يسمر جنوب مارا بأنطاكية ألا بندا إلى استراتونيقيا بكاريا. وقد أعيد تنظم وتسمية كثير من المدن القيليقية في عهد الملك إيفانز، وإن كنا نعتقد أن القول بأن خمسين مدينة يونانية كانت معروفة هناك فيما بعد، فيه شي. من المبالغة؛ وأصبحت كل من مالوس وأدانا (قطة) تسمى أنطاكية، كما صارت موبسبوستيا تسمى سلوقية، وأصبحت طرسوس التي تسمت أنطا كية من قبل في القرن الثالث مدينة جامعية هامة فيما بعد.

ومن المحقق أن المدن السوقية الجديدة كانت تدفع الضرائب، وذلك لأن قدرة عظما جدا من أرض الملك (الدولة) كانت تنتقل إلى ملكيتهم وتصبح أرض مدن بحيث لم يكن في وسع الخزانة العامة أن تتحمل ما يصيبها من خسارة في ضرائب الأرض لو لم تكن تتلو ما يعادل تلك الضرائب. و كان بعض هذه المدن تحت حكم ولاة مدنيين (**Epiatatai**) مسئولين أمام الملك، ومع ذلك الواقع أنهم لم يرد ذكره إلا مرتين، في كل من سلوقية في سفح جبل بيربا وسلوقية على الدجلة فضلا عن «سيد المدينة و البابلي بأوروك. ومن الجلي أنه كلما كان هناك عدد كبير من السكان الوطنيين، كان من المرغوب فيه وجود سلطة أخرى فوق موظف المدينة العموميين، ولكن الواقع الذي جرى به المملبأنطاكية في برسيس، أنه إذا كان هناك وال مدنى (**Epislated**) فانه لم يكن السيطرة على الجمعية العامة من الأحرار، أن المدينة كانت تؤرخ نوارها بعام كا من عبادة للسلوقين و ليس بالعصر اللون. حتى إذا بدأت الأسرة في الاضمحلال نجحت المدن السورية شيئا فشيئا في الحصول على قسط كبير من الاستقلال. فلم تكد تحل ١٤٨ – ١٤٧ حتى كانت المدن السورية الشمالية الأربع قد حصلت على قدر من الاستقلال كان لكى تكون مخالفة لتبادل النقد والعملة بين الشعوب الشقيقة، وعندما كانت تنشب الحروب الأهلية بين أفراد الأسرة المالكة، كانت المدن السورية تقوم بدور هام باعتبارها عنصرًا سياسية، فتساعد هذا و المتنازع و أر ذاك، ومُنذ (١٤٠) فصاعدا كان الكثير منها يحصل من بعض الملوك، ثمنا لما يقدمه إليهم من مساعدة، على لقب «المقدسة التي لا تنتهك حرمتها، (الفصل الثالث). ومعنى ذلك حصانتها من كل هجوم يصدر منه عليها وأن يكون لها الحق في إيواء من أساءوا إليه، كما أنها كانت تبدأ في سلك عملتها مستخدمة في تاريخها الحقب التي نالت فيها حريتها.

وفضلا عن المدن والمستقرات العسكرية، ربما كانت هناك بعض. المستوطنات المدنية بآسيا الصغرى، وإن لم يرد ذكرها في المراجع حتي الأزمنة الرومانية، كما أنه ليس في الإمكان التفريق بسهرة بينها وبين القرية الوطنية المتطورة، التي كانت تعمل على الدوام نحو الحصول على مظهر من مظاهر التماسك. وفي ظل هذا النظام لا يعود القرويون يسمون أشباه رقيق الأرض (**Laoi**)، بل بسمون بتلك اللفظة النافعة و المستوطنون» (**Katoikoi**). وهنا كانت المدن الإغريقية القديمة تقدم المعاونة، وذلك لأن الفلاحين كانوا في مناطقهم يميلون أن يصبحوا مستوطنين (**Katoikoi**) (الفصل الرابع). وذلك يتضمن وجود ضرب من الحكم المحلي في القرى، مهما يكن بدائية في أول الأمر. ولا مراء أن ذلك الوضع نقسمه كان يحدث في مناطق المدن الإغريقية الجديدة. وكان ذلك بمثابة درجة ارتفاعها

قدر الفلاحين، كما يتبين من أن بومينيس الثاني صاحب رجالة رد بعض المستوطنين (Katoikot) ثانية إلى مرتبة أشباه رقيق الأرض (Laoi)؛ وقد سبق أن لاحظنا نمو الحكم المحلى بعض القرى الوطنية بشمال سورية في الفصل الرابع هامش). والحق إن من أم وأبرز الظواهر التي تتميز بها الحقبة المنوفية استمرار النمو والتقدم في الأوضاع والأشكال السياسية المتنوعة، واستمر هذا التقدم دون عائق يعوقه حتى الأزمنة الرومانية، حيث كانت القرية الوطنية غير المحددة الشكل آخذة في أن تصبح مستوطنة، قد يتحول بدوره إلى مدينة هللينستية. و كانت القرى التي بطبق عليها هذا التنظيم تتجمع بعضها مع بعض في النهاية، وربما كان ذلك مع شيء من المحاكاة للأشكال الإغريقية – مكونة رابطات أو أحلافا ترجع أصولها إلى المصور السلوقية. ومن هذه الرابطات ما كان بسمي باسم الكابسـريانيين (Caystriani) أو الهيجـاليين (Hyrgaleis) أو الهيبتـا كـي ميتـانين(ذوي القـرى السـبع) (Heptake metai) أو البنتيـديميين والأحيـاء الخمسـة) (Pentedemii) وكثير غيرها. ومنها ما كان يصل في النهاية إلى مرتبة سك العملة، وهو حق. كان في العادة مقصورة على المدن. وبدهي أن تطور القرية إلى مدينة "مهلة لم يكن جديدة جدة مطلقة، كما أن هذه العملية نفسها كانت مرعية في بعض بلاد اليونان أيضا مثل أيطوليا، بيد أن القرية الأيطولية كانت تختلف اختلافا بليغة عن قرية سكانها من موالى الأرض الفريجيين، أما الشيء الذي كان لا نظير له في حم السلوقيين فهو نطاق تلك العمليات. فلو أتيح الزمن الكافي للعمليات الجارية في آسيا الصغرى وشمال سورية، لكانت النتيجة النهائية أن تصبح الملكة كلها مكونة من مدن يقع في تخومها نطاق من الأرض وتستمتع باستقلال ذاتي، و كلها تحت سيادة ملك رب يتولى شئون الأمن و يدبر السياسة. ولسنا ندري هل كان السلوقيون الأول رون هذا الرأي فعلا أم لا. ولكن الشيء المحقق هو أن روما. كانت تري ذلك، كما أن الطريقة التي حاولت روما بها أن تسجل بالأمور توحي بأن الفكرة هلينستية. وذلك لأن بومبى حاول أن ينفذ هذه الفكرة في بعض الأماكن بجرة قلم بعد أن تغلب على ميدانيس ووجد نفسه قادرة على عمل أية تسوية بنائها، وهكذا قم بنطش إلى إحدى عشرة مدينة إقليمية، ولم تكن. بين هذه المدن الإحدى عشرة سوى ثلاث إغريقية هي: سينوبي وأميسوس وأماسيا. وكان باقيها مدنة أو قرى وطنية حولت إلى مدن إغريقية رومانية مثل و بو انورا – ما جنو بوليس، أو د كابرا ديرسبوليس)، ثم إنه أنشأ بالمثل اثنتي عشرة مدينة إقليمية في بيشينيا. بيد أن الإمبراطورية الرومانية كانت تقنع بعطور أبطأ وأدى إلى الطبيعي، دأبه أن يكون غير منتظم الشكل. ذلك أن أية مدينة قد نضمحل ونعود فتصبح من جديد قرية

وربما جاز لنا أن نعرض علياء حالة تمثل مبلغ تعقيد أوضاع أشكال المدن الهللينستية بآسيا. ذلك أن كاريا كان بها حلف ديني قدم من القرى الوطنية التي كانت تعبد زيوس ذا السيف الذي **Chrysorena**، وثم قرية هي ألا باندا أعيد بناؤها باسم أنطاكية، ومع أنها أصبحت عندئذ مدينة يونانية إلا أنها ظلت عضوا في هذا الحلف الكاري، وهناك مدينة جديدة هامة في استرانونيقيا. وقد ضمت إليها بعض هذه القرى كأراض تابعة للمدينة، فأصبحت أحياء (**emes!**) لها، وعن طريق هذه الأحياء أصبحت هي أيضا عضوا في الحلف. وكان اسم أحد: هذه الأحياه و باتامارا»، (**Panemara**)، وكان يعبد زيوس طوال النهار، وقد بلغ به القدم في التنظيم مرنية جعلته يصدر المراسيم ومنح مواطنتيه، أي ومواطنيه الحي، للأجانب، وما فعلته بعض الأحياء في هذا الصدد أنها و هيت مواطنتيها المواطنين من مدن أخرى منهم بعض أبناء استراتونيقيا، وفي المدينة التي كان اليونان يعدونها جزها منها.

فلا عجب أن استرابون كف عن محاولة العثور على اسم يوناني يعبر عن وصف هذا الحلف الكاري القديم على ما عرفه، والتمسي النجاة لنفسه حيث سماه **system** "نظاما" ما.

فإذا انتقلنا الآن إلى الدور الذي كان يلعبه الآسيويون في عملية التوطين السلوقي، وجب على المرء أن يميز أولا المدينة (**polis**) التي كانت إغريقية في منظم أمرها، من تلك التي يغلب عليها الطابع الآسيوي. وهناك مدن جديدة تبدر إغريقية صرفة مثل أنطاكية في رمسيس (بوشير) وهي التي استوطنتها بالنيابة عن أحد ملوك السلوقيين مدينة ماجنيزيا الواقعة على الميانـدر. ولكن الأمعاء اليونانية لا تدل على الشيء الكثير، وذلك لأن الفينيقيين قد أخذوا يستخدمون تلك الأسماء بعد (٣٠٠) بفترة وجيزة، كما أنتهج كثير من الآسيويين ذلك النهج بقه، ثم سمحت بعض المدن الإغريقية، القديمة منها والحديثة، بدخول بعض أفراد النخبة المختارة من الأسيويين في مواطنيها حتى في القرن الثالث تقسمه (حيث كانت هناك سوابق قديمة، وذلك لأن الدم الكارى والليبي كان شديد الانتشار بين مجاميع السكان المواطنين في ميليتوس وقيرنية). وهكذا سجلت أسبندوس في قبائلها بعض المرتزقة الأسيويين. ذرى الدماء الخلطة، ومنحت أزمير حق المواطنية لجماعة من جند الفرس، وكان باستراتوثيقيا أحياء (وقد سبقت الإشارة إليها)، أما ساردیس التي لم يكن لها في أثنا القرن الرابع إلا منظمتها الوطنية، فقد أصبحت مدينة (**Polis**) في أثناء القرن الثاني. وليس من المعقول أنه لم يكن بها عدد من المواطنين الليدين، شان سلجى (**selge**) التي اخترعت لنفسها أسطورة إغريقية قديمة

تتحدث عن تأسيسها. ولا شك أنه كان بها كثير من اليسيدين، كما كان بالمدن الليقية المهلنة كثير من الليقيين، ولا بد أن أنطاكية – طرسوس، أيضًا كان بها كثير من المواطنين الوطنيين، على حين أن برجامة منحت في (١٣٣) حق المواطنة للأسيويين بالجملة في (نفس الفصل الرابع).

على أن منح حق المواطنة الفعلي للأسيويين لم يكن فيها بلوح هو الصورة الألوفة. وتشير جميع الاحتمالات إلى أن الطريقة المألوفة لانضواء الأسيويين في مدينة إغريقية في نظام الماليات (**Politeuma**) وهو المعروف بآسيا فيا بدر باسم نظام المستوطنين (**Katoikia**) (نفس الفصل). وكان معنى ذلك وجود هيئة منظمة تتألف من الأجانب. مثال ذلك الجالية السورية (**Politeuma**) في سلوقية أو الجالية اليهودية في كثير من المدن، و كلها كان لها حقوق سياسية محددة أدنى من حقوق المواطنية ولها منظمتها الخاصة، ولها هيئتها الخاصة من الموظفين العموميين، أو من هم في مرتبتهم، ولكنهم لم يكونوا جزءا من كان المدينة، حيث كان الإغريقي وحدهم هم المواطنون، فهم و الأنطاكيون أو السلوقيون، أو أي نوع آخر، كما أن الموظفين العموميين من اليونان كانوا يتولون شئون جميع السكان فيما يتعلق بأمور من أمثال الأغذية أو الصحة العامة.

فإذا كان هناك هيئة ضخمة من الأهالي الوطنيين، فربما حلت المشكلة الأهلية على أوجه كثيرة عدا المواطنية أو نظام الجاليات (**Politeumnata**). وكان لا بل المجددة مسرح (مدرج) بوناني وجمنازيوم ومنظمة مدنية، ولكن مناشط البابليين الدينية والعلمية تواصلت، رغم وجود تلك الأشكال اليونانية مثلما تواصلت بمدينة أوروك التي لم تكن فيما يبدو مدينة (**Polis**) يونانية (نفس الفصل). وحافظت سلوقية على طابعها الهللينستي حتى النهاية، ولكنها امتصت أيضا سكان بابل الوطنيين؛ وحلت محل أوبيس (**opis**)، وهي مدينة علية كبيرة. ولما كان مجموع سكانها الكلى يبلغ في النهاية سمانة ألف نسمة، فلابد أن يكون بها بصورة ما عدد ضخم من المكان الوطنيين خارج الأسوار. يد أن أوبيس ظلت محتفظة بكيانها منفصلا، كما ظلت مركزة هامة التجارة أمة بذاته مثلما حدث في أبولونيا تجاه بيسيديا أن ظلت المدن العراقية والبقية منفصلة. وربما كانت أو بيس بمثابة القرية التابعة الملحقة بسلوقية. ولكن سلوقية أصبحت من ناحية ما مدينة مزدوجة، وذلك لأن بعض قطع عملتها تحمل صورة ربي مدينة ذات أبراج وقد اشتبكت أيديهما. والعادة أن الربة الثانية نور ممثلة لمدينة طيشفون (**Clesiphon**) القديمة، و لكن ربما جاز أنها أوس باعتبارها ممثلة لسكان سلوقية البابليين. ومعنى هذا أن العمالة وما كانت تمثل بصورة أوسع الصداقة بين الإغريقي والبابلي. وربما كان هؤلاء السكان

الوطنيون أحد الأسباب (حيث تكون الأسباب التقليدية في وحدة الوطن وقرب الجوار) التي من أجلها يسمى السلوقيون في أغلب الأحيان بابليين، فيعود ذلك بالارتباك على العلماء المعاصرين. وعلى نفس هذه الشاكلة كان سلوقيس الفلكي الإغريقي ينعت بالكلداني (نهاية الفصل الرابع)، وهو من سيلوفيا الواقعة على الخليج الفارسي، على أن أنطاكية (العاصمة) كانت تختلف مع ذلك هي الأخرى. فان مدينة الملك سلو قوس كانت إغريقية – مقدونية بحتة، ولكن أنطاكية وجد بها فيما بعد عنصر سوري ضخم، وربما كان هذا تفسير.. اللحى الثاني الذي استغلق أمه علينا، والذي لم يكن له أي مؤسس حقيقي. وكان السوريون يسكنون خارج الأسوار، ثم عميد القائمون بالأمر بعد ذلك إلى إدخالهم فيها وإحاطتهم بالسور الثاني: ولعلهم كانوا يكونون جالية (**Politeuna**) كالجالية السورية بسلوقية، ولكن المرء لا يستطيع أن يجزم في هذا الصدد برأي وربما كانت أنطاكية – إدسا (الرها) التي تنعت بأنها. شبه بربرية – من نفس هذا الطراز، وكذلك شأن أنطاقية تجاه بيسيديا، ومع أنها كانت مدينة إغريقية إلا أنها احتاجت إلى أن يؤسس بقربها مزار مقدس منفصل لرب من الأسكيني (**Men Askaonos**) (انظر الفصل العاشر)، وهو أمر يشير إلى وجود حمي وطني كبير مُنذ البداية. وثمة مدينة وطنية قديمة في مدينة أرادوس الفينيقية تحظى بامتيازات استثنائية جدا من سلوقوس الثاني، منها الحق في إيواء اللاجئين السياسيين.

وفضلا عن هذه الظواهر كانت هناك أيضا مدن جديدة لم تسم إلا بأسماء وطنية. ويذكر إيزيدور الخاراكسى عددًا منها يقع معظمة في شرق إيران. ولما كان ينقل إلينا ما سجلته البيانات المساحية البارثية الرسمية عن المواقع في زمن يقارب ١٠٠ق.م، انه إذا سمي مكانة باسم مدينة (**polid**) كان ذلك المكان مدينة نيلا. ولا بد أنه كانت هناك مستقرات عسكرية شرق الفرات إما مختلطة الأجناس و إما أسيوية صرفة (وذلك لأن السلوقيين كانوا يستخدمون بعض الجند الأسيويين) مثل المستقر القائم بأفرومان بكردستان (نفين هذا الفصل، هامش)، حيث كانت الإغريقية هي اللغة الرسمية. بيد أن جميع من ورد ذكرهم كانوا من الآسيويين. على أن هذه المستقرات العسكرية قد تمت فصارت مدنًا ذات أمعاء وطنية، فلو فرض أن بعض الإغريق كانوا بتلك المدن، فلابد أنهم كانوا يعيشون تحت حكم الحكومة المحلية للمواطنين الآسيويين مثل إغريق سيرنكس **Syrinx** في ميركانيا (**Hyrcania**) أو أولئك الذين كانوا يعيشون في الحي اليوناني بمدينة سورية لم يذكر اسمها. وهناك نقش رجع إلى القرن الأول مصدره أنيسا بكبادو كيا ربما أوضح لنا نشأة مثل تلك المدينة، ولعلها نشأت في هذه

الحالة بأمر ملك كبادو كيا. وه يستنبط. أنه كان لها مقومات المدينة الإغريقية المستكملة، و كانت لغتها الرسمية في اليونانية. بيد أن جميع من وردت أسماؤهم من الرجال كان لهم إما أسماه كادر كية وإما كانت أسماء آبائهم كبادوكية، وكانت دار التسجيل معبد ربه محلية. والشيء الذي نشهد به تلك المدن حقا هو شدة افتتان الآسيويين بأنظمة المدن الإغريقية.

. والسلوقيون، وإن لم يكن لهم هدف معين يرمى إلى طبع سورية بالطابع الهللينستى إلا أن مجرد التجاور البيت كان له بطبيعة الحال بعض الأثر، كما أنه كانت هناك قوتان تعملان إلى جوار عامل السياسة:أولاها في القانون، ذلك أن القانون اليوناني كان يشق طريقه يساعده فيها برجع تلك السياسة التي كانت في الأصل سياسة الإسكندر دون ريب، وهي سياسة نطبق ذلك القانون على الجاليات الأجنبية بالمدن، فقد نما قانون إغريقي سورى اضطرت زوما أن محترمه، وقد تعقب المؤرخون تاريخه في سورية إلى ما وراء ذلك بعدة قرون كما أن النظم القانونية الإغريقية كانت متأصلة عميقة. وكما أن قانون مدينة الإسكندرية، وإن كان يونانية، إلا أنه ليس فيها يظهر قانونا يونانيا منقولا عن أية مدينة بعينها، فكذلك قانون الإرث الذي نقل عن دورا والفصل الرابع هامش انه بعد أثينيًا أضيفت إليه عناصر أخرى. ولكن الشيء المدهش المسترعي للأنظار هو وثائق القرن الأول، وفي عقود إيجار يونانية كتبت باللغة الإغريقية بين رجال لهم أسماء إيرانية ووجدت بلدة أفرومان، وذلك لأن هذه لم نستخرج من أي مدينة كيفما اتفق، بل من قرية نائية بكردستان الإيرانية، وكانت القوة الثانية هي اللغة اليونانية التي كانت لسانًا قاهرًا حينما حلت. و كان يستخدمها عدد عظيم جدا من الأسيويين، وكان لها موطئ قدم حتى في كيبورا الشهيرة بكرة ما بها من ألسن، و كان بعض الأسيويين يكتبون الكتب باليونانية، ومن المحتمل أنها أصبحت لغة التخاطب الشائعة والواسعة الانتشار (**Lingue franca**) بين التجار في كل مكان خلا إقليم بابل. بل إنه حدث حتى في بابل نفسها أن بعض الكهنة في القرن الأول ق.م كتب تكريسًا بالأحرف اليونانية. وبعد ذلك بفترة وجيزة كانت شواهد القبور النبطية وما عليها من نقوش تترجم ما كان لدي اليونان منها، وقد عثر على وثائق يونانية حتى في جورجيا، التي لا يكاد يصدق أن أي إغريقي زارها. وهناك ألفاظ إغريقية كثيرة مستخدمة في اللغتين السوريانية والأرامية، كما أن اليونانية طردن الألسن الأهلية طردة تامة من كل من ليديا وغرب فريجيا. ولكن مهما تكن القوة التي بلغتها اليونانية أداة توصل بين الناس ابن نجاحها كانت له حدوده، ذلك بأن فريجيا الشرقية وليكا ولبكارنيا وسورية احتفظت جميعًا بلغاتها الأصلية في النواحي الريفية،

وذلك هو طبيعة الحال ما فعلته بلاد آسيا الداخلية، فإن اللغة الفينيقية انبر حلقة الكلام في أثناء الحقبة المسيحية حتى في بيبلوس (**Byblos**) وصور على ساحل البحر، ولكن هناك نتيجة لتجاور الأجناس في الحياة والتجارة، هي ظهور ما يسمونه باسم «اليوناني بالثقافة وردو الأسيوي الذي و يتحول إغريقية» – إن جاز مثل هذا القول فيتخذ اسمًا إغريقية و يتعلم اللسان والثقافة الإغريقية فإن المرأة (الأمية الإغريقية) التي هي "في جنسها فينيقية سورية"، والتي يذكرها إنجيل مرقم إصحاح ٧:آية ٢٦ –كانت من هذا النوع. وفي الإمكان جمع الأمثلة الدالة على ذلك النوع من التحول عن طريق الثقافة بين الجانبين، وليس هنا موضع بحثها.

ومن أعظم الأشياء التي فعلها السلوقيون إدخالهم تقويمًا حقيقية. ولكنهم ليسوا أسبق الناس إلى ذلك، وذلك لأن بعض المدن الفينيقية قد سبقتهم إلى البدء في استخدام تاريخ ثابت يؤرخون به. بيد أنه كان أول تقويم عام. و كان ينطوي على تقدم عظيم في الحساب والتقويم على أساس تسمية المهود بأسماء بعض الموظفين العموميين أو على أساس سنوات حكم أحد الملوك – وهي خصيصًا بربريًا لا تزال تستخدم في التاريخ الرسمي للقوانين وإصدارها ببريطانيا العظمى. ومُنذ أجدا. الحقبة السلوقية أخذت التواريخ تحسب بأرقام بسيطة، على أنه كانت هناك صيغتان تستخدمان لتلك الحقبة، فان السنة الأولى ابتدأت بإقليم بابل بيوم أول نيسان (مارس – أبريل عام ٣١١ وهو السيد الأول للسنة الجديدة لسلوقوس بعد أن استرد مدينة بابل، ولكن التقويم كان يبدأ في سورية باليوم الأول من السنة المقدونية التي كانت دارجة الاستعمال آنذاك أي أول ديوس (أكتوبر) عام ٣١٢ وبذلك كان هناك فرق يقارب خمسة أشهر بين التاريخين، وكان التقويم السلوق واسع الانتشار في آسيا حتى عند اليهود كما أنه دام طويلا، وتستخدم فيه في الغالب أسماء م الأشهر البابلية أو الفارسية بدلا من المقدونية. وكان يستخدم في كل أرجاء الإمبراطورية البارثية وما يتبعها من مالك، وبلغ بلاد الهند، و كان (في ينال) لا زال يستخدم في بعض أجزاء من سورية في القرن الراهن.

ولو تأملنا المدى الواسع الذي بلغه الاستيطان الذي قام به السلوقيون في آسيا، أوشك أن يتعذر علينا أن نصدق أنه فشل. ولكن الواقع أنه قد فشل، فلم يصادف نجاحا إلا في أجزاء آسيا الصغرى وسورية التي أعدته فيها روما بالعون والرعاية، ولكنه لم يفشل (كما كان الناس يعتقدون فيما سبق) لأن الزواج المختلط قد جعل من الإغريق قبل نهاية القرن الرابع شرقيين مولدين يجري في عروقهم دم مشترك، والواقع أن شيئا من ذلك لم يحدث. فان اليونان كانوا يستطيعون أن يستوعبوا

القدر الكبير من الدم الأجنبي ويظلون مع ذلك. إغريقا كما تشهد بذلك ميليتوس وبرقة، أو يصبحون عناء مثل تميستوكليس وكيمون.ولكن الواقع أن الإغريق في آسيا ظلوا حتى قرابة الحقبة المسيحية يبذلون أقصى الجهد للمحافظة على نقاء دمائهم، كما أن ژبوع الأدب اليوناني بعد الفتح الباري لم يكن إلا إثبات منهم وتأكيدا لعورهم اليونانية. و قد كون الهجناء المولدون بشمال أرض الجزيرة حوالي ٥٠ ق. م. طائفة منعزلة عدت أقرب إلى البرابرة منها إلى الإغريق، كما أطلق عليهم اسم خاص ينطوي على الزراية والتحقير، و كان هناك حتى بمدينة دورا پورو پس مراقبون للسلالات والأتساب (**genearchs**)، كانت إحدى مهام وظيفتهم المحافظة على نقاء دماء الأسر الإغريقية. ومما يؤثر عن دورا بطبيعة الحال وفرة تخالط الدماء بها، ولكن ذلك جميعه جاء متأخرة عن الحقبة المسيحية، إن دورة التي خلفت لنا النقوش لم تكن كما سماها بعضهم مدينة إغريقية دب فيها الانحلال، بل مدينة تنتقل إلى نوع جديد من الحياة في أيدي البارتين ثم بعد ذلك في أيدي الرومان. وكانت عادة البارتيين وهم طبقة أرستقراطية متسامحة أن يحسنوا معاملة المدن الإغريقية، ولكن دورا الواقعة على حدودهم كان نصيبها أن احتلوها وأعادوا بناء بعض أجزائها. ولا شك أن التسمية التي أطلقوها أصبحت عندئذ ناطقة بأفصح بيان. وكان هناك خلط خارق عجيب من النظم منها البابلي والفارسي والسوري. وكانت أمام الرجال مزيجا من أمثال سامسيلاوس (شاماش أبي) و با فالادادوس رزيدا دادرسي(رهي مركبات من أداد) ورهابابيلوس (راحة بعل) ودانيال و برناباس، كما أن أسماء النساء المكونة من أسماء الربات الآسيويات وأفضلها ما اشتق من ناتايا، وهي الربة البابلية للمدينة مثل مشاثاناث (هبة أنائتس) و بثانيا (بنت ثانايا) وميكات نانايا وباريونايا ورهيجوتاى وهو اسم وصيفة عشتاروت المميزة ساباس)، واسم الربة الذي اتخذه فلوبير بطلة الله وهو سلامبو، الذي ظهر عند ذاك كاسيم لامرأة هو ملامبو في كل من دورا زغزة. لقد حدث تخالط و فير في الدماء وأخذ الخطأ في قواعد النحو والصرف يدب إلى اللغة اليونانية المستخدمة، كنا يظهر ذلك في عملات العصر البارتي المتأخر والعملات الكوشانية.

وهناك أسباب عدة لفشل السلوقيين في هذا الاتجاه. منها أنه لم يكن هناك من الإغريق العدد الكافي لاستعمار آسيا، ومنها أنهم لم يكونوا بأية حال يتخذون من الأرض الزراعية أبدأ مستقرة لهم بل يتجمعون في المدن الأرض تكون في النهاية ملكا لمن حرثها. وكانت بعض المناطق لا تصلح لطريقة العيش الإغريقية، كما أن كثيرا منها لم يكن من المستطاع الوصول منه إلى البحر، وهو السبب الذي

من أجله حاول السلوقيون – اقتفاء منهم السياسة الإسكندر أن يستمروا المنطقة المحيطة بالخليج الفارسي. وفضلا عن ذلك لم يحاول هؤلاء الملوك قط – على النقيض من أسرة يوثيديموس – أن حصلوا على رضا الشعوب الإيرانية العظيمة عن حكمهم. والراجح أن ذلك هو السر في قوة نفوذ الديانات الشرقية بل فما هو أكثر من ذلك – وهو شي، كان الناس يبالغون في التشديد فيه. ذلك أن اليوناني كمشرك يعيد عدة آلهة، كان وهو في قطر غريبا عنه يعبد بطبيعة الحال الرب الذي يعرف أسلوب الحياة في البلاد ولكننا نزداد اطلاعا حين نرى إغريق سوس يجبرون العربية العظيمة ثانايا على خدمة أغراضهم خدمة أفضت إلى القضاء عليها، أو نرى تجار سلوقية الإغريق اختاروا أن بضعوا على خواتمهم صورة أثينا الرية الإغريقية التي لم يصل إلى مرتبتها أي معبود أسيوي ألبتة إلا عند التبط وحده. بيد أن من المحتمل أن السبب الرئيسي هو أن الشيء الذي كان الآسيوي يغي أخذه من اليوناني دو الشكل فقط وليس الروح اليالة إلى البوح بما لديها من علم، فقد كانت آسيا من ناحية الروح تعلم أن مسائلها الروحية أطول عمر من الروح الإغريقية، وهو الواقع الذي حدث فعلا. و كافح اليونان كفاحًا مجيدًا، وإن انتهى الأمر بأن عمر الطوفان الآسيوي الأمكنة جميعا مكانًا بعد آخر، ورغم ذلك ان بعض المدن التي نعرف منها سوس وسلوقية كانت لا تزال مدنًا إغريقية في القرن الثاني الميلادي، كما أن التدمير الكامل تقريبا الذي حل بسلوقية في ١٦٣ للميلاد، وإن فتحت أبوابها للغزاة، لا تنسب جررته إلى أي شيء آسيوي بل إلى أحد أباطرة الرومان.. وكان الناس يعدون الطاعون الذي أخذ مُنذ ذلك الحين يحتاج الإمبراطورية الرومانية من سورية إلى نهر الرين بمثابة انتقام السماء من أجل سلوقية.

* * *

ولننتقل الآن إلى يرجامة. بدأ الأناليون أمرهم بداية متواضعة كأمراء القلعة على أحد التلال. وسرعان ما أصبحت لهم السيادة على أبوليس، ثم أصبحوا حكاما على آسيا الصغرى حول جبال طوروس من ٢٢٨ – ٢٢٣ ومن ١٨٨ – ١٣٣، بعد أن تلقب أتالوس الأول بلقب ملك، ولكن الدلائل تشير إليهم مملكة من الطراز البطلمي، أي أداة منظمة لتكديس الثروة، وتعتبرهم قطر بعد من وجهة النظر الهلينستية في مستوى السلوقيين. وأدى موقع البلاد السياسي إلى جعل الأتاليين أعداء. ألداء للسلوقيين وحلفاء أصدقاء – لمصر، لذا كان من الطبيعي أن يقلدوا مصر في كل شي.. ولما كانوا لا يستطيعون أن يتخذوا من الألوهية أساسا لحكمهم في الفصل الثاني) ولم يكونوا ملوكا قومين،

فإنهم قنعوا بأن يتولوا الحكم كحكام ديمقراطيين؛ فلم يستخدموا قط في مراسيمهم لفظة و نحن، التي يستخدمها الملوك، كما أنهم كانوا يسمون أنفسهم أحيانا مواطنين من برجامة. ومن المحتمل أن فكرتهم هي أن يكون الملك فيهم بمثابة و المواطن الأول، في الدولة، وهو نوع من الاستباق الأحداث عمد أوغسطوس. على أن قيام الأتاليين بإدارة دولتهم على أحسن وجه بطريقة تنطوي على الكتابة، وأن الرومان والموالين لهم من الإغريقي ينوهون بذكر أنصار روما المخلصين –كل تلك أمور لا يمكن أن تخفي وراءها العاطفة اليونانية الحنة المتفرقة تحت التيارات الظاهرة، ذلك أن اليونان نوى الأزمة القومية القوية كانوا برون أن يومينيس الثاني لم يكن إلا بهوذا الأسخر بوطى الخائن الكبير القضية الهلينستية، والرجل الذي حرض روما على تحطيم الأسرة السوقية، التي كانت تناصر التقدم والارتقاء الهلينستى. أجل إن سكان أنطاكية ربما سخروا من اهلهم أنطيوخوس، وربما حقر هو نفسه بالقيام بعمل القالب فيهم. بيد أن دافيتامى الحوى بشبه بمنتهى المرارة والجد هؤلاء الأناليين المدني النعمة، الذين يتسلطون على المدن الإغريقية في ثيابهم الأرجوانية، بما يتركه الجلد والتعذيب من آثار حمراء على ظهر عبد "ضرب بالسياط وكان جزاؤه الصلب تبعا لذلك. ولم يكن أحد من اليونان يتحدث أبدأ بمثل هذا عن السلوقيين.

وحيثما حكت برجامة، ألغيت سياسة السلوقيين الرامية إلى مواصلة إنقاص أرض الملك وتضييق رقعة رق الأرض، إذ الظاهر أن الأتاليين لم يكونوا يقتصرون على الاحتفاظ بأرض الملك، بل يزيدون فيها بالاستيلاء على أراضي المعابد الزراعية وجعل المعابد تابعة لبعض المدن. وقد أعانهم على ذلك أنه بالرغم من وجود كثير من دول المعابد في أبوليس من زمن بعيد، إلا أن واحدًا منها لم يكن قوية حقا. ولابد أنهم كانوا البطالة يمنحون.. الموظفين حق الانتفاع والارتفاق القابل للاسترداد في استغلال الأراضي الزراعية، وذلك لأن أمالوس الثالث وجد كثيرة من تلك المزارع الفسيحة فصادرها أو استردها بمعنى آخر. ومع ذلك فإنهم أسسوا عددا من المنشئات، ولا شك في أن اثنين منها كانتا مدينتين مستكملتين هما: أتاليا في امفيليا، وفي مينائهم تجاه مصر، حيث كان الطريق المؤدي من لاؤدكيا إلى كيبورا يصل إلى البحر وفيلادلفيا بالمنطقة البركانية بليدا، وهي التي أصبحت فيها بول مكانة عظيم الشأن؛ و كانت تسمى " أثينا الصغيرة "، كما أنها بنيت بقصد مقاومة الزلازل التي كانت كثيراً ما تهزها. ثم إنهم يسعوا حجم إيلايا لتكون مرفأ ليرجامة، كما نادوا ميناء آخر هو هلينوبوليب على يجر مرمرة (**Propon tis**) وأسسوا بعض مستقرات عسكرية على الطراز المألوف،

و كان أولها فيليتاريا عند سفح جبل إيا وأتاليا على نهر هرمس؛ وهناك عدة أسماء أخرى لمنشئات أسسها الأنتاليون، ولكن أحدا لا يستطيع أن يقطع هل هي مدن أو مستقر العسكرية. وكان الأنا ليون يعتمدون على جيش من المرتزقة وإن استخدموا سكان ميسيا الجبليين في كل من أمراض الحرب والمستقرات.

ولما اتسعت رقعة مملكتهم صاروا يولون على الساترايان قوادا چيْنب العادة: الشائعة، وصار لهم نه وزير الشئون الدولة، كالسلوقيين سواء بسواء.

وقد انكشفت علاقاتهم بما في مملكتهم من المدن الإغريقية انكشافًا ظاهرة " في مؤتمر الصلح الذي عقد بعد هزيمة أنطيوخوس الثالث، يوم أعطت روما آسيا الصغرى السوقية ليومينيس الثاني: فبينما كانت رودس تطالب بحرية المدن الإغريقية: كان يومينيس يطالب بحملها رعية له. وتساهلت روما، ثم أسلمت إليه باعتبارهم رعاياه كل من كان تابعًا يدفع الجزية لأتالوس الأول: أو من ساعدوا أنطيوخوس ثم أعلنت حرية الباقين، ومن المدن التي سلمت إليه: إفيسوس ونيوس و ترالس، على حين أن بعض المدن التي: أعلن أنها حرة – والمعروف منها هو ساموس وبرني وما جنيزا. ولا ميسا كوس – عادت بعد ذلك فدخلت في ر صداقة و محالة، مع روما، وهو أمر حدد تصرفاتها ووجهها و جهة أخرى، على أن عددا كبيرا من المدن، منها ميليتوس وأزمير، كانت تستمتع بحرية حقيقية، وقد أخذت أبولونيا تجاه يسيديا تؤرخ لحقبة تبدأ في ١٨٩. ومن البديهي أن التذمر انتشر بين المدن الخاضعة، ويعلم القارى، كيف عالم بوميئيس أمن إحدى المدن الإغريقية، ولعلها أبولونيا على نهر ريتداكوس بفرمجيا المللسبونتية: فألفي استقلالها وصادر معابدها ووضعها تحت حكم قائد الساترابية. ثم عاد قيا بعد فأرجع إليها استقلالها الداخلي ومعابدها، بيد أن المدينة ظلت تدفع الجزية وتخضع للقائد. و كانت تيوس تدفع الجزية هي أيضا، ويقول الكتاب المتأخرون: إنه لا شك بناء على هذا أن جميع المدن الإغريقية غير الحرة كانت بالمثل تدفع الجزية، وذلك لأن تيوس كانت تمتاز بكونها المركز الرئيسي في آسيا للفنانين الدونيسيين، الذين كان الأتاليون يحبونهم ويقربونهم. والظاهر أن بعض المدن التي تذكر السجلات منها إفيسوس وأمبلادا –كانت تفرض عليها الضرائب مبلغة معينة من المال يقدر فحسب تقدير الأملاك وتجمعه المدينة من المواطنين على الطريقة التي ترضيهم.

ولكن الضرائب في أبولونيا كانت تفرض على المواطنين مباشرة وليس عن. طريق المدينة، ويلوح أنه كانت هناك ضرائب. كثيرة، ولعل القائمة الطويلة التي كانت تيوس نفسها تفرضها على مواطنيها

(الفصل الثالث، وإن كان ذلك.. في زمن أبكر كثيرا (حوالي ٣٠٠)، ربما أعطتنا فكرة عن نظام الضرائب الأتالي فيما بعد. ولا شك أنه على النقيض من تلك الحال كان الملوك يمنحون بعض. المدن إعانات مالية من الخزانة العامة مثل التي كانت تتلقاها تيوس وأبولونيا، وهي إعانات كانت تدفع كل عام لمديري خزانة المدينة، كما كان في الإمكان.. استخدامها لسد النفقات المدنية والدينية اللازمة للمدينة، بيد أن طريقتهم العامة و في معاملة مدنهم اليونانية كانت واضحة تماما. فإنهم كانوا يفرضون على المدن: من الضرائب والجزية مالا طاقة للمدينة بجمعه، ثم يعوضون النقص بأنفسهم، وبذلك يضعون المدن في قبضتهم بوسائل مالية لا تقل قوة عن الوسائل السياسية.

وإن لم يكن للمدن الإغريقية غير المحررة نصيب من الحكم الذاتي إلا الشكل وحدة في ظل الحكم الإتالي، وحتى ذلك الشكل نفسه كان مزعزعًا واهي الأساس يمكن سحبه متى شاء الملك، وكانت المدينة خاضعة بصورة ما للقائد الإقليمي، كما كانت تفرض عليها الضرائب، على حين أن قبولها الإعانات الملكية كان يعطى الملك الحق في التدخل في إدارتها المالية الداخلية. ولكن كانت لهم مظاهر أخرى تعسفية للتدخل. فقد صادر بعض ملوك الأتاليين الإيرادات التي تنتجها مصايد الأسماك بحيرات أرتميس المقدسة قرب إفيسوس، وهو شيء لم تغفره إفيسبس بعد ذلك أبدا. و كان الملوك يدعون لأنفسهم الحق في نقل السكان من مكان إلى آخر حسبا يشاءون، (وذلك بما فعل أنتيجو نس الأول أخيرا وليسيماخوس)، وسلخ أحدهم جزء من أرض بريايوس ومنحها لباريوم، كما ضمت داردا نوس إلى أبيدوس، وكادت جار جارا تختنق بمن دفع إليها قسرا من رجال القبائل المتبربرين، كما أن قرية جرجيتا نقلت من منطقة تروادة إلى نطاق نهر كايكوس، وكان لتقراما،انجينا و أماكن أخرى كثيرة ولا ريب–حاكم (**Epistates**) يتولى الإشراف على المدينة، كما أن برجامة كان بها مفتش على إيرادات المعبد. أما برجامة نفسها فهي وإن كانت لها مظاهر المدينة الإغريقية ونظمها، إلا أنها كانت ما يتصرف فيه الملك و نحكم عن طريق حقه في تعيين الموظفين العموميين الرئيسيين بالمدينة.، وهم قواد المدينة الخمسة الذين كان الملك يعينهم ومنه يتلقون الأوابي، ومن المحتمل أنهم هم وحدهم كان لهم الحق في عرض المسائل على الجمعية العامة والمجلس، وهو أمر كان من شأنه أن مكن الأتاليين من التحكم في مالية المدينة، شأن البطالة وما فعلوه في مدنهم بآسيا الصغرى. وأن اختلف الأساس.

ازدهرت برجامة مالية بصورة مكنت الملوك من استخدام جيوش ضخمة؛ وكانوا مضرب الأمثال

في الغني بين ملوك آسيا أما أرض الملك عندهم وهي بخلاف تلك التي تمنح للموظفين أو تستخدم للمستقرات العسكرية (**Cleruchland**)، فكانوا يديرونها بأنفسهم على جاري العادة المتبعة، ولكن الراجح أنهم كانوا يستخدمون الطريقة المصرية حيث يأخذون من الفلاحين نصية مقررة، وليس نسبة معينة من المحصول كما كان السلوقيون يفعلون وذلك لأنه يروى عن قائد فريجيا الهللونتية أنه يفترض أنه لو احتاج الأمر إلى بذور القمح، وجب أن يقدم التماس بذلك إلى الملك، الذي كان بنام على ذلك هو المتحكم في كل الفائض من القمح خارج المدن. ومع ذلك أن أصحاب الإقطاع العسكري وهم (**Cleruchs**) المحظوظون أصحاب المستقرات العسكرية كانوا يدفعون عشر المحصول ضرائب. وكانت أبوليس إقليم ترواده مناطق تجيد الزراعة وتربية الماشية. والراجح أن اصطبلات الخيل الملكية كانت تقام بالقرب من جبل إيدا، كما أن أيدا نفسها كانت تورد الخشب والقار. وكانت حاجة مصر إلى قار إيدا أحد الأسباب التي ربطت بينها و بين الأنتاليين، في حين أن ماشيتهم والجلود التي كانوا يستوردونها من إقليم البحر الأسود عن طريق كيزيكوس هي التي تمون العالم بما يلزمه من رق[١]. ونظامهم الاقتصادي مجهول، ولكن لا شك أنه كان نظامًا على الازدهار والرقي وخاصة فيما يتعلق بالموارد الطبيعية. وكان الملوك شغوفين بالزراعة العلمية شغف البطالة الأول. وقد كتب أتالوس الأول وصفة لجبل إيدا كما أن أتالوس الثالث كتب رسالة عن الحدائق. وما هو جدير بالذكر أن خزانة الملك بتلك البلاد كان يستخدم في وصفها المصطلح البطلمى (ربسكوس **Rbiscus**) وليس لفظة جازا **Gaza** وهي المصطلح الذي كان يطلقه على كنوزهم الملوك المقدونيون بآسيا: أنتيجونس الأول وليسيماخوس والسلوقيون. ولم نسمع قط عن وجود احتكارات ملكية هناك، ولكن من المعقول أن الرق والقار لا بد أنها كانت احتكارًا، ومع ذلك فإن هناك ظاهرة اتسم بها نظامهم وتختلف عن أية ظاهرة في أية مملكة أخرى: وهي إفراطهم في استخدام العمال الأرقاء. فالجميع من ملوك رمدن على السواء كانوا يستخدمون العال الأرقاء في المناجم. ولكن بينها الذي كان يحدث في مصر أن الصناعات الاحتكارية كان يقوم بها قوم من أشباه رقيق الأرض، فان المصانع الملكية برجامة التيه كانت ن جلود الرق والمنسوجات والديباج الموشي الأتالي الذائع الصيت و قد غزل بخيوط الذهب، كانت تستخدم حشودًا من الرقيق معظمهم من النساء تحت رعاية "مشرف على المصانع الملكية". ولا بد أن الدولة الأتالية كانت تقوم حقا، لا على المدن والمستقرات الدولة السوقية، بل على الثروة

---

(١) الرق (بفتح الراء). كما ورد في المعجم الوسيط: جلد رقيق يكتب فيه. (المترجم)

التي ينتجها رقيق الأرض والعمال الأرقاء. بيد أنها أسدت للعالم خدمتين. فإنها رأت عددا كبيرة من المدن عائلة الغلاطين، كما أنها جمعت بمدينة برجامة مكتبة ليس لها من ضريب سابق إلا مكتبة الإسكندرية.

ولم يلبث ملوك الأناليين، خاصة يومينيس الثاني وأتالوس الثاني أن حولوا رويدا رويدا قلعة العلي القديمة في برجامة القائمة على حافتها الشبيهة بالحلال إلى – عامة لخمة، وهي لم تبن على النظام المستطيل المعتاد، ولكنها أوتيت من الجمال ما لم تكن تقاربها فيه مدينة أخرى عد اسلوقية القائمة على سفح بيريا. وكانت يوت العامة تزدحم عند سفح التل، على حين كانت المدينة الإغريقية تصعد جناحي ال من جانبيه وتشرف عليها على طول القمة مباني الملوك الفاخرة. وكان الطريق الرئيسي الموصل إليها يؤدي إلى المدخل الموصل إلى الجازيات الثلاثة، وهي تقوم الواحدة منها بعد الأخرى في مصاطب ومدرجات نصون حورانها جدران راقية متينة. وكان المدرج موجودة في الطنف الأعلى، ومن فوقه كان سور القلعة الذي يضم بين دفتيه جزء من الحافة. وفي داخل هذا الجدار على امتداد الحاقة من الشمال إلى الجنوب كان يقوم القصر والمكتبة ومعبد أثينا الربة. و إلى جوار هذه وفي خارج الدور كان هيكل زيوس سوتر (المخلص) يرتفع مشمخرًا (الفصل التاسع)، يحيط به فتاه مبلط بالزليج [1] كان يستخدم سوقا، و من وراء السوق معبد ديونيسوس وسوق أخري سفلية، تقف فيها ساعة على صورة الإله "هرميز" وله قرون الخيرات التي يفيض منها الله بين الفينة والأخرى، وقد عرفنا إلى حد ما شيئا عن قانون الصحة العامة المدينة وهو الذي وضعه أحد الملوك، وكان ينص على تكليف أصعاب البيوت بكنس الشوارع وإصلاح المنازل الحرية أو التي أوشكت أن تهدم.. فإذا لم يقم مالك المنزل بأداء ما عليه من واجب كان في إمكان حكام المدينة (**Astynomi**) أن يوقعوا عليه الغرامة وأن يقوموا بالعمل على حسابه، فإذا أهملو! القيام بذلك كان في إمكان قادة المدينة أن يقولوه، ولما كان القواد يتلقون الأوامر من الملك كان الملك هو السلطة الصحية العليا. وقد اتخذت الوسائل الكفيلة بالمحافظة على حسن نظام الطرق. و كانت جميع الصهاريج تسجل كما أن ما كان يوقع من العقوبات جزاء على تلويث موارد المياه بالمدينة بنسل الثياب أو سقاية الحيوانات كانت قاسية شديدة. ولكن مدينة برجامة كانت مدينة شبه أسيوية رغم عظمتها واتخاذها نظم المدينة الإغريقية. إن معبد أثينا كان يعبد فيه إلى جوارها زيوس السبازى (**Sabazios**)، وهو شكل ما من أشكال المعبود

---

(1) الزليج: صفائح ملونة من الأجر لكساء الأسطح: (المترجم)

العام لآسيا الصغرى أحضرته معها من موطنها الكبادوكى استراونيكى زوجة بومينيس الثاني، وكانت المدينة السفلى مزدحمة بالتجار الأجانب وفرق المرتزقة والمحررين من الناس عدا الحشود الكبيرة من المال الأرقام في مصانع التاج. وفي نفس الوصية التي وهب بها أتالوس الثالث مملكته الروما، جعل مدينته مدينة حرة أيضا. ولكي حول المواطنون دون قيام نورة بين الأرقاء تقليدًا التي حدثت بصقلية، منحوا الحقوق السياسية لكل أجنبي مقيم (Metic) وللمرتزقة بما في ذلك جميع الميسين والباقلاجونيين النازلين في أرض المدينة، كما رفعوا المحررين من الناس والعبيد ما عدا بعض النسوة إلى مرتبة الأجانب المقيمين – وهو شي. يعد في حد ذاته ثورة، كما أنه أعظم تحرير جماعي للأسيويين سجله التاريخ.

* * *

على أن ممالك آسيا الصغرى الوطنية لم تصطبغ بالصباغ الهلينستي إلا بصورة سطحية فحسبه.. فإن كبادوكيا وبنطش وأرمينيا احتفظت بنظمها الإقطاعية القديمة. ومع أن كبادوكيا قسمت، محاكاة لما فعله السلوقيون، إلى عشر ساترابيات أو قيادات، إلا أنها كانت تؤرخ بتقويم فارسى. وقد اقتبس هؤلاء الملوك الأسيويون أسماء العبادات والنحل اليونانية واستخدموا في حديثهم اللغة اليونانية والألقاب اليونانية في بلاطاتهم و شملوا برعايتهم الفنانين الديونيسيين، واستخدموا الخبراء اليونانيين من كل نوع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا – كما بنوا المدن على أسمائهم هم – وهي أرباراثيا في كبادوكيا ويوباتوريا في بنطش وأرساموسانا وبعدها نجرانوكرتا في أرمينية، و لكن هذه لم تكن في العادة إلا مدن ملوك، كما أن الملك ظلت أسيوية في جوهرها. وكانت كبادوكيا و بنطش معاقل قوية. للمزدكية (Mazdaism)، كما أن مزيدانس بويا تور لم يكن الامتيربرا عليه طلاء خارجي لا يستر شيئا. ومما يشهد بهذه النزعة الهلينستية المشوية المختلطة ذلك النقش الإغريق الموجود على قبر أنطيوخوس الأول ملك كوما جيني وصديق مومبي وهو القبر الذي أقيم على نيمرود–داغ. وقد كتبه بلغة إغريقية شديدة الازدحام بمحسينات لفظية وفصاحة منحطة الدرجة، شخص لم يكن يعرف طريقة استخدام أداة التعريف اليونانية. وفيه يرجع الملك نسبه إلى دار الأول والاسكندر مع أنه لم يكن في الحقيقة. إلا نصف سلوقي (وهو ينتسب إلى الإسكندر عن طريق و أباما و زوجة سلوقوس التي يزعم الناس أنها إبنة الإسكندر)، كما أنه بعد بلاد فارس ومقدونا المصدر الأصلي لعاهليته، وهو يستخدم التقويم المقدوني، ولكنه بنسب مال و نيه من توفيق إلى تقواه و قداسته والآلهة التي يعبدها هي اهو رامزدا الفارسي ومثرا مع إضافة أسماء يونانية إلى اسميهما. وهو يؤسس مبنى ليضمن قيام عبادتها إلى الأبد إلى

جوار قبره، مع عبادته هو نفسه كبطل – وذلك نظام إغريقي لا شك فيه – وإن كان الميني لا يشابه أي شيء لدى الإغريق. وقد كرس عدد من القرى للعبادة هناك، كما كرست هيئة من رقيق المعابد (Hierodules) يلزم نسلها بالقيام على خدمة تلك الحالة إلى أبد الآبدين –– وبذلك بعثت من جديد الأشكال الآسيوية القديمة لدولة العيد.

ولعل بيثينيا وحدها هي التي تغلغلت فيها الروح الهلينستية إلى أعمق من ذلك. وكانت الأسرة المالكة الوطنية تعد نفسها منافسة لأتاليين و معادلا لهم كما أنها أسست كثيرة من المدن. وقد حلت نيقوميديا (الجميلة) محل أستاكوس اليونانية التي دمرها ليسيماخوس، وأصبحت مدينة هامة في العصر الروماني. وقد شاد "بروسياس" الأول مدينة بروسيا على البحر (وكان لها حق سك النقود) لتحل محل مدينة كيوس، وهي مدينة إغريقية قديمة دمرها فيليب الخامس، وأعاد تأسيس كيروس تحت إسم رو سياسي على نهر الهيبوس، كما أنه بناء على نصيحة يا نيبال أنشأ مدينة بروسا (بروسة) و لعله أقامها لتحل محل مدينة إغريقية أخرى. دمرت تلك هي مدينة أتوسالتى هلنت ميناؤها، ميرلية، فيما بعد باسم أيامبا، و كانت بالمملكة أيضا مدينة نيقيا التي أقامها ليسيماخوس. ولا بد أن نيفيا و بروسيا كانتا تستمتعان بشيء من الاستقلال، ا أن المدن الأخرى ربما كان لها على الأقل نظم المدن اليونانية، وذلك لأنه يجدر بنا أن نذكر. أنها جميعًا كانت تحل محل مدن إغريقية أقدم منها.

ولكن هناك شعبة ظل بعيدا عن منال الروح الهلينستية تقريبا حتى العصر الروماني، وهو شعب الغلاطيين. ذلك أنهم كانوا هيئة أجنبية تعسكر في أرض غريبة وتعيش في معاقل حصينة: يخرجون منها للإغارة والنهب ويحكمون ما حولهم من فلاحين وطنيين يزرعون لهم الأرض. و لعلهم كانوا يتلقون إمدادات من أوربا ويحافظون على لغتهم وتنظيماتهم. القبلية وعاداتهم وفضائلهم – وهي شجاعة الرجال وعنة النساء الشديدة الشماس. وقد انتهى بهم الأمر في النهاية إلى أن قبائلهم الثلاثة انقسمت كل منها إلى أقسام أربعة (Terrarchies)، محكم كلا منها ناظر ربع (Tetrarch) من دونه قاض، و كان القضاة ينظرون في القضايا المدنية، بيد أن التشريع الجنائي وربما شئون السياسة أيضا اختص بها مجلس من ثلاثمائة مسنن، كانوا يجتمعون بمكانهم المقدس " درينيميتوس"، وهو موضع لعله منتدى مستدير للمناقشات يقع في أحد الأحراش، ومن بين نظار الأرباع كان ينتخب قادة الحروب الذين يظهرون في الأدب اليوناني والروماني د كلوك. على أنهم لم يتدخلوا في شئون دولة المعبد في بيسينوس التي كانت تقع داخل أراضيهم إلا بعد ١٦٦ عندما احلوا بيسينوس و أخذت

عقيدتهم تصطبغ على الدرج بالصابغ الفريجى. ولا قبلك أن ما يرشينا في هذا الصدد مراسلات يومينيس الثاني وهو إذ ذاك صاحب الملك في غلاطيا (١٨٣ – ١٦٦)، مع أنيس ملك بيسينوس الكاهن. ذلك أن بومينيس كان يكتب إليه كما يكتب ملك إلى ملك، كما أن صداقة أنيس له كانت تقوي نفوذه في غلاطيا، على حين أن شقيق أنيس خانه وانضم إلى الغالة واتخذ لنفسه إسمًا غلاطيا، وأخذ يحاول الحصول على الكهانة لنفسه، وكان ذلك دون ربي لمصلحة غلاطيا و معاضدتها. وقد شيد بومينيس الثاني في بيسينوس معيدة وعدة أبهاء أعمدة وقضى في النهاية على ماني من قوة الغلاطين حتى إذا تمت المذبحة التي أعملها مثريداس في أرستقراطية الدالة شرعوا يتخذون لأنفسهم الظاهر العامة للمدنية السائدة في البلاد، ولكن لفتهم لم تنقرض حتى في القرن الثالث الميلادي، كما أنهم كانوا لا يزالون يعبدون ربا كلتيًا إسمه زيوس البوسوريجى (**Boussourigios**)

* * *

وربما جاز لنا أن نختم هذا الفعل بإشارة إلى أهمية المدن الإغريقية القديمة بآسيا، وهي مدن لم نكد تحس أنها أدنى من المالك مرتبة، بما كان لها من تقاليد عريقة وعدد سكان ضخم وحياة متماسكة حافلة بالعمل وردة شامية ومبان عامة خمة وأسوار هائلة. ومع أن واحدة من هذه المدن لم نضارع أثينا في القرن الرابع قط فضلا عن سيراتوزة، إلا أن ميليتوس في القرن الثاني بما كان لها من أرض، كان عدد سكانها يقارب المائة ألف بما في ذلك الأرقاء. على حين أن إيسوس كانت أكبر وأن رودس لا يمكن أن تكون أصغر كثيرة. وكانت ميليتوس لا تزال حوالي ٣٠٠ أعظم المدن الأيونية، وهي تعتمد اعتمادًا شديدًا على تجارة الصوف بها وعلى معبدها الذي يعد أعظم معبد إغريقي بآسيا، بيد أن إنيسيس و أزمير مالبثتا بعد ذلك أن تفوقتا عليها، فإن أزمير أخذت بعد ٢٥٠ تتسنم ذروة العظمة، و كان استقلالها تامة، ويحفظ لنا التاريخ سجلا دائما عن علاقتها بسلوقوس الثاني ومساعدتها القلبية له؛ فانه عندما غبر جبال طوروس في ٢٤٤، قامت أزمير بالعمل معه. كأنما هي تحت نائب ملك له، وذلك لأنها أرادت أن نؤكد باسمه امتلاكها منحة من الأرض وهبها أبوه، و تكلفه أن يمنح منحة جديدة، وتكلف خزانه دفع أعطيات للمرتزقة. ويرجع السبب في النمو العظيم الذي بلغته إفسوس إلى تركز تجارة الشرق في طريق أياميا – افسوس، ذلك التركز الذي قواه تنقل. ليسيماخوس للمدينة إلى شاطئ البحر بعد أن امتلأ المرة القدم بالرواسب ولعل إفيسوس هي التي ابتكرت الكيستوفورات

[1] (**Cistophor**) التي أصبحت العملة الطرازية المملكة برجامة وانتشرت في كل أرجاء آسيا الصغرى: وشرع الأنانيون في القرن الثاني يتخذون من إفيسوس مرفأ لمملكتهم؛ بيد أنها لم تنس لهم قط ما قاموا به فيها من مصادرات، وانتهزت في ١٣٢ فرصتها للانتقام منهم، فإن أسطوها هزم أرستونيكوس في البحر، ومهد طريق روما إلى آسيا. ومُنذ ذلك التاريخ صارت إفيسوس في الواقع المدينة الكبرى في الدولة مع قيام مركز القواد والخزانة الإقليمية بها، وإن كانت برجامة هي العاصمة الرسمية لمقاطعة آسيا الرومانية، ذلك أنها كانت المنفذ والمخرج الطبيعي للبلاد ولأنها كانت شبكة يتجاوز مدينة إغريقية، فإن معبدها الذائع الصيت لربة الخصب الأسيوية بما فيه من خصيان ومن بنات، متكرسات و ما به من ملاذ: للجيرة والأبواب يرجع إلى ما قبل التاريخ وما كان برف به من سمك مقدس، كل ذلك كان ينتمي إلى عالم أقدم.

فإذا انتقلنا شمالا وجدنا مجنزيا على البيافدر تستطيع أن تمد أذرعها من إيثاكا إلى. نهر جيحون، وقد اشتركت في الدفاع عن دلفى ضد الغاليين، كما أعطت الحقيبة الهلينستية في باكتريا أقوى أسرة مالكة تولت عرشها، وبذلك تمكنت من غزو الهند؛ كما ساعدت السلوقيين على إنشاء مدينة أنطاكية المواجهة التخوم يسيديا وأنطاكية في برسيس، ا أعطتها دون راب مدن أخرى لا نعلمها. ولم يكن الناس يكثرون من قبل أولادهم في مجيريا أثناء القرن الثالث. وكان. معبدها العظيم المقام العبادة أرنيس ذات الجبهة البيضاء (**Leukophryene**) التي خلفت الأم الدنديمية ولا يقل في الحجم إلا عن معابد افيسوس وديديما (الفصل التاسع)، كما أنه كان فيا يقال أجمل منها كليها. أما من حيث القوة الحقيقية ابن هرقليا البونطشية حوالي ٢٨٠ كانت تفوق فيها يرجع أية مدينة قائمة على أرض القارة. وكانت تحكم رقعة عظيمة من الأرض تضم مدينة أخرى، كما أنها تفاخرت في أحد الأيام بأنها أقوى من سلوقوس، ولكنها لم تستطع أن تحافظ على مركزها فما عقب ذلك بن الزمن. ويصدق هذا القول أيضا على سينوبى. و كانت تشخص بصرها إلى اللحظة التي بدأ فيها ليسيماخوس يجعل من البحر الأسود بحيرة له خاصة، بينما تتمنى سينوبي أن تسوده وتتحكم فيه وتحظى بتجارة ضخمة جديدة. بيد أن ليسيماخوس لم يترك من ورائه عقبا، ومن تم ان سينوبي انحدرت وأصبحت عاصمة ملوك بنطش، غير أن كيزيكوس المستقلة بما لها من ميناء مدهش مزدوج وأسطول عظم الكفاية احتفظت بمكانها وزيادة. وكان لها طريق جيد الرصيف يمتد إلى سرديس أعلى وادي الماكستوس، وعن طريقها كانت تمر

---

(١) الكيثوفورا: هي عملة آسيوية، ضرب عليها صندوق وتساوى الواحدة منها نحو أربع دراخمات. (المترجم).

الجارة بين مملكة برجامة والبحر الأسود، ويضعها استرابون في مرتبة رودس و قرطاجة ومارسيليا. و كانت قد بنت سياستها على الصداقة المستديمة لبرجامة، بل حتى المخالفة لما فيها محتمل. وكانت علاقاتها مع تلك المملكة علاقة رودس بمصر، كما أنها وهبت الأسرة المالكة خير ملكة ظهرت فيها وهي أبوللونيس التي عادت المدينة قالها فيما بعد. وكان أمراء من بيوت كثيرة يعبثون إلى كزيكوس ليتلقوا تعليمهم. وقد بلغت من القوة في ٢٧٧ أن قاتلت تروكمي الغلاطي بمفردها، ولكنها استطاعت بعد ذلك بقرنين أن نواجه ميتريداس و كادت تأسره وهو في عنفوان قوته وكانت رقعة أرضها في حكم أوغسطس ضخمة مترامية نضم مدنًا قديمة مثل زيليا، كما أنها قامت بعمل جرى. أخطر كثيرة من مقاتلة ميثربدانس: وقو ضرب بعض الرومانيين بالسياط. وكان لها في ذلك كل الحقب و لكنها كانت سعيدة الحظ حيث لم يتلها من العقوبة إلا دفع ضريبة خمس سنوات.

ويقول استرابون إنه لم يكن هناك لرودس من ضريب بين المدن – فإنها استطاعت أثناء حصار ٣٠٤ التاريخي الجليل أن تقاوم بنجاح قوة ديمتريوس العارمة، ا أن قوتها ومواردها ظلت تنمو حتى ١١٩، و كان تجارها وأصحاب المصارف فيها يرغبون في السلام، ولكنها جعلت ديدنها شيئين: توازن القوى وحرية البحر، ومن أجل هذين الأمرين لم تكن تتوانى في قتال كل معتد، فساعدت مقدونيا على هدم قوة بطلميوس الثاني البحرية الساحقة وأعانت برجامة.على كبح جماح فيليب الخامس، وساعدت روما على بحر أنطيوخوس الثالث. وكانت حكومتها ذات نظام ديموقراطي مقيد أو بمعنى أصح أرستقراطي كان السلطان فيه يد العائلات المتسلطة شأن إنجلترة في القرن الثامن عشر. ولكنهم كانوا يؤدون واجبهم جنبا إلى جنب مع الفقراء. ولذا فإن رودس لم تحدث بها أية اضطرابات داخلية، على الرغم من اختلاط أنواع عدة من السكان بمينائها العالي، وكانت من ثم أيضا تستطيع أن تسلح عبيدها وكانت الجزر المحيطة بها نوابع وأحياء (**Deunes**) لها، كما أنها كانت تدعي إدعاء غريبة هو أن لها الحق في الاعتراض (حق الفيتو) على أي تكريم منحه تلك الجزر. و كان لها من موقعها الممتاز ما يضطر التجارة بين مصر والشال وبين سورية والغرب أن تمر في مينائها. وفي عام (١٧٠) عادت عليها رسوم الصادر والوارد البالغ قيمتها اثنان في المائة بمبلغ مليون دراخمة. ولا شك أن ضخامة ما يوجد في كل أرجاء العالم من عدد مقابض الزيع و الجرار المصنوعة في رودس نشهد لتجارتها بالاتساع العظم. لقد كانت مركز العمليات المصارف والمبادلات الدولية، فهي مدينة رئيسية تعد مفتاحًا لحركة التجارة الهلينستية. وعند ما دمرتها إحدى الزلازل في ٢٢٥ وأوشكت أن تقع في

أزمة تجارية، أظهر العام الهللينستي تماسكه التجاري القوى بالمساعدة الفياضة التي انهالت عليها نقدا وعينا من كل ملك ينطق باليونانية ومن مدن كثيرة.

فلما أن اضمحل شان الأسطول المقدوني حوالي ٢٠٠ حكمت رودس البحر الإيجي و أعادت نكون حلف الجزر برياستها كأنها أحد الملوك، كما أنها قضت على القرصنة، وبعد ١٨٨ أصبحت تحكم معظم كاريا وليقيا. وعندما حدث في ٢٢٠ أن فرضت بيزنطة ضريبة على السفن التي تعبر البوسفور، اتخذت رودس على الفور الإجراءات الكفيلة بإعادة الحرية إلى ذلك المضيق. والراجح أن أسطولها لم يكن ليزيد قط على حوالي خمسين سفينة تعمل في البحر في وقت واحد، ولكن صنفها كان أجود ما في العالم، وقد هزمت الأسطولين المصري والسوري بمفردها، وكانت تفاخر الناس قاطبة بأن كل رودسي يعادل سفينة حربية. وعندما التقى الأسطول الروماني بأسطول أنطيوخوس الثالث بمعركة ميونيسوس (**Myonneus**) كانت عمارة رودس هي التي أنقذت الرومان ودفعت بهم إلى النصر. ولو أن النتيجة كانت عكس ذلك لكان زمام النصر في يد رودس مع ذلك، لأن قائد أسطول أنطيوخوس كان أحد المنفيين من أبناء رودس. وكان الدخول إلى بعض ترساناتها محظورة على الجمهور ويعاقب عليه بالإعدام. وكانت المدينة مزدانة بالقطع الفنية التي كان منها صور من صنع بروتوجنيس (**Protogenes**) وباراسيوس (**Parchasius**)، وبها تمثال مائل هو الكلوسوس (**Colossus**) (الفصل التاسع. الذائع الصيت وكثير غيره من التماثل الحيارة، كما أنها أصبحت في القرن الثاني مركزة للعلوم الإغريقية ومثوى للفلسفة وعلم البيان، وقد ارتفع شأوها إلى الذروة بفضل أسماء أبنائها أمثال بانايتيوس (**Panahtius**) و پوسيدونيوس(**Poseidonius**)؛ وقد عاشت جامعتها الضخمة مدة طويلة. وذاعت شهرة قانونها الحري، الذي اقتبس عنه الأنطونينيون. وربما كانت أجزاء منه موجودة في مجموعة القوانين البيزنطية التي تسمى باسم قانون رودس البحري، وعنها انتقل إلى البندقية. فهو إذن القانون الإغريق الوحيد الذي وصل حية إلى العالم الحديث.

الفصل الخامس

مصر

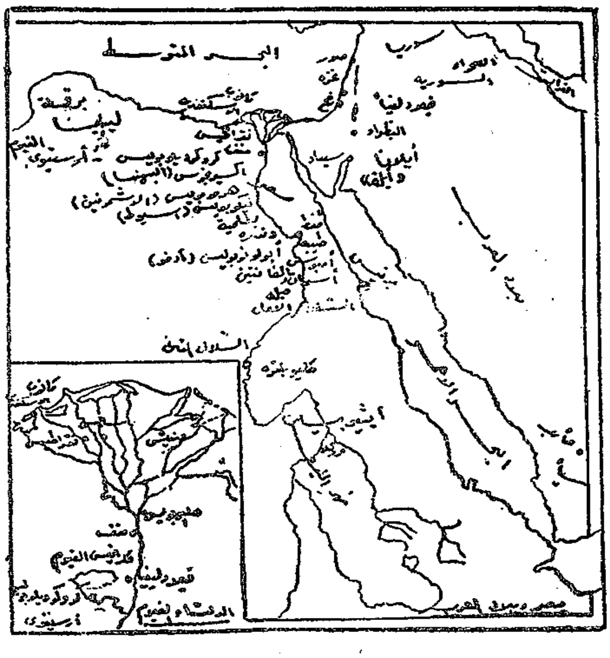
إن وثائق البردي التي عثر عليها في مصر أثناء نصف القرن الأخير، تمطينا صورة عن ذلك القطر تحت حكم البطالمة أكثر تفصيلا في بعض النواحي من أي شيء آخر في التاريخ اليوناني القديم كما أنها رغم ما يعتريها من قصور من نوع يمكن مقارنته من بعض النواحي بالصورة التي خرج بها من وثائق التاريخ الحديث. على أن قصورها ذاك وما به من شوائب شديد بالغ الشدة، وذلك لأن بقاء وثائق البردى إلى يومنا هذا ثم بمحض الصدفة، ولأن مصدرها (وهو نواحي مصر وريفها وليس العاصمة نفسها) يؤكد أن الغلبة فيها المصالح المحلية، وأن السياسات العليا للحكومة المركزية لانكشف فيها إلا بين حين وآخر وبصورة عرضية بحتة. وفوق هذا ان مصر في حد ذاتها عالم ننحصر مصلحته قبل كل. شيء في نظامه الاقتصادي، وهو تراث برجع (من حيث أسسه الرئيسية ومبادئه العامة) إلى مصر في عهد الفراعين، تم تطور وارنى جملة وتفصيلا حتى. أصبح نظام تأميم للدولة إلى أقصى حد وبصورة لا يعرفها الناس قبل القرن. العشرين إلا في بلاد بيرو فيها نعتقد. ومصر لا تلقي على الهلينستية في صورتها العامة إلا ضوءًا قليلا نسبيًا. ولولا أكاديمية الإسكندرية ومكتبتها ما أثرت في تطور الحضارة اليونانية إلا بأصأل قسط. وذلك لأن الإغريقي بمصر ظل. غريبة بين ظهراني الجمهرة الغفيرة من السكان الوطنيين الذين كان من المؤكد أن يمتصوه في آخر الأمر امتصاصا ناما لولا تدخل روما. أجل إن القطر لم يكن مزدحمًا. بالسكان إلى الحد الأقصى في حكم بطلميوس الأول، كما يتجلى ذلك. من وجود فائض من الأرض غير المنزرعة. وتقول الروايات المتواترة إن السكان كانوا سبعة ملايين أو سبعة ملايين ونصفًا (بغض النظر عن سكان الإسكندرية) في أثناء العصر الهللينستي، على أن بعض العلماء يجادلون في هذا التقدير مدعين أنهم أكثر عددًا. وقد وفد بعض المقدونيين مع بطلميوس الأول وظلوا يستمتعون على الدوام بمركزهم الممتاز، ولكنهم كانوا قلة ضئيلة جدا لا تأثير لها، كما أن حكم البطالة الأول كان يعتمد على الإغريق، الذين كانوا ينثالون إلى البلاد كالسيل حتى منتصف القرن الثالث، سواء أجاهرا. جندًا مرتزقة أو مستوطنين. وكان ينزح معهم ثراقيون وأسيويون من غرب آسيا ثم لا يلبث معظمهم (عدا اليهود منهم) أن يصطبغوا بسرعة بالصباغ الهللينستى. وفي ٢٥٢

كان أحد الرومان منضويًا في سلك جيش بطلميوس.

وظل الإغريق حينا من الدهر يحكمون مصر كقطر مقهور. ولم يكن ذلك هو ما كان يرى إليه الإسكندر؛ ذلك أن نظامه كان يجعل الأوربيين يتصرفون في المالية وفي جيش الاحتلال، على حين أن الحكومة المدنية التي برأسها هو كانت توكل إلى المصريين. وقد ظلت الأقسام الإدارية بالقطر (Nomes) تحت حكم نظار أقسام (Nomarehs)، كما أنه عين اكين مصريين بدلا من سا تراب مقدوني. والمعروف أن بطلميوس الأول نفسه لم ينبذ تماما وهو ساتراب فكرة الإسكندر. وأفسح للأهالي مجالا أوسع مما حصلوا عليه فيا بعد؛ وحدث التغيير عندما بدأ الملك في سياسة الفتوح فيما وراء البحار. وكان خلفاؤه المباشرون يرومون ضم منطقة البحر الإيجى وسواحله إلى رقعة ممتلكاته ونكون إمبراطورية منها، وصاروا يما ملون مصر كأنما هي فقط مصدر جمع المال، ولم يحدث في عهد البطالة الثلاثة الأول، أن وطنية من الأهالي حمل السلاح مطلقا بعد ٣١٢ ق.م. ولكن الموقف تغير تمامًا قرب نهاية القرن الثالث. إذ أن الجند الوطنيين الذين كانوا حديث العهد بالجندية أحرزوا النصر للملك بطلميوس الرابع في ٢١٧ بمعركة رفح وعرفوا من تم أهميتهم.. ولما كانت الهجرة اليونانية إلى البلاد قد توقفت، أن العنصر الإغريق أخذ مُنذ ذلك الحين بخلي السبيل أمام العنصر المصرى، وخير ما تتهجه في هذا الصدد أن نقدم وصفة إجمالية لمصر البطلمية ونظامها على ما كان عليه في القرن الثالث، ثم نلحظ ما حدث بعد ذلك من تغييرات وخاصة ما تتكشف عن طريق السلسلة العظيمة من الأوامر والقرارات التي أصدرها بطلميوس بورجيتيس الثاني.

ولو قارنا أوجه الشبه والاختلاف في النظم السياسية والإدارية والاقتصادية لدى الإمبراطوريتين البطلمية والسلوقية لتجلى لنا أن النظامين جميعا يتبعان من مصادر واحدة، ولكنها لم يتطورا في نفس السيل، و كانت أوجه الاختلاف الرئيسية تنحصر في سياسة الدولتين الاقتصادية و موقفها من حياة المدينة الإغريقية. وكان البطالة موقنين مُنذ البداية أنهم لم يكونوا ليستطيعوا أن يؤسسوا دولة قوية بمصر، يكون قوامها المدينة الإغريقية كما فعل السلوقيون بانيا. ومع أن بطلميوس الأول. ما كان ليستحق أن يصبح خلقة للإسكندر لو لم ينشى. بعض المدن، فإنه لم ينشى، منها في مصر إلا مدينة واحدة هي بطلية بمصر العليا وذلك ولا ريب لمناهضة طيبة، المركز الرئيسي للكهنة. و كانت بطلية هذه من حيث مظهرها مدينة إغريقية تستمتع بالحكم الذاتي، ولكن هذه الحرية الذاتية لم يلبث نطاقها أن حدد وقيد، عند ما أصبح محاكم الإقليم الطيبي (Thebaia) الموظف الرئيسي فيها، وهو إجراء

بعيد إلى الذاكرة الحكم الذاتي القيد الذي كانت تستمتع به برجامة أو سالونيكا. وظلت نقراطيس قائمة، ولكنها فقدت إلى جوار الإسكندرية كل أهمية كانت لها، وبغض النظر عن الإسكندرية مكان النشاط الذي أظهره البطالة فيما يتعلق بالمدن مقصورة على ممتلكاتهم الخارجية. وقد بلغت هذه الممتلكات في وقت ما من الاتساع شأوا بعيدة، وإن تأرجحت رقعتها من وقت إلى آخر، وكانت جزر السكلاديس (Cyclades) الواقع بين تركيا وبلاد اليونان الحالية ملكا للبطالة وخاضعة لإشرافهم من ٢٨٥ إلى ٧٤٥. وساموس من ٢٨١ إلى ٢٠١، وكذلك معظم ساحل آسيا الصغرى من جبال كاليكانتوس بقليقيا إلى إفيسوس من حوالي ٢٧٣ (أو قبلها) بصورة متقطعة حتى ١٩٧، وإن كان الحكم في كثير من المدن والأقاليم ظل ينتقل من يد إلى يد أثناء حروب البطالة مع السلوقيين. وكان لهم أيضة شطر عظيم من سواحل الهللسبونت وتراقيا بما في ذلك لسبوس وثاموتراقيا من حوالي ٢٤١ إلى حوالي ٢٠٢ فضلا عن أندرا نفسها الواقعة في النطاق القدر. وظل لهم أيضا جنوب سوريا حتى لبنان وشطر كبير من فينيقيا، ولكن الحدود لم تبرج دائبة التغيير حتى ٢٠٠ وأيدروملكوا أيضا مدينتي تيراوميناتا في إقليم أرجوس وايتانوس جزيرة كريت حتى ١٤٦؛ وكذلك برقة (Cyranniea) فيما عدا فترة استقلالها



الوجيزة (من نحو ٢٥٨ – ٢٤٦) حتى ٩٦، وكذلك قبرص وهي خر ممتلكاتهم الأجنبية حتى ٥٨. وقد أطلقوا أسماء جديدة على كثير من المدن. فان ميثانا وبانارا في ليقيا وبعض مدن كوس مميت كلها أرسينوي (Arsinoe). على أن أرسينويو وفيلادلفيا بقليقيا ربما كانتا مؤسستين جديدتين وكانت لهما نظائر في سورية مثل فيلوتيرا على بحيرة جنسارت (Geunesareth)؛ على حين أعيد من جديد تأسيس مدن أخرى وطنية على صورة مدن إغريقية، حيث سميت عكا باسم بطلمية و أطلق على رابات عمان اسم فيلادلفيا. أما السياسة الخارجية التي انتهجها البطالة الثلاثة الأولون، وهل كانت عدوانية أو داعية أن ذلك كان مثار نقاش طويل: إذ إن المرء ربما استطاع أن زعم أنهم كانوا يحتفظون بجنوب سورية وقبر ص (بما حوت من الأخشاب اللازمة لبناء السفن) لأغراض دفاعية، وأن كل ما عدا ذلك كان عدوانًا.

كانت المدن الإغريقية الواقعة في ممتلكاتهم الأجنبية بلدانا خاضعة خضوعة لا شك فيه، وكانت الضرائب تفرض عليها على أساس ذلك الوصف، وأن شكل نظام الحكم كان مرتبطة بأنموذجه المصري. وثمة شي، استحدثه البطالة مصر هو إلغاء حكام الأقسام الأهلين وتعيين حكام عليها من قواد إغريق أو مقدونين، كأنما كانت تلك الأقسام ساترابيات. و كذلك الشأن في الممتلكات الخارجية، أنها كانت تحت حكم قواد، وهو الحال المعتاد في جميع الممالك المقدونية، مع جمل الرياسة في المدن بيد حكام مدنيين: و لكن الشيء، المهم هو أن الشئون الداخلية بتلك المدن الإغريقية لم تكن فقط تحت هيمنة بطلميوس عن طريق القائد والحاكم المدني، بل لوزير المالية (Dioiketes) الهيمنة كذلك، ومقره بالإسكندرية، وذلك لأنه كما كان يوجد إلى جانب القائد في كل قسم مدرس لوزير المالية هو مدير الشئون الاقتصادية (Oikonomos) فكذلك كان هناك مدير الشئون الاقتصادية وقائد في ولايات مثل كاريا يباشران السلطان في المدن الإغريقية. والواقع أنه لم يحدث أن ملكية أخرى بلغت هذا المدى. وهذا الإجراء في در ذاته يومي إلى محاولة لإدخال النظام الاقتصادي المصري في العالم الإغريقي ومن سوء الحظ أننا لا نعرف إلى أي حد تم تنفيذ ذلك فعلا. بيد أن تبوس اليونانية كانت- فضلًا عما تدفعه من الضرائب النقدية – ندفع ضريبية من القمح عينة. ومعنى هذه الضريبة العينية أن أرض تلك المدينة كانت تعامل كأنما هي أرض يملكها العاهل، و كان هنالك بها

ليكارناسوس فايلوح، نظام الربابة المتعهدين [1] (**Trierarchy**) للمساهمة في صيانة الأسطول المصري. وطول بطلميوس الثاني أن يجعل عملته محل عملات المدن الأسيوية. ولا ريب أن سوريا "نظمت إلى حد ما على غرار النظام الساري بمصر، ولكن ليس إلى الحد الدقيق تماما. وكان لا يزال يقوم إلى جوار دولة الكهنة ببلاد اليهودية (**Jodaea**) رؤساء أهليون كأسرة طوبيا (**Tobiads**) في عمون (عمان) تحت السيادة البطلمية، بل لعل البطالة كانوا يمتلكون الأراضي التي يديرها هؤلاء الرؤساء.

أما فيما يتعلق بالمنشآت بمصر فإن بطلميوس الأول أمس الكتبة والأكاديمية (المتحف، على حين أكمل بطلميوس الثاني المكتب وأعاد القناة التي أنشأها دار الأول لوصل البحر الأحمر بالنيل عن طريق البحيرات المرة، كما بدأ مُنذ أوائل عاده في تجفيف بحيرة موريس لتكوين القسم الأرسنويتي وهو إقليم القيوم، وبذلك استعاد قدرة عظيمة من الأرض الزراعية الخصبة التي جعلها مركزا لاستيطان الإغريق، وحول المستنقع الأصلي في النهاية إلى بحيرة يقارب حجمها حجم بحيرة قارون اليوم. وزود طريق القوافل بين قفط (**Coptos**) على النيل وبين برينيقة أو برنيس (**Berenice**) على البحر الأحمر بالآبار والحصون الصغيرة و أنتي بالبلاد نظام بريد سريع على غرار النظام الفارسي، كما أنشى نظام أبطأ لنقل الطرود الثقيلة والأفراد قائم على نظام إعداد ما يلزم من حيوانات الجر والنقل على طول الطريق، وأدخل بطلميوس الثاني الجمل إلى البلاد، ومن ثم فصاعدا أخذ بريد الخال يجرى من الجنوب إلى الإسكندرية. وسيجد القاري في غير هذا المكان بيانًا بالمجموعة العظيمة من الاستكشافات التي تمت على امتداد ساحل البحر الأحمر (الفصل السابع). ولعل أعظم مأتم من جلال المشروعات هو إكمال بناء مدينة الإسكندرية.

وكانت الإسكندرية نسمى بالإسكندرية على حافة مصر **Alexandria) (ad Aegyptan**، وكان الأهالي يميزون بينها وبين بقية القطر كله بتسميتها والمدينة، وهي تقوم على عنق من الأرض يقع بين البحر وبحيرة مريوط وه على كل من جانبه مرنا. وقد خططها دينوقراطيس على الشكل المستطيل الألوف في المدن الهلينستية (الفصل التاسع) والذي يوجد حتى في القرى اليونانية بإقليم اليوم، ولكن الطرق التي كشف عنها فعلا طرق رومانية خالصة، وأهم مصدر نعرف منه شيئا عن

---

(1) الربابنة المتعهدون: نظام يمثل أعمالا بنزل فيها موظفون أو أعيان يعينون بالاختبار: مهمة إعداد السفن والإنفاق على تجارتها وصيانتها. (المترجم)

المدينة الهلينستية، هو استرابون الذي يصف لنا شارعًا عظيمًا عرضه مائة قدم يمتد شرقا وغربا ويقطعه آخر بزاوية قائمة، وتحمل كثير من الشوارع أمام عبادات أرسينوي الثانية، وكان الإسكندر أوصل جزيرة فاروس (**pharos**) بأرض القارة بوساطة جسر طوله سبعة فراسخ بسمى جمر الفراسخ السبع (**Heptastadion**) فكون بفضله مياه مزدوج، وهو نوع معروفان سيراقوزه وسينوى و كزيكوس. وإلى الشرق من الجسر حوض طبيعي كبير، أهمل في هذه الأيام ا يوجد إلى الغرب عنه مرفأ صناعي بسمي بر السلامة (**Eunostos**) أقيم بإنشاء حواجز الأمواج وهو متصل بحيرة مريوط بإحدى القنوات.وكان بكل منها مرنة داخلي صغير مقفل ينفتح بابه من داخله – فينفتح أحدها من الميناء الشرقية وهو مرفأ بطلميوس الخاص والثاني من مرفأ بالسلامة وهو المرفأ الحربي (**Kibotos**). و كانت ميناء بحيرة مريوط تتلقى تجارة نهر النيل، و كان يقال عنها إنه يمر بها من أطنان البضائع ما يفوق ما يمر بالبنائين البحر بين نفسيهما، وبها كان يرسو أسطول النزهة الفاخر الخاص ببطلميوس الثاني، كما أقيم بها فيا بعد (الفيلا الأنيقة التي شيدت على إحدى العائمات لبطلميوس الرابع. وكان الحي الملكي (**Brucheion**) واقعًا على الميناء الشرقية، وكان يقوم فيه بين المعابد والحدائق الفسيحة كل من القصر والأكاديمية والمكتبة ومعسكرات الحرس ومقابر البطالة والقبر الرائع الذي شاده بطلميوس الثاني البوارى فيه جنان الإسكندر عندما أحضره من منف، وهو قير ظل أباطرة الرومان ينظرون إليه بعين التقديس، حتى لقد حج إليه الإمبراطور كرا كلام وكانت المنارة (**pharos**) تمتد إلى عنان السماء الحارس اليقظ على كل هذا الجمع، وقد بناها على الجزيرة نوستراتوس من كنيدوس حرصا على سلامة البحارة (الفصل التاسع).

وكانت المباني التي تضم الإدارات المركزية للنظام الإداري بأكمله والمخازن الرئيسية القمح والزيت وغيره من الحاصلات ودار القضاء والجمنازيوم أو العهد الرياضي والثقافي تقع كلها داخل المدينة بركان الاستاديوم يقع خارج البوابة الشرقية،كذلك ميدان السباق المعد لسباق العربات وفي التربة بالقرب من الحمى الوطني كان يقوم المعبد العظيم لسرابيس. وكان في الإمكان الحصول على منظر عام للمدينة بأكملها من كل صناعى كرس للإله بان [1] (**pan**).. وكانت الداكن والأسواق تحف الشارع الرئيسي على جانبيه. والراجح أن المنازل قد صارت في حوالي سنة ١٠٠ ترتفع إلى عدة طوابق، و كانت بيوت النزلاء (البنسيونات) معروفة في ذلك الزمان بدرها عبيد أما بها.. و كانت

(١) محله الآن كوم الدكة.

إحدى الترع نجلب مياه النيل إلى المدينة وهناك توزع بوساطة قنوات وأنابيب توصل الماء إلى مجموعة من الصهاريج السفلية، التي كان السكان يأخذون منها حاجتهم من الماء. والظاهر أن بعض البيوت صارت فيما بعد تستطيع الحصول على حاجها من الماء بالضخات، وكانت مباني المدينة تمتد خارج أسوارها من كلا الجانين ويقع الحي المصري الوطني في الغرب، وإلى الشرق خارج ضاحية الوسيس [1] كانت حدائق الأغنياء تمتد إلى كانوب (**Conopus**) (أي قير) التي كانت ساحة هو الإسكندرية. وفي عام ٢٠٠٠. كانت الإسكندرية أعظم مدينة في العالم المعروف آنذاك، وإن فاقتها زوما فيما بعد، وبلغ عدد سكانها المليون فيما يحتمل في عصر أوغسطس. و قد عز حديثًا على محاورة ادعي فيها أحد المتحمسين أن الإسكندرية في العالم: الكرة الأرضية ما هي أرضن المدينة و التابعة لها، كما أن المدن الأخرى ليست إلا قراها. وفي الإمكان تكوين صورة عن ثروتها وقامتها في عهد بطلميوس الثاني ما كتبه كاليكسينوس في وصف حفظه لنا أثينا يوسي عن موكب خرج في عبد لذلك الملك. إن وجود مثل هذا الحشد الهائل من النفوس البشرية وتكوينه لمدينة واحدة بكل مفهوم "المدينة" الدقيق عند اليونان لأمر يكاد يكون فيه استحالة مادية. لقد كانت الإسكندرية عبارة عن مجموعة من الجاليات (**politeamata**) (الفصل الرابع)، تقوم على أساس القوميات. وكانت أهمها بدرجة كبيرة الجالية الإغريقية، وبمعزل عن هؤلاء جميعا وفي أعلى مرتبة بالمدينة كان يقف عدد قليل من المقدونيين ذوي الامتيازات على حين تقف كتلة المصريين في أدنى المراتب، ولم يكن لها حتى مجلس مدينة (وإن ظن البعض غير ذلك) ولا شك أن ماجة فلكن بأنه ليس معقولا أن يفشي الإسكندر مدينة بلا مجلس، زعم يفترض مقدمًا ودون بينات أن ما أنشأه الإسكندر كان مدينة (**polis**)، على حين أن مؤسساته كانت في الراجح زان طراز مختلط جديد. ومع ذلك فإن المالية الإغريقية بالإسكندرية كانت أدنى كثرة إلى طراز المدينة المعروف عند اليونان من أية بالية أخرى نعرفها، وكان الإغريق يسمون و المواطنين الأحرار **Citizens**)– و "الإسكندريين" وكانوا ينقسمون إلى قبائل، و كان يؤخذ من بينهم الموظفون العموميون على الطراز الإغريق وهم الذين كانوا يشرفون على المباني وشئون الصحة العامة وما إليها. و كذلك كانت تتألف منهم المحاكم اليونانية التي كانت تطبق قانونا يجمع بين و قانون المدينة وهو قانون المواطنين الإغريق الأحرار وبين المراسيم الملكية. وكان لهذه المحاكم اختصاص فيما يبدو على السكان عدا الجالية اليهودية (بعد القرن الثالث)، و كانت الأرض الملحقة بالإسكندرية في أرض

[1] الوسيس هي حي النزهة حاليًا.

الإسكندريين أي أرض الجالية اليونانية. ولو فرض أننا اكتشفنا فيا بعد وجود مجلس (بولي) الراجح أن هذا المجلس هو الذي كان يدير شئون تلك الحالية وهو أمر لا بد أن نسلم بوجوده، ومع ذلك فقد كان هناك مكان كثيرون من الإغريق لم يكونوا أعضاء في تلك الجالية اليونانية، كما أن السكان جميعًا كانوا خاضعين للحاكم الذي يعينه بطلميوس، وكان لذلك الحاكم في الفترة الحالية سلطان عسكرية، و كان هناك موظفون ملكيون آخرون مثل رئيس الشرطة ورئيس البلدية الملقب (**Exegetes**) (الذي كان يرتدى ثيابا أرجوانية) ومثل اليوثينيارك (**Eutheniarch**). وربما كان من اختصاص أحد الاثنين الأخيرين تدير مواد التموين، بيد أن انه كان يشرف بنفسه على توفير ما يلزم للمدينة من الطعام. وأهم ما بشوق المؤرخ في ذلك الدستور هو أن يتتبع و قانون المدينة بما كان له من طابع شخصى خاص بالإغريق، وقد بسط تطبيقه على غير الإغريق – حتى أخذ يصبح قانونًا إقليميًا حقًا. وربما كان ذلك جزءا من خطة الإسكندر لصهر الأجناس المختلفة بعضها ببعض. ولاشك أن الإسكندرية ما لبنت بعد أن أخذ الإغريق والمصريون يختلطون بالتزاوج في القرن الثاني، أن نجحت في النهاية (بغض النظر عن اليهود وقلة ضئيلة من الإغريق) في صهرهم جميعا في كتلة متجانسة بدرجة صغرى أو كبرت، وهي كتلة من السكان المحبين للشغب، الذين يهيمون جنونًا بالمهرجانات والحفلات العامة والساخرين التهكمين بالأسرة المالكة، بل المعادين لها أحيانا وإن قاتلوا عنها مع ذلك في النهاية ثم عادوا فندموا عليها طويلا.

والحديث في وصف النظام السائد في عهد البطالة لخوض في وصف جسد بلا رأس، وذلك لأن الخيوط جميعًا كانت تمتد إلى الإسكندرية، ولسنا تعرف شيئا عن الدواوين المركزية فيها، أما المعلومات الباقية لدينا فتجيء من ريف البلاد. وكانت مصر مُنذ أيام حك الفرس قد أخذت بأسباب الدفع نقدا وإحلال ذلك محل طريقة الدفع عينا، ولقيت تلك الطريقة تشجيعًا كبيرًا في عبد البطالمة. ولكن النظام القائم على الاقتصاد العيني كان لا يزال موجودة. وقد ظل رأس المال النقدي على الدوام من الأمور النادرة نسبية في البلاد، وكانت الفائدة وهي في المائة إلى ١ في المائة، هي نسبا لم تكن بلاد اليونان تعرفها إلا في القروض البحرية. أما فيما يتعلق بالفلاحين فكان أساس النظام أنه يتعين على كل إنسان أن يكون له ومكانه الخاص، الذي لم يكن: يستطيع مبارحه إلا بأمر رسمي أو تصريح. وقد تمكن المؤرخون من ترسم أصول نظام الاحتكار وإرجاعها إلى عهد احتكارات المعبد القدم في العصور الفرعونية وإلى ذلك الأفكار الشهير للقمح الذي جلبه كليومينيس، الوكيل المالي عن الإسكندر

عندما كانت البلاد في قبضته فعلا. ولكن النظام على ما نعرفه يدو كأنما هو من عمل بطلميوس الثاني، وإن كان المعقول في تصورنا أن أباه هو الذي أنشأه.

كان الملك هو الدولة، وقد ادعى بطلميوس الأول بعد وفاة برديكاس أنه حصل على مصر "بحد الحسام" فهي من ثم تنتقل إلى الملك حسب العرف المقدوني المتبع. ولذا فانه ادعى أنه مالك أرض مصر كلها عدا أرض نقراطيس والإسكندرية وبطلمية: فلم يقتصر ادعاؤه على الأراضي القديمة الملكية السابقة، بل ضم إليه أيضا أملاك المعابد وأرض الأسر الإقطاعية النبيلة التي ألقاها البطالة. وقد قسمت الأرض بأكملها إلى نوعين اثنين فقط: أرض الملك بأضيق معاني الكلمة، أعني الأرض التي هي ملك يده، والأرض الممنوحة. وكان يزرع أرض الملك. "الفلاحون الملكيون" أي "شعب الملك". وهم شطر جوهري من الفلاحين وسكان القرى، وقد ظل أجدادهم يزرعون أرض الملك قرونًا لا حصر لها، و كثير منهم فلاحون صغار، ولكن فيهم مضارعون لهم بعض المكانة. وقد أصبحت بعض مكوك حيازتهم المعتادة تنقل إلى صيغ يونانية. فكانوا يسجلون في السجلات تحت اسم المستأجرين بموجب عقود إيجار. ولكن لم يكن معهم عقود إيجار مكتوبة، كما أن الملك لم يكن يضطلع من جانبه بواجبات المؤجر المترتبة على التأجير، ولما كانوا لا يستطيعون مغادرة قراهم، لذلك كانوا ملزمين بزراعة أرضهم، وكان في الإمكان إلزامهم بزراعة قدر أكبر منها إذا خلت قطعة أرض من ساكنيها وفالحيها (وذلك لأن الدولة كانت تقوم على المبدأ القائل بأن أرض الملك ينبغي. أن تظل مزرعة). وكان من الجائز تسخير حيواناتهم ومواشيهم وكانوا يعملون بالسخرة على الجسور والترع ويقومون عليها. وفي الإمكان طردهم في أي وقت من الأوقات. وإذن فالواقع أنهم لم يكونوا يختلفون كثيرا عن رقيق الأرض. ولا ندري ما كان تلك الملك من أرض مصر، ومن المحقق أنه كان يمتلك شطرا كبيرة جدا، وأنه كان يمتلك نصيب الأسد في أرض الفيوم والدلتا.

وكانت الأرض الممنوحة هبة تنقسم إلى أربع فئات: (أ) أراضي المعابد، (ب) أرض في حيازة الجند الإقطاعيين (**Cleruchic**) (جـ) أرض الهبات (د) ما يسمونه بالأرض الخاصة. أما عن النوع الأول كان الملك بوصفه كذلك إلا مصريا بزرع الأراضي التي كانت من قبل نتبع المعابد، و كان يخصص للمعبد نصيبه الذي يلزمه من المحمول ومحتفظ لنفسه بالباقي. والراجح أن مقادير مترامية من الأراضي بالإقليم الطبي كانت تنتمي إلى هذه الفئة من الأرض. وفي النوع الثاني كان الجنود الإقطاعيون (**Cleruels**) وهم أصحاب الإقطاعات (**Kleroi**) أو الأنصبة العسكرية مستوطنين

عسكريين، وهم في الأصل مرتزقة من جنسيات كثيرة يغلب فيهم العنصر الإغريقي، وهم تجمعون في مستوطنات وفي إنزالهم في الأرض ضمان للدرة في كل آن بما يلزمها من إمدادات عسكرية. وقد أعطوا في القرن الثالث أرضًا جيدة. ولكن الحكومة كانت تزلهم بعد ذلك في الأراضي البور أو غير المنزرعة حيث يباح لهم حق الانتفاع من هذه الأرض بسعر منخفض على شريطة أن يستصلحوا أنصبتهم منها. وكان في وسعهم أن يتحملوها أرض قمح أو أرض بساتين حسب هواهم (وكانت الكروم تحسب ضمن البساتين والحدائق)، ويدفعون إيجارها على هذا الأساس، حيث بدفع الواحد منهم عن أرض القمح قمحا وعن أرض البساتين نقودًا، ولم نكن إيجاراتهم عالية، وذلك لأن التزامهم أداء الخدمة العسكرية كان جزءا من الإيجار فان مات أحد الإقطاعيين العسكريين أو أخفق دون دفع إيجاره أو أداء خدمته العسكرية جاز للملك أن يسترد الأرض. ولكن و النصيب و من الأرض أصبح وراثية مُنذ ٢١٨ و صار ينتقل إلى ابن صاحب الإقطاع، كما صار في الإمكان فيما بعد التنازل عنه أو تحويله لآخر. والنوع الثالث ويقصد به أرض الهبات كان يتضمن مزارع مترامية الأطراف تحتوي على قرية أر أكثر بما يحيطها من أرض وهبت لأحد الموظفين، فيصبح بذلك صاحب السيطرة على سلطات القرية. و كان الغرض من ذلك تقدم الأرض واستصلاحها تماما عن طريقه، ولكن كان من حق الملك أن يسترد الضيعة. وقد أمدتنا وثائق زينون البردية بقدر كبير من المعلومات عن الشيعة التي وهبها الملك بطلميوس الثاني بالفيوم. لوزير ماليته أبو الونيوس. والنوع الأخير بمثل الأرض الخاصية و كانت تشتمل أصلا على المنزل والحديقة والكرمة، حتى لقد كان بيت الفلاح الملكي وحديقته أملاكا خاصة. و كان الإغريق يسمونها أحيانا. والممتلكات (**Property**)، ولكنها شأن كل شكل آخر في الأوضاع البطلمية لم تكن ممتلكات بل حق انتفاع. ولو استثنينا المدن الإغريقية من حسابنا لم نجد الملكية والحق القانوني في أي أرض بمصر يخرج من يد الملك أبداً. على أن الملوك ما لبثوا أن أخذوا يعطون للمدنيين حقوق الانتفاع بصفة مستديمة في أرض أخرى عدا البيت والحديقة – وهي الأرض البور وأرض الإقطاع العسكري التي خلت من أصحابها أو حتى أرض الملك التي خلت من ساكنيها، وهذه الأرض أيضا كانت تعد وخاصة». وقد زادت أهميتها زيادة عظيمة في القرن الأول، بل زادت أكثر وأكثر في العهد الروماني؛ ولما كان الجند الإقطاعيون عم العنصر العسكري في الدولة، فمن المحتمل أيضا أن ساكني الأملاك الخاصة كانوا العنصر الذي يزودها بالموظفين في الوظائف الصغرى للجهاز الحكومي. وفي الإمكان عقد مقارنة بين النظم المتماثلة بمصر وآسيا السلوقية، حيث قد توجد المستقرات المدنية إلى جوار المستقرات العسكرية (الفصل الرابع).

وننتقل إلى النظام الاقتصادي تفه. وكانت البسامة الرئيسية مصر في القمع. فكل أرض للقمع مهما تكن شخصية واضع اليد عليها، كانت تدفع ضريبة عينية من القمح للملك رأسا، ولم يكن أي جزء من المحصول في أرض الملك يذهب لجيب الفلاح حتى يستولى الملك على نصيبه وهو الشطر الأعظم من المحصول وحتي يحمله الفلاح إلى شونة الملك في زمام قريته. وبينما كان السلوقيون في آسيا شركاء الفلاحين ولا بد أنهم كانوا يشاطرونهم الخسائر في السنين العجاف (الفصل الرابع)، انه في مصر كان كل جزء من الأرض يزرعه الفلاحون من الأهالي يبدأ بتقديم الكمية المفروضة عليه للملك كواجب أول ولا تقع فيه الخسارة إلا على جانب المزارع وحده، وكان هذا أحد أسباب الثراء المريض الذي نوار لبطلميوس، ولم يكن يتبقى الفلاحين الملكيين إلا الكفاف يعيشون عليه، وكان الملك يزودهم بما يلزمهم في العام القابل من بذور القمح. وينتقل القمح من شون القرية إلى الشونة العامة للقسم ومنها يؤخذ في النيل إلى شونة الملك بالإسكندرية و مخزن هناك لقد كان القمح نيلا آخر ينساب إلى العاصمة و تغذيه آلاف من الروافد. وكان بطلميوس أعظم تاجر مع شهده العالم على مر الدهور.

أما المواد الأساسية التي كانت احتكارًا ملكيًا أو تحوى عنصرا من عناصر الاحتكار كالأقمشة والزيت، فكانت المعاملة فيها تختلف حسب مقتضيات المواد الخام نفسها، ما هو الحال في مسألة المنسوجات مثلا. ومع أن الملك كان يجدد في كل عام مقدار ما ينبغي زراعته من الكتان بالبلاد، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يقرر بالدقة عدد الأغنام التي يمكن تربيتها، وأقصى ما كان يستطيع فعله ها هنا هو أن يفرض على الصوف الأجنبي ضريبة استيراد قدرها عشرون في المائة داخل نطاق التعريفة الجمركية، وهو أمر جعل أبو للونيوس بجرى التجارب في تربية الغنم البلطي (وهي الصنف المعادل لغنم المرينو ببلاد اليونان) إذ يلوح أن أحدا لم يحاول قط أن يحتكر الصوف والكتان على السواء بجمل بيع خاماتهما مقصورة على الملك وحده. والراجح أن المصانع الملكية كانت تأخذ ما يلزم البلاط الملكي والجيش منهما وما يلزم تجارة الصادر (بالنسبة الكتان). على أن صناعة نسيج الصوف كان الشيء الكثير منها يترك لرأس المال الخاص والجهود الفردية كذلك. ولكن نسج التيل كان يخضع لإشراف أدق وإن لم ينطو ذلك على احتكار قام. ومع أن كل قسم إداري(**Nome**) بل كل ناسج كان ملزمًا بمقتضى التعليمات أن ينتج للدولة بضاعة وسلعًا من نوع وقدر معين، وكان على الفرد أن يعوض الدولة بالنقد عن أي نقص في المقدار المقرر عليه، والظاهر أن القانون لم يكن بحظر على

الأفراد إنتاج فائض عن النصيب الذي تطلبه الدولة، إذ لم يزل مسموحًا للمعابد أن تنتج لنفسها ما يلزمها على شريطة أن تفتح النصيب المفروض عليها. أما تسويق منتجات المنسوجات فإنا لا نزال غير متحققين من مدى اضطلاع الحكومة بتنظيم الأسعار والكيان.

ولكن الزيت كان أهم الاحتكارات الملكية. الزيتون كان نادر أعلى الرغم من أنه أدخل إلى مصر من زمن بعيد جدا. وكانت أشجاره تزرع ابتغاء الزينة ولم تكن الحمار تستخدم إلا كفاكهة تؤكل، كما أن الزيت كان يستخرج من السمسم (وهو خير أنواعه) ومن حب الملوك رمن بذر الكتان والقرطم وبذر القرع. وكان الملك يحدد كل عام المساحة التي يجب زراعتها بالنباتات المنتجة للزيوت. وكان زرعها إجباريا، كما كان الملك يستولي على المحصول بأكمله بسعر محدد. وكان الزيت يعتصر في معاصر الحكومة التي يكون المال فيها من موالى الأرض الذين يرغمون على العمل و يقيدون بمحال إقامتهم ما لم ينقلوا إلى مكان آخر بأوامر رسمية. وكان يوزع الزيت على الناس في النهاية تجار تجزئة بسعر محدد. ولمنع المنافسة فرض على الزيت الخارجي ضريبة استيراد ثقيلة. ففي ٢٥٩ باع بطلميوس الثاني زينه بمصر بسعر ٥٢ دراخمة للمكيال المعروف بالمترتبس (**Metretes**)، وكانت ضريبة الاستيراد خمسين في المائة مع إلزام كل مستورد بأن يبيع البيت المستورد للملك وحده بسعر ٤٦ دراخمة، وكان الحال يجري على هذا النحو. فالمستورد للزيت اليوناني كان ملزمة بدفع ضريبة قدرها ٢٦ دراخمة بطلمية، فضلا عن نحو دراخمتين مكوس الميناء الإسكندرية وغيرها من المكوس، ثم يضطر أن يبيع بستة وأربعين دراخمة بطلمية. وهذا كان يترك له نحو ١٨ دراخمة بطلمية في المترنيس الواحد لتغطية سعر شراء الزيت، عدا رسم الصادر بالمدينة التي أرسل منها الزيت ونذره ٢ في المائة و نفقات النقل بحرة، وذلك فضلا عن مكسبه وعلى ذلك لم يكن من المستطاع شحن الزيت إلى مصر مالم يكن من تكلفته أقل كثيرة جدا من ١٨ دراخمة بطلمية وهي تعادل بالتقريب ١٥ دراخة آتيكية (وهى دراخمة الإسكندر). ولكن حوالى ٢٥٩ كان سعر التجزئة للزيت الحر بديلوس يتراوح بين ٢١، ١٧ دراخمة آتيكية. فكأن الضريبة المصرية كان مقصودة بها منع الاستيراد منعا باتا. وإذا فرض مع ذلك أن أبولونيوس استورد بالقمل زيت الزيتون مستخدمة سفنه الخاصة، فان وزير المالية العظيم كان يستطيع دفع النفقات التي يستلزمها ماجه وإشباع مآربه. ولكن بطلميوس لم يكن ليسمح بترك الأمور رهن ظروفها، فإذا تراءى لأي فرد على الرغم من الضريبة أن ينقل زينة في النيل ليستخدمه في أغراضه الخاصة، وجب عليه أن يدفع ١٢ في المائة أخرى من ثمنه. وإذا حاول بيعه صودر وغرم

المخالف ١٠٠ دراخة عن كل مكيال قدره مترتيس. لقد كان الزيت احتكارًا دقيقًا لأقصى حد فكان كل شيء فيه مؤمما: الإنتاج والصناعة والتوزيع. وكانت مكاسب بطلميوس تتراوح بين سبعين في المائة على زيت السيرج، إلى ٣٠٠ في المائة أو يزيد على زيت القرع.

وهناك سلع كثيرة أخرى كانت إما احتكار في يد الملك وإما له فيها نصيب من الربح. وربما أصبحت صناعة ورق البردى و هو مادة الكتابة في العالم كله، احتكارًا في عصر بطلميوس الثاني. ففي سنة مهم كانت لفة البردى تساوى دراخمتين بلاد اليونان. و كانت الدراخمة الواحدة نشتري بها عدة لفان في ٢٩٦ عندما فتحت مصر أبوابها للتجارة، ولكن الذي حدث بعد ٢٧٩ (أي بعد الاحتكار) ان سعر اللفة يقارب من جديد دراستين تقريبًا أما الاحتكارات الأخرى فكانت في المناجم والمحاجر والملاحات و مناجم النطرون (وهي كربونات الصودا التي كانت تستخدم بدل الصابون). وربما كان ضمن الاحتكارات كذلك الاشتغال بتبييض القرش وتجهيزه بوساطة القصارين. وقد طبقوا على القنب نفس النظام الذي يطبق على الكتان. وتباع جميع التوابل المستوردة للملك بالسعر الذي محدده، وكان نصيب الملك من السمك والمصايد جميعها وعسل النحل كله خمسة وعشرين في المائة فضلا عن فرض ضريبة استيراد أخرى قدرها خمسة وعشرون في المائة حماية مصالحه في هذا الشأن. وامتلك جزءا من الأسطول التجاري في النيل، وربما أيضا مصانع الجلد. وكان لكليوبطرة ممتع للصوف تعمل فيه على الراجع جواريها. وكانت أعمال المصارف احتكارا في حقيقتها، حيث كان هناك مصرف للدولة في الإسكندرية، كما كانت هناك مصارف أخرى في عواصم الأقاليم الإدارية وفي القرى. وقد طرح التزاماتها للأفراد الخصوصيين، و كانت تقوم بعمليات الاثنان وفك النقود. فضلا عن قيامها بدور فرع مصرف الدولة (إن لم تكن فعلا فروعًا حقيقية يتولى إدارتها موظفون)، حيث تتلقى الضرائب النقدية وتدفع الأموال المحولة على الخزانة مثل تلك المصارف التي يسمونها مصارف الدولة في المدن الإغريقية (الفصل الثالث)، وفضلا عن أعمال المصارف، فان هناك أعمالا كثيرة كصناعة الجعة وتربية النحل والخنازير لم يكن يجوز القيام بها إلا بشراء رخصة سنوية من خزانة الدولة، ومن المعقول أن نتصور أن هذا كان يطبق على كل عمل لم شمله الاحتكار. و كان الملك يملك جميع أرض المراعي وله قطعان كبيرة من الماشية، وكان الفلاحون الملكيون ملزمين بعد حصد القمح بأن يزرعوا محصولا من المزروعات الخضراء تفتدي به الماشية الملكية، و كان الملك يملك أيضا قطعانًا ضخمة من الخنازير وأسرابا من الأرز كانت تمضي مطلقة المراح، ولم يكن مسموما بقطع شجرة بمصر

إلا بإذن الملك وذلك لأنها كانت مزروعة في أرضه،

وأخيراً يجيء النصيب المقتطع (Apomoira) وهو ضريبة تعادل سدس محصول الكرم وتدفع عينة بالمثل ضريبة عن البساتين والحدائق و تدفع نقدا. وكانت ضريبة النصيب المقتطع هذه خاصة بالمعابد، ولكن بطلميوس الثاني حولها في ٢٦٦ – ٢٦٥ إلى عبادة أرسينوي فيلادلفوس المؤلهة، وهو أمر ربما كان معناه أن جزءا منها كان يذهب إلى الخزانة. ولما كان بطلميوس الثاني يأخذ بالإضافة إلى "النصيب المقتطع" المعروف بضريبة سدس محصول الكروم، ضريبة مقدارها ٣٣ وثلث % على منتجات الكروم والبساتين والحدائق يراعي في تقديرها متوسط ثلاث سنوات، ابن شطرًا كبيرة من الكروم كل عام كان يؤول إلى الملك، وإن كان النبيذ المورد عينة يتحول على الفور إلى سلعة تجارية تباع بوساطة الموظفين الماليين، ومن هنا جاءت ضريبة استيراد قدرها هم على والأنبذة اليونانية الممتازة وهي تقابل الضريبية التي حسبت بمنتهى الدقة بحيث لا تفسد تجارة بطلميوس في التنبيذ والخمور، ومع ذلك تسمح بدخول تلك الأمور الأيونية التي لم يكن في مستطاع الإسكندرية أن تستغني عنها. و كانت طريقة فرض الضريبة على الكروم تملى بطلميوس شريكا لكل زارع كروم، وكلهم في الغالب من الإغريق – وفي هذا نوع من التميز العنصري، وذلك لأنه لم يكن شريكا لمنتجي القمح المصريين، وإن لم يكن لدى الملوك بصفة عامة إلا القليل من الحيز العنصري المتعمد. وما ندرى شيئا عما كان يحدث في ابتكار المواد الأولية في البلاد التي كانت مصر تحكمها وهي نبات السلفيوم في برقة وبلسم أريحا وقار البحر الميت.

ومعنى هذه الإجراءات أنه كما أن جميع أراض مصر كانت ملكا لبطلميوس فكذلك مال جميع الأعمال بصورة ما، إذ يبدو أن جميع الأعمال التي لم تشملها الاحتكارات الملكية لم يكن يجوز مزاولتها إلا على أساس شراء رخصة تبيح العمل أو بشرط تقديم جزء من المحصول للملك.

وكان هناك بالإضافة إلى ذلك قاعة ضخمة من الضرائب والمكوس النقدية. وهناك ضريبة أيلولة على الضياع، ورسم مساكن قيمته خمسة في المائة من الإيجار ورسم على البيوع قدره. ١٠% واثنان في المائة على مبيعات الأسواق و٣٣ ونصف في المائة على أبراج الحمام، وضرائب على الماشية والعبيد، وضريبة رءوس كانت فيما يظهر تؤخذ بنسب مختلفة على سكان القطر جميعا عدا الكهنة وبعض الهيئات الممتازة،وهو إجراء اقتصادى و لبس «عبثا سياسية مفروضة بقصد إبراز منزلة المصريين الدنيا كما كان المظنون قبلا. وكانت هنالك ضريبة دخوله (Oetroi) على التجارة

والبضائع المقولة من مصر العليا في الصعيد) إلى مصر السفلي، و من الريف إلى المدن، ورسم اثنين في المائة على الاستيراد والتصدير في الموانى النيلية، عدا الرسوم المقررة على التصدير والاستيراد وبعضها ثقيل جدا كان يحصل بالإسكندرية وغيرها من الموانى البحرية. وكثيرا ما فرضت على الناس ضرائب الصنع تاج من الذهب عند تولى الملك عرشه، وضرائب لصيانة الأسطول والمنارة، وضرائب للأغراض المحلية كالحفر والشرطة والأطباء والحمامات ثم أدخل إصلاح تم بموجبه فصل الخزانة العامة عن إيراد الملاك الخاص مع جعل هذا الإيراد تحت إدارة موظف يسمى صاحب الحساب الخاص (**Idioslogos**) و هو، خاضع لوزير المالية. و فضلا عن هذا وغيره(استنتاجا من لوائح وتنظيمات عهد أوغسطس) أن جميع اللقطاء بدون ملكا ليمين بطلميوس، و كان صاحب الحساب الخاص يتولى جمعهم باعتبارهم سلعًا قابلة للبيع. و كانت العناية التي تعالج بها التوافه من الأمور مدهشة مذهلة، فإن أبوللونيوس العظيم كان يجمع ما يساوى بضع شلنات من بيع وروده، كما كان بعيد استخدام جرار الزيت المليطي. ومن سوء الحظ أن دخل البطالة غير معروف ولكن الأسرة كانت على وجه العموم تعد أغني أسرة في العالم، وأنها كدست ذلك "الكنز الخاص بالبطالمة" التي أثار جشع الرومان وسال له لعابهم إلى أقصى حد.

ولا شك أن إدارة شئون دولة على مثل هذه الأسس استلزمت وجود إحصائيات كاملة وانية، ولذا فان نظام التسجيل كان رانيا جدة. فكان لكل قرية سجل لأرضها به آخر ما طرأ عليها من تغيرات، وهو بصف كل جزء من الأرض يقع في زمام القرية، و كان بحاضرة ألقسيم سجل خاص، نجمع بياناته من سجلات القرى. ولابد أنه كان بالإسكندرية دار للتسجيل القطر كله، تجمع أصولها من سجلات الأقاليم. ولا بد أنه كان هناك سجل للمنازل، و كانت جميع ثيران الحر ودواب النقل تسجل، وإذا اشترى رجل رخصة ليعيد بها السبك نبعه مندوب للحكومة ليسجل ما يصيده. وكانت سجلات الأرض الرسمية كافية كأساس لفرض الضريبة على الأملاك العقارية وكان فرض الضرائب على المنقولات قائمة على نظام إعلان أصحابها لما عندهم مصحوبة بتفتيش رسمى. والراجح أن ضربا من إحصاء السكان كان مجرى في كل عام. وكان الإشراف يبلغ في دقنه مبلغ التسجيل، التفتيش مجرى على كل شيء، حق ليعلى بطلميوس كل يوم قيمة ما يملكه كل فرد من أفراد رعيته وما يؤديه معظمهم من عمل. ولعله لم يكن هناك شيء اسمه تجارة مستقلة في السوق الداخلية، إلا أن يكون ذلك في المدن الإغريقية. ولم يكن نجار التجزئة إلا موظفين بالدولة، عملهم التوزيع مع تحديد

أرباحهم. وحتى عندما كانت الضرائب المجموعة نقد يمنح التزامها لأحد الناس، فإنها لم تكن عملية حرة، إلا أن يكون ذلك في الممتلكات الخارجية. وكان ملتزم جباية الضرائب تحت هيمنة الحكومة – وذلك يكاد يكون أفضل شي. فعله البطالة –كما أنه لم يكن إلا عضوًا في هيئة لجمع الضرائب، ولكن العناية كلها كانت موجهة نحو التحقيق من أنه جمعها فعلا، وذلك لأنه إن لم يدفع القيمة القدرة أمكن مصادرة أملاكه وأملاك ضامنيه، ولم يكن الفلاحون الملكيون وحده هم الذين يتلقون الأمر بما ينبغي أن زرعوه من المحاصيل، بل والمزارعون الآخرون كذالك، حتى لقد تلقى أبوللونيوس نفسه ذات مرة أمر كهذا، وهو أمر لا يمكن صدوره إلا من بطلميوس الثاني شخصيا. و كانت جميع نيران الحرث لدى فلاحي الملك تحت تصرف الدولة، و كانت توزع في أثناء أوان البذر والحصاد بحيث تتيح للبلاد الانتفاع بالأرض على أحسن وجه وتأتي بخير النار. و كانت جهود عظيمة تبذل لتحسين الزراعة. وفضلا عن وجود تنظيمات أدق، كانت التجارب تجري على البذور الجديدة كما أن الأغنام العربية أدخلت إلى البلاد، واستورد أبوللونيوس أيضا الأغنام المليطية ترعى في ضيعته كما زرع أشجار للشربين ليرى ما إذا كان في الإمكان علاج فقر مصر في الأخشاب. ولما وأنت أيام أغسطس كانت أشجار الزيتون كثيرة جدا بالفيوم. على أن زراعة الأشجار الأصلية بالبلاد والعناية بها. لم تهمل.

واستلزم النظام وجود جيش ضخم من الموظفين الإداريين والماليين وكان كل قسم مقسمًا من الناحية الإدارية إلى مراكز ويحتوى كل مركز (**Topos**) منها على عدد كبير من القرى. وعلى رأس كل قرية وكل مركز موظفان وطنيان، كما أن كل قسم كان فيه الفنان أيضا من الناحية النظرية هما ناظر القسم وكاتبه. ولكن الواقع أن القائد كان رئيس القسم، و كانت اختصاصاته بصفة رئيسية مدنية وقانونية، وإن ظل اسمه رمزا يشير إلى الفتح وكان وزير المالية (**Dioiletes**) وهو الرجل الثاني في المملكة، رئيسا للجهاز المالي في الدولة وهو الذي يعين صغار الموظفين الماليين و كان يهيمن من ديوانه بالإسكندرية على المركزين العظيمين بها، وهما شونة الملك الخاصة بالقمح والمنتجات العينية وبنك الدولة المخصص لجمع الضرائب النقدية. أما حواضر الأقسام وقراها فيها شون القيم والقرية التي كان يجمع فيها القمح تمهيدا لنقله إلى الإسكندرية، وفيها الموظفون المختصون، وفيها أيضا مصارف القسم والقرية التي كانت ترد إليها الضرائب النقدية. وكان يتولى الإشراف على هذه المصارف مندوب عن وزير المالية بكل قسم، أي الدير الاقتصادي (**oikonomos**)، ولكن هذه الوظيفة ازدوجت فيما بعد، فصار هناك مدير للإنتاج العيني وآخر للنقدي. ولم تكن هناك أية ثقة في

أمانة الموظفين الماليين. فإنهم لم يكونوا فحسب ملزمين بإيجاد ضامنين لهم، بل كان يخصص لكل واحد منهم رقيب أو مراجع. فإذا أحضر فلاح قمحه إلى الشونة لم يتلق أي إيصال حتى يتحقق المراجع من صحة وزن رئيس الشونة. وإذا لم يتطوع للعمل العدد الكافي من الرجال شغلت الوظائف الصغرى بطريق الإكراه.

وبطلميوس هو مصدر القانون بوصفه ملكا مطلق السلطان، وكانت لأوامره قوة قانونية. بيد أن تطبيق العدالة في الظروف العادية كان لا بد له أن يضع في اعتباره وجود نظامين مختلفين، النظام الإغريقي والنظام المصري. وذلك أن الإغريق وإن وفدوا من مدن عديدة، إلا أن قانونهم كان لا بد أن يعامل ككل متكامل. والواقع أن م قانون المدينة و الحاج بالإسكندرية يتجلى فيه خليط من العناصر، فمنها ما نقل عن أثينا ومنها ما جاء (فيا محتمل) من آسيا الصغرى. وكان البطالة يعترفون بالمبدأ اليوناني القائل بأن القانون شخصي و ليس إقليمية، ويسلمون بأن المصريين ينبغي أن يعيشوا في ظل قانونهم الخاص به فكان لهم قضاتهم الوطنيون القدماء "اللاؤكريتاى" (**Laocritae**)، ورجم بانون بلاده المحلى إلى اليونانية، ثم أنشئت فيما بعد أثناء القرن الثالث محكمة خاصة للفصل في المنازعات القائمة بين اليونان والمربين مع وضع قانون الطرفين في الحسبان. أما محاكمة الإغريق فقد عينت لها هيئات من القضاة يسمون خريماتستاى **Chrematistae** تتألف كل هيئة من ثلاثة في العادة، ولكل هيئة دورة تقوم بها بمنطقتها الخاصة به و كان الاستئناف منوطا بقاضي القضاة بالإسكندرية. وكان في الإمكان الاستناد إلى القانون المصري والتقاضي به أمام محكمة الخريما تستاى (**Chremat iatae**) ولذلك. اتجهت تلك المحكمة إلى القضاء على المحكمة الوطنية شيئا فشيئا. وطبيعي أن كلا من القانونين شرع يؤثر في الآخر، ولكن القانون اليوناني كان على الجملة آخذا في النمو والاتساع على حساب نظيره المصري، وأهم من ذلك كثيرة اعتداء السلطات الإدارية على القانون، فإن من الوثائق ما يدل على أن أحد القضاة نلقى الأوامر فعلا من أبوللونيوس. وحتى الإغريق أنفسهم لم يكن: بحق لهم أن يستخدموا محامين للمرافعة عنهم إن كان بينهم وبين الخزانة خلاف. وشاعت في البلاد أيضا عادة رفع جميع المسائل الصغيرة إلى الموظفين الإداريين و المسماة وقضايا الحاكم الإدارية بدلا من انتظار دورها لتنظر أمام مهما كالجنايات، ولم يحل القرن الثاني حتى كان الموظفون يقتاتون على سلطات القضاة وينتهكونها في كل نوع من أنواع القضايا المدنية فيما يظهر، ومن الواضح أن قراراتهم لم تكن لها صفة قضائية رسمية، ولكن الناس كانوا يقنعون بالإجراء

الأسرع والأسهل. وإذن فإن ما كان جارية بمصر هو نفس ما كان يجري مع اللجان القضائية ببلاد اليونان (الفصل الثالث): حيث كان التقاضي غير الرسمي يوطد مركزه على حساب القضاء العادي. ثم ترامي الأمر بمصر في النهاية إلى أن طبقة الفلاحين الملكيين المائلة بأكملها. وعمال الاحتكار جميعًا، استبعدوا من دائرة اختصاص المحاكم العادية، ووضعوا تحت طائلة الاختصاص القضائي للموظفين الماليين ووزير المالية اللذين كانا يوقعان عقوبات قاسية عليهم. لقد اختلط الأمر بين السلطات الإدارية وما للقانون من سلطات واختبل أمرهما، وهو وضع يجعل الأمور في غاية السوء، كما أن الإدارة اقتاتت على سلطات القانون.

وكان المجتمع المصري مقسما تقسيما دقيقا في القرن الثالث، فكانت الطبقة العليا التي تمد البلاد بهيئة الموظفين اللازمين للجهاز الإداري تشمل طائفة الكهنة المصريين، والجنود الإقطاعيين (Cleruchs) (الذين كانوا يجنحون إلى تكوين. أرستقراطية عسكرية)، ثم المدنيين الشاغلين للأرض الخاصة، وإغريق المدن الثلاث. وكانت الطبقة الدنيا تتألف من الكتلة الضخمة من الفلاحين. ولم يكن الفلاحون يتلقون أي تعليم، و كانت الأوار وخاصة منها المتعلق بالضرائب، كثيرا ما تصدر بالديموطيقية، وهي اللسان المصري في صورته المتأخرة المستخدمة في ذلك الزمان. وكانوا يقاسون الأمرين من الدقة والإتقان الشديد للنظام الذي يعيشون بظله. وقد أحكم ربط ذلك النظام حتى لم يبق هناك مخرج للتخلص من تلك القيود وكثيرا ما كانت تلك المخارج تخفف وقع الأحوال القاسية ببلاد الشرق. إنهم كانوا يعيشون حياة فقر مدقع وذل مضن ولا يعرفون شيئًا أحسن منها. ولكن الثورات العديدة التي قامت، مُنذ.٢١٦ هي أسطع، برهان على ما انتشر بين الناس من بالغ التذمر. أما الأجور فكان الصانع يتلقى من ٢ إلى ٣ أوبلات في اليوم، كما كان العامل بتلى (في ٢٥٤) أوبلًا واحدة لقاء العمل الشاق و أقل من ذلك عن العمل الخفيف. ولو قيست هذه الأجور حتى على المستوى اليوناني التعس نفسه لكانت مستحيلة غير معقولة، ولكن الخبز كان من رخص الثمن بحيث كان يقال إن الأجور الحقيقية كانت أعلى منها بلاد اليونان لو وضعنا في حسبانا أسعار المواد الغذائية. على أنه لم يكن بمصر رق فيها عدا المناجم، وإلا رقيق المنازل عند الإغريق، ذلك أن المال الوطنيين كانوا من ضآلة الأجور ومن سهولة الضبط والتحكم بحيث قضوا على كل قيمة للرقيق.

وقد سبقت الإشارة في هذا الفصل إلى أن النظام البطلمي كان يقوم على مبدأين: أولها أن لكل إنسان مكانه الذي لم يكن يستطيع مغادرته دون أوامر رسمية أو تصريح بذلك، وثانيها أن زراعة الملك

ينبغي أن تستمر. وربما لم يكن تنفيذ هذا النظام بالأمر المسير جدا في عهد بطلميوس الثاني، أي في عهد مال قوى يستطيع أن يسير موظفيه وسوسهم. قال أحد وزراء المالية عن ذلك النظام: " ليس لأحد الحق في فعل ما يشاء، فالتعليمات تصدر للجميع ابتغاء أمثل النتائج وخير الثمرات". و لكن المصريين الوطنيين كانوا مُنذ البداية يكرهون هذا النظام، الذي كان أشد من أي نظام شهد و به قبله، حتى لقد كثرت في مصر الإضرابات في القرن الثالث نفسه و يا بعده من أيام. والإضراب عادة مصرية قديمة. ولم تكن مجرد فتن يعتدي فيها بالضرب على مدير العمل، بل ينسحب العيال ويتخلون عن العمل بصورة منتظمة. ويسجل التاريخ إضرابات العمال المناجم والمحاجر والقوارب ومن عمال من جميع الأصناف، ومن الفلاحين الملكيين ومن تجار التجزئة والخفر (الشرطة) بل حتى الموظفين. ولم يكن المقصود من إضرابات العمال تحسين حالهم أو زيادة أجورهم، و ذلك لأنه ' لم يكن هناك شيء من ذلك يمكن الحصول عليه. بل كانت إضرابات مردها اليأس القاطع الذي تريد في أواره فيا يحتمل حدث من الأحداث كالتأخر في إرسال تقاوي القمح. وكان الناس سلاح واحد يخشاه رجال الدولة، وذلك هو إيقاف دولاب العمل بتركهم مواطنهم و أماكنهم. وإليكم نص أحد إنذارات الإضراب: "لقد أرهقنا التعب والكلل لذا فإنا نعتزم الفرار". وكانوا يلجا ون عادة إلى معبد يتمتع بحق حماية اللاجئين إليه. وكان الاعتصام بأحد المعابد يمثل عند المصريين حق الإنسان في حرية التصرف في شخصه (**Habeas Corpus**)، ذلك أن سلطان بطلميوس كان ينتهي عند أسوار حرم المعبد، ولم يكن لدى الموظفين الذين أهمهم القلق، من سلاح إلا الإقناع أو إجراء شيء من التنازل و التساهل ليستميلوا الرجال حتى يعودوا إلى أماكنهم ثانية. وقد خفض ملوك البطالمة الثلاثية الأول عدد المعابد التي تستطيع أن تجير اللاجئين إليها، ولكنهم لم يجرؤا على إلغاء ذلك الحق أو حتى خرقه. ومن أم مظاهر كراهية المصريين للحكم الفارسي، أن الكهنة المصريين أنكروا أنفسهم بإقرار من بطلميوس الأول حقهم ذالك على طبقة واحدة هي المقيمون بمصر من سلالة الفرس، ولم يكن هؤلاء كثيري العدد فيها نظن، بيد أن حرمانهم من ذلك الحق نجم عنه فيما بعد أسطورة قانونية عجيبة: فإن الدائنين الذين كانوا يرفعون القضايا كانوا يصفون الدين مهما يكن شأنه بأنه "من سلالة فارسية" لمنعه من الاحتماء والاعتصام.

ولكن الأمور أخذت تتغير عند القرن الثاني وخاصة فيما يتعلق بالفلاحين. ذلك أن عدد السكان كان في تناقص إما بسبب الحروب الأهلية والثورات، وإما بسبب الفقر وعواقبه و كثرة ترك

الناس لأطفالهم دون رعاية، فقل عدد المزارعين وأخذت يد البوار تمتد إلى الأرض. إذا حدث ذلك، أمر الموظفون أشخاصًا آخرين زراعة المزرعة الجارية فوق زراعتهم هم. وفي حال كانت تقابل من الناس بالكراهية والنفور، ويتردد أثرها و صداها في مزاج صغار الموظفين والتهم النفسية وهم المسئولون شخصية عن استيلاء الدولة على حقوقها؛ وتزايدت شيئا فشيئا صعوبة مواصلة زراعة الأرض زراعة كاملة، فزادهم ذلك جورا ووحشية، فكل من لم يسدد ما عليه من الضرائب كان يلقي في السجون جزافا و بلا حساب. وكانت سجون مصر مصدر الفزع الأكبر. ويلوح أن بعض الموظفين الكبار حاولوا ردحا من الزمان أن يكونوا شرفاء في تصرفاتهم وأن يفلحوا الأوضاع ما استطاعوا أيام الشدائد، أو يعملوا على كبح جماح مرءوسيهم. فإن بين أيدينا نصيحة صادرة من أحد وزراء المالية بمحض فيها مديري الاقتصاد التابعين له بأن يعاملوا الأهالي رفق، وإحسان وأمانة، وهذا أكبر شاهد على أن الحال كان على عكس ذلك. ولكن شيئًا أهم من الإضرابات حدث ذات يوم، وذلك لأن الإضراب بطبيعته ينم عن ضرورة العودة إلى العمل في النهاية. ان الفلاحين غير القادرين على دفع ما عليهم من ضرائب والخائفين من قساوة الموظفين ووحشيتهم، كانوا يعمدون إلى هجر أراضيهم إلى الأبد ويحاولون الاعتصام (**Annchoresis**)، وربما لم يزد الرجل على الاعتصام بحرم المعبد، ولكن ربما تمكن لو حسن حظه من الانطلاق تماما والانضمام إلى أمير وطني ثائر أو إلى قطاع الطرق النازلين في المستنقعات. و كان هذا يفضي بالموظفين إلى تحميل القرية كلها مغبة فرار ذلك الآثم. فكانت القرية تلزم بدفع ضرائبه وزراعة أراضيه وذلك دو مبدأ المسئولية الجماعية الذي كتب له أن يلعب دورا رئيسية في القضاء على الإمبراطورية الرومانية، ومع ذلك فسواء في الرجل أو سجن، فإن الدولة كانت تحرم جهد رجل وعمله. لذلك ابتدعت وسيلة لم يكن بد من إبداعها – وهي أن يمنع السجن شهادة الأمان (**Pistia**) التي يطلق بمقتضاها سراحه لفترة معلومة (تكون مثلا مدة الحصاد) حتى لا تحرم الدولة نهائيا من جهوده وعمله: ولم يكن لذلك أدنى علاقة بحرية الفرد، بل بجهده وعمله، وأخيرًا أخذ النظام الإداري كله في الانهيار، و تجاوزت وحشية الموظفين وجشعهم كل حد، أما ما بلغته أحوال البلاد من سوء تحت حكمهم بينا الملوك أصغار على اليسار أو ما دون الأصفار (أنظر ما يلي في هذا الفصل) فأمر يجلي للقارى، من ذلك العدد الضخم من المراسيم التي أصدرها بطلميوس يورجيتس الثاني (ما يلي في هذا الفصل).

أما قوة طائفة الكهنة وهي البقية الوحيدة الباقية من الأرستقراطية الوطنية القديمة، أنها تحطمت

مُنذ زمن طويل، فأخذ الملك أراضي المعابد، ولم يعد الفلاحون القاطنون بها يختلفون حالا عن الفلاحين الملكيين، وأجبر الكهنة جميعا على الشخوص إلى الإسكندرية للاحتفال بعيد مولده، وحرمهم من احتكاراتهم المربحة في الزيت والكتان. على أنه سمح بالفعل المعابد – وكان ذلك أهم ثغرة في احتكارات الدولة – أن تصنع القدر الكافي من نسيج الكتان والزيت لتستخدمه المعابد في أغراضها الخاصة، وطائفة الكهنة أيضا هي التي تقدم العون للدولة بعدها الرجال لله الوظائف الإدارية الصغيرة التي كانت الخدمة فيها إجبارية. وكان من حق الكهنة أن يعقدوا المجامع الدينية (**SAnods**)، ولكنها لم تكن فيا يظهر تعقد إلا لتنظيم المسائل الدينية وإضفاء آيات الشريف والإجلال على الملك. ولكن الملوك حرصوا في الوقت نفسه على عدم المساس بما لدى الأهالي. من مشاعر دينية بالغة القوة والحساسية، فكانوا يفرقون في تصرفاتهم بين الآلهة والكهنة ويكرمون العقيدة المصرية ويخذونها ويمدونها بالهبات. فبنوا المعابد الوطنية في دبدره و إدفو كوم أمبو وفيلة (**Philae**). وذلك لأن بطلميوس نفسه كان، مثله مثل الفرعون، ربًا مصريًا وابنًا لإله الشمس.

كان اليونان يفدون إلى مصر ليجمعوا الثروات. وكانوا ينقلون إلى مصر أسلوب حياتهم بقدر ما يستطيعون، وظلوا قرنًا كاملًا يتحفظون في اختلاطهم. بالمصريين. فكانوا يجلبون معهم آلهتهم ويقرأون هوميروس ويوريبيديس، وينشئون ما لا حصر لعدده من الأندية. ولم يكن تعليمهم الأولى إجبارية ولا من الشئون التي تقوم بها الدولة، وهو أحد الأشياء القليلة التي لم تكن الدولة تقوم بها بمصر. ولدينا اليوم من ذلك العمر كثرة من الكتب والكراسات المدرسية تتناول موضوعاتها القراءة وال به وبعض الأجرومية قواعد اللغة والحساب وذلك فضلا عن هوميروسي، وليس معنى ذلك أن الأمية لم تشع بينهم. وأنشئت الجمنازيات (أي المعاهد الثقافية والرياضية) بجميع حواضر الأقسام، بل حتى في القرى التي يكثر بها عدد اليونان، مثل فيلادلفيا بالفيوم، وقد عثر فيما بعد على أحدها بطيبة بل حتى في مكان سحيق جنوبًا هو أومبي (كوم أمبو)[1] قرب الشلال الأول. و كان يصحب الجمنازيوم نظام الشبيبة (**Ephehes**). أما التعليم الثانوي فكان يتناول فيما يبدو كثيرة من المؤلفين بالمطالعة والدرس، بيد أن علم البيان كان المادة الرئيسية للدراسة، وذلك لأنه. كان يوصل الفرد إلى الوظائف العليا. وأقبل القوم على دراسة الرياضيات للاستفادة منها في مسح الأرض وعمل المعادلات والمقابلات المعقدة بين التقويمين المصري والمقدوني، وهي من التعقيد بحيث أخلع أحيانًا زينون وكيل أبوللونيوس،

([1]) انظر المعجم الجغرافي لمحمد رمزي مادة كوم أمبو، (المترجم)

عن محاولة حرس اسم اليوم والتاريخ حسب الحساب المقدوني. وانتقل تكوين الجمعيات الخاصة إلى المصريين الوطنيين. انا نعرف قائمة طويلة بأسماء نقابات الحرف وهيئاتها، ولكنا لسنا متحققين من صبغتها وهل كانت مراكز دينية أو اجتماعية أو تتجاوز تلك الأهداف. وأسس المرتزقة أبدية عديدة منها ما هو محلى كنوادي المرتزقة في قبرص، وثمة أخرى تقوم على أساس عنصرى سلالى و تسمي نفسها جاليات (**Politeumata**) كأنما هم جزء من الدولة – نعرف منها جاليات السكرينيين والإيدوماتين والقليقين والبؤرتين. ومن البديهي أن قوميتهم سرعان ما أصبحت مجرد اسم، بد أن الإغريق أنفسهم بعد أن انتشروا في كل أرجاء مصر ولم يستطيعوا أن يكونوا مدنا لم يلبثوا أن كونوا من أنفسهم جاليات حقة، وربما احتلت الواحدة منها حية ضخمة بأكمله. فنحن نجد "الإغريق بالدلتا" والإغريق "بإقليم طيبة". والإغريق "بالإقليم الأرسيتويتي" – ولكن الأعضاء كانوا يقلدون كل ما كانوا يستطيعون تقليده من تصرفات الجماعات الإغريقية المستقلة. والحياة الخاصة نصورها مقادير ضخمة من المراسلات الباقية لدينا إلى اليوم ومنها ما هو أحيانًا شائق تماما. فان الخطاب الرمل إلى مليون مهندس الري الذي كان يتولى صرف مياه بحيرة موريس، من زوجته مترو دررا بعد عزله و سقوطه يعد مفخرة للطباع البشرية. وتظهر الرسائل أن النساء كن يستمتعن بقسط من الحرية أعظم كثيرا ما كان متوقعة، كما تبدي أيضا أحد، تلك المتناقضات العجيبة التي تمتلئ بها الحضارة الهلينستية وهو وجود قدر جسيم من أواصر المحبة بين أفراد الأسرة وتعريض الأطفال بكثرة للموت (الفصل الثالث).

ولكن البطالة على الرغم من ألوان النصر التي أحرزوها في البداية – أخفقوا دون بناء دولة قوية وطيدة على الأيام وقائمة على استغلال أحد الشعوب. كما أن اقتصاد المملكة في حد ذاتها على الرغم من كل ثروتها لم يكن من النبات بالدرجة التي تبدو. ذلك أن الصدمات الخارجية والويلات الداخلية كان لها أثرها. فقد أدخل بطلميوس الأول عملة فضية غريبة على معظم المصريين الذين لم تزد معرفة الجمهرة الغفيرة منهم قبل ذلك عن مستوى القابضة. على أن العملة النحاسية البطلمية كانت هي أوسع العملات استمالا عند العامة، فكانت نسبة العملة النحاسية إلى الفضية هى. ١:٦ (وهى لا تختلف كثيرا عن النسبة المرعية في دبلوس ثناء القرن الثالث)؛ ومع ذلك فإن بعض الضرائب لم يكن يصح دفعه إلا بالفضة، وثمة ضرائب أخرى لاندفع إلا بالفضية أو بالنحاس مع تحويل فرق العملة. ولكن نسبة ٦٠: ١ تعدلت بعد (٢٢٠) وذلك – فيما يظهر – بسبب ندرة أصابت الفضة (وإن لم يعم انتشار تلاك الظاهرة حتي آنذاك كثيرا في بلاد أخرى من البحر المتوسط)، على أن ما

يترتب على ذلك من ارتفاع في الأسعار (على أساس النحاس) قد أوقف عندما قررت الحكومة في ٢١١ أن تقبل دفع الضرائب بالعملة النحاسية، فإن الميزان قد انقلب مرة ثانية نتيجة للقرار الصادر في ١٨٠ والقاضي بمضاعفة نسبة العملة النحاسية إلى الفضية حوض البحر المتوسط مضاعفة تقريبية. وفي ١٧٤ – ١٧٣ أصبحت النسبة ٤٨٠: ١ (وهي النسبة الرعية في السوق الحرة عصر في ذلك الأوان) مقبولة رسميا في تحويل دفوع استحقاقات الضرائب بالعملة النحاسية، ولم يعوض الناس عن زيادة الأسعار على الفور بزيادة سريعة في الأجور نقابل زيادة الأسعار. وأغلب الظن أن ذلك كان خشية حدوث تضخم لا سبيل إلى التحكم فيه. وهذا التضخم في العملة النحاسية في جمله كانت تقلباته بلا ريب عاملًا فعالًا في تقويض الثقة في العملة وإنزال العسر بأفقر الطبقات بوجه خاص. وينبغي أن يعد ذلك سببا إضافيا في قلق الوطنيين إبان الفترة التي عقبت معركة رفع (عام ٢١٧). وكان السبب الرئيسي في ذلك هو معركة رفح ذاتها فإنها، وقد جاءت في نهاية قرن ظل فيه المصريون يستغلون، وإن لم يلقوا شيئا من الظلم الإيجابي، إلا أن استغلالهم كان يجري بطريقة منظمة على يد أجانب كانوا يعتبرون تفوقهم العنصري أمرا مسلمًا به.

ولكن ما كاد سيل اليونانيين يتوقف عن الانسياب حتى اضمحلت قوة البطالة العسكرية نفسها بسرعة. وفي ١٦٨ لم ينقذ مصر نفسها من الغزو على يد أنطيوخوس إبيفانيس إلا تدخل روما. لقد كان النظام البطلمي يعتمد اعتيادا تاما على كفاية الموظفين وأمانتهم، وربما طبق النظام على أحسن حال في أيدي بطلميوس الثاني القوية، ولكن الفاسد والعيوب أخذت تتكاثر في عهد ملوك القرن الثاني الضعاف حتى انهار الجهاز الإداري للموظفين. نهائيا في الحرب الأهلية الطويلة التي نشبت بين بور جينيس الثاني وشقيقته كليوبطرة الثانية. وإن المجموعة الضخمة من المراسيم التي أصدرها يورجيتيس حوالي عام ١١٨ لأبلغ شاهد على ما بلغته الدولة من الفوضى وانحلال النظام: فان الموظفين كانوا يجمعون الأموال أو يتروا لأغراضهم الخاصة، كما أنهم استولوا على أحسن أراضي الملك. وكانوا يجبرون الناس على العمل لهم دون أجر وينزلون الجند في ضيافة من أعلى منهم من تلك الأعمال ويغشون دافع الضرائب بأوزان ومكاييل زائفة، ويقبضون حتى على فلاحي الملك من أجل الديون ومعهم ماشينهم وأدواتهم، و كان المصريون يساقون سوقا ليقدموا إلى المحاكم الإغريقية. وأشد من ذلك كله وأنكى أنهم كانوا يسجنون دون محاكمة بأمر من الموظفين. فهل كان العيب في الموظفين أو في النظام ؟ من المحتمل أن العيب يشمل الطرفين معا. فلم يكن في الإمكان نطبق ذلك النظام

تطبيقا كرا إلا على يد رجال نسمو أخلاقهم على نقائص البشرية. ولا شك أن الحرب الأهلية الطويلة زادت السوء تفاقما، ولكن مهما تكن أخطاء يورجيتيس الثاني ان الحرب ما كادت نفع أوزارها حتى واجه الشر بقوة بلغت حد رصد عقوبة الإعدام، وأوقف الحب بدون محاكمة صحيحة، كما أنه أعاد إلى القضاء الوطني (**Laoeritae**) سلطانه على قاعدة أنه ينبغي في قضايا العقود بين اليونان والمصريين أن يكون المرجع في اختيار نوع المحكمة إلى اللغة التي حرر بها العقد، ولكن جميع القضايا بين المصريين تحتم أن تقدم إلى المحكمة الوطنية. وأدخل يورجيتيس أيضا عددا من الإجراءات لحماية شخص دافع الضرائب وممتلكاته، وللتعويض عن خسائر الحرب. ولا شك أن تنظمانه التي بهدف بها إلى إقامة ميزان العدل والنزاهة تعلو كثيرا على معظم الأشياء التي كانت موجودة في القرن الثاني. على أنه لم يؤت إلا قدرا ضئيلا من النجاح، وإن دامت الأسرة بعد ذلك قرنا كاملا آخر، وظلت على الرغم من وجود سلسلة متعاقبة من ضعاف الحكام، – قوية قوة كافية للقيام باستكشافات جديدة صوب الجنوب وقاتلة قيصر قالا لا بأس به.ولكن بورجيتيس لم يحث في كنه النظام الاقتصادي نفسه، وإنما كان الهدف الذي يرمي إليه هو إعادته إلى ما كان عليه من كفاية وإلى تطبيقه بالعدل.

وأيقظت معركة رفح وعى المصريين القوىي، وأصبح اليونان في القرن الثاني يلتزمون خطة الدفاع. ان المراسيم الكهنوتية التي صدرت تكريما لبطلميوس الرابع بعد معركة رفح ثم ما صدر منها من أجل الإشادة بحكم بطلميوس الخامس (وهي المسطرة بحجر رشيد) تعكس إلينا لونا مصريا قويا كما تضفي على الملكين الألقاب التي كانت لفرعون مصر. وتوج بطلميوس الخامس على الطريقة المصرية بمدينة منف، التي أصبحت مقرا ملكيا ثانيا. و كثرت الثورات الوطنية مُنذ ٢١٦ ولكنها بلغت ذروتها في الثورة الكبرى التي شبت في عهد بطلميوس الخامس، وظلت تهب على فترات متقطعة طوال القرن الثاني), وزاد يورجينيس الثاني كثيرا في قوة الكهنة وامتيازاتهم وأملاكهم محاولا بذلك استرضاء الأهالي. على أن هذا الرجل العجيب كان مكروها من الإغريق: نكرهه الأدباء منهم لأنه عطل الأكاديمية بصفة مؤقتة، و كرهه أمل الإسكندرية لأنه ترك لجده في الحرب الأهلية المنان، وأطلق أيديهم في جموع الغوغاء المعادية له، و كرهه الجميع لأنه كان فيها يظنون يؤثر المصريين وبهايهم، ولذا اتهم أساءوا إلى معلمته كل الإساءة. بيد أنه فهم الموقف فيها جزئيا، إذ أدرك مطامع روما، وأخذ يفكر مايا في فكرة عظيمة في إنشاء ملكية إغريقية مصرية ذات طابع قوي. ومن إصلاحاته الكثيرة إعادة تنظيم الجيش الوطني. وقد اتخذ من مصري هو باؤس صهرًا له وجعله حاكما على الإقليم الطيب (**Thehbnd**).

وكان شأنه شأن آنتيوخوس إيفانيسن، يهدف إلى تقوية مملكته ضد روما وإقامتها على أساس جديد؛ كما رجا من وراء تعاون المصريين وإشراكهم في العمل تجنب الصعاب التي قضت على سياسة أنتيوخوس الرامية إلى طبع بلاده بالطابع الهلليتسني البحت. و لكنه فشل بدوره هو أيضا في إيجاد مملكة قومية، وذلك لأنها كانت لا نستقيم والسياسة الاقتصادية التي وضعها بطلميوس الثاني، كما أنه لم يحاول أن ينقح ذلك النظام الذي كان يدر عله خير الثمار. ولذا لم يستطع أن يضم المصريين إلى جانبه، وتواصلت الفتن حتي اضطر بطلميوس لإثيروس في عام ٨٥ أن يقمع آخرها، ودمر في سبيل ذلك شطرا من طيبة.

وهناك دلائل كثيرة على النهضة القومية بعد عام ٢٠٠ على سياسة المصير التي اتبعها الملوك. فلم يعد الموظفون اليونان "منحون ضياعا واسعة ومنح حق الإمارة المعابد جديدة كثيرة أي أعيدت حقوق القديم منها. وأنتي أربعة منها في قرية واحدة هي تيادلفيا، بين عامي ٩٣، ٥٧، وبلغ من سوء استعمال الناس لهذا الحق أن روما قصرنه إلى أضيق نطاق في شيء من العين، وإن رجعنا أنه بتى حتى تبته الكنيسة المسيحية. وانتهى في عهد تورجينيس الثاني الكفاح الطويل بين القومين بتعديل التقويم المقدونى و اضطراره إلى مماشاة المصري والتطابق معه. وبعد رفع، أعيد بعث طبقة المحاربين المصريين (**Machimoi**)، فأصبحوا جنودا إقطاعيين ذوي أنصبة أقل. وعندئذ بدأ اسم المستوطنين (**Katoikoi**) يطلق على أصحاب الإقطاع العسكري الإغريق تمييزا لهم من المصريين، ثم غاب على لفظ المستوطنين الكانريكيين هذا فيما بعد معنى أصحاب الإقطاع العسكريين ذرى الثقافة اليونانية. وأخيرا فقدت كل من كاني المستوطنين (**Katoikoi**) والمحاربين المصريين (**Machimoi**) كل معنى عنصرى ولم يعد لها من معني سوى الدلالة على الرجال ذوي الأنصبة الكبرى أو الصغرى. وحدث في ٢١٥ أن يونانيا ومصريا اشتركا في عقد إيجار مستأجرين.وبدأ اختلاط الدماء بين العنصرين بعد عام ٢٠٠، ولم تعد الأسماء علامة تدل على العنصر، وذلك لأن بعض الوطنيين ارتقوا إلى أعلى الدرجات واتخذوا لأنفسهم أسماء إغريقية، كما أن بعض الإغريق انحطت منزلتهم. ولذا فإن العائلة الواحدة تحوي أسماء إغريقية ووطنية في نفس الحين. أجل لزم بعض الإغريق العزلة والترفع عن غير بني جنسهم. ولكن ظهر عنصر جديد خليط كان وسطا بين اليونان والفلاحين، وصارت لفظة هللينستي تدل على الرجل الذي له بعض الإمام الثقافة الإغريقية. وجاء أوان اضطرت فيه الأسرة المالكة أن تعتمد أيضا على كثيرين ممن لا يسمون حتى إغريقا مثل حورس الجندي غير الإغريق. الذي كان بتكلم لغتين.

وحورس هذا أو هور الوارد اسمه في مجموعة برديات أدلر، وهو شخص مهما يكن أصل عنصره، كان يسمي "سليل الفرس" كما أن في الإمكان اعتباره الطراز الغالب من الرجال في عصره. وقد ظل يعمل في. الخدمة العاملة بإقليم طيبة مدة تقارب الثلاثين عامة بدأت في ١٢٤، حيث ظل يتولى حراسة مع آخرين مثله في إقليم كان بلا ريب بحاجة إلى المراقبة. و قد حلت محل اللغة اليونانية الحية المرعية في برديات القرن الثالث لغة إغريقية أعجمية تكلمها الوطنيون وتعلم بعض اليونان أبيضة بالمثل اللغة المصرية. وكان اليوناني التمر يعتنق الديانة الوطنية، و يتخذ عادات المصريين إلى حد تحنيط موتاه، وظهر زواج الأخ والأخت بين الإغريق في القرن الأول، وانتشر بين الناس حتى اضطرت روما فيما بعد إلى إيقافه. وحتى الذين كانوا يتخرجون من المعاهد الثقافية والرياضية، كانوا يقدمون القرابين للآلهة المصرية، وأخذ الأدب الشعبي يتنبأ يقرب سقوط الإسكندرية البغيضة. ولم يكن ما جلبه البطالمة إلى مصر هو الروح الإغريقية الصميمة، بل مجرد الأشكال والمظاهر الخارجية، فليحل القرن الأول حتى كانت مصر تمتص إلى حد كبير العنصر الأجنبي. ولكي ينقذ أوغسطس ما تبقى من الهلينستية، اضطر إلى العودة إلى سياسة بطلميوس الأول، وإلى بذل الرعاية للعنصر اليوناني و إلى توجيه العناية نحو الجمنازيات وتدعيمها، كما اضطر فضلا عن ذلك إلى القضاء على ما استعاده الكهنة من قوة والعمل على تقليم أظافرهم.

كانت مصر ضيعة لبطلميوس. وهي تمكننا من دراسة نظام للتأميم بشامل صوره بلغ من دقتها أن كاتبا غير معروف من القرن الثالث ترك لنا قصاصة لا تقدر بثمن، يصف فيها نظرية الملكية الهللينستية ويذم أحد الملوك —— (ولاشك أنه كان يعني بطلميوس المتربع على العرش آنذاك)، لأنه كان يعاب ممتلكاته شعبه كأنما هي ممتلكاته الخاصة، كما تمكننا تلك القصاصة البردية من أن ندرس تلك البيروقراطية العظيمة في كل من إلى كفايتها وإتقانها في العهد الأول تم وحشيتها واضمحلاها في عهدها المتأخر وهو النظام البيروقراطي (الديواني) الذي منح روما الإمبراطورية إلى حد كبير النموذج الذي تحتذيه. أما ذلك الاعتقاد السائد بأن ملوك البطالة الأولى كانوا لشعبهم بمثابة الآباء المستعدين تمام الاستعداد لتنفيذ ما تقضي به عالم الفلسفة، فلا يكاد ينهض عليه دليل إلا بعض النصائح الموجهة إلى الموظفين بإحسان السيرة في الناس، حتى ولو اضطرت الظروف هؤلاء الموظفين إلى إتباع مالا يضيع في أي مكان آخر بإلقاء عبء الخسارة كله على عاتق الفلاحين. و كانا يعلم جيد العلم أن لا قيمة مطلقا للعواطف الرقيقة النبيلة التي لا يصحبها عمل. أجل إنه لاشك أن محاولات كانت

تبذل أحيانا في هذا الصدد: فان بطلميوس الثالث أجل فعلا دفع الضرائب عن ستة انخفض فيها الفيضان ونقشت فيها المجاعة، كما أنه يقال إن بطلميوس الخامس عمد في قرار كهتوبي أصدره عند توليته العرش إلى التنازل عن عدد من الضرائب. ولكن لم يكن لك إلا طفلا حدثا، إن ما حدث لم يكن من عمل ذلك الحاكم القاسي، بل من عمل وزيره اليوناني ارستومينيس من أهل اكارنانيا. ومن المحقق أن البطالة المتأخرين حاولوا بقدر ما يستطيعون، وأية رعاياه من جهاز الموظفين كالغول اجدعه أجدادهم وواصلوا م استخدامه. ولكن لم يعد لهم من القوة إلا القدر الذي يمكنهم من إصدار مراسيم لا يعيرها جهاز الموظفين في الدولة أي اهتمام. ولم يكن هؤلاء الملوك مكروهين من الشعب، بل كانوا شيئا بعيدا عنه جدا، وعلى صلة ضئيلة بتلك البيروقراطية التي كانت تتحكم في شئون ذلك الشعب وحياته اليومية.

ولا ريب أن البطالة الأوائل كانوا يبغون الحصول على المال ليكون عونا لهم في تشييد دولة قوية، والتهمة الموجهة إليهم في أن الأموال التي كانوا يحصلون عليها لم تكن تستخدم بأي حال لمصلحة من ساهموا فيها. أجل إنهم أصلحوا الأرض، بيد أنهم لم يصلحوا أحوال الشعب.. ولم تكن هناك أي رقية أو قصد في ظل المصريين، ولكن تخالجهم رغبة في مساعدتهم بدرجة أكثر من جعلهم على الدوام الحين للعمل و هوشى. بعمله كل صاحب رقيق ذي نزعة تجارية. بل إن ذلك نفسه أخفق في النهاية. ومع أن التاريخ السياسي يظهر لنا أنه كانت هناك مقادير كبيرة من الثروة لدى الطبقات العليا، إلا أن كثيرا من العامة غرقوا في الفقر ومحمود الحس إلى الدرك الأسفل في ظل وموظفين مرتشين جشعين لا يرعون شرعة ولا قانونا. فإن كانت المكتبة والأكاديمية (المتحف) تمجدان البطالة في عين التاريخ العالي، أنهما لم تساعدا رعاياهم بشيء. ونحن في غنى عن أن تبهر أبصارنا الثروة المادية والثراء في السلع والمواد فيخفي علينا الانبهار أن حكومتهم لو وزنت بميزان الأخلاق لكانت أدنى كثيرا من مستوى الأسرتين المقدونيتين الأخريين. فإن آل أنتيجونس على ضآلة موارده المالية ولكونهم الحكام القوميين لشعب حر، كانوا الدرع الوافي العالم الإغريقي من برابرة الشمال، ولذا أتاحوا السبيل لتمر ثقافة القرن الثالث البديعة إلى حد ما أما السلوقيون الذين كانت تبهظهم ظروفهم وترهقهم أعباهم، فإنهم حاولوا دون أن يحرموا قسطا من النجاح، أن يرفعوا مستوى الحضارة في نصف قارة بأكمله. على حين أن البطالة كانوا يزرعون أرض ضيعتهم و يملئون خزائنهم.

الفصل السادس

الهللينستية واليهود

الغرض من هذا الفصل درامة آثار الأفكار الهللينسية في اليهود دراسة موجزة: وأعني بذلك قيام ومصير تلك الحركة التي دفعت العالم الإغريق إلى الاتصال بالشعب الوحيد الذي أوتي القوة على مقاومة ثقافة الإغريق المظفرة.

وقل من الإغريق من أبناء الحقبة الهلينستية من حاول على الإطلاق أن يعرف الشيء الكثير من اليهود. فان الإسكندر الذي شهد بعينيه حضارة مصر. و بابل و تحدث إلى زهاد الهند وجلب إلى أوربا أول بارقة من المعلم بالأفستا الإيرانية، لم يزر أورشليم قط. وليس من المستبعد أن هيئة أركان حربه ظنت أنها دولة كهنة أخرى من الطراز الألوف لهم بآسيا الصغرى وسورية، ولم يكن ثيوفراستوس يعرف عن اليهود إلا أنهم من المتفلسفة المتطلعين للنجوم وأنهم الذين ابتدعوا التضحية البشرية. على أن بصيصًا من العلم باليهود أخذ يدو في عهد بطلميوس الأول بوم تمكن معاصره هيكابوس من أبديرا في بيان مشوب بشيء من التعقيد – من الإلمام فلا بحقيقتين بارزتين:أولاهما أن اليهودي لا يصنع تماثيل للأرباب، وثانيتها أنه لا يمارس قتل الأطفال بأمر من صاحب شريعته موسي. وكان الإغريقي يشعر مُنذ البداية أن اليهودي يختلف عن غيره من الناس. ولكن أحدة من اليهود قبل يوسيفوس في أخريات القرن الأول الميلادي، أجمل الوصول إلى تاريخهم في متناول الإغريق. وعندما حاول العالم اليوناني الإسكندر الملقب بوليهستور[1] أي الواسع الاطلاع (حوالى ٥٠ ق.م) أن يقوم بهذه المهمة، لم يستطع أن ينتج إلا مسخا ذا صورة مضحكة. وحتى استرابون. نفسه وهو العام الواسع المعرفة كان على تمام الجهل بالتاريخ اليهودي كما أنه من الواضح أنه لم يسمع قط بأي تراث أدبي يهودي. ذلك أن اليهود كان لهم على الدوام عالمهم المنعزل عما عداه.

ولم تكن دولة اليهودية (Judaea) الصغيرة القائمة فوق التلال التي استحدث فيها عزرا و

---

(١) الإسكندر الملقب بوليهستور ولد في عام ١٠٥ نم فى مليتوب أوكارها ووقع أسير.. حرب في روما وحرره سلا ولقب لركيوس كورنيلبوس الإسكندر – احترف التعليم ومات محروقا وكتب كثيرا في موضوعات منها تاريخ اليهود وروما والأدب المقارن (المترجم).

العقيدة اليهودية الحديثة، تحتوي إلا على شطر من الجنس اليهودي، عند ما استولى عليها بطلميوس الأول في ٣٠١. ولم نكن غزة ولا السهل الساحلي تابعة لليهود، كما أن الصباغ الهللينستي قد غلب على مدن. ذلك السهل الساحلي الذي كان قديما يسمى فلسطين. و كان يسكن أرض السامرة شعب مخلط، كان يعبد هـ وهو في شكم. وكان أنتيجونس الأول قد أنشأ من قبل المستقرات اليونانية في إقليم الخليل وفي إقليم بيرايا، تلك المستقرات التي لم تلبث حتي عززتها مستوطنات البطالة على الضفة الشرقية من الأردن بوجه خاص (الفصل الخامس). و كان الأدوميون الذين كانت لهم عند مصر قيمة وأهمية كجند مرتزقة، يحتلون جنوب دولة اليهودية والأراضي الواقعة جنوب البحر الميت. ولم يكن لدولة اليهودية (Judaea) أي منفذ إلى العالم الخارجي. ولكن عددا كبيرة من أبناء الجنس اليهودي كانوا لا يزالون يسكتون شرق الفرات وخاصة إقليم بابل. وإن النبي يونان أر يونس (Jonah) حوالى ٣٠٠ تمثل وجهة نظر هودى آشورى، على حين أن المشهد المذكور في سفر تربيت [١] (Tubin) ليعوز الوضع القائم بمستقر لهم. بميديا. وهؤلاء اليهود الشرقيون – فما تقول التقاليد اليهودية – هم و الأسباط أو القبائل العشر الشرقية و. على حين كانت القبائل المقيمة ببلاد اليهودية هي يهوذا (Jadab) و بنيامين ولاوي، ولكن من المحتمل أن النظام. النظام القبلي بها. كان ما يمثله في الأصل قد فقد كل معنى محلى، وصار من الجائز أن يهوديًا في بلاد اليهودية ربما انتسب من حيث الدم إلى أية قبيلة من القبائل، فكانت النبية "حنة" من قبيلة أشير (Asher)، كما أن رسالة أرستياس نقول إن رئيس الكهنة أرسل ممثلين عن الإثني عشر سبطا أجمعهم إلى بطلميوس الثاني، وهو أمر ما كان الكاتب ليفعله البتة لو كان معلومة أن ذلك مستحيل.

وظلت بلاد اليهودية حتى عام ٢٠٠ تحت حكم البطالة، ولم يعد الناس يسمعون إلا القليل عن تاريخها اللهم إلا أن يكون ذلك حديثا يدور حول خلاف بين عائلتين رئيسيتين: عائلة أونياس (Oniads) الذين كانت بيده وظيفة رئيس الكهنة وعائلة طوبيا (Taliads) الذين كان معقلهم بالقرب من هشبون في عمون، وربما كانوا من دم عموني إلى حد ما وربما لم يكونوا كذلك. أما الأدب فيبدو أن القرن الثالث خلو منه تماما. وربما كان تاريخ سفر إرميا هو عام ٣٠٦ وسفر يونان (يونس) حوالى ٣٠٠ وربما كان جزء من سفر زكريا (٩ – ١٤) متأخرة عن الإسكندر. ثم لا يبدو أن هناك شيئا آخر حتى سفر الجامعة (Ecclesiastes) قرابة عام ٢٠٠. ثم حدثت نهضة الأدب أثناء ما

---

(١) توبيت هو كاتب أحد الأسفار المحذوفة. (المترجم)

عقب ذلك من الفتن في العصر السلوقي، وإذا صح أن عدم وجود تاريخ وأدب دليل على السعادة فربما كانت بلاد اليهودية على هذا القياس سعيدة نسبيا في حكم البطالة، وإن كان من الواضح أن طبقة الأغنياء كانوا متذرين حوالي ٢٠٠ ولعل ذلك رجع في الغالب إلى العبء الفيل للضرائب المصرية. ولم يكن بد من أن ينتشر الشعب اليهودي في الأرض بعض الشيء، وذلك لأنه لما كان اليهود وبون أطفالهم جميعا ولا بدون منهم أحدة، فإنهم كانوا يتزايدون بدرجة التطابق أسرع من الشعوب الأخرى. ومن ثم تكونت المجتمعات اليهودية في شرق الأردن، شأنها في الجليل فيما بعد. ولا ريب أن البطالمة كانوا يحاولون أن يوجهوا الهجرة إلى ممتلكاتهم. ولكن أحدة لا يستطيع أن يعلم إلى أي حد كان اليهود المصريون ينتمون إلى أرض اليهودية.

. والظاهر أن البطالة الثلاثة الأول قد جروا على العادة الهلينستية المتبعة من عدم التدخل في شئون رعاياهم الدينية. ولكن بطلميوس الرابع الذي كان من المواد المتحمسين لديونيسوس قد خدعه فيا يحتمل التطابق المزعوم بين سابازيوس وصوا باروت حتى اعتقد أن اليهود لم يكونوا يعبدون إلا يونيسوس في صورة شكل آخر. ولما كان ديونيسوس بقابل سرابيس ويطابقه بسبب وجود عنصر أوزيريس فيه، فمن الجائز أن بطلميوس حلم بإنشاء ديانة موحدة في إمبراطوريته هي ديانة ديونيسوس التي توحد عناصر السلالات الرئيسية فيها. غير أننا لسنا محققين تماما من الجهود التي بذلها لإدخال عبادة ديونيسوس في بلاد اليهودية، إن كان بذل أي جهد في هذا السبيل. ولكنه أثار فعلا عداوة شطر من رعاياه فبذلوا كل جهد لتشويه ذكراه كما يتجلى ذلك في سفر المكابيين. ويقدم إلينا سفر الجامعة صورة نجمة الدولة اليهودية كما يصورها الجانب الأرستقراطي في نهاية حكم هذا الملك. وهي تصور البلاد مليئة بدموع المكلومين، حتى لقد كان الموتى أسعد إلا من الأحياء. وكان جواسيسه من الكثرة بكل مكان بحيث أن الطير في الهواء كان ينتقل إليه الأخبار. و كان من الجلي أن الواعظ الأكبر نفسه كان مستعدة للترحيب بأنطيوخوس الثالث باعتباره ملكا كرم المحتد و لكن بوليوس يقول إنعامه الشعب كانوا منحازين لمر، ومن ثم فإن معنى ذلك أنه حدث قبل عام ٢٠٠ بمدة لا ندريها أن اختلف حزب أرستقراطي مع بطلميوس وأخذ أفراده يتحولون عنه إلى غريمه. ولا بد لنا الآن من بحث أمر هذا الحزب.

كان الحكم المصري هو والمدن الهلينستية المجاورة قد عودت اليهود على الدراية باللغة اليونانية

والأسماء اليونانية وغيرها من الظاهر الخارجية للحضارة الإغريقية، ومع أن سلطان عزرا [1] ظل قوية في بلاد اليهودية ان عناصر من الطبقة الحاكمة وهم المحيطون بالكاهن الأعظم كانوا مبالين الهلينستية.. وكانوا يدعون أنهم يهود صالحون إخوانهم تماما وكل ما في الأمر أنهم يرغبون في اقتباس المظاهر الخارجية للحضارة المتسلطة آنذاك. وكان ذلك هو الحزب الناصر السلوقيين في حين أن اليهود المتشددين كانوا يميلون لمصر ويشخصون بأبصارهم عادة إليها. و كان العلماء الذين يلتمسون في الأدب اليهودي أي أثر للروح اليونانية، على حق نام حين اتخذوا من سفر الجامعة مرجحًا يتصيدون فيه طلبتهم. وقد أثار هؤلاء اليهود المشايعون للروح الهلينستية أشد ألعداوة مرارة بين صفوف المتزمتين والأتقياء، فهم الذين تشير إليهم الكتابات اليهودية التالية بأنهم و أعداء الله، وربما كانت الهللينستية اليهودية هي به المرأة الأجنبية الغريبة الملقبة بكلامها و التي يذكرها صفر الأمثال ولكن بيتها "يهبط إلى جذور الموت" وقد اتهموا بإهمال الختان و أنهم يتصفون بكل ألنقائص الخلقية التي تنسبه عادة في العهد القديم للمارقين المرتدين. وكانت خاتمة المطاف أن التهمتين المحددتين الموجهين إليهم في (١٦٩) هي أنهم يميلون إلى الألعاب الرياضية الإغريقية التي تشمل عرى الأجسام وأنهم يرتدون القلنسوة اليونانية، وفي (٢٠٠) تغير حكام بلاد اليهودية فانتزع أنطيوخوس الثالث جنوب سورية بأكمله من معز. وما هي العادة. مع الممتلكات الجديدة، رفع عن كاهل الناس أنواعا متعددة من الضرائب بصفة مؤقتة، ولكن البلاد لم تستقر استقرارا حسنا في ظل الحلم السلوقي وإن تبنتت التقويم السلوقي واحتفظت به، و كانت الأحزاب تنميل إلى محاولة الإيقاع بنت سورية ومصر، ولم تتحسن الأحوال بطبيعة الحال عندما حاول. هليودورس وزير سلوقوس الرابع أن يستولي على كنوز الهيكل. وحاول جماعة من اليهود المتشددين أن يصلحوا بعض ما يتصل بالهيكل من أمور شاذة، ولكنهم أخفقوا فغادروا أرض اليهودية (**Judaes**) بزعامة من يدعى م النجم، وذهبوا إلى دمشق حيث أقاموا "ميثاقًا جديدًا"، وعهدًا بالتوبة والندم. تلك في الأوضاع العامة للموقف عندما وجه أنطيوخوس إبيفانيس إلتفاته إلى أرض اليهودية.

ولم يكن اليهود الورعون يستطيعون الطعن في أنطيوخوس وإظهار الكثير من مساوئه وهو الرجل

([1]) هو الكاهن الكاتب، كاتب كلام وصايا الرب وفرائضه على إسرائيل (عزرًا ٧: ١) (المترجم)

ذو الثياب الأرجوانية، الشرس الظالم النارى الطبع المولود كالصاعقة، كما تصفه كتب النبوءات [1]. وقد اضطهد عباداتهم.وخضب الأرض بدمائهم. ويبين سفر دانيال كيف كان و البرق الصغيرة مكررها، كما أنه أصبح الطراز والمثال الأول المسيح الدجال: ولكن الذين بدأوا الشر هم اليهود البالون إلى متابعة الهللينستية و ليس أنطيوخوس. وكان أول ندخل منه في خلان داخلي نشب بين أسرهم، وإن كان أولى له أن يظل بمعزل عن الأمر كله. ذلك أن الكاهن الأعلى أونياس الثالث كان ذهب إلى أنطاكية بقبل تنصيب أنطيوخوس على العرش ليضم الله إليه في شأن من الشئون يغلق بالخلاف المستحكم بين حزبه و بين حزب طوبيا، ولكن أخاه ياسون (**Jasoo**) وهو أحد زعماء الحزب المشايع لليونانيين،. تآمر عليه وأقنع أنطيوخوس بخلع أونياس و تعيينه كاهنة أعظم، واعدًا إياه بدفع جزية أكبر، وحصل من الملك أيضا على إذن لليهود بإقامة. جمنازيوم بأورشليم، وأن يسموا أنفسهم بالأنطاكيين. ومعنى هذا أن يدل اسم أورشليم إلى أنطاكية. ولكن أنطيوخوس استبد به السخط في (١٧٠) على باسون، فعزاه وعين مكانه منيلاوس كاهنة أعظم، وهو أحد أعضاء حزب طوبيا، ولعله هو نفسه من آل طوبيا، وقد عرض عليه بدوره دفع جزية أكبر، و كان كل من آل أونياس وطويا من دعاة الحضارة الهلينستية ولم بكن غلافها أي أساس دينى. وفى (١٦٩) وبينما كان أنطيوخوس مشغولا بغزو مصر، عاد ياسون واستولى على أورشليم كلها ماعدا القلعة التي اعتصم بها منيلاوس.. وأعمل الذي في أنصار منيلارس. ومن هنا يتجلى أن ياسون كان له في الناس سند و نصير قوي، ولكن أنطيوخوس رأي المسألة بصورة أخرى فانه نصور أن أورشليم قد ارتدن وراء ظهره. لذا فإنه دخل المدينة في طريق عودته من مصر و فر ياسون ونبع الجند السورية أتباعه، وأعيد منيلاوس إلى سلطانه اقتاد أنطيوخوس إلى الهيكل ووضع في يده جزها من الكنز. ودخل أنطيوخوس قدس الأقداس، ثم رويت فيما بعد حكايات عجيبة عما شهد هناك في الفصل السادس فيما يلي).

وظاهر أن أنطيوخوس لم يمسن العقيدة اليهودية حتى تلك الساعة بأي سوء. وينبغي لنا أن نتذكر أنه وإن كان ذا أهمية لدى اليهود، فإنهم لم بلغوا لديه نفس الدرجة من الأهمية. فقد شغل في البداية في فتح مصر، وشغل بعد ذلك بما رسمه من خطة لغزو باكتريا والقضاء على پارتيا (الفصل الأول)، ولم تكن أرض اليهودية عنده إلا دولة صغيرة تابعة له مع غيرها من الدول يترك شئونها على الجملة

---

(١) كتب التنبوءات Sibylliue Book:هي كتب النبوءات الثلاث التي اشتراها ملك روما تاركرين بتن قادح عرضه في البداية لتسح كب.. (المترجم)

للقوات الإقليميين. و لكن حدث في (١٦٨) أن روما حذرته بضرورة الخروج من مصر على صورة انتهكت كل مجاملة مرعية في العلاقات الدولية، وأثارت العالم الهللينستي كله في شخصه. ورأى ذلك الصديق لروما ما ينبغي له أن يتوقعه منها. وأيقن أن فرصته الوحيدة تنحصر في أن تجعل من إمبراطوريته شعبة متحدة في الثقافة والديانة، وهي إمبراطورية لا يمكن أن تكون بالمثل إلا إغريقية بحتة. وإذن فقد وجب على بلاد اليهودية أن تخضع للضرورة العامة كسائر البلاد الأخرى سواء بسواء.. ولعل مثيلاوس قد أفهمه أن ذلك الأمر لا ينطوي على أية صعوبة، وكما أوضح الأستاذ إدوين بيفان، فإن الروايات اليهودية الأولى (انظر المكابيين ١ و ٢) لا تمثل أنطيوخوس في صورة الملك المعادي لليهود أنفسهم. والواقع أنه ليس هناك أي شاهد يدل على أنه منع قط عبادات اليهود بإقليم بابل. ولكن الشغل الشاغل لفكره في تلك الأيام هو أن تتاح له فرصة الحول صوب الشرق. لذا احتل قائده أبوللونيوس مدينة أورشليم في (١٦٧) وهدم السور وبني في مدينة داودى قلعة جديدة ملاها با جند. وجاء في أعقابه هندوب يحيل أهرة بتحريم الديانة اليهودية. ووضع هيكل إغريقي هو " رجسة الخراب" فوق المذبح اليهودي بفناء المعبد. ولا شك أن الخنازير كانت تقدم على هذا المعبد الإغريق التماسا للتطهير الشهري. وأصبح الهيكل يسى معيد زيوس الأولمبي الذي يتجلى على الناس في شخص أنطيوخوس نفسه. وبالمثل صار معبد يهوه في شكيم معبدا لزيوس كسيثيوس (**Xenios**) بناء على طلب. السامريين (على حد قول اليهود).

ووافق كثير من اليهود على الدخول في تلك المقيدة، وذلك لأن حزب المشايعين الهللينستية كان يناصر أنطيوخوس، بيد أن الكثيرين وقفوا موقف المقاومة السلبية. ومن المحقق أن بعضهم إلى الموت شهيدة بمنتهى البسالة، وإن كانت التفاصيل المبالغ فيها إلى حد كبير غير جديرة بالثقة. و نقول الروايات المتواترة إن المقاومة الفعالة قد بدأت بمدينة مودن، حيث بدأها متانيا من عائلة حسبون. وقد لقي الموت في ١٦٦ – ١٦٥ وجمع ابنه يهوذا الملقب بالمكان (المطرقة) شرذمة من الريال لهم نفس النزعة وأثاروا حرب العصابات، واستطاعوا في (١٦٤) أن يهزموا ستة آلاف مقاتل بقيادة جورجياس، أرسلهم مالكم سورية. ولم يكن يهوذا حد في نظر أنطيوخوس إلا مجرد ثائر

لا أهميته وخرج على السلطة الشرعية، وفي تلك الأثناء عبر الملك الفرات لمهاجمة بلاد بارثيا ومات في (١٦٣). واستولى يهوذا على الهيكل وأعاد عبادة يهوه سيرتها الأولى ولكنه لم يتمكن من فتح القلعة. وفي ديسمبر (١٦٤) أقيمت صلاة شكر عظيمة بأورشليم. وفي (١٦٢) حضر لسياس

الوصي على أنطيوخوس الخامس الملك الطفل بشخصه وقبض على زمام الأمر في البلاد وحاصر مدينة أورشليم، ولكن زحف خصمه فيليبوس على أنطاكية، وهو وزير الشئون لدي إيفانيس، جعله يعود أدراجه. ولكي يضمن انضمام اليهود إليه أعاد إليهم ديانتهم دون أن يحتفظ إلا بالسيادة السلوقية فقط، وأمر أيضا بإعدام منيلاوس، وتلك هي نهاية حرب الدين وذلك لأن محاولة أنطيوخوس توحيد الديانة بالبلاد لم تدم أكثر من يوم وفاته. ومع أن يهوذا قام بدور الوطني الصميم فان الذي أنقذ" عبادة يهوه لم يكن سيفه، بل الشقاق الذي دب بين السلوقيين.

وأدى هذا الشقاق نفسه إلى تمكين المكابيين من إقامة دولة مستقلة. و قبل مجلس الشيوخ الروماني يهوذا كحليف له جريا على سياسته التقليدية، وهي العمل على تحطيم دولة السلوقيين. ولكن ما كاد ديمتريوس الأول يتولى العرش السلوقي حتى فتح بلاد اليهودية. وبعد أن تمكن يهوذا في ١٥ آزار (مارس) عام ١٦٠ من هزيمة وقتل قائده نيكانور – وهو يوم جعله اليهود عيدا لأمد طويل، استطاع باخيدس القائد الذي خلف نيكانور، وقد انضم إليه الكاهن الأعظم الجديد ألكيموس وهو من أبناء بيت الكهانة – أن يهزم يهونا و يقتله، ثم أودع بالبلاد حامية عسكرية وأبت على حكمها الكيموس في منصبه. ولكنه لم يتدخل في المسائل الدينية. وطلب يوناثان شقيق يهوذا الصلح واستسلم رجال عصا بأنه و بدا كل شيء مستقرة. ثم راح مدعى العرش الإسكندر بالاس، مهاجم ديمتريوس. وطلب كلاهما من يوناثان العون. على أن الاس ما لبث أن ضمه إلى جانبه بأن جعله كاهنا أعظم. وعندما قهر بالاس ديمتريوس في (١٥٠) أصبح يوناثان الكاهن الأعظم – وهو رجل ماكر لا عهد له ولا ذمة – حاكمًا عسكريًا إسميًا للسلوقيين بأرض اليهودية، ولكنه كان في واقع الأمي أميرة مستقلا. وفي (١٤٧) استولى على يافا**Joppa**)) وبذلك حصل لبلاد اليهودية على منفذ إلى البحر، وبعد وفاته نهض أخوه سيمون (مبان) منتهزة فرصة ما قام بسورية ثانية من منازعات، فطرد الحامية من قلعة أورشليم. وفي (١٤٢) عقد الصلح مع ديمتريوس الثاني وهو صلح "عد بداية الحرية، واتخذ اليهود من ميمون كاهنًا وحاكمًا وراثيًا واعتنت به روما على هذا الوضع.

والآن ينبغي أن ننتة إلى تاريخ التشتت(**Diaspora**)، وهم اليهود المقيمون خارج بلاد اليهودية. وكان اليهود مصر مُنذ أزمان طويلة مستوطنات يهودية. ومُنذ القرن السابع إلى الخامس عاش منهم بجزيرة فيلة (ألفتين) (**E ephatine**) في أعلى النيل جماعة أصلهم في البداية من المرتزقة وقد أسكنهم فيها أحد الملوك، وكان لهم هناك معبد ليهوه الذي كانوا يه دونه هو والربتين أسخيا و

آنات (anaili) وكانوا تحت ولاية ماك مصري وحلفون بالأرباب المصريين، وصاروا في القرن الخامس يتكلمون الآرامية وهو اللسان الدولي الدارج (Lingua franca) للإمبراطورية الفارسية. ولديهم كتاب شعبي آرامي محتوي قصة أحيقار [1] الحكيم. وسكن هود آخرون مصر في عهد إرميا[2]، كما أقمت منهم جالية قديمة بعنف. ثم أحضر بطلميوس الأول عدد منهم إلى الإسكندرية فما بعد، ولعله أعطى الطبقة العليا منهم نفسي المرتبة من الامتيازات التي كانت للمقدونيين. وظل اليهود يواصلون الهجرة إلى مصر طوال القرن الثالث، وينزلون بوجه الإجمال مدينة الإسكندرية، وإن نزلوا أحيانا بريف البلاد، حيث كان لهم في عهد بطلميوس الثالث ثلاث يع. وقد نذرت ثنتان من هذه البيع الملك والملكة وأطفالها، على حين أن البيعة الثالثة بمدينة ليونتوبوليس [3] منحها بطلميوس الثالث حق إيواء اللاجئين والاعتصام بها. ومنح اليهود حق امتلاك الأرض، وعملوا جباة للضرائب، ولكنهم قلما قاموا بأعمال البنوك أو تسليف النقود، ولا يكاد يحدث أن يكون من بينهم تاجر في الفصل السابع). وقطنوا بصفة رئيسية حيا بأكمله بالإسكندرية، حتى إذا تزايد عددهم، أقام الزائدون لأنفسهم تنظيمات منفصلة، ولم يعودوا يعتبرون و مقدونيين. أما اليهودي الذي كان لا زال يسمي نفسه مقدونية في عهد أوغسطس فكان يمد دخيلا في العقيدة أو رجعيًا.

وكثرت مستقراتهم بمصر في أثناء القرن الثاني. وقد بنيت بيع اليهود أماكن عديدة، و كانت السلطات في القرى تفرق تفريقًا تامًا بين اليهود والإغريق. ونذكر السجلات حدوث زواج مختلط بين اليهود والمصريين، وقد حضر أو نياس الثالث الكامن الأعظم إلى مصر في عهد بطلميوس السادس. فأهداه الملك معبدة خربة بليونتوبوليس، حيث بني على أرضه في عام (١٦٠) تقريبا صورة مصغرة الهيكل (معبد) أورشليم ليكون مر كزة دينية ليهود مصر، كما قلد فيه طريقة إقامة الصلوات المعبد الأصلي. ودام ذلك المعبد حتى عام (٧٣) الميلاد، بيد أن اليهود الأتقياء حقا ما زالوا يشخصون با بصارم إلى أورشليم. وروى أن كلا من بطلميوس السادس ثم كليوبطرة الثالثة من بعده قد استخدم قوادة من اليهود، كما أن أحد المرتزقة اليهود "أبرام" يبدو عضوًا في جمعية عسكرية إغريقية مصرية. وحدث أثناء الحرب الأهلية التي نشبت بين كليوبطرة الثالثة وابنها بطلميوس لاثيروس أن انحاز اليهود

---

(١) أحيقار الحكيم ونصت قديمة، وجدت بالآرامية وترجمت إلى معظم لغات العالم وعرفت في الآداب القديمة. (المترجم)

(٢) نبي عبراني ولد بالقرب من أورشليم وناصر نبوخذ نصر، وبعد سقوط المدينة (٥٨٥ ق.م.) السحب إلى مصر. (المترجم)

(٣) لبوتوپوليس محلها الأب تل مقدام بالقرب من ميت غمر، شرق الدلتا. (المترجم)

إلى جانب الأم، فكان ذلك هو بداية حالة التوتر بالإسكندرية بين اليهود واليونان، وذلك لأن اليونان كانوا يناصرون الملك الظافر لاثروس، ولكن التوتر. وهو سياسي في أساسه. لم يتجل إلا في هيئة مشادات كلامية؛ فان و معاداة السامية **Autisemtiam** و المصحوبة بالعنف لم تعرف بمصر قبل عهود الإمبراطورية الرومانية. و كان يهود الإسكندرية في القرن الأول يمثلون أكبر هيئة هم خارج بلاد اليهودية. ويقدر عددهم بمصر بعد الحقبة المسيحية بمليون نسمة، وكانوا يملئون إلى حد كبير اثنين من أحياء الإسكندرية الخمسة الموجودة داخل سور المدينة، ولكن لم يكن هناك حي يهودي من النوع المعروف بالغيتو [1] (**Ghato**) كما أن بعضهم كانوا يعيشون متناثرين في أرجاء الأحياء الأخرى.

على أن تتبع إقامة اليهود بآسيا أمي أعسر من أن يدرك. وترجح بعض. الظواهر الدينية (نفس الفصل فيما يلي) أن الشيء الكثير من هجراتهم التي حلت بآسيا الصغرى كان مصدره إقليم بابل (بابلونيا). فإن كان الحال كذلك، فعناه بلا ريب أن الهجرة بدأت قبل أن يخمر السلوقيون آسيا الصغرى في (١٨٨)، وذلك لأنه يظهر أنهم كانوا كالبطالمة يؤثرون اليهود ويحبونهم بوصفهم مستوطنين من طراز جيد. وليس من سبب يدعونا إلى عدم الأخذ القصة القائلة بأن أنطيوخوس الثالث أسكن في ليديا و فريجيا ألفي عائلة يهودية، وإن كانت الرسالة المنسوبة إليه في هذا الصدد زينت خدمة لأغراض الدعاية وحدها. وينبغي لنا أن نتصور وجود ظاهرة مماثلة لتلك المستوطنات بخصر وإن كانت معرفتنا المحلية بالمستوطنات اليهودية الكبرى بمدن كثيرة آسيا الصغرى لا تعود إلا إلى القرن الأول الميلادي، ولكن الذي حدث حوالي (١٤٠) هو أن "كتب التنبؤات السيلينية" كان في وسعها أن تدعي أن كل إقليم من الأقاليم كان مملوءة باليهود. وقد خصص لهم حي خاص في ساريس وفي مدن أخرى فيها يحتمل. و كان لليهود جمع شامل بمجزرة ديلوس قبل عام (١٠٠)، وهناك بنيت بيعتهم الرشيقة قبل (٨٨). وليس معقولًا أن المستوطنات التي عرفناها فيما بعد ببلاد الإغريق ومقدونيا قد أسست قبل أن أصبحت مقدونيا ولاية رومانية في (١٤٨)، ولا وافت الحقبة المسيحية كان عدد اليهود كبيرا جدا بدمشق وسورية بصفة عامة بما في ذلك مدينة أنطاكية. ولكن متى بدأت الجالية الكبيرة بأنطاكية تتكون ذلك ما لا يمكن القطع فيه بقول. وفي هذه الناحية أيضا ما هو الحال في مصر، يعتقد العلماء أنه لم تكن هناك أية معاداة السامية ذات أثر فعال قبل زمن الإمبراطورية الرومانية. ولكن المحقق أن يهود ديلوس استنزلوا اللعنات يوما ما على أشخاص مجهولين أراقوا ظلما

(١) الفيتو: حي اليهود بإحدى المدن وخاصة في مدن إيطاليا، حيث كانت تحدد إقامتهم ومعيشتهم بدقة. (المترجم)

وعدوانا دماء امرأتين وديتين بريئتين، ولكن ليس من الضروري أن بدل ذلك على وجود ثورات ضد اليهود من حيث هم يهود.

وبينما كان اليهود ينتقلون رويدًا رويدا إلى إحدى المدن اليونانية ويتسربون إليها، كان مركزه في البداية يقارب مركز النزلاء الأجانب المقيمين (**Meries**)، ولكنهم لا يكادون يكثرون في مكان، حتى يقيموا لأنفسهم بيعة ويؤلفون فيما يرجح جماعة خاصة للعبادة، كما هي عادة غيرهم من النزلاء الأجانب المقيمين (الفصل التاسع). ولابد أن يكون للمجتمع كهذا موظفون هم "حاكم البيعة " وغيره – وإليه كان اليهود يقدمون منازعاتهم طبقا للشريعة اليهودية بدلا من التقدم إلى المحاكم اليونانية. ولاشك أن ذلك الوضع يكون إجراء غير رسمى في البداية. ولكن لما كان جميع. الحمام مستعدين لإضفاء عطفهم على اليهود، ان امتياز قضائهم بين أنفسهم حسب شريعتهم أصبح حقا ممنوحة بصفة رسمية في كثير من الأماكن. ولم يكن للمجتمع اليهودي بروما أي هيئة تجمعة إلا تلك الجمعيات المنشأة بالبيع، وعندها أطلق سراح الأسرى اليهود الذين اقتاده بومي إلى روما وأعيدوا إلى بلادهم، أقاموا حتى بأورشليم نفسها بيعتهم الخاصة بهم. وقد بناها شخص اسمه نيودوتس و بني فيها مضيفة ومقاصير للجلوس اليومي وحمامات. ولكن الذي حدث في المدن الإغريقية أن هذا النوع من مجتمع البيعة أنتهى به الأمر حينما وجد، إلى الانتقال من الشريعة الخاصة إلى القانون العام، وأصبح هو الشكل السياسي الذي نتصرف بمقتضاه الهيئة اليهودية. ومع أن نتبع هذا الأمر قبل الحقبة المسيحية غير ممكن، فلا شك أنه يسبق تاريخ تدمير أورشليم.

على أن المنظمات اليهودية تجاوزت هذا الحد تجاوزا كبيرا في مدن كثيرة لا يستثنى منها المدن الهلينستية الجديدة. فقد كان يؤذن لليهود عندما يتكاثرون أن يشكلوا جالية (**Politeuma**) (الفصل الرابع) أي يوجهون إلى فعل ذلك. وهذا أمر كان يجعلهم مستوطنين شبه مستقلين ذاتيا، يستمتعون بحقوق أعظم من حقوق النزلاء الأجانب المقيمين، و بطبيعة الحال كانت الجاليات اليهودية كغيرها من الجاليات (**olineamatala**) تدير شئونها الداخلية والدينية، ولكنهم كانوا يمتازون من ناحية واحدة أكثر من الجميع: فإنهم حصلوا في نهاية الأمر – وإن لم يحدث ذلك في الإسكندرية إلا بعد القرن الثالث على الحق في أن يقضى بينهم موظفوهم العموميون وحكامهم حسب. ما تقضي به شريعتهم الخاصة، وهو أمر معناه في الراجح استثنائهم من القاضي أمام المحاكم الإغريقية. ولعل ذلك الأمر، وليس مسألة الاعتزال الديني، هو مرد الأمر الذي شرع الإغريق يحسونه فيا بعد، وذلك نظرا

لأن الإغريق الهللينستيين كانوا يؤمنون إيمانا راسخا بالمبدأ القائل بأن عقيدة المرء شأن من شئونه الخاصة وليس لأحد حق التدخل فيها. وإن وجود هذه الجاليات اليهودية لأمر مشهود بوضوح في الإسكندرية ومدينة برنيقة بإقليم رقة، كما يلوح أنه موجود بصورة محققة بمدن كثيرة، منها بوجه خاص هيرابوليس بآسيا الصغرى. و كانت جالية الإسكندرية في عهد أوغسطس تحت.. حكم كبير القوم أعني الاثنارك (**Eihnarch**)، وكان بحك الشعب طبقا للشريعة اليهودية، ولكنه يدخل مراسم بطلميوس في حسابه وأضاف أوغسطس إليه مجلسًا من الكبار المسنين. وكانت الجالية بونيقة في عام ١٣ ق.م تحت حكم مجلس من تسعة من الحكام الأراكنة (**arehona**) وهؤلاء قد وردت إشارات إليهم بأماكن أخرى. ولعل هذا الطراز من الحكم أصبح هو الشكل الشائع. بعد أوغسطس.

وكان كثير من العلماء يعتقدون بناء على رواية يوسيفوس أن اليهود كبيئة كانوا مواطنين كامل المواطنية بكل من الإسكندرية وأنطاكية ومدن أونيا. ولكن كان هذا من الأمور المستحيلة دائما.وذلك لأن المواطنية الكاملة، وهي التي تضمن الاشتراك في الحكم وتسيير شئون الحكم ودولاب الإدارة القضائية، كانت تستتبع عبادة آلهة المدينة، وهو أمر كان معناه عند اليهود المروق والكفر. ومع أن بعض أفراد اليهود قد ينحني الواحد منهم في دار ريتمون (**Riumon**) مثلما فعل نيكيتاس الأورشليمي بمدينة باسوس حين أسهم في أعياد ديونيسيوس، أو اليهوديين الذين قدما الشكر في معبد پان (**Pan**)با دفو، ان اليهود بوجه عام سواء أكانوا من دعاة التهلن أو غير دعاته كانوا يستمسكون أشد التمسك بعقيدتهم. والواقع أن اليهود القاطنين بإحدى المدن كانوا يسمون أنفسهم وحدة عنصرية أي شعبا (**Laos**)، ولم يسموا أنفسهم البتة فيما يظهر: «عامة محررين **Demos**. كما أن رسالة الإمبراطور كلوديوس تعد في نظرى قاطعة في دلالتها على أن اليهود بالإسكندرية باعتبارهم هيثم يكونوا قط يعتبرون مواطنين أحرارا. والواقع أن يوسيفوس كان أحيانا غير جدير بالثقة فيما يرويه عن المسائل الهلينستية، حتى لقد استخدم مستندات ووثائق مزيفة لأغراض الدعاية. وفي هذه الحالة بالذات يداخلني الشك – وإن غلب شى. من الاضطراب على عباراته ومصطلحاته – في أنه قصد الأداء بأن اليهود كانوا يستمتعون بكامل المواطنية، كما أني لا أجد أساسا أقيم عليه الشك في عباراته حيث يقول إن اليهود بأنطاكية والإسكندرية كانوا يسمون أنفسهم بالأنطاكيين والإسكندرانيين أو في روايته من الموضوع الخاص افسوس عندما التمس يونان إفسوس من م. أجزيبا أن لا يسمح لليهود الإسهام في مواطنيتهم. وفوق هذا، فبغض النظر عن يوسيفوس، لابد لنا من النظر بين الاعتبار إلى

ذلك الادعاء الذي قتل بحثا، وهو ادعاء القديس بولس بأنه مواطن من طرسوس. والحق أن تفسير ذلك بسيط جدا، فحينما كان الملوك أصحاب قوة ونفوذ كشأنهم في المؤسسات الجديدة مثل الإسكندرية أو أنطاكية أو في مدن مثل إفسوس أعاد فيها السلوقيون الديمقراطية واستطاعوا الوصول إلى تسويات، كانوا يعطون المستوطنين اليهود المساواة في الحقوق المدنية (**Isopolity**) (الفصل الثاني) أي إمكانية المواطنة، وأعني بذلك أن اليهودي كان يستطيع أن يصبح مواطنا إذا طلب ذلك، على شريطة أن يكفر بعقيدته بطبيعة الحال، وبعبد آلهة المدينة، وهذا أمر لا يفسر القضية الافسوسية فحسب، بل و يفسر لفظتي "الأنطاكيين والإسكندرانيين". فعندما وهبت إيطوليا حق المساواة في الحقوق المدنية (**Isopolity**) لكيوس سمي أهل كيوس أنفسهم أيطوليين. وهو أمر يوضح لنا بطريقه دقيقة حرفية سبب إصرار يوسيفوس و جيروم على ما لقيه اليهود من و المساواة في التكريم. والواقع أنه لا يبدو هناك أي تفسير جدي لادعاء بولس إلا هذا النوع من إمكانية الحصول على حقوق المواطنية. وذلك إما بسبب تمتع يهود أنطاكية و طرسوس بالمساواة في الحقوق المدنية، وإما لأنه هو (أو أبوه) منح مواطنية شرفية لم يستخدمها بطبيعة الحال. والبديل الوحيد لهذه الحالة هو أنه كان يعبد آلهة المدينة، وهذا أمر لا محل لبحثه. وكان يجوز "للمواطن بحق الإمكانية" أن يلجأ في حالات الضرورة الملحة إلى المطالبة بمواطنيته. وهناك

حالة مماثلة لحالة القديس بولس: ابن هارپالوس صاحب خزان الإسكندر وهو مواطن شرف في أثينا، عندما تمرد وحرمته أثينا كثائر، حق الدخول فيها، أمر جيشه بالرحيل، وطلب شخصيا استخدام حقه، "كمواطن بحق الإمكانية " فسمح له بالدخول.

والأثر الخالد العظيم الذي خلفه في الهللينستية تشتت اليهود هو "كتاب التوراة السبعينية" (**Septuagint**) هو ترجمة العهد القديم إلى اللغة الإغريقية، وهو الكتاب المقدس الذي عرفه بواس و فيلون، ولكنه أثر خالد من حيث الشكل وحده لا من حيث المادة. ان الرواية التقليدية اليهودية التي تقول إن بطلميوس الثانى دعا سبعين شيخا يهوديا مجتمعين ورجاه أن يترجموا كتبهم المقدسة إلى اليونانية، وأن الترجمات السبعين وجدت متطابقة تماما وبالضبط، إنما هو حديث خرافة. بيد أنه أمر يكشف عن اعتقاد اليهود أنه عندما وافى الجيل الثاني كان يهود الإسكندرية قد أصبحوا يستخدمون اللغة اليونانية وفقدوا لسانهم الأصلي، كما يكشف أيضا عن اعتقاده بأن بطلميوس الثاني كان صديقا لهم بدرجة جعلت مثل ذلك العمل ينسب إليه، والواقع أن الترجمة امتدت على فترة طويلة من الزمن،

فتم نقل كتب الأسفار الخمسة الأولى وهي توراة موسى (enlateuch) في القرن الثالث، ورجم أشعيا إرميا بين (١٧٠، ١٣٢) ونقل سفر الأنبياء وسفر المزامير بصورة عامة حوالي (١٣٢)، على حين أن الكتاب الأخير وهو سفر الجامعة (Ecclesiastes) لم يترجم إلا حوالى ١٠٠ للميلاد. وبغض النظر عن الاختلافات الراجمة إلى النقل عن متن عبري أقدم كثيراً مما لدينا الآن، فكثيراً ما نتعرض الترجمة لموضوعات من التاريخ المعاصر لها. فن أمثلة ذلك أن لفظة اليونانيين تحل محل لفظة الفلسطينيين بوصفهم الظالمين، وأن حزقيال يشير إلى تجارة ميليتوس(مليطة) في الصوف.

وقد ظل اليهود في عصر الشتات على الإجمال يعبدون يهوه:(Yahweh) ويشخصون إلى بيت المقدس بوصفها مدينتهم المقدسة ويدفعون جزية نصف الشامل السنوية من أجل إقامة الصلوات بالهيكل. وقد أوقف أحد الولاة الرومان في (٦١) تحميل الجزية فكشف ذلك عن عدد اليهود الكبير بولاية آسيا ولكن قامت داخل هذا الإطار اختلافات وتباينات كثيرة، وذلك لأن هود: التشتت كانوا من الناحية الروحية – ولو لم يكونوا من الناحية العنصرية – ورثة "المملكة الشمالية" وكانوا يدرن شيئا من الميل إلى ديانات من حولهم من الناس مع بعض الميل إلى مذهب الخلاص للبشر جميعا. ذلك أن بعضهم كانوا ميالين إلى الاعتقاد بأن دينهم ربما أنسع لغير اليهود من الشعوب (Gentiles) فضلا عن اليهود أنفسهم، كما أن سفر يونان (يونس) إنما هو مناشدة لليهود أن ينشروا عقيد هم في كل أرجاء العام الهللينستي. ولا شك أن يهود التشتت كانوا في جملتهم مستمسكين بالشريعة اليهودية، ولكن بينما كان بأرض اليهودية (Jalaan) يهود تتسع عقولهم للفكر الإغريقي وتسيغه، ان مثل هذا. الاتساع والاستساغة لابد أنها كانا أعم لدي يعود الشتات، وهم الذين كانوا في جملتهم معرضين للمؤثرات الهلينستية، وكان فقدان كثير من اليهود للغتهم العبرانية واستخدامهم للآرامية مما سهل عليهم كثيرة استخدام لغة أخرى جديدة. ولذا فإن كثيرا من اليهود شرعوا في كل مكان يتكلمون الإغريقية ويتخذون لأنفسهم أسماء إغريقية مفضلين منها ما اختلط بكلمة تيوس (Theos) أي إله مثل ثيودونس ومعناها عطية الله و ثوفيلوس ومعناها حبيب الله و دوراثيا أي هبة الإلهة. و بلغ من جهلهم بلغتهم أنه حتى في القرن الثالث نفسه كانت الكتب المقدسة العبرانية غير ذات نفع لكثير من يهود الإسكندرية. وكانت الصلوات في كثير من المعابد (البيع) تقام بالإغريقية وقد جمع بعض العلماء قائمة طويلة من الكلمات الإغريقية التي طبعت بالطابع العمراني، وهي تتراوح بين المصطلحات السياسية وبين أسماء الأدوات المنزلية و بالبداهة انتقلت العادات

الإغريقية مع اللغة الإغريقية. فكان المستوطنون اليهود يقلدون جيرانهم اليونان، وأسسوا رابطات للحرف كرابطة صباغي الأرجوان وصناع الأبسطة بمدينة هيرابوليس، وأصدروا المراسيم على النمط.الإغريقي، وأقاموها على أعمدة وحوامل أمام معابدهم. ومنحوا ألوان الكريم المعتادة مثل التيجان، وكانوا يمنحون المقاعد الرئيسية في العيد على غرار منع للقاعد الأمامية في الألعاب، وكانوا الإغريق يمنحون النساء الرتب ومظاهر الكريم.. و قلدوا طرائق عنق الأرقاء لدى اليونان كما، قلدوا نقوش القبور لديهم. وتسامح بعض جهود آسيا الصغرى في الزواج المختلط وأغفلوا عادة الختان؛ وفي مقابل هذا الوضع كان هنالك إلى جوار الردين الشديدي التدقيق، قوم يعطفون على المقيدة مجرد عطف ولا برون أنفسهم ملزمين بالخان ولا الاستمساك بالشريعة بحذافيرها، ولكنهم يحافظون على احترام يوم السبت والتعاليم المتعلقة بالطعام ويعبدون يهوه. وكان دعاة المحافظة على يوم السبت بهم الأسبانيون (**Sabbatistai**) بقليفيا فيا يرجح جمعية من غير اليهود يراعون السبت ويعبدون يهوه بوصفهم أصحاب المذهب السبتي. ويدل وجود هؤلاء الدخلاء في العقيدة أن الدعاية اليهودية كان لها شيء من التأثير بين غير اليهود. وربما حدث أحيانا أن تبني الإغريق أيضا أشكال النظم اليهودية مثل. تلك الجمعيات اليونانية بمصر وخيوس التي كان رئيسها بسمي كبير البيعة . **(Archid.nagogue)**

ولكن الذي حدث بآسيا الصغرى وسورية هو أن بعض اليهود ذهب أبعد كثيرة من مجرد محاكاة أشكال النظم الإغريقية. انه اعتنقوا النحل والعبادات الإغريقية الشرقية. ورما "عد ذلك شاهدة على أنهم جاءوا من إقليم بابل (الفصل السادس) وذلك لأن اليهود الشرقيين كانوا على الدوام على: استعداد لتقبل الآراء الجديدة. وتعلمت نساؤهم أن يعولن ويبكين على تموز [١] (**Taamoz**) وأن يصنعن الكعك لربة السموات، واتخذ اليهود الأسماء البابلية، وهو أمر يدل على كل حال على تقمص يهوه مع بعل ومردوخ. ونيبو (**Nebo**)، كما أن شيطانا فارسا يظهر في سفرنويت [٢] (**Tobit**). وجعلوا. ليهوه نفسه بآسيا الصغرى إما إغريقيا بحثا هوثيوس هيستوس **Theos**) (**H psistos** أي الرب الأعلى وهو اسم استخدمه فيلون فيما بعد. وتبين النقوش المنقولة عن بيعة ديلوس بصورة قاطعة أن هبستوس غالبا ما يكون معناه يهوه (**Yabaweh**). ولكن عندما حدن

(١) تموز: انه النبات عند السومريين، مات في منتصف الصين. وأرجعته إلى الحياة في الري عاشقته مشتار، وانتشرت عبادته. في بابل وسورية وفينيقيا وفلسطين (المترجم)

(٢) سفر توبيت من الأسفار المحذوفة. (المترجم)

عصر أن معبد أثريبيس (Athritis) ومحلها بنها، كرسة لهبسستوس اليهود المحليون بالاشتراك مع قائد الشرطة بالمدينة. باسم بطلميوس الخامس وزوجته الملكة، فلعل اليهود أرادوا شيئا وأراد القائد شيئا آخر. وذلك أن لفظة هيستوس كان يمكن أن نعني آلهة أخرى عدا يهوه، أهمها زيوس كما أن ذلك الاسم نفسه أطلق في سورية على زيوس أو بعل (Baa1) رب هليوبوليسي: ما أطلق على أرباب غيره. وربما أشارت "معابد الشيطان" بمدينتي أزمير وفيلادلفيا، وهي التي تدعي أنهم يهود ولكنهم ليسوا كذلك، إلى خليط من العبادة من نفس النوع، وذلك بالنظر إلى أن هيكل زيوس ببرجامة بصور في سفر الرؤيا على أنه «مجمع الشيطان. وقد جعلوا من و سابا زيوس وأيضا نظيراً وصنوا لرب اليهود عن تقمص وهمى وتطابق بين الرب سابا زيوس مع الرب صاباؤوت، وكان في الإمكان التوفيق بين أسراره التي تدور حول تطهير الناس من خطايا الأسلاف وبين أي دين يؤمن بخطيئة آدم الأولى. وهناك جمعية من عباد سا بازبوس عرفت أيضا بأنها تعبد هبسستوس، كما أنه حدث في (١٣٩) أن بعض اليهود طردوا من روما علنا لإدخالهم إليها عبادة زيوس سا باز يوس. و أخيرا ربما كان الاسم سامباتا يوس أي المولود في السبت، وهو اسم شائع بين هود مصر، مشتقة في الحقيقة لا من السبت بل من سامبنى (Sambethe) السيبولة أو الكاهنة الكلدانية التي كان لها سامبائيون (Sainbonheios) أعني مقصورة. مقدمة في ثياطيرا، وربما كان الأمر من قبيل المطابقة بين اسمها وبين السبت. ولا مراء في أن المتعبد بن القانتين في هذه الحل اليهودية الوثنية كانوا يعتقدون أنهم لا ينفكون يعبدون رب آبائهم. ولكنهم كانوا رافعين تحت تأثير مذهب الهللينستيين في المطابقة بين الأديان، وفي الاعتقاد بأن الشعوب المختلفة إنما تعيد في الحقيقة الإله نفسه نحن أسماء مختلفة، وأنه ممكن بناء على ذلك توحيد الأسماء والنحل. ومن المعقول أن هذه النحل كان لها من الأهمية القدر الكافي. الذي جعل أنطيوخوس الرابع يعتقد أنه لن تكون هنالك صعوبة شديدة تستعصي على إدخال عبادة زيوس حتى في بلاد اليهودية نفسها.

ولو صرفنا النظر عن هذه الحل لوجدنا أن كل ما أخذه اليهود عن الهلينستية لم يكن إلا أشكالا ظاهرية ليس غير، وقل منهم من تعلم من روحها شيئا. وسواء أتبني اليهودي الأشكال الإغريقية أو نبذها، انه كان يظل.. يهوديا على كلا الحالين، أي رجلا تختلف مثله العليا عن مثل الإغريق، وإن عبر عنها الطرفان بنفس الألفاظ. كان الطرفان يطلبان الحرية السياسة ولكن الإغريقي كان يري الحرية غاية، وسيلة التعبير عنها في المجتمع الحر الذي يحم نفسه والذي يصوغ قوانينه ويعبد الآلهة التي

ترضيه، بينما كانت الحرية لدى اليهودي وسيلة، تمنع كل تدخل في إخلاصه لشريعة معاوية منزلة لا يستطيع بشر أن يغيرها، وفي تعلقه رب لا يمكن أن يكون معه معدود آخر. و كان كل من الطرفين يمتدح الحكمة. ولكن اليوناني كان يرى في الحكمة شيئا ينمو بكده كثير من العقول، على حين أن الحكمة كانت لدي اليهودي خانة الله، وهي شيء لا يتغير إلى أبد الآبدين.. وكانت المقيدة اليهودية في القرن الأول ذات وضع عجيب، فهي من ناحية نظام يرفض تقبل الأفكار الإغريقية، في حين أنه يفتح بابه على مصراعيه القبل مؤثرات الشرق الأقل منه متزلة بدرجة متناهية: –كعلم التنجيم وعلم من الشياطين والسحر. ذلك أنها كانت تأمل أن تحصل بفضل هذه الأمور على خدام يخدمن روحها، على حين أن الروح الإغريقية لم يكن في الإمكان أن تكون خادما لأحد. ولكن لمن تنازعت المثل العليا عند اليهودي والإغريقي، فإن العام كان مقدرة له أن يحتاج إليهما كليها. لذا كان من المصلحة عندما كانت الأفكار الإغريقية نغمر الشرق غمرا، أن يبرز لها اليهودي مناضلا مقاتلا

ولكن هناك باحية و أحدة كان لليهود فيها خبرة موازية لخبرة الإغريق.. ذلك أنه كما أن الاضمحلال السياسي لدولة المدينة المتمتعة بالحكم الذاتي بعد عهد الإسكندر جعل الروح الفردية أمرا محترما لدي الإغريق، فان تدمير. الدولة القومية القديمة ودولة المعبد قد جعل تلك الروح الفردية شيئا حتميا – بالنسبة لليهود. وانتهى الأمر بأن استعيض عن فكرة المستقبل الزاهر المبارك لإسرائيل وحل محلها فكرة المستقبل الزاهر المبارك بالنسبة للإسرائيلي. وكما أن الإغريق كانت عنده مذاهبه وقضاياه في الفردية وشمول الخلاص للبشر جميعًا كذلك كان شأن اليهودي، وإن كان هذا في اتجاهات أخرى: فهل يتفضل يهوه في بسط ظلال الأمل في ذلك المستقبل المبارك على البشرية كلها؟ وهل كتب للبشر حقا أن يكونوا إخوة، لا في هذا العالم ما كان يأمل الرواقيون) ولكن في النهاية على كل حال، وفي القرن الثاني استقرت لدى دوائر يهودية معينة استقرارا أكيدا ثابتا فكرة الخلود الشخصي، أو بالحري فكرة البعث من تحت أطباق. الثرى ومن العجيب أن يعتقد بعضهم أن اليهودي نقل اعتقاده في الخلود عن الإغريقي، وذلك نظرا إلى أن الإغريقي الهللينستي لم يكن لديه ذلك الاعتقاد: فإن أشخاصا معينين ربما بلغوا منزلة الخلود، ولكن هؤلاء مجرد أفراد. فالمكافأة العادية لأي شخص طيب القلب لم تكن إلا الذكرى الخالدة. أما ذلك السؤال الصعب عما اقتبسه اليهود من فارس – إن كانوا قد اقتبسوا شيئا فسؤال لا سبيل إلى بحثه في هذا الشام. والأرجح أنهم هم الذين أنشأوا لأنفسهم هذا الاعتقاد، وإن اختلفت الآراء عن. الأسباب التي دعتهم إلى ذلك. وقد نسب ذلك

تارة إلى اضطهاد أنطيوخوس لهم (فما لم يعش الموتى مرة ثانية، يكون المستمسك بالشريعة الذين الشهادة اكثر خسرانا من غير التي الذي استسلم) ونسب تارة أخرى إلى الوعي المتزايد بأن المملكة المسياوية مملكة المسيح المنتظر، لا يمكن تحقيقها في هذا العالم، وتنسب طورا إلى زيادة الخبرة بالاتصال الشخصي الله. وربما اجتمعت هذه الأسباب جميعًا على إظهار الاعتقاد الجديد.

والآن ينبغي لنا أن نعود إلى بلاد اليهودية حيث تطورت أشياء أخرى عدا الاعتقاد في الخلود في ظل ما تولد عن اضطهاد أنطيوخوس وقيام المكابيين من خمائر وتلك الأشياء في: ظهور حركة قوية جديدة من النشاط الأدبي وتكوين الطوائف اليهودية وانتشار فكرة الرجاء المسياري الذي يمثله المسيح، المنتظر وما داخلها من تعديل. أما الطوائف فشهيرة لا تحتاج هنا إلى كثير من الاهتمام. فقد كان هناك مُنذ عهد عزرا هيئة قوية في هيئة الربانيين (**Chasidim**) أي "الأتقياء"، وهم أنصار الشريعة بكاملها. وبديهي أنهم كانوا من المعارضين للهالينستية، وتفرع منهم الفريسيون في عهد المكابيين، وقد جاء ذكر الفريسيين لأول مرة في عام (١٢٠) وكانوا يحافظون على التقاليد الشفوية محافظتهم على الشريعة المكتوبة، كما نشأ خلفائه الكتبة، ويفسر اسم الفريسيين عادة بأنهم "شراح" الكتب المقدسة، ولكن بعض العلماء يعتقدون أن معناه هو و المعولون». ونشأ الصدوقيون "أتباع صدوق" ولعله ليس كاهن داود بل مؤسس آخر مجهول – نشأوا عن الطبقة الثرية الحاكمة المحيطة بالكامن الأعظم. كانوا هودا متشددين يأبون الأخذ بالتقاليد الشفوية كما يرفضون الاعتقاد الجديد الخلود، ذلك الاعتقاد غير المعروف في العهد القديم. ولا علاقة لهم بالمتشيعين للهلينستية، وكانوا أنصارً الدولة المكابية التي كان يعارضها الفريسيون أحيانا بعد أن أصبح يوناثان كاهنا أعظم. وكانت هناك طوائف أصغر مثل طائفة الزهاد الاسينيين والمعاهدين من أهل دمشق الذين سبق ذكره، و كانوا يعتقدون أنهم بقية من أوحى الله إليهم بالأشياء المستورة التي تخطيء فيها إسرائيل كلها ولا سيما الفريسيين والذين اللهم عادوا إلى بلاد اليهودية في عهد المكابيين. تم تجيء جمهرة السكان من وراء هذه الطوائف جميعا، وقد ظاهروا المكابيين حتى حكم بها (**Jannaeus**) وكان أنبياؤهم هم كتاب الوحي والرؤى (**Apocalyptic**).

وينبغي لنا أن نسأل الآن أيوجد من المؤثرات الإغريقية ما يمكن تعقبه في الأدب اليهودي الخاص بتلك الفترة ؟ وما هي تلك المؤثرات ؟ ولم يتلق اليونان عن اليهود أية مؤثرات يهودية. والظاهر أن أحدا من اليونان لم يدر بخلده طوال هذه القرون أن اليهود أدية لا ينفك يعيش وينمو، أدبة ربما نافس

أدبهم.. وفيما عدا النهضة البابلية يمكن القول إجمالا" بأن الآداب الشرقية الأخرى كانت ميتة تقريبا. مثال ذلك، أنه يلوح أن المصريين لم ينتجوا إلا و نبوءة (الفخراني) الخزانة التي نكهت بقصة سقوط الإسكندرية، وإلا تلك المجموعة المخلطة من النبوءات المياة باسم السجل الديموطيقي، وهو حنين مبهم إلى فرد من أبناء جلدتهم يجى، من إثيوبيا، ويخلصهم من البطالة. ولكن اليهود أنتجوا مُنذ (٢٠٠) فصاعدة أدبة ضخمة هائل المقدار اجتمعت فيه ثلاث لغات في العمرانية والآرامية والإغريقية ولعبت فيه أدوارها. و كان منها أجزاء من شريعة العهد القديم، وهي أسفار الجامعة ودانيال (وهو أثر خالد مشرق الديباجة يسجل اضطهادات أنطيوخوس) وجزء من سفر الأمثال وربما أيضا بعض المزامير ومعظم الأسفار المحذوفة[1]. وكان هذا الأدب محتوى التراتيل وأدب الحكمة، وكان بعضه ممتاز أمن الطراز الأول. ويتجلى فيه الاتجاه الديني الجديد الذي اتخذه كتاب الوحي والرؤى. وكان فيه التاريخ، الزائف منه والصادق وفيه الحكايات والأمثال والدعاية و كتب السحر والتزييفات المتحولة:– فهو من ثم أدب به تيارات كثيرة معقدة يشهد بحيوية الشعب الذي أنتجه، وفيما عدا صفر الحكمة (Ecclesiasticus) وسفر المكابيين الثاني وبعض كتابات الدعاية، فان أسماء المؤلفين مجهولة في جميع الحالات. ذلك أن اليهودي كان على عكس الإغريق لا يحس بأي غار شخصي في التأليف، ولعل مرد ذلك أنه كان غالبا ما يرى نفسه مطية لتنفيذ شي، تتواري إزاءه شخصيته في ظلال عدم الأهمية.

اختلف العلماء في مدى ما كان للمؤثرات الهلينستية من أصداء في ذلك الأدب. فمنهم من تعقب تلك المؤثرات فأوغل إلى درجة كبيرة، على حين أنكرها بعضهم إنكارًا تامًا. ولا بد لنا من توجيه الأنظار إلى بعض الاعتبارات العامة هنا لأهميتها. فإن كلا من اليهود واليونان كانوا إبان العصر الهلليسنتي مولعين.بنسبة المؤلفات الجديدة لأسماء عظيمة ظهرت في أيام سالفة. ولكن لما كان كل من الشعبين قد بدأ تلك العادة قبل أن نحتك بالآخر، أنا لا نجد بين يدينا والحالة هذه الآية ساذجة يغلب على العقل البشري. ولكن لو حدث في حالة واحدة لا يتطرق إليها الشك أن توازي العقلان الإغريقي واليهودي، لأمكن حدوث نفس الظاهرة في حالات أخرى. مثال ذلك أن سفرى المكابيين الأول والثاني يوردان وثائق الدولة سواء منها الحقيقي والزائف –كمؤرخى الإغريق سواء بسواه. بيد أن المثال الذي أحتذاه الكتاب هو أسفار الملوك، ولا يستتبع ذلك أنهم اقتبسوا هذه العادة الرواية

[1] هى ١٤ سفرًا من التوراة السعينية يحذفها اليهود والبروتستنت. (المترجم).

عن الإغريق، وإن كان هذا الاحتمال غير مستبعد، هذا إلى أن مجرد المشابهة بين فقرتين عند اثنين من الكتاب ليس لها معنى ما لم يكن ذلك التشابه من القوة بحيث لا يكاد رجلان يفكران فيه منفصلين. ولا شك أنه قل من الناس من يستطيع أن يدفع بأن يشوع بن سيراخ[1] عند ما كتب مديحه الشهير لأسلافه في سفر الحكمة كان. يفكر في الدين الذي لا يقل عنه شهرة في نفس الموضوع في مسرحية اليعاسيب (**Wasps**) لأرسطوانيس أو أنه عندما يشير ثيوقريطس إلى الثعالب بين الكرمات، فهو ينقل عن "نشيد الإنشاد"، وذلك لأن كثيرًا من الناس ربما مدحوا آباءهم أو لاحظوا عادات الثعالب. ولكن عندما يقول مؤلف سفر دانيال إن تؤخذ نصر أكل العشب كالثور فلا شك أنه يستقي أقواله من تفجع وعويل "شويسى – مشرا– ترجال" الذي يقال إنه "أيوب البابلي"، وذلك لأن البشر لا يأكلون العشب، كما أن هذا التعبير البلاغى لم يحدث البتة بمكان آخر في يلوح لنا. فلو طبقي هذا الصنف من الاختبارات، لكوارث على الفور معظم المؤثرات الإغريقية المزعومة. ولعل الشيء الوحيد المقطوع به في أدب تلك الحقبة الرفيع بغض النظر عن مسفر الجامعة، هو أن ذلك اليهودي الإسكندري العالم الذي كتب في نهاية القرن الأول القسم الأول الجميل من إصحاحات الحكة، قد قرأ فيا يحتمل مؤلفات أفلاطون، خاله عنده يسو فوق كل شيء وليس له بالعالم أي اتصال مباشر، كما أن الخلود هنا درام روحي خالص. وقد أشار بعضهم إلى أن أفلاطون ربما كان مصدر الإلهام في الفقرة التي مطلعها "إن أرواح الأبرار لفي يد الله". ومع ذلك فمن المقطوع. به أن المؤلف يكتب بوصفه يهوديا ويستمسك بفكرة الثواب والعقاب بعد الموت، وإن كانا ثوابا وعقابًا روحيين. وقراءة الشيء لا تعني التأثر الحتمي به.

أما سفر الجامعة نأمره تختلف قليلا. ان المؤلف الأرستقراطي لهذا الكتاب الفاتن كان يعيش بفلسطين حوالى (٢٠٠): وهو يعتبر أحد الكفرة في سفر الحكمة (الإصحاح الثاني) وهو أمر يدل على أنه كان يعد من بين أنصار التهلن، كما يقال إن لغته جاءت متأثرة إلى حد ما بالإغريقية. ويحس المرء أنه في زمانه قد عاش في جو إغريق بمكان ما. وهناك آراء مختلفة كثيرة عن علاقته الفكر الإغريقي وكلها قد وجدت لها من يساندها و معتقد بصحتها ولكن على الرغم من أوجه التشابه المتعة التي عرف الدكتور رانستون كيف يستخرجها ووجد نظائر لما في نيوجتيس (**Theognis**)، فإن أحدة من العطاء لا يستطيع أن يجد أي شاهد على وجود أي اقتباس مباشر، ولا حتى في الفقرة.

(١) يشوع بن سيراخ هو صاحب سفر من الأسفار المحذوفة. (المترجم)

الشهيرة بالإصحاح ٩، الآية ٧ فما بعدها، وهي التي كان جيروم أول من أشار إلى أنها مستقاة من أبيقور. وذلك لأن هناك تشابها واضحا كهذا تماما قدم إلينا مصحوبة بفقرة من ملحمة جلجامش البابلية. وعلى حين أن الإغريق كانوا يعتقدون أن فكرة "لنأكل ونشرب، لأننا غدا نموت" كانت فكرة أقدم عدة من أبيقور، وأن قائلها هو أحد ملوك الأشوريين، فان دانيال يظهر أن بعض هود ذلك العصر كانوا ملمين بالأدب البابلي.. ولكن ليس من الضروري مطلقة أن نعتقد أن مقر الجامعة اقتبس من أي مصدر من المصدرين.. وذلك لأن الفكرة قديمة قدم البشرية نفسها، ولابد أنها كانت ولا تزال إلى اليوم معمولا بها بأمكنة عديدة عند الكثيرين ممن لم يقرأوا البتة سفر الجامعة ولا أبيقور ولا الأدب البابلي.

إني لأحس بإحجام شديد عند التصدي لإبداء آرائي في الأدب اليهودي، ولكن سفر الجامعة خير مثل يرشدنا إلى ما يبدو لي أنه الرأي الصحيح. ذلك أن الإغريق واليهود كانوا جميعًا يتطورون في عام واحد، ومنهم من كانوا يطورون في نفس الطريق. وكان الأمر كما هو اليوم تماما، فكانت هناك مجموعة من الأنكار تملا الجو، ولى شى. تستطيع أن نسميه "روح العصر" أو أي اسم آخر يرضيك – ولا شك أنه كان يؤثر في الناس لاشعورية. وإني لأستبعد أن سفر الجامعة كتب في عهد أشعيا، ولكن لا حاجة بنا إلى البحث عن الاقتباسات المحددة. لقد كان الواعظ يعيش في عالم يعرف أن حاله على ما كانت عليه، وكان يحس بذلك الأم. ولكن إذا أمكن تعقب جو هللينستى معين عند هذا الكاتب اليهودي أو ذاك، فلن يعثر في أي مكان على آية واحدة تشهد تغلغل الأفكار الإغريقية تغلغلا حقيقيًا.

وأهم شيء ظهر في العالم اليهودي في ذلك الزمان هو الأدب الذي يسجل الوحي والرؤي. وكان هذا الأدب عند غالبية الشعب بعد بديلا من الأنبياء الذين طوي سجلهم، كما أن أعظم عملين في ذلك الأدب – وهما مجموعة الكتابات المسماة سفر أخنوخ [1] وصايا ألبطاركة الإثني عشر – أثرها تأثير كبيرة في كتاب العهد الجديد، وهو أدب يعالج المستقبل الذي كان مفروضًا أن "يهوه " أسفر عنه وأوحى به لبعض حكماء العصور الخوالي مثل أخنوخ أو موسي، والفكرة الأساسية التي يدور حولها الحديث في المسيا الذي هو "مناط الأمل لكل من داخل القلق نفوسهم"، المخلص الذي لابد أن مجيء والذي يسمى أحيانا "ابن الإنسان" و "المسيح". وقد اختلقت التعاليم المتعلقة بالمسيا

(1) أخنوخ هذا صاحب كتاب من الكتب المحذوفة، وجد نصه كاملا باللغة البنية، وضاعت أصوله الأخرى إلا البلا. (المترجم)

(المسيح) اختلافًا عظيمًا: فمن قائلة بأنه قدسي إلهي موجود قبل خلق العالم، ومن قائلة بأنه بشر معرض للموت، بيد أن الفكر كان في تغير دائم، فقد انتقل من ملكة للمسيح على الأرض مع بت الأجساد: بعد الموت إلى ملكة خالدة سرمدية في السموات يصحبها الخلود الروحي. وكان الاعتقاد الشائع أن الخلود لا يدخل فيه إلا اليهود الأبرار دون غيرهم. ولكن الذي كان يحدث أحيانا مسه وتلك أعظم فكرة ظهرت في ذلك الزمن – هو أن الأمر بسط حتى شمل الناس جميعا، وقد كان لهذا المذهب أثره في العالم مُنذ ذلك الحين إلى اليوم، شأن المذهب المقابل له، مذهب الثواب والعقاب بعد الموت، الذي بيدي أن أقدم إنارة عبرت عنه الأول منة. وردت في أقدم جزء من سفر أخنوخ (حوالى ٢٠٠ – ١٧٠). وكلاهما: مرتبط بمشكلة شغلت الإغريق واليهود أما شغل: مس وهي مشكلة استمتاع الفاجر بمباهج الدنيا. ومعالجة هذه المشكلة تكشف عن المقليتين. فان الفيلسوف كارنياديس بحثها في (الفصل العاشر) وذهب إلى أنه لو أن هناك آلهة تهتم بالعالم اسمحوا بذلك. ولذا أنه حتى لو كانت هناك آلهة، فإنهم لم يكونوا يهتمون. أما كتاب اليهود الذين هم على يقين بأن هناك ربا بهم، فقد استنتجوا أنه لا يمكن رؤية العملية بأكملها. ولذا فلا بد من حياة أخرى يصحح فيها وضع الميزان، فيثاب ذو البر والصلاح ويعاقب التاجر الشرير. وهذا أمر لا علاقة له بتاتًا. برجاء هذا العصر في الوصول يوما إلى القيم الحقة، وذلك لأن الكتاب كانوا – يهودا صالحين وكان البر والصلاح عندهم في العمل بالشريعة. وقد كانوا هم أنفسهم ينتصرون على ذكر نواب البر كحقيقة، ولكن سرعان ما اقتادهم هذا: المبدأ إلى إساءة استخدامه. و لبت تلك الإساءة دورة ضخمة في العالم "كن صالحة حتى تلقى الثواب" وكتب على البشرية أن تتجافى كثيرًا عن المذهب الرواقي الحافل بالرجولة: – "اجعل الفضيلة ديدنك لأن هذا واجبك"

وثمة كتاب يقف بمفرده ولا بد من ملاحظته هنا هو قصة سوسنه [1] (**Susannah**)، ان الفريسيين حاولوا حوالي (٩٥ – ٨٠) أن يصلحوا.الإجراءات القانونية. رقصة سوسته هذه بحث جدلي متسم بالقوة البالغة ويدعو إلى الأخذ بنظام الاستجواب بوصفه وسيلة لاستخلاص الصدق في التحقيقات القانونية. ومن الشائق هنا أن نجد مسألة دنيوية بحتة كان اليهود فيها متقدمين على الإغريق، وذلك لأنه يظهر أن هذه الأداة القوية من أدوات العدالة كانت مجهولة العالم الهللينستى. ومع هذا أن أحدهم أشار إشارة ممتعة إلى الأثر الذي أحدثته القواعد الفنية لعلم البيان الهللينستى في

([1]) قصة سوسنه جزء من سفر دانيال وقد اختلف رجال الكنيسة في نانونيتة. (المترجم)

الطرائق التي استخدمها رجال الدين (الحاخامون) في تفسير الكتب المقدسة.

وفضلا عن ذلك الأدب اليهودي العظيم قامت مجموعة من كتاب الدعاية الذين كتبوا باليونانية. وقد أكثر هؤلاء الدعاة من الاقتباس من الهللينستية، ولكن العين الذي نقلوا عنه لم يكن الفلسفة ولا التاريخ، بل التاريخ الزائف (شبه التاريخ الذي يجتذب إليه داعما أنصاف المتعلمين، وقدما عبر مانيتون (حوالى ٢٨٠) عن بغضه لليهود، ولكنه كان كاهنا مصرية. ومع ذلك فإن بعض كتاب الإغريق دأبوا قبل (١٠٠) على مهاجمة اليهود. وفارس الحلبة في هذا المضمار هو أبوللونيوس رجل البيان والبلاغة وقد عاش في رودس. وبلغ الأمر بهم أن تنزل بوسيدونوس إلى حد نشر القصة التي تقول (سواء أكانت هي الأصل أم المرة في الفضيحة القائلة بأنه يوجد في قدس الأقداس رأس حمار) بأن انطيوخوس الرابع وجد هناك تمثالا لرجل (لعله موسى) ركب حمارا – وكان من الطبيعي أن يتبرى اليهود للدفاع عن أنفسهم. ولسنا نستطيع الآن أن نقول من كان البادئ بالشر من الطرفين؛ ولكن حرب الكلام بلغت ذروتها في القرن الأول الميلادي في هجوم أيون ومارد به: بوسيفوس عليه. و كانت التهم الموجهة إلى اليهود، هي أن ثقافتهم لا تعدو أن نكون منقولة عن الغير، وأنهم لا يشاطرون من حولهم أي شعور بالأخوة البشرية، بل ينطوون على أنفسهم، وأنهم في الحقيقة ملحدون،لأنهم يقولون بأن لا وجود في الحقيقة لأي إله إلا هـ بهوه ٤، وهي تهمة كانوا هم أنفسهم السبب في إثارتها بإصرارهم على أن ما تعيده الشعوب الأخرى هو الصورة والتمثال الفعلي، وليس (كما هو الواقع) الله الذي لم يكن التمثال إلا رمزا له.

وقد حفظ لنا الإسكندر الملقب بيوليهستور ما بذله كثير من اليهود المتهللتين [1] من جهود لإظهار أن الثقافة اليهودية كانت أقدم ثقافة في العالم وأن اليهود قد علموا الشعوب الأخرى في الحقيقة. وكان ديمتريوس أول كاتب قدم التاريخ اليهودي بصورة صحيحة إلى حد ما، ولكنه كان يهتم بأشياء تافهة مثل إثبات أن أبناء يعقوب الثلاثة عشر كان في الإمكان أن يولدوا في مدى سبع سنوات وتصبح ليئة (**Leah**) لغزًا حسابيا. وليس للتاريخ أي معنى مطلقا لدى، يوبوليموس: حيث يقول إن إبراهيم كان أحد العمالقة الذين عاشوا بعد الطوفان و بنوا مدينة بابل، وهو، الذي استكشف التنجيم من جديد بعد أن اكتشفه في الأصل أخنوخ الذي هو أطلس، والذي علم المصريين، على حين أن موسى وهو الفيلسوف الأول، اخترع الأحرف الهجائية وعلم اليونان.

---

(1) اليهودي المتهللن هو المطبخ بالصباغ الهلليسنتي. (المترجم)

ويتراسل حيرام مع سليمان على منوال البلاطات الهللينستية الملكية، كما أن سليمان بير الإسكندر. وإنفاقه على إنشاء هيكله ١٦٠ ألف تالنتا في الأجور فقط. ولا يخجل ارطبانوس من أن يسوق خرافات و كتابات لا أصل لها، وهي تلك الفقاعات المتواترة بين الكتابات الهللينستية: ومنها أن يوسف أصبح وزير المالية (على عهد البطالة) بمصر وقام باستصلاح الأرض البور، وأن موسى اخترع كل شيء تقريبا من أسلحة وماكينات وسفن وفلسفة – وعلى المصريين عبادة الحيوانات وأنه أله وعيد بعد مماته بعبارات و أساليب هللينستية صحيحة. و أما كليوديموس وهو أقل طموحا، فيجعل أبناء إبراهيم يبزون البطالة لا يفتح بلاد التروجود يتين، **Trogod sites** فحسب، بل وأيضا جميع أقطار التوابل من بلاد العرب وإفريقية. و بلغ الارتباك بالاسكندر وليمستور بسبب الهراء الذي جمعه، أن جمل موسي امرأة أسماها موسو. ولعل من يرتبطون بهذا الأدب جماعة من، شعراء اليهودي وقد تعمد فيلون و ثيودوتوس إلى كتابة التاريخ اليهودي في مقطعات شعرية بحرها الفروضي هو السدس الوزن (**Hexa meler**) الهللينستي، كما أن حزقيال كتب مأساة عن الخروج روى فيها قصة نكبة البحر الأحمر على غرار أحسن الأنماط الأدبية الإغريقية.

ومن الطبيعي أن اليهود كان في إمكانهم أن يكتبوا دعاية أفضل من هذه. فالرسالة المنسوبة إلى أرستياس مديح جدي الشريعة اليهودية والكتب المقدسة اليهودية، وجاء على لسان وثني يحاج بأن الناس قاطبة يعبدون و يهوه ٤، وإن لم يعرفوه. والسفر الثالث من كتاب النبوءات السيلينية (وقد كتبه باقيه بعد العهد المسيحي) يجعل إحدى النبيات الوثنيات تشهد بلغة يونانية كتبت بشعر من بحر العروض السداسي الأوزان، – بتفوق الديانة اليهودية على الديانات الأخرى جميعًا. وأهم من ذلك – لو صح أنه أصيل – ذلك العمل الذي يدعون أن يهوديا إسمه أرستو ولسن كتبه في عهد بطلميوس السادس والمؤلف وهو من المشائين، كان يعرف الفلسفة الإغريقية، وقد حاول أن يظهر أن الأربعة اليهودية كانت تحتوي بالفعل على خير مالك الفلسفة من أمور، وأن فيثاغورس وأفلاطون تلقيا العالم عن موسى. ولكن بعضهم يرى أن ذلك الكتاب عمل زائف كتب في عهد متأخر.

وهكذا صار بعد الشقة بين أعلى أنواع المكر وأخفضه عظيما عند اليهود كأنه عند اليونان؛ وعند ما حدث إبان الفترة الهللينستية المتأخرة أن أخذ الضعف يدب في قبضة الإغريق الفاتح، وأخذ الشرق يعود إلى التدفق نحو الغرب في صورة نبار ضخم من التنجيم والحر، لعب اليهودي في ذلك دورة بارزة، فلم يكن أحد يستطيع أن يسبق السحرة اليهود في سحرهم، كما أن طارد الأرواح

الشريرة اليهودي ظل شخصية مألوفة مدة قرون عديدة. و كان لدي اليهود كتبهم الخاصة الجارية التعاويذ السحر ورقاه، مثل تلك التي اتخذت وقودًا للنار في إفيسوس بفضل تقود القديس بولس. وأشهرها تلك المجموعة التي تنسب لسليمان، والتي قالت الأسطورة عنها إن حزقيا حظر في بعض الأوقات استخدامها لأنها تغري الرجال بمعصية "يهوه".

ولابد لنا من تتبع مصائر الهيلينستية في بلاد اليهودية نفسها بعد أن حصلت تلك البلاد على استقلالها في (١٤٢) (كما سبق في هذا الفصل). ففي (١٣٥) خلف سمعان ولده يوحنا هيركانوس. ولكن حكمه بدأ بداية تعسة، وذلك لأن آخر السلوقيين الأقوياء أنطيوخوس السابع الملقب سيديتيس استولى على أورشليم وهدم أسوارها، ولم يستطع سيديتيس هذا أن ينفذ سياسة إيفانيس، وذلك لأنه لم يعد له حزب من اليهود المناصرين للتهلن يظاهرونه في البلاد. ذلك أن يوناثان وسمعان قد تمكنا من محو ذلك الحزب محوا تاما تقريبا. فنصحه مجلس مشورته بإبادة اليهود والتخلص من الشر تماما. بيد أنه اتبع طريق الاعتدال فترة رئاسة الكهانة هيركانوس ورفض التدخل في الشئون الدينية مكتفيا بجمل هيرانوس تابعة له يقوم بدفع الجزية، ولكن وفاته في (١٢٩) كانت فيها نهاية قوة السلوقيين وسلطانهم، وبذلك انطلقت يد هيركاتوس في العمل بحرية. وكانت المدة الباقية من حكمه هي العهد الذهبي للأسرة المكانية. فأنشأ بعمل لاستعادة ملكة داود، وأعاد تحصين أورشليم رفح إدوم (**Edom**) وأجزاء من شرق الأردن. وتمكن من عقد حالفة مع روما واستولى على شكيم، كما استولى أخيرا على السامرة ودمرها بعد أن أبدت مقاومة عنيدة. وترتب على نهضة المكابيين الذين كانوا من اللاويين، أن كتاب الرؤيا أخذوا يتوقعون إذ ذاك ظهوره "مسيا: مسيح"، لا يكون من أسباط يهوذا و آل داود، بل من لاوى و بيت هرون: إن ذلك الجليلي الذي ألف ذلك الأمر الخالد في عهد هيرانوس، ألا وهو وصايا الآباء الإثني عشر، بما احتوت عليه من: توقعات رفيعة جاءت في عظة الجبل، قد خيل إليه أن هير كانوس وهو التي. والكاهن والله (الله في الحقيقة والواقع وإن لم يتلقب باللقب) قد تحقق في شخصه الأمل المسياني المرجو في ظهور مسيح؛ وإليه وجه الكاتب ترتيلتين مما ينشد المسيح.

ولكن المجد سرعان ما ذوى واضمحل. فإن أرستوبولس (١٠٥ – ١٠٤) أكبر أبناء هير كانوس قتل أمه، كما أن ابنه الثاني إسكندر حنايوس (١٠٤ – ٧٦) الذي ورث اللقب الملكي كان على أسوأ خلق يمكن أن يتدلى إليه إنسان. وثار شطر عظم من الأهالي على ذلك الجندي الفظ

وتلك المعاملة الوحشية التي يلقاها منه. وكان الفريسيون. يعطفون على حركتهم، وانقضت ست سنوات من الحرب الأهلية والتعاسة الشاملة استطاع بعدها إخماد نار الفتنة، والشهد الأخير من القصة يمثل حنا يوس مضطجعا ساعة النداء بين حريمه وهو يرقب صلب آخر من بقي من الثوار وعدهم ستمئة. وعندئذ لم يعد هناك محل لما يسمى بالمملكة المسيانية اللاوية، ومن ثم فسيكون المسيا (المسيح) بعد ذلك من يهوذا، وأرجىء الأمل بظهور المسيح المنتظر إلى لحظة ترقد بين طيات المستقبل المجهول في هذه الأرض، أو حتى في بعض الأحيان إلى علكة روحية في السماء، على أن هنالك شيئًا واحدًا اكتسبه المكابيون ما بين عهدى يوناثان وحناوس. فما أن أجدادها قفوا على الكنعانيين والعمالقة، فإنهم هم أيضا قضوا على كل منسك بالروح الهلينستية وعلى تلك المدن السورية المجاورة التي كانت الثقافة الإغريقية تسود فيها. وقد جمعت قائمة طويلة أمام المدن التي دمروها أو خربوها على يد حنايوس في معظم الأحوال، وانقضت العشرون سنة التي عقبت وفاة حنا بوس في حرب ضروس بين ولديه هير كانوس الثاني الكاهن الأعظم وأوستوبولس الثاني، و كان من الخير العميم أن ظهر بومي في (٦٣) واستولى على أورشليم وألغي الملكية ونفي أرستو بولس و وضع هيركانو سن تحت سيطرة الحاكم الروماني السورية، وشرع في إعادة بناء المدن التي دمرها المكابيون.

لقد ذهبت الجهود التي بذلت لتهلين بلاد اليهودية هباء ملطخًا بالدماء به ومع ذلك فقد جارت عليها فترة كبيرة تم فيها التهلين بجهد من الخارج، بوم. يعد بالبلاد إلا قلة صغيرة ترغب فيه. و كانت السلطة الحقيقية في بلاد اليهودية المهد هيركانوس الثاني الضعيف مركزة في يد وزره اختيار الأدومي. وبعد مقتل أنتيبانر استطاع ولده "هيرودس" أن يقنع حكومة حلف الرجال الثلاثة في روما (**Triumvina**) بأن يجعلوه ملكة على بلاد اليهودية. وفي (٣٧) استولى على أورشليم ووطد لنفسه بها سلطانا قدر له بفضل روما ونفوذها أن يستمتع به مدة ٤٠ عاما. و كان هيرودس شخصية بارزة بين الملوك الخاضعين للرومان في أثناء فترة الانتقال، وقد عرف بالاقتدار والقسوة وموت الضمير وتتجلى طبعته الحقة في أدلى به من نصح في مقومات النجاح، وهو رأي مجمع: بين الصحة والبشاعة في وقت واحد، حيث نقدم إلى ماركوس أنطونيوس وقال

له: "اقتل كليو بطرة". لقد نجح ذلك الرجل حيث فشل أنطيوخوس إيبفانيس مع أنه أعظم منه كثيرا، وتمكن بالقوة من أن يجعل من بلاد اليهودية صورة مما كى بدرجة مقبولة جدا أي ملكة هللينستية، إنه لم يكن ملكا هللينستية، بل هو أجنى (متيربر) إدوبي جيد الصقل جدا إلى حد ما

ولكن النظام الهللينستى كان النظام الوحيد الذي استطاع تطبيقه على مملكته الخلطة الممتدة من لبنان إلى مصر، وكان حكامه وموظفوه يقلدون أنظمة الحكم السلوقية المعتادة، بيد أن مدنه الإغريقية الكثيرة لم تكن سوى مدن خاضعة، كما كانت تلتمس من روما أن نضمها إلى ولاية سورية التابعة لها. أما فيما يتعلق باليهود، فالظاهر أنه لم يستطع البتة أن يعزم في أبرهم على شيء فحاول أن يصالح الفريسيين، ولكنه أعمل الذبح في الصدوقيين. وقد امتنع عن بناه معابد قيمز في أورشليم نفسها، بيد أنه بني حلية لسباق الخيل بأورشليم كما بنى مسرحا ومدرجا خارج سور المدينة، وحاول استجلاب رضا الشعب عنه بإعادة بناء الهيكل في قدر عظيم من الفخامة، في حين أنه ربما كان هو نفسه يتوق أن يصبح ربة. وأخيرا عبر هيرودس عن رغبته هذه بأن وضع على العبد نسرا هو طائر زيوس سن وهذا أسوأ أنواع الاستفزاز التي يمكن أن يتلقاها هودى. وقد بني عدة مدن هامة منها سباستي لتحل محل السامرة وقيصرية على الساحل ولها ميناء أكبر من ميناء بيرانوس (مرنة أثينا)– واشترك في تزيين أنطاكية وعدنا كثيرة غيرها، ولكن اليهود كرفوا منه ما كان يبتنى من مبان إغريقية، وذلك لأن المال اللازم لذلك كان يغتصب منهم غصبا. إنه كان بحاجة إلى مقادير هائلة من المال، فصادر مقادير ضخمة من الأرض، ولابد أن أملاكه الخاصة كانت عظيمة جدا هي و إيراداته، و كانت ضرائبه إليه مبهظة، كما كانت مصدرا دائما للسخط. أجل إنه منح البلاد السلام والرخاء، ولكنه كان في الواقع تحكم بلاد اليهودية بالخوف ويقمعها بالمعاقل والحصون. كان بعين الكهنة العظام ويخلعهم حسب هواه ومشيئته. وكان السبب الرئيسي في كراهية اليهود له خشيتهم من الخطر الذي يتهدد ديانتهم من وجوده. فثاروا مرات عديدة حتى أصبع أقوى من أن يقلب. وكان حكمه في السنوات الأخيرة حكم إرهاب، لذا عادوا إلى الثورة في اللحظة التي هالك فيها، وانتقموا منه انتقاما فظيعًا – ولكن بعد فوات الأوان، إنه ادعوا أنه مات موتة أبشع من أن تروى هنا (ولعل سببها هو سرطان الأمعاء)، على أن محاولته صبغ بلاد اليهودية بالصباغ الهللينستى لم تتجاوز مدة حياته، وذلك لأنه أمر كان مفروضًا بالقوة من الخارج على شعب متأب غير راغب. توفي عام ٤ ق. م وفي عام ٦ للميلاد صارت بلاد اليهودية (**Judaea**) ولاية رومانية، وبدأت. صفحة جديدة في تاريخها. و كل ما يمكن قوله هنا، أن إخلاص اليهودي لقوميته ولعقيدته قد أظهر في المستقبل ٦ أظهر في الماضي على السواء أنه قوة أقوى من كل ضغط تفرض عليه الحضارة الإغريقية الرومانية، وأن ما تبي في النهاية هو قوة الشريعة كاملة.

الفصل السابع

التجارة والاستكشاف

فتح الإسكندر أمام النفوذ والتأثير الإغريق رتاج عالم كان يمتد من بحر إيجة إلى جبال هندوكوش و من نهر سيحون[1] (Jaxirtes) إلى شلالات وادى نهر النيل. ولو أنه عاش لزاد في رقبته واتساعه، وذلك لأنه أعد قبل وفاته مشروع ارتياد بحر قزوين ومحاولة لإكمال الطريق البحري من الهند إلى مصر (الذي ارتياد منه القسم الممتد من الهند إلى بابل) بالدوران بحرا حول بلاد العرب، وكانت سفنه قد بلغت من قبل بلاد البحرين ورأس موصندام في جانب والمن في جانب آخر. ومع أن هذه الخطط أهملت عند وفاته، إلا أن خلفاءه عادوا فاضطلعوا بتنفيذها، ولكن فيما عدا ما عمله الإغريق – الباكتريون (Graeco - Bactrians)، من جهود في هذا السبيل فان الخطط الوحيدة التي تم تنفيذها في الأزمان الهلينستية عدا خطط الإسكندر كانت حملة بطلميوس الثاني الحربة و الفصل السابع فما يلي) ثم الاستكشافات الإفريقية التي قام بها البطالة المتأخرون. وهنالك بوجه خاص تلك الرحلة المدهشة التي تمت بمحاذاة بساحل بريطانيا صعدا حتى بلاد الترويج أو شبه جزيرة جتلندة وقام بها بيثياس (Pytheas) من أهل مرسيليا وهو معاصر للإسكندر. وهو أول إغريق مع باسم المحيط المتجمد الشمالي، ولكنها رحلة عقيمة لم تؤت بة ثمرة. وقد أوشك الجغرافيون بما اجتمع لديهم من التجربة والخبرة أن يفتدوا صدق هذه الرحلة، وإن قبلها عن حكة عالم الرياضة إيراتوسنتز وهيبارخوس،وهما أدري وأوسع علمًا.

وكان السلوقيون من شدة الانشغال باتجاهات ونواحي أخرى بحيث لم يكن في وسعهم أن يوجهوا للاستكشاف قدرة كبيرة من تفكيرهم. وطبقا الخطة التي أزمع الإسكندر تنفيذها من الانتفاع بالخليج الفارسي، احتفظ. سلوقوس فيه بأسطول وأنشأ المستقرات على طول القسم الأدنى من نهر دجلة. وحول رأس ذلك الخليج، وأقام العلاقات الطيبة بينه وبين الجرائيين (Gerchaeans) النازلين على الشاطئ العربي لتلك البلاد، والذين كانوا يزودون دولة السلوقيين بالتوابل. ولكنه بطبيعة الحال لم يحاول مطلقا أن يدور بالسفن حول بلاد العرب، فيحول بذلك التجارة من سلوقيا إلى البحر الأحمر

[1] واسمه العصرى نهر سرداريا وهو يصب في بحر آرال. (المترجم)

ابتغاء منفعة البطالة. وفي الشمال الشرقي عبر قائده ديمودامس للمرة الثانية هر سيحون. وأرسل ابنه أنطيوخوس الأول قائده باتروكليس (Patroeles) الشهير كقائد وكجغرافي ليستكشف بحر قزوين، وكان أرسطو والإسكندر يعلمان من قبل أن هناك بحيرتين، تسميان البحر الهركاني (وهو بحر قزوين الحالي) وبحر قزوين (وهو بحر آرال عندنا)، وحدث فيها بعد أن كان. الإسكندر في حيرة من أمر فكرة قديمة نبذها أرسطو، وهي تلخص في أن البحر الهركاني لم يكن بحيرة بل خليجًا متفرعًا عن محيط، ودار. بخلده أنها قد لا تكون على كل حال فكرة صحيحة، ومع ذلك فقد نسي الناس إلى الأبد كل علم لهم بحر آرال في مدى جيل واحد من وفاته. بدأ باتروكليس رحلته من كزيل بوسن في أتروبانيني (أذربيجان)، دارتاد الساحل الجنوبي وأجزاء من الساحل الشرقي والغربي، ولكن استنتاجه أن البحر المركاني كان خليجا في محيط، ربما كان السبب فيه قصة يتناقلها الأهالي سيء تفسيرها به وذلك لأنه حدث بعد ذلك بمائة وخمسين عاما أن مع الصيني تشانج كاثين تلك القصة نفسها تقريبا، ولكن على صورة جديدة نقول إن بحر آرال هو البحر الشمالي. ثم يتم بعد ذلك شيء في الشمال الشرقي حتي استعمر الملوك الإغريق. الباكتريون إقليم فرغانة بذلك اتصلوا بالتركستان الصينية، فبدأوا أول خطوة في تمهيد السبيل للتوسع نهائيًا نحو الشرق بالمؤثرات الفنية الإغريقية الفارسية.

وحالته الإمبراطورية الموريانية (Mauryan) بين سلوقوس وبين الهند. ولم يحدث بعد ذلك أن جنديا إغريقية مسلحة واحدة اخترق تلك البلاد حتي زالت تلك الإمبراطورية من الوجود في ١٨٤، بيد أن هنالك شخصية اسمه ميجانيز أرسله سلوقوس مبعوثا له إلى جندركيت (Chandraguple) في عاصمته "باناليبوترا" بالقرب من مدينة بأتنا على نهر الكنج، وقد أزيل عنها الآن جزئيا ما كان يغطيها من أتربة، وبفضل هذا للبعوث زادت معلومات الإغريق عن بلاد الهند زيادة بالغة. أجل إنه نقل إلينا بعض قصص الرسالة ب ولكنه كان أول من أماط الغرب علبة بنهر الكنج و بمملكة: مجادا (Magadha العظيمة، كما أن ما رواه من روايات عن تنظيمات البلاد في حكم جندر كبت، تلك الروايات التي يمكن الآن موازنتها بالأرثاساسترا (Anibe - Sastra) تعد روايات من الطراز الأول. وظل كتابه أساسا على علم بشمال الهند حتى نام دمتريوس الباكترى من آل بوئيديموس حوالي ١٨٠ بفتح ذلك القطر المهجور أو استلحاقه ببلاده وظل بضع سنين كالشقة الممتدة من بانا ليبوترا إلى كاثياوار.

كان نشاط السلوقيين مرتبطًا بمسألة التجارة الهندية أو الشرقية – وهي عامل بقي متسلطة

طوال تلك المدة. والمتواتر لدينا أن لهذه التجارة ثلاثة طرق: أرها شمالي وثانيها متوسط وثالثها جنون، ويرتبط هذا الطريق الأخير بتاريخ البطالة. ولا حاجة بنا إلى إطالة الحديث عن الطريق الشمالي، وكان يظن أنه يمر بمدينة باكترا (بلخ) حتى أدنى نهر جيحون أموداريا (**Oxus**)، ثم عبر بحر قزوين، وعلى إمتداد نهرى وكور» و«فاسيس» إلى البحر الأسود، و لكن المحقق تماما أن ذلك الطريق لم يوجد قط، وكان لا يزال مظنونًا إبان عهد سلوقوس أن المحيط كان يضرب بأمواجه السفح الشمالي جبال الهملايا وأنه كان يمتد قريبة من نهر سيحون (سرداريا).

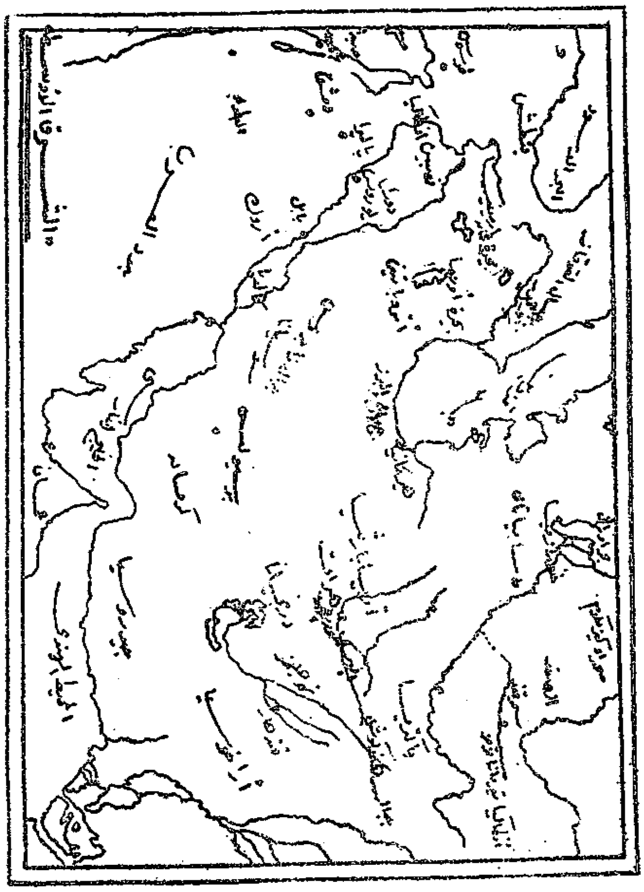
ولا شك أنه كان من مهام باتروكليس أن يتحقق مما إذا كان في الإمكان إيجاد طريق بحري شمالي، بل إن الأساطير التي تواترت بعد ذلك جعلته يستكشف جزئيا ذلك الطريق البحري وجعلت الهنود ينتقلون بواسطته إلى الساحل الألماني.

وبعد وفاة سلوقوس انقطعت صلة السلوقيين بالبحر الأسود ولم يعد لهم أي. اهتمام بعد ذلك بأي طريق شمالي.

وكان الطريق الهام أثناء القرن الثالث هو الطريق الأوسط. وهو يسير بحرة من الهند إلى الخليج الفارسي، ثم ينطلق أعلى دجلة حتى سلوقية ونكمله تجارة القوافل البرية التي كانت تتجمع بسلوقية، و كان هناك طريق يسير إليها من الهند مارة بمدينتى پرسپوليس و سوسا، ولكن أهميته كانت موضع الشك.

أما الطريق الرئيسي الكبير الذي نشهد له بذلك الروايات الإغريقية والصينية، فكان يبدأ من با تاليبوترا ويمر بطريق تاكسيلا وإسكندرية بلاد القوقاز وطريق باكترامهيا تومبيلوس وطريق إكبانا حتى سلوقية، وكان يتصل به طريق محدود يبدأ من إسكندرية بالقوقاز ويمر بكابول وغزنة وإسكندرية المسماة بروفازيا **Prophthasia** (على بحيرة سيستان **Seistan**) – فهيرات ثم هيكاتومبيلوس.

وكانت التجارة المجمعة تنتقل غربة من سلوقية، إما. بالطريق السلوقي الجديد أعلى المرات حتى أنطاكية أو بالطريق القديم شرقى.الدجلة، الذي يعبر ذلك النهر بأرض الجزيرة عند أولا (شور)، ثم ينحرف شمالا مارا بنصيبين (**Nisibia**)، حيث يجمع التجارة الأرمنية ثم إلى الرها (**Edessa**) التي عندها يتفرع جزء من التجارة في الطريق التقليدي إلى دمشق وصور، بينما كان شطر آخر يذهب إلى أنطاكية، عابرة نهر الفرات عند زوجا التي حلت آنذاك محل ثاباكوس. ومن أنطاكية كان يخرج طريق عظيم، وهو الطريق الملكي القديم الذي يمر بمدينتي طرسوس



وأياميا في فريجيا حتى يصل إلى البحر عند إفيسوس (الفصل الرابع): والصراع الذي نشب بين السلوقيين والبطالة واستمر من حوالي (٢٨٠ – ١٩٨)، وإن كان. وجع في المقام الأول إلى مطامع أسرة البطالة ورغبتهم في توسيع أملاكهم بمنطقة البحر الإيجي، إلا أنه كان يرتبط ارتباطًا جزئيًا أيضا بطريق الجارة ذاك، وتداولت مخرجه عند إفسوس عدة أبد أكثر من مرة، والرابع أن البطالة تمكنوا باستيلائهم على فينيقية ووادى مرسياس بين دمشق وأنطاكية أن يضغطوا على دمشق السلوقية. وانتهى الصراع في (١٩٨ – ١٩٧) بطرد مصر من سورية وآسيا الصغرى، وبقيت الطرق الرئيسية للتجارة قائمة حتى فقد السلوقيون إقليم بابل (بابلونيا)، فلما انتقل الطريق الأوسط إلى بد البارتين إذا

هو يخلى السبيل الطريق الجنوبي الذي انتعش عند ذاك. وحدثت بعد ذلك تغيرات متنوعة. وفي القرن الأول استخدم الطريق الذي يمر بالرها – قيصرية (Mazaca) –– أياميا تاركًا من ورائه أنطاكية، وفى (١٠٠) أصبح الناس فيما يرجح يترددون على الطريق المختصر الممتد من إقليم بابل إلى دمشق عبر بادية تدمر (Palmyra). وأخيراً جاءت روما سائرة في خطى بومى و متقدمة من إقليم بنطش نحو أرمينية والفواز الماسة لمعادن لم تستغل مواردها، فرفعت إلى حد ما من شأن طريق بحر قزوين والبحر الأسود وهو المار بوادي نهر كور.

وننتقل الآن إلى الطريق الجنوبي وإلى استكشاف البطالة لأفريقيا. كان هذا الطريق يسير من الهند بحرة إلى المستودعات التجارية القائمة على الساحل الجنوبي أر الجنوب الشرق البلاد العرب، حيث كان أصحاب السفن الهنود ينزلون بضائعهم، فتصبح جزءا من تجارة بلاد العرب، وكان الطريق في أيدي الهنود والعرب لا ينازعهم فيه منازع، بحيث أن وجوده في القرن الثالث لم يتم تحقيقه تاريخية إلا أنه تصادف أن إرانوسثنيز قد عقب بقوله إن القرفة (التي لم تكن تزرع إلا بالهند) كانت تجيء من بلاد العرب شرقي حضرموت. وبلغ من شدة غيرة العرب على تجارتهم وحرصهم عليها، أنهم لم يكونوا يسمحون لأية سفينة هندية أن تلج باب المندب، وأن البطالة الأولى يكونوا يعلمون عن جنوب بلاد العرب إلا القليل، فلم يكن إراتوستيز ليعلم عن أي شيء يقع إلى الشرق من حضرموت، التي سمعت عنها من قبل البعثة التي أرسلها الإسكندر.

وتاريخ بلاد العرب الجنوبية تاريخ كله حروب واتحادات بين شعوبها المختلفة بقصد التحكم في تجارة الهند وسلعة البخور. ولعل كلمة "أوفير"[١] (Ophir) المأثورة عن سلمان لم تكن إلا اسما يطلق على أي مكان يتخذ في ذلك الزمان مستودعة هندية للتجارة. وفي القرنين الثالث والثاني اجتمعت القوة في يد حلف يجمع بين حبشات من الهرة (Habashal of Mabra) و بين السيابين ومن سكان جنوبي اليمن، و كان المركز التجاري الرئيسي الهندي هو مدينة عدنية (عدن) السبابة، وكانت التجارة المجمعة تجلبها شمالا إلى البطراء قوافل السبايين والمنأيين في " طريق البخور" التقليدي الماربيثرب (المدينة) والعلا (Dedan). وفي قريب من (٢٨٠) أرسل بطلميوس الثاني أريستون لاستكشاف الساحل العربي، والظاهر أنه أتبع ذلك بيئة أريد لها أن تفرض نفوذه على العلا وأن تسيطر على جانبي طريق البخور الواقع جنوبًا تحت سلطان النبط – (Nabataeans) المعادين له. أما التجارة

(١) أنظر الكتاب المقدس سفر الملوك الأول (٩: ٢٨). (المترجم)

التي كانت تصل إلى البطراء فكان جزء منها يبلغ البحر إما عند غزة أو يصل إلى أرسينوي (السويس) ومن ثم ننقل إلى الإسكندرية، وربما كان شطر منها يمير الصحراء إلى سلوقية على حين يحمل الباقي شمالا. والمادة أن هذه البنية الأخيرة تنقل إلى أنطاكية عن طريق دمشق، كما حدث بعد (٢٠٠) يوم تتجلى أهمية استيلاء السلوقيين على سورية في موكب الذهب والعاج والأفاويه الهندية الذي أقامه أنطيوخوس إيفانز أثناء موكب النصر العظيم الذي أقامه بدافني (**Daphne**). ولكن التجارة كانت إبان استيلاء البطالة على سورية تتخذ كذلك طريقا يمر بعمان (راث عمان) وجرش (**Jerash**) عبر وادي الجليل إلى بطلمية (و**Ptolemai**) (عكا) ومنها إلى بلاد الفينيقيين. وتتجلى أهمية مدينة بطلمية (عكا) من احتفاظها بذلك الاسم في ظل السلوقين. وربما كان السقوط مملكة سبأ عام (١١٥) الفضل في منح البطالة منفذة ينفذون منه، ولكن الحركة التي أفضت في النهاية إلى نتمكن مصر من الاشتراك في الطريق الجنوب إلى الهند، كان الأصل فيها. مسألة ثانوية هي رغبة بطلميوس الثاني في الحصول على الفيلة.

شرع بطلميوس الأول في استكشاف البحر الأحمر، واستكشف قائد البحري فيلون " جزيرة الياقوت" والتي طهرها أحد البطالة مما كان بها من شابين. وحدث في زمن مبكر من حكم بطلميوس الثاني أن أنده ساتيروس أسس مدينة فيلوتيرا على خليج السويس. ولا بد أن مدينة أرسينوي الوجود عند رأس ذلك الخليج رجع إلى ذلك العهد نفسه، ومعها فيا يرجع برنيقة على خليج إبلات (العقبة). وعندئذ دفع بطلميوس الثاني باستكشافاته جنوبًا وأسس قواده على التعاقب مدن مابوس هورموى (ميناء الموصل) عند القصير وبرنيقة بمنطقة الثررجوديين على الخليج الفحل (أي المملوء بشعاب المرجان) وهي التي لازال أطلالها (عند خط عرض أسوان) موجودة إلى اليوم، كما أسسوا بطلمية المتحدة لتكون محطة لمصايد القبلة بالقرب من سواكن: وأسس بطلميوس الثالث مدينة برنيقة الذهبية (ولها أدر ليس) بالقرب من. مصوع، درها أيضا كولوئي (كوهايتو) بإثيوبيا، التي يقال إن أطلالها بطلمية، وقد صارت فيا بعد مستودعة للعاج الذي كان يصل إلى البحر عند أدولي. وأصبح كثير من هذه المستقرات مدينة، وإن بدأت فها محتمل على صورة مراكز تجارية محصنة، وذلك لأن الغرض الرئيسي الأول من هذا الاستكشاف كان جميع العاج وصيد الفيلة لاستخدامها في الحرب. ونظم بطلميوس الثالث عمليات الصيد على أسس عسكرية بقيادة أحد القواد. وكانت البعثات تنظم في برنيقة التالية التي كانت الفيلة ترسل إليها بالسفن؛ وكان هناك طريق مزود جيدًا اللوازم يصل بينها

وبين قفط (Coptos) على نهر النيل، على حين كانت الحديقة الرئيسية للفيلة تقع بمدينة ممفيس. واحتفظت الدولة في البحر الأحمر بأسطول ضخم، وقاية من القراصنة.

ولما خبرت مصر سورية و منطقة بحر إيجة في عهد بطلميوس الخامس، نجم عن ذلك تغيير في موقف مصر نحو التجارة الهندية، إذ أنها أصبحت آنذاك مضطرة أن تعتمد اعتماد كلية على الطريق الجنوبي. وحدث أيضا في عهد بطلميوس الخامس نفسه أن صيد الفيلة أخذ يتضاءل، ولم تلبث المنظمة التي أنشئت لذلك القرض أن تحولت للوقت إلى هدف آخر هو حماية التجارة وإن وضعت تحت قيادة حاكم الإقليم الطبي (Thebnil)، وصارت مهمته في (١٣٠). تضم الإشراف على السفن وجمع الياقوت الأصفر، وحماية من يجلبون البخور عن طريق فقط. ورجه قدر أكبر من الالتفات إلى النقل البحري إلى أعلى البحر الأحمر حتى الإسكندرية، ليكون هذا الطريق منافسة لتجارة القوافل عند السنبايين.. ونشطت حركة النقل نشاطًا عظيمًا على ذلك البحر أثناء القران الثاني، تأسست في الشمال مدينة كليوباتريس بالقرب من السويس، وأسست في الجنوب أرسينوي الجنوبية وهي لا تبعد كثيرا عن باب المندب. ودفع فيلوميتور أيضا بالحدود أعلى النيل حتى جنوب وادي حلفا، وأنشأ مستقران جديدة. ومن المحتمل أن يكون القواد المصريون وصلوا من قبل في وقت مبكر من القرن الثاني إلى د قرن الجنوب، وهو رأي غردفوى ببلاد الصومال، وهي التي سميت فيما بعد باسم رأس الوابل؛ ولم يؤسسوا أنية مصانع، بل استكشفوا قبائل كثيرة غريبة من المتوحشين وضموهم إلى. المتوحشين الوحيدين المعروفين حتي آنذاك لدى الإغريق وهم أكلة السمك في جروسيا (Gedrosia) الذين استكشفهم نيار خوس، وأطلق على الساحل بأكمله من خليج السويس إلى رأس مرد قوى اسم ساحل نروجرديشة (وهي تكتب عادة تروجلوديت خطأ) رسمى شعوبه باسم أكلة السمك واكلة الجذور وأكلة الترسة وأكلة النعام و أكلة الجراد.

حتى إذا قارب القرن الثاني نهايته تزايد الطلب في إيطاليا على منتجات بلاد العرب وبلاد الهند تزايدًا جعل هذه التجارة أهم كثيرة لدى الإسكندرية منها في أي وقت مضى، على حين أن البطالة أسعده القدر بحظين: فتحطمت دولة سبأ، كما حدث حوالي (١٢٠ – ١١٧) في عهد بطلميوس بورچين.الثاني أن بحارًا هنديًا التقط بين الحياة والموت في البحر الأحمر وهو الوحيد الذي ظل على قيد الحياة بين زملائه البحارة، و بار شانه مكن بودو كسوس من أهل كيريكوش، وكان يعمل في خدمة بطلميوس من أن يكون أول أوزي قام برحلة بحرية إلى الهند رمان منها، بمحاذاته للناخل. وأفضت

هذه الرحلة إلى استكشاف الرياح الموسمية الجنوبية الغربية واقترن هذا باسم هيبالون وإن كان هذا الكشف دون ريب معروفة لدى الهنود من زمن بعيد، وهو أم سهل نسبية على الملاحين المخاطرة بالخروج من باب المندب.. ومن يومها صارت سفن من أعقب ذلك من البطالة تزور الوالي الجنوبية ببلاد العرب، استكشفت سقطرى وبذلت بعض الجهد في تحطيم احتكار الوسطاء العرب بل كانت أحيانا تمضي في رحيلها حتى تبلغ الهند، بيد أن الرحلات الأولى التي اتجهت مباشرة عبر المحيط الهندي إلى جنوب الهند ليست أقدم من عام ٤٠ – ٥٠ بعد الميلاد. ووطد البطالمة الأخيرون أقدامهم في مضيق باب المندب بإعادة تأسيس مدينة دري على المضيق باسم برنيقة الجنوبية، على حين شرعت مايوس هورموس الأقرب منها تحل محل برنيقة الجنوبية كمرفأ المدينة فقط. ولما وافت ٧٨، إن لم يكن في وقت أبكر لعله عام (١١٠ – ١٠٩)، كان الحاكم العام (**Epistraleges**) على الإقليم الطيب قد أصبح أيضا قائدًا للبحر (البحر الأحمر والمحيط الهندي)، وهو اسم جديد يشير إلى قيام علاقات منتظمة مع الهند. فأما التجار الهنود فقد شرعوا من جانبهم يفدون مباشرة إلى موانى بلاد الصومال وظهر الهنود في مصر. إن شاهدة حجرية لمقبرة نقشت عليه هيئة المجلة والترزولا (وهي حرية ذات ثلاث ش ب) يشهد بوجود البوذيين بالإسكندرية. وبفضل هذه الرحلات عرف الناس جنوب الهند لأول مرة.. ويعدنا القلقل بأمارة قيمة على وصول محاصيل جنوب الهند. وقبل ذلك بزمن – يعيد وجدت مقادير ضئيلة منه طريقها إلى بلاد الإغريق، وإن كان ثيوفراستوس بعده عقار طبية، ومتى علمنا أنه حدث في عام، أن رجلا بأثينا كان يملك مل، نصف جالون من الفلفل بمنزله، كان معنى ذلك أن حدثا جديدا قد وقع. من هذا نرى أن التجارة مع الشرف واستكشاف أرجائه كان يحدث فيها. تطور متواصل طوال تلك الفترة البطلمية، وعندما اقترح كليوبطرة السابعة التخلي عن البحر المتوسط والاتجاه إلى حكم البحار الهندية بدلا منه. بكن حديثها لغوًا، ولعلها تدر تكهنت سلفا بآراء ألبو كرك[1].

أما عن رأس غردفوى و هل سار أحد قط في ذلك الزمان إلى الجنوب منه فذلك أمر يتوقف على قصة أخرى رواها بوسيدونبوس. فانه يقول إن ديودوكسوسه سار في رحلة أخرى بعد ذلك محاذية شاطئ أفريقيا و وراء بلاد إثيوبيا، وأنه أخضر معه مقدم سفينة محطمة قيل إنه مقدم سفينة من قادسباسبانيا، عند ذ ذهب إلى قادس وحاول أن يدور بسفينته حول إفريقيا إلى الهند سائرًا في إن

(١) البوكرك ١٤٥٣ – ١٥١٥ القائد البرتقال البحرى الذي وضع أساس الاستعمار البرتقالي بالشرق الأقصى (انظر للمترجم "آسيا والسيطرة الغربية").

سفينة قدس، ولكنه عار أدراجه عند جنوبى مراكش بالضبط غلاف نشب بينه و بين ملاحيه. وهذه القصة ممكنة تماما، ولكن نشوهها التفاصيل السخيفة – مثال ذلك أنها تظهر بودر كسوس بمظهر الجاهل بالنظم البطلمية المتعلقة بالتوابل المستوردة، وما كان بوسيدونيوس بالرجل الذي يستطيع أن يفرق بين الصدق والكذب، ولا هو يقول لنا لماذا يصدق هذه القصة بينا هو لا يصدق رواية هيرودوت عن طواف الفينيقيين حول إفريقيا. برما قبول الدور الذي لعبه بودوكسوس، فأما قصة سفينة قادس. فينبغي أن يكون حكمنا فيها بأنها و قضية لم تتوافر فيها الأدلة.: وكان المنافس الرئيسي للبطالة في هذه الفترة المتأخرة هو البطراه تلك المدينة النبطية المدهشة و معنى الاسم باليونانية و السكني في شقوق الصخور. ولا أن أحمل البارثيون بلاد بابل و تحكوا في الطريق الأوسط الآتي من بلاد الهند، أصبحت البطراه من أعظم أسواق آسيا، فان أهلها فضلا عن تجارة القوافل أخذوا آنذاك يضعون أيديهم على تجارة البحر عن طريق العقبة (أيلانا **Aelana**) وفي إيلات الحاضرة، كما أنهم قطعوا مستوردات مصر المباشرة من الملا { ديدان عن طريق اميلون مينائها بلاد العرب، والراجع أن ذلك كان بالاستيلاء على اميلون وتسميتها اسما جديدة هو لوكى كوى. فدوا سلطانهم شمالا كما مدوه جنوبا، بل لقد بلغ بهم الأمر أنهم ظلوا يكون دمشق مدة من الزمن ابتداء من (٨٥)، وكان بالبنط نبوغ في الجارة، وقد تنبه الإغريق إلى حقيقة عجيبة في أنهم لم يكونوا يختلفون وتكون قط إلى القانون، ومن المحتمل أنهم كانوا شأن تجار الصين يحافظون على كلمتهم بشرف.

فإذا انتقلنا إلى تفاصيل التجارة، التقينا مُنذ البداية بحقيقة عجيبة، هي أن جميع ما كتب في الهلينستية على ضخامته لم يسجل التاريخ فيه كتابة واحدة بعالم التجارة صراحة على مبلغ أهميتها: وما الجارة الهلينستية في أغلبها إلا كقرطاس عفت على ما درس من سطوره تجارة الإمبراطورية الرومانية، مثلما غطت على شبكة الطرق الهلينستية الطرق الرومانية، ومن العسير على المرء منا أن تقتصر في بحث الوضع على السير إلى الخلف والابتداء من الظاهرة الرومانية المعروفة لنا بدرجة أحسن. ولا شك أن بعض المواد التي توافرت لدى الصنفين المتأخرين هللينستية بحتة، بيد أن هذه تحتاج إلى تحليل دقيق.

كان الفرس قد نجحوا في إبعاد التجار الإغريق من وسط آسيا والأجزاء الداخلية منها، وذلك على حين نشطت التجارة بقوة دفع هائلة بفضل فتح أبواب هذه القارة على مصاريعها على يد الإسكندر وخلفائه، وبفضل زيادة آسيا ومصر ثراه وسكانا، والمدد الضخم من جديد المدن

والمستقرات، وارتفاع مستوى المعيشة بين الطبقات العليا. ولقد ازداد حجم السفن التجارية: حتى بلغ ذروته في سفينة هيرون العسيرة القياد المسماة سيراقوزيا التي بلغت حمولتها ٤٢٠٠ طنًا، على حين أن المادة الجديدة التي استنوها وهي الإبحار المباشر من نقطة إلى أخرى بدلا من السير بحذاء الساحل زادت كثيرا من سرعة العمليات التجارية ومداها. وعمدت كثير من المدن في القرن الثالث إلى تحسين موانيها، ما أن كتاب "الموانى" "On Harbours"، الذي ألفه تيموستينيز الرودسى كان يملا نفس الفراغ الذي يشغله الآن و كتاب ربان البحر المتوسط "Mesliterranean Pilat" ووقعت كثير من المدن الإغريقية مواثيق لتنظيم وتسوية شئون المنازعات على العقود التي تنشب بين مواطنيها، وهي حركة قامت رودس على رعايتها وبذل بعض الجهد بقصد سد الفراغ الذي أصبحت تشغل الآن عمليات المصارف والائتمان عندنا. وكانت خطابات الاعتماد معروفة لديهم، وإن لم يعرفوا ص كوك الدفع بالتبادل (Bills of Exchange). وكان كل ملك هللينستي (فيما عدا ملوك أمر: أنتيجونس فيا بمحتمل)، تاجرة عظيمة، كما أن بعض المدن الإغريقية حذت حذوم وأخذ نتجن هي الأخرى، و بذلك وجد نظام تجارة البلديات، وبطبيعة الحال لم يحدث قط أن المناجم كانت من الأملاك الخاصة، ولكن الذي كان يحدث عندئذ هو أن زودس و كيدوس وغيرها كانت تصنع الجرار مما لديها من مناجم الصلصال وتضع عليها أختامها، وكانت كل من برينى وأوروك تملك مصانع استخراج اللعن وكانت لميليتوس مرابي للأغنام ومصانع الصوف تملكها بلدية المدينة وكان التجار أيضا بمنجاة من القلق الذي ينتاب أمثالهم في عصرنا الحاضر) وذلك لأن الطلب كان في العادة يفوق المرض، وإذا كان في وسعك الحصول على سلعة أمكنك بكل تحقيق أن نبيعها. ولو حكمنا على الأمور قياسا على ديالوس، لعلمنا بأن مكاسب تجار التجزئة كانت جسيمة، إذ تسجل الكتب مكاسب قد تصل إلى مئة في المائة، وإن كان العرف الجاري أن عشرين في المائة إلى ثلاثين في المائة مألوفة أكثر.

زاد مقدار النقود المتداولة في زيادة هائلة، وذلك بعد أن أنشا الإسكندر عمليه الدولية التي كانت أمرا ضرورية لاغي للتجارة المتزايدة عنه ؟ حتى إذا وافي القرن الثالث إذا بنا نجد العالم منقسمة إلى نطاقين رئيسيين للعملة. وكانت دراخمة الإسكندر مطابقة للدراعية الأتيكية من جميع الأوجه، واستخدمت هذا المعيار كل من أتينا ومقدونيا وتوابعها والإمبراطورية السلوقية والشرق الأقصى وبرجامة وبيثينيا وكبادوكيا والبحر الأسود (عن طريق نقد ليسيماخوس) و اوبيروس، وغزت تلك

العملة أيطوليا وبورونيا، ولم تلبث روما في النهاية أن انضوت في هذا الضار كذلك تحمل دينارها "denariue) معادلا للدراخمة الأتيكية، واستخدم بطلميوس الأول في البداية المعيار الرودسى، بسبب العلاقات التجارية الوثيقة القائمة بين رودس ومصر به بيد أنه عاد بعد أن استولى على فينيقيا انتقل إلى المعيار الفينيقي الذي ما لبنت أن التزمته رودس أيضا فيما بعد. وكان هذا المعيار سائدة في مصر وتوابعها وقرطاجة وإمبراطوريتها وروردس وسيراقوزا ومرسيليا. فكأن المعيارين الدوليين النقد يعكسان الخصومة القديمة بين أثينا وفينيقيا. وكان المعيار الأيجيني لا يزال مستخدمة في دلفي وبعض أماكن أخرى، بيد أنه لم تكن له أهمية كبيرة، واحتفظت كورنية أيضا بمعيارها القديم، غير أن عملتها كانت تقبلي مع العملة الأنيكية. وأخذت قرطاجة تجرب التجارب في النقود المتداولة قيمة أقل من قيمتها الحقيقية.

وفي القرن الثالث انتقل رجحان الميزان التجاري نهائية إلى مصر وورودس وساحل آسيا، ولكن كتاب التاريخ غالوا في تقدير هذه الحقيقة كثيرة، وشاهد ذلك أن الرخاء الذي كانت تنعم به ميسيني حوالي (١٠٠) (الفصل الثالث) يبين أنه ليس من السير الخوض في حديث عن فقر بلاد اليونان قبل عصر سولا. أجل اضمحلت بالتأكيد تجارة أثينا حتى عاد إليها ازدهارها أثناء النهضة في أخريات القرن الثاني، بيد أن مورثة بما لها من تجارة الترانسيت بن آسيا وإيطاليا، ربما كانت تستطيع في القرن الثاني أن تثاقس إيسوس ألا ترى إلى هرقليدس كيف يقول في (٢٠٥) إن الكيس كان بها. أحسن أسواق هلاس تموينا وإعدادا، على حين كانت بوونيا مليئة بالمال: وأصبحت أيطوليا تربية تراه فاحشة مقرونا بسوء السمعة، وازدهرت أميراكيا بوصفها ميناء التجارة الوافدة من إيطاليا حتى حولت روما عنها التجارة العابرة إلى ديراخيوم، كما أن الفن المزدهر في الجاساى (الفصل التاسع يشهد باستمتاعها بحياة رغدة ميسرة. أما ما كان يحدث فعلا نحو أن الشيء الكثير من الزيادة الضخمة في الثروة كان يذهب إلى الأقاليم الجديدة، ففي (١٧٠) كانت رسوم الاثنين في المائة عن الصادر والوارد تغل في رودس مليون دراخمة (الفصل الرابع)، مقابل ٢٠٠ر٠٠٠ في أثينا في (٤٠١)، ولكن من الجيب أن غالبية أكثر تمدن. العالم تراه: وهي سلوقية وأنطاكية ورودس وافيسوس وكيزيكوس وكورنثة وديلوس، كانت تعيش على تجارة إلي انسيت. وأخذت إفيسورى مركز الترانسيت تتغلب باطراد على منافستها ميليتوس الصناعية، وهذه الحقيقة توي، إلى الدور المتسلط الذي كان يلعبه كل من إنتاج الشرق. ومصنوعاته في التجارة الدولية. و إلى جوار ميليتوس كانت الحالتان الاستثنائيتان الرئيسيتان هما

الإسكندرية و برجامة بماحوتامن مصانع يعمل بها موالى الأرض والآراء، وهذا فضلا عن صور: على أن الإسكندرية وصور كانتا تقومان أيضا بتجارة ترانسيت ضخمة. ومن الشائق أن نوازن بين الإسكندرية، أعظم مينا و هلى ستى، وبين يونيولي في كامبانيا، عندما أصبحت هذه المدينة الأخيرة بعد (٨٨) مينا. ورود التجارة الشرقية إلى ايطاليا. و كانت الإسكندرية تستورد الخشب والمعادن على أنواعها والصوف والثياب الإرجوانية والرخام و أنواع النبيذ الممتازة والأفاويه والخيل – وهي قائمة ضخمة. ومع ذلك فإن صادراتها وهي القمح والردى والزجاج والكتان والبضائع الصوفية والمراهم والعطور والعاج وأدوات الترف بوجه عام –كانت تفوق وارداتها إلى درجة كبيرة. ومن هنا يتضح مصدر جزء من كنوز البطالمة. ولكن واردات يونيولى كانت تفوق صادراتها كثيرا، ولما كانت مواردرما لأني بما للمنطقة الإيجبة من العملة والنقد، فإن الزان التجاري كان يمثل شيئا جديدة في العالم: وهو النهب والسلب الذي كان يرتكبه ملتزم الضرائب الرومان.

ننتقل الآن إلى السلع التجارية. أما فيما يتعلق بالمعادن، أن الفكرة العامة عنها واضحة لدينا، ذلك أنه فيما خلا الحديد والنحاس ومعها القضية إلى حد ماء كانت. موارد حوض البحر المتوسط الشرقي من المعادن قد استنفدت ولا ما فيما يتعلق بالذهب. ان ذهب باكتولوس و وتمولوس في ليديا و آسيا الصغري بوجه عام، أصبح في خبر كان، شأن طبقة ذلك المعدن الموجودة بالرواسب الطينية في إسكابتسيلى و مناجم الذهب بجبل برميون وبيريا مقدونيا. أجل بقيت هناك بعض مناجم الذهب على امتداد نهر استرابون، ولكن أحدا من ملوك آلي أنتيجونس لم يسك أية عملية ذهبية، وإلى الشرق كان نهر هكتانس في كرمانيا يجلب الذهب فيا يقال: ولا يستطيع أحد أن يقول إلى أي مدى استغل هذا الوضع. وكان ذهب الإمبراطورية الفارسية يجى عن طريق باكتريا من مورده الأسيوي الرئيسي، وهو سيبيريا التي كان برد منها أيضا البر الخاص بضرب الهند، على أن طريقي الذهب السيبيري سدا جبهة في منتصف القرن الثالث، ولم يعد يصل إلى آسيا الغربية إلا القليل من الذهب، ومن المحتمل أن ذهب أسبانيا ظل حتى (٢٠٢) رسل إلى قرطاجة أو يمر من خلالها. بيد أن البطالة عندما وسعوا حدودهم جنوبا نحوا – مناجم ذهب ثمينة بلاد النوبة وفي الجبال الواقعة أعلى مدينة برنيقة الذهبية، كما أنهم ربما حصلوا على شيء من الذهب من بلاد العرب، وكان لهم عمله ذهبية مُنذ البداية. وكانت الفضة نستخرج من مناجمها بمقادير لا يأسها على يد. كل من المدن والملوك بآسيا الصغرى، وقد كان جبل بانجانوس في مقدونيا يستغل طوال تلك الفترة، وإن كانت منطقة

لاوريوم قد أخذت تتأخر في إنتاجها باطراد حتى لم يعد يستغل منها في عهد أوغسطس إلا الحفر العميقة في قيعان الأنهر بيد أن مقدارا كبيرا جدا كان ينتقل نحو الشرق من أسبانيا.. ومى خزانة الإمبراطورية، حيث "لم يكن للفضة أي حساب" ولابد أنها كانت تجيء من لوس إلى قرطاجة أو فينيقيا. وعندما رغب جونا حوالي (٣٠٠) أن يفر إلى طارطسوس (وهي في ذلك الزمان قادس) وجد على الفور سفينة ذاهبة إلى هناك. كان العالم يحتاج إلى قناطير مقنطرة من الفضة ليصنع منها عملته وأدوات الترف عنده، بيد أن النتائج كان كافيا لجميع تلك الأغراض واستطاع البطالة أن يضعوا عملة مصر على قاعدة من الفضة وجمعوا منها كنزا عظما، وفي ٩١ صارت صحاف الذهب شائعة بميسيني، وهي مدينة صغيرة بعيدة عن تيارات الأحداث و الفصل الثالث)، وكان النحاس محتكرا تقريبا يد البطالة مُنذ استولوا على قبرص، التي كانت فيا محتمل غنية جدة بالنحاس بحيث لا تخشى حتى منافسة أسبانيا لها. بيد أنهم لم يستغلوا قط مناجم النحاس بشبه جزيرة سيناء، التي أخذت في الواقع تنتقل إلى يد النبط. واستغل نحاس بوبيا، ولكن أسرة والوس كان لها بعض مناجم محلية. وكان الحديد لا يزال موجودا في كل مكان، ولئن نضبت مناجم معينة مثل مناجم لاكرونيا، فقد كانت هناك ركائز ثمينة منه بالجزر لم تكد يد تحسها. و كانت أجود أنواعه (وهي التي تقارب الصلب) التي نجى بحرا إلى كزيكوس، – مما ينتجه الخاليون (**Chahtes**) (الفصل العاشر) الذين كانوا مشتتين عندئذ بأرجاء بنطش وأرمينية. وفي القرن الأول تسامع الناس بصيت الحديد الصيني الذي كان يستورد إلى بأنثيا عن طريق مرو. وكان القصدير يرد من كورنوال وبريتاني، حيث جاء في البداية عن طريق قادس وقرطاجة، ولكن طريقه تغير به لب (٣٠٠) فأخذ يتحول بدرجة متزايدة إلى طريق نهر اللوار فالجارون تم بطريق البرالي مرسيليا، ومن المحتمل أن شيئا منه كان موجودا أسبانيا، على أن الحديث عن "جزائر القصدير" إما أن يكون حديث خرافة أو من قبيل سوء الفهم. فأما الزئبق الذي كان بظهر على شكل الزنجفر (الزئبق الأحمر) وهو يستخدم في صنع السيلقون فكان يستخرج من مصادر ثلاثة: هي مناجم كبادوكيا التي كانت تمون في الماضي سينوب "بترابها السينوبى"، ومناجم زيزيما الجديدة بالقرب من لاؤنكيا "المحترقة" فضلا عن ركاز منه قرب إفيسوس، وكانت الكمية بأكملها تجئ آنذاك إلى إفسوس.

وعلى الجملة كان التعدين أسوأ وصمة مني بها التاريخ الهللينستي. فإن هناك حكايات مروعة تروى عن القتل وإزهاق الأرواح بمناجم الزئبق في لاوريوم وكابا دوكيا. ولكن حسبنا أن نقتبس من

أجاثر خيدس كلمة في وصف مناجم الذهب النوبية، التي كان البطالة يستغلونها لا باستخدام الأرقاه والمجرمين نسبه (وهي العادة المتبعة)، بل وبأسرى الحرب الذين ربما كانوا من اليونان الأحرار. وكان الشبان الذين يزحفون وعلى رؤوسهم المصابيح، يحفرون الأنفاق ويشقون طريقهم بأيديهم في حجر الكوارتز متتبعين مروق الذهب. ويسحب الأطفال إلى الخارج الكوارتز المنحوت من الصخر، على حين يكسره بالطارق الرجال الأكبر سنا، وبعد ذلك تم عملية التمهيد للغسل بالماء: فتطحن القطع المتكسرة لتحول ترابا في طاحونة الحجر التي لا تديرها الثيران ولا البغال – – بن النساء اللائي كن يعملن عاريات، ثلاثا لكل طاحون. وكان يحرسهم نوبيون مسلحون، و كانوا جميع مقيدين بالأغلال يضربون بالسياط ويشتغلون دون أدنى راحة أو عناية بأجسامهم، وكانوا جمعية فيا قال أجانر خيدس، يرحبون بالموت من صميم أفئدتهم متمنين أن يوافيهم.

أما عن المواد الغذائية، فان القمح كان فارجع أعظم السلع التجارية جميعا بما فيها الفضة الخام، و كانت أثينا و كورنة وديلوس وجزر كثيرة أو بونيا وربما أيضا مدن أخرى، – تستورد القمح عادة، على حين أن أكبر البلاد المنتجة له جي مصر (وها برقة) وبلاد القرم. و انت بلاد اليونان نتمون به. من مضر و بلاد القرم. فلما أن أخذ المصدر الثاني يضمحل في القرن الثاني، كانت نوميديا مستعدة لتبوأ مكانه، وفى (١٨٠) أرسل ماسينيا إلى دبلوس قحا بسعر رخيص. ولسنا تدري هل كانت دولة بابل تنافس مصر في.تريد. أبونيا بالقمع، ولا ماذا كان القوم يصنعون بفائض القمح البابلي. ومرد ذلك أننا لا ندرى شيئا مطلقا عن الأمور الداخلية في دولة السلوقيين.. وكانت مقلية تصدر بعض قمحها إلى بلاد اليونان، ولكن مهما يكن الأمر فإن أحدة – لا يرتاب في تفوق مصر التام في سوق القمح، وأم مستودعات تجارة القمح الدولية مي رودس وديلوس (الفصل السابع). أما النبيذ فينتج في كل مكان على أن أجود أنواع النبيذ كانت ما اختص به قطران شمال سورية التي كان نبيذها يصدر من لاء رذكيا (اللاذقية) على البحر، وأبو نياهي والجزر الساحلية (عدا ماموس). و كانت المبوس وخيوس و كوس و كنيدوس وإنيسوس وأزمير و تحولوس و كاتا كيكو مينى البركانية ذات شهرة عظيمة بالتبين. وكانت الإسكندرية تصر على احتساء الأنبذة السورية والأيونية مها نكن المكوس المقررة عليها إصرار لندن على احتساء الشمبانيا، على حين أن نبين اللاذقية كان يصدر ختى الي جنوب بلاد العرب، وكان السبب في امتناع أبونيا عن زراعة القدر الكافي من القمح هو انتشار كروم العنب بها، وذلك لأن الكروم كانت تغل في نفس المساحة خمسة أضعاف إنتاج القمح تقريبا. أما عن

بقية أنواع الأطعمة، إن أثينا كانت تصدر أجود أنواع الزيت.. وكانت أثينا وجزر السيكلاديس تصدر عسل النحل وتصدر بيزنطة السمك المملح الذي كان بعضه من سلع البحر الأسود المعاد تصديرها، وكانت بيثنيا تصدر الجبن، و بنطش الفاكهة والبندق، وإقليم بابل داريجة البلح،ر هناك التين المجفف الذي تنتجه أنطاكية على نهر الياندروزبيب كوس و بيرون. م أن برقوق دمشق سلعة ذائعة الصيت. وكان السكر الهندي معروف ولكنه يستخدم في التداوى.

أما عن المنسوجات، الإسكندرية كانت أهم مصدر للنيل والكتان، و كانت منافستاها الوحيدتان ها بورسيا آكلة الخفافيش وكولخيس؛ وقد ظهرت صناعات الكتان في إيليسن وبلاد اليهودية بعد ذلك بزمن بعيد. وكانت كل من أبوليس ورقة تنتجان الصوف، كما أن برجامة والإسكندرية كانتا تصدران الأقمشة الصوفية، إلا أن المركز الخفي لصناعة الصون هو ميلينوس، ان صوف أغنامها كان حتى آنذاك أحسن ما في العالم من صوف، وإن كانت ليديا كلها و فريجيا بأكملها تغزل الصوف. و كانت القطعان العظيمة من الأغنام نغشي المنطقة المحيطة بحيرة تاتا الملحة التي كان ثمارها با ع بالنقود، ومنطقة كاتاكيكو ميني التي كان صوفها بنسج في لا، وردكيا على نهر ليكوس. ولا شك أيضا أن صناعة الصوفي ازدهرت أعظم ازدهار في سورية، وذلك لأنه ليس من المعقول أن تبدأ تلك الصناعة في عهد روما كاملة الأزهار، و كانت الأماكن عديدة سلهما التي تخصصت فيها: فاشتهرت برجامة مثلا بأستارها وقماشها المنسوج بقصب الذهب وأيولبس ببسطها وقيلقيا بعباءاتها الخشنة. وذاك على حين أن الإسكندرية كانت تنتج أيضا بضائع رخيصة تتجر فيها مع الشعوب الإفريقية السوداء. والقطن الذي كان يزرع نما سلف من الزمان بآشور صار إذ ذاك معروفة بوصفه تحفة من التحف، ولا يخالجنا شك في أن الموسلين الهندي كان يستورد، وذلك أثناء القرن الأول على الأقل. و يرد حرين الصين إلى الغرب قط حتى عشان كان في (١١٥) طريق القوافل الأسيوي الأوسط، ولاشك أنه وصل من بعدها إلى پارتيا، ويحتمل أن. المنسوجات الحريرية الصينية كانت معروفة بمصر في القرن الأول ق.م. ولكن يمكن القول جملة أن جميع الحرير المستخدم آنذاك، كان يستخرج من دودة القز البرية بآسيا الغربية، وكانت كوس تستورد الشرانق طوال تلك الحقبة: وتنسج خيوطها نسيجا شفافا لملابس النساء، وأثرت كوس ثراء عظيما من ثقلها.. بين تجارة النبيذ والحرير والسلام بالإيحاء الديني، بيد أن «ثياب كوس» لم تكن إلا إسمًا تجارية، ومن المؤكد أن فينيقيا قامت بها الحرير صناعة ضخمة (تقوم بتصنيع مستوردات بلاد العرب)، وذلك لأن الحرير شاع استعماله في

البلاد حتى لقد حرم على النساء بميسيني لبس الثياب الشفافة أثناء أداء بعض الطقوس الدينية، على أن حرائر كليوبطرة كانت صينية نبا يحتمل، سواء أكانت تجيء عن طريق پارتيا أو بالبحر من الهند.

ولو سردنا على مسامعك قائمة كاملة بسلع التخصص المعروفة الإنتاجية منها والصناعية، أي السلع التي اختصت بها الأماكن المختلفة لطالت القائمة كثيرة. لقد كانت الإسكندرية تزود العالم بالورق (البردي)، وتزوده الإسكندرية وصيدا بالزجاج، وإن قيل إن صناعة الزجاج كانت نادرة بمصر قبل عهد. الرومان. وكان الرق احتكارا لبرجامة وحدها ابتداء من القرن الثاني، ولكن القمة القائلة بأن يومينيس الثاني هو مخترعه، كاذبة ما في ذلك ريب. ذلك أن الرق كان معروف مُنذ القدم، وكل ما فعله ذلك الملك أنه استخدم ثروته في اقتناء الماشية وصناعة الجلد، كما استخدم عبده في إنتاجه على أساس الإنتاج الكبير. وتنافست مقدونيا وجبل إيدا في إقليم تروادة في تزويد العالم بالقارب وكان لآل أنتيجونس نظام لرسوم الواردات أو الرخص تمكنوا بمقتضاه من تخفيض الأسعار لأصدقائهم ورفعها بالنسبة لأعدائهم. و كانت مصر تستورد. القطران اللازم للتحنيط من مصايد أسماك البحر الميت، وكان القطران مادة متوفرة في بلاد بابل، وكان التراب المخلوط بالقطران والمستخدم في رعاية الكروم من الحشرات يصدر من روس وسلوقية الواقعة على سفح جبل بيرا. با بواصل أحد قط عملية استكشاف الإسكندر، لزيت البترول على نهر جيحون (أموداريا). و كانت الرخام بوبوس قيمته في كل مكان وجد بها وبعد (١٦٦) كانت لأثينا تجارة في رخام جبل: بنتليكوس، واستخدمت أنواع أخرى كثيرة منه وإن كان ذلك في بعض الأحيان بصفة محلية ليس إلا، ولكن يغلب على الظن أن ذوق الاستمتاع بافرخام اللون الوارد من يوبيا وثاسوس والرخام المموج أو العرق من مصر وتينوس والاتجار فيها جميعًا، كان في معظم أمره نزعة رومانية، وذلك لأن الرومان مالذين فتحوا مناجم الرخام الأخضر في نيجيرس، واستغلوا الرخام الشرب بعروق حمراء والمجلوب من دو كميوم، وهو شي. لم يكن يجري. استخدامه أثنا. المصور الهلينستية إلا على قلة شديدة. وكانت مقدونيا زود بلاد الإغريق بالخشب، كما أن مصر الفقيرة في الأشجار أخذت تستمد العون في هذا المجال من خشب الأرز بلبنان وكان على الدوام من الممتلكات الملكية) ومن أشجار صنوبر قبر من و بلوط باشان، على حين مدت يدها عن طريق أرسينوي الواقعة بقيلقية لتأخذ ما تستطيع أخذه من غابات جبال طوروس. حتى إذا فقدت امبراطوريتها الشمالية كانت قد أعدت نفسها لاستيراد الخشب من

الساحل العتر وجوديتي. وكانت الأخشاب النادرة تجيء من بلاد بنط[1] والصومال، كما أن الأبنوس وهو المعروف في ديلوس ومصر كان رد من الهند. و كانت النوافذ في أنحاء العالم تصنع من الميكا الشفافة الواردة من كبادوكيا. وكانت مصر تصدر شيئا من الجرانيت، وذلك لأنه كان يستخدم حوالي (١٣٠) في بناء المرافئ الجديدة. السفن بديلوس. وكان محار الأرجوان والأسفج يستخرجان من أماكن كثيرة ببلاد الإغريق، ولكن صباغ الأرجوان كان لا يزال الصناعة الرئيسية بفينيقية التي عاشت فيها صور وأرادوس في رغد مفرط وارتفع شأن الصباغة أيضا فأصبحت صناعة عظيمة في أبونيا وغرب آسيا الصغرى.وظل العاج الوارد من الهند احتكارًا للسلوقيين، حتى طرح بطلميوس الثاني بين (٢٦٩، ٢٥٠) قدرا من العاج الأفريقي في السوق، كان كافيا لخفض السعر السائد آنذاك. ذلك أنه لابد أن العاب الإفريقي أخذ يتقلب باطراد على منافسيه بسقوط دولة الاورياس واستغلال موارد إثيوبيا. وفي القرن الأول قدم البطالة هبات فاخرة من العاج لمعبد ديديما. (**Diydma**).

واشتهر القرن الثالث وأوائل الثاني بعد فق مستر من الرقيق إلى المدن الإغريقية من تراقيا وسوريا وآسيا الصغرى (الفصل الثالث)، حتى لقد كان بديلوس قبل عام (٢٠٠) ذاته فيما يحتمل سوق للرقيق، وإن قام على نطاق محدود. و أخيرة نذكر بنطش التي لم تستغلونها العظيمة استغلالا حقيقية حتى القرن الأول، إنها كانت هي المصدر الرئيسي العقاقير الطبية.

أما عن أدوات الترف: فالجواهر كانت تجئ من الهند وبلاد العرب.. وإن كانت مصر تنتج الجمشت وحصل على الياقوت الأصفر من البحر الأحمر والزبد من تلميس بإثيوبيا، وكانت الهند والخليج الفارسي ترسلان اللؤلؤ، وهو شي. لم يعرف قبل عصر الإسكندر، ولكنه صار آنذاك بموضع القدير العظيم من النساء كحلي يتحلين بها. وهل كانت النساء تستخدمن الأحجار الثمينة ؟ ذلك شي. مخيم عليه الشك الكثير، كان الماس مجهولا، وأحجار الياقوت نادرة ندرة مفرطة، و فيما عدا اللؤلؤ لم يتناول ثيوفراستوس إلا مسألة استخدام الأحجار المستعملة في حفر الجواهر، وكان الصرد (العقيق الأبيض) الوارد من نسارديس و بابلونيا ذا شهرة ملحوظة، وازدهر فن النقش على الجواهر في الإسكندرية. على أن هناك تجارة توقفت، هي تجارة الكهرمان. ذلك أن هجرات الغالة قضت على النظام المتبع في طريق الكهرمان القديم الممتد من بحر البلطيق إلى البحر الأدرياتي. وتحول الكهرمان إلى تحفة من التحف وظل كذلك إلى أن أعيد فيتيح ذلك الطريق في عصر نيرون. وكان محار

---

(١) بنط: اسم أطلقه قدماء المصريين على المنطقة المحيطة ببوغاز باب المندب (المترجم).

السلاحف يجلب من الهند ومن الساحل التروجوديتى، وذاعت شهرة الإسكندرية كمركز عظيم لفن الصياغة، على أن تجارة الترفي الحقيقية انحصرت في التوابل. وقد اشتد عليها الطلب اشتدادًا بالغا. و كانت الهند ترسل القرفة والدار صيني وسنبل الطيب المنتدى من جبال الهملايا، والأردن وصمغ البدليوم النباتى (والأخيران كانا يأتيان أيضا من جيدروسيا) وفضلا عن اللبان كانت بلاد العرب ترسل أيضا المر. و كانت بسيديا تنتج شجيرة الميعة (وهو حما اللبان) وأنواعًا مختلفة من الصموغ، ولعل ذلك هو مرد الرغد الذي كانت تنعم به مدينة سلجي. وكانت بحيرة جنسارث تنتج عمار الحصر الفاخرة و كانت أريحا تحتكر البلسم، وقد منعت زراعة هذا النبات في كل مكان (مثلما فعل الهولانديون يوما بالقرنفل) [١] ماعدا حدائق البلسم الشهيرة التي أهداها ماركوس أنطونيوس بعد ذلك لكليوبطرة، وربما كان نبات البلسم مقدسة شأن أشجار اللبان (انظر ما بعده)، وذلك لأن المادة جرت بقطعها بسكين من حجر، وهو أمر ربما نجم عن بعض الشعائر الدينية القديمة. وكانت القرفة ذات قيمة عظيمة جدا، على أن تجارتها كانت بأيدي العرب دون غيرهم، حتى لقد حسب الإغريق أنها تنمو في بلاد العرب وبلاد الصومال. وتركزت تجارة التوابل بالإسكندرية. كما أصبحت رودس هي مستودعها للتصدير، كانت التوابل احتكارًا ملكية، ويشرف عليها موظف يجب أن تسلم إليه كل التوابل الواردة لمصر، وكان صنع هذه الواردات مرام وعطورًا ونصدر السلع. المجهزة منها يؤلف. صناعة عظيمة. فأما معنى المرهم وقيمته آنذاك فيمكن إيضاحه من أن الدهان الذي كان يستخدم في تتويج ملوك البارثيين كان يحتوي على سبعة. وعشرين عنصرا مختلفة. وذلك في مقابل أربعة فقط كانت تستعمل في المادة المعدة لرسامة الكاهن الأعظم بأورشليم، والظاهر أننا لا نعرف ما الذي كانت الهند تأخذه في مقابل صادراتها، ولكن كان المظنون أن جنوب بلاد العرب لا يأخذ إلا شجيران الميعة (حصا البان) ونبيذ لازوكا، وزجاج الإسكندرية ومنسوجاتها، ومن هنا نشأت الأسطورة القائلة بأن جنوب بلاد العرب كانت تنفجر فيه ينابيع الثرة المتكدسة، وهي أسطورة المبت دورها قويا في حملة جالوس (**Gallus**)) السيئة الطالع في عهد أوغسطس.

وهناك سلعة واحدة في اللبان الذكر كان لها مقام خاص. بين السلع الأخرى جميعًا، وذلك لأنها كانت من شئون الدين قدر ما هي من شئون التجارة. إذ لم يكن في الإمكان الاستغناء عنها في القيام بأية عبادة سواء أكانت إغريقية أم يهودية أم بربرية. وكان دخانها بتصاعد فوق كل هيكل و بالعالم

---

(١) انظر المترجم "آسيا والسيطرة الغربية" تأليف بانيكار (الدار المصرية)

المأهول: المسكونة، وكانت المقادير المطلوبة من هذه السلعة عظيمة، وقد استولى الإسكندر في غزة على مقدار من اللبان زبد زنته على ٦٠٠ تالنت، وكان هيكل بل في بابل وحدها يستهلك منه أكثر من ١٠٠٠ تالنت سنويا. وكان موطن اللبان هو المنطقة الساحلية بجنوب بلاد العرب من جبال اليمن باتجاه نحو الشرق خلال حضرموت إلى ما وراء سهل ظفار. وكانت أشجاره مقدسة، ولم يكن يجوز لأي إنسان استنزاله من أشجاره إلا لرجال من عائلات معينة، ولا يتم ذلك عندئذ إلا بطقوس دينية، وذلك لأنهم كانوا بذلك يسيلون دم الحياة من كان مقدس، وكانت الأشجار نفسها يستجلب رضاها في أثناء استنزال العصارة منها بحرى بخور الميعة (**Atyrax**) لها، كما يحرق للإلهة. وكان العمال بمصانع الإسكندرية التي بما فيها اللبان مجردون من ثيابهم عندما ينتهون من العمل ويفحصون كما يفحص العمال السود من الزولو (الكافير) بمناجم الماس بكمبرلي. ومع هذا فإن الإغريقي كان من ضآلة الحظ من الترف بحيث إن هذا المحصول الذي يقدرونه فوق كل محصول، كان بعد كلما نتكلفه رحلته الطويلة بالقوافل من نفقات وما تتعرض له من أخطار، يحصل عند وصوله إلى المنطقة الأممية على تحن للرطل الواحد يعادل بالتقريب أجرة أسبوع لصانع ماهر. وما تدري ما إذا كانت مصر نجحت في الحصول على اللبان مباشرة عن طريق الصومال دون وساطة العرب، فإن ذلك مما لا سبيل إلى استجلاء حقيقته.

وكانت الشعوب التجارية الكبرى – عدا الإغريق هم عرب الجنوب والنبط الذين سبق ذكرهم، ثم الفينيقيون. ولقد بلغ الأمر بالتجار الفينيقيين أن أقدموا على إتباع خطى الإسكندر في زحفه المروع في إقليم جيد روزياء كما أن مستقراتهم فيما بعد على جزيرة ديوس نشهد بأن حميتهم لم تثأر قط. وليس هناك دليل يدل على أن اليهود لعبوا أي دور خاص في التجارة. ويقول يوسيفوس صادة إنهم لم يكونوا شعبًا تجاريا. وكانت مدينتا رودس وكيزيكوسيلا تسمحان بدخول غير الإغريق إليهما، ولكن ذلك حالة غير عادية. وكان التجار الأجانب الذين بإحدى المدن يؤلفون على الحملة جمعية تضم شمل أبناء وطنهم، وربما أحضروا معهم المتهم، وربما كان من أمثلة ذلك هيئة الفينيقيين البوسيدنيين بديلوس، الذين كان مبتاعم يحتوي على معبد وسقائف بأعمدة اعرفن البضاعة وعلى مبان إضافية أخرى. ومع ذلك فهناك من الجمعيات ما لم تقم على رابطة وحدة القومية، بل على وجود نوع خاص من التجارة، كتجار الزيت الايطاليين بديلوس، أو الجمعيات التي كان ينشئها بأثينا والإسكندرية بجميع تجار التصدير. وشهدت الفترة الهلينستية التالية طاهرة جديدة، هي ظهور التاجر الروماني بشرق البحر

المتوسط. وما شجعه على ذلك إنشاء ميناء ديلوس الحرة في (١٦٦) وتكوين "ولاية آسيا " في (١٣٠).

وعبارة التجار الرومان تضم تحتها كل من كان له ولاء لروما، حتى لقد كان بعضهم من اليونان الإيطاليين، وكان أول من عرف منهم بديلوس هم سردون، وهو "رومانى" في ٢٥٩ ونوفيوس في ٢٥٠ وميناتوس وهو من كمبانيا في ٢٢٠، ولم تحل ٢٣٠ حتى كان بعضهم ينزل في إيبروس. وصار عددهم كبيرة بلاد الإغريق عام (١٣٠)، حيث كانوا إلى حد كبير أكثر الميثان عدد بديلوى، وحيث أخذوا يتدفقون على آسيا، ومما سهل عليهم السبيل تداول الدينار هناك في الفصل السابع). وقد أصبحوا في (٧٤) موفوري العدد في بينيا، ولكنهم لم يتوغلوا بآسيا الصغرى شرقا أكثر من هذا، بيد أنه حدث بعد أن ضم بومبي سورية إلى دولة الرومان، أن صارت جالية قوية منهم تسكن أنطاكية، ووصلوا إلى البطراء في عهد أوغسطس، ولكن ذلك لم يتم إلا وقد أوشكت البطراء أن تصبح محمية رومانية، وقد ظهروا بالإسكندرية مُنذ ١١٧ فا تلاها، ولكن لم يكن لهم كبير وزن، و كانت أكبر مساهمة من روما قبل عهد أوغسطس في تنشيط حركة التجارة المصرية مي إنشاء خط سياحى يرتاده السياح في أعالي النيل. ولم يكن التاجر الروماني في البداية مكررها من الناس في بلاد الإغريق وآسيا، وكثيرا ما كان يغدو مواطنة ويتزوج امرأة يونانية وملك الأرض ويسهم في حياة المدينة، بل ربما عين في منصب الحاكم، وأرسل ابنه إلى الممتاز بوم و جعله ينضوي في سلك الشبيبة (**Epiebate**)، وكثيرا ما كان بعضهم مثل زوسيموس في بريني يقلدون أثرياء الإغريق باتفاق المال بسخاء على أعمال البر والخير بالمدينة. و كانوا ينشئون بيوتًا تجارية منظمة ولها فروع. بيد أن كثيرين منهم لم يكونوا من الأحرار، فان هناك ٢٣١ رومانيا معروفة أحوالهم بديلوس، كان منهم ٨٨ من الأحرار (وفيهم ٢٧ يونانيا) إيطاليا، و٩٥ من العتقاء، و٤٨ من الأرقاء" وهي حالة يقال إن نسبة الأحرار فيها عالية. وكان الستائر الرومانى بتوقع منهم أن يتبعوا قوانين المدينة التي بها يقيمون، (بل يصدر إليهم الأوامر بذلك أحيانا)، بيد أنهم امتازوا ميزة هائلة على منافسيهم من الإغريق والشرقيين، حيث كانوا يستطيعون أن يتحولوا من قانون المدينة إلى القانون. الروماني، وغالبا ما كانوا يفعلون ذلك، ويحصلون على مزايا المراسيم أو التيسيرات التي يأذن لهم بها بعض الولاة الرومان السمحاء من قبيل المجاملة، وكان الميزان من الناحية السياسية جانا نحو مصلحتهم. وهذا هو أحد الأسباب التي دعتهم إلى التشبث بالعيش في الأقطار الواقعة تحت الحكم الروماني. وانتهى هذا الوضع ولا سيما في آسيا بها

تارة تـذمر لم تكـن المنافسـة التجارية هي السبب في وجوده، وذلـك لأن الإغريقي لـو أتيح لـه العدل والمساواة في المعاملة لاستطاع الصمود في موقفه في تلك الحلبة بالذات.

وفى ١٦٦ حطمت زوما قـوة رودس و كسرت شركتها بمجملها. ديلوس مرفأ حرة، أعني أنها ألغت الرسـوم والمكـوس المقـررة على الاسـتيراد والتصـدير والمينـاء، ومـع أن رودس ظلـت عشـق مـن الناحية التجارية، فـان ديلـوس سرعان مـا اسـتولت على مكانها كمـر كـز لتجـارة الترانسيت الدولية في بحـر إيجـه. وأدى تـدمير كورنثـة في (١٤٦) إلى إتاحـة فرصـة أخـرى لـديلوس كـذلك. وقـد أخـذ الشـك بتسـرب الآن إلى الـرأي الـذي قـال بـه الأسـتاذ مومسـمن متضـمنا" أن رومـا دمـرت كورنثـة لأغـراض تجارية. إذ ليس محتملا أن كورنثة كانت تفضي الرومان عن المشاركة في تجارتها، ومع أن تـدميرها اد في النهايـة بالمنفعـة الجزيلـة علـى الرومـان النـازلين بـديلوس، فـان مـن المشـكوك فيـه أن مومبـوس نظـر فعـلا نظـرة بعيـدة إلى هـذا الحـد، والـراجح أن هـذا التصـرف القاضـي بتحطيم كورثـة لم يكـن إلا مجـرد تحـذر البلاد اليونان. وفي إمكاننا أن نعلم شيئا عن نجارة بلاد الإغريق نفسها بعد (١٤٦) بملاحظة المواطن والأمـاكن الـتي كـان التجـار الرومـان ينزلـون بهـا، أيـن مجمـوعتهم القويـة في تسـبياى. تـوحي بأن تسـبياى هـذه حصـلت علـى بعـض مـا كـان لكورنثـة مـن تجـارة الترانسـيت، كمـا أنهـم اجتـاحوا إيـروس لأن ذلـك القطر القفر قد حول آنـذاك إلى تربية الماشية والخيل والظاهر أن ميـاني سـالونيك (تسالونيكا) و باترابـى (بـتراى) الحـديثتين كانتـا لا تقومـان آنـذاك إلا بالقليـل مـن الحجـارة، وسـقطت تسـالونيكا بسـقوط أسـرة أنتيجـونس، وعندئـذ انتقـل المركـز التجـاري لمقـدونيا إلى أمفيبـوليس مـرة أخـرى، علـى حـين أن التجـارة الإيطالية لم تنفك تعتبر الأدرياتى من برنديزي إلى أمبراسيا، كما كان يحدث أيام الملك يررس، و نصبع باتراس دان أهمية إلا مُنذ جعلها أوغسطس مستعمرة. والتجارة الوحيدة التي يظن أن الرومان أنشأوها هي تزويد إيطاليا بالتماثيل (الفصل التاسع).

ولم تـبرح دبلـوس في القـرن الثالـث محتفظـة بمركزهـا بوصـفها الجزيـرة المقدسـة، بيـد أن تجارتها كانـت تـزداد باطـراد كلمـا زاد الرخـاء في المنطقـة الأسـيوية الواقعـة فمـا وراءهـا، كمـا يتجلـى ذلـك مـن التنـاقص للتواصـل في الإيجـارات الزراعيـة بعـد ٢٥٠ والـزيادة الهائلـة في إيجـارات المسـاكن (الفصـل الثالـث)، و كانـت تلـك الجزيـرة بالفعـل سـوقا عظيمـة للقمـح، يفـد إليهـا موظفـو دولـة أنتيجـونس مـن سـالونيكا، والـراجح أنهـا كانـت تـدين بجـزه مـن رخائهـا إلى مسـاعدة أسـرة أنتيجـونس. وقـد زينهـا كثـير مـن الملـوك المبـاني، ومـن أمثـال ذلـك تلـك المنـازل الـتي شـادها بطلميـوس الأول للسـفينة الـتي دشـنها، والسـقائف

المعمدة (السباطات) التي ابتناها أنتيجوس جوناتاس وأتالموسم الأول وفيليب الخامس، وقد أقيمت هذه الأخيرة بالتحقيق ليستخدمها التجار. وعندما منحت روما تأييدها الأثينا في (١٦٦) لم نكن تلك الجزيرة مجردة من الاستعدادات الطبية التي تؤهلها لتكون مركزا تجاريا دوليا على الرغم من سوء حال مينائها، فلما أن صارت تحت حكم أثينا وأرباب الإقطاعات الزراعية (**cleruchs**) من الأثينيين الذين طردوا أهالي الجزيرة الديلوسيين ونزلوا بها حدث تدفق عظيم للأجانب عليها، وتقاطر الرومان إليها ليلقوا بالشرقيين، كما فعل الشرقيون ليلتقوا بالرومان. وانعكس أن نجاحها وانتعاشها على سيادتها، وظلت أثينا حتى (٨٨) نستمع رخاء مقلقل كصيف الهند، وأخذت السفن توم من جديد ميناء بيرانوسو تزايدت الروات وحل رجال الأعمال على أصحاب الأراضي القدماء، وغدت العائلات الكبيرة العدد شيئا مألوفة، و فضلا عما كانت تصدره أثينا من الرخام المستخرج من جبل بنتليكوس والتماثيل، كانت تصنع أدوات منزلية كثيرة كالزهريات والمصابيح والأسرة. ولكن هذا الرخاء نولد عن حيف عظيم وقع بأهالي ديلوس، كما أنه لا يرجع إلى الأثينيين أنفسهم، بل إلى الرومان والفينيقيين الذين كانوا يعملون بديلوس تحت ستار أثينا.

. وفي عام ١٣ قام رقيق ديلوس بثورة، فسقط في يد أصحاب أقطاعات الأراضي من الأثينيين، ولم يتم القضاء على الثورة إلا بتكانف مجتمع اللين وأرباب الأعمال بأكملهم. ومن ثم فصاعدا انتهى سلطان أصحاب إقطاعات الأراضي وزال حكمهم، وصار لدبلوس نوع فريد في بابه من أشكال الدولة، وهي شكل الدولة المكون من الجاليات (**Politeumate**) بدر أن نقدم خطوة. أخرى إلى الأمام: فصارت جمعيات أرباب الأعمال من الأجانب في قوام المستوطنين، ويظهر أنهم صاروا بمجموعهم يمثلون "ديلوس"، دون أن يكون لها فايدر أي شكل من الأشكال المسروقة للمدن، ولكنها كانت تحت سيطرة حاكم أثيني، و كان معنى ذلك أن التقاليد السياسية أخضعت المقتضيات التجارة ومستلزماتها. ولئن كان الذهب يستطيع أن يخلق عصرًا ذهبيًا، فان ديلوس آنذاك أصبحت تنعم بذلك العصر. لقد حظيت بجزء من تجارة رودس في الترانسيت و معظم تجارة كورنثة فضلا عن جميع ما اكتنزه. من الثروة نتيجة لإقبال إيطاليا المتزايد على سلع الترف. و أقبل الأفراد والهيئات على تشييد المباني على أوسع نطاق، وقسمت البيوت الموجودة إلى طوابق للسكن، وشيدت مستودعات جليلة لتخزين البضائع على طول الجبهة البحرية، مع إنشاء أرصفة مكسوة بالجرانيت المصري، وفي (١٢٥) تم بناء الميناء الصناعية التي دام العمل فيها طويلا، وهناك نشأ عدد ضخم من المعابد

والمخازن وأماكن كثيرة كانت ملت القوميات المختلفة ومستقر عباداتهم، وبلغت هذه الحركة أوجها في نهاية القرن ببناء ساحة السوق الايطاليين، وهي أبنية بنيت بناء رخيصا. والشطر الأعظم منها محلى بتماثيل لا نبعت الهامة وبأشكال من الفسيفساء منقولة عن فن أقدم منها. وكانت عناصر من شعوب آسيا المختلفة تلت هناك: – ما بين مصريين وفينيقيين وسوريين ورجال من بنطش وبيثينيا، وأحضر المنأون من جنوب بلاد العرب معهم ربهم "واده" وفي ١٠٠ صار بالجزيرة هود شادوا لأنفسهم يمه.. وأخذت الجمعيات والهيئات الفينيقية تقلل باطراد بين القرنين الثالث و الأول من سمعتها الدينية وتزيد من نزعتها التجارية. وكان الأثينيون خاصة يمثلون الإغريق ما مثلهم أقوام ذو نزعة عالمية مثل مبالوي القبرصي، الذي حصل على مواطنية تارتم وسجل اسم ابنه في أحد أحياء أنيكا، وهناك قلة وفدت من بلاد الإغريق نفسها ومن مقدونيا والجزر أو من المدن الآسيوية الإغريقية القديمة. و كان أقوى العناصر جميعها إذ ذاك م الرومان، وكانوا يلقون الرعاية الخاصة من الحكام الأثينيين، حيث كانت أثينا على الدوام صديقة الروما، وصاروا إذ ذاك أصحاب السلطة الحقيقية في الجزيرة.

واختصت ديلوس بتجارة للترانسين المحضة دون غيرها من التجارة، وكانت نتلى بوصفها ذاك جميع أنواع التجارة الوافدة، على حين أن الخليط الكبير من السكان المكدسين على الجزيرة الصغيرة جعلها بالضرورة مستودعة للمواد الغذائية، بيد أن جزءا كبيرا من نثونها كان يرجع إلى سبب غير كريم. ذلك أن نظام المزارع الكبيرة الذي أخذ ينتشر في إيطاليا وصقلية، كان يتطلب جماهير غفيرة من الأرقاء، على حين أن رودس التي ضمنت سياسية، لم يعد لها أي أثر في كسر شوكة القرصنة، وشاهدت ديلوس والقرصنة عمدا دنسة بأن تزودا إيطاليا بما تحتاج إليه من هذه السلعة البشرية وأصبحت ديلوس أعظم سوق الرقيق عرفه العالم حتى ذلك الحين، وعندما أخذ الضعف بدب في أوصال الحكومات الشرقية، أخذت النخاسة تقتنص رعاياها ونستنزف سكانها، فيقال إن نصف عدد السكان قد سحب من يشيعيا، وقل من الإغريق من كان طاهر اليدين من ناحية الرقيق والنخاسة، بيد أن انحطاط دبلوس و تدهورها حين وقعت تحت تأثير روماشى، صرح لإخفاء فيه، وذلك لأنه بينما كان أبولون في دلف الإغريقية بذل قصارى جهده لتحرير الآرقاء، كان أبولون على تلك الجزيرة المالية التي لا وطن لمن فيها، ينظر باحتقار إلى تلك الحال من عدم المساواة القائمة بصورة لم تشهدها من قبل أية أرض إغريقية: و ما هى الجزيرة التي كانت في يوم من الأيام مقدسة لا يجوز القاتل بين الناس داخل حدودها، صارت نفاخر بأنها تستطيع بناية اليسر أن تصل أكثر من عشرة الآن عبد في

اليوم. لقد كان ذهب ذلك العصر الذهبي ملوثة دون أدنى رب. وانعكس ظل بار ديلوس على أثينا، ولكن لا يبدو أن أحدة من الإغريق عدا الأثينيين كان يقوم بدور كبير في هذه التجارة الثانية، التي كان الشطر الأكبر منها بقوم به الرومان والشرقيون. و أخيرة تفانت قوة القراصنة وزادت جرأتهم بعد أن نظموا أنفسهم كدولة لها كيانها بقليقلة العربية – اضطرت حكومة الرومان إلى التدخل، وعندئذ كنت دبلوس عن الترحيب بسوط العذاب، ولكن التاريخ أوقع بها نكال عدالته، ان المدينة بعد أن نهبت (٨٨) على يد أحد قواد ميزبداتس حليف القراصنة، عادت في النهاية فدمرت في (٦٩) تدميرًا نهائيًا باعتبارها مركزا تجاريا. و كان ذلك على يد أحد قباطنة سفن القراصنة.

أما عن التجارة بعد تلك الكارثة الكبرى في (٨٨) ومذبحة التجار الرومان بأسيا (الفصل الأول)، فلم يعد لدينا إلا القليل من القول عنها هنا.وحسبك. أن بلاد الإغريق وديلوس لم تفق نط من هذه الكارثة، وحلت يوتيولى و ديلوس الصغرى و محل دبلوس مستودع للتجارة الشرقية الوافدة على إيطاليا، وسار الشرقيون في أعقاب التجارة، ومن ثم كان ينزل يونيولي مستوطنون من النبط و الفينيقيين ومن هليوبوليس (بعلبك) و الميرا (تدمر). رماد التجار الرومان إلى التقاطر على اسيا بعد التسوية التي أبرمها لا، ونحن تعرف عن هيئات ضخمة منهم نازلة بمواطن عدة، على حين أن النبط كانوا يزالون ميليتوس، ولم تتار الإسكندرية بحلالك الكارنة، بيد أن فينيقيا لا بد أنها كا بدت كثيرة من جراء تمزق الكيان السلوقي فيها وراءها، و أن متاعب آسيا بوجه عام على يد تنفر من القواد المتنازعين في الحروب الأهلية الرومانية لابد أنها عادت على التجارة بالكساد، والراجع في هذا المجال في كثير غيره، أن إعادة السلام والحكومة الكريمة واستقرار الأوضاع على بد أوغسطس جاءت متأخرة جدًا.

الفصل الثامن

الأدب والعلوم

كان من الطبيعي بعد الوثبة الكبرى للحضارة التي تولدت عن أعمال الإسكندر، أن يتزايد تزايدًا هائلا عدد أولئك النفر الذين يحاولون أن يعبروا على الملأ بطريقة ما عما يجول بخواطرهم. وكلما تقدم المصر انتشر التعليم انتشارا عظيمة، ولكنه كشأنه اليوم لم يشكل جمهورًا واحدة بل جمهورين اثنين، أحدهما خاص تعليم ذوي المواهب والآخر خاص بالتعليم في نطاق أعم وأشمل لمن أوتوا من العلم حظا يؤهلهم للقراءة بتهم وشراهة، ولسكن ليست قراءة جدية، ومن ثم أنشأ الكتاب لكل من الجمهورين ما يقرآن، أحدها أنشأه المتخصص في المادة وثانيهما سطره صاحب القلم في الأدب الشعبي. و كان تنظيم عمليتي إنتاج البردي على يد الإغريق، ثم إنتاج الرق من بعده بالإضافة إلى استخدام العبد المتعلم ما ساعد على إصدار الكتب على نطاق واسع لم يعرف له مثيل حتي آنذاك، وظهرت بالتبعيه على الفور ظاهرتان، أولاهما: رجل الأدب، الذي كان يكتب لا لأنه كان لديه شي، يقوله، بل لأن كتابه الكتب تعليقا على كتب أخرى كانت شيئًا لذيذة و ممتعة، وثانيتهما:"حب اقتناء الكتب مثل أر بالمكون من أهل تبوس (حوالى ١٠٠) يرجع إليه الفضل في استكشاف جزء من مكتبة أرسطو كان مخبا في قبو. وقد هيأت العواصم الهلينستية الكبرى للكتاب أن يتجمعوا في مراكز معينة أو يتوافروا على خدمتها، وهي مراكز كان يقطنها جمهور وفي العدد، على حين أن تحسن وسائل المواصلات وانتشار نوع مشترك من الحضارة واستعمال و لغة واحدة مشتركة و في شطر كبير من "المسكونة أي العالم المأهول"، كان معنى ذلك كله أنه حتى الرجل الآتي من مدينة أجنبية مثل بوروسثنيز أو أرتميتا، كان يضمن أن نجد جمهورًا يقرأ له، وفي الإمكان إنشاء قائمة كبيرة بأسماء كتاب من ولايات الفرات بل حتى مما وراءه شرقا، وكانت مدينة كسوسا مثلا تدور في دائرة الفلك الثقافي الإغريق تماما. وكان حكام الممالك الجديدة على الجملة يعاونون ذلك كله، بل كانوا أحيانا متحمسين له، وأصبح الحلم قوة، ثم صار حينا من الدهر بوضع بمنزلة الثروة. وربما صار الشعراء أو المؤرخون أصداء للملوك، وأصبح علماء فقه اللغة أو المهندسون المعماريون سفراء لهم، وحدث ذات مرة أن اقتباسا نجلى فيه الأقدار غير مصير احدى المعاهدات. وشرع الكتاب يقحمون شخصياتهم ويبرزوها

بدلا من إخفائها [1]، أجل لا يستطيع إنسان أن ركن إلى الحدس فيتصور شكل توسيديدس ولا شكل مؤلف نصية و أهاب وإيليا، ولكنا جميعا نعرف بوليبوس والواعظ.

وفوق كل هذا، كان الملوك يؤسسون المكتبات بعواصمهم وحواضر. بلادهم. ولعل فكرة المكتبة قد انتقلت إلى القوم عبر الحقب من بلاد آشور و بابل، ولكن العالم الإغريقي قبل الإسكندر لم يكن يظهر فيه إلا بين الفينة والفينة طاغية يبلغ من الثراء ما يمكنه من جمع الكتب، ولئن أتيح لأرسطو أن يكون أول من أسس مكتبة خاصة على أي معيار من المعايير، فقد كان السر في ذلك أن الإسكندر كان زوده بالموارد المالية. وقد ظهرت آنذاك مكتبان الدولة بكل من أنطاكية وبراعة، كما ظهرت فيما بعد برودس وأزمير وربما بمدن أخرى أيضا، ولكن كان يغطي على كل ذلك تلك المكتبة الذائعة الصيت المقامة بحي البروخيون (Brute ion بالإسكندرية، وفي المكتبة التي أسسها بطلميوسي الأول و تم تنظيمها وتنميتها في عهد بطلميوس الثاني الذي أسس المكتبة والإبتة و بالسرايوم، ولعل ذلك كان ابتغاء إيجاد نسخ أخرى من الكتب.وفضلا عن المكتبة أس بطلميوس الأول الأكاديمية بالإسكندرية وسواء أكان ديمتريوس الفاليري هو الذي أعطاه الفكرة أم لم يكن، فلقد كان إنشاؤها متمشية مع الروح التي أوجدها أرسطو. ومع أن أثينا احتفظت لنفسها بالفلسفة مُنذ ذلك الحين، فقد سطعت الإسكندرية وغلب ضياؤها على أثينا عاما، فصارت الإسكندرية مركز العالم والأدب، وصارت تجذب إليها المشتغلين بهما من كل صوب. ولسنا ندري إلا الشيء القليل عن الأكاديمية (Museum) وهي تضم شمل هيئة من العلماء، على رأسها كاهن لربات الفنون (Muses)، وكانوا يعيشون ويعملون داخل المبني على نفقة بطلميوس، وقد رفعت عنهم بفضله جميع الأعباء الدنيوية. وكان تيمون المتشكك يسميهم ر الدجاج المسن في الأقفاص. وقد ألناها بورجينيس الثاني، ولكن يظهر أنه أعيد تشكيلها فيما بعد. وركلت شئون المكتبة إلى أمين من الموظفين، كان إلى جانب ذلك مؤدبا لولي العهد. و كانت السفن من كل بلد نزل لفائف الكتب على الأرصفة، ولم يتم فرزها وتنظيمها إلا بعد أن تقدم العهد طويلا بحكم بطلميوس الثاني، وقد اجتمع فيها من لفائف الكتب عند القرن الأول ما لعله يبلغ سبعمائة ألف لفة، وإن كان ذلك الرقم غير مؤكد. ولم يكن ما أحرقه قصر هو المكتبة بل كان إما كومة من الكتب على رصيف الميناء ولما كتبا كدست هناك لتحمل من البلاد، ولكن ماركوس أنطونيوس ما لبث أن عوض كليوباطرة عنها بمكتبة برجامة التي نبلغ عدها

---

[1] في هذا إشارة إلى دبل قدماء المؤلفين الإخفاء شخصياتهم ونسبة مؤلفاتهم إلى كتاب لامعين أقدم منهم. (المترجم).

مـائتي ألـف لفـة، وإن كنـا لا نـدرى هـل تنقلـت هـذه الكتـب فعـلا أم لم تنقـل. وقـد مزقـت مكتبـة الإسكندرية ودمرت تدميراً جزئية في ٢٧٢ م، عندما أحرق أورليان حي "البردوخيون"

وأمناء المكتبة الذين شغلوا المنصب إبان عمرها الذهبي هم زينودوتس من إفيسوس. وأبولونيوس الرودمى وارانوستنيز (الفصل التاسع) وأرستوانيز البيزنطي، ثم أبونو نبوس آخر نم شخص اسمه أرستار خوى من ساموراقيا. ومن المحتمل وإن يكن أبعد ما يكون من المحقق، أن كاليماخوس تولى أمانة المكتبة بين زيتودونس وأبولونيوس: وكان أربعة على الأقل مى هؤلاء الرجال من علماء فقه اللغة، و قدر لفقه اللغة الـذي أسـه مـن قبـل راكسيفا نيس من مينيليني تلميذ تبو فراستوس أن نجد بالإسكندرية مجالا فسيحا وأن يصبح أساسا لتحصيلها العلمي. وابتدع زينـودوتس فقـد النصـوص بمقارنـة المخطوطات بعضـها بعـض، كما أن المدرسـة الإسكندرانية أسست و أقرن نصـوص الأدب الكلاسيكي الإغريقي وأسلمتها وديعة للخلف وأدخلت نبرة النطق على مقاطعها. وثبت زينودوتس نصا معترفا به لأشعار هوميروس، ماحية منها كثيرا من الشعر المدسوس. وتوافر أرستو فانيس. وأرستار خوس على دراسة هـذا الـنص، كما أن نسـختنا المعتمـدة الحاليـة هي في الغالـب نسـخة أرسـتار خـوس. وعـوج كثير مـن أعمال الكتاب الآخرين بمثل هذه الطريقة. وبدأ زينودونس أيضا عملية تنظيم الكتب، فتناول شعراء الملاحـم والشـعر الغنـائي، وتنـاول مسـاعداه الشـاعران ليكـوفرون والإسـكندر الأيتـولى التمثيليـات، واختص الأول منهمـا بالكوميـديان والثاني بالتراجيـديات، ونظـم كاتيـا خـوس المؤلفـات النثريـة، وأنشـأ قاعـة المكتبة ونشرها، وهي عمـل مائل باعث للذهول يسـمي البيناكا (**Pinakes**) كان بمثابة مشـد للمؤلفين يحتوي على التراجم وغيرها من المعلومات، وكتب أرستو فانز ملحقة القائمة على حين أن عملا آخر ماثلا أتي بعد ذلك لمكتبة برجامة، ولعل مصنعه مى كراتوس من ملوس. لقد جعل هؤلاء الرجال من فقه اللغة علما ظل الكثيرون يعملون فيه حتى أيام الرومان، وأخرجوا التعليقات والعقد، و أدبا كـاملا يتألف من الكلمـات النـادرة، فكـان هـذا أسـاس وضـع المعـاجم كقائمـة الكلمـات المقدونيـة الـتي جمعهـا المقـدوني أمـيرباس. وقـد أمكـن رد جـزء مـن تعليـق ديـديموس الاسـكندري (قرابـة.) علـى ديموستنز إلى حالة الأصلي. وهـو والحق يقـال عمـل ضـخم بـدور حـول ديموسـتنير ملـى، بالاقتباسـات المنقولة عن المؤرخين وزودنا عادة تاريخية نافعة. و كتب ديديموس عن معظم المؤلفين، ويقال إنه أنتج كتبا أخرى (٣٥٠٠ لفة) نزيد على ما أنتجه أي رجل قبله أو بعده، وقد اكتسب بحق كنية الرجل الجسور أو صاحب الأمعاء النحاسية (**Chalcenteree**).

ولو أدخلنا في حسباننا العلوم والفلسفة لوجدنا عدد المعروفين من الكتاب الهللينستيين يزيد على ١١٠٠، ولكن معظمهم ليسوا إلا أمعاء لا أكثر ولا أقل، وذلك أن الكتلة الكبرى من الأدب الهيللينستى قد بادت تماما. وكل ما تملكه منه إن هو إلا حطام، وإن كان ما تخبئه لنا مصر بين طيات رمالها يزيد في مقدار ذلك الأدب يوما بعد يوم. ولكن الواقع أن هذا العدد القليل من أسماء الكتاب الهللينستيين هو الذي بلغ القسطنطينية – فكيف حدث هذا ؟ إن التعليل المتواتر هذا الأمر والقائل بأن رد الفعل الأيك في القرن الثاني للميلاد جعل الناس ينظرون نظرة الاحتقار إلى الإنتاج الهللينستي، – ليدو تعلية غير كاف، وذلك لأن أقبح أنواع الأساليب الهللينستيه وهو الآسيوي كان لا يزال حيا بعد ذلك بقرنين من الزمان. ولا مراء أن المختصرات التاريخية الملخصة نقلا عن ثلاثة مصادر متوالية أدت في النهاية إلى القضاء على المؤرخين نوى الأصالة. والروح الهلينستية نفسها في المسئولة عما ساد من مغالطة خاصة بأقصر الطرق إلى المعرفة. ثم إن كثيرا من الكتاب اندروا أيضا لأن مؤلفاتهم لم تكن تقرأ بالدارى، فان إحدى المدارس كانت تستخدم في ٣ – ٢ ق م. كتاب ألفه ودوكسوس في الفلك البائد العدو الطراز. ولكن الواقع على وجه الجملة أن أسباب تلك المكانة الكبيرة والدور الذي لعبته روما في ذلك لا زال غامضة.

وربما جازلنا أن نبدأ بالشعراء. فلقد أوشك أن يكون مصير الشعر في عهد الإسكندر القضاء المبرم بسببه معظم وزن الأساتذة الكبار وطول باعهم فيه بصورة أيا ست اللاحق من تقليد السابق. فإن أحدا لا يستطيع اللحاق بهم، كما أن معاناة الشعر أمر لا يكاد يستحق أن يحاوله الناس، والاسم الوحيد الذي أونى شهرة مُنذ عصر بوريبيدس هو أنتباخوس من كولوفون، و ديوانه المسمى الليد (Lyde) هو مجموعة من القصائد القصيرة حول موضوعات الحب، وجهها إلى خليلته، وقد قلدها أمكليبيادس من ساموس (حوالي ٣٠٠، وهي غنائيات أكثر منها مانى)، وأسكليبيادس هو الذي ابتدع نوع الشعر المسمي "بالأسكليبيادى"، كما قلدها هرميسياناكس من كولونون (حوالي ٢٩٠)، وهو الذي ذكر أسماء أفراد منوعين من ذوى الأهمية – وقعوا في شرك الغرام في زمانهم – وهي مادة ضعيفة جدا، كما حاكاها فيليتاس من كوس (حوالى ٣٠٠). وقد أظهر أبناء عصر أوغسطس تقديرهم لمراثي فيليتاس لزوجته بيتيس. على أن مؤدب بطلميوس الثاني ومؤلف المعجم اليوناني الأول كان يعيش فعلا في دائرة العلماء التي كونها ومنهم زينودرنس وهيروداس و إما خوس و ثيوقريطس. وهذا النوع من شعر الغزل أثر من حيث الشكل في بروبرتيوس. ولكن مستقبل الشعر في بلاد اليونان

انحصر في شعر الحكمة وهو النوع الذي كان فيه أسكليبيادس أستاذ مبرزًا.

واستمر إنتاج المآسي التراجيديات) في مقادير يعتد بها، وذلك لأنه قادر منها كانت لازمة للاحتفالات، الجديد منها والقديم، وقد أرتني سبعة كتب من القرن الثالث الشهرة المؤقتة ما خول لهم أن يسموا باسم: عناقيد الثريا (**Pleiad**)، ولكن الشخص الوحيد الجدير بالذكر هو لو كو فررن الصديق الشاب لمينيديمس، الذي عاد إلى أسلوب فرينيكوس و كتب في موضوعات عصرية: ومن ذلك مسرحية له تمثل آلام بلدة كساندريا تحت حكم ديكتاتوريتها البروليتارية ومسرحية باخرة عن أستاذه مينيديمس، حيث لا شك أنه نحا نحو أفلاطون الكوميدي في استخدامه لأشكال سيلينوس القبيحة المحفورة[١]، فحاول جعل المحارة العجيبة الشكل تكشف عن القدرة الإلهية الموجودة. وقد بقي لنا من هذه المسرحية وصف أخاذ لوجبات العشاء الشهيرة التي كان يقيمها مبنيديمس وهي ولائم كانت تقام لإعصار بنات القراع أكثر منها لاحتساء بنات الان و كذلك الملهاة (الكوميديا) فإنها ظلت تزدهر طوال ذلك القرن، وإن أذنت وفاة فيليمون في (٢٦٢) بنهاية خير عصورها. و كان شكلها – وهو المسمى وبالكوميديا الجديدة، أو كوميديا السلوك الخالية من جوفة المرددين (الكورس)، وهي من حيث الأصل تنتمي إلى أرستوان، أشد أنواع الأساليب الغنية شيوعا وأكزها استخداما بأثينا في ذلك الوقت. (ونحن نعرف من كتابها حوالي سبعين كاتبا)، ولكنها كانت أثينية روحا ودما بصورة استحال معها كل بذل من محاولة لنقلها إلى الإسكندرية أو لأي مكان آخر. ومن عجب أن وفاة فيليمون وقمت بالصدفة على نحو درامي في موعد تهادن و فوعه وانتهاء أهمية أثينا سياسية. والاسم العظيم الذي اشتهر بالكوميديا الجديدة هو ميناندر (المتوفى ٢٩٢ – ٢٩١)، وقد استخرج من بين دفائن مصر الآن القدر الكافي الذي يمكننا من أن ندرسه دراسة مباشرة، وليس عن طريق ما سطره عنه تيرنس فقط. وأهميته لعصره أمي لاشك فيه، هذا إلى أن الاقتباس منه سهل سهولة هائلة، وهو ما يسر له سبيل الخلود، وقد أصبحت ثلاثة من أبياته أمثالا إنجليزية [٢]. و كان خفيف الروح رشيق الأسلوب أقرب إلى نفوس خليلات الرجال منه إلى نفوس زوجاتهم، ولذا طبع على التاريخ

---

(١) سلينوس (**Silenus**): إله يوناني. وهو مربى باخوس وتصوره الأساطير والسانير بصورة بشعة وأحلاف داعرة. (المترجم)

(٢) وها هي ترجمة هذه الأمثال:

١. إنما يسجل بأحب إلى الآلهة.

٢. قرناء السوء مفسدة لكريم الأخلاق.

٣. الضمير مجبنة لأشجع الشجعان (المترجم)

الأدبي طابعا دام حتى عهد شكسبير و موليير، وليس من ذنبه أن عمد الناس إلى ما نقله عن الحياة (بصورة ما) خلوه تقليد جامدة أمد قرون عدة. واعتاد الناس أن يمدحوه دون قيد ولا حد، ولا شك أنه كان يعمد إلى حسن الإخراج، في حين أنه بين الفينة والفينة يبرز شيئا أجود بين تضاعيف تسامحه الحين اللين، فيستطيع فلا أداء هذه الشخصيات – مثل شخصية دانوس في رواية البطل (**Hero**) وجلو كيرا في رواية "بريكرومينى" **Periktiroment** أي الخليقات. ولكنه يلوح هو ومقلدوه في عين كاتب هذه السطور كاما هو أشد الصحراوات جديا في دنيا الأدب. فليست الحياة مكونة من أوله لآخرها من غواية للنساء ومن أطفال منبوذين وغير مرغوبين، ولا من مصادقات تسنح ولا من الكتان للبنات المفقودات من زمن بعيد ولا من أباء مغيظين وعبيد وقحاء. أجل لا شك أنه التقى في حياته بهذه الأمور، ولكن على الرغم من أن شخصياته طرز شائعة بين الناس، إلا أن الحياة ليست قياسية وعلى وتيرة واحدة. ومع ذلك فان العالم اختار أن تكون الحياة طرازى و قياسية. وعلى أساس المادة التي نسقيها من "الكوميديا الجديدة" يسود الاعتقاد التقليدي بتدهور أثينا، وربما أن أوان قلب هذا الحكم إلى ضده، ولكن في وسع كل من شاء أن يستنتج من المسرح اللندني في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين صورة لتدهور انجلترا مثيرة أكثر كثيرة من تلك. فإذا كان ينبغي لنا أن نعيد النظر في الحالة الأخيرة فنقدرها حق قدرها، فلماذا إذن نقبل الحالة الأولى على علاتها؟

وفيما عدا الكوميديا، كانت نهضة الشعر مركزة إلى حد كبير على الإسكندرية. ذلك أن هدف الناس في كل مكان من قول الشعر كان المحافظة على الشعر حية وليس تحدى الأساتذة العظام، وتحقيقًا علاج الغاية كانوا يريدون أن ينتفعوا بالاهتمامات المتعددة النواحي التي وجدت في حياة ذلك العصر الموسعة الجنبات، وأن يخلقوا وسيلة للاتصال بين الشعر وبين ما يقوله الناس وما يفكرون فيه. واتخذ ذلك الأمر أشكالا جمة، الرئيسية منها هي شعر التعليم والتثقيف: فمنها أنشودة الرعاة وقصيد الحكمة (وكل منهما كمان يحتوي على شعر الرثاء) إلى الملحمة الرومانسية. ومن عجب أن الشعر التعليمي المرتبط بالعلوم كان هو الشكل الشعري الوحيد الذي لم يستوطن الإسكندرية، موطن المعلم. وأشهر اسم فيه هو أرانتوميمن سولو كان صديقا لأنتيجونس جوناتاس، وكان يقضي أو انه متنقلا بين أثينا وبلا"، وهو الذي كتب أناشيد زواج جوناتاس (سنة٢٧٩). وقصيدته "الظواهر" (**Phaenomena**) وهي من البحر السداسي (**Herameter**) فنظم بالشعر مباحث پودر كسوس القديمة المسماة قائمة النجوم و كانت من أشد القصيد رواجا لدى الغراء واستئثارًا بتقديرهم، وهي

التي لها الفضل في الهام فرجيل الفكرة أرجوزته الزراعية (Goreiea)، كما أن تأثيرها ظل قائما حتى العصور الوسطى، غير أن ما لفيه هذا العمل الفلكي الجاف من إقبال شعبي ومحبة، يعتبر لغزة بحي اللب حقا. ويرى أحد النقاء أنه راق الجمهور الذي كان يرغب في وضع المعرفة المنقولة إليه في صورة سهلة، ويرى آخر أن الناس رحبوا بما في القصيدة من استقامة وبساطة نظرة لشعورهم بالارتياح لتخلصهم هنا من اغترارات الشعراء وتيههم في الخيال. وربما كان التعليلان صادقين كليهما، على أن أفضل أن أعلل أسباب نجاحها بصورة رئيسية بما عمدت إليه من تصوير الذهب الرواقيين الخاص بالعناية الإلهية التجلية، في تقع النجوم للملاح والفلاح – وهي نغمة رنت على الفور في الافتتاحية النبيلة الشبيهة "بالنشيد العظيم" الذي دبجه كليانتز (Cleanthes)، وكان اقتباس القديس بولس لها بمثابة محبب الرواقيين. وضرب أراتوس الناس طرازا جديدا. ان معاصره نيكاندر من كولر فون نظم بالشعر رسالة علمية في السموم والتريان نقلت إلى اللاتينية كما نظم أيضا مؤلفات في الزراعة وتربية النحل، قرأها فرجيل، على حين استخدم أو فيد مجموعته التي نظمها في التغير والانسلاخ(Metamorphoses) وهناك أشعار منوعة مطردا آخرون في الفلك والجغرافيا وصيد الأسماك و كلها مدونة. ولعلها كانت ضعيفة النصيب من الشعر والشاعرية، وهناك قصيدة تاريخية باقية إلى اليوم هي قصيدة "الكسندرا"، التي تنسب إلى ليكوفرون ولكنها متأخرة دون ريب عن موقع كينوسكيفالاي (سنة ١٩٧ ق.م.)، وهي لا تنتسب إلى أي طبقة من طبقات الشعر، وقد بقيت إلى اليوم لأن الغموض الطلق في تعبيرها راق علماء فقه اللغة، ولكنها أبرزت إلينا في أضيق الحدود موضوعا ضخما هو الكفاح بين أوربا وآسيا من عهد طروادة إلى أن فرضت روما سلطانها في البر والبحر.

وكان الأسلوب الشعري الذي تمتاز به الإسكندرية هو أنشودة الرعاة، وفي صورة صغيرة كاملة في حد ذاتها، وربما اتخذت أشكالا كثيرة، وكان المقصود منها أحيانا هو الإلقاء والتلاوة. وكان أستاذه أنشودة الرعاة المبرز في عين معاصريه والشاعر الاسكندري الطرازي إلى أقصى حد قو كاليماخوس البرقاوى (حوالي ٣١٠ – ٢٤٥)، وهو أحد رجال البلاط وعلماء فقه اللغة. وكان من تلاميذ فيليتاس، وهو الذي جعل شعر المران الأداة الشائعة الطراز على الصورة التي قدر لها أن تظل عليها. ولدينا الآن بعض أناشيد، وأجزاء من قصيدته المسماة " ضفائر برنيقة " (Cma Berenices) كما تعرفها ترجمة كتالوس لها ما لدينا أجزاء من الملحمة الصغيرة و هيكالى و (Hecale)، ومن قعميدة

حول موت أرسينوي، وفقرات من أهم أعماله جميعا، وهي قصيدة و الأسباب **Ailia**» وأعني بذلك أسباب مختلف أنواع العادات والعبادات. ولولا ما خلف لنا من مقطوعات شعر الحكمة لأوشكا أن نقول إنه لم يكن شاعر بل عالما تصدى لصياغة الشعر. ذلك أنه كان يستخدم كل ما في مستطاعه من وسائل العناية والصقل، وإن المرء يدين له بالشكر على حسن صنيعه حيث تجنب النواحي العاطفية والبيانية، بل لقد كان وايم الحق شديد التدقيق في تجنبها، وقد ماء ناقد متأخر باسم و المبرأ من الخطأ؛ ولعل ذلك هو تهمته الكافية. ذلك أنه لم يكن ليستطيع أن يطلق لنفسه الجنان، وهو في كل ما أدخله بغاية التدقيق والأمانة من تغييرات وتنويعات على أساطير ورطازات (ميثولوجيا) ميتة – أجل ميتة حتى في أيامه نفسها بالنسبة للمتعلمين ما لم يكد يسطر بيتا واحدة فيه لمسة إنسانية، كما لم يكتب على التحقيق بيت واحداً دفع نبض أي إنسان إلى الحركة. فهو صورة بلا حياة.

على أنه قد ضرب للناس معيارا يحتذي وأثر في كثيرين، كما أنه من حيث. الشكل أثر في كاتالوس، بيد أنه من حيث الروح لم تكن فيه أدنى شرارة من النار التي تنفجر في قصيدة انالوس مأكره وأحبه (**adi et Amo**). ولكن من أعجب العجب أن معاصره الأصغر مونوريون (**Euphorion**) كان به فنا بعد أثر أكبر من أثره، وإن كان ما جمع من شعره يبدو كأنما هو ضرب من التقليد الضعيف لكاليماخوس. وكان يوفوريون يعيش ببلاط الإسكندر الكورنثي (حوالى ٢٥٠)، ثم صار فيها بعد أمينة لمكتبة أنطاكية، وكان له أثر ملحوظ في عصر أوغسطس كما أنه أثر في فرجيل في وقت من الأوقات.

ومع ذلك فإن أشعار الحكمة عند كاليماخوس من مستوى مخالف؛ فانه هنا يستطيع أن يؤثر فينا أحياناً. الأبيات الجميلة التي دمجها عند وفاة صديقه – هرقليتس معروفة للكثيرين عن طريق ما نقله كارى وجونسون في كتابهما:.و أبوتيكا (**loniea**)، الأمونيات، ولا يقل عن هذا جودة وإن اختلفت النوبة – قصة الرجل الذي منعه من الزواج من زوجة أدنى منه مرتبة، سماعه الأطفال وهم يلعبون بالخذاريف ويتنادون قائلين و الزم خطك و، أما الحديث الصغير الذي قاهت به محارة الرطل فلا يفوقه شيء في رشاقته وطلاونه. ولكن لعمري لقد كان ريم على العصر ظاهرة في شدة تسلط شعر الحكمة عليهم ومكنتهم فيه، وأن الكتاب كانوا فيه لا يخجلون من إظهار نا نكنه مشاعرهم. وقد ظل شعر الحكمة هذا مندهرًا من عهد ليونيداس رأسكليبياد. في الفترة الباكرة حتي زمن المجموعة السورية: – أنتيباتر الصيداري و ملياجر وفيلود يحسن من جادارا وهم الذين عاشوا في فترة الاضمحلال

السياسي في القرن الأول: حقا إن هذا الأسلوب من مقطوعات: شعر الحكمة ماش طويلا بعد أن بادت جميع أشكال الشهر الأخرى ولم نقرض إلا بضياع اللغة اليونانية، وأشعار الحب التي أنشدها ملياجر تستعيد برشاقتها وحنانها ذكرى الأزهار التي لشد ما أحبها الشاعر، وقد صنف لأحد أصدقائه مجموعة كان المظنون أنها أول ديوان شعري من المختارات أو أول "باقة أزهار" حتى استكشفت في مقر أمثلة أقدم منها. وكل ما قدمه فيلوديمس أنه صير الناحية الحسية المترفة في حياة إحدى المدن السورية وقد يأخذنا العجب عند ما نكتشف أنه هو العنف الفلسفي المجد لبرديات هركيولانيوم.

وكان كاليماخوس هو الحكم وصاحب القول الفصل في زمانه. ولكن هناك شخصا آخر استخدم "نشيد الرعاة" بطريقة أخرى: ذلك هو نيوقريطس السيراقوزى (المولود حوالي ٣١٥ – ٣١٢). ولعله حصل على تلميحات وجهته تلك الوجهة من شعراء صقليين أقدم منه؛ وهو مدين بعض الشيء إلى أغاني الفلاحين بحوض البحر المتوسط، بيد أن أناشيد الرعاة التي ذاع صيتها في الأدب، إنما هي لله وحده دون سواه –– وهي له تماما بحيث أصبح المصدر الذي يستمد منه المعنى العصري للفظة و نشيد الرعاة، واستعمالاتها... والظاهر أنه قضى فترة صباه بصقلية وأمضى شبابه مع فيليتاس بمدينة كوس (و ليس صديقه أرانوس من أهل كوس وهو المعروف لنا الآن من النقوش، هو أرانوس الشاعر)، وكان يقيم بالإسكندرية حوالي ٢٧٦ – ٢٧٠.. ولسنا ندري كم أقام بها، وإنا لنرجو أن يكون قد حن إلى الوطن وإلى أشجار صقلية وأزهارها، وأن يكون هو وليس ميتالكاس بطله الذي نادي براند إننا **Ena** يا أماه!... حين زاره. ومير للثروة والسلطان أدنى قيمة إزاء استطاعته الجلوس مع حينه في ظل إحدى الصخور ومشاهدة بحر الوطن الأزرق. والحقنه مارس تجارب كثيرة على أشكال مختلفة من «نشيد الرعاة»؛ وعلى يديه يا حتي القصيدة رسمية قيلت في مدح بطلميوس، أو لحديث النساء السوفيات وثرثرهن في مهرجان الإسكندرية، أن تصبح شعرة حقيقية. ولكن قصائد المراعي هي التي جعلت الناس يعتزون به ويقدرونه حق قدره، إنها القصائد الغنائية المتشابهة لراعي. الضأن وراعي الماعز، والفتاة المنبوذة التي تحاول أن تسترد حبيبها وتستميله إليها، والصيادان الشيخان في كوخها. المصنوع من البوص والغاب، وعيد الحصاد في كوس ترافقه أغنية لو كيداس الجميلة – من أجل هذا كله ومن أجل حبه للحيوان والنبات والزهيزات التي تسقسق ساعة في ضياء الشمس؛ والكلب الخام بطراد الأدب وصيده والثعلب الصغير الذي يحوم ويداور حول غداء الصبي: إن رجاله

و فتيانه صور حية من الفلاحين والفلاحات. لقد بلغ أغاني الرعويات (**Pastorals**) منزلة الكمال، ولم يترك شيئًا لمن عداه، وكان من جاء بعده أدنى منه بكثير، كما أن قصائد فرجيل في أناشيد الرعاة (**Eelogues**) المختارة نبدو نسخا مصطنعة ا د، وهي نزعة من الاصطناع ظلت تنمو حتى بلغت ذروتها في. صور الرسام واطوه (١٦٨٤ – ١٧٢١) (**Watteau**)[1]، التي صور فيها الراعيات على وجوههن المساحيق وقد وسعن ثيابهن بالأطواق. وهو وحده دون السكندريين قد أصبح من عميد الأدب الكلاسيكي، لأنه وحده دون غيرة من الإسكندريين استطاع أن ينبذ كل ما كانت الإسكندرية تناصره وننهض له وعاد ثانية إلى الطبيعة. وهو ليس شاعرًا عظيمة من شعراء الطبيعة، وذلك لأنه لم يستطع أن يستشف ما وراءها، فان «النحل الأصفر في زهرة اللبلاب" لم يكن لديه إلا حلا فقط يئز أزيزًا يبعث البهجة في النفوس. أما عظمة الطبيعة فهو لا يبدي نحوها أية مشاعر أكثر مما أبداه غيره من اليونان؛ ومن أجل ذلك ينبغي أن تتجه في الفترة الهللينستية إلى ذلك اليهودي غير المعروف الذي ديج "أغنية الأطفال الثلاثة"، وعرف أن الله يسبح بحمده الريح والإعصار والفيضان والثليج. ولكن حلاوة الأشياء الطبيعية وجمالها. البحت كان لها عند ثيوقريطس وجدان لم يؤته أي إغريقي آخر، ولن يموت ما غرد غدير أو نهير في الوادي كما غرد هو.

وتواصلت كتابة الملاحم، وكانت إحداها على الأقل مثيرة وهي قصة ريانوس (**Rhianus**) (قرابة ٢٥٠)، ونصف الحرب المسينية وبطولة أرستومينيس، وهي قصة لا تزال بفضل استخدام پرسينياس لها تجد مكانها في كتب التاريخ التي تقدم لشبابنا، ولو لم توجد لكانت خسارتنا بها كبيرة وإن لم تزد عن قطعة من الأساطير، والحق إن الملحمة كان لها مستقبل لا يأس به كوسيلة للتعبير عن شعور الوطنية المحلية، وذلك أنها كانت المدينة قد ضاع سلطانها إزاء الملكية، فان الفخار بماضيها وأساطيرها كان ينمو ويتزايد، ومن ثم نظم الشيء الكثير من الشعر الذي كان في الغالب يسمى شعر ملاحم المجيد المدن والشعوب، فكل شاعر وفد إلى إحدى المدن والي قصيدته في تاريخها كان يكرم ويحتفل به بسخاء وكرم. ولكن كانت هناك ملحمة من طراز مختلف هيه الأرجوونتيكا، لأبولونيوس الإسكندري وهو اللقب بالرودس ولا يزال سبب الخلاف الذي شجر بين أبولونيوس والماخوس وتفاصيله، سرًا خافية إلى اليوم. ولكن من المحقق أن «الأرجوتونيكا و تعبر عن ثورة على الماخوس، الذي قال في شأنها إن الكتاب الضخم مبعث كبير للإزعاج.

---

[1] أطوان واطوة هو رسام وحفار فرنسى. (المترجم).

وهو يحاور وتجادل مهاجما مؤلفها.. ولكن ربما جاز لنا أن تشك في أن هذا هو السبب الحقيق في مغادرة ابولو تيوب للإمبراطورية المصرية. بيد أن كاليماخوس وإراتوسننيز.. خليفة أبولونيوس، كانا من برقة، كما أن بطلميوس الثالث تزوج أميرة من برقة، فهل كان سبب تلك الخصومة سياسية ومظهرة لخصومة برقة للإسكندرية ؟ ومهما يكن الأمر ان ملحمة أبولونيوس تفض علما فريدا. وهي على الجملة تمثل إخفاق رجل من العلماء. فلقد استطاع أن يرسم صورة، ولكنه لم يستطع أن يروي قصة، فإن للقادر الهاوية فيها صريرًا قبيحًا، كما أن اللغة عقيمة. بيد أن جزء) منها هو «قصة غرام ميديا و الواردة بالكتاب الثالث، يمتاز بالإجادة بدرجة فائقة، وللمرة الأولى والأخيرة بلاد الإغريق جرا إنسان أن ترسل صورة بنت وقمت حقا في شرك الغرام، وكانت تلك الفتاة بنت معينة من كولخيس[١] وليست طراز أمن الطرز التي يصطنعها الشعراء. ولم يظهر لأبولونيوس خليفة حتى جاء فرجيل فاتخذ منه نموذجا له محتذ به. ولكن شخصية ميديا بالكتاب الثالث أجود تأليفا بكثير من شخصية ديدو، ومها بكن ما اقترفته الإسكندرية في حقه فانه حصل على انتقامه، فينا لن يقرأ أحد مدى الدهر الماخوس عدا الراسخين في العلم، فإن ابولونيوس (ران انقطعت حلقات السلسلة) هو البشير الآذن بظهور أدب شبه عصري.

بيد أن تشيد الرعاة وأسلوب الملحمة كانا يصفان للمتعلمين خاصة به أبا أنصاف المتعلمين فكانوا أيضا بحاجة إلى التسلية. وكان المنهل الذي رواهم هو الميماء (**Mine**)[٢] بنوعيها المنطوق والغنائي، وكان المصدر الأصلي للأولى يرجع في النهاية إلى صقلية، كما أن مصدر الثانية هو والأغاني الأيونية الخليعة بآسيا الصغرى؛ ومُنذ القرن الثالث كانت الفرق المتجولة من الممثلين المحترفين لهذا اللون (الماء) قد أصبحت قوية راسخة القدم. وكانت الماء المنطوقة إحدى (الاسكتشات) التي تصور عادية من حوادث الحياة اليومية، سواء أكانت أدبية أم غير ذلك، ومن أمثلتها مياه. ثيوقريطس المسماة و نساء سيراتوزة. ولدينا الآن من مصر. مجموعة مختارة بأكملها لمياءات هيروداس الأدبية (حوالي عام ٢٤٠)، (وهو فيا يظهر عضو آخر من أعضاء حلقة. فيليتاس وهي مكتوبة في مقطعات من البحر الفميني الأعرج المسمي بالأسكازوني (**Scazona**)[٣]، والكثير منها يدور حول

---

(١) كوليس (Colehis) إقليم شرق البحر الأسود. (المترجم)

(٢) الميماء: رواية هزلية ساخرة. (المترجم)

(٣) الإسكازوني: مشتقة من كلمة يونانية بمعنى يعرج وهي في العروض البحر الخوليابي أي النسبي (Iambie) الأعرج. (المترجم)

موضوعات منفرة وهي صورة تتجلى فيها المهارة ولكنها تمثل أشياء لا تستحق التصوير، على أنها ذات قيمة في توضيح الطريقة التي كان يتكلم بها عامة الناس، وارتبط فيها يظهر بهذا الشكل الأدبي لون يعرف بعلم الرفث أو المجون (Cinaedology) وهو ينطوي على مصنفات تعتمد في أساسها على الخروج عن آداب اللياقة؛ فإن قصيدة سوتاديس (Solaee) التي قالها لمناسبة زواج بطلميوس الثاني. والتي أغرقه من أجلها بانرو كلوسأميز البحر بأسطول بطلميوس، تحتوي مادة غير قابلة للنشر. وكانت الماء الغنائية تنقسم إلى صنفين: الميلارودى والماجودى محاكاة منها على المراقب لكل من المأساة (التراجيديا) و اللهاة (الكوميديا)؛ ولكن لو صدق أن «نحيب العذراء، وهي التوسل الحار من فتاة تقف على باب محب غادر –كانت مياء حقا، فإنها لم تكن أحد هذين النوعين السالفين، بل قطعة أعدت لتلقى من على المسرح.

وقد تهيأ للعلماء إحياء مثال النوع الهيلارودى (Hitarod)،: وهو هيكل لا بد للمثلين من ملئه بالحشو المدسوس) كما أنه محاكاة تهكمية و لمسرحية وإنجينيا في في تاوريس، وفي تلك المحاكاة يتحدث الملك المتبرر ببعض الرطان الهندي ولا زال الأخ والأخت به يسقيانه الخمر حتى يشمل فينجوان بتفسيها وقد استخدمت المحاكاة التهكية بطبيعة الحال في أدب أحسن من الميماء؛ فإن تيمون التشكك كتب قصيدة مسلية فيها تعريض وسخرية تسمى سلوى (Siloi) عن الفلاسفة الآخرين، الأحياء منهم والأموات، ولى شى. برق طبعة إلا الدين الصفوة الممتازة، وأن كراتيس الكلى أنتج محاكاة تهكمية جيدة حقا لشعر هوميروس في قصيدة عنوانها و مخلاة الشحاذ» مجد فيها ذلك الرمز للفقر الكلي بوصفه الملاذ الوحيد للرجل النزيه الأمين الناهض الجزيرة من بين غمرات المياه أيد كناء النبيذ، في بحر كله ختل ومخادعة بيد أن قصيدة كرانيس وإن كانت في شكلها محاكاة تهكمية، إلا أنها كانت من الجلد بدرجة كافية، و لعلها أدت إلى أن الفلسفة أحيت طريقة عفى عليها الدهر من زمن بعيد، وهي طريقة استخدام الشعر الجدي وسيلة لها. وخير مثال على ذلك هو تلك القصيدة الممتازة المسماه نشيد إلى زيوس، التي أنشأها كليا نثيس (Cleanthes)، والتي هي الذروة التي بلغها الشعر الديني عند اليونان، وهي تختلف تماما عن الأناشيد المتبعة السنن السلف والتسابيح المكتوبة حسب الطلب والتي نعرف الآن منها عددا لا بأس به. ولكن يكاد يدانيها في امتيازها من حيث موضوعها، تلك القصيدة التي كتبها كير كيداس من ميجالو بوليس، وهو سياسي ذو ميول كلبية وذلك أن كل من يرتح إلى النظام القائم إذ ذاك كان يسمي كلبيا. وقد انبرى بنصح فيها لأصدقائه أن يقابلوا

التهديد بإشعال نار الثورة الاجتماعية، بحالة المرضى واليذل عن سعة للفقراء، وهي قصيدة. تبرز فريدة بين الشائع من شعر ذلك الزمان الدائر حول المغازي الخلفية – مثل قصيدة الفينيكس (**Phoenix**) لكولوفون حوالى ٢٨٦ – وهي سطحية لأعمق فيها. ونذكر أخيرة أن لدينا أغنية شعبية (سياسية)، كانت تغني بشوارع أثينا فى عام ٢٩٠؛ وهي أخاذة تستهوى النفس. كان تأثير الشعر الإسكندرية على الروماني عظا. وهو أمر شهدت بعض الملاحظات المعروفة ولا تزال ملاحظات أخرى تتكشف باستمرار لم تكن تعرفها، وهناك اكتشاف حديث وجدناه في مقالة حفظها أنا عمل فيلود مس المسمى وقصائد عن الشعر: وهو اكتشاف رفع اللثام لنا عن الأصل الهللينستى للمذاهب التي يحتويها كتاب هوراس المسمى د فن الشعر)، (**Are Poetica**). وكثير من تفاصيله. بيد أن الهلينستية لم تقدم للرومان إلا الشكل الأدبي. والموضوعات التي تعالج. فهي لم تعطهم المادة الحيوية للشعر نفسه، وهذا هو: الفرق الجوهري بين الشاعر وبين رجل الأدب المدقق: ومن أجل ذلك يمكن القول بأن الشعراء العظماء وهم لوكريتيوس وكاتولتوس وفرجيل، – أكانو ينظرون في مرآة نفوسهم.

وقبل الانتقال إلى النثر الحق، ينبغي أن نلقي نظرة إلى الكلمة المنطوقة. ذلك أن اللجان الفضائية قضت على الخطابة في ساحة الفضاء –– وليس ذلك بالخسارة العظيمة يد أن الخطابة السياسية ازدهرت لمدة قرن بعد الإسكندر. إن الواقع أن دينار خوس ودعوخارس ابن شقيقة دحوسئنيز لم يكونا إلا بقايا العصر نموسنتز، وإن كان دمتريوس الفاليري (٣١٧ – ٣٠٧) قد. انتهج لنفسه نهجا خاصا، على أن أرانوس من سيكيون (٢٧١ – ٢١٣). كان خطيبا عظما حقا، وذلك لأنه ظل حياته الطويلة يؤثر على الدوام في الجمعية الأخية ويسوس أمورها المؤثر دموسثير قط في الجمعية الأثينية. و نظرا لأنه بين خطاب واحد من خطبه، فإن أحدا لا يعرف طريقته في الخطابة ومبلغ قدرته على التأثير. بيد أن بلور تاخوس (بلوتارك) يقول إنه كان يحتقر الأساليب الفنية التي يتطلبها علم البيان ولعله كان يرتجل الكلام ارتجالا ويتحدث بما يدور بخلده بالضبط. وربما كان وقع ذلك مروعة على الرجال الذين ألفوا وسائل الصنعة البيانية. وأهم خطبة حفظ لنابوليبوس ملخصا لها، وهي مناشدة أجيلاوس اليونان التمسك بالوحدة في مؤتمر نوباكتوس (٢١٧)، تحتوى على صورتين خياليتين لانتسيان على الدهر أبدأ. ولا بد أنها كانت خطبة جيدة حقا.. وكان المعاصرون يضعون كينياس وزن ميروس على مستوى دوستنير نفسه.

على أن الخطابة السياسية ما لبست أن ماتت هي الأخرى في النهاية، حتى إذا تنفي القرن الثاني أصبح البيان يغمر كل شي.. وليس من المهم البته تعداد أساتذة هذا الفن، الذين ظل عنده يتزايد حتى العهود الرومانية. وقد ساعد هيجيسياس بن ماجنيزيا بسفح السنيبيولوس (حوالى ٢٥٠) على تبسيط الأسلوب. الأسيوي المزخرف، الذي يمكن تقطيع أسجاعه المكدودة إلى أطوال تماثل الشعر الحر (**Versibre**) العصري (ولسنا متحققين هل كان هو مخترعه أم ناموس)، ويؤذن هرماجوراس تمنونس (حوالى ١٥٠)، الذي أصبح كتابة التداول مرجعا معتمدا، بمرحلة في طريق العودة إلى النزعات الآتيكية (**Aticism**). وكان على البيان ينطوي على شيء من الخير حيث يتعلم الناس بفضله كيف برتبون أفكارهم بوضوح، ولكنه أصبح إحدى اللعنات التي ابتليت بها الهلينستية. فاستنتج الناس أن الأسلوب هو كل شي، وأن المادة لاشى.. فكل ما تقوله لا وزن له على شريطة أن تقوله وفق القواعد المقررة وأن نتجنب حدوث ثغرات. ولأمر ما.خدر البيان عقول الإغريق، وأسكرتهم نشوته. فقد احتل المكان الذي تملؤه الآن الصحافة الرخيصة والسينا، وكان الرجال يتقاطرون على حلبات البيان تقاطرهم على أحد المسارح. وكان البيان يهوي إلى الدرك الأسفل بكل شي تمسه يده. قال بترونيوس إن البيان كان يعلم الناس أشياء كثيرة عن القراصنة ومن إليهم، ولكنه لا يعلمهم إلا القليل عن الحياة. وقد لخص مارشيال موضوع البيان و جل القول عنه في تنديده المرير بمحام استطاع أن يلتقي أبدع الخطب عن هانيبال ولكنه لم يغن شيئا في قضية سرقة تافهة

وفي مجال النثر، تبوأ التاريخ أرفع مكان. ذلك أنه حدث بفضل الدوافع التي تولدت عن فتح آسيا، أن الجيلين اللذين أعقبا وفاة الإسكندر شهدا إنتاجا تاريخيا ضخما. ولكن هؤلاء المؤرخين بادوا جميعا، وإن كان بعضهم معروفة لا جزئيا عن طريق استخدام كتاب متأخرين لمادتهم التاريخية، ولم تكن تلك الرذيلة القبيحة وهي رذيلة الكتابة الماسة للتأثير في النفوس وهي التي اجدعها ازوقراط وتلاميذه، قد ماتت ولا أخذت تموت، ولكن نجلى في العالم الجديد إحساس بالحقيقة والواقع أدي بالبعض، ولا سبا في الدوائر التي كانت تعرف الإسكندر – إلى العمل ضد البلاغة واليان. وعندما كتب بطلميوس الأول (وذلك في الراجح بين ٢٨٨ – ٢٨٣) كتابه عن تاريخ الإسكندر مستقيًا معلوماته عن الجريدة الرسمية ومعتمدا على وثائق أخرى رسمية مضيفا إليه ملحوظاته وذكرياته، كان بعمل شيئا جديدا وذلك لأنه رجل عمل وحركة بسطر ما علم ورأى. ومن الخير لنا أنه فعل ذلك.وبالمثل أيضا أن نيار خوس في وصفه لرجلته (قبل ٣١٢) ما لعله أجدر سجل تاريخي والثقة في بلاد الإغريق،

وكان كل من هذين الرجلين صديقا للإسكندر مُنذ الصبا وكل

منها عرف طريقته في القصد إلى الغاية. وكان أرستوبولس من كساندرا الذي كتب حوالي ٢٩٤ – ٢٨٨)، أحد المؤرخين الفنيين الإغريق الذين عملوا في خدمة الإسكندر، وله نظرة مختلفة إلى حدما من نظرة بطلميوس العسكرية، وكان كاتبا واعية متزنة يعرف الكثير من الإسكندر شخصية، وكان على علم جيد بالجغرافيا والمؤرخ أريان هو الذي يمثل هؤلاء الثلاثة، أماترستوبولس فهو الشخصية التي تقف وراء صورة الإسكندر المية الأولى التي نجدها عند ديودورس. و كتب كاليسئنز من أوليوس وهوابن أخت أرسطو (حوالي ٣٣٠)كتابا مليئا بالتملق والدليل السخيف، كان المقصود منه تمجيد الإسكندر ولكنه لم يترك في التقاليد المتواترة عن الإسكندر إلا أثرة ضئيلا. أما الكتب التي أنتجتها الدائرة الخارجية من غير أخصاء الإسكندر التي ألفها خاريس التشريفاتي أر إفيوس مروج الشائعات و ناهش الأعراض، فكانت مليئة بالتفاهات التي لا وزن لها، وذلك لأن الرجل منا لا يستطيع أن يبصر إلا ما تسمو قدر أنه إلى بلوغه. ولكن أو نيسكريتس الريان البحري لا ينتسب إلى هذه الزمرة ولا يكاد يستحق كنية و الكاذبة التي أطلقت عليه جملة وتفصيلا، وذلك لأنه لم يكن يكتب تاريخا للإسكندر بل قصة ورواية على نسق قمة «الكيروبيديا" لزينوفون. ثم حدث رد فعل لهذا كله، بدأنه مدرستان من المدارس الفلسفية: ما المشاءون والرواقيون، وتناوله كاتبا تانوى، هو كليتارخوس الإسكندري، وهو رجل لم يكن لدى أي ناقد جاد في تلك المصور الموالي من كلمة طيبة ينوها فيه سوى أنه كان خبيثا ماكرة، وهو الذي كتب (وليس ذلك قبل ٢٨٠ – ٢٧٠ وربما بعد ذلك تاريخا لاسكندر أسلوب بيانى لاتنطوى نغمته بحال ما على الرضا فقد صوره في صورة الشخصية التي تجنح إلى التقليد وعمل الذي في الناس و نغش ونكذب على السماء، وإن جاز أن هذه الرذيلة الأخيرة لم ينقلها سواه، وقد استهوت مبالغات كليتارخوس المسرفة أذواق الرومان فيا بعد، ومن ثم يقول بليني إن قراء ته تلقى إقبالا كثيرة، وقد استخدم مادة أرستوبولس واقتضبها فأخل، "وكان يعتمد اعتمادا كبيرة على القصص التي رواها الشعارير[1] الذين كانوا يرافقون الإسكندر، كما يعتمد على شائعات. الإسكندرية ونشأتها، فضلا عن اعتماده على خيال مشرق: وهو المصدر الذي استقيت منه الصورة غير الكريمة التي يصورها ديودورس للإسكندر، والتي استخدمها إلى حدما كير تيوس".

وبعد عام ٢٦٤ بقليل أنتم تيمايوس من تاورومنيوم تاريخه الكبير للإغريق الغربيين حتى تلك

(١) الشعارير جمع شعرور وهو الشاعر التافه. (المترجم).

السنة و كان ذلك بمدينة أثينا، وظل هذا الكتاب يحظى مدى قرنين من الزمان تأثير عظيم. ذلك أن مؤلفه كان عالما مجدا كثير الأسفار شديد الاجتهاد في جمع شواهد الكتابات التذكارية والقوش المسطرة على المباني والباتيل، ولكن عقله حرم نعمة العمق، كما أنه لم يفهم على الوجه الحق ما كتبه ديونيسوس وأجانو كليس، وقد كتب بالأسلوب الآسيوي كاي كانپ بياني آخر وروى العجائب والأساطير، وإن استخدم الأسلوب العقم الذي يقوم على التأريخ بدورة الألعاب الأولمبية والذي لقي بعض الرواج واستخدمه بوليوس و كاستور. وإليه ترجع قصة أجانو كليس التي كتبها ديودورس. وشرع دوريس، وهو طاغية ساموس فترة من الزمن في إبداع بدعة جديدة، فكتب تاريخا للفترة الممتدة بين معركه لو كترا إلى ٢٨٠، وكان يهدف من ذلك إلى جمل التاريخ مشوقا للقراء بصوغ شخصياته وما كان لهم من الدوافع صوغا مسرحيا مع استخدام كل المقومات الضرورية للمسرح. وغني عن البيان أن ما يحتويه عمله من حقائق بعيد عن الواقع إلى حد ما. وهناك رجل أفضل هو نيمفيس من هر قليا الواقعة على البحر الأسود (بنطش) (وكان ناشطا حوالي.٢٨) كتب تاريخا لفظ الإسكندر ولكن كتابه اندثر ولم يعثر له على أثر، وإن كان كتابه في تاريخ هرقليا التي يمثلها ممنون، يلوح أنه كان يجمع بين الجودة المتوسطة والوضوح. ثم كتب ديونوس في أثينا تارعا البلاد اليونان مُنذ الحرب المقدسة حتى وفاة كساندر في ٢٩٨؛ وهو يظهر على كساندر شيئا من العطف، ويرى بعض الثقات أنه له بعض الأثر في ديودورس. وقد ترك ديمتريوس العاليرى تاريخا لحكمه بأثينا فضلا عن أعمال أخرى كثيرة، وسطر ديموخاريس تاريخا عن عصره بأسلوب توخي فيه البيان وضمنه وجهة النظر الوطنية. وردى ديمتربون البيزنطي في تفاصيل دقيقة غزو التاليين لآسيا. وكتب بروكسينوس يؤرخ لابيروس على عهد بيروس، كما أن الملك يروس نفسه ترك مجلدا من المذكرات تناول فيه حروبه، إن لم يكن ذلك العمل في الواقع لا يعدو أن يكون صورة من الجريدة الرسمية التي كان يصدرها.

بيد أن التاريخ العظيم لنصف القرن التالي لوفاة الإسكندر، وهو في يرجح من أعظم كتب التاريخ التي أنتجتها بلاد اليونان، قد كتبه هيرونيموس من كارديا، وهو صديق يومينيس الكاردي، ولعله أيضا قريبه. وبعد وفاة بومينيس انضوي في خدمة أنتيجو نس الأول رد متربوس وجوناناس كقائد وصاحب إدارة وتدبير. و كتاب هيرونيموس يبدأ من وفاة الإسكندر حتى وفاة بيروس (فيما يحتمل). وهو المصدر الذي استقى منه ديودورس الفصل الثامن عشر فما عقبه من فصول كتابه. كما أن ما ألفه أريان عن خلفاء الإسكندر (**Dsadochi**)، انتقل منه بلوتارخوس (**Plutarch** انتهالًا

جزئيًا في ترجمته ليومينيس وديمتريوس، وكان له أثره قوي في دعم كل ما لدينا من روايات بترا، عن تلك الفترة. و ما زدنا إمعانا في دراسة تلك الفترة، زدنا. بقينا بأن كاتبا عظيما مفقودا يقوم وراءها. و كان يؤرخ بسنوات الحلان العسكرية، مثل ثوسيديدس، كما أن أرقامه يبدو أنها جديرة بالثقة، وتلك ظاهرة نادرة. لقد أهمل ذلك الكاتب الأسلوب، فكانت جزائه أن اندثر، بيد أنه حرص أن يقول الحق كما شاهده. وواضح من كتابته أنه لعب دورا فمالا في التاريخ الذي روى – وهناك من الدلائل ما يدل بدرجة كافية على أنه كان في وسعه رسم كل من الصور والشخصيات. وهناك شي. بضع ذلك المؤرخ المجهول في منزلة يفوق مستواها كل مؤرخ سبقه، إذ أن ما يدهش له الإنسان أنا حتى في عصرنا هذا نستطيع أن نتعقب ظهور بعض التطورات التي ألمت شخصية دمت توس إذا كان الفضل في تسجيلها راجما إلى ذلك الكاتب (وهو أبي لا نكاد نشك فيه)، يضعه من هذه الناحية في منزلة فوق مستوى أي مؤرخ سبقه، وذلك أن الخلق كان يعتبر عد الإغريق بصفة عامة شي ثابتا لا يتغير. وهو مؤرخ مثالي و قد أوضح ما أكده پولى بيوس، حيث قال إن بلاد الإغريق لا يقوى على كتابة التاريخ الجيد أو الصحيح فيها إلا ذوو الهمم من الرجال. وكان من حسن حظ أسرة أنتيجونس أنه دخل في خدمتها، وهو ييسر علينا إلى حين من الزمن فهم شئون مقدونيا قليلا. ولم تجب آسيا السلوقية ولا مصر. البطلمية في أي وقت من تاريخها مؤرخا مقتدرا، وقد كان السلوقيون الأول على الأقل يستحقون مصيرًا أفضل مما حاق بهم من نسيان التاريخ هم لعدم وجود المؤرخ الكفء المقتدر.

والفترة التي انصرمت بين عمري هيرونيموس و پوليبيوس، قد غطاها فيما يتعلق ببلاد الإغريق فيلارخوس الذي كتب بمدينة أثينا تاريخ هذه الحقبة وواصل العمل فيما صنفه دوريس من تاريخ حتى وفاة كليومينيس (٢١٩)، ومثله عند بلوتارخوس تراجم آجيس وكليومينيس التي نقلها عنه، كما أنه يضق ألوانه على عدد آخر كبير من التراجم. وقد جرت العادة بمعامل كان مجرد دوريس آخر ليس غير، ويرجع بعض ذلك إلى "مقدماته الدرامية الشخصيات النسائية، ومع أنه كان مناصرا لكليومينيس مقتنعا بصواب آرائه، انه يزداد أهمية كما أمعن في تحليل عهده، وحينها اختلف مع بوليبوس، لم نجد بوليبوس على الدوام مصيبا في آرائه. وقد غطى أرانوس من أهل سيكيون شطرا كبيرا من النصف الأخر من القرن في مذكراته التي هي في الحقيقة ترجمة حياته الخاصة، وهو وإن كان شديد الحزب بعيدا عن العدل مع الخصوم، إلا أنه مع ذلك يتيح لنا أن نعرف ما هو الحلف الآخي، كما أنه كان صريحا حول نقاط ضعفه وعيوبه. وهو بارز الأثر في قصص و الحياة و عند بلوتارخوس، كما أنه كان

المصدر الأول لبوليبوس عن تلك الفترة. ولاشك أن ضياع تارى هانيبال لسوسيلوس خسارة حقيقية، كما تدل على ذلك القصاصة الوحيدة الباقية منه، وذلك لأنه صعبه ها نيبال في إيطاليا.

والقرن الثاني هو قرن پوليبيوس من ميجا لوبوليس (حوالى ١٩٨ – ١١٧)، وهو رجل لعب دوره في سياسة الخلف الآخي وحروبه، وحمل إلى روما بعد معركة بيدنا وأصبح صديقا ليا نا يتيوس واسكبيون أميليانوس، وعاد إلى بلاد الإغريق في ١٤٦. وتاريخه العظيم يذكر قصة (المسكونة) (من ٢٢١ إلى ١٤٦). ولا يبقى منه الآن سوى الكتب الخمسة الأولى فضلا عن مقتبسات وقطع طويلة من بقايا سائر الكتب الأخرى، ولكن ليفي يمثله ويقتفي أثره، وإن خلط عمله بعض عناصر ومواد أحط منه. وهو يعامل إفورس ونيابوس بوصفها سلفية، كما أنه قدم بيانا نميديا عن روما وبلاد الإغريق لملء الثغرة الموجودة بين عهد تيمايوس وعام ٢٢١. وقد استلفته واسترعي انتباهه إلى ذلك اتساع المضمار الذي يغطيانه، وإن كان يكره البيان كل الكراهية، وأنه نبذ جميع المجاب تمشيا مع ما يليق بصديق مثله لبانا يتيوس. ومن سوء الحظ أنه تجاهل فيرونيموس، لأنه كان يكره مقدونيا. والراجح أن التطور في خلق شخصية أورانوس يرجع إلى أرانوس نفسه. وليست كتابة پوليبيوس بالشيء الذين تلق القارى، مطالعته، فإن أسلوبه هو أسلوب الأوامر والكتب الرسمية، كما أنه بال إلى الإسهاب الممل إملالا مزعجا.. وهو كتيمايوس، كثيرا ما يتوقف عن السرد التاريخي للدخول في مسائل جدلية ما كانت توضع في عصرنا هذا إلا في تذييلات الكتب، وهو من ناحية الشئون العسكرية أسوأ نقيض هي ونيموس. كما أن ليق كان يعرف السفن أكثر ما كان ذلك الأركادي يستطيع أن يعلمه إياه. وكان يستخدم المحفوظات الرسمية حينها استطاع، كما أنه استخدم كثيرة من مصادر البينات والشواهد، ولكنه كان شديد الإعواز من حيث التدريب العلمي. ذلك أن عقله كان عقلا سياسيا، كما أنه كان يكتب لرجال السياسة، وكان يعتقد أن في مستطاع الحاضر أن يتعلم من الماضي، وهو في السياسة صارم، وإن يكن غير مشرق ولاذكى، وإن ترك ثغرات عجيبة في تاره تخلفه عن وصف الدستور الآخي، وهو ليس بالرجل الذي لا يتحزب، وحزبه بين الآخيين يماثل من يسمهم بعض الكتاب الإنجليز باسم "أحرار الله **Godswhigs** "، كما أن موقفه من أيطوليا و مقدونيا يلزم القارى، بتعديل موقفه على الدوام ليتوافق معه، ولكنه وإن كان مشايعا لروما إلا أنه يبذل بعض الجهد حتى يكون عادلا إزاء هانيبال. وإن لم يكن موقفه كذلك مع قرطاجة. ولكن ان كا نؤكد تقالصه، في ذلك إلا لأنه يكاد يكون من كير الشأن بحيث يدفع تلك التقائص جانبا. لقد كان بين يديه موضوع عظم.. يأل

جهدا في إعطائه كامل مجاله، وكان بطله الذي به يتغنى جو روما، وأنشودته في توسيع رقعة روما في عالم البحر المتوسط، فكل مناهل فكره وروافده منجري نحو ذلك النهر. وتاريخه مو ملحمة عصر البطولة عند روما.. لقد كان يفهم العصر ومن أخرجهم العصر من الرجال، و كان عليها بدخال كل من بلاد الإغريق وروما. و كان يستطع رسم صور ممتازة متى شاء، وقد حاول فعلا وإن لم تكن محاولته ذات عمق كاف، أن يفهم أسباب الأحداث، كما أنه لم يكن ليخشى إصدار الأحكام الخلقية. وفوق كل شيء، كان يؤكد أن هم التاريخ الوحيد هو تحري الصدق. وستظل نظرة مسن إليه بأنه الثاني بين المؤرخين الإغريق هي النظرة الصائبة حيث يقول: وازن بين الظلمة التي كانت قبله والتي كانت بعده، و بين المدة التي بددت فيها شمسه سحائب الظلمات.

وواصل بوسيدونبوس كتابة تاريخ يوليوس (الفصل العاشر). وعرف بوسيدونيوس بأسلوبه الجذاب وإكثاره من التفاصيل، ولكنه كمؤرخ كان سطحيًا تمامًا. وقد روى كثيرة من العجائب، وتم صورته التي دمجها الكلت وقوبلت بالتاء الكثير، عن ضآلة حظه من الاستبصار بخلق الكلت. ولئن صدق القول بأن قيصر ذهب إليه حقا يلتمس عنده العلم بسيكولوجيتهم فلا عجب فيها التي قيصر من متاعب. ذلك أن وجهة نظره لم تختلف عن وجهة نظر أشران الرومان، كما أن ظلامًا نسبيًا بات يخيم على روما بين عهد الأخوين الجراكيين وعصر سولا. ولسنا نحس في أي مكان بوجود كاتب عظيم وراء التقاليد المتواترة الموجودة، وتتجلى صفته وكنه من بيانه المسهب: الموجود إلى الآن عن انضمام أثينا لميثريداتى؛ فبدلا من توضيح طبيعة وأسباب الكرامية التي أثارتها روما ضدها في نفوس الناسى، راح يقص أن شعبة آمنة في داره مسالمة، لم يشترك في حرب لمدة قرن من الزمان، حب غزة وأخذ يقاتلها حتى الموت كما تقاتل من قبل إجزرسيس – وما ذلك إلا لأن سفسطائيا زائف القول طلية الحديث في ظاهره طلب إليهم فعل ذلك. وهناك مؤرخ آخر ربما كان أفضل منه هو نيقولاوس الدمشقي، وهو فيلسوف ومؤرخ ببلاط هيرود الأول، أو بعض الخبرة العملية بتسيير دفة الشئون. وقد كتب تاريخا للعالم، ولا تزال مادة ما سطره عن هيرود موجودة في كتاب بوسيفوس، وهذا هو السبب في أننا نعرف مثل ذلك القدر الكبير. الذي نعرفه الآن عن هيرود، على حين أن رجالا أعظم منه قدرة أصبحوا في طي النسيان. ولسنا نعرف شيئا عن التاريخ المالي العام الذي ألفه أجانرخيدس من كنيدس (حوالي ١٢٠)، وليس من المحقق تمامًا هل كان كتاب تيماجينيس الإسكندراني (حوالي ٢٠) المسمى «عن الملوك (**Ofahe Kings**)» تاريخا للكيان المقدونية حقا أم لم يكن. وكتب أبوللو

دورس من أرتميتا. تاريخا للبارنيين، لم تبق منه إلا جذاذات قليلة عن الإغريق الكثيرين، وأخيرا لا بد لنا من أن تقدم واجب الشكر إلى ديودورس الصقلي، الذي كتب كتا به و المكتبة التاريخية و في بواكير عمد أوغسطس. وهو كمؤرخ لم يكن كفؤة للعمل الذي تجرد له، وكتابه بما تضفيه قراءته من تسلية لطيفة داما، يكون حسنة أو رديئة حسب الكاتب الذي ينبري لتلخيصه في كل وت. ولكنه بهذا قد حفظ لنا أشياء لولاء لبادت وضاعت من أيدينا مثل كتابات إيامبولس مثلا، وإليه يرجع الفضل الأول فيا نعرفه عن هيرونيموس...

وكانت هناك أشكال أخرى للكتابة التاريخية عدا كتب التاريخ العادية في عهد مبكر من القرن الثالث حاول كاهنان ما بيروسوس البابلي ومانيتون المصري أن مجملا تاريخ بلادها في متناول الإغريق؛ ولكن قل من أولئك الإغريق من كان يعنى بدراسة تاريخ التبريرين دراسة جدية، وإن كان ثيوبوميوس قد عرف الآفستا، فضلا عن أن على الكامن بيروسوس بالفلك كان يقابل بالترحاب، ومع ذلك فإن نقوم سايس، وهو تقويم للسنة المصرية والأعياد والمواسم كتب بالإغريقية حوالى ٣٠٠ جدير بالملاحظة والذكر، وذلك على حين أن كاليما خوس كان يعرف فيها يظهر إحدى الحكايات الخرافية البابلية، فضلا عن أنه قلدها. وفي عهد بطلميوس الأول كتب هيكاتا عوس من أبدرا عن مصر كما يراها إغريق، وحدث فيما بعد أن شخصية اسمه مينا ندر وسع باسهاب بعض الأخبار التاريخية الفينيقية. وقد أحفظ لنا الإسكندر المليطي الملقب بونيه سنتور (حوالي ٥٠) ببعض الدعاية اليهودية، وهو رجل مجرد مع مؤلفات تدور حول كثير من البلدان ما بين إغريقية ومتبربرة (الفصل السادس). على أن الوطنية المحلية التي أثرت في الشعر أثرت كذلك في التاريخ.ومن ثم أصبحنا نعرف الآن قائمة طويلة من المدونات التاريخية المحلية. وربما احتوت مثل هذه المدونات التاريخية أيضا جهود الكاتب الأثري وجامع النقوش الأثرية من المباني والتماثيل – وذلك مثل الأتنس (Athis) وفي مدونة تاريخية عن أثينا للعالم فيلوخورس (المتوفى ٢٦١)، وهي التي زودنا بكثير من المعلومات عن دستور أثينا وأعيادها و مراسم الاحتفالات. ولا شك أنه كانت هناك مؤلفات مماثلة لهذه أدت نفس الغرض لمدن أخرى، فإن كراتريوس الذي يقول التواتر إنه الأخ غير الشقيق لجوناتاس (وهو أمر مشكوك فيه)، مع مجموعة من المراسيم الأثينية أرفقها بتعليق تاريخى رصين، بيد أن الاسم البارز في مجال علماء الآثار هو يوليمون من إبليوم القرن الثاني). إذ إنه قضى تصف حياته يدرس النقوش في كثير من البلدان، حتى إذا اجتمعت له المعرفة الرحبة، كتب بإسهاب عن تأسيس

كثير من المدن، وقديم تاريخها ومأثور عرفها، اكتب عن علم النقوش على الآثار و فن قراءتها وهمها، فضلا عماد من مذكرات شتى أودعها انتقاداته. و كان يعد جديرة بالثقة وأهلا"، ولكن شيئا منه لم يبق لنا، ولعل ذلك أكبر خسارة منينا بها بعد مرونيموس. وقلد الكثيرون أسفاره وتجولاته و كتاباته، وإن لم يصلوا إلى محيط معرفته الواسعة، والراجح أن بوستياس استخدمه وانتفع به أكثر ما اعترف بذلك. وأما إراتوستيز (الفصل التاسع)، وهو الذي كان فضلا عن مجالات نشاطه الأخرى الكثيرة ناقدة تاريخيا أصيلا، — فإنه أسس دراسة على التأريخ، وحول أبولودورس الأثيني في ١٤٤ تاريخه إلى مدونة مسجوعة وإذا كان لبقاياها قيمة لا يستهان بها. هذا إلى أن كاستور الرودسي (المتوفى ٤٢) استخدم ما سطره أبو للودورس في تصنيف مجموعة من الجداول التاريخية ذات الأحداث المتحدة في الزمن، ثم عاد و قرر، فاستخدمها، كما استخدمها من بعده «يوليوس أفريكانوس، سلف يوسيبوس؛ فهناك إذن سلسلة تربط إراثوسثنيز بخطة يوسيبيوس الطموحة في علم المدونات التاريخية.

وكان من الطبيعي أن مدرسة المشائين بما درجت عليه من حب مع الحقائق، قد عالجت الشئون التاريخية مُنذ البداية. فكتب ثيوفراستوس تاريخا للدراسات العلمية، وكتب آخرون تواريخ للطب والرياضيات، وأنتج اثنان من تلاميذ ثبوفراستوس، ما دور بس المؤرخ ونامايليوس من عراقيا الواقعة على شاطئ البحر الأسود أول كتابين في تاريخ الفنون والشعر على التوالي، وقدر أن يكون لها أتباع كثيرون، و كتب ديكاآرخوس (حوالي ٣٠٠) كتابا هاما بسمي و حياة هلاس و، ولعله تاريخ للثقافة. وقد ضاعت جميع هذه المؤلفات كما ضاع كتاب ديكا بارخوس الهام المسمى ودستور إسبرطة. ولم يبق لنا الآن سوى مخططات مختصرة لثيوفراستوس عن الطرز البشرية المسماة "بالشخصيات"، ولها بعض الأمية من حيث التاريخ الاجتماعي. بيد أن تأثير المشائين على التاريخ نفسه قدر له أن يسبع سيئة سوءًا تاما، فإنهم ابتدعوا أو نبتوا نظرية الخط التي ذاعت بين الناس ذيوعًا هائلا في (الفصل العاشر). ونجم عن شدة نشاطهم في جمع فات كل شيء، أن نشأت العادة الشائعة جدا وهي عادة الخلط بين الصدق والأساطير دون تمييز، وهي عادة ما لبثت أن تحولت سريعة إلى شيء آخر هو التلهف الشديد على الفضائح. وليس لهذا العصر ظاهرة أقبح من تلك الدعاية التي عملوا لواءها ضد الإسكندر. وأهل بيته، بل إنهم لم يرزقوا الفطنة البسيطة التي تجنبهم ما كان ينبغي استبعاده لدى الطرفين من مزاعم وادعاءات متبادلة، وكانت هذه الدعاية — وهي أول ما نعرف من حملات الدعاية — مسمومة حقة، و تخصصوا في التراجم، وهو اتجاه لم يكن مفر لاتجاهات القرن

الثالث وزعته الفردية من رفع شأنه غير أنهم اعتادوا عادة أصابت التراجم في الصميم هي الخلط بين الحقيل الزائف، وهي الشيء الذي يبدو مكتملة النمو والازدهار في عمل مبكر جدا، هو كتاب " السير " تأليف كليارخوس من سولى، أما ذوو النفوذ من كتاب التراجم والسير بالإسكندرية فهم ساتيروس (قرابة ٢٢٠)، الذي ظهر أن كتابه و حياة بوريد بس، الذي أمكن رده إلى حالة الأولى كان مكتوبة على طريقة المحاورة — فهو أفضل ما كنا نتوقع. وفيهم أيضا هرميبوس الأزميري تلميذ الماخوس، وفي أعقابهم من الإسكندرية أكداسا من التراجم وموادها، ولكن ذلك كان جمعة خالية من التمحيص والنقد؛ بحيث إن بلوتارخوس عندما تناول تلك المواد واستطاع بفضلها أن ينج مؤلفات فنية عظيمة، كان الصدق والزيف قد انصهرا بعضهما بعض بصورة ضاع معها كل رجاء، مثال ذلك أن أحدة منا لم يوفق حتى الآن إلى تحليل «حياة الإسكندر» لبلوتارخوس وتنقيتها من الشوائب. على أن الهلينستية أنتجت مع ذلك كتب تراجم واحد جاد و قادر ندين له بالشيء الكثير، وهو المثال أنتيجونس من كاريستوس (المتوفى بعد ٢٢٥)، وهو الذي كتب سير فلاسفة القرن الثالث، ولا يزال جزء منه. باقية، هو ومواد أخرى أدنى منه مرتبة بكثير عند ديوجينيس اللائرتي[1].

والجغرافيا في العصر الهللينستي تبدأ تحت بند العلوم في (الفصل التاسع) تنتهي عند بند الأدب. و كتاب إراتوستيز العظيم المسمى و الجغرافيا و كان يحتوي على وصف العالم المعروف له، وهو جيد بالنسبة للبحر المتوسط للمناطق التي عرفها الناس عن طريق الإسكندر و باتروكليس وميجاستيز وبيثياس (واقتضت حكمة إراتوستيز أن يعترف بصحة رحلة بثياس) (الفصل السابع)، أما الحديث عن أطراف ذلك العالم فقائم على الحدس والرجم بالغيب، وذلك لأن إراتوسئنيز كان بطبيعة الحال لا يعرف شيئا عن أنباء الجزر الإفريقية والهندية، ولا عن العالم شرقي نهر الكنج ولا عن شمال أوروبا وآسيا، ولكن ما كتبه عن آسيا فيا وراء القران ظل أمدة طويلا مرجعا ثقة يعتمد عليه وعلا الفراغ كله. بيد أن نزعة وليبيوس النفعية هي التي حولت أفكار الناس بوجه رئيسي إلى الجغرافية الوصفية. وقد ترك معاصره الأصغر أجانرخيدس من كنيدس وصفة رائعًا عن ساحل البحر الأحمر وشعوبه العجيبة، يقوم على تغلغل سلطان مصر جنوبًا. (الفصل السابع). وهناك أبوللودورس من أرتميتا، وقد كتب عن باكتريا والتركستان الصينية، أما أرتميدورس الافسوسي (حوالي ١٠٠) وهو الرحالة الكثير الأسفار، فأخرج مؤلفة هامة في الجغرافية العامة، استخدم فيه مادة كل من سبقوه من الكتاب وملأه: بالتفاصيل

---

(١) من لائرته Laerte في سيفينيا بآسيا الصغرى. (المترجم)

الوفيرة، على أنه لا يعرف إلا عن طريق استخدام استرابون لهذا العمل. وكانت مؤلفات بوسيدنبوسي (الفصل العاشر) مليئة بالجغرافيا الوصفية، وتمتاز بالذكاء والجمال. والاعتقاد السائد الآن أن استرابون نقل عنه بياناته وأوصافه عن شعوب أوربا الغربية و عن شراء إسبانيا في المعادن وعن المناطق البركانية بآسيا الصغرى وغيرها من الأماكن (وهي التي يرجح أن استرابون. عرفها بنفسه). وعن المناطق العجيبة المسماة ثلمة أرليس (Arles, Crand) عند مصب نهر الرون، وكذلك أيضا وصف ديودورس المتوقد العجائب بلاد العرب.

ومع أن استرابون من أماسيا أصدر كتابه. في. و الجغرافيا و في عصر نيبريوس، فلابد من ذكر اسمه ها. وذلك لأنه قل. بين الكتاب من تدين له بالفضل أكثر منه وكنا به هو أغنية البجعة المحتضر [١] بالنسبة للهللينستية لأنه آخر ما ظهر عنها من أبحاث، فنحن من خلال نظرة عينيه نستعرض ذلك العالم في مجله وهو يتوارى عن الأنظار. وهو ليس بالجغرافي الأصيل، بل هو يضمن معلومات سابقيه من الكتاب، ولكنه يجيد الكتابة كما أنه ناقد سليم العقل بدرجة معقولة، وربما ذهب بعضهم إلى أننا ما كنا إلا لننقص من تقديرنا له لو كان بين أيدينا أعمال أرتميدورس وبوسيدونيوس، وهذا حق ولكنه ينطوي على نكران الجميل. وكم كنا نتمنى لو أن الدنيا التي شهدها من حوله، والتي عرفها حق المعرفة وكتب عنها ما كتب، كانت هي المالك الهلينستية وهي في أوج ازدهارها، وكم كنا نتمني لو خص الاكتريين بنصيب أعظم ومنع الملوك التابعين للرومان شطرًا أقل. بيد أن كطلة المعلومات التي جمعها من الشئون الجدية:–كالنظريات الجغرافية والمدن الإغريقية والمسائل الاقتصادية، عظيمة ما في ذلك ريب، وذلك على حين أنه كان أوسع علمية عن داخل المناطق القصية من آسيا (وليس الشاطئ)، مما بلغه أي إنسان بعد ذلك حتى ظهور ماركو بولو، وكتابه حافل بالأوصاف والصور من أوله لآخره. وفيه يتجلى مجد الإسكندرية وردوش والنظام الاجتماعي للبنغال، ويمر أمامنا فيه أوصاف الملوك والكهنة الكبادوكيين والفقراء الهنود والكاهنات الجرمانيات والدراويد من الغالة. وهو يتحدث عن الحفلات العجيبة التي تقام بتراقيار ارس و نفاس [٢] الرجال الزائف لدى الأيبيريين وقبائل كرمانيا المتوحشين الذين يجمعون رءوس أعدائهم. ونحن نستطيع بصحبته أن نستكشف بريطانيا مع بثياس أو

---

(١) هي في الخرافات آخر أغنية البجعة فيل مفارقتها الحياة. (المترجم)

(٢) الناس الزائف (couvade) هو نوم الرجال في الفراش عند مولد الأبناء بصورة أشبه ما يكون بالنفاس عند المرأة. (المترجم)

نرتاد بحر قزوين مع باتروكليس أو نشهد الشمس يقتل التمساح أو مجمع الزعفران في الكهف الكوريكياني، ونستطيع أيضا أن نبحث عن الماء العذب في البحر الفينيقي وأن نضرب بمحرابنا سمك السيوف بالقرب من صقلية أو نترصد النعام ببلاد النوبة أو تخرج الأرانب باسبانيا من مكامنها. فليس باقية لدينا مُنذ عهد هيرودوت كتاب أجمل من هذا ولا أكثر روعة.

وكان الشعر الآخر المكمل للجغرافيا هو " قصص الرحالة " «وأنتيفانيز " من برجي هو الذي صاغ طرادها في صورته النهائية، وهو مؤلف القصة التي تجرى حوادثها في القطر الذي يقال إنه من البرودة بحيث إن كلمات الإنسان كانت تتجمد في الخريف في الهواء، ولذا فأنت لا تسمع ما يقال لك حتى تذوب الكلمات في الربيع. ومن ثم أصبحت كلمة " البرجية" (**Bergean**) هي اللفظة الإغريقية الدالة على " حكايات القشر". ومن الكتب التي من هذا الطراز كتاب هيكاتايوس عن الهيبربوربانين و كتاب أموميتوس عن (الآثار كورين) **Uttara Kurus** بالهملايا، عدا عينة باقية هي ما سطره لو كان في كتابه المسلى السمى و حكايات واقعية، وفي الصدر القديم لقصة " السندباد البحري "، والجانب الباطني المكمل للتاريخ الذي كانت تشغله الأقاصيص الرطازية (**Mythical**) والرومانتيكية، يكاد يكون أكثر خصبة. وهناك أشياء كثيرة صيغت في الدوائر الهللينستية هي وغيرها، منها أسطورة إيناس رقصة تأسيس روما، ولاشك أن جيوفري من مونماوت ما كان ليلي في تلك الدوائر إلا ترحابة عظيمة كزميل في صنعة التزييف والنشر. ولكن العمل الرئيسي الفذ وهو قصة الإسكندر الرومانسية، وهي خليط تناقض أجزاؤه أحيانا، يتألف من مواد مستقاة من متواتر الروايات بمصر و بابل و بلاد الإغريق، ومن حكايات من مصادر كثيرة، والنص الإغريقي الموجود في أحسن الصور وهو الذي يرمز له رقم أ يحتوى على بعض نقاط تاريخية أصيلة. وقد صارت هذه النسخة المرقومة أ١ نسمي باسم كاليسثنز المنتحل، وإن لم نكن لها أدنى علاقة بذلك الكاتب. ومع أن بعضهم حاول أن يبرهن على أن نصها يصل إلى شكله النهائي حتى قرابة عام ٣٠٠ للميلاد، إلا أن كثيراً من فقراتها هللينستي دون أدنى ريب، هذا إلى أن أشهر نوادر تلك القصة الرومانسية، وإن لم توجد في النسخة المرقومة، إلا أنها كانت معروفة ببلاد الإغريق في القرن الثالث ق.م. وهذه القصة الرومانسية انتقلت آخر الأمر إلى آسيا تمازجها تغييرات لا نهاية لها إلى أن بلغت الملايو وسام، ووصلت غربية إلى فرنسا وبريطانيا. أما التاريخ في حد ذاته فأخذ ينزع أكثر فأكثر إلى صورة الكتب المدرسية والمغامرات، بعد نقله في صورة مختصرة عن الكتاب الكبار و تكراره من أحدهم للآخر مع تدهور حالة رويدا رويدا.

وإن جستن. وأورسيوس ليشلان ذلك النوع من التأليف، وإن جاها متأخرين.

والحق أن أشكال الكتابات الأثرية في محتواها كانت كثيرة كثرة لا يحصيها عد، وذلك لأنه ما من فرع من فروع الفكر أو النشاط الإنساني إلا واتخذ: موضوعة للتأليف والأدب. وقد أسلفنا إلى ذكر اليوتوبيات (الفصل الثالث). وأصبحت والرسائل، مركبا جدية هامة يستخدمه الفلاسفة. بيد أن الرسائل بين زائفها ونوهها لعبت أيضا دورة في نشر التاريخ الأدبي وفي حرب النشرات والدعاية التي صعب المنازعات العسكرية بعد وفاة الإسكندر: أما الرسائل المنشورة لا سكندر وأولمبياس وأنتيجونس جوناناس وغيرهم؛ فعلى أحسن الفروض لم يكن أصيلا منها إلا شطر صفير فقط. وكتبت محادثات خيالية بين بعض الشخصيات التاريخية (وقد عز منها حتى الآن على: اثنتين)؛ كما أن القطع الساخرة لمنيبوس من جدارا (قرابة.٢٨) التي أكثر لو كان من الانتفاع بها والتي كتبت بالنثر والشعر ممتزجين، كانت تسبك أحيانا في صورة المحاورة، شان قصص حياة الأفراد لسانيوس. وكانت طبقة كبيرة من الناس ترغب في قراءة كتابات قصيرة مهلة، ولذا تكاثر بالبلاد و أدب و كامل من التنف المدبجة في كل موضوعات سس منها التاريخ والحرب والولائم والمسارح والفلسفة الخلفية والشائعات المنوعة، وفي تتفاوت ما بين المقتطفات التاريخية الأصيلة و بين النوادر غير الجديرة بالثقة إلى أقصى حد. وبوليائنوس (**Polyaeous**) وآيلان هما اللذان عليان ذلك الطراز من الكتابة أن كشكول أثينابوس الضخم، إن هو إلا مثال لذلك الاتجاه يقابل بالتمجيد، ويزداد قدرة بما حوى من ذكر الكتاب لولاه لذهبوا من ذاكرة. التاريخ وبفضله حفظت أمام. وما تلك الخطط التي تنسب للإسكندر إلا تصنيفات من ذلك النوع، دونت في القرن الأول وجمعت بين قليل من الصدق وكثير من الزيف، والظاهر أن بطلميوس بورجيلبس الثانى نشر كتابه الخاص وهو كتاب عادي. ولم يكن لدي الإغريق أي إحساس بمخطأ انتحال الآثار الفكرية، وكان النقل عن أحد السابقين ينطوي على تكريم عظيم. وفي الإمكان رؤية نتيجة ذلك في تصرف جوبا الثاني ملاك موريتانيا وهو ممن شعلهم أوغسطس برعايته، وكان جوبا يبدي استعداده لشراء أي شيء زائفه وينسب إليه أنه صنف أعمالا ضخمة يعوزها التمحيص الناقد في موضوعات كثيرة بمجرد استخدام عجينة اللصق و القص، و كذلك أيضا ليس "التاريخ الطبيعي" لبليني إلا مثالا أفضل النفس الطراز و نفس الطريقة. وبطبيعة الحال احتفظ مثل هؤلاء الكتاب بأشياء كثيرة حقيقية وأخرى زائفة أيضا، ولكن النوعين اختلطا ما بحيث أصبح من المستحيل الآن في غالب الأحيان تفريق أحدها من الأخر.

وهناك آخرون كانوا يجمعون القوائم، فهناك مثلا الخطباء "الأتيكيون العشرة" "وعجائب الدنيا السبع "، وأكثر من قائمة بأسماء "المخترعين" وكلها أشياء هللينستية بحتة، وقد أنشاء فليجون قائمة بأسماء المعمرين الذين بلغوا المائة عام، و أن أحد الناس أعد قائمة بأسماء دعاة منع المسكرات. كان هناك أدب كامل قوامه العجائب والمدهشات، غالبا ما كان ينسب إلى أسماء عظيمة من رجال الماضي، كما كانت تنسب إليها لعمرو الحق أنواع كثيرة من الكتب. وإن قصص الحب الرومانسي (وهي ليست بالمحاولات الجدية لتصوير الحب، مثل قصة أبوللونيوس) لتظهر في أماكن وأحوال وملابسات عديدة مثل قصة هيرون وليانذر، وسافو وقارون، و بيراموس وتسي، وأنطيوخوس الأول واستراثونيكى—وهي التي تمهد السبيل لما يسمى بالرواية الإغريقية الطويلة التي ظهرت في العصر الروماني. والمعروف أن بارثينيوس التي استحضر إلى روما (في عام ٧٣) كتابًا حاويًا لمثل هذه القصص الغرامية.وكتبت أعمال أدبية عديدة في موضوعات خاصة منها الجيد، ككتاب تيموستينيز الرودسي المعنون به "عن الموانى"، وقد ترك أسكليبيودوتس تلميذ بوسيدونيوس كتابا حافلا بالحذلقة يبحث في التدريب والتكتيك العسكري. ونحن نسمع عن كتب في الزراعة وتربية النحل وأشجار الفاكهة والحدائق وترية الخيل وصيد السمك والأحجار الثمينة ونفسي الأحلام، وهناك أوصاف للحفلات الخاصة أو السفائن الضخمة التي قادها بطلميوس الرابع وهيرون، و ديوان كامل من الكتب يدور حول فن الاستمتاع بتذوق المآكل وحياة الفجور والخلاعة. و كان من الطبيعي ان ينسب كتاب في وسائل التجميل لكليوبطرة.

وثمة عمل لا بد من ذكره لما تسبب فيه من شر: ذلك هو الكتاب الذي صدر في أخريات القرن الثالث بعنوان " ما في سالف الأزمان من خلاعة وفجور". وكان هدف الكاتب الذي دعا نفسه أو ستيبس تلميذ سقراط، أن يلصق بكل اسم كريم من الفضائح ما شاء له دوام و ما جاء به خياله، وقد أصبح. الشيء الكثير منه الآن منسقا مكذبا بفضل ما احتواه كتاب "حياة " الفلاسفة تأليف دوجينيس اللارن. وهو لا يكاد يكون الكتاب الوحيد من ذلك النوع، وكل من شاء أن يفهم الهلينستية ينبغي له أن يكون مستعدة لهذا النوع، من نصيد الفضائح، الذي يلقاه مبثوثة في بعض المصادر الأدبية الموجود حاليا وأن يعامله بما هو جدير به من ازدراء. فإن فيليب الثاني الذي لم يكن بالرجل المثالى خلقة، ربما غمر بالخجل كثيرة من الكتاب عندما شخص ببصره بعد معركة خيرونيا إلى سرية طيبة المقدمة وراقدة ميتة في صفوف عسكرية ولعن من نقاه بالسوء عن مثل هؤلاء الرجال.

الفصل التاسع

العلوم والفنون

لم تبلغ العلوم ببلاد الإغريق أوج اكتمالها إلا بعد عهد الإسكندر الأكبر. وكانت هناك بداية حسنة بدأت قبل عصره زمن طويل في الرياضيات و الطب ذلك أن أتباع فيثاغورس وأفلاطون ومدرسته بلغوا بالهندسة مرحلة متقدمة، وإن النقش المكتوب على باب أكاديمية أفلاطون: "لا يدخلها من لا يعرف الهندسة" لشيء مشهور معروف –كما أن أبقراط الذي لا يزال الأطباء المصريون يقسمون نسمه – وضع دائم قوية لعلم الطب، على حين أن أرسطوطاليس الذي كان الإسكندر يمده بالمال في عمله بسخاء كبير، لم ينظم فقط دولة العالم كلها، بل إنه أقر ورسخ أقدام اليد الذي يتحكم في كل بحث، وهو التوفر على جمع مادة علمية أولا ثم العمل على استقراء التاج منها. وكان كل شيء مهيأ لإنبجاسة من النشاط، ما لبثت أن جاءت بمجرد تمكن الإسكندر من مضاعفة حجم العالم المعروف أربعة أضعاف. وقد زود هو بنفسه العالم بالمادة اللازمة لزيادة المعرفة في كثير من حقولها: كلم النبات والحيوان والجغرافيا وعلم وصف السلالات البشرية (Ethnography) وعلم مساقط المياه وأوصافها، ولكن لعل ما هو أهم من ذلك أنه أدخل بابل في نطاق الدائرة الإغريقية. وكانت النتيجة أنه حدث إبان بضعة أجيال بعد وفاته نمو في العلم الحقيقي لم ير العالم له بعد ذلك مثيلا أمد قرون كثيرة جدا. وقد ظل الاعتقاد فوق هذا المصر منية على كل شد حتى عهد قريب جدا. بيد أن ذلك الاعتقاد كان ينطوي على إحدى تلك التناقضات التي زخرت بها الهللينستية، ونحن نعد الملم شبها أوربيا في جوهره، ولكن علم الفلك الهللينستي كان يرجع الفضل في بعضه إلى البابلين.

وربما جاز لنا أن نبدأ حديثنا بالفلك. إن بابل ظلت أمدة طويلا تجمع من المياه المشاهدات التجريبية، هذا إلى أن الصورة الإفريقية للمياه وما حوت من كواكب ومجموعات نجمية، كانت كخطر يطتنا الراهنة بابلية، وذلك في حين أن خرائط المجموعات النجمية البابلية ذاعت في رحاب الأرض حتى بلغت الصين نفسها قبل ٥٢٣، ولكن حدث في أثناء الفترة الفارسية وهي تؤرخ حتى ٥٢٢ – أن ابدأ ببابل علم الفلك العلمي بمعناه الصحيح القائم على استخدام المشاهدات المسجلة، وكانت

ببابل ثلاث مدارس، هي مدرسة أوروك وسيبار وبابل ومعها بورسبيا. والاسم العظيم الذي اشتهر بعد عهد الإسكندر هو كيدينو من سيبار (كيدنباس **Kidenas** باليونانية)، و إن لم يعرف على وجه التحقيق ما إذا كان ظهوره في أواخر القرن الرابع أو الثالث. وقد نسب إليه الأستاذ ب. شنابل في ٩٢٣ وذلك الاستكشاف المثير، وهو المسمى "استقبال نقطتي الاعتدالين "، وإن كان ذلك موضع جدل بين أهل الرأي كما أنه يجعل تقديره للسنة ٣٦٥ يومًا، ٥ ساعات، ٤١ دقيقة، ٤.١٦ ثانية، أقصر فقط بمقدار ٧ دقائق و١٦ ثانية من التقديرات العصرية وذلك بالنسبة العام ٣٠٠ ق.م.

وكانت النظرية التي يقبلها الإغريق عن العالم مُنذ عهد يودوكسوس (القرن الرابع) هي أن الشمس والقمر والنجوم كانت تدور حول لكرة أرضية تابعة، في دوائر ومجالات ذرات مركز واحد به بيد أن هيراقليدس من هرقليا البونتيكية (على البحر الأسود وهو معاصر لأرسطو و يصغره، استكشف أن الأرض تدور حول محورها، وأن عطارد والزهرة إما تدور ان حول الشمس. وكانت هذه الآراء موضع القبول من كل من أريستارخوس من ساموس (حوالى ٣١٠ – ٢٣٠) وهو أحد تلاميذ استرانون المشائى،. الذي أنبع ذلك اكتشافه أن الشمس أكبر كبيرة من الأرض – وأنها في ظنه تقارب ضعف حجمها ثلاثمائة مرة، والراجح أن ذلك الاستكشاف هو السبب الذي من أجله صارت نظرية مركز المجموعة الشمسية في الأرض مستحيلة في نظره، وهو الذي بسط الرأي القائل بأن الأرض والكواكب السيارة جميعًا تدور حول الشمس في دوائر، على حين أن الشمس ثابتة هي والنجوم الغاية. والنجوم تبعد عنا بمسافات هائلة. ولا شك أن مثل هذا. الرأي كان ينبغي أن يحدث لدى الدوائر الفكرية في الدنيا انقلابا. يؤذن بقيام عصر تاريخى جديد، وإن لم يستطع صاحبه إثباته. وبطبيعة الحال. يستطع علماء الهندسة الكبار الذين خلفوه وهم أرشيدس وأبوللونيوس رهيبار خوض أن يجعلوا الظواهر التي تقع تحت مشاهدتهم تتفق مع اتخاذ الشمس مركزًا للدائرة، ولذلك نبذوا نظامه. وكان هيبارخوس على صواب نام من الناحية الهندسية حين قال: إن الإنسان ينبغي أن "يحافظ على الظواهر" أي يستمسك بالمشاهدات. ومن سوء الحظ أن ذلك لم يؤد إلى استكشاف المدارات الأهليلجية، بل إلى جلب المزيد من التطور إلى فكرة مراقليدس عن الدوائر التي تكون مراكزها على محيط أخرى، ثم جاء شخص في القرن الثالث ولعله أبولونيوس فطلع على الناس بفكرة النظام المنسوب إلى "تيخوبراهى[1] " – وهو أن الكواكب تدور حول الشمس والشمس حول الأرض، ولم

(١) تبخوبراهي (١٥٤٦ – ١٦٠١) فلكي دانيمركى ظهر في العصور الوسطى (المترجم)

يقدر لهذه النظرية أن تدوم هي الأخرى. وعدا ذلك فن الفلكيين الآخرين في القرن الثالث الذين ينبغي ذكره، صديق لأرشميدس اسمه كونون الأسكندري، فهو الذي سمي مجموعة النجوم باسم ضفائر برنيقة Coma Berenices على اسم خصلة الشعر التي نذرتها برنيقة من أجل سلامة زوجها بطلميوس الثالث، وهي من مجموعات النجوم القليلة في عالمنا التي لا يرجع الفضل في الكشف عنها البابل. وفي نفس الحين كانت مجموعة من البابليين الذين يبرز بينهم اسم سودينس (sudines) ينقلون ويترجمون إلى الإغريقية واستطاعوا عند القرن الثاني أن يضعوا في متناول الإغريق كثيرة من المواد البابلية بما في ذلك مؤلفات كيديناس.

وكان الاسم العظيم الذي ظهر في القرن الثاني هو هيبارخوس النبع (حوالي ١٤٦ – ١٢٦). وكان معاصره الفلكي سلوقوس، وهو إغريقي من سلوقيا على الخليج الفارسي ومن الشخصيات الدساسة، يدافع عن نظرية أرستار خوس القائلة بمركز العالم حول الشمس ويحاول أن يتلمس لها البراهين. وتناول هيبارخوس بالبحث تلك الدوائر التي تكون مراكزها على محيط أخرى والدوائر اللامركزية والجها خيرة ما عالجها أبوللونيوس، واستنبط ذلك النظام القائل بمركزية الأرض (Geocentric System) الذي نقله فيما بعد كلوديوس بطلميوس وقدر له أن يتسلط على العالم حتى ظهر كوبرنيق [1].وخسر سلوقوس المعركة، وانتهى نظام أبوللونيوس، واستقر العالم وهدأ جانبه إلى النظرية القائلة بأن الشمس والقمر والكواكب تدور حول الأرض. ولكن هيبارخوس أدرك حقيقة حركة الشمس الظاهرية إدراكا صحيحًا، على أنه لم يستطع قط. أن يجد تعليلا القمر. ووجه الأسف في الموضوع هو أنه لو تهيأ إقرار نظرية مركزية الشمس (Heliocepticism) لقضت على التنجيم وأنقذت المال من متاعب لا نهاية لها. وكان الناس يعتقدون أن هيبارخوس هو الذي استكشف نظرية "استقبال نقطتي الاعتدالين"، وكانت تقديراته الحسابية هي التي جعلت نقطة الاعتدالين تتقدم ٣٦ ثانية في السنة (وهي في الحقيقة ٥٠.٣٧٥٧). فأما كونه هو المستكشف الحقيل أو أن المستكشف شخص آخر غيره، فذلك أمر يرجع إلى ما يدعي بعضهم لكيديناس من أسبقية مزعومة (انظر. ما قبله في نفس الفصل). فقد جاء أوان كان فيه أهل الرأي المصريون يميلون – من قبيل المادة. والتوازن – إلى ترجيح كفة كيديناس، ومن المحقق أن ميبارخوس استخدم أنواع الكسوف البابلية المدونة و قدر عظها من المعلومات الأخرى حتى لنكاد لا ندري أين ينتهى دينه ليا بل – وكان عليا

(١) هو الفلكي البولندي كوبرنيكوس (١٤٧٣ – ١٦٤٣) (المترجم)

بأعمال كيديناس، وذلك أنه يقال إن مساجلة صرحًا كشف عنها النقاب تبين أنه أخذ عن كيديناس هـذه المـادة: ٢٥١ دورة قمريـة = ٢٦٩ شـهرًا مـن الأشـهر القمريـة القياسـية مـن الحضـيض إلى الحضيض. [1] ومع ذلك ان تقديره للسنة كان مختلف عن التقدير المنسوب إلى كيديناس، وهو أطول من معدل السنة المدارية أو الفلكية بمقدار ٦ دقائق، ١٤.٣، بيد أن الحقيقة التي وضعوا أسسها، وهي أن السنة لم تكن ٣٦٥ وربع يومًا، قد أهمل استخدامها حتى ظهر القوم الجريجوري. وكان تقدير ميبارخوس لطول معدل الشهر القمري أقل من ثانية واحدة بالضبط، كما أن أرقامه التي وضعها البعد القمر و قطره كانت قريبة جدا من الحقيقة. وقد جعل كتلة الشمس تعادل كتلة الأرض ١.٨٨٠ مرة، وشرع يدرك بعدها الهائل زاعمًا أنه يعادل قطر الأرض ١.٢٤٥ مقابل ١٨٠ التي ارتآها أرستارخوس. ومن المؤسف أن بطلميوس رجع إلى ٦٠٥ وقد استخدم في أرصاده التزييح [2] (اختلاف موقع النجوم) الذي كان معروف من قبل لأرشميدس. وكان أعظم أعماله هو كتالوجه الحاوي على أكثر من ٨٠٥ من النجوم الثابتة. وقد وضعت فيه على أساس خطوط العرض والطول و قسمت إلى ثلاث درجات بحسب اللمعان، وهو كتالوج وسع فيه بطلميوس قليلا كان ذلك الرجل آخر رجال. الفلك العالمين، إلا إذا اعتي بطلميوس أحدهم وقد واجه بالفعل عالة جديدة، هو عالم التنجيم الذي رسخت قدمه من قبل (الفصل العاشر).

على أن هناك اسمًا من القرن الأول ينبغي إدراجه هنا هو بوسيدونيوس لأنه زكن زكنتين لماعتين. فإن بوسيدونيوس جعل قطر الشمس قدر قطر الأرض ٣٩ وربع مرة مقابل ما ارتآه هيبارخوس من أنه ١٢ مرة وما زعمه أرستارخوس من أنه ١٢ وثلث مرة، كما جعل بعدها عن الأرض قدر قطر الأرض ٦ وربع مرة مقابل البعد الذي زعمه هيبارخوس وهو ١.٢٤٥، وذلك يكون على التعاقب، والأرقام الحقيقية. ولكنه حصل على المسافة بأن أخذ عن أرشميدس قطر منار الشمس الظاهري، وأنه يعادل قطر الأرض ١٠،٠٠٠ مرة، بينما كان أرشميدس يوضح لغرض آخر أنه لا بد أن يكون أقل من ١٠،٠٠٠ مرة – وهو مثال حسن على مناهج بوسيدونيوس، ومن سوء الحظ أن بطلميوس زعم لحجم الشمس و كتلتها أرقاما أصغر كثيرة حتى من قلم التي اقترحها أرستارخوس، وظل بطلميوس يعتبر المرجع الثقة المدة قرون كثيرة جدة.

---

[1] وعدة الشهر فيها ٢٧.٥٥٤٥ يومًا وعدة السنة الفلكية ٣٦٥/٥/٤٨/٤٠ يوما (المترجم)

[2] التزييح: هر التغير الظاهري (الذي يقاس بالزوايا في مركز جرم سماوى إذا رصد من نقاط مختلفة). (المترجم)

وكانت الرياضة شديدة الارتباط با لفك، وكثيرا ما كان نفس الرجال يعملون ناشطين في كل من الحلقتين. والراجح أن ما كسبه القرن الثالث في الرياضيات كان في الواقع أعظم كثيرة من أي كسب في أي علم آخر. و كان لا بد من أن نكون الهندسة أساسا كل شي، حيث لم تكن للأرقام رموز نكتب بها، والراجح أن ما اتصفت به الهندسة عند الإغريق من الكمال. كان هو نفسه الذي حال دون اختراعهم علامات للأرقام. ولم يكن إقليدس (حوالى ٣٠٠) رياضية أصيلا، وإن كتب في موضوعات كثيرة، كما أن هندسته المشهورة، لم تكن في الحقيقة إلا كتاب تعليميًا متداولا وحاويًا على. معلومات معروفة من قبل، وإن أحكم إقليدس حبك بعض البراهين وتقويتها، بيد أنه كان رجلا عاقلا، يعتقد كأفلاطون وأرشميدس بضرورة الانتهال من المعرفة من أجلها هي ذاتها كما أنه قال بومة لبطلميوس الأول إنه ليس هناك في طريق ملكي، يوصل إلى الهندسة. واستمر كتابه هو الكتاب المدرسي الهندسة في العالم في أثناء عصور الإغريق والرومان والعرب والقرون الوسطى والعصر الحديث حتى عهد جيل لا يزال على قيد الحياة. و كانت الهندسة عند الإغريق تحتوى على الدوام على أشياء كثيرة تعد اليوم من موضوعات الجبر، ولكن يرى أهل الرأي أن المعادلات الرباعية كانت تستخدم بالفعل في إيجاد القيم العددية في عصر إقليدس، ومع ذلك فإن الخطوة الايجابية نحو التدوين الجبري لم تتخذ حتى جاء ديوفانتوس في القرن الثالث الميلادي، وا لج إراتوستنير الرياضة فيما عالم من مناشط أخرى، وقدم إليه أرشميدس إهداء كتابه " عن المناهج "، وعندما اشترطت الآلهة لإيقاف طاعون حل بديلوس، أن يضاعف حجم هيكل لديها مكعب الشكل، كان إراتوسننيز هو المستكشف الطريقة مضاعفة حجم المكعب، ولعل أبوللونيوس من بيجي وهو من مدرسة إقليدس وأصغر بقليل من أرشميدس، – هو الاسم الثاني في الرياضة البحتة، وإن مؤلفه العظيم في القطاعات المخروطية، الذي أهدى شطره الأخير إلى أتالوس الأول، ليسجل من التقدم في المعرفة ما يظهر أنه لم يترك لن يكون بعده إلا القليل. والراجح أنه هو الذي كان أول من بدأ العمل في حساب المثلثات، وإن كان أول استخدام منظم لحساب المثلثات إنما برجع فيها بعد فهيبارخوس الذي قام (فيما قام به من أعمال أخرى) باستخدام الليث في نقده خريطة إراتوسلنيز.

وأعظم الأسماء طرًا هو أرشميدس السيراقوزى (المتوفى في ٢١٢). وقد كتب مباحث في العديد الجم من الموضوعات، كما أن مجرد سرد قائمة بجهوده وأعماله الفنية شيء بطول: انه عمل فيها عمل من أشياء، حسابا لقيمة النسبة التقريبية: "ط" (وهي النسبة بين محيط الدائرة وقطرها)، وإن استطاع

أبوللونيوس فيما بعد أن يصل إلى نتيجة أدق، واخترع مصطلحات التعبير عن الأرقام إلى أية قيمة عالية يراد الوصول إليها، ووضع أسس حساب التكامل والتفاضل، وأسس علم الهيدروستاتيكا (توازن السوائل) بأكمله.: وقد حفرت على قبره بناء على طلبه (وقد ضاع ذلك القبر معنا حتى هاد شيشرون فاستكشفه لنا ثانية) صورة كرة داخل شكل اسطواني، وذلك كناية عن أنه كان يعتبر البرهان الذي أقامه عن العلاقة بين حجم كرة واسطوانة قائمة الزاوية محيطة بها، أبدع ما أخرج للناس. وكان أيضا أعظم ميكانيكى نظرى ظهر في العالم القديم، ومع أنه كان متفقا في الرأي مع أفلاطون بأن الفيلسوف ينبغي ألا يضع معرفته موضع التجريب العلى، فإن الواقع أن التطبيق العملي الذي أجراه على ما لديه من معرفة هو الذي استولي على خيال الدنيا بأجمعها. وقد أنشأ جهازا يمثل حركة الكواكب السيارة تديره المياه لتمثيل حركات الأجرام السماوية (ولا بد أن الكواكب كانت تحرك باليد)، واخترع رافعة البكرات المركبة ودولاب الرفع لتحريك الأثقال العظيمة، كما اخترع الطنبور المستخدم لنزح الماء من السفن وصرف المياه من الحقول بعد فيضان النيل، وهو لا يزال موجودة في صورة المخاريز الأرشميدية. ولا شك أننا جميعا نعرف ما يروى عنه من حكايات: و كيف أنه كان من شرود الذهن بحيث ينسى أن يتناول طعامه، و كيف حدث يوما أنه استكشف النقل النوعي بملاحظته الماء المزاغ في أثناء دخوله الحمام بجسمه و كيف وثب منه وجرى إلى المنزل عريان وهو يصيح و وجدتها، (**Eureka**) و كيف تمكن عندما نشأت صعوبات في سبيل إنزال سفينة الملك هيرون العظيمة المسماة بالسير اقوزا من إنزال السفينة إلى البحر بنفسه، ثم قال للملك:"اعطني موطئ قدم أقف فيه، أحرك لك الأرض"، وكيف حدث في أثناء حصار سيراتوزة أن عالم الهندسة استطاع بمفرده صد قوة روما بكاملها وأوقعها في ضنك وحرج لمدة ثلاث سنوات بما استحدث من كلابات وخطافات وما أدخل من التحسينات على المجانيق، وهو الرياضي الوحيد الذي أصبح أسطورة على مر التاريخ.

وفيما عدا أرشميدس وحده، يمكن القول بأن فن الميكانيكا العملية (متميزا عن الهندسة) لم يصل إلا إلى القليل، و كان أهم ما بلغه بوجه خاص آلات الحصار ومجانيقه،التي كتبت عنها مقالات منوعة لا زال باقية و كذلك.. اللعب الميكانيكية، فقد كانت الأيدي العاملة رخيصة جدا وبدرجة لا تسوغ الإكثار من التفكير في الآلات، وإن اخترع اكتيسيبوس منجنيقا يدار بالهواء المضغوط، ما اخترع ساعة. مائية واستحدث آخر طاحونة مانية، واخترع اكتيسبيوس الأصغر أرغنا مائية كان يستخدم في

الكنيسة في أوائل عهدها. وصنع أرستارخوس مزواة شمسية محسنة. وكانت مخامر هبرون الإسكندري فكرة ما عن قوة تمدد البخار. ولكن بعضهم يذكر أنه عاش بعد عام ٢٠٠ للميلاد، وإن كان القرن الأول ق.م أرجح الاحتمالين. وكان أتقع الاختراعات ميزان الماء للمساح (الديوبترا) (**Dioptra**) أو ميزان الماء القابل للحمل، الذي حل محل المزري (الثودل) في مسح الأراضي، وأنشأ هيپارخوس شكلا أكثر إتقانًا لآلة نستخدم في الفك، وقد فكر فيها على أساس النماذج البابلية السابقة. وظلت الرياضة قوية، بيد أن اتجاه القرن الأول يتجلى عند الأيقوري زينون الصيداوي الذي هاجم أسس الهندسة ذاتها، ورد عليه بوسيدونيوس مفندة، وتنتهي الفترة بظهور كتاب ضخم في تاريخ الرياضة ألفه جيمينوس تلميذ بوسيدونيوس، وأودعه خلاصة النتائج التي أمكن الحصول عليها.

. أما علم الجغرافيا وجانبه العلمي متميزة عن الجغرافيا الوصفية، فحدث فيه نشاط عظيم ما لبث أن انتعش ثانية في عهد الأنطونيين. وكان استهلاله سلسلة المقاييس التي قام بها قسم المساحة (**Bematista**) التابع للاسكندر و تألف من تلك المقاسات التي ظلت لمدة طويلة أسامة لجغرافية آسيا. وحدث حوالي ٣٠٠ أن المشاء ديكاپارخوس تمكن بفضل المساعدة المالية التي تلقاها من كساندر أو ليسيماخوس من صنع خريطة العالم ومن تقدير ارتفاعات العديد من الجبال اليونانية، كما أنه (فيا يحتل) حسب طول محيط الأرض، مستخدمًا الخط ما بين أسوان و ليسيماخيا أساسًا لذلك وجعله ٣٠٠ر٠٠٠ استاد يوما [1] وهو رقم مبالغ فيه كثيرًا، ولكنه جدير بالذكر والتقدير لأنه أول محاولة. بيد أن الجغرافي العظيم في القرن الثالث ويعد من أعظم من أنتج ذلك القرن من الرجال، هو إراتوستنير من برقة (٢٧٥ – ٢٠٠)، وهو تلميذ لأرستون الرواق الملحد بأتينا، وكان يعمل بالإسكندرية، ولكن كانت له بالأكاديمية صلات وروابط، وقد أوشك أن ينافس أرسطو في عدد ميادين العلم التي بحث فيها. ففضلا عن دراساته في النقد التاريخي و علم تدوين النار، فانه أصدر مؤلفات في الرياضية والفلسفة وصنف تاريخا للكوميديا حل محل تاريخ ليكوفرون، كما كان يكتب الشعر، وكانت كنيته "بيتا **Beta** " (أي رقم اثنين)، ومعنى ذلك أنه لو أجريت قرعة بين رجال العلم الحصل على صوت ثميستو كليس و في كل فرع من فروع العلم. وقد قاس محيط الأرض بأن حسب مقدار كسر قوس خط الزوال الذي يعادل تلك المسافة المعروفة بين الإسكندرية وأسوان وقدرها بمقدار ٢٥٢.٠٠٠ من الاستاديومات، ولكن طول الاستاديوم الذي استخدمه مجهول لنا، ولذا

---

[1] الإسناد يوم مقياس طولى يونانى مقداره حوالى ٦٠٠ قدم. (المترجم)

التحقق من شيء في هذا المضمار أمر لا يمكن الوصول إليه. بيد أن أعظم القدرات احتمالا تجعل قياسه ٢٤.٦٦٢ ميلًا، بين معدل المحيط الحقيقي ٢٤.٨٥٧ ميلا".ومهما يكن مقدار غلطته الفعلية فالواقع أنها نشأت عن عدم إمكانه الحصول على وسيلة لمعرفة ما إذا كانت الإسكندرية وأسوان تقعان بالضبط على نفس خط الطول (وهما في الحقيقة لا تقعان)، ولكن ذلك العمل كان جهدا مدهشًا رائعًا، لم يستطع أحد أن نزيد عليه شيئا حتى الأزمنة الحديثة. وقد جعل مساحة و الأرض المأهولة بالسكان ٨.٩١٠ في ٤.٣٤ ميلا"، يقسمها من حيث خطوط العرض – خط عرض رودس (٣٦)، الذي اعتبره معادلا غلط طوروس – هندوكوش، وقد اقتبس هذا التقسيم الأخير عن تقويم البلدان في إمبراطورية الإسكندر وهو العمل الذي تم قبل وفاة الإسكندر بقليل. ورسم كذلك بعض خطوط طول وعرض معينة.

وقد وجد الإسكندر حلا لمسألة طا حيت أرسطو، وهي مسألة اتصال الهند بإفريقية أو عدم اتصالها، كما أن عقلية إراثوستنير الناقدة الجبارة لم نشك لحظة في أن المحيطات وحدة واحدة مياهها متصلة بعضها ببعض، وأن العالم المأهول " أوروبا – آسيا – إفريقية" إن هو إلا جزيرة واحدة وقد أشار إلى تشابه المد والجزر في المحيطين الهندي والأطلسي، واستنتج. وهو على جانب الصواب أن في الإمكان الإبحار من إسبانيا إلى الهند رأسًا حول إفريقية، وهي رحلة لم تنم فعلا قبل فاسكو داجاما، وإن كان العالم اللغوي قراطيس من ملموس (حوالى ١٩)، في مجادلاته مع العالم بفقه اللغة أريستارخوس حول ما لدي هوميروس من جغرافيا، قد جعل مينيلاوس يقوم بتلك الرحلة، كما أن بوسيدونيوس انتفع بالفكرة في قصة طواف بودوكسوس (الفصل السابع). وكان إراتوستيز أيضا أول من رأى أن الإنسان يمكنه الإبحار غربا من إسبانيا إلى الهند.

لقد كانت له بطريقة ما آراء أضبط من آراء،أي فرد جاء بعده ؟ ولكن نقطة الضعف لديه هي ما كان يعترضه من صعوبات في خطوط الطول واستطاع هيبارخوس بما نتهيأ له من زيادة في المعرفة أن يوجه إلى إراتوستن سهام النقد الخطير من هذه الناحية. وقد دارت خلد هيبارخوس نفسيه تلك الفكرة الممتازة الداعية لتثبيت خطوط العرض و خطوط الطول تثبيتا فلكية عن طريق تعاون مجموعة من المشاهدين في جميع أرجاء العالم، وكان الموقف السياسي بجعل تنفيذ تلك الفكرة مستحيلا، فأما أنها وصلت في النهاية إلى بعض التمار فشي بوي إليه عدد الأماكن التي ذكر طولها وعرضها في كتاب الجغرافيا الأخير الذي ألفه كلوديوس بطلميوس، والذي ظل متسلطة على العالم حتى عهد كولمبس،

وإن كانت إحداثيات النقط التي وضعها بطلميوس فيما يتعلق بمناطق الشرق الأقصى وخطوطها لا تخرج عن الرجم بالغيب.

وبذل بوليبوس جهودًا شاقة ليحول الجغرافيا الإغريقية من بعده إلى النوع الوصفي، باعتبار أن ذلك النوع هو الوحيد النافع المؤرخ. كما أن التقدم الوحيد الذي ظهر في الجغرافيا العلمية بين زمن هيبارخوس والعصر الروماني كان مصدره نوسيدونيوس (الفصل العاشر)، الذي بلغ حب الاستطلاع لديه إلى ما بالأرض من أشياء حدا لا نهاية له، وكتب عن الأرصاد الجوية والظواهر البركانية إلى جوار ما سطر في كتابه الشهير "عن المحيطات"، وهو عنوان مستعار من بيثياس. إنه لم يكن بالعالم ولا الناقد، ولكنه مع ذلك أدى خدمات جليلة للعلم. وإن مجموعته الضخمة من الظواهر البركانية والمائية، التي جمعها ليوضح التغيرات الحادثة بسطح الأرض، لتشهد بمبلغ فكرته عن أهمية الشواهد. وسواء كان تدمير أتلانتس أو هلاك. (مسخ) هليكى من نسج الرطازات أو من حقائق التاريخ، فإن الأمرين كانا عنده بمنزلة سواء، ولكن المهم أنه تعاد عن الأمر كله نظرية نطاق الزلازل الأوربي الأناضولى في مجمله. وقد استخدم بعض فروض عجيبة في حسابه المحيط الأرض، ولسنا نعرف طول الاستاديوم الذي استخدمه، ولكن مهما تكن الحال فإنه جعلي الأرض مصغرًا تصغيرًا شديدة وهو مبتدع فكرة المناطق الخمس الوجودة لدينا الآن، وذلك أن توليبيوس جعلهن ستة، كما جعلها إراتوسثنز سبعة بتقسيمه المنطقة المدارية إلى نطاقين مهدين حارقين ومنطقة استوائية قابلة للسكني بينهما، وهي زكنة [1] مدهشة الجودة حول ما يوجد بالعالم فعلا من النطاقات الصحراوية. وقد اتخذ بوسيدنبوس الظل ساعة الزوال مقياسا، سواء أكان في أثناء الستة بقع في اتجاه واحد أم في اتجاهين متضادين أم في جميع الاتجاهات. ومن حسن الحظ أنه اتبع رأي إراتوسثنين من أن جميع المحيطات وحدة واحدة متصلة، وهو اعتقاد قدر له أن يضيع من يد العالم مرة ثانية بسبب رفض الفلكيين هيبارخوس وسلوقوس له، وقد قام برحلة شهيرة إلى قادسي، حيث درس المد والجزر في المحيط الأطلسي. و كان أرسطو وديكابارخوس يزعمان أن الشمس هي التي تسبب المد والجزر بأن تبعث لها ريحا، و كان الرحالة العظيم جدا بيئياس أول من أظهر أن السبب هو القمر. وعندما أخذ سلوقوس برقبه الخليج الفارسي التشف عدم تساوى المد واختلافه في يوم عن يوم (الحد الأعلى والد الأدنى)، ونسب ذلك كله إلى موقع القمر من منطقة البروج؛ ودفع پوسيدونيوس بملاحظة عدم التساوى هذه

([1]) زكن الأمر زكنا: ظنه ظنًا كان عنده بمنزلة اليقين – كما ورد بمعجم الوسيط. (المترجم)

خطوة أخرى ونسبها إلى أوجة القمر. ولكنه عندما بحث عن مسبب ذلك عاد ثانية إلى نظرية الريح عند أرسطو، وذلك على حين أن سلوقوس كان يظن أن التفاعل بين القمر والأرض كان يثير شكلا منا من الضغط أو التيار، ولعله كان من يتحسس طريقه في الظلام في اتجاه لو سار فيه الناس من بعده، لأدى إلى استكشاف الجاذبية.

على أن رحلة يوسيدونيوس ألقت الضوء على أشياء أخرى عدا المد.والجزر، فإنها أنصت في النهاية إلى استكشاف أمريكا. وقد أشار بعضهم ولعله إراتوستيز، إلى أن المحيط الأطلسي ربما يكون منقسمة بالأرض (أعني امريكا) انقساما طولية، وهي إشارة أوحت إلى سنيكا بنبوءته المشهورة عن استكشاف عالم جديد، ومع ذلك، فان بوسيدو نيو لم يقتصر على رفض هذه الفكرة. بل كان يعتقد نتيجة لتقديره حجم الأرض تقديرًا أصغر من حجمها الحقيقي بكثير، أنه عند خط عرض رودس (٣٦)، يكون "العالم المأهول والذي قدر عرضه بسبعين ألف استاديوم من الشرق إلى الغرب – يعادل نصف محيط الأرض، ولذلك فانه عندما نظر إلى المحيط الأطلسي لاحظ وطبيعي جدا أن يلاحظ – أنه لو أبحر إنسان ٧.٠٠٠ استاديوم غربا لبلغ الهند، حتى إذا أقر: روجر يكون، هذه الملاحظة ونقلها (مشاركا في ذلك آخرين)، كانت هي الأساسي التهاني فيما تولد لدي كولمبس من ثقة. ومن المدن العجيبة التي تحمل معنى الإنصاف للتاريخ أنه أبحر إلى الهند من مدينة قادس التي ذكرها بوسيدونيوس.

أما في الطب. فان الاسمين العظيمين في أوائل القرن الثالث هما هيروفيلوس من خلقدونية وإراستراتوس من إيولبس في كيوس، وقد أسسا مدرستين متنافستين، و كان ويرو فيلوس يعمل بالإسكندرية، وصار اسم مدرسته مقترنة اسمها، وإن غزت آسيا. ولسنا ندري إلا القليل عن حياة إراستراتوس ومكان مزاولته عمله، وذلك لأن القصص التي تدور حوله وبخاصة تلك التي تجعله طبيبة خاصة للوقوس الملك، قصص لا قيمة لها. وكلاهما أحرز تقدمات هامة في التشريح والفسيولوجيا. واستكشف ميوفيلوس الأعصاب وكانت مجهولة قبله، و كان يفهم أنها تمتد من المخ والحبل الشوك، وكان يميز بين المخيخ والمخ، و أنه استكشف أيضا أن الشرايين تحمل الدم، وليس الهواء (أكان مظنونًا قبله). وأنها لا تنبض من تلقاء نفسها بل بفعل القلب، وبذلك يكون قد أوشك عملا على استكشاف الدورة الدموية التي ضاعت من يد الإنسانية مرة ثانية حتى ظهر هارف[1]. ولا يزال بعض

([1]) هو الطبيب الإنجليزى وليم هارف (١٥٧٨ – ١٦٥٧) الذي اكتشف الدورة الدموية. (المترجم)

الأسماء التي أطلقها مستخدما إلى الآن مثل لفظة الاثني عشري(**Duodenum**) وعضلة هيروفيلوس الضاغطة (**Torcular Herophili**) وأدخل إراستراتوس تحسينات على التركيب التشريحي القلب، ولكن استكشافه الرئيسي هو التفريق بين أعصاب الحس وأعصاب الحركة. وما يؤسف له أنه عاد إلى الاعتقاد بأن الشرايين تحمل الهواء. وكان كل من الرجلين يقوم بعمليات جراحية خطيرة ويشرح الجثث. وكان تشريح الحيوانات حية معروفة من قبل عنده أرسطو؛ ولكن كلسوس وهو كاتب متزن مقتدر يذكر قصة رهيبة تقول إن هيروفيلوس كان يشرح المجرمين أحياء حين يساهم إليه بطلميوس الأول (ولم تكن مواد التخدير معروفة)، ويقال مثل ذلك تمامًا عن إراسستراتوس.

ولكن مدرستيها لم نصلا إلى تقدم كبير فوق الذي أحرزه المؤسسان، ولم تلبث أن غطت عليهما أضواء مدرسة ثالثة، في المدرسة التجريبية التي أسسها فيلينوس من كوس أحد تلامذة هيروفيلوس، وهي التي تأثرت فيا محتمل بنزعة التشكك التي رانت على الأكاديمية. لذا يظن بعض الناس أنها أهملت على التشريع وذهبت إلى أن الأمراض قابلة للشفاء دون أدنى ضرورة للمعرفة بالفسيولوجيا. ولكن أبرز من عرف من رجالها وهو هيراقليدس من ازتوم مارس التشريح فعلا، كما أن نركزها على الاهتمام بشئون الطب والعلاج كان له أثر كبير في سبيل دراسة العقاقير، وهنالك شخصية مشوقه هي إسكليبيادس من پروسا ظهرت في القرن الأول، ولم يكن طبيبا مدربا، ولكنه كان يتولى شفاء الأمراض بدون عقاقير وبالتغذية والمشي والتدليك والحمامات الباردة، وحصل من النجاح ما سالك أسطورة حوله تقول بأنه قد رفع إنسانا من بين الموت فأحياه (مثلا فعل إميدر كليس). على أن في الإمكان تتبع الأصل في هذه الأسطورة بصفة قاطعة، وذلك أن كلسوم يقول إنه عرف يوما أن رجلا مل إلى المدافن وهو لا يزال حية. وفي عهد أوغسطس يختتم كلسوس العصر إنشائه دائرة معارف طبية، وهي خلاصة المقدمات التي أحرزت في مضار المعرفة مُنذ عصر أبقراط، وثمائل تاريخ الرياضية الذي أنشأه جيمينس- وعلى مدى الفترة الهللينستية من أولها لآخرها كان للطب القائم على أساس علمي غريمه الذي يقاسمه المرضى وهو الطبيب والتداوي في معا بد أسكليبيوس وسرابيس حيث كان المرضى ينامون في حرم المعبد ويشفيهم الإله عن طريق الأحلام. وتدور حول بعض ألوان الشفاء المدونة حكايات مسلية لا يصدقها العقل، ولكن ما من شك في أن بعض المرضى كانوا يشفون بالإيحاء الذاتي. وفي القرن الأول كان الساحر المتجول منافسًا خطيرًا لكل من الطبيب والكاهن.

ولم يتهيأ لعلمي الحيوان والنبات إلا مرحلة لا تتجاوز مرحلة البداية، وقد كتب ثيوفراستوس

وخليفته إستراتون عن علم الحيوان، ولكن العلم ظل من حيث جوهره واقفا حيث تركه أرسطو، و كل ما تم صنعه هو تعريف العالم الإغريقي بعض أنواع جديدة مختلفة من الحيوان وجعلها مألوفة لديه. فان سلوقوس أرسل بيرًا **Tiger** هنديًا إلى أثينا، كما أن بطلميوس الثاني كانت له حديقة حيوان، تحتوى على الفهود والوشق وغيرها من أنواع القطط فضلا عن ٢٩ أسدة كبيرة، وبها الجاموس الهندي والأفريقي وحمر وحشية من مؤاب ومن الحيات أصلية (بيثون) طولها ٥ قدما وزرافة وخرتيت ودب قطبي (لاشك أن رحلته نحو الجنوب كانت مثيرة جدا)، وبها فوق ذلك الببغاوات والطواويس والدجاج الحبشي، ومن الطيور الدراج و كثير من الطيور الأفريقية الأخرى. و كان حظه علم النبات أحسن قليلا، فان كتاب نيو فراستوسو تاريخ النباتات، الذي كان يضم بين دفتيه نتائج حملة الإسكندر، ظل أمدة طويلا أعلى ما بلغه ذلك العلم، وكل ما أضيف إليه لم يتجاوز معلومات أكثر دقة أضيفت عن بعض النباتات مثل شجرة اللبان العربية والعقاقير. و كانت هناك مكتبة كاملة عن السموم والترياقات، اهتم بها أنالتوس الثالث وميثريداتس يوباتور اهتماما خاصا، وأنشأ أتالتوس حديقة النباتات. العجيبة ليتمكن بها من دراسة ذلك الموضوع، ولكن على النبات لم يحظ بامتداد أبدى العلماء إليه بالتصنيف والتسمية، وإن بذل كرانبوآس طبيميريدانس شيئا من الجهد لتقليل الشك والارتياب الناجم عن الوصف الشفوي بإدخاله طريقة تمثيل النباتات بالرسوم.. ويجب ألا تغالي في تقدير و العلوم و في العصر الهللينستى مهما بلغ من إنارتها لنفوسنا، وذلك لأننا لو تأملنا العلمين اللذين يظهران اليوم بمظهر ضخم عظيم وها الطبيعة (الفوزيقى) والكيمياء، لوجدنا أن الكيمياء (فيا عدا كيمياء الصنعة القديمة) لم تبدأ قط، كما أن علم الطبيعة (الفوز يقي) مات بموت إسراتون الذي استخدم بصورة محدودة النظرية الذرية الديموقريعنوس التي لم تكن في الواقع إلا نظرية الجزيئات). وذلك أن اقتباس أبيقوروس لهذه النظرية ليس له أية صلة بالعلم (الفصل العاشر)، وإن كان بيان لو كريشيوس عن النشوء والارتقاء القائم على فكرة أمبيدوكليس القائلة بأن كثيرا من أشكال الحيوانات السيئة التكيف والملائمة قد بادت من الوجود، فيه ما فيه من نواة لنظرية حقة للنشوء والارتقاء لم يقدر للعلم أن يتناولها بالتنمية. ولم يتقدم الإغريق خطوة واحدة على التي ذكرنا لأنه لم تكن لديه أية أدوات علمية، كما أنه فيا عدا ناحية الجراحة قلما أجرى تجربة واحدة. ذلك أنه السعادة حظه فيا يحتمل، لم يوهب قط موهبة العمل اليدوي بالعدد والآلات. والراجح أنه سار في طريقه بقدر إمكانه دون أن تتاح له بطبيعة الحال الاستعانة بالمرصاد و التلسكوب) ولا المجهر (اليكروسكوب) ولا أنبوبة الاختيار، وقد قال كورتفورد إنه لو قيض للإغريق أرشميدس آخر من أي

نوع فتغلب هم على تحزبهم ضد الصناعات اليدوية والميكانيكية واخترع زجاج النظارات لتغير وجه التاريخ بأكمله، بيد أن أشياء كثيرة منها: منظار نيرون والإشارات إلى العدسات الحارقة وفوق كل شيء (مرآة الإسكندر) على منارة فاروس التي كانت تمكن الناظر من الشاطئ من مشاهدة السفن وراء مجال الرؤية — تشهد بأن خواص العدسة المقعرة كانت على الأقل ملموسة، بيد أن أحدا لم يتابع العمل في هذا الاتجاه، وذلك لأن العقل الإغريقي كان مجبولا على محاولة وضع حلول فكرية لكل شى. على حده. و كانت الريبة التي دأبوا على تقديم الصلوات والقرابين لها في الفلسفة لا العلم، ومن أجل ذلك السبب فاقت الرياضة العلوم الأخرى إلى أبعد حد.

وقد عبر فنًا العمارة وتخطيط المدن عن مرحلة الانتقال من العلم إلى الفنون، وذلك أن فن العمارة الهللينستي كان من بعض الأوجه يجمع بين فن العمارة الإغريقي الأقدم وبين الهندسة. ولعل مولد هذا كان بصورة قاطعة فيها أخرجه فيلون لأول مرة من إنشائه للترسانة و بناء أحواض السفن بأثينا في عهد الإسكندر. فإذا كانت ضخامة المباني التي تشاد تدل على أي شيء، فان مدة القرن (أو نحو ذلك) التي عقبت الإسكندر كانت من أعظم عصور ازدهار العمارة، بما اجتمع فيها من حشود من المدن الجديدة التي كانت كل منها مادات محفظة بالطابع الإغريق تحتوى على مسرح وسرق ودار البلدية (وجمانزيوم) ومعبد واحد على الأقل. وكان مسرح افيوس يتسع لعدد ٢٤.٥٠٠ مشاهد، كما أن قاعة المجلس بميليتوس انت شيئا يمتاز بالفخامة، وقد سبق تا وصف الإسكندرية وبرجامة. كما أن أنطاكية وسلوقية الواقعة على الدجلة كانتا في الحقيقة لانقلان كثيرة في عدد سكانها عن الإسكندرية. و كانت أنطاكية مكونة من أربع مدن متميزة (أو أحياء) مسورة ومحيطه بها سور دائري عام، وكانت ديمترياس (الفصل الثاني) مدينة مزدوجة، إذ كان مناك سور دائري محيطه بديتترياس و اجاساى مما. وقد أدى التقدم العظيم في أجهزة الحصار، الذي يرجع الفضل فيه إلى دباديس مهندس الإسكندر، بل بوجع أكثر من ذلك إلى ديمتريوس – إلى ظهور تحسينات مقابلة لها في أسوار المدن، ولا يزال في إمكاننا حتى الآن تعقب التحصينات الفاخرة التي كانت حول و هراقليا لا تموس، وهي مدينة من الدرجة الثانية، و كانت هذه تحصينات نسير قدما عبر الجبال والخوانق مع أبراج بين كل مسافة وأخرى، و كانت البلدة الصغيرة ميليتابا في سلسلة جبال أويتا [1] محاطة بأسوار لا يستطيع أي سلم أن يرقاها. و كانت المادة الرعية أن السور يسير مع الخط الذي يحد محيط المدينة في

(١) أويتا: سلسلة جبال وعرة في جنوب تساليا بشمال بلاد اليونان. (المترجم)

الأرض المنبسطة ويضم جزء من التل الواقع خلفها، ولم يكن يترك أي راح لتوسع، وهو أمر يفسر لنا لماذا أصبحت أنطاكية مثلا عندما نمت، مجموعة متراصة من المدن تحيط بها أسوار منفصلة. ولم يحدث قط أن مدينة هللينستية تفوقت على سور سيرا قوزة البالغ طوله سبعة عشر ميلا. ويحتمل أن مور الإسكندرية العظيم كان يمتد حولها لمسافة طولها عشرة. أميال. وكان سور إنسيوس أميال ومبليتوس، بيد أن محيطات الأسوار الخارقة للألوف في بعض المدن الأكارنانية التي كان يقصد منها إيواء مكان الريف، ربما افست إيسوي في طولها. ومن البديهي أن الإسكندرية وسلوقية كان يسكن بهما خارج الأسوار عدد ضخم من السكان.

وكان الطابع الميز المدينة الهلينستية هو شوارعها المستطيلة الشكل، التي كانت تقسمها إلى خرط كرقعة الشطرنج، و كان هيبوداموس من ميليتوس قد أدخل ذلك النظام في (مرفأ) بي به في عهد پركلس، ولكنه ما لبث أن أصبح في ذلك العصر شيئا مألوفة. ويقارن بوليبيوس بين المدينة المائينستية وبين معسكر فرقة رومانية، وفي هذه المدينة كانوا يجعلون شارعين رئيسيين تقاطعان متعامدين، ويقسمان المدينة إلى أربعة أحياء، ولها أربعة أبواب، يقوم كل واحد منها عند نهاية الشوارع الرئيسية، ونحن نعرف بسوريا هدنا من هذا الطراز، والراجح أن الإسكندرية وسلوقية وغيرها كانت على ذلك النحو. بيد أن البلدة الوحيدة التي جاء وصفها الباقي إلى اليوم في المراجع الأدبية مطابقة لهذه الصورة هي أنتيجونيا – نيقية في بيثينيا. على أن بعض المدن كانت بطبيعة الحال يتعدل رسمها حسب سطح الأرض: وربما كانت بيرين طرازيًا في تمثيلها للشكل العادي المقام على منحدر أحد التلال. ومع أن نموذج رقعة الشطرنج قد احتفظ به هناك، إلا أن الشارعين الرئيسين كانا يسيران موازيين المحور الطويل، أما مدينة ميليتوس الواقعة على أرض منبسطة فيبدو أن التخطيط بها يقوم على توزيع المباني العامة على أحسن وجه ممكن. وكانت أزمير على شكل حدوة حصان حول تل ومبنية في ثلاث كتل منفصلة، كل منها ذات شوارع مستطيلة الشكل، لكن تنسيقاتها واتجاهاتها مختلفة الأشكال، وهو أمر ربما وضيع عدد الملوك الذين يقال إنهم "بنوها". وكانت سلوقية الواقعة عند سفح جبل بير با قوم في شرفات متدرجة فوق صدر صخرة. أما دينوس فكانت تنمو وتتسع كيفما اتفق. والحق إنه لم يكن لدي القوم تخطيط ثابت للمدن، فكان مهندسو المارة يحصلون على ما يهدفون إليه من توخي الجمال بتكييف الأشياء لغاياتهم، مثال ذلك أن الشارع الرئيسي كان في العادة يؤلف جانبا من السوق، بيد أن الشارع كان يصمم بحيث يؤدى إلى السوق، ولم يكن السوق امتدادا للشارع. وهناك مع ذلك

بعض الدلائل التي نشهد بأن الاتجاهات المرعية في التصميم كانت بحيث نضمن للبيوت في الشتاء الحصول على أكبر قدر من التعرض لأشعة الشمس، وذلك بطبيعة الحال فيها عدا دولة بابلونيا حيث كانت المنازل بمدينة سلوقية تتجه بالطبع نحو الشمال الماسة الهواء.

وبصرف النظر عن الإسكندرية حيث يقال إن عرض الشارع الرئيسي بها كان يبلغ مائة قدم، فان الشوارع لم نبلغ بعد عرض الشوارع الرومانية وفي برجامة كان القانون ينص على أن عرض الشوارع الرئيسية ينبغي أن.. لا يقل عن ٣٣ قدمًا، وكان عرض شارع في بريني يقارب ٢٤ قدمًا، وهو في ماجنيزيا ٢٦ ونصف قدمًا. وكان عرض الشوارع القاطعة حوالي ١٤ إلى ١٥ قدمًا، وإن عرفت شوارع عرضها ١٠ ونصف، وأكبر شاهد على رخص العمال أن مدينة أسوس الصغيرة كانت تقطع الشوارع في صميم الصخر الأصم. وكانت أزمير نفاخر بأنها أول مدينة رصفت شوارعها، بيد أن رصف الشوارع عند الهللينستيين كان نادرة وإن عرفوه، كما أن ميليتوس و أنطاكية والإسكندرية.لم ترصف شوارعها قط. وكان أول من بني البوراكي وهي مجموعة من الأعمدة المسقفة على جانب شارع رئيسي هو هيرودس الأول في أنطاكية، وهذا أبي كان معروفًا وشائعًا في العصور الرومانية. وأبدى القوم عناية عظيمة بموارد المياه، فيعمدون حينا أمكن إلى توجيه الماء إلى أسفل التل بفعل الجاذبية ليجمعوه بأحد المستودعات ثم منه بوزع. وقياسا على بريني، يتبين أن توزيع المياه لكل بيت على انفراد لم يكن إلا عملية نادرة الحدوث. ولكن صهاريج المياه المبنية تحت الأرض بالإسكندرية كانت شيئا آخر، أن القول بأن كل منزل بأنطاكيه كان يزود بالماء ينطبق على فترة متأخرة عن هذه كثيرة. بيد أن العقوبات المفرطة الصرامة التي كانت توقع في برجامة بحكم قانون الصحة العامة بها على تلويث مياه المدينة، لتشهد ظهور اهتمام جديد بالصحة. فإذا كان الحصول على الماء بطريق الانحدار غير ممكن، كان القوم يفهمون الضغط والضخ. وكانت المياه التي تزود بها منطقة التل بر جامة ترفع ضخا طول الميلين الأخيرين داخل أنابيب من المعدن تحت ضغط يعادل ١٨ ضغطًا جويًا. وشاعت الحمامات، وصارت موجودة بكل جمنازيوم جيد الترتيب والإعداد، ويلوح أن برجامة كانت بها دورات مياه عامة، كما أن المجاري النازلة من البيوت كانت بنص القانون واجبة التغطية كما هو الحال بأثينا. بيد أنه يحتمل أن المجاري المكشوفة كانت هي الأصل، كما هو الحال في بريني، حتى بني الرومان المجارى.

وتغير التطبيق الفني الهندسة العمارة شيئا قليلا. فإن العقود والقبو اللذين عرفتهما دولة بابل من

زمن بعيد، فضلا عن القباب ظهرت في أثناء هذه الفترة وزادت في أنواع البناء القديمة المنقولة عن الخشب، ولكنها نادرة لا نلتقي بها إلا بين الحين والحين. ونظهر العقود (البواكى) في برجامة وديديما، بيد أن إنشاء العواضد الذي يحتمه بروز العقد نحو الخارج، بلوح أنه كان شيئًا غريبة تماما على غرار الإغريق. ويقال إن أقبية صارج الماء بالإسكندرية كانت من صنع العرب. و كان تاج العمود الكورنثى بل من الناس إقبالا مطردة وذلك على حساب الأنواع الأقدم منه. وقد وجدت بآسيا أعمدة مجمع تيجانها بين الطرازين الأيوني والكورنثي. وفيما عدا ذلك كانت جميع التجديدات المعمارية مرتبطة بأشكال المباني. و كانت الدور الخاصة لا زال من ذلك الطراز الذي يطل على فتاه أوسط، ولكن أدخلت عليها تحسينات كثيرة وزادت فيها وسائل الترف. وفي القرن الثاني بدأت الأروقة وهي مجموعة من الأعمدة المحيطة بالفناء (**Peristyle**) في الظهور بمدينة ديلوس، وكان لابد من أن يتشكل البناء حسب مواد البناء التي يمكن الحصول عليها، وكان يقال إن الإسكندرية لا يمكن أن ينال منها الحريق لأنه لم يكن بها مبان خشبية في أي مكان منها، على حين أن عدم وجود الرخام بمصر أدى إلى اختراع والتلبيس وهو تكسية الجدران الداخلية بلوحات رقيقة من تلك المادة، هذا إلى أن الجدران انت فلون بألوان تجعلها بشكل الرخام، في حين أنه كانت هناك من الناحية الأخرى مدن مثل ميلاما، حيث كان الرخام المحلى الوفر يستخدم حتى في بناء المنازل الخاصة، وربما حدث أيضا في بعض الأحيان أن ألواح الجدران إحدى الحجرات كانت ترسم بالألوان أو تصور عليها الحدائق أي أروقة ذات أعمدة، بحيث يلوح لك أنك بقاعة مفتحة الفجاج من جميع النواحي. وهناك في صور وأرادوس – التي كانت مواقع مدنها المقامة على الجزر أضيق من أن تسمح بوجود أي متسع جاني من الأرض كانت البيوت ترتفع عدة طوابق إلى أعلى، وربما كان هذا هو الحال بالإسكندرية داخل أسوار المدينة حوالى ١٠٠؛ وذلك لأن المدينة ابتدأت بيوت لا يفصلها عن بعضها بعضا إلا نصف المسافة الفاصلة التي كانت إجبارية بأثينا. والظاهر أن المسافة الفاصلة كان في الإمكان التشييد عليها نظير دفع مبلغ من المال.

وقد يكون من الخير أن بحثت فن العمارة الهللينستي بذكر وصف كي القصر الملكي بالإسكندرية، ولكن شيئا لا يعلم عن ذلك الحي، اللهم إلا أن القصور به كانت تقوم وسط حدائق. ولذا فإنه لابد عن إعمال الخيال التصور مقر بطلميوس ومثواه، لا بوصفه قصرًا شرقيًا، بل كني. إغريقي بحث، أي مجموعة من القاعات والأبهاء المتجاورة وغرف الجلوس اليومي، وربما كان خير ما

يمثل الطراز عوامة فيلوباتور وهي فيلا فخمة مكونة من الأبهاء والمقاصير تحيط بها مجموعة من الأعمدة و مقامة على صندل ضخم. ولابد أن الرخام المستورد كان يستخدم لديهم بسخاء وإسراف. لقد كان العصر عصر أروقة معدة تقام للتجارة خاصة، وكثيرا ما كان الملوك يتبرعون به قامة مثل هذه الأروقة، شأن الأروقة العمدة التي أنشأها أنتيجونس جوناتاس وأتالوس الأول وفيليب الخامس "بديلوس" (الفصل السابع)، وكذلك الرواق الذي شاده أنطيوخوس الأول بميليتوس. وكان الطراز العادي من الأسواق بمحاط بمجاميع أعمدة من جهات ثلاث، على حين تاخم الجهة الرابعة الطريق. وأخذت المدن الكبرى في التفريق بين وظائفها التجارية والسياسية مثلا فرقت بين الأغراض والمهام التجارية والعسكرية للميناء. وأقبلت المدن على محاكاة ميناء الإسكندرية المزدوج حينها سمح وضع الأرض بذلك، والمدينة الهامة هي التي تستطيع أن تغلق أحد مينائها بالسلاسل، وإن جاز أنه ما من مدينة أخرى عدا كيزيكوس، تهيأ لها أن تنافس المزايا العظيمة التي استمتعت بها أتينا من حيث قدرتها على إغلاق جميع موانيها، بيد أن منارة سوستراتوس على جزيرة فاروس بالإسكندرية، وهي التي بنيت بشكل برج من ثلاثة طوابق تدق كلا علت وترتفع ٤٠٠ قدم تقريبًا، كانت شيئًا فريدًا في بابه. وكان الطابق الثالث هو "المصباح"، حيث كانت ثمانية عمدان تحمل قبة تتقد فيها نار الخشب الراتنجي، ويحتمل أن الضوء كانت تقذفه إلى الخارج مرايا مقعرة، و كان بالمنارة معهد يعلو إلى النار، ولعلها هي التي أعطت مهندسي العمارة العربية فكرة الأذن. أما المسرح المدرج فهو وإن لم يكن بالشيء الشائع، إلا أنه على التحقيق يرجع إلى العصور الهلينستية، ذلك أن الهلينستية كانت ذوقها المباني المستديرة، مثل مدرج الفيليون بأوليميا والأرسينيوم بساموراقيا. وهناك باموتراقيا معبد دورى **(Doric)** له قباحنية **(apse)** مدور مثل الذي بكنائس البازليق المسيحية.

وكان عدد المعابد المشيدة عظيمة جدا، وذلك لأنه فضلا عن حاجة المدن: الجديدة إليها كان كثير من المستقرات والهيئات بحاجة كذلك إلى المعابد. بيد أن معيد المرايو بدينوس بشهد بأن هذه المعابد الأخيرة لا بد أنها كانت في الغالب إنتاجًا هزيلا رخيصًا. إذ ليس من المعقول أن ناديا به خمسون عضوًا يستطيع إقامة معبد، إلا أن يكون حقيرة. رفي دورا يورو بوس كانت غرفة ذات صفوف مرفوعة من المقاعد كما هو الحال في المسارح ملحقة بمعد.. أرتميس – ناتابا (قرابه ٣٢ ق.م) وألحقت عرف مماثلة بمعبدين متأخرين وأغلب الظن أن تلك الغرف كانت لغاية تتعلق بالعبادات، ويرى البعض أن الغرض منها هو أداء الرقص المقدس.

وأشهر المعابد العظمى في ذلك الزمن كله معبد السرابيوم العظيم بالإسكندرية، حيث لا يزال عمود روماني يحدد موقع عمود سرابيس، ويليه معبد زيوس الأولمبي بأثينا، الذي أتمه هادريان فضلا عن معبد أبولون بديدها بالقرب من ميليتوس، وهو معبد لم يتم بناؤه في واقع الأمر أبدا. ويقال إن من أروع المعابد جالا معبد أرتميس الملقبة باللوكوفرينية، أي ذات الجبهة الناصعة بماجنيزيا على نهر الميانـدر، وقد صممه هرمو جينيس وتم بناؤه في ١٢٩. أما معبد الأرمسيوم (**Artemision**) با فيسوم، وهو درة العام الدهشة، فلا ق ذكره هنا، وذلك لأنه أصلا من مباني القرن الرابع. غير أنه لا بأس من الإدلاء هنا بوصف موجز لعبد ديديما. يقول إسترابون إن معبد ديد بما هو أعظم المعابد الإغريقية طرًا، ولكن الواقع أن صقلية أحرزت قصب السبق في هذا الشرف، وإليكم أطوال أعظم خمسة من هذه المعابد مقدرة بالأقدام:

معبد زيوس با كمراجاس	١٨٢ × ٣٦٣
" أبولون بمدينة سيلينوس (بصقلية في العهد اليوناني)	١٦٣ × ٣٦٠
" ديديما	١٦٠ × ٣٥٤
" أرتميس بإفيسوس	١٦٤ × ٣٤٢
" زيوس بأثينا	١٣٥ × ٣٥٤

وقد أحرق العيد القديم بديديما في أثناء الثوره الأيونية، وسرعت ميليتوس في بناء المعبد الجديد حوالي ٣٠٠، ولم يكن من الممكن الوصول إلى ديديما إلا عن طريق البحر، وكان الطريق القدس الموصل بين المرفأ والعبد لا تزال قائمة على جانبيه تماثيل المتعبدين الأصلية القديمة، ومن العجيب أن هذه الفكرات التي نقلوها عن طريق الكباش والشوارع التي تحف بها تماثيل أبو الهول بمصر، عادت آنذاك ثانية إلى مصر نقلا عن ديديما. وكان الطريق الموصل إلى معبد سرابيس بمغبس تحف به تماثيل الناجين من الإغريق. وقد جعلت المنطقة الواقعة في حرم السيد على شكل "استاد" به أي ملعب رياضي، ويعتقد بعض أهل العلم أن حلبات السياق كانت تعقد هناك. ذلك أن الألعاب الرياضية، الإغريقية كانت على الدوام جزء من حفل أسامه الأول ديني. و كان المعبد ذا جناحين وعشرة أعمدة، أعنى أنه كان يحيط به صفان من الأعمدة، كما أن عرضه على امتداد الجبهة كان عشرة عواميد، ولم يكن عرض أي معبد آخر ليتجاوز الثمانية. وبدلا من العمودين المعتادين في قبوًا الردهة بين جدران الهيكل (**Cella**)، كان هناك اثنا عشر عمودًا في ثلاث صفوف، في كل منها أربعة

أعمدة، وكان الأثر الذي يحدثه ذلك النظر في الزائر المقرب من المكان هو شعوره بأنه أمام غابة من الأعمدة الأيونية الهيفاء، وهو أمر كان يوحي بوجود قاعة فارسية أو مصرية، وكان المقصود منه تحويل نظره عن حقيقة الأمر بأنه لن يستطيع روية أي ناووس (**Naos**)، وهو الغرفة السقوفة التي كانت تحتوي على المال الذي بالمعبد. وذلك أنه عندما كان يدخل إلى الدهليز، كان ينهض أمامه ستار من الحجر يحجب ناظر به عن مشاهدة أي شيء وراءه وكان بوسطه الباب العظيم و لمقر نزول الوحي، وهو الذي كساه بطلميوس الحادي عشر بالعاج، والذي كانت النبوءات يتم تناولها منه فيما يحتمل. وكان هناك على كلا الجانبين سلم له سقف معقود، فإذا هبط المرء أحدها دخل إلى مكان آخر بديل للناووس، وهو فناء غير مسقوف يهبط عن مستوى البلاط بأربع عشرة قدمًا. وفي الطرف البعيد من المكان توجد المنصورة المقدسة لأبولون الكناخوسي، (رب جزيرة ومدينة كناخوس) الذي حمله معه دارا الأول ورده سلوقوس في ٢٩٥، ولكن الزائر إذ يدير ظهره لأبولون كان يرى أمامه طريق سلم فاخر من ٢٢ درجة، وهو يؤدي به إلى العودة حيث أتي ويصعد به إلى الغرفة القائمة بين الفناء و ومقر تزول الوحي» (**prodromos**)، وكان بأعلى السلم ثلاثة أبواب، اثنان منها يؤديان إلى غرف عليا يحتمل أنها هي الخزائن. وهكذا يتجلى أن معبد ديديما بمختلف اختلافا بين عن الصورة المتداولة عن كل معبد إغريقي آخر. بيد أن القاعدة المحفورة لأعمدته – بل وأكثر من ذلك الأعمدة الاثنا عشر الموجودة في قبوة الردهة (**la anlis**) إنما تدل على أنها ترجع إلى معبد أرتمسيوم با فسوس المقام في القرن السادس، مثلما كان الطريق القدس يرجع إلى عالم أقدم. على حين أن أحد مهندسي العمارة الذين أنشأوا معبد ديديما وهو بابئونيوس، كان من اشتغلوا قبل ذلك في الأرتمسيوم الجديد، ويرجح أنه رغب في تجنب تكرار نفسه. وهكذا أصبح معهد الديديما خليطًا فريدًا في بابه يجمع بين التجديد الجري، والتمسك الواعي بالقديم.

وقد غير الفن من صفاته وخصائصه بظهور الروح الهللينستية. فذهب التقيد الكلاسيكي، ولم تعد هناك حدود ولا قيود، الحقبة الهلينستية زمان يؤمن بضرورة تجريب الأشياء جميعا وارتياد طرق عديدة جديدة. وتتجلى جميع ميول العصر و زمانه فيها خلف من حائت: فنها إعوازه وحاجته إلى الراحة والاطمئنان، إذ الحق أن ذلك العصر لم يذق إلا القليل من الراحة، ومنها الوعي الذاتي الذي تعبر عنه النزعان المصطنعة والروح المسرحية التي تركت طابعها بيرجامة، ومنها النزعة الرومانتيكة والنزعة الواقعية التي قد تصل إلى حد القبح، ثم إن النزعة الفردية ننفذ روح قوية في انبثق فيأتمن!

كباب على صنع تماثيل الأشخاص، كما تظهر روح الأخوة بين الكائنات البشرية في تمثيل القوم العمال المسنين، مثل التمثالين المدهشين للراعية العجوز والصياد الشيخ الموجودين بسراي الكونسرفاتورى روما. وتذكرنا إلهة الحظ بأنطاكية بأن الحظ كان هو المعبود التقليدي في القرن الثالث، وذلك مثلما كان ظهور إيزيس ربة ديلوس مؤذنة بظهور العام الجديد في القرن الأول ق.م. ويتمثل "الكفاح" كمعبود فها هو مصور في أفاريز الجدران برجامة، ويمجد النصر في صورة "نصر ساموراكى"، بشكل لم يحدث من قبل ذلك ولا من بعده. ومن حسن الحظ أن كل عمارة للتعبير عن شيء بطريقة مغايرة لطريقة فيدياس أو براكسيتيلبس لم يعد يذم ارتجالا دون تردد، ولم يعد هناك من ذاع لأن حس أي إنسان بشعور الأم إعجابه بعض الأعمال الهللينستية الفتية. وأخيرًا أخذ التدهور بدب إلى ذلك الإنتاج الفني. وإن أشياء من أمثال أشكال الإسكندرية الغريبة وتحقير إيروس وتحويله إلى كيوبيد، والانتقال في مذاهب الشعر من أصالة ثيوقريطس إلى شعر والطبيعة المصطنعة الذي تمثله الرعويات في النقوش الغائرة، والتماثيل من أمثال اللاءوكون[1] الذي كان موضع الإعجاب فيها سلف من الزمان، لتشهد كلها بميول واتجاهات كانت تعمل عملها. وما لبثت النزعة المالية أن أخذت تضمحل شيئا فشيئا، وبدأ الإلمام يستمد لا من روح الفنان، بل من الماضي. ولكن رغم ذلك كله لم نضمحل المهارة الفنية أبدًا حتى أصبح النحت في النهاية صناعة للإيجار، كما أن استمرار حب الجمال يُمكن الاستدلال عليه من أن أفروديت ميلوس (المياة فينوس ميلر) أفروديت الملقبة "أنادبوميني[2]" ومن برقة قد نسبتا كلتاهما إلى الشطر المتأخر من القرن الثاني.

وقد بذل العلماء جهودا ضخمة في سبيل بحث ميول تلك القرون الثلاثة ودراسة نزعاتها، فمنهم من تعقب بأبحاثه المدارس المحلية، و منهم من قسم العصر إلى فترات دون تنظر إلى ناحية المكان، ووضع لها أسماء تحوي مصطلحات فن أجنبي مثل البرق **Baroque** والريكو كو، وربما جاز لمن ليس بخير في الفنون أن يظهر شيئا من التشكل إزاء و علم النقد و الذي نجح إبان السنوات القليلة الأخيرة في نسبة تمثال النصر بساموتراكي إلى أوقات كثيرة ومختلفة في الفترة ما بين ٣٢٢ و ٣١، معددا في ذلك تواريخ هي في نظر المؤرخ سخيفًا سخفًا واضحًا. فأما أن فن النحت كان قوة حية، فيتجلى من

(١) تمثال الكاهن أبولون البيران من أهل طروادة، وهو الذي حاول عينة أن بصرف الطروادين عن مع الحصان الأدبي الذي تركه اليونان على الشاطئ إلى مدينتهم والمثال موجود بالفاتيكان. (المترجم)

(٢) آمادبو بيخي: في تشي لأفروديتي قام به أبليس سورت الإلهة وهي خارجة من البحر. واشتهرت الصورة في العالم القديم بذلك اللقب. (المترجم)

الإنتاج الهائل ومن الأمان التي كانت تدفع أحيانا، وإن كان ما يقارب نصف تالنت هو الثمن المعتاد لتمثال من النوع الجيد، ويقال إن أثالوس الثاني دفع مرة مائة تالنت في أحد التماثيل، ووجد فيليب الخامس التي تمثال قرب ثرموم وأخذ الرومان عددا ضخمة جدا من أمبراكيا، وكلاهما مكان لم يكن بالتحقيق من المراكز الفنية. وإن المقادير الوفية من الأعمال الهلينستية التي لا تزال معروفة ومشهورة، سواء كانت في صورها الأصلية وجذاذاتها المحطمة ونسخها المنقولة كل ذلك لا علاقة له ألبتة بما كان موجودة بوما ما به؛ وذلك لأن هذا كان عمر إقامة التماثيل من قبل التكريم والتماثيل للوفاء بالنذور. وكانت كل مدينة إغريقية تقيم منها أعدادا جمة، منها ما هو جيد. الصنع دون أدنى ريب. بيد أن العائلات المعروفة من المثالين المتوارثين الصنعة توضيح الانتقال التدريجي من الفن إلى الاحتراف.

وجاءت الخطوة النهائية بعد الفتوح الرومانية، عندما كان النهب الذي بأنه رجل مثل موميوس أو فريس بشير في روما تذوقًا هائلا للتماثيل الإغريقية بغير تمييز، وذلك مثلما بنشى" رجل عصاى لنفسه مكتبة. وقد كان السبب في بعث النشاط التجاري بأثينا بعد ١٤٦ راجعًا إلى رغبتها في إشباع حاجة روما من هذه الناحية بتزويدها بأعمال فنية أصلية مؤسسة على تماثيل قديمًا والنماذج الجيدة، وعندئذ أخذن مدن أخرى تقلدها، وخير ما بهذا النوع من أشياء يمكن مشاهدته في تمثال هرقل الفارنيسي ذي العضلات البارزة وتمثال أبو گون بلفيدير المبالغ في رشاقته. وأخيرا عمدت شركة رومانية هي شركة الكوسونيين إلى إنشاء فروع لها بكل أرجاء بلاد الإغريق حينها وجدت إلى نحائت الرخام سبيلا، وكلفت الإغريق بصنع التماثيل بالجملة وتوريدها للسوق الرومانية. وهكذا كان النحت في بدايته عقيدة ودينا تم انتهى سلعة وتجارة.

وكان هناك فيها يظهر مدرسة بالإسكندرية، وإن كانت قبل كل شيء مركزا للتجميع، على أن ما وجد بمصر حتي آنذاك من الإنتاج كان عملا من الدرجة الثانية في أغلبه، كما أن النقوش البارزة على القبور بالإسكندرية لانكاد تصل حتى إلى ذلك المستوى، إلا في أثناء فترة الجيل الواحد الذي غادر فيه أثينا الفنانون الأبنيون ونزحوا إلى الإسكندرية، لأن تحريم ديمتريوس الفاليري لنقوش القبور، قد أفسد عليهم مورد رزقهم. وفي مصر نشأت مادة إضافة شعر للتماثيل عن طريق الطلاء بالجبس. وظل تأثير يراكسيتيليس عظيما ولم يقتصر على الإسكندرية وحدها، كما أن منريقته في ملاسة تكوين البشرة قد بلغ فيها. والتمثال الجميل لأفروديت من برقة خير مثال على ذلك الطراز الذي كان في بعض الأحيان بمثل عملا" يغلب عليه طابع التراخي والإهمال. على أن قوة الإسكندرية الحقة إنما

تجلى في الفنون الصغرى، ولعلها اخترعت الفسيفساء والحفر البارز على الجواهر، ومن العجب أنه رغم أن النزعة المثالية كانت سيئة الحظ في الفن الإسكندري، فإن المدينة كانت تحتوى على محمل واحد امتاز بقوة مثاليته، هو تمثال عبادة سرابيس. وربما كان هذا التمثال من صنع رباكسبس تلميذ إسكوباس، مهما يكن المكان الذي أحضره منه بطلميوس الأول، كان مطلية باللون الأزرق الداكن، وكانت بمحاجر العينين جوهرتان لكي تلتمعا في ظلمات المعبد المعتم من داخل الناووس المضاء وسط زخرفة بالغة، ويوصف الوجه بأنه رادع جليل غامض، كما يتناسب مع رب العالم السفلى، وكان على الرأس صراع (**Modias**) أي مكيال للقمح رمزًا إلى مصر، ذلك البيدر العظيم.

وظل تأثير ليسيبوس حيًا برودس، حيث رأى تلميذه خاريس من أهل لندوس أن يخلد مقاومة رودس لديمتريوس في ٣٠٤، فنحت ذلك التمثال الهائل الجبار للشمس الذي كان إحدى أعاجيب الدنيا، وقد دمره زلزال عام ٢٢٥، وليس هناك أي شيء يدل على شكله. وكانت المدرسة الرودسية مدرسة غنية أخرجت تماثيل رجال رياضيين ونساء ملتفعات بالثياب بعناية، فإن التمثال الشهير للغلام المتعبد ببرلين والتمثال الذي يطلقون عليه اسم الحاكم الهلينستى بنابولى ربما كانا مثالين على أزهى عصورها، وحتى في القرن الأول نفسه بوم أن انحطت تلك المدرسة إلى مستوى تلك الأشكال المعذبة في تمثال اللاءوكون وجماعات الثيران بفارنبسى، ظل تبريزها الفني رائعة. ولكن أقوى أعمال مدرسة ليسيبوس أثرًا، هو التمثال الشهير لإلهة الحظ بأنطاكية وهو الذي صنمه لتلك المدينة تلميذه يونيخيديس، وهو يمثل امرأة رشيقة ساحرة على وجهها سبا التفكر والحزن، جالسة على جبلها وأورونتيس (نهر العاصي) الإله النهر، جالس عند قدميها، وهي ملففة لفا كاملا بالثياب، وعلى رأسها تاج ذو أبراج ظل مُنذ ذلك الحين العلامة الشائعة الدالة على ربة المدينة، وتمسك خوصة أو غصن نخيل في يدها. ولو قنا كما يقول برون (**Bruna**) إنه يعوزها وقار الربات القديمات وصرامتهن، لكان ذلك من سقط القول. وذلك لأنها لم تكن ربة، (وإن أصبحت كذلك فيما بعد. إنها كانت التشخيص المائل المميز المجموعة أفراد من الرجال والنساء، كناية عن أنطاكية نفسها (الفصل العاشر). وقد نقلت هذا الطراز مدائن لإعداد لها بكل أرجاء آسيا، قاصيها ودانيها مع إدخال تغييرات كثيرة عليه لتواءم والظروف المحلية.

أما مدرسة برجامة، ان تاريخها الباكر ليست له أهمية فنية. والفن البرجامى العظيم الذي بعث فيه تأثير إسكوباس من جديد يرجع إلى النصرين اللذين أحرزها أتالتوس الأول على الغاليين (قبل

٢٣٠)، وهناك بعض نسخ رخامية لعلها معاصرة له، لا تزال موجودة وتمثل أشخاصًا غاليين أخذت أشكالهم عن الأثر التذكاري الذي أقامه تخليدًا للنصر، وخير ما فيها هو النحينة التي تمثل "الغالي المحتضر" في الكابنول والتي خلدها الشاعر اللورد بيرون بقصيدته و المجال المحتضر، ومجموعة الغالي الذي قتل زوجته ثم طعن نفسه. فهذه القطع تلى تقديرًا عظيمة، فلقد أتيح لفنا في ذلك الأثر التذكارى نوع جديد من الواقعية، فتمكنوا من إظهار الطراز العجيب للبرابرة و التقاطيع الخشنة الوعرة لسحنتهم، وهم قوم لا يهابون الموت ويضيقون صدرًا بالهزيمة لقد أدركوا من الروح الكلية قدرة أكبر مما أدركه رجال الأدب في أي عصر من العصور. والمرحلة الثانية في هذا الفن تظهر في الإفريز الضخم لهيكل زيوس في بيرجامة، وهو إفريز برى طوله على أربعمائة قدم، وهو يكشف عن قدر هائل من العلم وبمثل معركة الآلهة ضد الجبابرة (Titans). ان الأشكال الغريبة لكل ما أقلته البسيطة من أشياء، تلك الأشكال التي ينتهي بعضها بثعابين، والمواقف والأحداث العديدة الكثيرة لكل شكل من أشكال النزاع، ومنها ما هو رهيب ومنها ما هو مسرحي، والاضطراب والحركة الضاريان اللذان يعان الوضع بأجمعه، –كل أولئك ليس كمثلها شيء في الفن الإغريقي ومهما يكمن وراء ذلك الإفريز من أغراض أخرى، فلابد أنه كان قوى عبر عنها الطرفان بنفس الألفاظ. كان الطرفان يطلبان الحرية السياسة ولكن. الإغريقي كان يري الحرية غاية، وسيلة التعبير عنها في المجتمع الحر الذي يحكم نفسه والذي يصوغ قوانينه ويعبد الآلهة التي ترضيه، بينما كانت الحرية لدي: اليهودي وسيلة، تمنع كلن ندخل في إخلاصه لشريعة سماوية منزلة لا يستطيع. بشر أن يغيرها، وفى تعلقه برب لا يمكن أن يكون معه معبود آخر. وكان كل من الطرفين يمتدح الحكمة. ولكن اليوناني كان يرى في الحكمة شيئا. ينمو بكد كثير من العقول، على حين أن الحكمة كانت لدى اليهودى مخافة الله، وهى شى. لا يتغير إلى أبد الآبدين.. و كانت المقيدة اليهودية في القرن. الأول ذات رضع مجيب، نهى من ناحية نظام يرفض نقل الأفكار الإغريقية، في حين أنه يفتح بابه على مصراعيه القبلي مؤثرات الشرق الأقل منه مغلة بدرجة متناهية:–كعلم التنجيم وعلم من الشياطين و السحر. ذلك أنها كانت نأمل أن تحصل بفضل هذه الأمور على خدام يخدمن روحها، على حين أن الروح الإغريقية لم يكن في الإمكان أن تكون خادما لأحد. ولكن لن تنازعت المثل العليا عند اليهودي والإغريقي، فإن العالم كان مقدرة له أن يحتاج إليهما كليها. لذا كان من المصلحة عندما كانت الأفكار الإغريقية تغمر الشرق غمرا، أن يبرز لها اليهودى مناضلا مقاتلا.

ولكن هناك ناحية واحدة كان اليهود فيها خبرة موازية لخبرة الإغريق.. ذلك أنه كما أن الاضمحلال السياسي لدولة المدينة المتمتعة الحكم الذاتي بعد عهد الإسكندر جعل الروح الفردية أمرا محتوما لدى الإغريقي، ان تدميز. الدولة القومية القديمة ودولة المعبد قد يجعل تلك الروح الفردية شيئا حتميا بالنسبة لليهود. وانتهى الأمر بأن استعيض عن فكرة المستقبل الزاهر المبارك لإسرائيل وحل محلها فكرة المستقبل الزاهر المبارك بالنسبة للإسرائيلي.وكا أن الإغريق كانت عنده مذاهبه وقضاياه في الفردية وشمول الخلاص للبشر جميعًا كذلك كان شأن اليهودي، وإن كان هذا في اتجاهات أخرى: فهل يتفضل يهوه فيبسط ظلال الأمل في ذلك المستقبل المبارك على البشرية كلها ؟ وهل كتب للبشر حقا أن يكونوا إخوة، لا في هذا العالم كما كان يأمل الرواقيون) ولكن في النهاية على كل حال ؟ وفي القرن الثاني استقرت لدى دوائر يهودية أما بلاد الإغريق الرئيسية، حيث كانت السيادة الشعوب غير فنية، هي الآخيون والأيطوليون، فقلما جاء منها شيء من الإنتاج خصب الخيال بيد أن محاولة داموفون (القرن الثاني) كانت شائقة بما أنه من مجموعة حالة الضخامة. التماثيل دسبوينا و كورا ببلدة ليقوسورا (**Lycosuta**) بأركاديا، التي أنشأها ابتغاء إعادة السكينة الممزقة للآلهة القدان إلى نصابها. ومع ذلك فان الصور التي عملها ليسيوس للاسكندر كانت حافزة هائلا لصناعة الصور لم يلبث أن عم وانتشر من بلاد الإغريق الأصلية نحو الخارج. وتمتاز صورة دموسئنيز الشهيرة التي رسمها پوليوكتس (حوالى ٢٨٠) بالجودة والإتقان، والتخمين اليوم يلعب دورا كبيرا في تخيل العدد العظيم من رءوس الصور الموجودة الآن، ومنها ما هو رائع أخاذ. ولكن ينبغي لنا أن نرجع إلى العملة لكي ندرك ما أمكن القوم عمله، حيث يوجد بين القدر الكبير من الأنواع التقليدية منها بعض الجيد الممتاز حقة، مثل تلك القطع من عملة ليسيماخوس الحاملة رأس الإسكندر الجميلة ذات الحية المثالية، ونرى ذلك السر الفني، الذي بلغ الثروة العالية في فن صنع الصور عند الإغريق، وهو الذي تجلى في رءوس ملوك باكتريا على عهد الإغريق. ولدينا فضلا عن العملة، الشيء الكثير من النقش الأرز. بيد أن المجموعة الضخمة التي جمعها شرير من النقوش الهلينستية البارزة لا تمت إلى الهلينستية إلا بأضعف الصلات. وهناك مجموعة بالغة الجمال من أقدم النقوش البارزة، وهي ملونة تضمنتها تلك المرسومة على نا و وس صيدا، ونصور محركة للاسكندر ورحلة قام فيها بصيد الأسود. ويتكاتف النحت والتصوير بالألوان مع النقش البارز ويتبادل كل منهما التأثير في الآخرين، ففضلا عن النقوش البارزة للقبور وهي ملونة بأكملها، توجد شواهد قبور أخرى مصورة بالألوان فقط.

وشـواهد القبـور هـذه هـي التصـاوير الهللينسـتية الملونـة الوحيـدة الموجـودة إلى اليـوم في صـورتها الأصلية – وخير أمثلتها ما وجد في باجاساي وإن كان من الدرجة الثانية، وذلك لأن تلوين الزهريات كان قد انتهى عهده. وتدل الشهرة التي بلغها كبار الأساتذة على أن الإغريق كانوا يقدرون نصوره حق قدره وينزلونه نفس منزلة أعمال النحت عنده، على أن حالته وهو في أوجه، لا يكاد أحد أن يصل إليها إلا التخمين، وذلك لأن الصور ذات الحجم الصغير قد فنيت ولم يبق شيء من التصوير التاريخى لا بيللس وعصره، اللهم إلا بضع ملاحظات أدبة و نسخة واحدة هي فسيفساء تمثل مهر كه خاضها الإسكندر. وكل ما بقي لدينا هو زخرفة جدران، وهي فن هللينستى في جوهره، فيما عدا قير أو اثنين، فإنها لا تمثل إلا في مدينة بومبياى[1]، التي تنهل الفترة الأولى بها من الإسكندرية نقلا و تقليدا. ولكن بومبياى بندر مع ذلك أن تزودنا بنسخ من التصاوير، إذ أن الكثير منها صنعه تجارية، منقوة في حد ذاتها من نسخ تجارية رخيصة ونديركلها حول موضوعات رطازية (ميثولوجية) ورسومات ممسوخة مضحكة وتصاوير عديمة الحيوية لكيوبيد. وهناك قطع رشيقة صغيرة من الأزهار ومناظر طبيعية، ولكنها لا تدل على فن عظيم إلا مقدار ما ندل المختارات الشعرية الإغريقية (reek Anthologyا) على الشعر الرفيع. ويلوح أن في الإمكان تعقب الكيفية التي تهيأ بها للصورة الملونة أن تخلص نفسها بالتدريج من صلاتها بأعمال النحت في أثناء القرن الرابع – ولعل ذلك هو العمل الحقيقي الذي قدمه التصوير الهلينستى – وكيف أنه ترتب على ذلك ظهور المعرفة بالمنظور وبالمناظر الطبيعية. على أن الإغريقي وإن كان يحب الشمس والهواء، إلا أن شعره لا ينم عن أي مشاعر قرية نحو الناظر الطبيعية، فالمناظر الطبيعية التي عثر عليها في بومبياى تقليدية وخالية من كل روح. كما أن الراجح أن تصوير النظر الطبيعي بالألوان لم يكن ألبتة ليزيد عن خلفية وراء الأشخاص.

على أن في يوميا مع ذلك مجموعتين من الصور تبرزان بمفردها عن الصور جميعا، وفي الإمكان النظر إليهما باعتبار مالهما من قيمة و ليس بوصفهما تحفا أثرية. وأولاها هي المجموعة الجميلة من النساء في أقصى اليمين من المنظر الطويل الشعيرة ديونيسوس (أورطازته) الموجودة في نيلا (إيتم) التي يريه يقول أنها ترجع دون ريب إلى أحد التصاوير الجمعية العظيمة، وثانيهما وهي أكبرها شأنا أو نكاد، هي التقارير الجصية (Fresco) على جدران فيلا بوسكوريالي، التي تقدم إلينا تقارير لأشخاص، لم يعرف لها مثيل إلا في صناديق المومياءات الرائعة بالفيوم. ويسود الاعتقاد بأن هذه

([1]) بومبياى: مدينة طالية غمرها حمم بركان فيزوف فحفظ مبانيها وصورها. (المترجم)

التصاوير الجصية نسخ أصيلة (القرن الأول لأعمال ممتازة ظهرت في بواكير القرن الثالث، تمثل أفراد عائلـة ديمتريـوس الأول، ولا صـلات ترجـع بهـا إلى مدرسـة ليسـيبوس.. وإن الشـكل المشمشـي للفيلسوف، برأسه الفخم ولحيته البيضاء الدولية –. وهي صورة مما أبيعه فن التصوير لا النحت – قد يكون الشخص مثل يوحنا المعمدان وقد كبرت سنه. وإن نظرة التأمل الحزينة في عيني المرأة المسماة يوريديكى ليس من السهل نسيانها. وفوق كل شيء، حتي النسخة نفسها تحمل إلى رائيها الإشارة إلى أن هؤلاء كانوا في الحقيقة من عظام الرجال والنساء.

والفن الذي نشاهده في معبد ديديما تطور إغريقي بحت، وذلك فيما عدا بعض مؤثرات أخرى أثرت فيه. إذ حدث بعض التفاعل بين الفنين الإغريقي والشرقي في أثناء هذا العصر، بيد أن هذه المسألة العويصة في بالضرورة من اختصاص الخبراء، كما أن معظم ما لدينا من مادة متمثلة في فن العمارة السوري والتصاوير الملونة المأخوذ من دور أو مدرسة النحت الهامة بجندهارا بالهند والجبانة التي عثر عليها بكوم الشقافة بمصر – كل هذه المواد تنتسب إلى عصر الإمبراطورية الرومانية، سواء امتدت جذورها على أي حال إلى الفترة الهلينستية أو لم تمتد، والنحات الموجودة بأثر أنطيوخوس الأول في كوماجيني (الفصل الرابع) تمثل قطاع الحجر المحليين وم يقلدون العمل الإغريق المتأخر. وهناك الأطلال الضخمة لمعقل طوباس قرب «أراك الأمير و قرب بلدة حشبون (القرن الثاني) ويتجلى فيها (سواء كانت معبدة أو قلعة) مبنى إغريقي أضيفت إليه بعض الاقتباسات من العمارة الفارسية والفينيقية. ولا شك أن القبر النبطي لحمراث بالسويداء بإقليم حوران (حوالي ٨٥ – ٦٠) إنما هو إغريقي. أينما و بيد أن العبد النبطي العظيم لبعل شامن في سي (si) بإقليم حوران (حوالى٣٣) لابد وفيه إلا القليل من أثر الإغريق، اللهم إلا بعض النقوش وشيئا من تأثير العمود الكورنثي؛ وهو تأثير يمكن تعقبه في ترتيب خوص النخيل على تيجان أعمدة المعابد المصرية (البطلمية) عند إدفو وإسنا. وتتم بعض لوحات شواهد القبور بالإسكندرية عن مؤثران مصرية. وقد حدث في أثناء القرن الأول أن دبت الحياة من جديد في فن النحت المصري القوى وأخذ ينتج التصاوير متأثرة بالمؤثرات الإغريقية. ولكن أشد ما يبعث على الدهشة قبر الموظف المصري (الكامن) بيتوسيبس الذي استكشف بالقرب من تل العمارنة في ظاهر ملوى عند (تونة الجبل) فى١٩٢٠ إن كان ينتسب فعلا إلى تلك الفترة. وهو يماثل أحمد القبور الإغريقية المبنية على شكل معبد لتخليد ذكرى الأبطال (Heroon)وإن كانت المارة به مصرية و موضوعات النقوش البارزة

مصرية بحتة، ولكن الأثر الإغريقي في الإخراج والتنفيذ قوي، وخاصة في التضحية من أجل البطل وفي النساء الناديات. على أن النساء والفلاحين يلبسون أيضًا الأزياء اليونانية: أن الفنان الذي يعرف شيئا عن المنظور، حاول أن يدخل النزعة الواقعية الإغريقية في الاتجاهات والمواقف. غير أن مزج العناصر الهللينسينية والآسيوية بعضها ببعض على الصورة التي تتجلى فيا تبقى لدينا من الفن البارثي ثم المؤثرات التي نقلت في النهاية الموضوعات الإغريقية إلى الهند وعبر أواسط آسيا، تخرج عن مجال هذا الكتاب.

ولا بد أن يظل هذا الفصل ناقصا غير مكتمل؛ وذلك لأنه لا يمكن ذكر شي فيه عن الموسيقى الهلينستية. إلا أنها كانت تلعب دورا كبيرا كالذي تلعبه اليوم. وإن نذرتها والمرة بها لم يكونوا قادرين على المتعلمين وحدهم. وقد أمكن استرجاع أنغام نشيدين من دلفى كتبا على زمن إيقاع الخمسة، وكان أحدها جيلا جدا، بيد أن موسيقى الإغريق عالم مفقود، ليس فقط لأنها بادت وذهبت، بل لأنها لو بقيت لنا إلى اليوم لكان عدد من يفهمونها قليلا. وذلك لأن الموسيقى الإغريقية كانت تقوم على استخدام مسافات بين النغمات أدق من أنصاف المقامات.

الفصل العاشر

الفلسفة والدين

كانت فلسفة العالم الهللينستي هي الفلسفة الروائية، وكان كل ما عداها من فلسفات بعد في المرتبة الثانية. وجملة القول، أن كل ما تراه إذا نحن أرجعنا البصر كرة إلى تلك القرون الثلاثة، هو أن مدرسة أرسطو تفقد كل أهمية لها، أن فلسفة أفلاطون أصبحت تعيش على هامش الفلسفة الرواقية أمد قرن ونصف، بمعنى أن حياتها كمدرسة للتشكل تقوم بأجمعها على مصارعة الذهب الرواقي، واستمرت مدرسة أبيقور في سبيلها بداخلها تغيير، بيد أنها لم تكن نتجتذب إليها سوى الأقليات الصغيرة. ولكن المذهب الرواق، الذي وضع تحت حمايته في الحين نفسه الديانة بشعبتيها الشعبية والنجمية، وأشكالا كثيرة للخرافات، لم يلبث في النهاية أن كبح مذهب النشل، ولو لم يكن ذلك في الواقع من حيث المسائل الجدلية. وضم إلى نفسه القدر الكافي من أفلاطونية مبتعثة ليكون ذلك المذهب الرواق المعدل،أي مذهب الفلسفة الانتقائية (**Eclecticism**) وهو الفلسفة التي تميز عصر الإمبراطورية الرومانية الأولى.

وكانت أثينا هي مركز الفلاسفة إبان الفترة بأكملها، وإن حدث فيا بعد أن رواقين عظيمين ظهر فعلا بجزيرة رودس. فيمد ٣١٧ بعهد قضي حصل ديمتريوس من أمل اليوم الثيوفراستوس الأجنبي خليفة أرسطو على الحق في تملك الأرض وتمويل مدرسة أرسطو، (وهي مدرسة المشائين)، إلى مؤسسة بنظمها القانون شأنها شأن أكاديمية أفلاطون. وفي ٣٠٦ وفد أبيقور الأثيني قادمة من لا مهساكوس وأقام مدرسته في حديقته، وحضر زينون إلى أثينا في ٣١٧ وأخذ يعلم الناس في السقيفة العمدة الملونة أي الرواق في ٣٠٢. وشهدت بواكير القرن الثالث المدارس الأربعة جميعا وهى الجامعان الكبيرة تعمل جنبا إلى جنبا ومر بمدرسة أرسطو أمد وجز من القوة والمجد من ٣١٧ فصاعدا، وحباها الإسكندر بعطفه. وكان ثيوفراستوس هو الذي أوحى بالقوانين التي أصدرها ديمتريوس الفاليري، كما أن ديمتريوس نفسه راح بعد سقوطه يساعد بطلميوس الأول على تأسيس الأكاديمية. وكان ثيوفراستوس رجلا متعدد الجوانب في نشاطه واسع المعرفة. على أن المدرسة ما لبثت بعد وفاة خلفه إستراثون أن نبذت جانبا مبدأ مؤسسها من البحث عن المعرفة النظرية. وما كاد القرن الثالث ينتصف

حتى انتهى كل عمل لها، لقد أدت خدمات جليلة للعلم بقدر ما أساءت إلى التاريخ كثيرة. ولكنها لم تفعل العالم شيئا أكثر من أنها أسهمت ببعض العناصر في الفلسفة الانتقائية، وكانت كارسطو تقسمه أجنبية عن أثينا اكانت على الجملة معادية لآل أنتيجونس، ولو أنها انتقلت إلى الإسكندرية مع ديمتريوس، فلربما أتيحت لها فرصة أحسن. أما مدرسة أفلاطون فلم يكن في الإمكان أن تموت، لأنها أثينية ومصدر ما أتينا. وقد نبذت هي أيضا كل بحث عن المعرفة. وعندما بعث فيها أركسيلاوس الحياة من جديد، كان ذلك على أسس لا علاقة لها بأفلاطون، وإن أمكن أن تمت إلى سقراط بسبب.

واندثرت المدارس المحلية الصغيرة أو اندمجت في "أكاديمية أركسيلاوس الوسطى"، وإن كان منيديموس من إريتريا، معلم أنتيجونس جوناتاس وصديقه، شخصية جذابة وممتازة درجلا قوى الحسى وأغلق ما كان مركز الحلقة أدبية مزدهرة. وكان أصدقائه يشبهونه بسقراط، ولكنه لم يترك من ورائه ورقة مكتوبة ولا خليفة، بموته مات تأثيره الذي كان يعتمد على شخصيته. ومع ذلك فان الكلبيين ظلوا هيئة ناشطة. ولم يكن لهم مركزولا مقر معلوم. وهذا هو النحو الذي يتناسب واتخاذهم النفر منهاجا، بدأنهم لقوا إلى حد كبير قبولا لدى الفقراء، كما أن خشونتهم وإهمالهم الدروس المتعمد الأدب اللياقة الحادي والمجاملات المادية أو شكت أن تفسد رجولية موقفهم من الحياة، وإن أثرت نقع الصفات فعلا في الأوراق ومذهبه بيان عهده الباكر. ولكن يبدو أن قراطيس (**Crates** الكلبي طبيب النفوس، ومعلم زينون كان رجلا حقا. فقد أوتي ذكاء متوقدة وحاسة بالغة، فرد نفسه من ثروة عظيمة ليعيش عيش المتسول والواعظ. ومع أنه كان دميا، فقد بلغ من فوزه با خلاص تلميذته ميبارخيا أنها هي أيضا نذت كل شي. ليتزوجه ونشاركه طريقة عيشه وأسلوب حياته. ولا شك أن رجلا في ذلك العصر يهاجم الفسوق الجنسي بطريقته المؤذية، كان أعجوبة من الأعاجيب. ولكن نقطة ضعف الكلبيين تنحصر بالضبط في " مخلاة الشحاذ " التي كان قراطيس يجدها. لقد كانوا ينقذون أرواحهم بالعيش على حساب العامة الذين لم يكن لديهم وقت لإنقاذ حياتهم هم، وهناك ذلك المخلوق العجيب بيون (**Bion**) من مدينة بوريسثنيز [١] وهو صديق آخر لأنتيجونس جوناتاس، وكان أيضا كلبية في أغلب أموره وأحواله، نشأ من أصل رضيع، كما أنه كان مغتراً بذكائه يحيط به شيء من جو المهرج السوقي، ولكن الخشونة الظاهرية كانت نكن من دونها الإنسانية ونوع

---

(١) تقع بالقرب من مصب نهر الدنير وتسمى تلك المدينة كذلك أولبيا (Olbia). (المترجم)

من الرجولة والبساطة، وكان سلطانه على الناس عظها، وذلك أنه كان الأول في سلسلة طويلة من العلمين المتجولين الذين جعلوا الفلسفة في متناول الشعب، والذين شبههم " أوريجينس " قيا بعد بالوعاظ المسيحيين المتجولين، وقد منحوا العصر ضربة من القاعدة الروحية يتكي عليها. وهو وإن لم يكن مفكرة أصيلا، إلا أنه أعطى من القوة ما يكفل له إجبار الناس على الإصغاء إليه، و كان حتى في أحواض السفن برودس يجتذب إليه جماهير غفيرة من البحارة برسالة المألوفة: و أد واجبك، واقنع بالقليل إن كان ما وهبته قليلا، وواجه حظك رجلاه ولكي تفهم معنى ذلك معنى العمل الباهر، فما عليك إلا أن تترجمه إلى ما كان يقال بالأمس القريب في منطقة أحواض السفن بلندن.

وكانت الفلسفتان الجديدتان اللتان وضعهما أبيقور وزينون ثمرتين من ثمرات العالم الجديد الذي صنعه الإسكندر، كما نشأنا قبل كل شيء نتيجة الشعور بأن الرجل لم يعد بعد ذلك مجرد جزء من مدينته و ذلك أنه فرد، و بوصفه كذلك يحتاج إلى إرشاد جديد). ولم تكن القلقتان جميعا تهدفان إلى استكشاف الصدق، بل إشباع الحاجات العملية، ومن ثم كانتا تشتركان في أشياء معينة، وكان هدفي الفلسفة هو سعادة الفرد، والأمر الذي يهم الخلق والسلوك. لذا فان الفلسفتين جميعا تجاوزنا أفلاطون وأرسطو ومرقتا وراءها إلى سقوط. وكانت كل واحدة منهما قانعة بقبول آثار الحواس وانطباعتها كحقائق، فأبيقور يقول إن كل شي. حقيقي، في حين أن زينون جعل ميزان الصدق هو الانطباعة التي تقبض عليك بشدة بحيث تجعل عدم التصديق أمرا مالا، وكلاهما عالج مسألة العالم– بما في ذلك روح الإنسان باعتباره مكونة من شي، مادى (وإن كان الرواقيون الذين كانوا في الحقيقة شديدي الروحانية، يرون ذلك مجرد ألفاظ نقال)، وكلاها تبني التفسيرات المادية الموجودة، حيث تبني أيقور آراء د قريطوم واتخذ زينون أراه هيراقلتوس، و كان كل منهما يرغب في تجنب الشهوات والاتصالات، التي تجلب الناس التعاسة الناجمة عن عدم إشباع الرغبة. وراح كل منهما يشدد نكير التأكيد بكامل قوته على الأخلاق والآداب العامة التي فصلاها فصلا مطلقا عن السياسة، ولم يعن أي منهما أدى عناية بالعلوم أر المعرفة، ولكن إلى هنا تنتهي المشابهة بينهما. فقد كان الرجلان في المسائل الجوهرية متباعدين بعد القطبين، وكان العالم الجديد يؤثر في الرجال بطريقتين. فكانت الغالبية تحس أنها تنتسب إليه، ولكنهم ماضون في بحر خضم لا أول له ولا آخر و ليست أغواره معروفة. بيد أن أقلية فيه شعرت بالظلم والخوف ينوشانها، ورغبت في الخلاص، وإلى هؤلاء أشار أيقور بإصبعه إلى الطريق.

قال أبيفور "إن العالم الذي يرهبونه إن هو إلا آلة، فلا آلهة خير ولا شر تؤثر فيه، لم يصنع على خطة مصممة ولا مر يقاد بمقتضى قصد معين؛ كما أنه ظهر إلى الوجود عن طريق بعض السين الآلية المعينة. وبذا أعاد الفيلسوف إلى الحياة نظرية ديموقريطوس الذرية: (وكان معنى الذرات عنده هو الجزيئات) وهو يرى أن الذرات نسقط على صورة مطر لانهاية له خلال الفضاء، وأن اصطدامها بعضها بعض هو الذي كون العالم. ولكه سرعان. ما اصطك بصعوبتين. فالذرات الساقطة في خط مستقيم خلال الفراغ تكن لنستطيع أن تصادم –كما فهم هو ذلك. وكذلك أيضا أنه لم بداخله أي اهتمام بالقران، بينها أبدى عناية شديدة بالأخلاق، ولن تقوم لمكارم الأخلاق (**morality**)أي قائمة دون إرادة حرة. على أنه حل مسألتيه جميعا، فزعم أن الذرات القدرة على الانحراف قليلا بقصد لكي نلقي، ومعنى ذلك أنه منحها حرية الإرادة. و إذن يكون عالمه الآلي حكومة مُنذ البداية بشي. أكثر من النظام الآلي، وإذن يكن في وسع صاحب المذهب المادي مطلقا أن يصنع عالمًا إلا بانكار مبادئه هو. وكل ما تبقى بعد ذلك كان مسألة سهلة، كما أنه ساعدته فكرة إمبيدوكليس التي تقول بأن الطبيعة جرت أشكالا كثيرة من أشكال الحيوانات أقل ملامة وصلاحية التكيف، ثم ما لبثت تلك. الأشكال أن انقرضت، وفي الإمكان رؤية نتيجة ذلك في الوصف المدهش عن تطور الحياة على الأرض في ذلك الأثر الخالد لهذه المدرسة، ألا وهو قصيدة لوكريتيوس (عن طبيعة الأشياء). وكان هدف أبيقور أن يتمكن بوساطة إقامة العالم على أسس علمية، من تخليص الناس من الخوف من الآلهة ومن شر الخرافات. فروح الإنسان تتحلل عند الموت من جديد إلى الذرات التي صنعتها. وقد أسدت مدرسته خدمة جليلة برفضها معالجة العرافة والتنجيم ولكنه نسامح في قدر معلوم تركه لاعتقاد عامة الناس، بأن الآهة موجودة وكل ما في الأمر أنها لا تعمل شيئا إلا أن تعرض علينا سعادة مثالية. فهم ليسوا إلا زمرة صغيرة من الفلاسفة الأبيقوربين و أطيان في غاية الضالة تعيش في الفضاء الكائن بين العوالم، وتتحدث على الدوام باللغة الإغريقية نا محتمل، وهنا ينزلق المرء على غير وعي منه إلى تهكمات شيشرون، حيث يقول إن وظيفتهم الوحيدة هي أن يقول كل منهم للآخر (كم أنا سعيد).

على أن علم الأخلاق عنده كان جدية تمامًا. وهدفه هو السعادة، والسعادة معناها اللذة والسرور، واللذة هي الخير الحل الوحيد. ولكنها ليست اللذة الجسمية أو الحسية التي كانت عند ما

بقيه أصحاب الفلسفة القورينائية[1] وإنما هي في المقام الأول لذة ذهنية، وذلك لأن العقل أهم الأشياء طرأ. وهي لذة سلبية أكثر منها إيجابية: الإخلاد إلى الراحة والخلو من الشهوات والرغبات والحاجات و فوق كل شيء انعدام الأم. وينبغي أن يكون مفتاح السر لجهود الإنسان هو و الفرار من القلق والهم (**Alarasia**). والفضيلة عنده حيوية الأهمية ولكنها لا تطلب من أجلها هيا كان المراقبون يعلمون — فذلك شيء لا معنى له، وهي حيوية لأنه يدونها لا يمكن أن توجد سعادة. ومعنى ذلك نشوه مذهب التخلي والنبذ، التخلي عن الجهد الناشط والسعادة الإيجابية، ولذا كان أتباعه يؤلفون خلايا صغيرة يشملها الهدوء والانعزال وتربطها الصداقة التي كان الفيلسوف يؤكد عليها بشدة، ولولا عيشهم بين أتراهم واستمتاعهم بالحياة العائلية، لأمكن الإنسان أن يسميهم من الناحية الروحية بأول الرهبان.. وهم لم يؤثروا قط في العالم المران المحيط بهم، إذا لم تخالجهم رغبة في ذلك. ولم يغيروا أو يضيفوا حرفة واحدة إلى ما قاله مؤسسهم. بيد أنهم حققوا حاجة إنسانية دائمة. ولم تندثر جمانتهم قط. وفي القرن الثاني الميلاد سجل مجهول اسم ديوجينيس في أو بتواند بإقليم ليفيا تعاليمهم في نقش طويل حفر على حجر، لأن تلك التعاليم جلبت عليه من السعادة والسلام ما أراد أن يشاركه فيه أبناء جلدته من البشر. وكان أيقور نفسه — وقد مات في ٢٧٠ (ق.م.) رجلا رقيقة مقلاة في الطعام، تحمل آلام مرضه الأخير يتجلد هادي وكان نجاحه الشخصي بأثينا عظها كما أن سير حياة أفراد دائرته الخاصية وهي تضم النساء أيضا، لم نكن نموذجا يحتذي حسب، بل واحة عطرة في عصر عاصف. ولئن أسيء فهم وتطبيق مبدأ اللذة أحيانًا، فلم يصدر ذلك من أولئك الذين كانوا يتبعون تعاليمه حقا. واللوم الوحيد الذي يوجه إلى فلسفته هو أنها كانت تعلم الناس الإعراض عن العيش؛ إنها كانت فرارًا.

وكم كان يختلف عنه جدة. ذلك الزاهد الفينيقي الضامر الذي أسس مذهب الرواق (**ston**)، وهو زينون من كيتيوم بقبرص، أنبل من أظلته السهام في عصره، كان خجولا ميمون هو كان أجنبية بكتب ويحدث بإغريقية وسط. كان نجاحه يسير قدما ولكن ببطء وريث، ولم يكن لديه مركز يجتمع إليه فيه أتباعه كحديقة أيقور، وكان يتحدث إلى من حضروه في بهو عام بى أعمدة، هو السقيفة المنقوشة. وفي ذلك شيء من التنبؤ بحقيقة واقعة، وهي أن العلمين الرواقيين لن يرتبطوا ألبتة بمركز ما

([1]) الفلسفة القورينائية: – نسبة إلى توريني: مدرسة الفلسفة اليونانية القديمة أسسها حوالى ٤٠٠ ق.م أرستيوس وخير اللذة عنده هي الشيء الجدير بالاهتمام في الحياة، ولكن ضبط النفس والذكاء ضروريان لاختبار للذات. (المترجم)

في أثينا، بل سينتشرن في كل أرجاء العالم، ولكنه ما لبث وهو بعد في مقتبل عمره أن استلفت إليه نظر أنتيجونس جوناتا من الذي أصبح تلميذه وصديقه مدى حياته كلها. ولا شك أن ذلك كان ينطوي على عون بالمعنى الدنيوي، وقبل وفاته بزمن مديد كانت شخصيته قد قهرت أثينا، وبخاصة شبابها الذين يقال إن تأثيره فيهم كان عظمة جدا. ومع أنه كان صديقا لأنتيجونس، انه ظل متباعد بين السياسة. ولا أن مات بعد الحرب التي نشبت بين أنتيجونس وأثينا، تلك الحرب التي لا شك أنها كانت مثار عذاب أليم له – أقامت له أثينا جنازة عامة ودجت له شهادة من أجمل ما تلقاه أي إنسان على من الأيام. وذلك أن المرسوم الدهش الذي صعب ما صدر من أجله من آيات التكريم بعد وفاته اختتم بهذه الكلمات: و لقد جعل حياته نموذجًا وأسوة يحتذيها الجميع، وذلك لأنه كان يتبع تعاليه هو ويطبقها.ترك مجموعة من التلاميذ جديرة بالذكر والإجلال، منهم أرستون الذي علم إرانوسثنز. و منهم برسايروس الذي لحق بأنتيجونس مشيرًا روحية له، ومنهم صفاريوس الذي عاون في تورة كليومينيس باسبرطة. ومنهم كليانيس من أسوس وهو خلف زينون ومؤلف أعظم ترتيلًا دينية بالإغريقية وهو الذي أبرز الناحية الدينية لبدئه. وجاء خريسوس من سولي خليفة كلياتنيس وهو كاتب مسهب و فير الإنتاج، وقد توافر على قسطير شعائر المدرسة بإتقان وإسهاب في عدة كتب؛ وسنتناول فيا بعد باناتيوس و بوسيدونيوس. ومن سوء الحظ أن كتابات زينون وخريسبوس قد فقدت إلا نذورة. ولا توجد أية كتابات رواقية بكاملها حتى نصل إلى أساطين القاسية الانتقائية **Electrica** التي ظهرت في عهد الإمبراطورية الرومانية–وهم سنيكاوماركوس أوريليوس وإبكتيتوس، وإن كان كتاب شيشرون المسمى د عن الوظائف و**De Officii**» يمثل مقاله باتاثيوس المسماة و عن الواجبات وكان زينون يدين في البداية بني لهيراقليطيس وشى. آخر فيما يحتمل لبابل (الفصل العاشر فيما يلي)، وبالشيء الكثير للكلبيين. بيد أن المذهب العظيم في الأخلاق الذي طوره هو نفسه وخلفاؤه، كان بمختلف اختلافًا بينًا عن أي شيء آخر فكر فيه الكلبيون في أي يوم من الأيام.

وقد سبقت الإشارة إلى فكرة الرواقيين عن الإخوة والدولة العالمية (الفصل الثالث). وكان العالم عندهم في الحقيقة مدينة عظيمة، وكانت تحكمه قوة عليا واحدة نصورها الراقيون في أشكال وأسماء كثيرة:– منها القدر وزيوسو العناية (الإلهية) والناموس العام والطبيعة. وعن هذه "القوة" وتتجلى طبيعته الحقة فيها أدلى به من نصح في مقومات النجاح، و هو رأي يجمع بين الصحة والبشاعة في وقت واحد، حيث نقدم إلى ماركوس أنطونيوس وقال – له: " اقتل كليو بطرة ". لقد نجح ذلك

الرجل حيث فشل أنطيوخوس إبيفانيس مع أنه أعظم منه كثيرة، وتمكن بالقوة من أن يجعل من بلاد اليهودية صورة ناك بدرجة مقبولة جدا أي علكة هلليسنية. إنه لم يكن ملكا هللينستية، بل هو أجنبي (متبربر) إدومي جيد الصقل جدا إلى حد ما ولكن النظام الهللينستى كان النظام الوحيد الذي استطاع تطبيقه على ملكه الخلطة الممتدة من لبنان إلى مصر، وكان حكامه وموظفوه يقلدون أنظمة الحكم السلوقية المعتادة، بين أن هدفه الإغريقية الكثيرة لم تكن سوى مدن خاضعة، كما كانت تلتمس من روما أن نضمها إلى ولاية سورية التابعة لها. أما فيما يتعلق باليهود، فالظاهر أنه لم يستطع البتة أن بعزم في أبرهم على شيء فحاول أن يصالح الفريسيين، ولكنه أعمل الذبح في الصدوقين. وقد امتنع عن بناء معابد قيصر في أورشليم نفسها، بيد أنه بنحلية لسباق الخيل بأورشليم كابهى مسرا ومدرجا خارج السور المدينة، وحاول استجلاب رضا الشعب عنه بإعادة بناء الهيكل في قدر عظيم من الفخامة، في حين أنه ربما كان هو نفسه يتوق أن يصبح ربة. وأخيرا عبر هيرودس عن رغبته هذه بأن وضع على المعبد نسرا هو طائر زيوس – وهذا أسوأ أنواع الاستفزاز التي يمكن أن يتلقاها يهودي، وقد بني عدة مدن هامة منها سباستي لتحل محل السامرة و قيصرية على الساحل ولها ميناء أكبر من ميناء بيرايوس (مرفأ أثينا) واشترك في تزيين أنطاكية وعدنا كثيرة غيرها، ولكن اليهود كرضوا منه ما كان يبتنى من مبان إغريقية وذلك لأن المال اللازم لذلك كان يغتصب منهم غصبا. إنه كان بحاجة إلى مقادير هائلة من المال، فصادر مقادير ضخمة من الأرض، ولابد أن أملاكه الخاصة كانت عظيمة جدا في إيراداته، و كانت ضرائبه عالية مبهظة، كما كانت مصدرا دائما للسخط. أجل إنه منح البلاد السلام والرخاء، ولكنه كان في الواقع يحكم بلاد اليهودية بالخوف ويقمعها بالمعاقل والحصون. كان بعين الكهنة العظام وبخلعهم حسب هواه ومشيئته. وكان السبب الرئيسي في كَرامية اليهود له خشيتهم من الخطر الذي يتهدد ديانتهم من وجوده. فثاروا مرات عديدة حتى أصبح أقوى من أن يغلب، و كان حكه في السنوات جميعا متساوين. ولكن الواقع أن الناس يختلفون خلقًا وقدرة وظروفا،. وذلك كما جاء في تعبير خريستوس المجازى بأنه لا شي. بحول دون أن نكون. بعض القاعد بالمسرح خيرة من بعضها الآخر، ولذا فإن الناس جميعا لم يكونوا ولا يمكن أن يكونوا متشابهين، كما أن المساواة إن هي إلا شي، نظرى. و كذلك أيضا انت دولتهم العالمية غير قابلة للتحقيق من الناحية العملية، وذلك أن العام كان يتكون من رجال عاديين، وبحكمه قوم ليسوا فلاسفة ولا على له بالناموس العام.. ومن حسن الحظ أن الرواقيين كانوا يقنعون بأداء ما كان في وسعهم عمله، فكانوا يعضدون عرش الماء ويقدمون إليه النصح، وكانوا. كغيره من الفلاسفة يكتبون الرسائل عن الطريقة التي ينبغي أن تحكم بها

الـدول، و كـانوا مسـتعدين لمناهضـة الحكومـات السـيئة، وبخاصـة الطغيـان، أو كـانوا شـأن سـفاروس بسـيطة وبوسـبوس برجامـة، متأهبين للعمـل في خدمـة أي إصـلاح مـن شـأنه زيادة المسـاواة بين النـاس، واتخاذ أي خطوة نحو تحقيق شكل الاشتراكية الخاص بهم، وهو شكل كان ينطوي على الاتفاق والوئام وإلقاء كل حروب الطبقات.

وتمشيا مع مبادئهم لم يكونوا إذن يستطيعون فيا يظهر أن يقبلوا فكرة حرية الإرادة والاختيار أو عدم المسـاواة. ومع ذلك، أن الظروف اضطرتهم أن يتقبلوها جميعا. و كـان حـالهم بالنسـبة للعضـلتين كلتيهما هو الرجوع إلى المبدأ الأساسي، مبدأ المدة أو العقل. فإن العقول البشرية كانت شرارات من "النار" المقدسة، بيد أن الجسم البشري صلصال من طين، ولذا فإن الجسم لا يهم في قليل ولا كثير. وقال زينون إن كل ما له علاقة بالجسد – سواء منه القوة والضعف والمرض والصحة والشراء والفقر – شـيء لا يؤبـه لـه؛ وظـل ذلـك مـوقفهم – مـن الناحيـة النظريـة – عـلى طـول المـدي. وإن الحكـيم الرواق ليعمـد إلى أن يهمـل مثـل تلـك الأشـياء ولا يلتفـت إلا لمـا يتعلـق بالـروح مـن أمـور. يـد أن هـذه الخصـال كانـت أو يمكـن أن تكـون، عنـد النـاس جميعًـا فالعبـد العامـل بمنـاجم الفضـة الـذي يسـام سـوء العذاب ويعامل معاملة البهائم، ربما ظل في روحه يتعقب الحكة ويصبح قريبة الفيلسوف أو القديس. وإذن فإن الرجال متساوون ببل كل شيء، وذلك لأنهم جميعا لو شاءوا لأمكنهم أن يكونوا متساوين من حيث الروح؛ وفي هذا الميدان قد يصبح الشحاذ ملكًا.

وعـن طريق الحكة حلوا كذلك مسـألة الخيرية. ولا شـك أن حكيمهم كـان وحشًـا عـدم الشـعور عـديم الشـفقة، بارعًـا، فهـو قـد يفعـل الخير ولكـن دون أي إحسـاس نحـو الآخـرين، وذلـك لأن هـدوءه ينبغي أن لا يكـدره شـي.: فهـو عنـد حـد تعبير القـديس بـولي قـد يكـون مسـتعدة أن يقـدم جسـمه ليحرق، بيد أنه ليس لديه حب، ومن العجيب أن زينون الذي أسس الدولة المثالية عنده على الحب، لم يـدع لحب الآخرين أي مجال في تكوين الرجل الحكيم. ولكن الإنسـان يؤوال مثاله الأعلى حسـب مشيته. وكون الرجل الحكيم ينج في تصرفه سبيلا بجمل منه مثلا أعلى، أمر لا يداخله شك؛ فهـو (أي الحكيم) شيء يتخذ هدفا. ولكن أحدة (لحسن الحظ) لا يستطيع الوصول إليه. بيد أن المحكمة قطعة من القبس الإلهي، ولذا فان الحكة الحقة على الأرض ينبغي أن تتطابق تماما مع الله، وإن الرجل الحكيم ليرضى بما قدره الله، وما رسمه له القدر بحكمته، ومن ثم ان التناقض بين الجبرية والإرادة الحرة، قد استعلى عليه و تخطاه عند الرواقيين معنى عام فلسفي جديد هو الواجب ؟ فين للإنسان إرادة

حرة، ولكن واجبه الحتم يقضى عليه أن يستخدمها على شاكلة نقرب بينها وبين الإرادة المقدسة. وسواء استكان للمقادير أم أخذ رفس بقدميه مناضلا للوخزات، فان ذلك لا يحدث أي فرق يمتد به في النطاق المادي. ومن هنا كان عليه أن يسير في الطريق المرسوم له. ولكنه بنفس النسبة التي يبلغ بها الحكمة، سيدرك أن ذلك الطريق هو طريق الصواب وجد السلام والهدوء الفكري. والحكيم حقة لن تحتاج سوا ولا جرا، إذ أنه يستطيع أن يري ويتوقع مسرورة ما كان يخبئه له القدر. و ممارسته الحرة لإرادته الخاصة في السيل الذي يقضي ببساطة إلى التوافق والانسجام وفق ما تقضى به إرادة الله. ومتى جاء الرجل المثالي قال لنفس " فلتكن إرادتك".

وبذلك أيضا حل الرواق لنفسه تلك المسألة القديمة، مسألة السعادة. والمادة أن التعاسة تنشأ عن الحاجة إلى شى. لم تحصل عليه أو لم تستطع الحصول عليه، فطريق السعادة إذن هو أن تريد ما حصلت عليه، أعني أن تسير وفق الإرادة الإلهية، وذلك هو ما كانوا يعنونه بقولهم و العيش وفق الطبيعة، وليس المقصود به ذلك المعنى الشبيه بالمادي الذي استخدم فيه الكلبيون تلك العبارة، وذلك لأن الطبيعة أيضا إله. ولا شك أنهم استخدموا تلك الفكرة ليطرحوا من اعتباره موضوع اللذة والترف والثروة والنجاح، وهي شوائب الحضارة، التي لم تكن من الخطة الإلهية فيشيه. ولكن التوافق مع الإرادة الإلهية معناه أشياء أخرى بعيدة كل البعد عن إهمال هذه الأمور المادية: فالرواقي لا تحزن على وفاة ابنه، وذلك لأن أمر الله و مقدوره حكمة شاملة، ولم يكن في المستطاع حدوث شي، أفضل منها. وذلك أن العزة الإلهية ليست حكة كلها فسب، بل هي أيضا فضيلة كلها، وما تفعله هو خير ما يفعل. ولذا فلكي يتحقق الوصول إلى الانسجام مع تلك القوة السارية، كانت العضيلة أشد الأشياء لزومًا، كما أن الفضيله دون أي شي. آخر، هي إذن السعادة، والفضيلة في حد ذاتها تفي بالجزاء. وظل كثير من. الناسي قرننا عدة يعتقدون هذا المعتقد، و أن بعضهم كانوا يمارسونه.

وكانت الفضيلة المحور الرئيسي في علم الأخلاق عند الرواقيين. ولم يد زينون في هذا الشأن أدنى تساهل، فقد كان يقول إن التواء فعل الشر معادل افعله. وقد قال في البداية إن كل ما ليس فضيلة مطلقة فهو رذيلة؛ ولكن هذه القاعدة كانت غير عملية بحيث اضطر في النهاية أن يعود لها بنفسه قبل مونه بتسليمه لوجود مرحلة وسطى بها أشياء محايدة. وهذه ما لبثت أن أصبحت بعد ذلك مقسمة إلى أشياء مفضلة و أشياء أخرى منبوذة، وعلى. الرواق أن يختار الصنف الأول من تلك الأشياء، وعلى هذه الأسس تعززت — بقوة — الفكرة الراقية الرئيسية عن الواجب. أما أنه يجب عليك أن

تذيع سبيل الخلق الشريف فذلك أمي ليس في نظرهم من قبيل الافتراض، وذلك أن أول ما يسلم به المذهب الرواق هو أن هذا الذهب كان في حد ذاته نظامًا خلقيًا، وكان في وسعه أن يدعي أن النهج المناقض له لا بد أن يكون خاطئة وذلك لأنه يدعو إلى وجود الاختلاف في نظام الكون، وذلك النظام شى أعظم من البشرية. ولما كانت وسيلة الإنسان إلى الانسجام والوفاق مع الله هي الحكمة والفضيلة، و كان سبيل التقدم فيما يتعلق بهذين الأمرين جميعا أميرة ممكنة، اضطر الرواقي من ثم إلى خص مبلغ ما أحرزه من التقدم، وجنا نشأت فكرة النمو الحل الواعي. هذا إلى أن القوة الربانية انت تسهر على رعاية شئون الناس وتدبير أمورهم، ولذا تلقوا العون وهم في الطريق. وقد ظهرت آنذاك في الفلسفة فكرة الضمير التي ظلت حتى ذلك الحين فكرة شعبية شائعة بين الناس، وكان الضمير والواجب ركنى علم الأخلاق عند الرواقيين.

وقد قدر لهذه الأخلاق أن يكون تأثيرها عظيما على العالم وعلى المسيحية. وربما اكتسح النقاد أمامهم العاقل الأمامية لهذا النظام، وربما أربك الأذكياء الحكيم بما يوجهون إليه من سهام، ولكن القلعة الرئيسية، ألا وهي فلسفة الخلق قد صمدت ثابتة كالجبل. والواني أن الذهب الرواق كان عقيدة ودينا بقدر ما هو فلسفة، وأنه كان مذهبا موسومة بالحيوية والقوة، ما أظهر ذلك فيما بعد. وكانت القوة ضرورية لاحتقار أمور الجسد، وكانت في الطبائع القوية تعمل من المدراء المقوى، و كان الرواق الحق – مها بكن له بعد ذلك من أحوال – سيد نفسه، أو على حد تعبيرهم مثمنا بالكفاية الذاتية (**Antarkes**) وكان سيدة لمصيره ومتحكما في مقاديره، ولم يكن القضاء والقدر بقادر على أن يؤذيه، وذلك لأن ما كان يجلبه إليه إن هو إلا ما كان يختاره هو لنفسه، ولكنه بالنسبة للجميع توهم وضعيفهم، كانت له رسالة: في إصراره على الأشياء المتعلقة بالروح. فمهما يكن ما فعله العالم لك، فان هناك نطاقا واحدا لا سلطان لذلك العالم فيه، فأنت تستطيع أن تنسحب إلى دخيلة نفسك، وهناك تجد السلام، إذ أنه ما من شي، يستطيع أن يؤذيك هناك إلا نفسك.

بدأت مدرسة التشكك بالفيلسوف بيرون (**Pyrrhan**) من إليس، الذي حب الإسكندر إلى الهند في شبابه ولكنه لم يكتب شيئًا، ولا يعرف إلا عن طريق تلميذه تيمون الهج). (الفصل الثامن). و كان مذهب تيمون بسيطا. ذلك أن أصل البلاء هو تضارب المعرفة، ولكن ما من شيء يمكن معرفته على سبيل اليقين، لذلك يجب عليك أن توقف حكمك، وأن لا تصدر أحكاما جازمة أبدا، وتذكر أيضا أنه لاشيء بهم، ولا حتى ما إذا كنت نعيش أو نموت، وبهذا نبلغ الهدف: وهو الاتزان ورباطة

الجأش. وقد حصل على مبلغ طائل من المال بالتبشير بهذا الكلام في طول العالم وعرضه ولكنه لم يبلغ حد الاتزان ورباطة الجأش، وذلك لأنه قضى شطرا عظما من حياته في مهاجمة أركسيلاوس لتعديه على الموضوعات الخاصة به: و يترك من بعده خليفة على مذهبه، وذلك لأن مذهب المتشككة انتقل مع أركسيلاوس (حوالي ٢٦٤ –٢٤٢) إلى الأكاديمية. وكان أركسلاوس أثينية مخلصة لوطنه، ذا خلق ممتاز، ولكنه كفيلسوف يكن إلا قوة سلبية. وكان يؤمن هو أيضا بأن المعرفة مستحيلة، وكان يظن أنه لم يبرز ذلك إلا بمجرد القضاء على نظرية المعرفة عند الرواقيين د تلك الانطباعة التي لا نقاوم به، وفي ذلك ما فيه من التقدير المركز الذي بلغته الرواقية. وبلغ من شدة إنشغال كارنياديس (٢١٣ – ١٢٩) خلفه الأعظم منه بمحاربة الذهب الرواقي أنه قال عن نفسه أنه ماكان البتة ليصبح له أي شأن لولا خريسبوس. وقد قام بخدمة لا بأس بها بمهاجمة الناحية المعتمة من الرواقية، وهي المرافة والتنجيم،. فضلا عن إرغام جانائتيرس بتعديل موقفه من هذه الناحية. ولم يكن من الصعب تدمير و "الانطباعة التي لا تقاوم". إذ أنه لم يستطع أن يمس بسوء أساسيات الفلسفة الرواقية، وكانت نتيجة ذلك أن مر العالم عليه مر الكرام. وذلك لأن العالم مضطر بشكل ما أن يعيش ويتصرف، وفي هذا لم يكن لدي كارنياديس شي، يقدمه إليه. ولكن كارنياديس لم يحدث أي أثر حقيقي، ولا كانت المعرفة مستحيلة، فإن أركسيلاوس قال إن المرشد الهادي في التصرفات ينبغي أن يكون هو و المعقولية، وهو قول لا معنى له، واستخدم كارنياديس "الاحتمال" بدل "المعقولية"، ولكنه لم يستطع تفسير ذلك الاحتمال إلا بحيث يعني وافعل ما يفعله جيرانك وثم إنه أيضا جعل نفسه عرضة للشيء الكثير من سوه تركيب العبارة بما جرى عليه من عادة الجدل دفاعا عن أي موضوع أو دحضا له بغير تميز، وذلك على سبيل التدريب الذهني؛ وقد حاول ذلك في روما ١٥٩، وصعق عامة الرومان لمثل ذلك الطيش الفاجر. بل إن تلميذه نفسه وهو ماز در وبال – كليتوماخوس القرطاجي، الذي ألف أربعمائة لفافة بردية في سبيل محاولته تدوين تعاليم كارنياديس وآرائه الشفوية، قد اعترف بأنه لم يكن يدرى أحيانا ماذا كان رأى كارنياديس المقيل. يد أن كارنياديس، وإن كان لديه ضرب من شهوة التدمير، إلا أنه كان رجلا يتمتع بسمعة شخصية طيبة، كما أنه كان من ألمع العقول التي. أنتجتها بلاد الإغريق في تاريخها كله، ولم يتح لأحد البتة أن يجيب على بعض الصعاب التي أثارها. وبموته مات مذهب التشكك، ولكنه بعث من جديد على يد أينيسيديموس، معاصر شيشرون وأيضا أثناء حكم الأنطونيين، وقد أشبع ذلك المذهب بالفعل حاجة كانت قائمة؛ وذلك لأنه كان من المفيد أن يقوم بعض الناس بتقد وتهذيب الفلسفة الاعتقادية.

(Dogmatie)

وقد قيل بحق انه في المجال الديني كانت الأشياء الحيوية الوحيدة لدى الهللينسية في الفلسفة والديانات الشرقية. لقد أخذ الغسق برخي بالفعل سدوله على آلهة الأوليمب على الرغم من المظاهر الخارجية – تم تجليات جديدة، وتم مها بط وحي جديدة، وثم أعياد وحفلات جديدة، وذلك في محاربة لإنهاض الديانة ببلاد الإغريق بعد ١٤٦ (الفصل الأول). كما أن المعابد الكبيرة التي بقيت واستكملت بناءها كانت على وجه العموم لبعض الآلهة الأجنبية مثل سرابيس الاسكندري أوربة مغنيسيا ذات الجبهة الشقراء، وفي خليفة الأم دنديميني. كما كان يحدث يمكن مشاهدته في المعبد الوحيد العظيم الذي صممته إحدى المدن الإغريقية لإلة إغريقي؛ فابن معبد أبو لون في در ديديما ظل ناقصا ولم يكمل بناؤه بعد ذلك بأربعة قرون، وليس ذلك لقلة المال ميليتوس، بل لقلة ذلك الإيمان الحي الذي كان يمكن المدن فيا سلف من إتمام معابدها في مدي جيل واحد. وقد حدث ذات مرة أن زيوس في مهبط وحي دودونا[1] تكلم هو نفسه إلى عباده كما يتكلم الإله، في مهب الريح العاصف في شجرة البلوط وفي حبب النبع وفقاعاته، وفي ديديما كان قلبي الوحي. عملية تجارية يتولى إدارتها مكتب خاص، وتأسست عوامل كثيرة على تقرير مصير آلهة الأوليمب. إنهم كانوا ينتمون لدولة المدينة وقد سقطوا بسقوطها. لقد. أهلكتهم الفلسفة عند المتعلمين، وقضت عليهم النزعة الفردية عند العامة، فالرجل العامي بعد جزءا من المدينة بأنها بأي شي يمكن أن تسفر عنه عبادتها الجماعية، بل كان يريد شيئا يتحدث إلى نفسه، ولكن ربما كان الشيء الذي فصل في الأمر هو فتح آسيا ومصر؛ وذلك لأنه كان فيها بالسيف وحده وليس بالروع. لقد كانت بلاد الإغريق مستعدة لتبني آلهة الأجانب، ولكن أولئك الأجانب قلما بادلوها ذلك العمل بمثله، ألا ترى كيف أن مدينة دورا الإغريقية قبلش ربطيب نفس آلهة بابل ؟ على أن ربة إغريقيا واحدة لم يدخل مدينة أوروك البابلية. أجل إن الآلهة الأجنبية قد تتخذ أسماء إغريقية، ولكن الأمر يتجاوز ذلك الحد بكثير. ذلك أنها كانت هي الأقوى، كما أن في آسيا لم يكن أمامه بد من أن ينتمي إلى فشل بمجرد نتمكن الشرق من أن يحجم عوده في مجال الدين، ويتبين قوته وضعف الإغريق، وذلك أن ما كانت بلاد الإغريق نستطيع إعطاء. لآسيا وهو العلمي والفلسفة، لم يكن ليستطيع فهمه واستيعابه إلا النخبة القليلة ب أن هذين الأمين لم يكونا بتاتا مما خلق لجمهرة الشعب. فلو أن بطلميوس الأول توج زيوس بالإسكندرية

(1) أقدم مهبط وحي ببلاد اليونان. والعبد مقام في "أبيروس"، مكرس لزويوس وكانت إجابات الإله تلقى عن طريق حفيف أشجار البلوط وغيرها وأزيز الربع. (المترجم)

واضطهد أوزيريس، حاربت مصر دونه ولأدركت مغني ذلك أيضا. فأما أن البطالة أقدموا بدلا من توي زيوس على بناء المعابد الآلهة المصريين، فقد فسره المصريون بالضعف لا التسامح – إذ لم يكن للقانغ في نظره أي إعان بالمته. وقد وقعت الهلينستية مُنذ القرن الثاني بين المطرقة والسندان: سيف روما وروح مصر و بابل. وكان أن أدرك تلك الحال رجل واحد هو أنطيوخوس إيفانس – فأطلق عليه مُنذ ذلك الحين لقب المجنون. بيد أن محاولته توحيد مملكته على أساس من ديانة اليونان وثقافتهم فشلت تماما، ولم تتح للديانة الإغريقية فرصة.ثانية بعدها.

وتجلت النزعة الفردية في ذلك التفشي الهائل للجمعيات الخاصة بعد ٣٠٠ (الفصل الثالث). وكانت هذه الجمعيات والنوادي هي السبيل المادي الذي كانت العبادات الأجنبية تدخل عن طريقه إحدى المدن الإغريقية. وذلك أن تقرأ قليلا من الأجانب من يقيمون بها كانوا يؤلفون ناديًا يجتمعون فيه العبادة إلههم الخاص، وربما انضم إليهم بعض الإغريق. ومن المحتمل أن هذه الجمعيات كانت مبعثًا على التنويع في ممارسات النحل والعبادات؛ مثال ذلك، أن كثيرا من أندية ديونيسوس مصر كان لها كتاب شعائرها الخاص (**Aienalogos**) وإن نادية أجنبية ربما عبد أعضائه رب المدينة التي يسكنون بها، مثلما كان أعضاء الجالية الميلانتية (**Haliastad**) برودس يعبدون ملبوس (إله الشمس). على أن الأندية الإغريقية، وإن كانت غالية ما تعيد بعض الآلهة الأولمبيين – لم تكن تعبد البتة رب مدينتها الخاص. وقد برزت ربات ألفن والشعر كإلهة رسمية للهيئات الكبرى المحتضنة للعلوم والمعرفة: وهي المدارس الفلسفية الأربعة بأثينا ثم الأكاديمية بالإسكندرية. وكانت مجرى. عبادة طبقة كاملة من الشياطين المساعدة والواقية منها أمينوس وهيبودكتيسى ودكسيون (الذي كان اسمه سوفو كليس) بأثينا و بلسيوس في كوس وأنثستر في ثيرا، وإن أندية تضم شمل الأسر والعائلات لتعبد جدها كبطل؛ بيد أن هناك شيئًا واحدة في القرن الثالث لم تفعله الأندية قط: فإنهم لم يعبدوا قط الملك المؤله، وهي دلالة قوية على أن عبادة الله كانت في. البداءة ظاهرة سياسية صرفة. وكانت أولى حالات عبادة الملك هذه بأحد الأندية هو يوم راح الفرع الأسيوي لهيئة الفنانين الديونيسية بزعامة كراتون من نيوس، يعبد يومينيس الثاني، وأسس كراتون نادي الأتاليين (**Attaliatai**) وذلك لأن النادي المصري لعبادة الملك (**Basiliatai**) إنما يبدو كأنما يقدم القديس لأحد الآلهة من أجل الملك (بطلميوس يورجتيس).

وكان أهم الآلهة الإغريق طرأ في ذلك النصر خارج بلاد الإغريق هونديونيسوس الذي قام الفنانون الديونيسيون بنقل عبادته إلى كل أرجاء العالم وكأني بالفن والأدب قد منجاه موكب نشر تقدم

به عبر آسيا على غرار موكب نصر الإسكندر. وقد طريق بين اسم سا بازيوس (أي الرجاف) وبين صاباءوت، وهكذا أثر في بهو التشتت (الفصل السادس)، وراح الأورفيون يطابقون بينه وبين كثير من الآلهة به وود القوم في مصر بين شخصه وبين. سرابيس عن طريق عنصر أوزيريس الموجود في الإله الأخير، وأصبح جدًا من أسلاف البطالة وأسرة أتالوس أيضا، ويحتمل أن عابده القانت المتحمس بطلميوس الرابع كان يحلم بجعله الرب الأكبر في إمبراطوريته المتحدة (الفصل السادس). ولا شك أنه لو قدر لأي ربه إغريق أن يفتح العالم، فإن ديونيسوس كان هو الرب الوحيد الذي يمكنه أن يفعل ذلك. ولكن مهما يكن بعد الشأو الذي بلغه نفوذ الأورفيين فيما بعد، فإن الأمور لم يقدر لها أن تصوغ نفسها على هذه الأسس.

وهناك عامل مسيطر في ذلك العصر، ألا وهو بذل الجهود في سبيل وحدة الإله. وقد تسامى الإسكندر فوق الدول القومية، وهو أمر معناه الضمني التسامى فوق النخل القومية. ومع أن الإمبراطورية الواحدة قد زالت ولم يعد لها وجود، فقد صار هناك عالم مسكون واحد وثقافة واحدة،. جلبت من الخارج (فيما يظهر إلا واحدة، وهي فكرة حياتها الفلسفة للمتعلمين وعودتهم عليها. وربما اتخذ هذا شكل الرب القوي، الذي يدعي أنه رب الأرض قاطبة شان يهوه(**Yahweh**) ببلاد اليهودية. بيد أن حركة أخرى، طرازها اللهينستي للغاية كانت تنطوي على توسعة كبيرة في المطابقة بين ربه وآخر أو صهره معه، بوصفهما شكلين متماثلين للإله الواحد القائم وراءها. ويستطيع الناس أن يعبدوا أي إه منهما دون أدنى تفريق. وعندما وهبت إسترتونيكى زوجة أنتيوخوس الأول إلى أبوللو بديلوس الهيئات الجزيلة و أفادت بناء معبد الإله السوري أتارجاتيس بمدينة هيرابوليس وانضمت إلى عضوية ناد بأزمير يعبد الإله المصري أنوبيس، فلا شك أنها كانت ترى فيهن جميعا مجرد أشكال وصور لإله واحد. وكان المذهب الزواق عونا لتلك العملية. فلم يكن من دأب الرواقيين رفض آلمة الناس، بل أدخلوها في سلك نظامهم القائم على مذهب وحدة الوجود وذلك باستخدام جميع الرطازات (**Myths**) على سبيل الرمز مهما تكن تلك الرطازات أجنبية أو غريبة عليهم. لقد وجهوا همهم إلى التفسير لا إلى التدمير، وذلك لأن الآلهة هي أيضا جزء من النظام الدنيوى البار الناس وهي أقنعة الرحمة منها الرجل العادي لإنقاذ عينيه من بريق ضياء الضيق الحق الخاطف للأبصار.

ومع ذلك فان هناك ربة واحدة ظلت بمعزل عن ذلك كله، تلك هي ربة الحظ (**Fortune**) التي لم يستطع أحد حتى الرواقيون أنفسهم أن يتمثلوها. "والحظ" فكرة هللينستية بحتة. وقد صاغ

شكلا أوائل المشائين وهما دمتريوس الفاليري ونوفراستوس. وأشار مينا ندر أنها قد تكون و العناية به وقارنها شاعر مجهول بالملاك إيريس(Iris) مبعوثة الآلهة. وقد تسلطت إلهة الحظ على الناس إبان القرن الثالث، بل لقد حدث أن يوليبوس فيه وفن بعله يوسيدونيوس احتقرا الإذعان للاعتقاد الشعبي المنطوي على استخدام اسمها. ولم تكن هي الصدفة العمياء، بل نظاما ونرتويا لشئون الدنيا لم يستطع.. الناس فهمه بيد أن الناس جميعا كانوا يستطيعون مشاهدتها، الحظ وحده هو الذي رفع هذا القائد من قواد الإسكندر إلى العرش ودفع بذاك إلى القبر، والحظ. قضى بأن مقدونيا تحطم فارس، وهي من بعد ذلك (كما تنبأ بذلك ديمتريوس) ستغلب بدورها. وبعد معركة "كينو سكيفا لاى" أخذ الإغريق يعطفون على فيليب الخامس لأن الحظ قلب له ظهر الجن. وهي م نكن ربة قاسية قسوة مطلقة، وذلك لأنها لم تحرم الناس نعمة الأمل: «إنها اليوم لك ولكنها غدة لي. ولكل امرئ. حظه الخاص أي (Daimon)على حد تعبير الإغريق، وهو عبقر(Genius) على حد تعبير الرومان، وهو يكاد يكون شخصية المرء وذاته. و كانت المدن والمواطنون على السواء يقسمون حظ الملك (Daimon) وقد تملكه الناس اعتقاد راسخ في حظ الإسكندر. أو أنتيجونس دوسون؛ كما أن النفوذ العظيم الذي اكتسبه التمثال الذي صنعه يونيخيدس لربة الحظ في أنطاكية ترابي في النهاية إلى تحويل حظ إحدى المدن إلى ربة لتلك المدينة.

فأما عند المتعلمين ان مكان الدين قد حل محله من قلوبهم الفلسفة والعلوم. بيد أن هذه أمور قلما أثرت في الرجل المادي. إذ لا بد له من أن يعبد شيئا وخاصة وأن قوة آلهة الأوليمب كانت اضمحلت، فأخذ ينمو فيه شعور دينى حقيق أكثر، وصار دعاء العبادات الشرقية الخالصة المطمئنة إلى نفسها، أمرًا

لا سبيل إلى مقاومته. وفي هذا المضمار تغلب الشرق على فاتحه واقتاده أسيرًا. ومع أن تلك الحركة ربما لم نبلغ ذروة شأوها إلا بعد الحقبة المسيحية، إلا أنها كانت لم شملها ويشتد عودها طوال المهد الهللينستى كله. على أن المرء ينبغي أن فرق بين إقليم وإقليم. فأما إقليم فارس، وهو في النهاية تلك القوة العظيمة، فليس لدينا عنه شيء نقوله هنا، والأمر معقد يغشاه الإبهام والحق يقال.

ولكن لا شك أن يوم ميتراس[1] الذي لا يقهر من بود، وإن عبده القراصنة الفيليقيون في القرن الأول، وليس معبد " الميترايون " الذي ورد ذكره بمصر إلا محرابا محليا لبعض الجند المرتزقة من الفرس.

---

(١) إله النور والحكمة عند الفرس. (المترجم)

وجاء الوتران العالميان من بابل ومصر، وكان النحل سوريا و الأناضول سلطان محلى ملحوظ، ولكنها لا تكاد تستمتع بدرجة واحدة من الأهمية، وإن اجتاحت العقاد السورية بلاد الإغريق (الفصل العاشر) ومصر، كما أن آلة الأناضول ترامى سلطانها بعيدة (الفصل العاشر فيا يلي).

وإما سوريا فقد نمت فيها قوة الديانات القديمة، وإن جاءت أشكالها مهلة إلى حد ما.

وتدل العملات وخاصة عملات العهد الروماني على وجود خليط كبير من النحل والمطابقات [1] بين الأديان. ومع أن التاريخ يذكر كثيرة دول الكهنة القديمة ذات الطراز الأناضولي، إلا أنه لم يكن هناك إله متسلط حقا. ولا شك أن ذلك يرجع إلى أن سوريا ظلت على الدوام مقسمة تقسيما سياسية بين مالك عديدة أو مناطق نفوذ. وكان أقوى الآلهة هو "هدد" الدمشقي (وهو الذي ورد ذكره في العهد القديم باسم رمون **Riamon**) الذي استوعب كثيرا من (البعول) المحليين؛ وصار اسمه زيوس الدمشقى كما صار زيوس الهليوبوليسي نسبة إلى بعلبك، بيد أن معبده الرئيسي كان في هيرابوليس بامبيكى (مبوج) حيث كان اسمه ريوس قبل ١٥٠. و كانت زوجته بدمشق –وهيرابوليس وهي أتارمجانيس التي هي م الربة السورية، فهارى لركيان، مس وهي في الأصل حجر مدبب (**Betyl**) ولكنها أصبحت امرأة من زمن بعيد. بتأثير الربة الفارسية للفاتحة أناهيتا (**Apaitie**)، وحدث فيها بعد أنها غالية. ما أصبحت ربة مدينة إغريقية، وأصبحت عند زواجها من أنطيوخوس – إبيفانس أعظم ربة في سوريا. وأشهر معابدها على الإطلاق في المقامة في ميرا بوليس، حيث كان الرجال يفدون إليها من كل أرجاء آسيا في عيدها الذي كان يقام كل سنتين، ليتطهروا في بركتها المقدسة، وحيث كانت الأسود والدببة الأليفة تعيش في أراضها. ومن أشهر معابدها كذلك العبد المشيد في عسقلان حيث كانت تتخذ هيئة عروسة بحر لها إسم محلى هو "دركيتو". وحينما ذهبت أحضرت معها بركتها المقدسة وسمكها المقدس؛ وهي أسماك.. الفرات التي حضرت نولدها و كوفتت بمقعد في منطقة البروج. ولا شك أن وجود بركة السمك ثم الخصيان و الأسود يربط بينها وبين ارتميس بافسوس وأكرية الأناضولية، "سيدة الضوارى" وكانت معابدها مسكنا لأسراب من الحمام كبعض المساجد في عصرنا هذا، وقد وصل الإله «مدد و إلى ديلوس قبل (١٠٠) ولكن أثار

(١) المقصود بالطاقات بين الآلهة والنحل (Syneretiam) هو (أ) التوفيق بين نظم دينية مختلفة؛ أو (ب) مزج الأديان أو خلطها، كأن يكون ذلك بتوحيد آلهتها والمطابقة بينها أو الجمع بين أحسن مرعبات كل منها؛ أو (ج) التراضى في الدين على غير أساس من المنطق. (المترجم)

جانيس تقدمت إلى أبعد من ذلك، وكانت أحد عنصرى تلك "الأفروديت السورية" حيث كان العنصر الآخر هو الفينيقية التي جابت كل أرجاء بلاد الإغريق بل كادت تبلغ مقدونيا، والتي كان ناديها بأثينا يتاخم وشارك مبني قريبتها الأم الأناضولية.

ولم تكن أثار جاتيس هى الحجر المدبب (**Batyl**) الوحيد في سوريا. فكان: هناك عدة منها من بينه اثنان في صور ذاع صيتهما. وقد كتب للحجر الأسود في. إمسا و هي حمص ويسمى **Elagabal** (إلا جابعل)، أن يلعب فيما بعدد دورًا عظيما بروما وثمة حجر مدبب آخر بلى ضوءا على إحدى المدن السلوقية في سلوقيا الواقعة في سفح جبل ميريا. وذلك أن الإلهين اللذين كانت سلوقيا تعيدها كاناريا للرعد هو زيوس كيرونيوس الصاعقة (والراجح أنه بلساميم "رب السماء" وزيوس كاسيوس، وهو حجر مخروطي أودع مزار مقدسا على جبل كاسيوس. المجاور، فكان سلوقيا بذلك قد تبنت العبادات القومية المحلية، كما اقتبست مدينة. "دورا" رسميا من بابل كلا من "أداد" ونانايا. وانتقل زيوس كاسيوس إلى مصر ومنها إلى ديلوس، ولكنه ظل في سلوقيا حجر، ولم يعمل إلى الصورة الإنسانية حتى عصرها دريان، وعلى نفس هذه الشاكلة معاش مولوخ العموني (**Maloch**) طوال تلك الحقبة ربا لمدينة ربات عمان (فيلادفيا)، ما أن مارنيس **Marnes** "مولانا" بعزة، ينبغي أن لا يفلت من ذاكرتنا، فانه كان أجرأ نصير للوثنية على المسيحية، وظل صامدة حتى دمي معبده المسمى از مار نيون و في ٤٠١. على أن أمتع الآلهة طرا هو الإله المحلي لمدينة دوليخى الصغيرة (دولوك) في كوماجيني، و كان يعيش د حين موطن الحديد»؛ وذلك أنه كان في الحقيقة تاباس (وبالحيتي أو الحوراني تشوب **Teschubl**) وهو رب ذلك الشعب العجيب المقهور المسمي الخالدين أو الخالبيين، وهم أعظم الحدادين في العالم غرب الصين. وقد حكموا يوما ما مملكة فان بأرمينية، ولكنهم تفرقوا ثللًا حينما وجدوا مقدار من الحديد يمكنهم من إقامة أكوارهم: وممارسة تهم المورث، وحدث فيها بعد أن بهم الصغير رب الجديد بمطرقته التي يرى فيها بعضهم صورة البلطة الحثية المزدوجة، كتب له أن ينتشر بين الناس في طول الإمبراطورية الرومانية وعرضها في أعقاب السيف الروماني – تحت اسم جوبيتر دوليخينوس أو الدوليخيني.

وقد أسلفنا عليك من قبل وصف دول العيد بآسيا الصغرى (الفصل الرابع) فكم كان عمر عبادة ربة الطبيعة الأناضولية وابنها وزوجها؟ – ذلك أمر لا يمكن معرفته، بيد أن الإغريق كان لديهم فكرة متوارثة مستمرة بأن "الفريجيين" هم أقدم جنس على سطح الأرض، وأن ديانتهم أقدم من

الديانة المصرية. والراجح أن العبادة الأناضولية الحقيقية كانت أقدم كثيرة من الفريجين أو الحثيين. ولكن ليس في الإمكان تحديد ذلك الشعب المفقود الذي ترجع إليه تلك العبادة ولا ماذا كانت الأسماء الأصلية للربة وابنها، وهي التي لعلها كانت تتعبر دائما بتغير المكان، وربما بدت «ماه قديمة قدمها سحيقا. وقد انطمست العبادة الأصلية وغطت عليها أو إمتزجت بها وخالطتها طبقة بعد طبقة من الآلة الغازية. والظاهر أن الحثيين اسهموا فيها برب للفلاحين، عزز قوة الإله. وأحضر الفريجيون وهم من أصل هندو أوربي إله السماء الخاص بهم، فراح في الهياكل التي غزاها يرفع من شأن الرب على حساب الربة ويتخذ لنفسه الاسم المبجل و زيوس». واستجلب الفرس "أنائيتس". فشدت من أزر الربة. وكانت عاهرات المعبد أيضًا معروفات في إقليم بابل، ولكن لا يمكن البت في أي المعيدين اقتبس الفكرة عن الآخر، ولا ما إذا كانا جميعًا يرجعان إلى عالم أبكر فيما يتعلق بتلك الممارسة. ومن المحقق أنه وإن أحضر الإغريق آلهتهم الخاصة إلى المدن، إلا أن كثيرا من الأسماء الإغريقية بالأناضول تسميات عصرية لآلهة محليين. وربما كانت العلاقة بين الربة الأناضولية وبين بلاد الإغريق قديمة قدمًا مفرطة. ولكن تلك الربة الأناضولية الأم في العهود الهلينستية، رغم أنها نسمت باسم ميتر، فقد تألفت جمعيات المبادها بأثينا ابتداء من القرن الرابع كما أنها تحت اسم "ما" أو "سيبيلى"، بلغت في النهاية مقدونيا وسوسا وروما. ومع أن آتيس (**Atis**) وأدونيس سرى – تغلغلهما في الأندية الهللنستية، فإن الديانة الأناضولية ظلت على الجملة مفروسة في أرض الأناضول. يد أنها كانت بلادها الأصلية قوية قوة هائلة وقد حافظت أرتميس على نفسها حتى في إفسوس، كدولة داخل الدولة حتى عهد ليسيماخوس. وقد جمعت إحصائيات قيمة عن ليديا، وهي أشد الولايات انطباعا بالطابع الهلينستى خارج نطاق المدن الإغريقية. ونوى بتلك الإحصاءات ١١٧ نقشا تشير كلها إلى محل إغريقية و٢٣٧ نقشًا تشير إلى عبادات آسيوية، منها ١١٢ تتصل بالربة الأناضولية وابنها؛ وتلك الأرقام توضح مبلغ الفشل العام الذي منيت به الروح الإغريقية في السيطرة على الأناضول. ولا كانت هذه النقوش تشمل العهد الروماني بأكمله، فإن الإحصاءات المتعلقة بالفترة الهللينستية وحدها نكون أبلغ في الدلالة على أنها ليست في مصلحتها.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد تاريخ "مين أسكاليوس" الذي كان هو الرب الأناضولي الذي جرن مطابقته وصهره في أغلب الظن مع الرب: البابلي القمر "سن **Sin**" وعندما ابتنى السلوقيون مدينة أنطاكية البيسيدية وجدوا أن من الضروري رعاية للمستوطنين من الأهالي أن يؤسس

على جبل كاراكويو بقرب المدينة هيكل جديد للرب " مين "، و قد أزيلت الأثرية في العهد الأخير عن "الطريق المقدس" و القاعة المخصصة لتكريس الأفراد في العقيدة. وتدل النقوش أن أنطاكية الإغريقية كانت هي الأخرى تعبد و من هو في القرن الأول. وأحل أوغسطس مندوبة من قبله محل الكاهن، وبذا. أصبح هو نفسه ربا الفلاحي الرب، و لكن "مين"، وإن كان يسكن إلى جوار مدينة هللينستية كبيرة، تدوم طويلا كل محاولة لإحلال آخر مكانه. ومن العجيب أن رمز مريديه – وهو هلال الرب القمر – وهو في صورة حذوة حصان يماثل تمامًا أقدم شكل حذوة حصان وجدت باسكتلندة، وربما ابتسمنا ساخرين من أولئك الذين يعلقون حذوة الحصان اجتلابًا للحظ، إذ نرى في ذلك مظهرة لآخر من يمارسون عبادة وثنية كان الشيب قد كال رأسها يوم ميلاد بلاد الإغريق.

وكان الجهد العظيم الذي أسهمت به بابل هو عبادة النجوم التي تسميها التنجيم. وهي عبادة ترجع أصولها إلى آماد بعيدة جدا من الماضي السحيق، ومع أنه حدث أثناء عصر السلوقيين أن كثيرا من الفلكيين البابليين رفضوا أن يمسو التنجيم، إلا أنه تطور في بابل حتى أصبح نظامًا مكتمل النمو: ذلك أن النجوم وفوق كل شي، الكواكب كانت فيها بدو نسير في قبة السماء وفق قوانين ثابتة. ونشأ مذهب بقول بالتقابل والتوافق – وأن السيارات من فوق والأرض من تحت شقيقان متكاملان، فما كان يحدث في العالم النجمي كان يعاد إخراجه على الأرض، وهذا هو الأمر الحيوي في الموضوع، بد أن حركات المال النجمي ثابحة، إذا كان هناك إذن نقا بل فكل ما يحدث على الأرض كان ثابتة كذلك، والحال بالمثل بالنسبة لأفعال الناس أيضا فهي ثابتة، وذلك لأن الإنسان إنما هو و كون مصفر و فهو الشقيق المكمل للعالم الكبير، وروحه شرارة من تلك النار السماوية التي توهى في صفحة النجوم. ومن هنا نشأ مذهب من أفظع المذاهب التي عذبت الإنسانية على مر الزمان، وهو المذهب البابلي المسمى "القضاء المحتوم **Heinaranene**" الذي كان يتحكم على النواء في النجوم والأرض والناس. فحركات هذه الكائنات جميعًا ثابتة بفضل قوة باقية لا تتبدل، وهي قوة لا علاقة لها بالأخلاق، قوة لا تحب ولا تكره، ولكنها تواظب على مسارها بطريقة لا هوادة فيها. مواظبة النجوم في مسارها عبر القبة الزرقاء.

وقد سمع الإغريق بالتنجيم حوالي ٤٠٠، فأظهر أفلاطون شيئا من العلم به في أواخر أيامه. و كان يودوكسوس وثيوفراستوس يعرفان أن الكلدان كانوا يحسبون الطوالع. وكان بيروسوس أول من اجتلب إلى بلاد الإغريق (حوالي ٢٨٠) المعرفة الحقنة بعبادة النجوم لدي البابليين، بيد أن إبانها لم

يظهر حقًا إلا في القرن الثاني، يوم أخذ العلم في الأفول، ويوم أخذ زحف روما الذي لم يكن من سبيل إلى مقاومته بدو تمامًا كأنما هو صورة والقضاء المحتوم على ظهر الأرض. وقد استطاع التنجيم في النهاية أن يتغلغل في كثير من الديانات ويصبغها بلونه، وربما كان في وسع الفلك أن يقضي عليه؛ ولكن التنجيم تمكن بدلا من ذلك من القضاء على الفلك عند نهاية القرن الثاني في (الفصل التاسع). ومُنذ ذلك التاريخ خلاله الجو حتى أيام كوبرنيق، وبلغ مصر أيضا إبان القرن الثاني قبل عام ١٥٠ يوم ظهرت تلك الكتابات التي تنسب اكتشاف التنجيم إلى ملاك مصري أسطوري هو نيخيسو و كاهنه بتوسريس. وعن طريق الإسكندرية الفتحة الأبواب لكل وافد و بوصف كونها مركزة ثانوية، انتشر التنجيم في كل أرجاء عالم البحر المتوسط.

ومن المحتمل أن تفاصيل عبادة النجوم ظلت تزداد إحكامه طوال الفترة الرومانية بأكملها. و كان هناك أكثر من نظام واحد، كانت الكواكب في أحدها أبرز ما يكون، على حين أن النظام الآخر كانت البارزة فيه هي أبراج الفلك وعلاماتها الاثنتا عشرة، التي تطورت بعصر وصارت العشرات الست والثلاثين، المقابلة للعقود [1] الست والثلاثين في السنة المصرية، ويحكمها ٣٦ شيطانًا لها أسماء شاذة، منها أختو من وأخناخو من وأسمان وأسرات وسيكان – الذين كانوا كذلك يحكمون في أجزاء الجسم السنة والثلاثين. بيد أن التنجيم القائم على الكواكب كانت له قوة أعظم، فالكواكب السبع وهي: الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل —كانت الميسرات للقضاء والقدر رمى مستقر عروش " حكام هذا العالم" الذين أصبحوا فيما بعد معادن روح الإنسان وشرًا عليها بصورة قاطعة. وخصصت للكواكب السبعة ألوانها الخاصة، المقابلة الطوابق السبعة للمعبد البابلي، خصصت لها معادنها الخاصة و نباتاتها و حيواناتها. وأصبحت حروف الحركة السبعة في الأبجدية الإغريقية علاماتها، ومن هنا نشأ ذلك الإصرار على استخدام رقم ٧ الذي لا يزال قائمة في أسبوعنا (الهلينستي)؛ والذي ظهر في أهل الكهف السبعة وفي عجائب الدنيا السبع، وأعمار الإنسان السبعة (التي اقتبسها شكسبير عن علم التنجيم)، وفي الثنيات السبع لوشاح إيزيس؛ وفي سلم ميثراس ذى السبع درجات، وفي المسرات السبع الصالح التي في كتابات الرؤى السالثية (Salathiei

---

[1] العقد يعادل عشرة أيام. (المترجم)

Apocalypse)[1] والملائكة والدنان السبعة التي نزل بها الوحي، وأبواب الجحيم السبعة، ثم السماء السابعة.

وعلامات أبراج الفلك كانت تتحكم في مصائر. شعوب ومدن منوعة وتشهد العملة بأن أنطاكية ونصيبين كانتا تحت سيطرة برج الحمل، والرها تحت سيطرة برج الدلو، وأن سنجارا وريسايانا تحت برج القوس: ولكن الذي كان بهم الناس هو أن مصائرهم كانت تابعة مُنذ الولادة بفضل نجومهم، كما أن النجم المقتدر كان يستطيع أن يتنبأ لهم بالمستقبل.عن طريق حسبانه لطوالعهم. واللغة الإنجليزية مليئة بمصطلح هذه العقيدة البالية، فا رحنا نقول عن الرجال أنهم طربون **lovial** (تشبهًا بأبي الآلهة **Jove -Jupiter**) أو خفافًا طائشين (**Mercurial**) نسبة لعطارد (**Marcury**) أو متجهمين نكداء (**Saturaine** متأثرين زحل (**Saturn**)، وما رحنا نتحدث عن الاقتران السعيد للحوادث، وتعتقد في الأرقام الشؤم، ومُحَمَّد نجمنا. رفي إبان القرن الأول كان و للقضاء والقدر والكفة الراجحة كفيصل في حياة الناس، وتمكن من إقصاء الحظ في (**Fortuite**). الأوسع رجة، وحدث فيها بعد – ولعل ذلك كان بتأثير النفوذ الرواقي، أن بعض الناي أخذوا يرحبون «بالقضاء والقدر، كهربه لهم من نزوات "الحظ" وخداعات الأمل، ولكن الأغلبية كانت ثرى في "القضاء والقدر **Fate**" وإنكارًا للحرية وطفيانًا مستحيلًا غير منقول كما أن الضغط على عقول الناس أوشك أن يصبح شيئا لا يطاق لولا ما قيضهم من وسائل معينة للفرار سنشير إليها من فورنا، ومن بموه الحظ، وإن كان هذا في أغلب الظن أمرا لا مفر منه أن الرواقيين الذين كان الكثيرون من كبار شراجهم من أصل أسيوي، قد عالجوا التنجيم وكانت نقطة الضعف في الذهب الرواق هي انعزاله عن الروح المبية. وكتب للتنجيم أن يكون الناحية المعتمة في ذلك المذهب، وقد قيل إن زينون تأثر بالتنجيم مُنذ البداية، ولاشك أن خريسبوس كان يعد الكلدان بحلفاء له، كما أن نواحي التشابه بين النظامين كانت جلية. إذ كان كل منها يرى أن العام وحدة متكاملة مؤلفة من كائنات عضوية ونجكها. قوة واحدة قادرة على كل شيء. وربطه بعضه مع بعض شي. بسميه الرواقيون التعاطف ويسميه البابليون المقابل، وكان كل منها يرى أن الأسنان عالم مصغر.وأن روحه نزارة من النار الأميرية؛ ومدير العالم وتجديده بشكل متطابق عند نهاية كل جقنية

---

(1) ضرب من الكتابات الدينية نشأ عند اليهود في العصر الهلينستي. وأقدم مثال له سفر دانيال في العهد القديم. واللافظ يشير بوجه خاص إلى رؤيا القديس يوحنا في العهد الجديد. وترك مع كتابات الرؤي في هدف واحد و هو استثارة الإيمان بالله أبان المحن بنور المستقبل بدلالة النصر والخلاص. ومى نؤكد أيضا أن انتصاره الله في نهاية العالم يسبقها الشرور والآلام.

عالية، كان شيئًا مشتركة بين الطرفين على نحو ما. ولكن كان هناك فرق حاسم: إن «القضاء والقدر و عند البابلين كان قوة لا علاقة لها بأية اعتبارات خلقية. على حين أن " المقدور **Destiny**" عند الرواقيين مثل " عناية **Proxidance** " خلفية، أخذت نفسها مُنذ البداية برعاية أخوال أنثات. وجافذ المذهب الرزاقي بشدة ليصوغ و القضاء والقدر» في صورة تشبه و العناية به، وكان ذلك شيئا غير منطقي. لولا أن حاجة الناس كانت عظيمة. ومن المحتمل أن من أسباب بقاء شهرة كتاب أرانوس السى و الظواهر **Phenomena** (الفصل الثامن)، يرجع إلى احتجاجه في ذلك الكتاب بأن... العناية في التي خلقت النجوم. وما يشرف مدرسة أبيقور. أنتها رفضت التنجيم، فانبرى كارنياديس لمهاجمته مثلما هاجم الرواق عاما. وأخذ يعرض هذا اللغز المحير: و لماذا كان الناس القدر عليهم الموت في أوقات مختلفة يموتون في نفس السفينة المحطمة ؟.. بيد أن التنجيم كتب له أن ينجو من مصاعب أتكي من هذه وأشد، نفلت بفضل نظرية نقول بالمؤثرات العامة التي غلبت على المؤثرات الخاصة. على أن الرواق العظيم باناتيوس الرودسى صديق برليبوس راسكيبيون نبذ فعلا من نظامه كلا من التنجيم والآلهة الشعبين. وكان من المهم أن المذهب الرواق الذي بلغ روما عن طريق اسكيبيون وأفراد.حلقته كان مذهب باناتيوس. با انطوى عليه من الروج التقلية وزعة خلفية قوية؛ ولذا فإن ما أخذ به روما عن الرواق كان قاصرة فقط على فلسفة الحلق.. والرجل الذي كان يحتمل أن يصنع أكثر مما فعله كارنياديس كان الفلكي الإغريقى هيبارخوس (الفصل التاسع)، فلو أنه استخدم مقدرته الرياضية الهائلة في إصلاح مذهب أرستار خوب في مركزية الشمس بدلا من عدمه، لأنقذ العالم من التنجيم عدة قرون، وذلك لأن مركزية. الشمس للعالم كان معناها لدى التنجيم (أو كان يجب أن يكون معناها) هو الموت، وحقيقة الأمر، أن كل ما عمله هو أنه قلب الأوضاع بالنسبة للأدوار التقليدية لكل من أوربا وآسيا، وعلى حين حدث على ضفة الخليج الفارسي أن سلوقوس تلميذ الكلدان (الفصل التاسع) كان يدافع عن نظرية مركزية الشمس للعالم، كان هيبارخوس يدافع عن العلاقة التي تربط بين الروح والنجوم. ولكن مها نكن مسئولية ميبارخوس، ان الرجل الذي بذل أكبر الجهد في تثبيت أقدام التنجيم رما ماثله بأوريا هو بوسيدونيوس خليفة بانائثيوس.

ويوسيدونيوس هذا من أمل أياميا بسوريا (١٣٥ – ٥١). وقد عمل برودس و شغل منصبة مدنية عالية هناك إلى حين، وهو بمثل آخر قوة عقلية عظيمة أنتجتها الثقافة الهلينستية غير متأثرة بروما، وكان عليه يشمل ميادين كثيرة. و كان شيشرون تلميذة له. وقد تسلط على النصف الأول

مـن القـرن الأول كمـا تسـلط برانوسـيز علـى نهايـة الثالـث. وكـان عملـه ملحوظـا مـؤرخ وجغـرافي و كـانبيهمن مـا يشـاهده، وهـو يكشـف الستر عـن نقـاط قوتـه وضعفه. ويظهـر فيـه عقـلا واسـع الأفـق رحب المجال ذا رغبة في المعرفة لا حد لها، بيد أنه حرم كل قدرة على النقد و كل روح علمية. أما فلسفته فقد خلط فيها بين شيء من الأفلاطونية والرواقية، على أنه خلط أشياء أكثر كثيرا من ذلك، إن أهـم نشـاطه الـديني الفلسـفي مـن أعسـر الأمـور، ولم يبـق مـن كتاباتـه شـي.، كمـا أنـه لا ينسـب إليـه بصوره قاطعة إلا الشيء القليل من كتلة المواد الموجودة عند من جاء بعده من الكتاب وقد جرت العادة بنسبة كل شيء تتجلى فيه ميول معينة إلى اسم پوسيدونيوس ومصوره في صورة صاحب العقل المزدوج، الـذي يقـف بـين الشـرق والغـرب وينتقـل منهمـا جميعـا، وفي صـورة الفيلسـوف والعـالم والمنجـم والمتصـوف الشـرقي إلى غـير ذلـك مـن تعـوت، وأنـه مسـتجدت نظـام فلسـفى عظـيم جمـع بـين جميـع نزعـات الزمـان المتداولـة، العلـم منهـا والخرافـة، وعبـادة النجـوم والعبـادة الشـعبية، والسـماء والأرض، والناس والآلهة والشياطين. فهو فرد القت فيه الأشياء جميعها ومنه انطلقت لتؤثر في المستقبل. فهل هذا هو بوسيدونيوس حقة، أم هو ليس إلا عنوانا على الروح السائدة في القرن الأول؛ وفي الحق إن ظلالا كثيرة تحيط به حتى أصبح من ألامعان في النوم أن نستطيع التعرف على كثير من شأنه، على أن ذلك الخليط الركب من العوامل والمؤثرات الذي كثيرا ما يطلق عليه اسم پوسيدونيوس ربما كان من المسـير تمييـزه واستخلاصـه مـن الشـوائب والإضـافات. ومـن المحقـق أنـه رفـع زيـوس فـوق " المقـدور Destiny " بـدلا مـن اعتبارهـا شـيعة واحـدة و معـنى هـذا أن مالـه كـان عالمـا دينيـة، بحكـه و العقـل والإرادة. و ليس من المستبعد أنه كان يعمل على أساس خطة مرسومة، كان يريد أن يثبت وجود العلاقة الوثيقة المتبادلة بين الأرض والماء. وقد كانت الفلسفة والعلم حتى آنذاك يسيران في طريقين مفترقين، أما هو يعمل على المزج بينهما، ولكن على أساس أن يجعل العلم خادمة للفلسفة. وذلك لأنه ليس حقيقية أن يقال إنه كان يني في مضار العلم أن يكتشف سبب الأشياء، بل كان يبغي أن يجد فيه سببه هو الذي يطل به الأشياء. وهو العلاقة بين الأرض والسماء. وقد عني بأن يظهر أن القمر هو المتسبب في المد والجزر، وأن المناخ يور في الشعوب، وأن الشمس تصبغ طاووس الهند أو تنضج الزبرجد في مناجم بلاد العرب، وذلك لأن هذه الأشياء جميعًا كانت تخدم نظريته، وتؤيد مذهبه عن القوة الحيوية التي كانت السماء تؤثر بها في الأرض والتي كانت تنبض في العالم كله. وكان المقصود من مجموعته الهائلة من الحقائق والمعلومات الرامية إلى توضيح التغيرات التي تم بسطح الأرض، إثبات التـوازي بـين الأرض والإنسـان، والتـوازي بـين النـار ولاء اللـذين يجـريان في عـروق الأرض وبـين الهـواء

والدم اللذين بسريان في عروق الإنسان، فلر سددت العراق في كل منهما لقاسى كالاها نفس الآلام – البركان ينفجر، وعرق الإنسان ينفصد.

ولكن ما الذي دخل بعد هذا إلى نظامه الكوني علاوة على السماء والأرض، وزيوس والإنسان ؟ وإنا لنعرف أن الآلة دخلته فعلا، أما التنجيم فدخوله محقق إلى حد ما ولقد كان ينفي عن نفسه تهمة الخرافات؛ وكان إله القائم على وحدة الوجود والداخل في كل جزء من أجزاء الكون، هو الطبيعة، فكل ما هو موجود نحو في الطبيعة كذلك. والشكل هو عدد الأشياء التي كان يسلم بوجودها. و كان يؤمن بالعراة كما أنه كتب عنها، ذلك أن العرافة موجودة في والطبيعة، و كتب عن الشياطين. وهناك من كتاباته ما يكفي لإظهارنا على أنه كان يعتقد فعلا أن الروح كانت شيطانا وتسكن المواد الأعلى، وأن الكائنات الخارق للطبيعة تتحدث إلى الناس في الأحلام. وإذن ان نظامه الخاص، على علوه من بعض النواحي، مثل أفكاره عن تداعي الكون وترابطه تحت حكم و عناية و إلهية، لم يعد كثيرا عما أسميناه روح الزمان، وكانت فكرة والكون لديه تتسع للشيء الكثير جدًا، وذلك لأنه يميز بين ما هو موجود و بين ما يعتقد الناس أنه موجود، فتح الباب لعلم الشياطين [1] والكثير غيره. فأما أنه لم يدخل الباب المفتوح مع الجمهور فأمه لا يهم كثيرة، أما ما كان يرتابه الجمهور فهو أن وجوده معهم كان يجعل إجراء أنهم أكثر لياقة واحتراما وذلك أنه إذا ظهر الشيطان في الأحلام، فلماذا لا يظهر في بلورة، وإذا ظهر في بلورة... وهنا يبدأ منزلق لا نهاية له ولا إمكان فيه لتوقف. فكل عاشق مهجور أو تاجر مضارب استأجر مصريا شاردة ليستنزل له من السماء شيطان بيضة طائر الإبيس (أي منجل) وقطعة من الثوم – وما ادعى أنه إنما يطبق تعاليم بوسيدونيوسن العظيم ويصلها إلى نتيجتها المنطقية، ونقل الآن إلى الطرق والأساليب التي كان الإنسان يستطيع الفرار بها من القضاء والقدره. فمنها ما كان مصدره السماء نفسها، فهناك ظواهر معينة بالمذنبات مثلا لم يكن في الإمكان تحديد نظام ثابت لها فكأنه كانت هناك أشياء أخرى تعمل عملها بجانب الدوران الثابت للأجرام. السماو. وفي مقابل ذلك أدخل التنجيم ونفسه عناصر كثيرة غير منطقية تماما، وقد استطاع أن يضم الحظ إليه، وما لبث أن أخرج من جعبته مذهب و الفرص، أي الإقترابات المحظوظة للكواكب التي قد ينتهزها الجسور. بيد أنه كانت هناك على الجلة ثلاثة خطوط رئيسية حول بها الإنسان الفرار من نجومه ر كلها تعتمد على الاعتقاد بأن إلها ما كان أقوى حقا من ذلك. والقضاء

([1]) علم الشياطين Demonology هر دراسة الشياطين وتصرفاتها. (المترجم)

والقدر و الذي يتحكم في الآلهة، وذلك الإله هو العقل البشري. وقد أخذ كبدأ به على الدوام، يتفاعل من أجل نفسه ضد تقل «الجبرية، القاهر؛ ويعلن أنه لا ينبغي أن يكون هناك شيء من هذا القيل. و كان سلاحه اعتقاد البشر اعتقاد راسخة. لا يمكن استئصاله بوجود إله مساعد دوما عليهم إلا أن يبحثوا عنه ويجدوه. والخطوط الثلاثة المذكورة في: المعرفة الرومانية والسحر والديانات الشرقية ذات الأسرار الخفية. أما المعرفة الرومانية في الميل بكنه الأشياء وليست هي المعرفة التي تتوافر للفيلسوف. إذ جدت مرة أن أحد الأرباب كشف مباشرة عن مفتاح سر الكون لروح مختارة. فلو أن إنسانا وفق إلى العثور على هذه المعرفة الرومانية التي أخفيت عن غيره من الناس، لأصبح بمأمن حصين من "القضاء والقدر". وبذلك يصل إلى النجوم بطرق مختصرة: أجل إنها قد تعذب جسده. ولكن روحه بعيدة عن منالها، وذلك لأن العقل كان فوقه "القضاء" وكان أن أخرجت المعرفة الروحانية (**Gnosis**) بعض المبادئ الرفيعة. ومع أن أصول هذه المعرفة وجذورها ترجع إلى العصر الهلينستي إلا أن يومها وموعدها لم يحن بعد، وغني عن البيان أن المذاهب الكبيرة أجمع متأخرة بالضرورة عن الحقبة المسيحية.

ولم يحدث حتى اليوم أن عصرًا أو قطرة خلا يوما من السحر. على أن طوفانا جديدا منه انصب في القرن الثاني من آسيا إلى العالم الإغريق في أعقاب التنجيم. إن جميع أنهار السحر وموارده: الأشورية عنها. والبابلية والأناضولية والفارسية واليهودية كانت تصب في مصر كأنها تجتمع في خزان عام. ثم تخرج من مصر لتسيل الأرض. وكانت الفكرة الأساسية فيه هي أنه باستخدام الوسائل الصحيحة يمكن إجبار يد. الآلة على الجمال. وإليكم بص رصفة لإرغام القمر[1] "لابد أن تفعل ذلك سواء أحببت أم لم تحب " ويرى البعض أن السحر أشبه ما يكون بالرغبة القيمة لدى اليونان في التعطش. إلى الحرية، وقد بعثت مرة أخرى في نطاق جديد. فأصبح في الإمكان إرغام. الرب أو الشيطان على تغيير قضائه فيك.. بيد أنه أي النخر بالنسبة لمائة. الناس الذين لم يكن معنى عبادة النجوم عندها نظامًا ضخما يحتم على الصدور كالكابوس، بل هو أشبه الأشياء في نصورها بشخص كلداني متجول حمل قوائم طوالعه، لم يكن ذلك السحر إلا مجرد طريق مختصر للحصول على شيء مادى مطلوب. وهناك كثير من برديات السحر، جاء بها التعازي والمراسم.. المناسبة لكل نوع من أنواع الفوائد والمنافع الشخصية، وإنها لتمنح النجاح والتوفيق في الحب أر في جمع المال، وتشفى

(1) باعتبار القمر أحد الآلهة. (المترجم)

الأمراض و تعزم على الشياطين للاستعاذة منها وتقضي على العدو. ومن بين البرديات رق عامة شاملة تصلح لأي غرض. وكانت جميع أنواع المواد نستخدم في أغراض السحر: من البصلة المتواضعة الحقيرة إلى التعزيمة الجادة، التي قلما استخدمها الناس في أغلب الظن والتي تبدأ وخذ زمندة غالية الثمن واحفر عليها صورة الخنفساء وطبيعي أن طير الإبيس المقدس (أي منجل) والقرد الذي اكتشف جثة أرز بريس، كانا يلعبان دوراكبيرة، والجني الذي يستدعي قد يظهر بطرائق كثيرة. فالساحر يستطيع رؤيته نيابة عنك في الماء أو في المداد أو في البلور، حين بلبن الإمام دورة جسيما. بيد أنه كان في المستطاع أيضا إظهاره بشخصه، إن كنت مزودة بما يلزم، صرت على الفور سيده المتحكم فيه، ولكنه قد يضرك فيما بعد وفضلا عن الرق الراقية فهناك وصفات لصرف الجني مرة ثانية وعودته في هدوء إلى مكانه الأصلي. وفي الناحية التي كان فيها سحر القرون الوسطى على قدر محزن من الضعف. والمادة أنك تستدعى أحد الجن أو الأرواح من طبقات الهواء الأوسط، بيد أن أحد الأرباب العظام يمكن استدعاؤه أيضا. كما حدث في كلمة الإبتهال الذائعة الصيت الخاصة بتيفون (**Typhon**) وخير طريقة التحكم في أحد الجن هي النطق باسمه الحقير، ولكن يحتمل أنه يعمد إلى إخفائه في شيء من العناية والحرص. وللتأكد من ذلك كان عليك أن ننطق عددا ضخمة من الأسماء والصيغ الفاسدة المستقاة من كل لغة آسيا مع سلسلة طويلة من الكلمات المصطنعة التي لا معنى لها. ويستدعي تفون بحق (الاسم في المائة حرف). ولم يكن السحرة اليهود يتورعون عن استخدام اسم يهوه؛ كما أن أقواها جميعا، إن كان في وسع أحد أن يتعلمه هو ذلك الاسم الذي لا يتصور والذي كان سلمان قد ختم به على قماقم من ناس حبس فيها ١٩.٩٩٩ جنيا من حزب الشيطان. والواقع أن بعض الوصفات لا تحتوى إلا على أسماء، وكان اليهود الاسينيون[١] (**Essenes**) يقسمون أغلظ الأيمان أن لا يبوحوا بأسماء الملائكة، ومعنى ذلك أنهم كانوا يستخدمون تلك الاسماء في أغراض السحر. وأوشك السحر أن يصبح نظامًا دينيًا.

وكان الكثيرون يؤمنون به إعانة خالصة. وتحتوي البرديات صلوات لتخليص المرء من نجومه وكانت السحر صلات بأشكال المعرفة الرومانية السفلى، وأنت تستطيع أن تجبر الالة أن بطلعك على ما لديه من خفايا وأسرار. بيد أن المعرفة الرومانية في أسمى مراتها كانت تنبذ السحر. وتقول

(١) الإسينيون: هيئة من الزهاد اليهود ظهرت بنعلين قبل المسيحية. وكانوا يمارسون المشاركة في السلع. (المترجم)

إحدى الكتابات الهرمسية [١]. إنه مجوز إجبار القضاء والقدر.

بيد أن الشيء الذي فاق السحر كثيرا في أهميته هو الديانات الهللينستية ذات الأسرار الخفية. السحر قد يغير قضاء القدر لك، ولكن الدخول في العقيدة والاطلاع على أسرارها برفعك فوق فلك و القضاء والقدر، تماما، الرب يستطيع أن يعنى بشئونه بل لا بد له من فعل ذلك، ومع أن النجوم قد تنفذ إرادتها في جسمك، إلا أن روحك حتى في هذه الحياة بعيدة عن مثالة أيدها: ربنا ليرتفع بعد الموت فوق أفلاكها إلى فلك الأقداس وتعيش مع الآلهة، وبذلك تكون أنت في الحقيقة ناجية من كل سوه. والأساس العام الديانات ذات الأسرار الخفية هو انك تطلب هذا الخلاص (**soteria**) بالاندماج والاتحاد الشخصي مع إله مخلص مات هو نفسه و بعث من جديد، أو كما نقول العبارة الأوربية المعروفة: لقد كففت عن أن تكون عابدًا وحاملًا لعصاك وأصبحت متقمصا لإلة الخمر باخوس و كنت كالرب نفسه. لقد كانت. الأسرار الخفية ظاهرة قديمة ببلاد الإغريق، أما الشيء الجديد فهو أنها راقت في أعين الناس على نطاق واسع على أثر سقوط الديانة الإغريقية. وما اكثر نهم الدجل والشهوانية التي كانت نكال لأتباعها، ولكن لا يجوز أن يحكم على الفقيدة بالشريرين من الرجال الذين يوجدون بين من يعتنقونها، وكانت هذه الديانات تولد في نفوس الآملين المتطلعين إحساسًا جديدًا بالخطيئة وفكرة جديدة من القداسة. وليس ثمة ريب في أن منسك القبول والكشف عن الأسرار الخفية وهو الذي يبلغ ذروته في معرفتك بأنك نام ملاك الخلاص، كان ينطوي على تجربة زاخرة بالعواطف الجياشة. وقد أخذ شعور الناس. الديني يعمق مُنذ القرن الثاني قاتلاه. و كانت هنالك ديانات كثيرة ذات أسرار خفية، كل منها تدعي استشارها قواعد القبول الأصلية وتزعم لنفسها القوة الشاملة، و كل منها تدعي أن كل ما تفعله الأخريات هو مجرد عبادة ربها نحن أسماء أخرى. و أصرت الأشكال القديمة على البقاء، وأتيح الظهور والرواج الكبير العبادات معينة من الأورفية بما فيها من نشوة(**Ecstasy**) دينية ومن فكرات عن النقاء والطهارة وعن العداء بين الجسد والروح، والراجح أن التراتيل الأوربية تشكلت في بيرجامة. ولكن ما ينبغي ملاحظته هنا هو الأشكال الجديدة التي دخلت العالم الإغريقي بسبب احتلال اليونان للأناضول ومصر.

وقد تمكن المرحوم السير و. رامساي نقلا عن مصادر منوعة من إعادة تجميع الشكل السوى لعقائد الحماية الأناضولية، على ما كانت تمارس في كاراكويو (الفصل العاشر). بيد أن العلماء على

---

(١) الهرسى Hermetic المتنب بأي طريقه إلى المعدات السائدة في العصور الوسطى تحت اسم مرمى الفك السفلية. (المترجم)

خلاف. بالغ حول قيمة ذلك الشكل. ولو غضضنا النظر عن كاراكويو ونظرنا في بعض تلك الأسرار لوجدنا المريد المبتدئ، فيما يشهد وفاة الرب وبعثه، ويسمع الكاهن وهو ينطق برسالة العزاء: "طيبوا نفسًا يا أيها الداخلون في أسرار العقيدة**Myatae** ان الرب قد تنم له الخلاص، وهكذا سنجد نحن اغلام بعد متاعبتاه.:. وكانت بعض عقائد الخفايا الأخرى تحتوى تمثيلا صوفية الزواج المقدس بين الرب والربة، في حين أنه في بعضها الآخر لا بد أن منسك الدخول في أسرار العقيدة كان – قياسا على مراسم إيزيس (الواردة بعد) –.ختم الاعتراف بأن المريد الجديد. كان هو نفسه ربا. وقد راح رامساى يوكد ظاهرة الزواج المقدس في هذه العقائد والطقوس السرية ذاهبا إلى أنها تمثل نمر الأخلاق والحضارة وبلوغ القانون متزلة أرقى، وذلك كنقيض لظاهرة عاهرات المعبد. وقد لي هذا الرأي معارضة على أساس أن الشيوع في النساء ليس له سند تاريخى، ولكن ليس من الضروري أن يوجد الشيء حتى يكون. له تأثير حائل –كالعقد الاجتماعي (**Contrat Social**) مثلا، والموضوع. ببساطة هو: هل كان الناس يظنون أن مثل ذلك العقد كان موجودة بين: ظهرانيهم أو عدد من سلفوهم والظاهر أنهم كانوا يظنون ذلك فعلا. وكان الإغريق ينسبون الفسوق الجنسي إلى الأثينيين الأوائل وإلى المعاصرين لهم من المتوحشين، كما فعل المصريون إذ نسبوا ذلك إلى البشرية كافة في. البداية.

ولكن الديانة المصرية كانت أم الديانات ذات الخفايا والأسرار التي غزت العالم الإيجى. وقد كشف السرابيوم المقام في دبلوس أن الثالوث الذي قدر. له أن يؤثر في الهللينستيين لم يكن قالون إنزيس و شرايس وابنهما حوروس أو حاربو قراطيس، بل ثالوث إيزيس وسرابيس وأنوبيس، وموالاة الذي كان يقتاد الأرواح إلى دار الحياة الخالدة. و كانت تلك الديانة تؤكد مُنذ البداية أن هبتها الكبرى للناس هي الخلود، وإن أوضحت إيزيس أيضا بكل. جلاء أنها فوق القضاء، وأن القضاء (**Fate**) لم يصبح له أدنى سلطان على أولئك الذين يلجأون إليها. ولا بد أنه كان يبدو الجميع إبان القرن الأول أنه إذا كان الناس أن يحصلوا على ديانة عالمية شاملة، فهذه في تلك الديانة دون غيرها. وكان الناس يشخصون بأبصارهم من كل مكان إلى سرابيس إيزيس بوصفهما المخلصين. وقد انتشرت عبادتها في طول البلاد وعرضها ويبلغ من قوة تخلخلها في الأنفس أن إيزيس وحدها دون سائر الآلهة الأجنبية نجحت في الدخول إلى «أوروك البابلية، على حين أن سراميس بلغ الهند. وكان الناس يظنون أن سرابيس هو الإله الوحيد الذي وفق إنباء عصرى إلى إيداعه. وكان المصريون بمنفيس يعبدون أوزيريس في هيئته كابيس تحت اسم أوزيريس حالي، وهو عند الإغريق أرزورايس: وقد جمع

بطلميوس الأول أو من حوله من خاصة، بين هذا الإله ريين عناصر إغريقية، وأنشأ من ذلك المزج ما كان في الواقع وبا جديدة، هو سر ايس. ولعل. المقصود منه هو توحيد الإغريق والمصريين في عقيدة واحدة. ولكن المصريين أبوا أن يقبلوه ربا. ومع أنه أحفظ بخصائص أوزيرين المميزة و بازينن زوجة له، إلا أنه أصبح رب الإسكندرية الأغر، الذي أصبح تمثال فلله العظيم برأسه المموهة بالذهب وعينيه المرضعتين بالجواهر واللتين تلمعان في ظلمة مقصورته المقدسة، – من أعظم أجاد تلك المدينة. وكان سابيس وازين بمثلهما على الأرض الزوجان البطلميان، وكان كل من زيوس وهاديس وأسكلبيوس ومردوخ بسام بدوره بعناصر في طيعة سرابين:. وقد أصبح الحاكم العام الشامل، الذي بدوره عباده حسنها تهوى نفوسهم.

وذاعت في القرن الثالث دعاية قوية لمصلحة سرابيس في الدين الواقعة في نطاق مصر، وانتشرت عبادته سيما في أرجاء العالم الإيجي، أنه كان أحيانا محل بمعبد قديم لايزيس كما حدث في إريتريا، وغالبا ما كانت عبادتها تمهيدا المباد ته هو مثلما حدث بأثينا. وكانت عبادته في البداية كعبادة إيزيس قاصرة على جمعيات خاصة، ولكنها بعد ذلك غالبا ما أصبحت ديانة رسميًا.٦ حدث بأثينا وديمتريا‌س وتناجرا وليندوس وديونيسوبوليس وخير ونيا ونسالونيكا وديلوسن. وقد جلبه إلى ديلوس. مثلا كاهن مصري اسمه أبولونيوس قبل ٣٠٠، وبعد أن عاش الرب في بعض الدور مدة جيلين.شاد له حفيد أبولونيوس بيتا مستقلا، وفي ١٦٦ كان له ثلاثة معابد، وفي تلك السنة (أو قبلها) استولت المدينة على أحدها، ولم يلبث هذا السرابيوم الرسمي حتى ومع توسيما كبيرا في بعله. ويقال إن مصر كان بها ٤٢ معبدا له (وربما انطوى ذلله على شي. من المبالغة)، بيد أن المقرن الرئيسيين له كانا معبدى الإسكندرية ومنفيس. ويقال إن بطلميوس الأول أحضر من أنيتا نيونيوس اليومولى **Eumolpid Timotheus** (أي المرتل) يقع أسراره الخفية على فرار الأسرار الأليوسينية. وغالبا ما تشير البرديات إلى نقر خفي من الناس يسمون الكانوخيون (**Catoehoi**)، وهؤلاء كانوا يعيشون في حرم معبد. السرابيوم منفيس. وتفسير الأستاذ فيلكن لهم بأنهم كانوا عبادة تانتين من وهبوا أنفسهم للرب سرابيس، لا يكاد يفسر لنا السبب في أنهم لم يكونوا يستطيعون مغادرة المكان متى شاءوا، وعندي أن رأي الأستاذ فوس (**Woess**) ربما كان أرجع: وهو أنهم كانوا لاجئين اعتصموا بحمى المعبد وأصبحوا - غير قادرين على مغادرة (خشية فارات ودماء يطالبون بها أو ما إلى ذلك من أسباب)، ولذا، أنهم كانوا يلجأون أحيانا تجنبا لطرد إلى تكريس أنفسهم لخدمة الرب (وهو شيء

معروف في مواطن أخرى)، بل حتى يلتمسون أن يعتنقوا تلك العقيدة. وهناك تفسير أحدث من هذا ولعله أيضا أفضل منه هو أن السلطات المدنية ربما كانت تحول بينهم وبين مغادرة المعبد مثلما صارت تفعل فما بعد مع الرهبان. وقد اعتبر العالم تدمير السرابيوم الإسكندرى و مثاله في ٩١ الميلاد على يد الأبقن ثيوفيلوسن، – اعتبره آية وعنوانا على انتصار المسيحية انتصارا حاسما.

ومهما يكن شأو الأهمية التي بلغها سيرابيس، فإنه لم بكن يضارع زوجته.. وعلى حين لم يكن يبتهل إليه البتة بدونها فإنها غالبا ما كانت يبتهل إليها بمفردها. والراجح أن إيزيس صاحبة الآن الأسماء كانت أعظم الآلهة الهلينستية طرأ. وقد أوشك الناس أن يطابقوا بينها وبين كل ربة وكل امرأة مؤلهة في العالم المعروف، وكانت في الحقيقة الواحدة التي كن جيما يخذنها طراز) بحتذينه على صورة ما ناقصة. إنها سيدة الكل، المطلة على كل شيء. والقوية القاهرة مليكة العالم المأهول، وهي نجمة البحر وتاج الحياة وشريعة القانون والمخلصة المنقذة، فيما تتمثل الرشاقة والحال، والحظ والوفرة، وفي الحقي والحكمة والحب. والحضارة بأجمعها هبتها وتحت تصرفها. تماثيلها تصورها الصورة الأم الشابة ذات الثياب المحتشمة والملامح الرقيقة الحيرة، التوجه رأسها بزهرات اللوتس الزرقاء أو الهلال. وهي تحمل أحيانا بين ذراعيها طفلها حوروس. و كانت الأضحيات نقدم إليها في كل يوم، مثلا تقدم الأتارباتيس في بامبيكي ولأنانيس في إكباتانا. على أن تمناها نفسه لم يكن يعرض لعابديها. إلا في الأعياد الكبيرة، وقد ألبست الثياب الفاخرة، وتلالات بالجواهر،. وذلك لأن كهنتها التشحين بالسواد كانوا يفهمون كل فن من فنون المراسم التي تستهوى قلوب الناس. وكانت حفلة توفير المسماة إيسيا (**Isia**) تمثل آلام تعذيب أوزيريس: مصرعه على يد تيفون وبحث إيزيس الصادق عن جسده، و بعثه الألم. وأعظم من هذا احتفالات الربيع بإنزال سفينتها إلى البحر، يوم الاحتفال بافتتاح الملاحة ريوم كان الركب الفاخر الذي وصفه. أبوليوس يتخذ طريقه من المميز إلى شواطىء البحر لإنزال السفينة الرمية الخاصة بالربة. وكانت طقوس عبادتها تعد ضربة من القتال أو الجهاد؛ وكان مريدورها جنود جيشها. وما كان الانضواء في طقوسها بالأمر الهين.

وربما خدم المريد المبتدى، عدة سنوات كثيرة قبل أن لا تدعوه و الربة أي و تقبله، وكان الدخول إلى مقصورتها المقدسة بغير دعوة معناه الموت. وكان. الموت أيضا جزاء الدخول إليها بعد الاستدعاء وبعد إلى العمليات اللازمة من رائد القبول في سلك الأسرار المقدسة (**Myatagogue**): و لكنه كان موتا الحياة المريد المبتدى القديمة ومولدا لحياة جديدة في حياة الخلاص. وفي الأحتفال نفسه كان

الراغب في القبول يطر أولا بالماء، ثم يتجول في الأماكن المظلمة للعالم السفلى، كما فعل أوزريريس بين وفاته وبعثه – حيث يتعرض لاختبارات معينة يحتمل أن "يموت" أثناءها بالفعل " ويدفن ": والراجح أن الايحاء يلعب أثناء ذلك دورا جسمها، وكان يخرج في النهاية إلى فيض وهاج من ساطع الضياء، يخرج وعليه ثوب قدسى ويده مشعل مني. فيعرض على المجتمعين للصلاة بوصفه ربا هو تقسمه، وتكون روحه مُنذ تلك الساعة حرة طليقة من سلطان و القضاء، و من الموت أيضا.

بيد أن عبادة إيزيس كانت تنطوي على ما هو أكبر من المراسم والشكليات أو حتى من الأسرار المقدسة نفسها، على ما هذين الأمرين من أهمية.. إن كانت إيزيس ظاهرة لم تظهر في البحر المتوسط إبان العصور التاريخية، لكنها وقد ظهرت، لم تغادره بعد ذلك أبدًا. إنها كانت دبة النساء حيث كان نصف. البشرية في أشد الحاجة إلى صديق يلوذ به بمحكمة المياه. بينما كانت أثينا رية و الرجل، على نحو فريد. ولئن استنجدت النساء بمستغيثات بارثيسن أثناء الولادة والوضع، لقد كان ذلك إلى حد كبير بسبب عدم وجود من عداها.: وكانت المرأة الكرة العادية نرى أن أهم حقائق الحياة أنها زوجة وأم، و تكن هناك أدنى رابطة تربطها بمقاتلة عذراء ترعى الفنون، ولا بصائدة عذراء باردة [١] كقمرها تماما، ولا أدنى علاقة برية الخصب لمصر قديم سيطر فيه نظام الأمومة، وهي أقل ارتباطا بأفروديت وإن كان من المحقق أن الناس يستطيعون بث الروحانية في أي شيء. أما الآن فقد أصبح المرأة صديقة، هي أعظم من هؤلاء جميعا، صديقة كانت زوجة وأما مثل المرأة البشرية تماما، صديقة قاست مثلما قد تقاسيمى، صديقة نفهم وندرك. والحق إن إيزيس نفسها لا ندع في الأمر غبارا من شك، نهى ومجد السماء، وفي التي تمنحهن و القوة العادلة لقوة الرجال و: وإليكم نص عقيدتها وهي ترنيمة إيزيس التي عثر عليها في إيوس (**los**):

" إني أنا إيزيس.. أنا بن تسميها النساء الربة. وقد جرت إرادتي بأن يحب الرجال النساء، وأنا التي ألفت بين قلبي الزوج والزوجة، وادعت عقد الزواج. وأنا التي أمرت بأن يحمل النساء الأطفال، وأن يحب الأطفال والديهم.. بهذه الصفة الممتازة اكتسحت ايزيس حوض البحر المتوسط. حتي إذا انتهى الأمر بنصر المسيحية وخلع زيوس وابولون وسرايس والآلهة النجوم عن عروشهم، كانت إيزيس وحدها هي التي نجمتن بصورة ما– من قائلة ذلك السقوط الشامل، وقد أدخلت عبادة العذراء قبل

---

(١) يشير الكاتب جنا إلى وظيفتي أثينا وأرعب في أساطير اليونان حيث كانت الأولى رية الملكية والفنون والحرف والحرب، وكانت النائبة ربة العفة والصيادة العذراء التي ترعى مولد الأطفال. (المترجم)

نهب السرابيوم، وانتقل القانون من عبادة إيزيس في هدوء إلى عبادة أم أخرى في أم المسيح. ويمكن الاستدلال على مبلغ ذلك الهدوء من أنه يقال إن تماثيل عديدة معروف أنها لها، أصبحت تستخدم فيما بعد لتمثل السيدة مريم العذراء.

وأهم ما يشوقنا في الديانات الهلينستية أنها تصور ذلك العالم الذي قامت بين أكنافه المسيحية. ان ذلك العالم زود الناس بشيء أكثر من الوسط اللازم للحضارة المشتركة التي قدر المسيحية أن تنتشر بين أحضانها، بل هو قد هد لما الطريق إلى حد ما. لقد كان الناس يلتمسون تلك الوحدة التي لا بد أنها تكمن وراء مختلف الآلهة وعقائدهم، وذلك على طريقة الإسكندر حين دعا جميع الناس يوما أبناء الأب واحد. وذلك بينما كانت فورة الأضطرابات العظيمة التي أحدثتها الحروب الأهلية الرومانية قد زادت كثيرا من رغبة الناسى.. الشديدة أصلا في الحصول على مخلص، كان الكثيرون منهم يتطلعون إليه فعلا ارج نطاق البشرية، ومع أن الهلينستية قد زودت الناس بالشوق ودوافعه، بل لعلها أعدت بعضهم بشعور مرهف من النقاء (وإن يكن نقاء من حيث المراسم.. فقط) ومن الإيمان، إلا أنه قدر أن يكون هناك شينان حيوان في الديانة الجديدة لم يكونا موجودين في الهلينستية، بغض النظر تماما عن شخص "المؤسس" الذي تلمس الهلينستية روحه، وقديما صرح أفلاطون أن جميع الأرواح.. خالدة، وأدركت قلة من اليهود نفس هذه الفكرة العامة، على حين أن الرواقيين كانوا يمنحون أرواح التحلين بالفضيلة خلودة محدودة ينتهي بنهاية... عمر العالم، بيد أن الهللنستية عامة كانت ترى أن الخلود لم يكتب إلا لعدد معين من المحسنين البشرية أو لقلة من متى بعض عقائد الخفايا، فهو لم يكن إذن... الكافية من الناس، كما شهد بذلك نقوش قبورهم، الأمر الذي يؤسف له حقا. ولم تكن واحدة من العقائد الهلينستية قائمة على حب الإنسانية. ولم نكن لواحدة منها رسالة للفقير أو البائس وصاحب إلا خور والآثم. وكان الذهب الرواق أقربها إلى ذلك، فإنه أعاد النظر فعلا في تقييم بعض الفم الدنيوية، وأثار زينون – على الأقل – السخط عليه عندما أبي أن ينبذ الفقراء والقذرين الذين كانوا يأتون إليه، ولكن الفلسفة الرواقية لم يكن بها موضع الحب، كما أنها قلما نزلت لتلتقي بمقاسات العالم والتخير أرقاء النجم أنهم لو فكررا تفكيراً صحيحًا لشعروا بلذة السعادة. فالكادحون المتحملون لفادح الأثقال كتب لهم أن يرحبوا بأمل يختلف عن أي أمل آخر نستطيع الهللينستية تقديمه.

الفهرس